اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة



التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الأول

الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ ــ ١٩٩٢ م
مطبعة المصحف الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

يسر الأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية ، أن تقدم لقراء الثقافة الإسلامية ، كتاب : (التفسير الوسيط للقرآن الكريم) وهو ثمرة توصية لمس فيها المؤتمر الرابع للمجمع ، حاجة المسلمين إلى وضع تفسير وسيط للقرآن الكريم ، فى أسلوب ميسر : يسهل للقارىء الوصول إلى معانيه .

ولقد سارع المجمع – إثر صدور هذه التوصية – إلى العمل على تنفيذها ، مدركا خطورة الموضوع الذى يتصدى له ، مستجيبا للهفة المسلمين إلى تفسير للقرآن الكريم : ييسر لهم الرجوع إليه – باعتباره أساس وجودهم ، ومصدر شريعتهم – فى وقت أخذوا يتلمسون فيه الطريق إلى ذاتهم ، وبناء حضارتهم : على أساس راسخ ، وبنيان متين .

فعقد مجلس المجمع عدة جلسات للنظر فى التخطيط ؛ لتنفيذ هذا المشروع ، ووافق على الخطة التى انتهى إليها ، وعهد إلى بعض أعضائه بالإشراف على إخراجه .

وقد سار العمل فى هذا المشروع على درجتين : أولاهما يتم فيها وضع التفسير ، بتوزيع أجزاء القرآن على نخبة من العلماء الممتازين ليقوم بكتابة التفسير ، وفقا للخطة العلمية التى أقرها المجلس . وثانيتهما : يتم فيها مراجعة ما كتب والتنسيق بينه ، بحيث يظهر فى أسلوب موحد واف بالمقصود .

وقد اشترك فى لجنة التنسيق من السادة أعضاء المجمع فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أحمد أبو زهرة ، والأستاذ محمد خلف الله أحمد ، والأستاذ الدكتور محمد مهدى علام .

وانضم إليهم من السادة العلماء :

١ – فضيلة الأستاذ الدكتور عبد العظيم الغباشى .

٢ – السيد الأستاذ على عبد العظيم .

٣ – فضيلة الأستاذ الدكتور محمد السيد ندا .

٤ - فضيلة الأستاذ الدكتور محمد حسين الذهبى .

٥ - فضيلة الأستاذ الشيخ محمد سليم زيدان .

٦ - فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير .

كما اشترك فى بعض المراحل فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحسيب طه حميدة .

وإننا لنتوجه إلى الله العلى القدير ، أن يمدهم بعونه وتوفيقه ، ليكملوا أداء هذه الرسالة الجليلة ، وأن يوفقهم إلى إتمامها ، فى الصورة التى يرضى عنها الله والمؤمنون .

كما نرجوه - سبحانه - أن يوفق الأمانة العامة إلى موالاة إصدار ما يتم من هذا التفسير .

والله الموفق ، والهادى إلى الصواب .

تحريرا فى { ٣٠ من ربيع الأول ١٣٩٣ هـ
٢٣ من أبريل ١٩٧٣ م }

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية
دكتور محمد عبد الرحمن بيصار

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، بعث محمدا خاتما للمرسلين ، وأنزل عليه القرآن العظيم ، بلسان عربي مبين ، وجعله حجة باقية على الزمان ، ونبراسا للهدى والعرفان ، ففتح به قلوبا غلفا ، وأسمع به آذانا صما ، وبَصَّرَ به أعينا عميا .

والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين : سيدنا ومولانا محمد صفوة خلق الله أجمعين : اختصه برسالته الخالدة ، واصطفاه لدعوة الحق الباقية ، وشرفه بالعلم والعرفان ، وزينه بأكرم السجايا وأكمل الأخلاق .

ورضوان الله ورحمته وبركاته ، على آله وأصحابه ، ومن نهج نهجهم ، واتبع سبيلهم من المؤمنين الصادقين إلى يوم الدين .

أما بعد ، فإن القرآن الكريم : كتاب الله الخالد ، نزل به الروح الأمين ، على أكمل البشر ، وخاتم الرسل : سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، بعد ما اشتبه عليهم الضلال بالهدى ، والجهل بالعرفان .

وكان ذلك من رحمة الله بعباده ، وعظيم رأفته بخلقه .

وقد استطاع القرآن – ببلاغته وعظيم هداه – أن يلين قلوب العرب بعد عنادهم ، ويروض جماحهم بعد شماسهم ، فلانوا بعد صلابة ، وانقادوا بعد شرود ، واستجابوا بعد إباء ، إذ انشرحت له صدورهم ، وتفتحت له قلوبهم .

ثم ما لبثوا أن انتقلوا من الضلالة إلى الرشاد ، ومن البداوة إلى الحضارة ، ومن الجهالة إلى العلم ، ومن الفرقة والشقاق ، إلى الألفة والاتحاد ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الهوان إلى العزة ، وصدق الله إذ يقول : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .[1] » . ويقول : « ... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...[2] » .

(١) الجمعة : ٢ (٢) المنافقون : ٨

وتحت راية هذا الذكر الحكيم : انتشر الإسلام فى العالمين وسادت اللغة العربية كثيرا من لغات البلاد التى آمنت به ، وازدهرت الحضارة الرفيعة فى ربوعها ، فإنه أباح لهم عمارتها والتمتع بطيباتها وزينتها ، إلى جانب أنه حثهم على السمو الروحى عن طريق العلم والعمل الصالح ؛ للفوز فى دار الخلود .

وفى ذلك يقول الله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . . »[1]

ويقول عز وجل : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً » .[2]

ويقول سبحانه : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[3]

وفى ظلال تمسكهم بهداه ، استحقوا أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس . وذلك لأنهم : يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله ، ويسلكون سبيل الرشاد .

ولما تراخى المسلمون فى الاعتصام به : انتشر عقدهم ، وذهبت ريحهم ، وتفرق شملهم ، فلا سبيل إلى استعادة أمجادهم وعزتهم وقوتهم ، إلا بأن يعودوا إلى التمسك بهذا الكتاب العظيم : وأن تخفق قلوبهم لتوجيهه ، وتنقاد لإرشاده ، فى شئون الدنيا والدين .

ومن أبرز صفات المؤمنين الصادقين ، التجاوب العقلى والروحى ، والعملى مع آى الذكر الحكيم : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »[4] . وأن يتأثروا بعظاته على نحو ما يقوله سبحانه : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ . . . »[5] .

وأن يحذروا الفرقة بعد أن جمعهم الله : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ . . . »[6] .

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً . . . »[7] . وأن يأخذوا بأسباب القوة علما وعملا : « وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ . . . »[8] .

---

(١) الأعراف : ٣٢ (٢) طه : ١١٢ (٣) الزلزلة : ٧ ، ٨
(٤) الأنفال : ٢ (٥) الزمر : ٢٣ (٦) النحل : ٩٢
(٧) آل عمران : ١٠٣ (٨) الأنفال : ٦٠

القرآن والتفسير

القرآن هو المصدر الأول للعقيدة والشريعة الإسلامية ، لهذا عنى به علماءُ المسلمين منذ عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – حتى الآن تلاوة وتدبرًا ، ودراسة من جميع نواحيه : البلاغية والتشريعية ، والاجتماعية والخُلقية والعلمية .

وهو المعجزة الكبرى لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – ودستور العقيدة والشريعة والأخلاق لأُمته .

والقرآن الكريم فى أعلى درجات البلاغة ، بحيث لا تصل إلى مثله قدرة البشر ؛ ومع هذا فقد كان ميسر الفهم للعرب الذين نزل بلغتهم ، وقلما كانوا يحتاجون إلى بيان مَقصد غامض فيه ، فإذا جدَّ لهم ذلك سألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيانه عملا بقوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[1] .

ومن ذلك أنه لما نزل فى إباحة الفطر فى ليالى رمضان قوله تعالى : (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ »[2] . سأل عدى بن حاتم رسول الله عن الخيطين ، فقال : هما بياض النهار ، وسواد الليل .

ولما اتسعت الفتوح الإسلامية ، واختلط العرب بالأعاجم ، فسدت عروبتهم بما شابها من لغات هؤلاء الأعاجم ، وأترف المسلمون ، فأصابتهم أمراض الترف ، من ضعف فى التدين ، ثم اقتراف للمآثم وإشاعة للبدع . فخاف المصلحون من العلماء الأعلام على كتاب ربهم أن يفسره من لا يحسن تفسيره ، أو من يزيغ به عن معناه لغرض فى نفسه ، كبدعة يريد ترويجها ، فألفوا التفاسير ، ووضعوا قيودًا وشروطًا للمفسر ، لا يصح تجاوزها ، حتى يسلم كتاب الله من التأويلات الفاسدة ، الناشئة عن الجهل ، أو مرض القلوب .

وأول المبينين هو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقد شرح من الآيات ما التبس فهمه على أصحابه ، ثم تلاه بعض أصحابه ، ثم تدفق الخير من التابعين ومن يليهم ، ممن آتاهم الله بسطة فى العلم ، ورسوخا فى الإيمان .

---

(١) النحل : ٤٤ (٢) البقرة : ١٨٧

ومن أبرز مفسرى الصحابة : عبد الله بن عباس ، فقد عُرِف – لدقة فهمه ، وصدق حسه – بأنه ترجمان القرآن ، وأنه حبر الأمة .

روى البخارى عن دقة فهمه أنه قال : « كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه ، فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ، وإن لنا أبناء مثله ؟

فقال عمر : إنه ممن علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخلهم معه ، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال : ما تقولون فى قول الله تعالى : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ)؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره ، إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لى : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أَجَلُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أعلمه له ، قال : إذا جاء نصر الله والفتح ، فذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ، فقال عمر : « لا أعلم إلا ما تقول » .

وقد كثرت الروايات عنه عناية بآرائه .

وما يروى له من اختلاف فى الرأى فى المسألة الواحدة أحياناً ، فإن مرجعه إلى اختلاف الروايات قوة وضعفا ، أو أنه بدا له فيها من الأدلة ما لم يبد له أولا ، فعدل إلى ما رآه راجحاً ، وذلك حق الله على كل مجتهد .

وقد عرف بالتفسير من الصحابة أيضا : الخلفاء الأربعة ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير ، وغيرهم . ولم يتوقف أحد فى قبول تفسير الصحابة وإنما الأمر فى التابعين .

وقد وقع الإجماع على وجوب تفسير القرآن بما صحت روايته عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أما ما روى عن الصحابة فى تفسيره ، فقد أخذ به الكثيرون : لسلامة عروبتهم ودقة فهمهم ، واحتمال سماعهم من الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومن الأئمة من كان يأخذ فى فهم الآية بما رجح عنده من أدلة الرجحان ، وإن خالف به فهم الصحابى ، ما دام لم ينسبه الصحابى إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – فكما اجتهد الصحابة فى فهمه ، يجتهد غيرهم من أثبات العلماء ؛ أهل الاقتدار وسلامة الدين .

ولما جاء عصر التدوين ، جمع بعض المفسرين الأقوال المأثورة فى التفسير ، عن الرسول والصحابة والتابعين ، واقتصروا عليها . وجنح آخرون إلى إضافة ما هداهم الله إلى فهمه فى الذكر الحكيم مع المأثور ، ليكون القارئ على بينة مما قيل فى تفسيره ، فيختار ما رجح عنده مما قوى دليله .

ومنهم من كانت عنايته بالأحكام الفقهية أعظم ، كالقرطبى ، والجصاص .

ومنهم من كانت عنايته بوجوه الإعجاز فيه أبلغ كأبى بكر الباقلانى .

ومنهم من كانت عنايته بالنحو أكثر كأبى حيان . ومنهم من فسره بحسب الآراء الفلسفية أو الطائفية .

ومنهم من فسره وفق النظريات العلمية ، وبالغ فى ذلك مبالغة كبيرة ، مع أن النظريات العلمية عرضة للتبديل والتغيير ، فإذا فسر بما يظهر مع الأيام فساده ، كان فى ذلك خطورة على عصمته من الباطل ، والله تعالى يقول : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[1] .

أما تفسيره بالحقائق العلمية الوطيدة ، فلا مانع منه إن كان بغير تكلف ، بل بحسن نية .

هذا ، إلى أن سيلا جارفًا من الأساطير الإسرائيلية ، والأقاصيص الخرافية ، تطرق إلى بعض كتب التفسير التى ألفها أعلام العلماء ، ونقلت عنهم من بعدهم بحسن نية .

وأكبر الظن أن هذه الأساطير والخرافات ، سرت إلى كتب القوم من أعداء الإسلام الذين عجزوا فى وقت ازدهاره عن حربه علنًا ، فنسخوا كتب أولئك العلماء ودسوا فيها تلك الأكاذيب ، بعد رحيلهم إلى دار الخلود فى غفلة عن عيون الرقباء ، لتضعف الثقة بالقرآن وبعقليات المفسرين !

وبذلك يتم لهم ما أرادوا من حرب الإسلام عن طريق القلم ، بدلا من حربه بالسيف .

وهناك من المفسرين ، من أوجزوا فى التفسير ، فبالغوا فى الإيجاز حتى قل الانتفاع به .

وهناك من أطنبوا فجاوزوا القصد ، وضموا إلى تفسيرهم بعض المصطلحات الفنية التى لا يفهمها إلا المتخصصون ، فعسرت الاستفادة منه .

---

(١) فصلت : ٤٢

لهذا كله ، كان المثقفون المعاصرون – على اختلاف ثقافاتهم – فى أشد الحاجة إلى تفسير وسيط : يخلو من الإسرائيليات والخرافات ، ويبتعد عن الخلافات الطائفية ، ويتجنب الجدل الفلسفى ما أمكن ، ويتضمن الأحكام الفقهية التى يساعد عليها ظاهر النصوص فى إيجاز ، ويبتعد عن المصطلحات النحوية والبلاغية إلا ما دعت إليه الضرورة ، ولا يذكر من الأمور العلمية والكونية إلا ما ثبت منها قطعاً ، وما اتفق مع النص بلا تكلف ، ويعرض لربط الآيات والسور بعضها مع بعض ، ويبيّن أسباب النزول ، كل ذلك فى لغة سهلة محببة إلى القارىء : تستدعى المتابعة ، وتلتقى مع الرغبة فى الاستفادة .

وقد أدرك (مجمع البحوث الإسلامية) حاجة المسلمين فى هذا العصر إلى مثل هذا التفسير ؛ ليروى ظمأهم من معانى كتاب الله تعالى ، فقرر إخراجه استجابة منه لتلك الدواعى الشريفة .

فلذلك عهد إلى ثلاثة من أعضائه ، بالإشراف على إخراج هذا التفسير ، من حيز التفكير إلى حيز التنجيز . واستعان بمجموعة من العلماء الفضلاء الأثبات ، للقيام بهذا التفسير ، وانتظم من الجميع مؤتمر عام تعددت جلساته .

واستقر الرأى – أخيراً – على المنهج الذى ينبغى أن يمضى فيه المشروع ، وتكونت لجان فرعية ؛ كل لجنة مؤلفة من عالمين يقومان بالتأليف ، وخصت كل لجنة بحزب من أحزاب القرآن ، فإن فرغت من تفسيره ، أخذت سواه . وهكذا .

واقتضت دقة العمل وتوحيد المنهج والأسلوب والروح ، تأليف لجنة لتنسيق ما يؤلفه السادة الأعضاء ، مكونة من أعضاء المجمع الثلاثة الذين تقرر إشرافهم على العمل ، ومن لفيف من الخبراء الباحثين ، حتى يخرج التفسير على نسق واحد محققاً الأمل المنشود .

ولما كانت بعض آى الذكر الحكيم ، تشير إلى نوع من الحقائق العلمية فى ملكوت السموات والأرض ، وعوالم الإنسان والحيوان والنبات ، أو تقضى استيفاء بعض الأحداث التاريخية ، أو الاستيثاق من بعض الآراء التى ينبغى أن تشرح الآيات بها ، رأت اللجنة أن تستعين بالخبراء المختصين بتلك الشئون ، عملا بقوله تعالى : « .... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »[1] .

(١) الأنبياء : ٧

منهج هذا التفسير

١ ـ تسبق السورةَ مقدمةٌ لها : تحوى أهم مقاصدها ، حتى يلم القارئ بمجمل أغراضها ، قبل أن يتناول فهم كل آية على حدتها .

٢ ـ يُذْكَرُ نص الآية أو الآيات المترابطة ، وتتبع كل آية برقمها فى المصحف ، مع التزام الرسم العثمانى فى كتابتها ، ومراعاة العلامات والرموز التى اتفق عليها فى الرسم العثمانى .

٣ ـ تُفَسَّر المفردات اللغوية بإيجاز ، مع التزام ما يتفق وظاهر معنى اللفظ فى الآية ، وترك التفصيلات اللغوية التى لا تتصل بالمعنى القرآنى المراد .

٤ ـ تذكر أسباب النزول ـ إن وجدت ـ واستدعى التفسير ذكرها .

٥ ـ يربط معنى الآية أو الآيات الكريمة بما سبقها ؛ ليتضح التسلسل البيانى فى السرد القرآنى بقدر الإمكان ، مع البعد عن التكلف أو الإغراب .

٦ ـ تتجنب الإسرائيليات والأخبار الخرافية .

٧ ـ يترك التعرض للإشارات الصوفية ، والخلافات الطائفية ، والأساليب الجدلية .

٨ ـ يذكر التفسير بعبارة واضحة سهلة ، يستطيع فهمها المثقف العادى ، ويجد من أسلوبها ما يرغبه فى متابعة القراءة مع ذكر نص الآية المراد تفسيرها ، قبل الشروع فى التفسير ، مسبوقة برقمها .

٩ ـ تترك المصطلحات الفنية التى تعوق القارئ غير المتخصص عن متابعة القراءة ، إلا إذا دعت الضرورة إليها لغرض التوضيح ، وإبانة المعنى المراد .

١٠ ـ تذكر الأحكام الفقهية التى تظهر بوضوح من النص ، وعند اختلاف الفقهاء فى الحكم المستفاد منه ، يذكر هذا الاختلاف لمصلحة القارئ ، ولا يتوسع فيه ، وإن أمكن التوفيق بين الآراء ، يوفق بينها .

١١ ـ إذا تكرر موضوع الآية فى أكثر من سورة ، شرح فى كل موضع شرحًا كافيًا ، ولكن التوسع فى معناه ، يترك إلى النص الأولى فى الموضوع ، ويشار إلى ذلك ، للرجوع إليه عند الحاجة .

١٢ - إذا صحت وثبتت أمور كونية يمكن تفسير الآية بها ، ذكرناها فى تفسيرها ، مستعينين بآراء الخبراء فيها .

١٣ - يقتصر فى الكلام على أسماء الحروف التى استهلت بها بعض السور على أرجح الأقوال ، وكذا فى الكلام على القضاء والقدر ، ونحو ذلك .

١٤ - تُرَدُّ شبهات الملحدين فى شرح الآيات التى أثاروها فيها .

١٥ - لا يتعرض لاختلاف القُرَّاء إلا إذا احتاج إليه تفسير الآية ، بأن أفاد معنى آخر أو حكما ينبغى أن يعلم .

١٦ - يتناول الشرح الآية جملةً جملةً ، وأحياناً يكون التفسير وراء النص ، متناولا لمشتملات الآية كلها ، عندما يرى أن ذلك أوضح للقارىء ، وأيسر وأجمع للفكرة .

١٧ - عند الاستشهاد بآية أخرى فى الشرح ، يذكر رقمها وسورتها ، وعند الاستشهاد بالحديث النبوى الشريف ، تذكر درجته أو مصدره من كتب السنة المعتمدة .

١٨ - عند الفراغ من شرح قصة قرآنية ، يذكر الغرض من ذكرها .

١٩ - إذا وردت القصة القرآنية فى أسفار العهد القديم أو الجديد ، ولم تتعارض مع النص القرآنى أشرنا إلى ذلك إن رأينا فيه فائدة ، فإن خالفته ، فالمعول عليه هو ما فى القرآن الكريم ، ولذا نغفل الإشارة إليها فى أسفارهم .

٢٠ - التزمت اللجنة القصد فى التعبير ، ما لم يقتض موضوع الآية البسط ، فإنها تسلك سبيله لمصلحة القراء .

هذا هو المنهج الذى سارت عليه اللجنة .

وهى تقرر أنها انتفعت بجهود أعلام المفسرين القدامى والمعاصرين - جزاهم الله على ما قدموا خير الجزاء - كما أضافت ما وصل إليه العلم فى شتى الميادين .

* * *

وبعد :

فإن اللجنة تتوجه إلى الله تعالى أن يجعل عملها خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتقبل منها ما قامت به ، وأن يعفو عما يكون منها من تقصير .

والله الموفق للصواب . أعضاء اللجنة

سورة الفاتحة

مقدمة

هذه السورة الكريمة ، نزلت بمكة قبل الهجرة ، وهى سبع آيات ، نزلت بتمامها ، وسميت الفاتحة لأنها أول القرآن فى ترتيب المصحف ، فهى فاتحته .

وهذه السورة ـ مع قلة آياتها وإيجازها ـ تشتمل على مقاصد القرآن كله .

فالقرآن نزل لتعريف الناس برب العالمين ، وما يتصف به من صفات جليلة ، ولحثهم على حمده وعبادته ، وإثبات يوم الجزاء ، وأن الملك له تعالى فى هذا اليوم ، وأنه يجب توحيده بالعبادة دون شريك ، والاستعانة به تعالى فى جميع الشئون ، إذ لا يوجد شىء ولا يتم إلا بمعونته .

ولهذا يطلب من العباد أن يستعينوا به فى أمرهم كله ، وأن يهديهم الطريق المستقيم ، وأن يكفيهم شر طريق المغضوب عليهم والضالين ، وقد اشتملت الفاتحة على هذا كله فى إيجاز ، فلا غرابة فى أن تسمى أم الكتاب ، وأن يفتتح بها القرآن الكريم ، وأن تفرض فى الصلاة.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾) .

لما كانت الفاتحة تتلى فى كل ركعة فى الصلاة ، فإن استحضار معانيها فى ذهن المصلى ، أمرٌ مطلوب ، لأنه يثنى بها على ربه ويناجيه ، فلهذا قدمنا تفسيرها بمجمل مرقم لمعانيها فيما يلى :

١ ـ أستعين متيمنا متبركا (بِسْمِ اللهِ) الذى لا معبود بحق سواه ، (الرَّحْمٰنِ) المنعم بجلائل النعم ، (الرَّحِيمِ) : المنعم بدقائقها .

٢ ـ الثناء كله لله تعالى ، على ما أسداه من النعم على عباده ، وعلى ما اتصف به من صفات الكمال ، لأنه منشىء العالمين ، ومبلغهم كما لا تهم ، وحافظهم .

٣ ـ (الرَّحْمٰن) واسع الرحمة لعباده جميعا فى الدنيا ، إذ عمهم بنعمته فلم يحرم منها كافرا ولا فاسقا .

(الرَّحِيم) واسع الرحمة لعباده المؤمنين فى الآخرة ، يقبل من محسنهم ويحسن ثوابه ، ويعفو عن مسيئهم ويقبل متابه .

٤ ـ مالك يوم الجزاء ، فلا سلطان فيه لأحد سواه ، فى ظاهر الأمر وباطنه : يحاسب فيه عباده ، فيعاقب من عصى ، فلا يمتنع عليه بملك ولا جاه ، ويثيب من أطاع ، فيعطيه بغير حساب .

٥ ـ نخصك ـ يا من هذه صفاتك العلية ـ بالعبادة ، فلا نشرك فيها أحداً سواك ، فأنت وحدكَ المعبود ونخصك بالاستعانة ، فأنت وحدك المعين .

٦ ـ وفقنا يارب ، واهدنا الطريق المستقيم ، الذى سنه كتابك العظيم ، وبينه رسولك الأمين .

٧ ـ (صراط الذين أنعمت عليهم) : فى الدنيا بالتوفيق إلى طاعتك ، وفى الآخرة بحسن مثوبتك ، لا صراط الذين غضبت عليهم لكفرهم ، ولا الضالين الذين لم يهتدوا بهداك .

التفسير

١ ـ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ) :

أجمع المسلمون على أن البسملة من القرآن ، لأنها وردت فى سورة النمل الآية (٣٠) .

واختلف العلماء فى مكانها من سور القرآن :

فأكثر علماء السلف ، على أن البسملة آية من الفاتحة . ولذا تجب قراءتها مفتتحة بها فى الصلاة ، وبها تتم آياتها السبع ، كما أنها آية من كل سورة . وممن قال بذلك : قراء مكة ، والكوفة وفقهاؤهما ، والشافعى وأصحابه .

ويؤيد مذهبهم : إثباتها فى المصاحف أول كل سورة ، ما عدا « التوبة » . مع ما ورد من الأمر بتجريد القرآن عن كل ما ليس منه . ولذلك لم يكتبوا « آمين » فى آخر الفاتحة ، لأنها دعاء مطلوب بعدها ، وليس منها .

وذهب آخرون إلى أنها آية من الفاتحة وحدها ، وبه أخذ بعض الشافعية وحمزة ، ونسب إلى الإمام أحمد ، وقد أقام الفخر على ذلك ست عشرة حجة منها نصوص من السنة : وقراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها ، ومالك والأوزاعى - على أن البسملة ليست آية من الفاتحة ، ولا من أى سورة أخرى ، وإنما أثبتت فى المصحف للتبرك بها والفصل بين السور .

(بِسْمِ اللَّهِ) : المراد بالاسم هنا : المسمى ، وهو ذات الله تعالى ، فإنه سبحانه هو المستعان به فى كل أمر يؤتى بالبسملة فيه . والدليل على ذلك أنه لما نزل : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى) أول سورة الأعلى ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اجعلوها فى سجودكم »[1] . وكان يقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى » ولم يقل : سبحان اسم ربى الأعلى .

وقال الآلوسى : الاسم يطلق على نفس الذات والحقيقة والوجود والعين ، وهى عندهم أسماء مترادفة ، كما قال الإمام ابن فورك فى كتابه الكبير فى الأسماء والصفات ، وأبو القاسم السهيلى فى شرح الإرشاد ، ثم قال : ومنه (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى) إذاً التسبيح إنما يتوجه إلى الذات الأقدس . إلى آخر ما قال .

ويمكن تقدير فعل محذوف تقديره : أبتدئ باسم الله ، ويكون ذكر الاسم هنا على معناه المشهور .

ولفظ الجلالة (الله) . علم على الذات العلية ، وهو الإله المعبود بحق ، الذى يخلق عباده ويرزقهم ، ويدبر شئونهم ويقتدر عليهم ، وله ما فى السموات وما فى الأرض .

(الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) : تذكير برحمته التى وسعت كل شىء ، وبذلك جمع الله لعباده فى البسملة من أسمائه الشريفة ، بين ما يقتضى الإجلال والتقديس والعبادة وهو لفظ الجلالة علم الذات ، وبين ما يقتضى الأنس والأمل فى الخير ، وهو الرحمن الرحيم ، ليأنسوا بربهم ، ولا يقنطوا من رحمة الله تعالى .

---

(١) رواه أبو داود وأحمد .

وسيأتى الكلام على معناهما فى الفاتحة .

وينبغى أن يضمر القارئ فى نفسه معانى ما جاءت البسملة من أجله ، كالقراءة ، والتبرك ، والاستعانة ونحوها . . .

٢ـ (الْحَمْدُ لِلَّهِ) :

الحمد : هو الثناء على الجميل الذى يصدر عن المحمود باختياره ، من نعمة أو غيرها . أما الشكر فهو مقابلة النعمة بالثناء على صاحبها بالقول ، أو مقابلة نعمته بعمل يدل على الاعتراف بها : كآداب الجوارح ، أو الشعور القلبى بفضل صاحبها . ولذلك يقول الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

والحمد شعبة من شعب الشكر الثلاث ، ولكنه أدل على إجلال المنعم وشكره من سائر الشعب ؛ لخفاء الاعتقاد ، وما فى آداب الجوارح من الاحتمال فلذا جعل الحمد رأس الشكر والعمدة فيه .

قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبد لا يحمده »(١) وأل فى الحمد للاستغراق ، والمعنى : جميل المحامد لله تعالى .

ولفظ الجلالة (الله) يشعر باستحقاقه تعالى وحده للحمد ، كما يشعر به لفظ (رَبِّ) فى قوله :

(رَبِّ الْعَالَمِينَ) : أى أنه تعالى مستحق للحمد ؛ لألوهيته ولأنه رب العالمين ، أى منشئهم ومبلغهم إلى كمالاتهم اللائقة بهم ، وحافظهم حتى ينتهوا إلى غاياتهم .

وكلمة : (الْعَالَمِينَ) جمع عالَم ، وهو ما سوى الله من جميع المخلوقات ، فيشمل العاقل وغيره من الأجناس .

وحكمة بدء الفاتحة بالحمد لله ، الإشارة إلى حصول النعم الإلٰهية التى أحاط الله بها عباده ، وأن المصلى يحمده تعالى على ذلك .

٣ـ (الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ) :

أصل الرحمة فى اللغة : رقة القلب وانعطافه بالشفقة . وهذا المعنى ينطبق على المخلوقات فإطلاقه على الله تعالى ، إنما يكون باعتبار لازمه الذى يليق به تعالى ، وهو التفضل والإحسان.

---

(١) رواه الطبرانى وعبد الرزاق والبيهقى عن ابن عمرو ، والحديث حسن ، ورواه الديلمى بسند رجاله ثقات.

والرحمن الرحيم : صفتان لله - تعالى - وصيغة كلتيهما : تدل على الكثرة ، وقد جمع بين الرحمن والرحيم ، لتأكيد كثرة رحمته جل وعلا .

ويختص الوصف بالرحمن شرعا ، بالله - تعالى - بخلاف الرحيم ، فيصح إطلاقه على المخلوقات .

ومن ذلك قول الله تعالى فى وصف النبى - صلى الله عليه وسلم - « ... حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »[1] وقوله تعالى فى وصف المؤمنين : « ... رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... »[2] .

٤ - (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) :

هذا هو رابع الأوصاف للفظ الجلالة : وصف أولا بكونه : (رَبِّ الْعَالَمِينَ) ، وثانيا بقوله : (الرَّحْمٰنِ) ، وثالثا بقوله : (الرَّحِيمِ) ، ورابعا بقوله : (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) .

والمالك : من له التصرف الشامل فيما يملك بدون منازع . والدين : هو الجزاء على الأعمال .

ومعنى : (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) : المالك لكل ما فى هذا اليوم من جنة ونار ، وإنس ، وجن ، وحساب وجزاء - من ثواب أو عقاب - وغير ذلك .

وهذه الآية دالة على المعاد ، ومجازاة كل مخلوق بما قدم من عمل ، ولو لم يكن معاد للخلق يجازون فيه ، لكان الموت هو نهاية الجميع . وبذلك يستوى المؤمن والكافر ، والبر والفاجر والمصلح والمفسد ، وذلك أمر يتنافى مع العدالة الإلٰهية ، ولا تسلم به المبادىء العقلية .

لهذا اقتضت حكمة الله أن يكون للناس معاد ، يجازون فيه بالثواب أو العقاب على ما قدموا :

« مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ »[3] .

ووصف الله بـ (رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) لإظهار استحقاقه تعالى للحمد ، وللإشعار - من طريق المفهوم - بأن من لم يتصف بتلك الصفات ، لا يستحق أن يحمد ، فضلا عن أن يعبد !

---

(١) التوبة : ١٢٨ (٢) الفتح : ٢٩ (٣) فصلت : ٤٦

٥ ـ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) :

من أول السورة إلى هنا ، كان الأسلوب للغيبة ، ثم تغير هنا إلى الخطاب حتى آخر السورة .

وفوق ما يفيده تغير الأسلوب من التنبيه إلى موضوع الكلام ، فإن فيه إشارة لطيفة إلى ترقى الحامد كلما أثنى على ربه ، وأخلص فى مناجاته ، فينتقل من مقام الغيبة إلى مقام الحضور ، وذلك حال المصلى الذى يقرأ الفاتحة ، فإنه حين يدخل الصلاة ، يكون قريب عهد بما كان يشغله من الشئون قبل الدخول فيها ، فإذا أقبل على ربه بحمده له ، وثنائه عليه ، تاركا شواغله ، انتقل إلى مقام الإحسان فى عبادته ، وهو أن يعبد الله كأنه يراه . على ما سنبينه .

وهذا يقتضى أن ينتقل من الغيبة إلى موقف المخاطب لمولاه ، فيقول :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) .

هذا ، وتقديم ضمير المفعول (إِيَّاكَ) ، فى كل من الجملتين ، للاهتمام ، مع إفادة القصر ، كأنه قيل : إياك يا ألله وحدك نعبد ، وإياك يا ألله دون سواك نستعين . وفى ذلك إقرار له تعالى ، بالألوهية والوحدانية .

وقدمت جملة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) على جملة : (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ، لأن المقصود الأَوْلَى هو العبادة ، ولما كان فعل الطاعة وتوفر الدواعى إلى فعلها ، لا يتمان إلا بمعونة الله وتوفيقه ، فلهذا يطلب العبد الاستعانة بالله عقب تخصيصه بالعبادة ، إذ أن العبد لا حول له ولا قوة إلا بالله .

والعبادة للمعبود هى الطاعة الخالصة له ، المبنية على حبه ، المؤداة على وجه يشعر بمنتهى الخضوع له .

ولكون العبادة بهذا المعنى ، فلا تكون إلا لله وحده [1] ، وهى أخص من الطاعة التى تتحقق فى مطلق الامتثال ، فكل عبادة طاعة ، وليس كل طاعة عبادة ، فأنت إذا امتثلت أمر والديك أو ولى أمرك ، يقال لك : أنت أطعتهم ، ولا يصح أن يقال : أنت عبدتهم ، فالعبادة أعلى مقام فى الطاعات ، وهى المعراج الروحى الذى يصعد فيه العباد إلى درجة ،

---

(١) لأنه هو المستحق لأن يعبد دون سواه ، لتفرده بكامل القدرة وعظيم السلطان ، وجميع ألوان الإنعام ، وجميع صفات الألوهية ، فلذا يخصه قارئ الفاتحة بالعبادة فيقول : (إياك نعبد) .

كأنهم فيها يشهدون الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فإن لم يصلوا إلى ذلك ، فليشعروا بأنه تعالى يراهم ، وذلك هو مقام الإحسان الذى يشير إليه الحديث الشريف بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى تعريف الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1] » .

والعبادة : تشمل عمل القلوب ، وعمل الجوارح . وتشمل فعل المأمور به ، وترك المنهى عنه . فلا يتحقق معنى العبادة إلا بذلك كله .

وفى الآية سؤال : وهو أن مقام العبودية يقتضى التواضع والذلة لله تعالى . فكان الظاهر أن يقول العبد : إياك أعبد ، وإياك أستعين « بضمير المفرد الذى لا يعظم نفسه » .

والجواب : أن النون فى (نَعْبُدُ) ، و (نَسْتَعِينُ) ، ليست للمتكلم المعظم نفسه ، ولكنها للمتكلم ومعه غيره من المؤمنين ، فكلهم يعبد الله ، ويستعين به وحده ، فهذا إقرار من المصلى ، وشهادة منه بأن هذا هو شأن المؤمنين مع ربهم . وفى ذلك إدراج لعبادته واستعانته ، ضمن عبادتهم واستعانتهم ، . رجاء القبول ببركة ذلك .

ومن أجل هذا الملحظ ـ ولما سبق ـ طلبت الصلاة فى جماعة .

٦ ـ (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) :

بعد أن يخص العبد ربه بالعبادة ، والاستعانة مخاطبا له بقوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) يناجيه ، ويطلب منه الهداية إلى الطريق المستقيم ، فإن الله وحده هو المانح للخير ، والهادى إلى الصراط القويم .

والهداية : هى البيان والإرشاد ، سواء اهتدى من ترشده أم لم يهتد ، وقد يراد منها : خلق الاهتداء فى القلب . وهى بهذا المعنى مختصة بالله ـ تعالى ـ إذ لا يقدر عليها سواه ، ولما كانت من أشرف المطالب وأسناها . شرع الله لعباده أن يرجوها منه سبحانه بقولهم : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) .

أما الصراط : فهو الطريق الذى يسلكه السائر إلى المقصود ، وهو نوعان : حسى ومعنوى ؛ فالطريق إلى منزلك حسى ، والطريق إلى الله معنوى ، وهو الطاعة . ووصف الطريق بالمستقيم ، للاحتراز عن الطريق المنحرفة المعوجة ، وهى طريق أهل الضلال والفساد .

---

(١) رواه الخمسة .

ومعروف ، أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتى المبتدأ والمنتهى .

وإذا كان المقصود للعباد فى رحلة الحياة الدنيا ، هو الوصول إلى الله تعالى : فإن أقرب الطرق إليه هو الصراط المستقيم الذى لا اعوجاج فيه . قال تعالى : « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ[1] » .

فنى وصف الصراط بالمستقيم ، إشارة لطيفة إلى أن سبيل الله هى أقرب الطرق إلى مرضاته تعالى . وأما غيرها فإما أنها لا توصل إلى الله أصلا ، وهى صراط المغضوب عليهم والضالين ، وإما أنها توصل بعد محنة العقاب ، وهى صراط العصاة المؤمنين .

٧ـ (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ . . .) الآية .

(صِرَاطَ الَّذِينَ . . .) إلخ بدل من الصراط المستقيم ، مبين لمعناه ، فإن الصراط المستقيم هو طريق من أَنْعَمَ الله عليهم بالإيمان والإسلام ، أى اهدنا صراط المؤمنين الذين أنعمت عليهم فى الدنيا بحسن الطاعة ، وفى الآخرة بحسن الثواب : « مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا »[2] .

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) ، المغضوبُ عليهم : هم الذين خرجوا عن طاعة الله ورسوله ، وأفسدوا دينهم بالكفر والمعاصى ، فغضب الله عليهم ، أى أراد الانتقام منهم لذلك .

(وَلَا الضَّالِّينَ) . الضالون ، هم الذين أفسدوا عقيدتهم بالجهل بدين الله ، فانحرفوا عن سواء السبيل .

هذا ، واشتهر بين المفسرين : أن المراد بالمغضوب عليهم : اليهود ، لقول الله فيهم :

« مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ »[3] وقوله : « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ » . وأن المراد بالضالين : النصارى ، لقول الله فيهم : « قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ »[4] ولأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسرهما بذلك كما رواه عنه أحمد فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه ، وحسنه .

---

(١) الأنعام : ١٥٣ (٢) النساء : ٦٩
(٣) المائدة : ٦٠ (٤) المائدة : ٧٧

والظاهر : أن تفسير الرسول لهما باليهود والنصارى ، لدخولهما فى عموم معناهما ، وقد شرحنا المراد منهما فيما تقدم ، وهو شامل لهاتين الطائفتين وغيرهما من أهل الكفر والضلال .

وقارىء الفاتحة يختمها فى الصلاة أو سواها بقوله « آمين » وليس منها ، ولكنه مسنون وهو اسم فعل أمر معناه : استجِبْ .

واعلم أن الفاتحة تسمى السبع المثانى ؛ لقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي »؛[1] ولأنها تثنى – أى تكرر – فى الصلاة وغيرها . فحافظ أيها المؤمن على تلاوتها فى أذكارك ، فهى كثيرة الخيرات ، جمة البركات .

---

(١) الحجر : ٨٧

ســـورة البقرة

مقاصدها : تشتمل هذه السورة على مقاصد عظيمة ، منها ما يأتى :

١ – التنويه بشأن الكتاب العزيز، الذى هو أصل التشريع السماوى ، وأساس القانون الإسلامى .

(ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)) .

٢ – بيان أحوال الناس من الدعوة الإسلامية ، وهم فرق ثلاث :

(ا) فرقة المؤمنين الصادقين : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)) .

(ب) فرقة الكافرين المشركين : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٦)) .

(ج) فرقة المنافقين ، وهم أضر أعداء الدين : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨)) .

وقد عنى القرآن بأوصافهم وأحوالهم فى ثلاث عشرة آية .

٣ – تذكير الطوائف الثلاث ، بنعمة الخلق لعلهم يعتبرون ، فيستمسكوا بالعروة الوثقى :
(يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)) .

٤ – توجيه التحدى لمن أنكر معجزة القرآن : (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)) .

٥ – بيان الدلائل الكونية المقرونة بالنعم الإلـٰهية ، لإقناع الخلق بالبعث والمعاد :
(هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)) .

٦ - عناية الله تعالى بخلافة البشر فى الأرض ، إذ جعل أول خليفة فيها آدم - عليه السلام - وخلقه وأبناءه ليعبدوه ، ويعمروا الأرض ، كما قال جل شأنه : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ...) الآيات (٣٠) . ومابعدها .

٧ - القصص القرآنى فيما يتصل بنفع الإيمان ، وضرر الكفر ، وخداع المنافقين ، وأثر ذلك فى المجتمعات التى بعث الأنبياء لإصلاحها .

٨ - عناية القرآن بذكر قصص بنى إسرائيل ، لأنهم أكثر الأمم نعمًا ، وأشدهم عصيانًا وكفرًا : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُم وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) . (٤٠)

٩ - قصة موسى - عليه السلام - مع بنى إسرائيل فى شأن البقرة التى سميت السورة باسمها : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً . . .) الآية (٦٧) .

١٠- قصص الرسل مع أممهم من بعد موسى ، لبيان ما تحمله فى سبيل الدعوة إلى الله : (وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ...) الآية (٨٧) .

١١- تبيين موقف أهل الكتاب الكفار - من المؤمنين حتى لايتخذوهم أولياء : (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . . .) الآية (١٠٩) .

١٢- العناية بقصة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فى بناء الكعبة بمكة ؛ لأنها أول بيت وضع للناس فى الأرض ، وقد جعله الله مثابة للناس وأمنا .

١٣- اختبار الناس بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة : (. . . وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ . . .) الآية (١٤٣) .

١٤ - تصوير حال أهل الكفر والضلال ، حين يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة :

(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ(١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) . (١٦٧)

١٥- بيان ما أحل الله للمؤمنين ، وما حرم عليهم فى الأطعمة ، ليقفوا عند حدود الله تعالى فى مطاعمهم : (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣)) .

١٦- بيان عبادة الصوم التى بها طهارة القلوب ، وزكاة النفوس : (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . . . (١٨٣)) ، (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ . . .) الآية (١٨٥) .

١٧- الأمر بالجهاد ، دفاعًا لا اعتداءً ، مع مايراعى من الآداب عند القتال : (وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا . . .) الآية (١٩٠) ، (. . . وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ . . .) الآية (١٩١) ، (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . . . الآية) (١٩٣)

١٨- تطهير ذرية المؤمنين من الانتماء إلى الأمهات أو الآباء المشركين ، (وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ، وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ . . .) الآية (٢٢١)

١٩- وضع حد للشقاق بين الزوجين والمحافظة على طهارة الأنساب ، ببيان أحكام الطلاق ، والعدة للمطلقة ، والمتوفى عنها زوجها (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ . . .) الآية (٢٢٩) (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ . . .) الآية (٢٢٨) ، (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا . . .) الآية (٢٣٤) .

٢٠- بيان التفاضل بين الرسل على حسب درجاتهم عند الله تعالى : (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ . . .) الآية (٢٥٣)

٢١- الحث على الإنفاق فى سبيل الله : (مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)) .

٢٢- النهى عن الربا ؛ لأنه من المعاملات التى لا تتفق مع المروءة الإسلامية ، ولا الأخوة الدينية ولا مع النظام المالى الإسلامى ، الذى يحرم أكل أموال الناس بالباطل : (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ

الرِّبَا . .)الآية (٢٧٥) ، (يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ . .) الآية (٢٧٦) ، (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَاتَظْلِمُونَ وَلَاتُظْلَمُونَ(٢٧٩)).

٢٣ــالأمر بقيد الديون وتسجيلها فى وثائق ، حتى لاتقع المشكلات فى المعاملات المالية (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ . . .) الآية (٢٨٢) .

٢٤ــالإيمان بالله ، وجميع الرسل والملائكة، والكتب دون تفرقة بينهم (ءامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءامَنَ بِاللهِ وَملائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا . . .) الآية (٢٨٥) .

هذه بعض المقاصد والأهداف من سورة البقرة . وهى مدنية . وآياتها ست وثمانون ومائتان . والمدنى : مانزل بعد الهجرة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾) .

المفردات :

(الٓمٓ) يقول السلف : إنها وأمثالها فى فواتح السور من المتشابه ، الذى استأثر الله بعلمه .

ويقول غيرهم : إنها للتنبيه . وقيل غير ذلك . وسيأتى بيان مافيه .

(لَا رَيْبَ فِيهِ) : لاينبغى أن يشك فى صحته .

(هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) : إرشاد لهم .

(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) : يصدقون بما غاب عن حسهم ، مما أخبر عنه الكتاب الذى لاريب فيه .

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) : يؤدونها فى أوقاتها ، كاملة الأركان والشروط .

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) : ومما أنعمنا عليهم يبذلون فى سبيل الخير .

(أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ) :أى أولئك الموصوفون بما تقدم ، متمكنون من هدى ربهم .

(وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) : أى بما يرجون ، الناجون مما يكرهون .

التفسير

١ - (الٓمٓ) : افتتح الله بعض سور القرآن ، بأسماء بعض الحروف ، وعددها ثمانية وسبعون حرفا فى جملة السور . وهى تكرار لأربعة عشر حرفا فى أوائل تسع وعشرين سورة ، منها سورة البقرة هذه ، وأولها : (الٓمٓ) .

وقد ذهب كثير من السلف ، إلى أن معانى هذه الحروف وأغراضها ، سر من الأسرار التى استأثر الله تعالى بعلمها ، فتكون من المتشابه الذى لايعلم تأويله إلا الله عزوجل .

أما علماء الخلف ، فقد حاولوا بيان المقصود منها ، لأن القرآن جاء بلغة العرب ليفهموه ، ومن أحسن ماقيل فى ذلك : إنها تشير إلى أن القرآن، مكوّن من كلمات أساسها هذه الحروف التى تنظمون منها - أيها العرب - كلامكم ، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثله ، وفيكم الفصحاء والبلغاء . فإذا جاء به النبى الأمى ، فالله تعالى هو الذى أنزله إليه ، ولم يأت به من عند نفسه ، لأنه مثلكم فى البلاغة وفى الفصاحة . فإذا كنتم عاجزين عن الإتيان بمثله ، وأنتم أئمة البلاغة ، فهو مثلكم فى ذلك العجز .

فالقرآن فوق مقدرة البشر جميعا . ومن أحسن ماقيل أيضًا : إن المشركين كانوا تضافروا ، على ألا يسمعوا القرآن : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » . [1] فكان النبى - عليه الصلاة والسلام - يبدأ التلاوة بهذه الأحرف المنزلة ، جاهرا بقراءته ليستمعوا إلى القرآن الذى أعرضوا عنه . فهى - لغرابتها - أقوى فى تنبيههم إلى استماعه من أن يقول لهم : استمعوا إليه.

---

(١) فصلت : ٢٦

٢ ـ (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) :

(ذَٰلك) إشارة للبعيد الحسّى . وقد يستعمل للبعيد المعنوىّ للتعظيم ، كما فى قوله تعالى : « ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١) » .

وهى هنا إشارة إلى الكتاب ؛ للإيذان ببعد منزلته علوًّا ، أى ذلك الكتاب البعيد المدى فى منزلته الرفيعة .

(الكِتَابُ) : بمعنى المكتوب ، وهو القرآن الذى نتلوه ، الموعود به النبى صلى الله عليه وسلم ، فى قوله جل شأنه : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٢) » فأل فيه للعهد ، أى ذلك الكتاب الذى وعدنا بإلقائه عليك ، ويجوز أن تكون للكمال ، والمعنى : ذلك الكتاب : الكامل ، فى بلاغته وإعجازه وتشريعه . أو ذلك الكتاب ، أما غيره فلا .

(لَارَيْبَ فِيهِ) : لاشك فيه ، أى أنه ليس من شأنه أن يشك فيه ، لنصوع حقائقه . وإلا فهناك من المنكرين المعارضين من شك وشكَّك ، وارتاب وأراب ، فلم يعتبر ريبهم فيه ريبا . لأنه نشأ عن الرين والحجاب الذى ختم الله به على قلوبهم .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ ويمنكر الفم طعم الماء من سقم

(هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) أى بيان وإرشاد لهم إلى ماينفعهم فى دنياهم وأخراهم ، لما تضمنه القرآن من العقائد والأحكام ، والأخلاق التى لاغاية وراءها .

والمتقى : من يتقى عذاب الله ويصون نفسه منه ، بترك السيئات وعمل الصالحات . وخص بهذا ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما فى الكتاب من هداية إلى الصراط المستقيم ، على حد قوله تعالى : « إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا » (٣) . وأيضا قوله جل شأنه : « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ » (٤)

وبما أنه مذكر للجميع وهاديهم ومنذرهم ، فالتقييد بما ذكر ، مراعاة لمحل الثمرة والفائدة أما غيرهم ، فلم ينتفعوا بالقرآن ؛ لسوء اختيارهم .

٣ ـ (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) :

---

(١) السجدة : ٦ (٢) المزمل : ٥

(٣) النازعات : ٤٥ (٤) آخر : ق

تَضَمَّنَتْ هذه الآية الصفة الأولى للمتَّقين الذين نزل القرآن هدى لهم .

واعلم أن التكاليف الشرعية : إما ترك ، وإما فعل . وما يطلب تركه يدخل تحت عنوان المتقين . والفعل : إما قلبي : ويدخل تحت قوله : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) . وإما من عمل الجوارح .

وقد أشار إلى البدنى منها بقوله : (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) ، وتخصيصها بالذكر ؛ لأنها رأس العبادة البدنية ، ولأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، لقوله تعالى : (. . . إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ . . .[1] » .

وأشار إلى المالى منها بقوله : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) .

ووجه الترتيب فى الآيتين : أن الترك من قبيل التخلية ، وأن الأفعال من قبيل التحلية ، والأولَى تسبق الثانية ، ولهذا قدم وصفهم بالمتقين على غيره من الأوصاف ، لأن التقوى من قبيل التحلية ، فهى أشبه بإزالة الأدران والأوساخ قبل التحلية باللباس النظيف الجديد الذى تشبهه سائر صفات المتقين . ويلى هذا ما كان من عمل القلوب، وهو الإيمان بالغيب ، إذ هو أساس قبول العمل الصالح، ولهذا لم يقبل من الكفار عمل مهما كانت صورته طيبة، لأنه لم يقم على عقيدة صحيحة قال تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً[2] » : ويلى ذلك العبادة البدنية التى ترجع فائدتها إلى فاعلها ، وقد أشير إليها بقوله : (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) ثم العبادة المالية المتعلقة بغير فاعلها المشار إليها بقوله : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) ، أى على جهات البر .

والإيمان بالغيب هو التصديق والإذعان القلبى به ، والمراد بالغيب ما غاب عن الحس من شئون الدين وقام الدليل على ثبوته ، فالله تعالى لاتدركه الأبصار ، وما يتعلق بالملإ الأعلى أو بأحوال يوم القيامة ، من بعث وحشر وحساب ، غيب ــ فالإيمان بذلك كله إيمان بالغيب ، ولا يتحقق الإيمان بدونه ، وهو أساس لفروع الإيمان ، ولهذا قدمه عليها .

جاء فى تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤١ قال سعيد بن منصور ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمارة بن عمير ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، قال : كنا عند عبد الله

---

(١) العنكبوت : ٤٥ (٢) الفرقان : ٢٣

ابن مسعود جلوسا فذكرنا أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وما سبقونا به، فقال عبد الله : إن أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - كان بَيِّنًا لمن رآه ، والذى لا إله غيره ما آمن أحد قط إيمانا أفضل من إيمان بغيب . ثم قرأ (الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ . . . .) إلى قوله : (. . . . الْمُفْلِحُونَ) .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم فى مستدركه ، من طرق عن الأعمش بهذا الإسناد . وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وكلام ابن مسعود - رضى الله عنه - فى هذا الأثر يشعر بأن من لم يروا النبي - صلى الله عليه وسلم- وآمنوا به ، يعتبر إيمانهم برسالتهِ إيمانا بالغيب ، وأن ذلك منقذ لهم .

ومعنى (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) : يؤدُّونها فى أوقاتها ، كاملة الأركان والسنن .

ومن كلام أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه - : من حفظها - أى الصلاة - وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لما سواها أضيع .

ومعنى قوله : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) : ومما أعطيناهم من فضلنا ينفقون .

وإسناد الفعل (رَزَقْنَاهُمْ) إلى ضمير الله تعالى ، إشارة إلى أن الله تعالى ، جعلنا مستخلفين عنه فيما ننفق من الرزق الممنوح لنا ، ولم تبين جهة الصرف لغرض التعميم ، فينبغى ألا نبخل بمال الله على خلق الله المحتاجين ، وألا نشح على كل عمل معد لمصلحة الإسلام والمسلمين .

٤ - (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ . . . .) الآية .

هذه هى الصفة الثانية للمتقين ، وفى وصفهم بالإيمان بما أنزل على النبي وهو القرآن ، وما أنزل من سائر الكتب على من قبله من الرسل - بيان أن الإسلام يقر الرسالات السماويَّة فى حينها ، ولا ينكرها ، وأنه لايفرِّق بين أحدٍ من رسل الله ، على عكس اليهود والنصارى . فاليهود ينكرون المسيحية والإسلام وكتابيهما ، والمسيحيون ينكرون الإسلام وكتابه .

وقوله تعالى : (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) : أى ويؤمنون كذلك بالدار الآخرة ، ومافيها من بعث وحشر وثواب وعقاب ، والعبارة فيها قصر اليقين بالآخرة على المؤمنين ، وفى

ذلك تعريض بإيمان أهل الكتاب بها ، فإنه غير مطابق ، ولا صادر عن يقين ، فاليقين : إنما يكون عن علم لايعتريه شك قال تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا »(١) وأهل الكتاب ليسوا كذلك .

وسميت الدار الثانية بالآخرة ؛ لتأخرها عن دار الدنيا .

٥ - (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ . . .) الآية .

اسم الإشارة فى (أولئك) عائد على المتقين الموصوفين بالصفات السابقة ، فتكون تلك الصفات كلها ملحوظة مع المشار إليه ، والتعبير بقوله : (عَلَىٰ هُدًى) : فيه إشارة إلى تمكن المتقين من الهدى ، فكأنهم مستقرون عليه ، وتنكير هدى لتعظيمه ، وأكد هذا التعظيم بأنه صادر (مِّن رَّبِّهِمْ) : أى بتوفيقه : « قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ »(٢)

(وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

أى وأولئك الموصوفون بما تقدم هم - لاغيرهم - الفائزون عند الله بالسعادة الدائمة .

وأصل الفلح : الشق فى الأرض ، وهو عمل الفلاح ، والمؤمنون قد شقوا طريقهم إلى الله ، فوصلوا وفازوا بمرضاة ربهم ، وعظيم ثوابه .

وتكرار اسم الإشارة : (أُولَٰئِكَ) ؛ للتنويه بشأن المتقين المتصفين بهذه الصفات .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾) .

المفردات :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) المراد بهم الذين جحدوا ما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وأصروا على ذلك .

---

(١) الحجرات : ١٥

(٢) البقرة : ١٢٠

(خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ) : أى أغلقها ومنعها عن قبول الهدى ؛ بسبب إصرارهم على الكفر . والمقصود أنه تعالى لم يوفقهم إلى الإيمان بسبب عنادهم .

(وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) : أى غطاء ، وهذا كناية عن عدم انتفاعهم بالآيات الكونية المرئية : الدالة على وحدانية الله تعالى ، كما لاينتفع الأعمى بالمرئيات لغيره .

التفسير

٦ ــ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لايُؤْمِنُونَ) .

بعد أن وصف الله المؤمنين الصادقين ، فى أربع آيات ، صدرت بهن السورة ، أتبعها وصف الكافرين ، فخصهم بآيتين ، لبيان حالهم ومآلهم .

فهنا فى هذه الآية : إخبار من الله تعالى عن قوم ، علم الله أزلا : أنهم لا يؤمنون ، وأن الإنذار وعدمه سواء عندهم ، لأن ظلمة الكفر حجبتهم وتحجبهم عن نور الإيمان .

وقد يقال : إذا علم الله أزلاً كفرهم باختيارهم السيِّئ ، وأخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون فما فائدة الإنذار ، وتوجيه الدعوة إليهم ؟

والجواب : أن الإنذار لإقامة الحجة عليهم ، حتى لايقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير، ولتحقيق عموم الرسالة ، وليثاب الرسول على توجيه الدعوة إليهم ، وإن لم يستجيبوا .

هذا والكفر نوعان : كفر إنكار لله قلبا ولسانا ، ككفر فرعون . وكفر إباء وامتناع : وهو أن يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ، أو يقر بلسانه ويكفر بحقوقه ويأباها ، ككفر إبليس ، ومن على شاكلته من البشر ، وكلاهما يؤدى إلى الخلود فى النار .

٧ ــ (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمعِهِمْ . . .) الآية .

الختم لغة : الاستيثاق على الشىء بوضع مادة تغطيه ، حتى لايخرج منه ماهو فيه ، ولايدخله ما هو خارج عنه .

والمادة التى يختم بها اسمها الختام بكسر الخاء ، كما فى قوله تعالى : « خِتَامُهُ مِسْكٌ [1] » والآلة التى تستعمل فى الختم اسمها الخاتَم بفتح التاء .

(١) المطففين : ٢٦

والمقصود من قوله تعالى: (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ . . . .) إلخ بيان السبب فى إصرارهم على الكفر ، وعدم انتفاعهم بإنذار الرسول صلى الله عليه وسلم .

وليس المراد من الختم على القلوب ، والغشاوة على الأسماع والأبصار ، المعنى الحقيقى لهما ، إذ لا ختم فى الحقيقة ولا غشاوة ، بل المراد أنه تعالى تركهم وشأنهم الذى اختاروه لأنفسهم من إصرارهم على الكفر ، وتركهم التذكر بقلوبهم وعقولهم ، وصرفهم أسماعهم عن المواعظ وأبصارهم عن آيات الله تعالى ، فلم يلطف بهم ولم يهدهم ، جزاء إصرارهم وسوء اختيارهم ، كما يشير إليه قوله تعالى : « .. بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ[١] .. » وقوله : « ... كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ[٢] » . وقوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ[٣] » . ونقل ابن كثير عن ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية أنه قال : والحق عندى فى ذلك ما صح فى نظيره الخبرُ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وساق ابن جرير هذا الخبر بسنده عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتةٌ سوداءُ فى قلبه ، فإن تاب ونَزَع واسْتَعْتَبَ[٤] صُقِلَ قلبُه[٥] . وإن زاد زادت حتى تعلُوَ قلبه ، فذلك الرانُ الذى قال الله تعالى : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ[٦] » .

قال ابن كثير : ثم قال ابن جرير : فأخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ؛ وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم والطبع من قبل الله ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ؛ ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم فى قوله تعالى : « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ... » الآية : انتهى باختصار .

وخلاصة كلامه وكلامنا أن الكافر هو الذى تسبب فى إظلام قلبه حتى انصرف عن الإيمان، وأن الرين هو ذلك الظلام المعنوى الذى حَجَبَ قلبه ، بسبب انصرافه عن دواعى الإيمان ، وأن نسبة الختم إلى الله كناية عن تركه لهذا الظلام دون أن يكشفه حتى يدخل الهدى فى قلبه ، بسبب إصراره .

---

(١) النساء ـ من الآية : ١٥٥
(٢) الأعراف ـ من الآية : ١٠١
(٣) المطففين : ١٤
(٤) أى رجع عن ذنبه ، وطلب رضا ربه .
(٥) أى جُلى قلبه وأصبح نظيفا من أثر الذنب .
(٦) رواه ابن جرير والنسائى والترمذى وقال حسن صحيح .

ولو أنه صرف قواه الفكرية والحية إلى معرفة الحق لكشف الله عنه هذا الظلام ، ولهداه إلى الحق المبين .

(وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ) :

جملة مستأنفة لاتدخل فى حكم الختم السابق .

والغشاوة : هى الغطاء . والجملة : كناية عن عدم انتفاعهم بالآيات الكونية المرئية .

وبذلك اجتمع على الكفار عمى البصيرة ، التى هى نور القلوب ، وعمى البصر الذى هو نور الأبصار ، وانسداد السمع .

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

ويشمل ما أعد للكافرين من عذاب الآخرة الدائم ، وما يصيبهم فى الدنيا على أيدى المؤمنين من الأسر والقتل . والعظيم ضد الحقير ، كما أن الكبير ضد الصغير .

وقد وصف العذاب بلفظ (عظيم) منكرا ؛ تهويلا لما يصيبهم من أليم العذاب .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾) .

المفردات :

(يُخَادِعُونَ اللهَ) : الخداع : أن تظهر لغيرك خلاف ماتخفيه له من الشر ليحسن الظن بك ، ولما كان المولى سبحانه ، لايخفى عليه سرهم ونجواهم ، فلذا يكون الخداع هنا بحسب زعمهم ؛ جهلًا منهم .

(وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنفُسَهُمْ) : أى وما يعود ضرر خداعهم إلا عليهم .

(وَمَا يَشْعُرُونَ) : أى وما يدرون أن ضرره عائد عليهم .

(فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) : المراد منه هنا الشك والارتياب الذى نشأ عنه النفاق .

(فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) : شكًّا وارتيابا . والمراد : أنه خلّاهم وريبهم ، فلم يسعفهم بالتوفيق ؛ لسوء نيّاتهم ، فتضاعف الريب فى قلوبهم ، وتعاظم أثره من النفاق .

التفسير

٨ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) :

هذا شروع فى بيان صفات الطائفة الثالثة ، وهم المنافقون ، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون .

وهم أسوأ وأخبث من الكافرين الصرحاء .

وقد ابتلى الله بهم كل مجتمع ، فى كل زمان ومكان . وفى الاحتراز عنهم وعن مكرهم صعوبة ومشقة ؛ لأن مظهرهم لا يتفق مع مخبرهم .

وقد ذكر القرآن فى شأنهم هنا ثلاث عشرة آية متتالية - تبدأ من هذه الآية - ليحدد أوصافهم وخداعهم ، وضرب فيهم الأمثال التى تكشف عن حالهم ، وعاقبة أمرهم .

وقد ظهر النفاق بالمدينة بعد غزوة بدر الكبرى ، وسببه - كما قال ابن كثير - أن عبد الله ابن أبى سلول ، كان سيدا للخزرج ، وكان رئيسا لهم وللأوس قبل الإسلام ، ثم رأوا أن يجعلوه ملكا عليهم ، فلما جاء الخبر أسلموا واشتغلوا عنه ، فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله شىء ، فلما كانت وقعة بدر وظهرت شوكة المسلمين قال : هذا أَمْرٌ قد تَوَجَّه ، يريد بالأمر : الملك ، ويريد بتوجهه : زواله عنه وقد دفعه يأسه من تحقيق أمنيته ، أن يدخل فى الإسلام كما دخل قومه ، ولكنه دخله مرائيا غير مخلص ، ودخل معه آخرون من قومه وغيرهم على مشاكلته ، كما حدث مثل ذلك من طائفة من أهل الكتاب ، فمن ثَمَّ وُجِدَ النفاق فى أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ، والنفاق مرض اجتماعى ينشأ عن الحقد والضعف النفسى والطمع .

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَاهُم بِمُؤْمِنِينَ) :

أى وبعض الناس جماعةٌ منافقون : يظهرون للمؤمنين أنهم جمعوا بين طرفين من الإيمان ، أولهما الإيمان بالله ، وثانيهما الإيمان باليوم الآخر : خداعا للمؤمنين ، حتى يأمنوا جانبهم ،

(وَمَا هُم بِمُؤْمِنِين) : أى وليسوا فى الحقيقة مؤمنين؛ لعدم إيمانهم بالنبى صلى الله عليه وسلم؛ ولأن إيمانهم بالله واليوم الآخر غير صادق.

وقد روعى لفظ (مَن) ، مفردا فى ضمير يقول . وروعى معناه جمعا فى ضمائر (ءَامَنَّا) ، (وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) .

ونفى إيمانهم الذى ادعوه بالجملة الاسمية فى قوله تعالى : (وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) أقوى ؛ لأنها تقتضى دوام النفى واستمراره ، كما علم الله فيهم .

٩ ـ (يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمنُوا ...) : الآية.

هذه الآية كالتعليل لنفى الإيمان عنهم ، أى وما هم بمؤمنين حقا ؛ لأنهم يخادعون الله والمؤمنين بما يقولون .

والخدْع : أن توهم غيرك خلاف ماتخفيه من المكروه . أما المخادعة فإنها فى أصل معناها تقتضى أن يكون من الجانبين ، ولكن قد يراد منها المبالغة فى الخدع من جانب واحد ، وهو المقصود هنا . ولذا قرئ (يَخْدَعُون) على الأصل .

وخداعهم الله ـ بحسب زعمهم ـ جهل منهم بالله ، إذ لو عرفوه لعلموا أنه لايُخْدَعُ ، لأن الخداع إنما يكون مع من لايعرف البواطن . وخداعهم للمؤمنين غفلة منهم ، فنفاقهم غير خاف على أحد منهم فقد فضحهم الله ، وأظهر رسوله على نفاقهم ، وفضحوا أنفسهم فى غزوة أحد ، «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ»[1] ، ولذا قال الله تعالى : (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ) .

فإن من خادع من لايُخْدَع فقد خدع نفسه، لأنه يظهر لها بفعله أنه يحقق لها أمنيتها من التقية والسلامة ، مع أنه يوردها به موارد العطب، ويجرعها كأس العذاب وأليم العقاب والحرمان من دار الثواب .

ويجوز أن يكون المعنى : وما يعود ضرر خداعهم إلا على أنفسهم ؛ فإنهم سيعذبون به فى أخراهم ، وسيفضحهم الله فى الدنيا باطلاع نبيه على ما أضمروه .

(وَمَا يَشْعُرُونَ) : أى وما يفطنون لهذه العاقبة ، لتمادى غفلتهم ، كالذى لا حس له ولا شعور .

---

(١) محمد : ٣٠ .

١٠ – (فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا . . .) : الآية .

المرض فى الأصل : خروج البدن عن اعتدال مزاجه وصحة أعضائه . فيتعرض البدن للآلام .

ويطلق مجازا على شك القلوب وارتيابها . فمرض القلوب هنا ، مراد به ترددها فى العقيدة ، وعدم وصولها إلى الحق ، مع قيام الأدلة عليه ، فلما عموا عن النور ، زادهم الله مرضا . فالنفاقُ عرض ظاهرى لمرض قلبى هو : الشك والجبن .

والمراد من زيادة المرض : نمو حال النفاق عندهم . ذلك أن المنافق يبتدىء فيكذب على الناس ويرائيهم ، فإن استمر على ذلك ، صار النفاق من أحواله الملازمة . على حد قوله تعالى : « . . . مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ [١] . . . » .

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) :

أى ولهم عقاب مؤلم فى الدنيا ، بسبب مايجره عليهم النفاق من مهانة واحتقار ، وعذاب شديد عند الله فى الآخرة . بكذبهم على الله والناس بقولهم : (آمَنَّا) .

وقد يقال : إذا كان المنافقون أشد خبثا من الكفار ، فلم لم يستحل النبى قتلهم ؟

والجواب : أنهم لما أظهروا الإسلام ، عاملتهم الشريعة بهذا الظاهر ، والله يتولى السرائر .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾) .

التفسير

١١– (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) :

فى الآية بيان لعناد المنافقين ، وإصرارهم على الفساد ، كلما وجه إليهم الإرشاد من أى ناصح ، ولهذا بنى القول للمجهول ، فقيل : (وإذا قِيلَ لَهُمْ لاتُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ) . وإفسادهم

(١) التوبة – من الآية : ١٠١

فى الأرض كان : بإثارة الفتن بين المسلمين ، وإفشائهم أسرار المسلمين للكفار ، وتحريض الجميع - مسلمين وكفارا - على الحروب .

وقد كانت الأرض قبل مبعث النبي مليئة بالفساد وبالمعاصى ، فلما بعث النبى - صلى الله عليه وسلم - عمل على إزالة هذا الفساد ، والقضاء على العصبيات الجاهلية . وبذلك تهيأت الأرض للصلاح باستقامة المجتمعات الصالحة عليها ، فلما جاء المنافقون ، وكان من آثارهم إحياء الفتن بين الناس - قيل لهم : (لاَ تُفْسِدُوا فى الأَرْضِ) ؛ أى بعد إصلاحها بالتعاليم الإسلامية ، فكان جواب المنافقين مبنيا على مغالطة كاذبة . إذقالوا : (إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) ، أى : نحن مقصورون على الإصلاح ، ولا نعرف الإفساد ، فكيف ننهى عنه مع أننا لم نفعله ؟ . وإنما قالوا ذلك ، لأنهم صوروا الإفساد إصلاحا ، لمرض قلوبهم ، على حد قوله تعالى : (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا) [1] .

١٢ - (أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلٰكِن لاَّ يَشْعُرُونَ) :

هذا هو الرد على دعواهم . وهو أبلغ رد لما فيه من (أَلاَ) ، المنبهة و (إِنَّ) المؤكدة ، وتعريف الخبر (الْمُفْسِدُونَ) ، وتوسيط ضمير الفصل (هُم) . ونفى الشعور والإدراك عنهم لفساد عقولهم ، فصاروا لا يميزون بين الخبيث والطيب ، ولا يشعرون بالفروق بين الفاسد والصالح .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾) .

التفسير

١٣ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ . . .) : الآية .

نُصِحُوا فى الآية السابقة بترك الإفساد ، وهنا ، نصحوا بتحقيق إيمان سليم من النفاق .

---

(١) فاطر : ٨

والمعنى : وإذا أرشدوا ، فقيل لهم : آمنوا بالله ورسوله - بقلوبكم - كما آمن الناس الكاملون المستجمعون لخصائص جنسهم ومزاياه ، بحيث لا يقترن إيمانكم بشيء من شوائب النفاق . (قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) ؟ والاستفهام في كلامهم للإنكار والنفي .

والسفهاءُ : ناقصو العقل والرأى ، أى لا نؤمن كإيمان المؤمنين السفهاء ، الذين لا عقل عندهم ولا رأى . وهذا الرد قالوه فيما بينهم ، لأنه كفر صريح ، وهم يتظاهرون بالإيمان ، وقد فضح الله سرهم هذا وأظهره ، ثم رد عليهم السفه كما سيأتى .

وقال أبو السعود فى قولهم : (أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السُّفَهَآءُ) إنه رد فى مقابلة الناصحين من المؤمنين ، فيه ضرب من النفاق ، لأنه يحتمل الشر والخير - فهو فى ظاهره - على معنى : نحن لا نؤمن كما آمن السفهاء ، بل نؤمن كما آمن الناس كما أمرتمونا أنتم ، فلا تتهمونا بفساد الإيمان ، ولكنهم يقصدون فى أنفسهم أن المسلمين سفهاء ، وأنهم لذلك لا يؤمنون كما آمنوا .

(أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ) :

رد الله عليهم السفه الذى اتهموا به المسلمين أبلغ رد ، وأكد اتصافهم به ، وأنه مقصور عليهم ، فصدر بلفظ (أَلَآ) التى هى للتنبيه ، وأكده بلفظ (إنَّ) ، وبالجملة الاسمية ، وبضمير الفصل ، أى إنهم هم السفهاءُ ، لا غيرهم ممن أرادوا وصفهم بالسفه من المؤمنين . (وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ) أنهم هم السفهاء وحدهم ، أما المؤمنون فهم العقلاء العلماء .

(وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾) .

المفردات :

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ) : أى انفردوا بمن بقى منهم على الكفر ، أو برؤساء المنافقين والقائلون : صغارهم .

(إِنَّا مَعَكُمْ) : أى كافرون مثلكم بمحمد .

(إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) : أى مستخفون بالمؤمنين ، حينما نظهر الإيمان لهم .

(اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) : أى يجازيهم على استهزائهم .

(وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ) : أى يمهلهم فى ضلالهم .

(يَعْمَهُونَ) : يتحيرونَ .

التفسير

١٤ - (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوٓا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ . قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) :

فى هذه الآية تصوير لأحوال المنافقين فى معاملتهم المؤمنين والكفار ، فإذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا ؛ ليظهروا موافقتهم لهم ، وإذا خلوا إلى شياطينهم الذين يلقنونهم الباطل - وهم من بقى منهم على الكفر ، أو كبار المنافقين ، والقائلون صغارهم - قالوا مطمئنين لهم : إنا معكم فى الكفر باطنا ، وتعللوا لإظهار الإيمان للمؤمنين بقولهم : (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) أى مستخفون بهم ، إذ نعمل على خلاف مانقول لهم .

وقد صور الله نفاقهم فى الآية أبدع تصوير ، فعبّر عن ملاقاتهم للمؤمنين بكلمة (لَقُوا) لأن لقاءهم للمؤمنين كأنه مصادفة لايحرصون عليه . وعبّر عن ملاقاتهم لشياطينهم بكلمة (خَلَوْا) لأن الخلوة تطلب قصدا للإدلاء بالأسرار ، وذكر أنهم كانوا عند لقاء المؤمنين يقولون (آمنَّا) فعبروا بالفعل الماضى ليظهروا للمؤمنين أنهم معهم من زمان مضى ، وعند لقائهم لشياطينهم يقولون : (إِنَّا مَعَكُمْ) بالجملة الاسمية المفيدة للدوام ، ويؤكدونها بإنَّ ، ويعللون إظهار إيمانهم بالاستهزاء بالمؤمنين . فرد القرآن عليهم بقوله تعالى :

١٥ - (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) :

ومعنى (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) : ينتقم منهم ويجازيهم على استهزائهم ، لاستحالة المعنى الحقيقى على الله تعالى . سميت عقوبتهم باسم الذنب الذى صدر عنهم ؛ للمشاكلة اللفظية ، وهى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته . ومما جاء على هذا النمط قوله تعالى : « وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا . . . »[1] .

---

(١) الشورى - من الآية : ٤٠

فالجزاء ليس سيئة ، وإنما عبر بها عنه للمشاكلة اللفظية ، والمعنى مختلف .

وقوله تعالى : (وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) المدّ يأتى بمعنى الزيادة ، ومنه قوله تعالى : «... وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ... »[1] أو الإمهال والإملاء . والطغيان هنا ، مجاوزة الحد فى الضلال ، والعَمَه : عمى القلب . ومن لوازمه : الحيرة والتردد . والمعنى : ويزيدهم الله فى ضلالهم الشديد ، أو يمهلهم فيه : يتحيرون ويتخبطون ، لايدرون أين يتوجهون بسبب طغيانهم المستمر .

والمراد أنهم - بسبب كفرهم وعنادهم - سد الله عليهم طرق التوفيق ، فازدادوا رَيْنًا على قلوبهم ، وطغيانا فى تصرفاتهم .

(أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾) .

المفردات :

(اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) : المراد به ، استحبوا الكفر على الإيمان .

(فمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ) : فما نالوا خيرًا من الكفر الذى جعلوه بدلا من الإيمان ، فكانوا أشبه بالتجار الذين جهلوا أساليب التجارة ، فجروا على أنفسهم الخسارة .

(وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) : إلى مايوصلهم إلى الربح ، لجهلهم .

التفسير

١٦ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى . . .) الآية .

اسم الإشارة يعود على المنافقين ، مع ملاحظة صفاتهم المتقدمة .

والأصل فى الاشتراء : أن يكون فى المبادلات الحسية ، كاشتراء السلعة بثمنها ، ثم استعملته العرب فى المعانى ، كا شتراء الضلالة بالهدى .

---

(١) لقمان - من الآية : ٢٧

والمراد : أنهم استحبوا الكفر على الإيمان ، فليس الاستبدال حقيقة حتى يكون معاوضة ، لأنهم لم يسبق لهم الإيمان حتى يبذلوه فى مقابلة الكفر .

والتعبير بلفظ (اشْتَرَوا) يؤذن بأنهم قادرون على الإيمان بالفطرة ، لو نظروا واعتبروا .

والباء فى قوله : (بِالْهُدَى) داخلة على المتروك . لأنهم أخذوا الضلالة وتركوا الهدى الذى كان فيهم بالفطرة ، وتمكنوا منه بالأدلة الواضحة . (فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) ترشيح وتقوية للمعنى المجازى ؛ فإنه لما استعمل لفظ . اشترى مجازا عن استبدل ، أتبعه ما يشاكله تقوية له ، وتمثيلا لما فاتهم من فوائد الهدى ؛ بصورة خسران التجارة ، الذى يتحاشاه كل أحد ، للإشباع فى التخسير والتحسير أى : فلم يربحوا ، ولكن خسروا ، وما كانوا مهتدين إلى الربح لجهلهم بطرق التجارة الرابحة . وعدم اهتدائهم إلى أساليبها وأسبابها . وكذلك هؤلاء المنافقون : كان رأس مالهم الهدى ، فاستبدلوا به الضلالة ، فخسروا بذلك رأس المال ؛ وهو الهدى ؛ وربحه وهو النجاة والفوز ،(وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) إلى طرق التجارة الرابحة فى الدين .

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾) .

التفسير

١٧ ـ (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فى ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ) :

بعد أن بين الله فى الآيات السابقة صفات المنافقين،عقبها بتمثيلهم فيها ، زيادة فى توضيحها وتقريرها .

ففى التمثيل إبراز المعنى الخفى فى صورة الظاهر . وهو نوع من أساليب البلاغة تصور فيه المعقولات والمحسات ، والْمَثَلُ فى أصل اللغة بمعنى الشبيه والنظير ، كالمِثل والمثِيل ، وقد يستعار للحال التى فيها غرابة كما فى هذه الآية [١] .

والمراد من قوله : (الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) مَنْ سعى فى تحصيل وَقْدِها – أى لهبها وضوئها لتضىء له فى الليلة المظْلمة .

والأصل فى كلمة (الَّذِى) أن تستعمل فى المفرد ، وقد تستعمل فى الجمع كما هنا ، فهى بمعنى جماعة المستوقدين ، ولذا قال سبحانه : (ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ) بضمير الجمع ، ومن أمثلته قوله تعالى : (... وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا ...) [٢] ، أى كجماعة الخائضين . ويجوز أن يراعى لفظه المفرد ، فيعاد الضمير عليه مفردا كما فى قوله تعالى « اسْتَوْقَدَ » و « حَوْلَهُ » كما يجوز أن يراعى معناه ، فيعاد الضمير عليه جمعا ، كما فى قوله تعالى : « ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » .

وخلاصة المعنى : أن الله شبه حال هؤلاء المنافقين – وقد آتاهم ضربا من الهدى باستعداد الفطرة ، ونطقوا بالشهادتين بألسنتهم ، ثم أضاعوا ذلك ولم يتوصلوا به إلى نعيم الآخرة وسعادة الأبد فبقوا فى حيرة واضطراب لإعراضهم عن الحق واستبطانهم للكفر : – شبه حالهم هذا – بمن أوقد نارا لينتفع بنورها فى الظلمة ليلا ، فلما أضاءت ما حوله من الأمكنة ، سرعان ما انطفأت ، وذهب الله بنورهم ، فبقوا فى مكانهم حائرين : لايرون شيئا فيما حولهم ؛ لشدة الظلمة التى تحيط بهم من كل جانب .

والتعبير بلفظ (أَضَاءَتْ) أبلغ من التعبير بأنارت ، لأن الضوء مصدر النور ، كما يعلم من قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا . . . » [٣] ، و معلوم أن نور القمر مستمد من ضياء الشمس .

وقوله : (ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ) ، معناه : لم يُبقِ منه شيئا . وإنما لم يقل : بضوئهم كما يقتضيه الظاهر من كلمة (أَضَاءَتْ) لئلا يتوهم أن الذى ذهب هو زيادة الضوء ، مع بقاء أصل النور

---

(١) وقد يراد منه القول السائر المثل مضربه بمورده فى الغرابة ، كما فى قولهم : «الصيف ضيعت اللبن» ، وما فى الآية ليس منه ، لأن جماع المشبه والمشبه به ، والمثل السائر ليس كذلك .

(٢) التوبة من الآية : ٦٩ (٣) يونس من الآية : ٥

ولذا قال عقبه: (وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّايُبْصِرُونَ) ، أى تركهم فى ظلمات لايرى فيها شىء . وإسناد إذهاب النور إلى الله ؛ للإيذان بأنه إنما ذهب بأمر سماوى . كالمطر والهواء أو المبالغة فى إذهابه .

١٨ ــ (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) :

ليس المراد : الإخبار بأنهم أصيبوا بحقيقة الصَّمم والبكم والعمى ، فقد كان لهم آذان تسمع ، وألسنة تنطق ، وأبصار تنظر . ولكنهم ــ لما حجبوا أسماعهم عن معرفة الحقائق كانوا بمثابة الصم الذين لايسمعون . ولمّا لم ينطقوا بالحق مخلصين ، كانوا بمثابة البكم الذين لايتكلمون . ولمّا لم يتعرَّفوا الحقائق ببصائرهم ، كانوا كالعمى الذين لايبصرون . ولاسبيل لعودتهم إلى الحق ؛ لإعراضهم عن استعمال هذه الحواس فيما خلقت لأجله . ولهذا قال سبحانه : (فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) أى لايعودون إلى الهدى ، فقد أضاعوه ، كما لايعود إلى مقصده من بقى فى ظلام لايهتدى فيه إلى سبيل يوصله إليه .

ومن هذا البيان اتضح أن فى الكلام تمثيل حالهم ــ فى تعطيلهم لفطرتهم المتمكنة من الهدى ، وعدم انتفاعهم بالآيات والنذر ، وعدم قطعهم بالحق ــ بحال من فقد السمع والنطق والبصر ، لتعطل مصادر النفع وعدم الانتفاع فى كل منهما .

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾) .

المفـردات :

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ) : الصيب:[1] يطلق على المطر المنهمر ، وعلى السحاب الكثيف ، والسماء : كل ماعلاك والمراد منها هنا : السحاب ، فهو من معانيها .

(١) بوزن فيعل ، مأخوذ من الصوب ، وهو النزول والانصباب .

(فِيهِ ظُلُمَاتٌ) : المراد بها الظلمات الناشئة من كثافة المطر وتتابعه وغمامه وظلمة الليل

(وَرَعْدٌ) : الرعد ؛ صوت مدوٍّ فى الهواء ، سببه التقاء سحابة كهرباؤها موجبة ، بسحابة أخرى كهرباؤها سالبة ، فتتحد الكهرباءُ فيهما ، وعندها يسخن الهواءُ فيتمدد تمددا فجائيا ، ينشأُ عنه ضغط قوى ، يعقبه تخلخل سريع فيجذب إليه تيارات هوائية أخرى تحدث صوتا قويا هو الرعد ، ويتم هذا فى سرعة عجيبة .

(وَبَرْقٌ) : البرق ، لمعان ضوئى شديد ، يظهر ويختفى سريعا . وسببه حدوث شرارة كهربائية ناشئة عن اتصال الكهرباء فى سحابتين : إحداهما كهرباؤها سالبة ، والأُخرى كهرباؤُها موجبة .

والبرق والرعد متلازمان غالبا ، ولكننا نرى البرق ثم نسمع بعده الرعد ؛ لأن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت أضعافا مضاعفة .

(الصَّوَاعِق) : جمع صاعقة ، وهى حرارة هائلة تصحب البرق والرعد أحيانا . وسببها اتصال كهربائىٌّ ناجم عن التفريغ الكهربائى الذى يحدث بين الأرض والسحب المكهربة ، فتحدث حرارة بالغة سريعة : تصهر ما بينهما ، أو تحرقه أو تفتته . تبعا لاختلاف مادته .

وظواهر الرعد والبرق والصواعق ، تحدث عند تكاثف السحب ، واختلاف درجات الحرارة بين طبقات الهواء .

(وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) : أى لا يفوتونه ولا ينجون من بطشه ، كما لا ينجو الشخص مِمَّنْ أحاط به .

(وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) : أى وإذا أظلم البرق عليهم ولم يضىء لهم ، وقفوا ولم يمشوا .

التفسير

١٩ - (أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ . . .) الآية .

فى هذه الآية تمثيل آخر لحالة المنافقين ؛ إذ مثلها بحال مطر غزير منهمر من السحاب ، اشتمل على ظلمات كثيرة ، كما اشتمل على رعد وبرق .

وقد كرر التمثيل ، رعاية لتفننهم فى فنون النفاق ، وتنقلهم فيه من حال إلى حال ، وذلك جدير بأن تعدد فيه الأمثال ، وقد جىء بحرف العطف (أَوْ) بين التمثيلين ؛ لإفادة تساوى القصتين فى أن يكونا مثلا لحالهم انفرادا أو اجتماعا ، فـ (أَوْ) هنا ، مثلها فى قولك : جالس الحسن أو ابن سيرين . أى جالس أحدهما أو كليهما ، فهما سواء فى الإفادة .

وكأن سائلا قال : كيف حالهم عند سماع الرعد ؟ . فأُجيب (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ) . والأصابع مجاز عن الأنامل . فهو من باب التعبير عن الجزء باسم الكل ، مبالغة ، فى إعراضهم عن قبول ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، فهم يحذرونه كما يحذر الخائف من الصواعق ، فيسد أذنيه بأنامله حتى لايسمعها ؛ خشية أن يموت من شدة الصوت الذى يصحبها .

(وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) : إنذار لهم بأنهم لن يفلتوا من عذابه ، أى لايفوتونه ، كما لايفوت الشخص من أحاط به من جميع جهاته .

٢٠ ــ (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا . . .) الآية .

هذا كلام مستأنف لبيان حالهم عندما يرون البرق ، كأن سائلا قال : وما حالهم عند البرق فأجيب : (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) : أى يذهبها (كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ) أى مشوا فى ضوئه . وسرعان ما يزول الضوء ، فيقولون فى حيرتهم ، وهذا معنى قوله :
(وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا):أى وقفوا حائرين . (وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ) عند قصف الرعد (وَأَبْصَارِهِمْ) عند وميض البرق ، وإنما وحد السمع وجمع الأبصار ، لأن السمع فى الأصل مصدر ، والمصادر لاتثنى ولا تجمع ، كما قاله صاحب الإرشاد : (إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، فهو الفاعل المختار ، يقول للشىء كن فيكون .

الغرض من الآيتين : (أَوْ كَصَيِّبٍ) إلى (قَدِيرٌ) ، تمثيل حال المنافقين من الحيرة والتردد ، بين مُضِيٍّ فى الإسلام وإحجام عنه ، بحال من أمطرته السماء فى ليلة مظلمة مع رعد قاصف وبرق خاطف فتحير بين إقدام حين يلمع البرق ، وبين إحجام حين يسمع الرعد ويشتد عليه الظلام ، والمطر فى كلتا الحالتين فوق رأسه ينهمر ، فما أروع هذا التمثيل .

ويمكن جعله من باب التشبيه المفرق فيشبه القرآن - الذى تعبدهم الله به وسائر ما آتاهم من المعارف التى هى سبب الحياة الأبدية - بالصيب أى المطر الذى به حياة الأرض. ويشبه ما أحاط بهم من التردد والحيرة والشكوك بالظلمات ، ويشبه وعد القرآن ووعيده بالرعد ، ومافيه من الآيات الباهرة بالبرق ، وتَصَامُّهم عما يسمعون من الوعيد بحال من يهوله الرعد فيخاف صواعقه فيسد أذنيه عنها مع أنهم لاخلاص لهم منها ، وهو معنى قوله تعالى : (وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) . واهتزازهم لما يلمع لهم من رُشدٍ يُدركونه ، أو رفد تطمح إليه أبصارهم بمشيهم فى مكان ضوء البرق حين يضىء ، وتحيرهم فى الأمر وتوقفهم فيه حين تعرض لهم شبهة أو مصيبة - بتوقفهم إذا أظلم عليهم البرق .

ونبه سبحانه وتعالى بقوله : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ) على أنه تعالى جعل لهم السمع والأبصار ليتوسلوا بها إلى الهدى والفلاح . ولكنهم صرفوها إلى الحظوظ العاجلة وأوْصدوها عن الفوائد الآجلة ، ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التى آثروها لأنفسهم ، وهى إضاعة فائدة السمع والبصر فإنه على ما يشاء قدير ، ولكنه لم يفعل ، لعلهم يعتبرون فيدركوا .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾) .

المفردات :

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) : لكى تَقُوا أنفسكم وتحفظوها بعبادته من عقابه .

(جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا) : مبسوطة ممهدة كالفراش .

(وَالسَّمَآءَ بِنَآءً) : البناء هو المبنى ؛ بيتا كان أو قبة أوخباء . ومنه قولهم : بنى الرجل على زوجته ، إذا ضرب فوقها قبة . والمراد : أنه جعل السماء فوقهم كالقبة .

(وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً) : أى وأنزل من السحاب ماء ، فكل ما علاك ؛ سماء .

(فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً) : أى فلا تجعلوا لله شركاء يشبهونه فى الألوهية . والند : الشبيه والنظير .

(وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) : أنهم لا يصلحون للألوهية والمشابهة لله فى الخالقية وسواها ، من الصفات اللائقة بالمعبود بحق « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً »[1] .

التفسير

٢١ - (يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ . . .) الآية .

بعد أن ذكر الله طوائف المكلفين من المؤمنين والكافرين والمنافقين – مع بيان صفات كل طائفة – أقبل عليهم جميعا بالخطاب ؛ هزًّا لمشاعرهم وتنشيطًا لهم ، قائلا لهم :

---

(١) الإسراء : ٤٣

(يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) ، فكلمة (النَّاسُ) عامة ، تشمل أمة الدعوة المكلفين : من آمن منهم ومن لم يؤمن ، من الموجودين فى عهد النبى – صلى الله عليه وسلم – ومن سيوجد بعدهم إلى يوم القيامة ؛ لعموم الرسالة المحمدية .

وقد دخلوا فى الخطاب – وهم غير مخلوقين فى وقت الخطاب – تغليبا للموجودين على من سيوجدون ، ويكون الأمر بقوله : (اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) بالنسبة للمؤمنين ، بمعنى داوموا على عبادته ، وبالنسبة إلى غيرهم ، بمعنى حصِّلوا العبادة وأنشئوها .

والعبادة المطلوبة ؛ هى الطاعة المبنية على حبِّ المعبود ، لا يشاركه فيها غيره ؛ لأنه المستحق لها وحده ؛ لانفراده بالخلق والربوبية وكامل الإنعام ، مع القدرة الشاملة وعظيم السلطان .

وليست العبادة مقصورة على نحو الصلاة والصوم والزكاة ، ، بل تشمل كل عمل يعمل لنفع الناس والحيوانات ، إذا أُريد به وجه الله .

فالعامل الذى يخلص فى عمله لأبناء وطنه ويرجو به رضا الله يكون عابدا وعملُه عبادة .

وإطعام الحيوانات والعناية بها امتثالا لأمر الله عبادة .

وقد اقترن الأمر بالعبادة بذكر أوصاف المعبود ، التى من شأنها أن تحملهم على عبادته ، لتعدى أثرها لهم .

فقوله :(رَبَّكُمُ) يفيد أنه تعالى مربيهم ومتعهدهم بالتكميل المستمر .

وقوله : (الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) تذكير لهم بأوّل نِعَمه عليهم ، وهى الخلق من العدم ، لهم ولآبائهم من قبلهم ، ونعمة الآباء نعمة للأبناء ؛ إذ لولا خلق آبائهم لما وجدوا .

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) : أى لتتقوا العذاب ، الذى هو عاقبة المخالفين لأمر الله تعالى .

٢٢ ـ (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ . . .) الآية .

فى هذه الآية ، تعداد لنعم الخالق على الناس ، وتذكير بأفضاله عليهم ، حيث خلق لهم الأرض ، وصيرها لهم مبسوطة كالفراش ، بحيث يقعدون عليها وينامون ، ويزرعون ويحصدون ، ويبنون عليها بيوتهم . وجعل (السَّمَآءَ بِنَآءً) أى تكوينا يشبه القبة فوقهم ، وزينها بالكواكب والنجوم ليهتدوا بها (وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ) أى من السحاب (مَآءً) ، وهو المطر الذى تحيا به الأرض والزرع والحيوان (فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ) تكرما وتفضلا ، وخروج الثمار وأصولها بقدرة الله ومشيئته ، ولكنه ـ تعالى ـ جعل الماء الممزوج بالتراب سببا فى إخراجها . كالنطفة للحيوان ، بأن أجرى عادته بإفاضة صورها وكيفياتها ، على المادة المستخلصة منهما .

(فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) : الفاء للتعقيب على ما سبق ذكره من النعم الجزيلة . والأنداد : الشركاء ، جمع ند بمعنى النظير .

المعنى : يتفرع على هذه النعم ويتسبب عنها ، ألا تتخذوا للمنعم بها شركاء تعبدونهم من دونه ، وأنتم تعلمون أنهم لا يصلحون للألوهية . فهم لا يخلقون شيئا ، ولا يملكون لأنفسهم ـ ولا لغيرهم ـ ضرًّا ولا نفعا ، فلا عذر لمن عطل عقله ، فسوى هذه الأصنام العاجزة بالإله القادر ، الذى خلقه وأنعم عليه ؛ دون حجة سوى تقليد الآباء[1] .

والترتيب فى هذه الآية عجيب ، فقد رتب الأمر بالعبادة ، على صفة الربوبية ؛ لأنها السبب فى وجوب العبادة ، ثم بين الربوبية بآثارها . وهى أنه خلقهم وخلق من قبلهم ، وما يحتاجون إليه فى معاشهم ، من الأرض المقلة والسمآء المظلة ، والثمرات التى منها المطاعم والملابس .

---

(١) وقد أحسن عمرو بن نفيل ، موحد الجاهليين إذ قال :

أَرَبًّا وَاحِدًا أَمْ أَلْفَ رَبٍّ ... أدين إذا تقسمت الأمور

تركت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الرجل الخبير

(وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾) .

المفـردات :

(وَإِن كُنتُم فِي رَيْبٍ) : في شك .

(مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا) : أي من القرآن الذي أنزلناه على محمد صلى الله عليه وسلم.

(فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) : أي بسورة من مثل القرآن في بلاغته وأغراضه ، أو بسورة من مثل عبدنا .

(وادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ) : مَنْ يشهد لكم على ماجئتم به ، إن كان يصلح أن يكون مثلا لسورة من القرآن ، أو لا يصلح .

(مِن دُونِ اللهِ) : أي من غير الله .

(إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) : في دعواكم ، أن محمدا اخترعه ، ولم ينزله الله عليه .

(وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) : أي ما توقد به نار جهنم ؛ هو الناس الكافرون والحجارة التي جعلوها آلهة ، وغيرها .

التفسير

٢٣ - (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) .

لما أمر الله - في الآيات السابقة - بعبادته وحده ، ونهى عن اتخاذ الأنداد ، أتبع ذلك ما يدل على أن القرآن الذي أنزله على محمد معجزة ، وأنه من عند الله ، إذ تحداهم أن

يأتوا بسورة مثله إن كانوا صادقين فى أن محمدا افتراه من عنده ، فعجزوا أمام هذا التحدى مع أنهم أئمة البلاغة والفصاحة ، فإذا عجزوا هُمْ فغيرهم أشد عجزا ، وحيث كان محمد – صلى الله عليه وسلم – مثلهم ، وكان أميًّا ، فإنه يستحيل أن يكون القرآن – الذى فاق قدرة البشر من تأليفه هو ، فوجب أن يكون من عند الله ، أنزله الله عليه تأييدا له ، كما أيد المرسلين قبله بالمعجزات . واختص النبى صلى الله عليه وسلم بمعجزة القرآن ، لأنه هو المناسب لإعجاز العرب البلغاء الفصحاء ، ولأنَّ العالم شَبَّ عن الطوق ، ولأن رسالته باقية إلى آخر الزمان ، وهذا يقتضى أن تكون شواهد معجزته باقية معها مقارنة لها فى جميع الأجيال ، فلذا كانت معجزته القرآن الكريم ، الذى تقارنه شواهد إعجازه دائمًا .

أما سائر المرسلين ، فإن رسالة كل منهم كانت موقوتة بين رسولين ، ومحصورة فى محيط ضيق ، فلهذا كانت معجزة كل منهم ، مقصورة على زمان معين ومكان معين ، وبين عدد محدود من الشهور .

وإعجاز القرآن كما يتجلى فى بلاغته وفصاحته ، يتجلى أيضًا فيما تضمنه من التشريعات الفائقة ، والقصص الصادقة للأمم السابقة ، والإشارة إلى الكونيات التى كشف العلم بعضها ، ولا يزال جاهدا فى كشف سواه ، وبما اشتمل عليه من قواعد السلوك والأخلاق .

وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «ما من نبى من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلَىَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » رواه الشيخان عن أبى هريرة ، واللفظ لمسلم .

وله – صلى الله عليه وسلم – من المعجزات غير القرآن ، ما يفوق الحصر ، فلله الحمد والمنة . وقد تحداهم الله مثل هذا التحدى فى مواضع عديدة من القرآن ، مكيِّه ومَدَنيِّه ، فمن مَدنيه هذه الآية، ومن مَكِّيِّهِ قوله تعالى فى سورة الإسراء : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[1] .

وسبب تحديهم بهذه الآية وأمثالها : أنهم قالوا : « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا[2] » ولمَّا نزل القرآن منجما حسَب الحوادث ، لم يعجبهم هذا ، وقالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً »[3] فجعلوا نزوله منجَّماً حسب الوقائع ، دليلا على أنه ليس من عند الله .

---

(١) الإسراء : ٨٨ (٢) الأنفال : ٣١ (٣) الفرقان : ٣٢

وقال بعضهم فى أحاديثهم عنه : إنه أساطير الأولين . وزعم آخرون : أنه سحر .

تخبُّطٌ منهم ناشئ عن إصرارهم على الكفر . فهم يلتمسون العلل الباطلة لبقائهم على دينهم ، ولحمل المؤمنين على ترك الإسلام . فلا جرم أن تنزل هذه الآية لتحديهم فيما زعموه ، حتى إذا ما عجزوا ، وجب اعترافهم بأن القرآن من عند الله ، وأن المنزل عليه هو نبي الله ورسوله . إذ المراد بعبدنا ، هو النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – مأخوذ من معنى التعبد ، وهو التذلل والخضوع لمالكه وخالقه .

وإضافة عبد إلى ضميره تعالى ، للتنويه بشأن هذا النبي . والتعبير بكلمة (نَزَّلْنَا) المفيدة للتكرار دون (أنزَلْنا) منظور فيه لحالة نزول القرآن مفرقا حسب الوقائع . وكان ذلك موضع اعتراضهم كما تقدم . وجواب الشرط قوله : (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) .

والسورة:اسم لطائفة من آيات القرآن ، مأخوذة من سور المدينة ؛ لأنها محيطة بطائفة من القرآن إحاطة سور المدينة بما فيها . والضمير فى (مِثْلِهِ) عائد على القرآن .

كما فى قوله تعالى : «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ »[1] أى فأتوا بسورة مماثلة لسُوَر القرآن فى البلاغة وحسن النظم ، وتضمن مصالح الدنيا والآخرة . فإن رجعنا ضمير (مِثْلِهِ) على النبي – صلى الله عليه وسلم – فالمعنى فأتوا بسورة صادرة ممن هو على حاله – صلى الله عليه وسلم – فى اللغة ، وكونه أميًّا لم يخالط أهل الكتاب. وجعل الضمير راجعا إلى القرآن أولى ؛ لتطابق هذه الآية مثيلاتها فى القرآن ، كقوله تعالى : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ »[2] ولأن الكلام فى المنزل ، لا فيمن نزل عليه .

ومعنى قوله تعالى : (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) : أى ؛ ادعوا أنصاركم الذين يشهدون أموركم ، ويقدرون الأمر فى شئونكم ؛ ليكون التحدى – فى النهاية – للجميع ؛ أو لكى يشهدوا بحال ما جئتم به .

---

(١) يونس : ٣٨ (٣) الإسراء : ٨٨

أو المراد بالشهداء ، آلهتهم الذين يعبدونهم من دون الله ، فيكون الكلام للتبكيت لهم على اتخاذهم آلهة لا يفقهون شيئا .

(إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) فى دعواكم إن القرآن ليس من عند الله ، بل من صنع البشر كما زعمتم . وجواب (إن كُنتُمْ) مدلول عليه بقوله: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ) .

ومعنى آية التحدى هذه إجمالا : إن كنتم - أيها الكفرة - صادقين فى دعواكم : أنه من كلام البشر - وأنتم من البشر - فأتوا بسورة مثل هذا القرآن : فى بلاغته وفصاحته ، ومعناه وأحكامه ، وقد أُنزل القرآن عربيا ، فهو من لغتكم ، لا من لغة تجهلونها . والعربية مجال تنافسكم وتسابقكم فى المحافل العربية .

ولو كان مقدورا لهم لفعلوا ، ولأذاعوا به ، وأشاعوه ، ولم يثبت شىء من ذلك عنهم . وبذلك ثبت عجزهم المطلق . وإذا عجزوا - وهم الفصحاء البلغاء - كان غيرهم أعجز كما تقدم .

٢٤ - (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا . . .) الآية .

إن الشرطية هنا ، مستعملة لليقين ، وإن كان غالب استعمالها للشك ، و (لَنْ) فى (وَلن تَفْعَلُوا) من الآية إنما هو لنفى الفعل المستمر فى المستقبل ، إلى الأبد . وذلك من معجزات القرآن ، إذ لم يقع منهم أنهم أتوا بسورة مثله .

(فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) :

أى فارجعوا إلى الصواب، واتقوا عذاب النار التى أُعدت وهيئت للكافرين ، بتصديقكم أنه من عند الله .

ووصف النار بأن وقودها ناس وحجارة ، مثل قوله: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ)[1] .

---

(١) الأنبياء : ٩٨

فالناس الذين هم وقودها ، هم الكفار ، والحجارة حجارة الأصنام التى كانوا يعبدونها : تجعل وقودا للنار معهم ، إهانةً لهم ولِمَا كانوا يعبدون .

والآية تبدى مِنَ التحذير ، ما لا يستطيع عاقل تجاهله . وفيها دليل على أن النار مخلوقة موجودة ، من قبل نزولها .

(وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾) .

المفـردات :

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا) :التبشير يطلق غالبا ، على الإخبار بالخبر السار . وقد يُطلق مجازًا بما يحزن كقوله : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [١] » والمراد هنا الأول .

(كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ) : أى كلما رزق أهل الجنة شيئا من ثمارها ، يقولون : هذا هو الذى وُعِدنا من قبل فى الدنيا أن نرزقه فى الآخرة ، أو هذا الذى رزقناه فى الدنيا ؛ لكونه مشابها له ، حتى إذا تذوقوه أدركوا الفرق بين ثمار الدارَين .

(وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا) :أى مُنحوا ثمر الجنة ؛ يشبه بعضه بعضا فى الشكل ، مع اختلاف الطعم ، أو متشابها مع ثمار الدنيا شكلا ليأْنسوا به ، لكنه يفوقه طعما ومذاقا .

(وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ) : أى زوجات مبرأة من الدنس والعيب .

---

(١) الانشقاق : ٢٤

التفسير

٢٥ - (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . .) الآية .

هذه الآية بشارة وعِدَةٌ للمؤمنين ، مقابلة لما ذكر فى الآية السابقة ، من تحذير ووعيد للكافرين . وهكذا ، يصرف الله الآيات وينوعها بين الترهيب والترغيب .

ومعنى التبشير المفهوم من قوله : (وَبَشِّرِ) : الإخبار بما يسر ، وأُطلق عليه ذلك ، لظهور أثره على البشرة . وقد سيقت البشرى فى هذه الآية لمن آمن وعمل صالحا من الناس ، أى لمن جمعوا بين عمل القلب ، وهو الإيمان والتوحيد الخالص ، وعمل الجوارح ، وهو الاستقامة والاستدامة للعمل الصالح .

ويستدل بها على أن مفهوم الإيمان لا يدخل فيه العمل الصالح ، ولكنه لا بد منه لحسن الجزاء ، فإن الإيمان وهو التصديق كالأساس ، والعمل الصالح كالبنيان فوقه . ولا يكفى أساس من غير بنيان ، كما لا يعيش بنيان بغير أساس ؛ لأنه معرض للانهيار .

وجمع (الصَّالِحَاتِ) للإشارة إلى الإتيان بها بأنواعها ، دون اكتفاء ببعضها . فأركان الإسلام وما يتصل بها ، متماسكة كما يفهم من حديث « بُنِيَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان[1] » مجمع عليه .

(أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ) :

أى وبشرهم بأن لهم جنات . . . . إلى آخر الآية ، والجنات : البساتين التى تتداخل وتتشابك فروعها ، فهى تُجِنُّ أى تستر من دخل تحتها .

وقوله : (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أى من تحت أشجارها .

(كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا) .

فى هذه الجملة وصف للجنات بأن أشجارها تحمل ثمارا متشابهة يستمتع بطعامها أهل الجنة ، كلما قطف أحدهم ثمرة منها وجد مكانها من الغصن ثمرة مثلها ، فيعجبون من ذلك

(١) صحيح البخارى وغيره

ويقولون : (هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ) ، وقد بيَّنت السُّنَّة ذلك . فعن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى[١] » .

وقد يقال فى معناها : إن ثمر الجنة متشابه فى الصورة والشكل – مع ما كان فى الدنيا ، فإذا رأوه قالوا : هذا الذى رزقناه من قبل فى الدنيا ، فإذا ما طعموه ، أحسوا فرقا شاسعا – فى اللذة والطعم – بينه وبين ثمر الدنيا . وإنما جعل ثمر الجنة مشابها – فى الصورة – لثمار الدنيا ؛ لتميل النفس إليه حين تراه ، فإن الطباع تميل إلى ما تألف ؛ ليتبين لها – بعد تذوقه – مزيته على ثمار الدنيا : فى الطعم واللذة ؛ فيقدروا فضل الله عليهم ، وقيل فى معناه غير ذلك .

(وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ) : ولأهل الجنة زوجات مطهرة مما يستقذر من نساء الدنيا ، كالحيض ودنس الطبع ، وسوء الخلق والأقذار .

والتطهير يستعمل فى الأجسام والأخلاق والأفعال .

والتعبير بقوله : (مُّطَهَّرَةٌ) يشعر بأن مُطَهِّرا طَهَّرهن . وهو لا يكون إلا الله – سبحانه وتعالى – إذ خلقهن على هذا النمط من الطهر .

والزوج فى الأصل : اسم لما له قرين من جنسه يزاوجه ويثانيه . ويطلق أيضًا ، على الذكر والأنثى . والقرينة هى التى تعين المراد .

(وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : الخلود فى الأصل ؛ البقاء المديد ، دام أو لم يدم ، فإذا أريد الدوام قيد بالتأبيد نحو قوله تعالى : « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا[٢] » .

والمرادُ بالخلد هنا : الدوام قطعا ، حملا للمطلق هنا على المقيد بالتأبيد ، فى آيات أخرى .

فإن قيل : إن الأبدان مركبة من أجزاء متضادة فى الكيفية ، معرضة إلى الاستحالات المؤدية إلى الانحلال والتفكك . فكيف يمكن الدوام فى الجنة ؟

---

(١) رواه الطبرانى ، والبزار ، إلا أنه قال : أعيد فى مكانها مثلاها ، ورجال الطبرانى وأحد اسنادى البزار ثقات : مجمع الزوائد جـ١٠ ص ٤١٤

(٢) التوبة : ٢٢

والجواب : أن ذلك فى عالم الدنيا المعرض للفساد ، أما الآخرة فالأمر – فى تكوين الأجسام فيها – مختلف عنه فى الدنيا ، فالأجزاء فيها متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض ، ولا يعتريها التغير والتحلل .

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾) .

المفـردات :

(لا يَسْتَحْيِي أن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا):أى لا يترك ضرب مثل . وضرب المثل : استعماله فيما ضرب له ، أى : فيما ذكر له .

(بَعُوضَةً):البعوضة واحدة البعوض ، وهو ضرب من الذباب معروف ، وهو من البعض ، أى القطع . يقال : بعضه البعوض ، عضه وآذاه . ولا يقال فى غير البعوض . ذكره صاحب اللسان . (فَمَا فَوْقَهَا):أى فالذى فوقها . والمراد بالفوقية : الزيادة فى الحجم ، كالذباب والعنكبوت ، أو الزيادة فى المعنى الذى أريد بالتمثيل ، أعنى : الحقارة والهوان .

(بِهَـٰذَا مَثَلًا):أرادوا بكلمة (هَـٰذَا):تحقير ما يشيرون بها إليه ، وهو البعوض والذباب ونحوهما ، مما يضرب مثلا . (إلاَّ الْفَاسِقِينَ):أى الخارجين عن طاعة الله . والفسق لغة : الخروج ، ومنه : فسقت الرطبة عن قشرها ، أى خرجت عنه .

التفسير

٢٦ – (إنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا . . .) الآية .

روى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما (أنَّ الله تعالى لما ضرب هذين المثلين – يعنى قوله : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا » وقوله : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ » الآيات الثلاث .

قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضربَ هذه الأمثال ، فأنزلَ الله تعالى هذه الآية إلى قوله : (هُمُ الْخَاسِرُونَ)[1] .

وعن قتادة لما ذكر الله العنكبوت والذباب ، قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ، فأنزل الله « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » .

وإذا تأملنا سبب النزول الأول ، عرفنا الرباط القوى بين الكلام السابق فى الآيات الماضية ، عن تردد المنافقين وحيرتهم وكفرهم القلبى ، وبين هذه الآية والتى تليها ، أمّا ما توسط بين قصة المنافقين الماضية وبين هاتين الآيتين : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ... » إلخ .. فهو مرتبط بقصتهم ، فقد اشتمل على دعوتهم -ومن على شاكلتهم من الكافرين- إلى الإيمان الصادق بربهم ، وبيان مقتضيات ربوبيته ، كما اشتمل على بيان إعجاز القرآن الذى يدعوهم إلى ذلك ، الأمر الذى يشهد بكونه من عند الله ، ، ويستدعى إيمانهم به ، كما تضمن الأثر المترتب على الكفر من الخلود فى النار ، والأثر المترتب على الإيمان من الخلود فى الجنة .

وحقيقة الاستحياء مستحيلة على الله تعالى لأنه : انقباض النفس عن القبيح ، مخافة الذم ومعناه : وسط بين الجرأة على فعل القبيح من غير مبالاة ، وبين الخجل وهو : إبعاد النفس عن الفعل مطلقا ، وهذا من صفة الحوادث .

وكل ما ورد من هذا القبيل فى الكتاب والسنة ، إنما يراد منه لازمه اللائق بالله تعالى : وهو الترك والامتناع .

ومعنى الآية : أن الله لا يمتنع من أن يضرب الأمثال ، كيفما كانت ؛ (بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) أى فوقها فى الحجم كالذباب والعنكبوت وغيرهما ، أو فى المعنى ، وإن دق الممثّل به وصغر عن البعوض فإن فى ضرب المثل إبرازا للمعقول فى صورة المشاهد المحس ؛ ليساعد على الفهم .

وقد شاعت الأمثال فى الكتب الإلهية ، وعبارات الحكماء والبلغاء لذلك ، فيمثل الحقير بالحقير ، كما يمثل العظيم بالعظيم . ولا يقدح هذا التمثيل فى عظمة من قاله . والقرآن الكريم لم ينفرد بذكر أمثال هذه الحشرات . فقد ورد ذكرها فى العهد القديم

(١) الواحدى فى أسباب النزول : ١٤ ، ١٥

أكثر من مرة . ومن ذلك ما جاء فى سفر يشوع إصحاح ٢٤ الفقرة ١٢ - « وأرسلت قدامكم الزنابير وطردتهم من أمامكم » - وتكرر ذلك فى سفر الخروج ٢٣ - ١٨ وسفر التثنية ٧ - ٣٠ .

ومن كلام العرب : « أَسْمَعُ من قُرادٍ ، وأطيَشُ من فَراشَةٍ » . ولا شك أن قدرة الله تتجلى فى الذرة كما تتجلى فى المجرة .

وقد روعى فى التعبير بكلمة : بعوضة ، المبالغة فى الرد على ما نطقوا به فى معارضتهم ؛ إذ المذكور فى تمثيل القرآن ، هو الذباب لا البعوض ؛ والبعوض أصغر من الذباب .

ثم بين الله حال المؤمنين والكافرين - إزاء هذا التمثيل - فقال جل شأنه : (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا) .

(الْحَقُّ) : الأمر الثابت الذى لا يسوغ إِنْكَارُهُ ، أى : فأما المؤمنون ، فيعلمون أن المثل هو الأمر الثابت (مِن رَّبِّهِمْ) الذى يضرب الأمثالَ ؛ ليعينهم على فهم المعانى الصحيحة.

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا) :

كان الظاهر أن يقال : وأما الذين كفروا فلا يعلمون أنه الحق من ربهم ، ليطابق مقابله ، وهو قوله سابقا : (فَيَعْلَمُونَ) الخ . . . ولكن عدل عنه إلى : (فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا) . لحكاية ما قالوا ، وهو مستلزم لجهلهم وعدم علمهم ، وذلك أبلغ ؛ لأن قولهم هذا ، كالبرهان على كمال جهلهم ؛ ففيه نفى العلم مع إثبات دليله .

والإشارة فى قولهم : (مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا) لتحقير المشار إليه الذى ضربه الله مثلا ، وليس غرضهم بما قالوا الاستفهام عن الحكمة فى ضرب الله الأمثال ، بنحو العنكبوت والذباب والبعوض ، بل غرضهم الإيذان بأنها - من الدناءة والحقارة - بحيث لا يليق أن يريد الله شيئا من التمثيل بها . لهذا يستحيل صدور التمثيل بها عن الله تعالى « . . . كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا »[1] .

لهذا رد عليهم بقوله : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا) أى يضل بهذا المثل كثيرًا من الناس مثلهم ، ممن ساء اختيارهم وأظلمت قلوبهم ، ويهدى به كثيرًا منهم ، ممن حسن اختيارهم واستنارت قلوبهم .

فلا مانع من أن يضربه مثلا ويريد ما يترتب على ضربه من الآثار ، وهو التفكر والاهتداء ، لقوله تعالى : « . . . وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »[2] .

---

(١) الكهف من الآية : ٥ (٢) الحشر من الآية : ٢١

والإضلال : خلق الضلال فى العبد لسوء اختياره . والهداية : خلق الاهتداء فيه لحسن اختياره . والتعبير بصيغتى المضارع (يُضِلُّ) (وَيَهْدِى) لإفادة التجدد المستمر .

وإنما قدم فعل الإضلال على فعل الهداية ؛ ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمرا يسوءهم ، ويفت فى أعضادهم .

ووصف كل من الفريقين بأنه كثير ، لا ينافى أن أهل الضلال أكثر عددا من أهل الهداية ، قال تعالى فى المؤمنين : « ... وَقَلِيلٌ مَّاهُمْ ... »[1] ، « ... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ »[2]

وقوله تعالى : (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ) من تمام الجواب على استفهامهم ، وهو يفيد إلصاق وصف الفسق بهم . والمراد به هنا : الخروج عن الدين .

وإضلال الله تعالى للفاسقين ، لا يعفيهم من أن يتحملوا تبعته ، لأن الإنسان إذا سلك – باختياره الفاسد – طريق الكفر والفساد ، وسار فيه إلى أقصى نهايته ، غير مكترث بالتحذير منه – يتركه الله فى ضلالته ؛ لأنه سلك سبيلها وأوغل فيه مختارا « ... وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ »[3] . أما من اتبع الهدى ، ولبس لبوس التقوى ، فإن الله تعالى يهديه ، ويمكّن له فى هدايته . قال تعالى : « ... وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ... »[4] .

(ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾) .

المفـردات :

(يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ) النقض : فك التركيب ، ويكون فى الحسيات ، كالحبل والبناء . ويستعمل فى المعانى مجازا ، ومنه : نقض العهد هنا .

(١) ص من الآية : ٢٤
(٢) سبإ من الآية : ١٣
(٣) فصلت من الآية : ٤٦
(٤) التغابن من الآية : ١١

وعهد الله : ما أخذه على العباد من التوحيد والعمل بالشرائع . وميثاقه : توثيقهم العهد وإحكامهم إياه .

التفسير

٢٧ - (الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ . . .) الآية .

(الَّذِينَ يَنقُضُونَ): صفة للفاسقين. وقد وصل (الذين) بثلاث صلات : (يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ) ، (وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ) ، (وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) وهى صفات فى المعنى للفاسقين ، فكأنه قيل: وما يضل به إلا الفاسقين الناقضين لعهد الله ، القاطعين لما أمر الله به أن يوصل ، المفسدين فى الأرض . وقد جيء بها للذم ، وتقرير ما هم عليه من الفسق .

والنقض : حَلُّ المركب . وهو فى الأصل ، يستعمل فى الحسيات ، كنقض الحبل مثلا ، وهو فك طياته فيضعف من بعد قوة .

واستعماله فى إبطال العهد - وهو أمر معنوى - تشبيها للعهد بالحبل فى الارتباط . لما فيه من ارتباط أحد كلاى المتعاهدين بالآخر . والميثاق : التوثيق والإحكام .

والمعنى الإجمالى : وينقضون ما عاهدوا الله عليه ، من بعد ما وثقوه بالقبول والالتزام ، أو من بعد ما وثقه الله بإنزال الكتاب وإرسال الرسل .

وعهد الله الموثق عام لكل عهد مشروع ، فيدخل تحته العهد المأخوذ بالعقل ، وهو الحجة القائمة لله على عباده ، الدالة على وجوده ووحدته وصدق رسله . وبه أُوِّل قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ . . . »[1]

ويشمل عهد الله أيضا ميثاقه على النبيين : أن يبلغوا أممهم وجوب الإيمان بالرسول . ونصره إذا بعث مصدقا لما معهم . وهو المشار إليه بقوله : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ... »[2] كما يشمل توصية للنبيين بقوله : « شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ... » إلى قوله : « ... أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... »[3] .

(١) الأعراف من الآية : ١٧٢ (٢) آل عمران من الآية : ٨١
(٣) الشورى من الآية : ١٣

وميثاقه على الذين أُوتوا الكتاب بمثل ذلك بقوله : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... »[١]

والعهد الذى يأخذه بعض الناس على بعض ، المشار إليه بقوله : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ... »[٢] .

وسواء أكان ذلك بين الأفراد ، أم الجماعات من الأمة الواحدة ، أو بين الأمم بعضها مع بعض . فلا يجوز نقض هذه العهود إلا فيما جاز شرعاً .

وقد أشار القرآن إلى هذا فى قوله لنبيه – صلى الله عليه وسلم – : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ... »[٣] وسيأتى شرحها فى سورتها .

وقوله : (من بَعْدِ مِيثَاقِهِ) : أى من بعد توثيقه وتمامه بين المتعاهدين .

(وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ) : هذه هى الصفة الثانية من صفات الفاسقين الخارجين على أمر الله تعالى ، أى ويقطعون ما أمر اللهُ بوصله من أمور الدين المختلفة .

ويدخل تحت هذا الأمر : صلة الأرحام ، وصلة الأعمال بالأقوال ، وصلة الإيمان بجميع الأنبياء ، بحيث لا ينقطع هذا الإيمان بواحد منهم بالكفر به . وكذلك صلة الأخوة بين المؤمنين ، وصلات المؤمنين بالمجتمع الإنسانى ، وَوَصْلُ أمور الدين بعضها ببعض ؛ إذ التهاون فى بعضها ، يضعف من قوة الدين . فإن بناء الإسلام ، قائم على أركانه كلها ، كالبيت يقوم على أعمدته ، وهدم ركن منها – أو جزء من تكوينه – يؤثر فى الهيئة الكلية ، كما يتأثر البيت بهدم ركن من أركانه أو جزء من تكوينه .

وقوله تعالى : (وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ) هو الصفة الثالثة للفاسقين .

والإفساد فى الأرض ، ضد إصلاحها ، وقد صلحت بنشر دعوة الإسلام ، وضعُفَ ما كان فيها من فساد الجاهلية ، فيكون من الإفساد فى الأرض : صدُّ الناس عن الإيمان بالرسول – كما يفعله الكافرون – والعملُ على تهييج الحرب بين المؤمنين وغيرهم ، كما يفعله المنافقون .

---

(١) آل عمران من الآية : ١٨٧ (٢) النحل من الآية : ٩١

(٣) الأنفال من الآية : ٥٨

وقوله تعالى : (أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) إشارة إلى الفاسقين المتصفين بهذه الصفات الذميمة ، أى : أولئك المتصفون بهذه الصفات المنكرة ، هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم فى ميدان الصالحات ، إذ استبدلوا : النقض بالوفاء ، والقطع بالوصل ، والإفساد بالإصلاح والعقاب بالثواب ، والشقاوة بالسعادة ، كما خسروا منازلهم فى الجنات .

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾) .

التفسير

٢٨ ـ (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ . . .) الآية .

بعد أن عدّد الله قبائح الكافرين ، توجه إليهم مخاطبا بالإنكار ، بأسلوب يقتضى التعجب من كفرهم ، مع وجود النعم التى تقتضى الشكر ، بدلا من الكفر !

والإنكار على المخاطب ، أبلغ من الإنكار على الغائب ، لِمَا فيه من إحضاره إلى ساحة التعنيف مشافهة .

والمعنى : على أى أساس قام كفركم بالله تعالى ؟ والغرض من هذا الاستفهام نفى أن يكون لهم مستند سليم ، يستند إليه كفرهم بالله تعالى ، فليس لهم حجة سوى قولهم : « . . . إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ »[1]

فإن آباءهم كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون .

وقوله : (وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ...) إلخ ، تعداد للنعم الرادعة عن الكفر ، الباعثة على الإيمان ، لتشديد الإنكار والتوبيخ على الكافرين .

ومعنى الآية : كيف تكفرون بالله ، والحال أن له شئونا معكم . وشئونا فى الكون ، تقتضى اختصاصه بالألوهية دون سواه ، فقد كنتم أمواتا أى مشبهين لهم ، إذ كنتم عناصر

(١) الزخرف : ٢٣

وأغذية ، فنطفا ومضغا ، فأحياكم بنفخ الأرواح فيكم ، ثم بعد إحيائكم ، هو الذى يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم مرة أخرى - عند النفخة الثانية - حياة البعث ، ثم إليه وحده تُرْجَعُونَ للحساب والجزاء ، ومن كان هذا شأنه فلا يصح الكفر به أو إشراك غيره معه فى العبادة !.

وإنما اختلف العاطف فى الآية - بالفاء وثم - لأن قوله : (فَأَحْيَاكُمْ) مراد منه الحياة الأولى بنفخ الروح ، وهى حاصلة عقب كونهم أمواتا . فلذا عطف بالفاء التى هى للترتيب والتعقيب . أما العطف بثم التى هى للترتيب والتراخى فى قوله : (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) فلأن المراد بالموت هنا : خروج أرواحهم بعد انقضاء آجالهم ، وهو متراخ فى الزمن عن بدء حياتهم .

وقوله آخر الآية : (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) المراد به : الإحياء للبعث ، وهو متراخ فى الزمن كذلك ، لأنه بعد انقضاء فترة البرزخ فى القبور .

وقد يقال : الامتنان بهذه النعم ظاهر فى الإحياء بعد العدم ، فما وجه المنة بقوله : (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) وهل فى الموت امتنان ؟

والجواب : أن الموت هو سبيل الحياة الأبدية بعد البعث . وما كان وسيلة للحياة الخالدة ، يصح عده بين النعم . إن هم استجابوا إلى دعوة الحق .

وقد يقال أيضا : إن المخاطبين من الكفار ، وهم لا يعترفون بالبعث والرجوع إلى الله ، فكيف ينظم ما ينكرونه فى سلك ما يعترفون به ؟

والجواب : أن الله تعالى نزّل إنكارهم للبعث منزلة العدم ، لقيام الدليل العقلى والنقلى على إمكانه وحدوثه ، وأن المقصود الأساسى تذكيرهم به ليحذروه ، ولذا ختم الآية بقوله : (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ، أى : إليه وحده - لا إلى غيره - مرجعكم بعد هذه الأطوار ؛ وسيحاسبكم حسابا عسيرا على كفركم به ، على الرغم من ظهور آياته البينات .

(هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾) .

المفردات :

(ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ) : تعلقت إرادته تعالى بتسوية السماء ، والسماء : هى كل ما سما وعلا فوق سطح الأرض ، ويشمل أيضا الغلاف الهوائى المحيط بالأرض .

(فَسَوَّاهُنَّ) : أى جعلهن سَوِيَّاتٍ لانقص فيهن .

التفسير

٢٩ - (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا . . .) الآية .

فى الآية السابقة بيان لنعمة الخلق والإحياء بعد الموت . وفى هذه الآية : بيان قدرته على ماهو أعظم ، وهو خلق الأرض والسماء وما فيهما من النعم التى يحتاج إليها العباد بعد خلقهم ، لأن نعمة الخلق والإحياء ،لاتتم إلا بخلق مايتوقف عليه بقاؤهم وعيشهم فى الحياة الدنيا . ومن خلال هذه النعم، يكون النظر المفيد المؤدى إلى توحيد الله - تعالى - وإخلاص العبادة له وحده . وقد جاءت هذه الآية مقررة لما أفادته الآية التى قبلها من الإنكار على الكافرين إذ كفروا بمن هذه نعمه .

وقوله : (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا) معناه هو الذى أبدع لأجلكم جميع مافى الأرض لتنتفعوا به فى شئون معاشكم استرزاقا ، وفى شئون معادكم استدلالا ، فكل ماعلى سطح الأرض من حيوانها وزرعها وأشجارها ومائها وهوائها ، ومافيها من أجزائها ومعادنها وعناصرها وقواها المختلفة ، أبدعها الله كلها لمنفعتنا دينا ودنيا ، فتبارك الله أحسن الخالقين . وحيث أبدعها لمنفعتنا ، فعلينا أن نستعملها فيما يرضى الله تعالى ، ويحقق النفع لنا ، ويدفع الشرَّ عَنا فى الدنيا والآخرة .

(ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) :

المراد من استوائه – تعالى – إلى السماء ، إقباله عليها بإرادته ليخلقها بغير صارف يصرفه عن ذلك[١] ، واستعماله فى هذا المعنى معروف فى لغة العرب ، ومنه قولهم : استوى إليه كالسهم المرسل : يعنون بذلك أنه قصده قصدا مستويا ،من غير أن يصرفه عنه صارف آخر – وهذا التفسير هو الذى اختاره الفراء ؛ وهو الذى نختاره ، أما تفسيره بالصعود ونحوه ، فلا يليق وصف الله به لتنزهه عن صفات الحوادث . والمراد من السماء : الجنس الشامل للسموات السبع ، ولذا قال : (فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) بضمير جمع الإناث .

ومعنى تسويته – تعالى – للسموات السبع ، أنه خلقهن من أول الأمر سَوِيَّات ، أى مصونات من النقص والعيب[٢] . ومثل هذا قولهم : سبحان من كبَّر الفيل ، أى خلقه من أول الأمر كبيرا ، وسيأتى الكلام على السموات السبع .

وظاهر قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) أن خلقه – سبحانه – للسموات خالية من العيب ، متأخر عن خلقه مافى الأرض جميعا لنا ، لأنه عطف عليه بلفظ (ثُمَّ) وهى للترتيب والتراخى .

ولكن هذا الظاهر مخالف لنص آخر يقتضى تقدم خلق السموات على دَحْوِ الأرض ، فقد قال تعالى فى سورة النازعات : « أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) » .

فهذا النص يدل على أن الله بنى السماء وأنشأها مرفوعة مُسَوَّاةً ، وجعل ليلها مظلما ، وأخرج فيها شمسها المضيئة ؛ وبعد ذلك دحا الأرض ، ورتب فيها منافعها ، فأخرج منها ماءها ومرعاها ، وأرساها بالجبال حتى لا تميد بنا ، وجعل ذلك متاعا لنا ولأنعامنا .

وهذا الذى قررته سورة النازعات ، هو الذى يقول به أصحاب النظريات العلمية الحديثة .

---

(١) هذا المعنى يتفق وماذكره صاحب القاموس لكلمة استوى فى بعض معانيها، إذ قال أو استوى إلى السماء : صعد أو عمد أو قصد أو أقبل عليها . . . إلخ . والمعانى الثلاثة الأخيرة هى التى تناسب الآية ، وقد اخترنا أحدها وهو إقباله تعالى بإرادته عليها .

(٢) وليس المعنى أنه سبحانه خلقهن أولا غير سويات ثم سواهن .

وبما أن القرآن الكريم عودنا على أن لاتضارب بين نصوصه ، فلذا يجب تأويل آية البقرة التى يفيد ظاهرها تأخر خلق السموٰات عن خلق مافى الأرض ، ليتفق مع الواقع الذى يفيده نص سورة النازعات ، وهو تأخر دحو الأرض وخلق ماعليها ، عن خلق السموٰات ، وذلك بجعل (ثُمَّ) فى قوله تعالى :(ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ): للعطف والترقى فى الرتبة ، لا للتراخى الزمنى ، وكثيرا ما يستعمل لفظ (ثم) لذلك ، تقول : النّاس طبقات ، العامة ثم الخاصة ، وتقول : الوزراء ثم رئيسهم ثم السلطان مُتَرَقِّيًا فى ذلك من أدنى إلى أعلى .

ولاشك أن القصد والاتجاه بالإرادة إلى خلق السموٰات وتسويتهن ، أعلى مرتبة من ترتيب منافع الأرض فكأنه قال : (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا) وكان منه قبل ذلك ماهو أعظم منه وهو أنه قصد إلى السموٰات السّبع فسواهن ، أى خلقهن سويات خاليات من العيوب .

السماوات السبع

فسر المتقدمون السماوات السبع : بالأفلاك السبعة ، والأفلاك جمع فَلَك بفتح اللام ، وهو : مجرى النُّجوم - كما فى القاموس .

ونقل الآلوسى عن أرباب الأرصاد أن الأفلاك تسعة ، وهل هى إلا سماوات - كذا قالوا - ولهذا يرى بعض العلماء أن تخصيص العدد بالسبع لاينفى الزيادة عليه ، وممّن قال بذلك الإمام الرازى ، وقال السّاليكُوتى إنه الحق .

وبعد أن سقنا مارآه المتقدمون فى المراد من السموٰات وعددها ، نقول : لعلهم يرون أن القرآن الكريم اقتصر على عدد السبع فى السموٰات لأن ذلك كان مفهوم العرب فيها ، فعبّر القرآن عن عددها كما يفهمون ، حتى لايكذِّبون الله ورسوله ، ولذا أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم ، أن نخاطب الناس بما يعقلون ، حتى لايكذِّبون الله ورسوله فيما يجهلون .

واعلم أن المناظير البعيدة المدى ، أثبتت أن فى السموٰات ملايين المجرات ، وكل مجرة تحتوى على ملايين المجموعات الشمسية ، ولا يزال هذا الملكوت تبرز فيه مجرات جديدة من عالم الغيب .

فهل كل هذه المجرات تجرى فى سبعة أفلاك أو تسعة ، كما يقتضيه كلام القدامى من الفلكيين ـ بحيث تجرى كل مجموعة ذات مستوى معين فى فلك منها ، أم أنها تحتاج إلى أفلاك أكثر ، فتكون السماوات أكثر مما ظنوا . لاشك أن العلم بالحقيقة مقصور على الله ، ومايقوله الخلق عن ذلك عرضة للاهتزاز ، ثم الانهيار ، لأن هذه الأجرام السماوية فى أبعاد سحيقة ، فلا نستطيع الاطمئنان إلى عدهم طبقاتها بسبع أو تسع أو غيرهما ـ وهم على ظهر الأرض ـ مهما كانت مناظيرهم بعيدة المدى .

والذى يظهر لنا من القرآن الكريم ، أن السمٰوات السبع شىء آخر غير النجوم والكواكب والأفلاك التى تجرى فيها ، فقد قال تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ [1] » .

فهذا النص يقتضى أن المجرات بنجومها وكواكبها ، هى المصابيح التى زين الله بها السماء الدنيا ـ أى الأولى ـ وحيث كانت زينة لها فليست هى السماء الأولى ولا غيرها من السمٰوات السبع ، ألا ترى أن عِقْد اللؤلؤ زينة لصدر الفتاة ، وليس هو صدرَ الفتاة بل غيرَه .

لهذا لم يكن عجبا ما قرأناه أخيرا ، من أن بعض العلماء أثبت أن وراء المجرات عوالم عظيمة لم تتبينها المناظير بعد ، والله تعالى أعلم بملكه وملكوته عن عباده .

(وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

هذه الجملة مقررة لما قبلها من خلق السمٰوات والأرض على النمط البديع ، والمنطوى على الحكم الفائقة ، والمصالح العظيمة ، فإن علمه بجميع الأشياء ، وبما يليق بكل واحد منها ، يستدعى أن يخلق كل مايخلقه على النمط البديع الحكيم .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)) .

المفردات :

(خَلِيفَةً) : الخليفة : من يخلف غيره وينوب عنه . فعيل بمعنى فاعل ، والتاء للمبالغة . والمراد به آدم وبنوه .

---

(١) الملك من الآية : ٥

وللخليفة معنى آخر، هو الحاكم ومنه قوله تعالى فى : « يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ... »[1] ويكون المعنى على هذا : أن الله سبحانه، خلق لآدم وذريته مافى الأرض جميعا ، وسخره له ، وجعله حاكما عليها لينشر فيها العدل ، بماهداه الله إليه من العلم.

(وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) : أى يريقها والسفك مختص بالدم .

(نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) : نُبْعدُ عنك مالا يليق بك ، اعتقادا أو قولا وعملا : متلبسين بحمدك ، من سبح فى الماء إذا أبعد فيه .

(وَنُقَدِّسُ لَكَ) : أى ننزهك عمَّا لا يليق بك ، من أجل ذاتك .

التفسير

٣٠ - (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . . .) الآية .

القصة المذكورة فى هذه الآية - من خلق آدم عليه السلام ، وجعله خليفة فى الأرض - تتصل بذكر النعم السابقة من الله تعالى على الناس .

فإن خلق آدم وتكريمه ، وتفضيله على الملائكة ، وأمرهم بالسجود له ، كل ذلك : إنعام من الله تعالى على أبيهم ، ونعمة الآباء ، نعمة على الأبناء .

وهذا توجيه ربط الآية بما قبلها .

وكلمة (إِذْ) هنا: للظرفية فى الماضى . أى : واذكر وقت أن قال ربك للملائكة .

وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت - دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات - للمبالغة فى إيجاب ذكرها .

والمقصود : تنبيه الكافرين إلى تذكر قصة خلق آدم عليه السلام ؛ لينبهوا لبطلان ما هم فيه من الكفر بالرسول ؛ وينتهوا عنه ؛ فإن فى هذه القصة من الغيبيات مالا يعلمه إلا نبى موحى إليه من ربه .

وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى درجة الكمال - مع إضافته إلى ضمير خطاب النبى عليه الصلاة والسلام - إشارة إلى مقام التشريف والتعظيم من الله تعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام .

---

(١) ص من الآية : ٢٦

(لِلْمَلَآئِكَةِ): الملائكة جمع مَلَك. وهم: ذوات نورانية، خلقوا لطاعة الله فيما يأمرهم به، لهم قدرة التشكل بالأشكال الحسنة المختلفة. ولهذا كان الرسل يرونهم. وهذا مذهب أكثر المتكلمين.

وقال الحكماء: هم جواهر مجردة. مخالفة للنفوس الناطقة بالحقيقة.

ومعنى قوله: (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً) إنى خالق فى الأرض خليفة وهو آدم – عليه السلام – وخواص بنيه من البشر وهم الرسل، وذلك إن كان المراد بالخلافة: الخلافة من جهة الله – سبحانه – فى إجراء أحكامه بين الناس، وسياسة خلقه؛ لقصر استعداد المستخلف عليهم، وعدم لياقتهم لقبول الفيض الإلٓهى، فتختص بآدم والخواص من بنيه، فإن أريدت الخلافة ممن كان فى الأرض قبل ذلك، فالخليفة هو آدم وذريته جميعا، صالحهم وطالحهم. فقد خلفوا من سبقهم فى عمارة الأرض.

(قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ).

هذا استئناف وقع جوابا عن سؤال تنساق إليه الأذهان، كأنه قيل: فماذا قالت الملائكة بعد أن أخبرهم الله بقوله: (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً)؟ فقيل جوابا لهذا السؤال: (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ...) إلخ.

والمعنى: أتجعل فيها خليفةً: مَن يفسد فيها؟ وقد عرفوا ذلك، إمّا قراءةً من اللوح المحفوظ لما سجل من مستقبل أعمالهم، وإمّا قياسًا لهم على من كان قبلهم، وهم الذين أهلكهم الله وأحلهم محلهم، وإمّا من الغرائز التى سيخلقون بها، فإنها قد تدعو إلى الفساد.

والاستفهام ظاهره تعجب الملائكة من أنه تعالى، سيجعل فى الأرض مَن يفسد فيها، أو الاعتراض على ذلك وإنكاره. ولكن هذا الظاهر غير مراد؛ لأن الملائكة كما قال تعالى: «... عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»[1] بل هو استفهام تعجب، قالوه استكشافًا لما خَفِىَ عليهم من الحكم فى خلق من يفسدون فى الأرض، واستخبارًا عما يزيح شبهتهم، ويرشدهم إلى معرفة ما فى آدم من الفضائل التى جعلته أهلا للخلافة هو وذريته، كسؤال المتعلم أستاذه عما ينقدح فى ذهنه؛ ليعلم الجواب فيستريح.

(١) الأنبياء من الآيتين: ٢٦، ٢٧

فليس سؤالهم اعتراضًا على الله ، ولا شكًّا فى اشتمال جعله خليفته فى الأرض على الحكم والمصالح .

(وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ) : أى يقتل النفوس التى يحرم قتلها ، والتعبير عنه بسفك الدماء ، لأنه أقبح أنواع القتل .

(وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) : هذه الجملة مقررة للتعجب السابق ، ومؤكدة له ، كأنه قيل : أتستخدم مَن شأن ذريته الفساد ، مع وجود من هو مجتهد فى طاعتك لايعصيك أبدا ؟

والمقصود عرض أحقيتهم بالخلافة كما فهموا ، والاستفسار عما رَجَّحَ بنى آدم عليهم ، مع مايتوقع منهم من الفساد ؛ ليعرفوا حكمته من الحكيم الخبير : الذى يضع كل شىء فى موضعه .

وقد نظرت الملائكة فى سؤالها إلى الغرائز الداعية إلى الفساد فى بنى آدم ، وغفلت عن « العقل » الذى يمسك بها ، ويصرفها إلى الخير وتَعَرُّفِ أحوال الكائنات والانتفاع بها ، وغير ذلك مما يصلح به أمر الخلافة فى الأرض ، إلى جانب استدلاله بها على الصانع جل وعلا .

ولاشك أن بنى آدم ـ بكفاحهم لغرائزهم وشهواتهم ، وصرفها ناحية الخير ـ يفضلون عوام الملائكة ، لأنهم مخلوقون للطاعة ، ولا شهوة فيهم .

والتسبيح : تنزيه الله تعالى عما لايليق به ؛ اعتقادا وقولا وعملا ، وكذلك تقديسه .

والمعنى : ونحن ننزهك ؛ متلبسين بحمدك على ماأنعمت علينا من فنون النعم ، ونقدس لك تقديسا يليق بمقامك . وقيل : معنى نقدس لك ؛ نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك .

وكان جواب الله عليهم : (إِنِّى أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ) أى إنى أعلم مالا تعلمونه من دواعى الخلافة فيه ، ولا يضير استخلافه وذريته أن بعضهم مفسد سفاك للدماء ، لأن الله أودع فيهم الصلاحية لعمارة الأرض ، والخير غالب فيهم .

على أن مايقع من بعضهم من الشر هو ابتلاء من الله للجميع ؛ ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، وليثبت القائمين بإرشاد العصاة ثوابا عظيما : « ...وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً »[1]

---

(١) الأنبياء من الآية : ٣٥

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

التفسير

٣١ - (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . .) : الآية .

شروع فى تفصيل الجواب الإجمالى من الله للملائكة ، ومعنى تعليم الله لآدم الأسماء كلها : أنه خلق فيه - بموجب استعداده - علما ضروريا تفصيليا ، بأسماء جميع المسميات وأحوالها وخواصها اللائقة بكل منها ، كأن يلقى فى روعه تفصيلا : أن هذا فرس ، وشأنه كذا وكذا ، وهذا بعير وحاله كيت وكيت . وكذا كل مادة وعنصر : عرف اسمه وخواصه وطريقة استعماله .

والاسم : - باعتبار الاشتقاق - مايكون علامة للشيء ودليلا يرفعه إلى الذهن ، من الألفاظ والصفات والأفعال .

ويستعمل - عرفا - فى اللفظ الموضوع لمعنى ؛ مفردا كان أو مركبا ؛ مخبرا عنه أو خبرا ، أو رابطة بينهما . واصطلاحا فى المفرد الدال على معنى غير مقترن بالزمان . والمراد هنا الأول ، أو الثانى كما قاله العلامة أبو السعود .

قال ابن عباس وغيره : علَّمه أسماء جميع الأشياء حتى القصعة والقصيعة ، والجفنة والمِخْلَب .

(ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ) : أى عرض المسميات المدلول عليها بالأسماء ، وضمير جمع العقلاء لتغليبهم على غيرهم ، وقد جاء فى الحديث أنه عرضهم عليهم كأمثال الذر .

عن ابن عباس - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « أخذ الله الميثاق من ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - بنعمان - يعنى بعرفه - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها

فنثرهم بين يديه كالذر ، ثم كلمهم قبلا وقال : « ... أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... » إلى قوله : « ... بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ »[1] هذا حديث صحيح الإسناد[2]

قال أبو السعود رحمه الله : ولعل الله - عز وجل - عرض عليه من أفراد كل نوع مايصلح أن يكون نموذجًا : يتعرف منه أحوال البقية وأحكامها .

(فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ) : أى قال - تبكيتًا لهم وإظهارًا لعجزهم عن إقامة ماعلقوا به رجاءهم من أمر الخلافة - أخبرونى بأسماء هؤلاء ؛ فإن تدبير شئون هذه المسميات موقوف على معرفتها وجميع خواصها وأحوالها ، فمن لم يعرفها ، لايصلح للخلافة فيها وولاية أمرها . (إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن أستخلفه .

٣٢ - (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا . . .) : الآية .

قال الملائكة لربهم : (سُبْحَانَكَ) أى نسبحك وننزهك التنزيه اللائق بك ، فلا يمكن أن تخلو أفعالك من الحكم ، ومن جملتها استخلاف آدم ، وما سألنا إلا لنتعلم ونعرف الحكمة ، وقد عرفناها بمعرفة مزايا من استخلفته . (لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) ونحن لم نتعلم ذلك ، بل تعلمنا العلوم اللائقة بعالمنا كما علمتنا (إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ) بما ينبغى لكل شىء (الْحَكِيمُ) فى تقديره وتدبيره .

(قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾) .

التفسير

٣٣ - (قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ . . . .) : الآية .

بعد أن أقروا لله بعجزهم أراد - سبحانه - أن يبين لهم فضل آدم عليهم (قَالَ يَا آدَمُ

---

(١) الأعراف من الآيتين ١٧٢ ، ١٧٣ (٢) (المستدرك جـ٢ ص ٥٤٤).

أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ):أخبرهم بأسماء هذه المسميات التى عجزوا عن معرفتها (فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ) وظهر فضله عليهم بالعلم . (قَالَ) الله لهم بعد ذلك : (أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) مقررًا به جوابه السابق لهم : (إِنِّى أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ) وفى هذا التقرير ، تفصيل لما أجمل سابقا ، وعتاب لهم على تركهم ما كان أولى بهم ، وهو أن يتوقفوا : مترصدين أن يبين اللهُ لهم مالايعلمون ، بدلًا من توجيه السؤال له - بهذه الصورة - .

والهمزة فى : (أَلَمْ أَقُلْ) للاستفهام الإنكارى . وفيها معنى النفى ، دخلت على حرف النفى (لَمْ) فكان ذلك بمنزلة نفى النفى ، فيفيد إثباتًا وتقريرًا كما قلنا ، فالمعنى قلت لكم : (إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

أى أعلم مافيهما من أسرار لاتعلمونها (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ) من قولكم : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا) ، (وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) فى نفوسكم من أنكم أفضل منهم وأولى بالخلافة ، أو من امتثالكم الذى أضمرتموه فى أنفسكم .

وفى هذه الآية إشارة إلى أن الإنسان أُعطىَ الاستعدادَ لتَعرُّفِ الأشياء وإدراك نواميس الكون ؛ ليسخرها له بمقتضى ما منحه الله من الأسباب .

وفيما تقدم من الآيات ، دليل على شرف الإنسان ، وعلى فضل العلم ، وأنه فى مقدمة العبادات ، وأنه مناط الخلافة والنيابة عن الله فى الأرض ، وأن الحكمة أمر زائد على العلم ، لأن الملائكة وصفوا الله تعالى بالحكمة بعد العلم ، وإلا لزم التكرار . وقد دلت الآية الأخيرة على أن الله سبحانه يعلم الأشياء قبل حدوثها .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾) .

التفسير

٣٤ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ . . .) الآية .

فى هذه الآية ، تذكير بنعمة أخرى على أبينا آدم عليه السلام ، ناطقة بالتعظيم لقدره ،

والتنويه بشأنه ، حيث أمر الله الملائكة بالسجود له . والآية معطوفة على ماقبلها ، عطف القصة على القصة . فقد عطفت فيها قصة السجود على قصة الخلق ، لتستكمل بها نعمه - تعالى - التى تفضل بها على خلقه .

ومعنى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) أى واذكر لهم يا محمد ، وقت قولنا للملائكة : (اسْجُدُوا لِآدَمَ) أى : عظموه اعترافا بفضله ، وأداء لحق تعليمه لكم الأسماء ، واعتذارا عما وقع منكم فى شأنه (فَسَجَدُوا) عطف على (قُلْنَا) ، والفاء لإفادة مسارعتهم إلى الامتثال (إِلَّا إِبْلِيسَ) فإنه لم يسجد ولم يمتثل . وسيأتى بيان امتناعه فى الآية الكريمة .

وظاهر استثنائه من الملائكة الذين سجدوا أنه منهم ، ولكنه ليس كذلك ، فإنه جنى ؛ لقوله تعالى فى آية أخرى عنه : « . . . كَانَ مِنَ الْجِنِّ ... »[1] ؛ ولأنه لو كان من الملائكة ، لما امتنع عن امتثال أمر ربه ، لأنهم « ... لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »[2].

ولهذا ، يحمل استثناؤه منهم على أنه لما كان بينهم ، عابدا بعبادتهم ، جعل منهم . فإن من طالت إقامته مع قوم واندمج فيهم ، اعتبر منهم وإن لم يكن من قبيلتهم .

وعلى هذا التأويل ، يعتبر استثناؤه متصلا ، ويجوز اعتبار الاستثناء منقطعا .

ومعنى (أَبَى) : امتنع اختيارا . (وَاسْتَكْبَرَ) : طلب الكبرياء استعلاء وادعاء ، فإن الكبرياء حق لله وحده .

ومعنى قوله : (وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) وصار من الكافرين بسبب عصيانه على حد قوله فى شأن ابن نوح : « ... فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ »[3]

واعلم أن الذى تقتضيه هذه الآية - والتى فى سورة الأعراف: « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ... »[4] وكذا ما فى سورة الإسراء . وطه والكهف - أن سجود الملائكة ، إنما ترتب على الأمر التنجيزى ؛ الوارد بعد خلقه وتسويته ونفخ الروح فيه .

---

(١) الكهف من الآية : ٥٠
(٢) التحريم من الآية : ٦
(٣) هود من الآية : ٤٣
(٤) الأعراف من الآية : ١١

أما ماجاء فى سورة الحجر « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٣٠) » فهو إخبار منه تعالى للملائكة . بأنه سيخلق آدم ، ويكلفهم بالسجود له ، إذا أتم تسويته ونفخ الروح فيه . فالأمر بالسجود فيها معلق على تسويته ونفخ الروح فيه ، فهم غير مكلفين بالسجود له ، حتى يتم ذلك ، فيؤمروا بأمر تنجيزى جديد ، جمعًا بين هذه الآية والآيات الأخرى التى نبهنا إليها .

أما قوله فى سورة الحجر - عقب هذا الأمر التعليقى - : « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ » . فمحمول على أنهم سجدوا له بعد تمام خلقه ونفخ الروح فيه ، وأمرهم بعد ذلك بالسجود تنجيزا ، بعد أمره به تعليقًا .. وكذلك يفسر ماجاء فى سورة (ص) .

(وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(اسْكُنْ) : أقم فيما تسكن فيه النفس وتطمئن .

(الْجَنَّةَ) : البستان . (رَغَدًا) : واسعا .

(الشَّجَرَةَ) : مجهولة النوع ، وعِلْم ذلك عند الله تعالى .

التفسير

٣٥ - (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ . . .) : الآية .

لما كفر إبليس بعصيانه أَمْرَ ربه بالسجود لآدم ، أبعده الله عن الجنة بقوله : « ... اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ... »[1] وقال لآدم : « ويَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ... »[2] تكريما لهما .

(١) الأعراف من الآية : ١٨ (٢) الأعراف من الآية : ١٩

والسكن : الإقامة فى مكان تسكن فيه النفس ، أى تطمئن فيه .

والجنة التى أمر بسكناها : هى دار الثواب ، عند الجمهور ، لأنها كذلك فى عرف نصوص الشريعة : وقيل هى جنة بأرض فلسطين ، أو بين فارس وكرمان أو فى غيرهما ؛ خلقها الله امتحانا لآدم عليه السلام ، وحمل الإهباط منها على النقل منها إلى أرض أخرى ، كما فى قوله تعالى : «... اهْبِطُوا مِصْرًا ...»[1] لأن خلقه كان فى الأرض بلا خلاف . ولم يذكر فى قصته رفعه منها إلى السماء حيث جنة الجزاء . ولو وقع ذلك ، لكان أولى بالذكر ؛ ولأنها لو كانت دار الخلود ، لما دخلها إبليس .

ذكره أبو السعود والآلوسى ، والله أعلم .

ومعنى قوله : (وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا) : أى تمتعا بالأكل منها أكلا واسعا ، فى أى مكان شئتماه من الجنة .

وقوله تعالى : (وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) نهى أريد به اختبار آدم وحواء ، وتعلق النهى بالقرب من الشجرة ، للمبالغة فى الإبعاد عن الشجرة نفسها ، فإن انتفاء القرب يستلزم عدم الوقوع فى الأكل ، وهو المقصود من النهى .

والمشار إليه بـ (هذه) يحتمل أن يكون شجرة بعينها ، ويحتمل أن يكون جنسها . فتدخل فيه هى ومثيلاتها .

وبين هذين الاحتمالين وقع التأويل من آدم بسبب الوسوسة . فالمظنون أنه تأول النهى بأنه عن شجرة بعينها من الجنس ، فَتَرَكَ المشارَ إلى شخصها وأكل من جنسها ؛ مع أن المقصود هو النهى عن الجنس ، إذ لا فرق بين شجرة منه وشجرة أخرى .

ونحن نمسك عن تعيين شخصها أو نوعها ؛ لعدم وجود دليل لهذا التعيين .

وكان الأكل منها سببا فى إخراجهما من الجنة عقوبة على مخالفة النهى .

(فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) : المراد من ظلمهما ظلم أنفسهما ، فإن مخالفة النهى ، كانت سببا فى حرمانهما مما كانا فيه من نعيم الجنة .

---

(١) البقرة من الآية : ٦١

(فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾) .

المفردات :

(فَأَزَلَّهُمَا) : أوقعهما فى الزلة .

(عَنْهَا) : أى بسبب الأكل من الشجرة .

(مُسْتَقَرٌّ) : موضع استقرار .

(ومَتَاعٌ) : تمتع وانتفاع .

التفسير

٣٦ - (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا . . .) : الآية .

أى جعلهما الشيطان يقعان فى الزلة عن هذه الشجرة ، أى : بسببها ؛ لأنهما خالفا النهى عن الأكل منها ، فأكلا استجابة لوسوسته .

وقرئ (فَأَزَالَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا) : أى أبعدهما عن الجنة ، فالضمير فى هذه القراءة للجنة ، وفى القراءة السابقة للشجرة .

ويجوز أن ترجع القراءة الأولى إلى الثانية ، وذلك بأن يكون معنى (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا) : أبعدهما عن الجنة ؛ فإن الإزلال يستعمل بمعنى الإبعاد .

وقد يقال : كيف توصل إبليس إلى إزلالهما بالوسوسة وهما فى الجنة ، بعد أن قيل له : « ... فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ[1] » فخرج منها فعلا . ومن عوقب بالإخراج من الجنة مطرودا لا يدخلها ؟

وأجيب بأنه مُنِعَ من دخول الجنة تكريما ، ولم يمنع من الدخول وسوسة ، للابتلاء .

(١) الحجر من الآية : ٣٤

وقيل : غير ذلك .

والأولى إحالة ذلك إلى علم الله تعالى ، وكل تأويل فى ذلك رجم بالغيب .

وقد ترتب على هذه الزلة ما أشار الله إليه بقوله : (فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) : أى من النعيم الذى كانا فيه ، بعد أن تم الابتلاء والوقوع فى الزلة ؛ ليتحقق ما كان مقدرا فى علم الله تعالى ومرتبا على هذه الزلة ، من هبوط آدم ليكون خليفة فى الأرض ، فصدر أمر الله بالهبوط إليهما ، ومعنى قوله: (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) : اهبطوا حال كون بعض أولادكما عدوًّا للآخر ؛ بما ركزه الله فيهم من غرائز صالحة للخير والشر ، يستغلها الشيطان فيوسوس لهم ويزين القبيح حسنا ، فتندفع الغرائز نحو البغى والعدوان على الناس ، إلا من اعتصم بالشرع وحكَّم العقل ، فكان من المخلصين ، كما قال تعالى : « ... وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [(١)] » .

والضمير فى (اهْبِطُوا) لآدم وحواء ، بدليل ما جاء فى آية أخرى «قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا... » [(٢)] وضمير الجمع منظور فيه إلى ذرياتهما فى ضمنهما ، فكأنهما الجنس كله ، أولهما ولإبليس بعد مادخل للوسوسة . وكان قد طرد منها قبل ذلك .

أما القول بأنه راجع إليهما ، وأريد بالجمع مافوق الواحد ، فليس حسنا ، فإن آدم لم يكن عدوًّا لحواء .

(وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) :

أى لكم فيها استقرار أو موضع استقرار ، (وَمَتَاعٌ) : أى تمتع بالعيش وانتفاع به (إِلَى حِينٍ) : هو حين انتهاء آجالكم بالموت .

واعلم أن النهى عن الأكل من الشجرة ، ثم الأكل منها بإغواء إبليس ، كان مقررا فى العلم الأزلى ، ولكن ترتيبه عليه فى الوقوع ، كان من ربط المسببات بأسبابها ، ابتلاء وتحقيقا لمشيئة الله تعالى .

---

(١) الحجر من الآيتين : ٣٩ ، ٤٠

(٢) طه من الآية : ١٢٣

(فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾) .

المفردات :

(فَتَلَقَّى آدَمُ) : أى استقبل .

(كَلِمَاتٍ) : هى كلمات التوبة التى ألهمه الله إياها .

(فَتَابَ عَلَيْهِ) : قَبِل توبته .

التفسير

٣٧ — (فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ . . .) : الآية .

أى ألقى الله فى روع آدم ؛ أن يتوسل إليه بكلمات ألهمه إياها ؛ ليتوب الله عليه ، فاستقبلها بالأخذ والقبول . والعمل بها حينما تعلمها .

(فَتَابَ عَلَيْهِ) التوبة : لغة الرجوع . والمعنى : رجع عليه بالرحمة ، بأن قبل توبته ، وإنما وحد الضمير فى (عَلَيْهِ) مع أن حواء شريكة له فى الذنب ، بإجماع العلماء ؛ لأن حواء تابعة له فى الحكم إذ النساء شقائق الرجال فى الأحكام . ولذا طوى ذكرهن فى معظم الكتاب والسنة اكتفاء بذكر الرجال بإزاء الأحكام .

ثم ختم الآية بقوله : (إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ). تعليلا لقوله : (فَتَابَ عَلَيْهِ) .

وصف الله نفسه بأنه هو التواب أى : كثير قبول التوبة . وهى صيغة مبالغة من التوب بمعنى الرجوع فإذا وصف به الله ، كان بمعنى الرجوع عن العقاب إلى المغفرة وقبول التوبة . وإذا وصف به العبد ، كان بمعنى الرجوع عن المعصية . (الرَّحِيمُ) : العظيم الرحمة .

وبذلك فتح الله للعصاة طريق التوبة إذا عصوا ، ليتوب عليهم كما تاب على أبيهم آدم ؛ لأنه — سبحانه — التواب الرحيم .

(قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾) .

التفسير

٣٨ - (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا . . .) : الآية .

كرر الأمر بالهبوط ، إيذانا بأنه محتوم لابد منه ، وأن قبول التوبة لايدفعه ؛ ولأن الهبوط الأول مشوب بالعقاب ، وإسكان دار البلاء ، والعداوة وعدم الخلود ، والثانى مشوب بالرحمة بإيتاء الهدى المؤدى إلى النجاة .

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى) : شرط ، جوابه جملة الشرط الثانى، وهى قوله : (فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ) والمراد من قوله : (هُدَاىَ) كُتُبُ الله وآياته ورسُله .

والمعنى : فمن تبع هداى : أى بالإيمان والقول مع العمل الصالح ، فلا خوف عليهم - فى المستقبل - من لحوق مكروه ، ولاهم يحزنون على فوت مطلوب ، بل يستمرون على السرور والابتهاج .

٣٩ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

هذه الآية معطوفة على قوله : (فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ) كأنه قيل : ومن لم يتبع هداى بل كفر بالله وكذب بآياته القرآنية والكونية ....

وقوله : (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) بيان لجزاء من كفر بالله وكذب بآياته .

ومعنى أصحاب النار : أهلها ومستحقوها (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ):لايخرجون منها - والجمع فيما تقدم باعتبار ذرية آدم وحواء .

الحكم المستنبطة من القصة

قضى الله أزلا أن آدم سيكون خليفته فى أرضه ، فلذا منحه العقل والقوى والغرائز المختلفة التى تجعله وذريته صالحين لهذه الخلافة .

ومع أن تلك القوى التى منحها الله ، ضرورية لعمارة الأرض والخلافة عن الله فيها ، فهى قابلة لأن تستعمل فى غير ما خلقت له من الخير ، فكما أنها قابلة للصلاح والإصلاح ، فهى قابلة للفساد والإفساد . وبما أن كثيرًا منهم — بسبب ذلك — سيقع فى المعاصى ، بارتكاب ما نهى الله عنه ، فلذا أراد الله أن يعلمهم — عن طريق أبيهم آدم إذا وقعت منهم المعاصى — كيف يتوبون ويرجعون إلى ربهم ، حتى يتوب عليهم كما تاب على أبيهم . فلذا ابتلى آدم بالنهى عن الأكل من الشجرة فأخطأ ، بإغراء الشيطان ومساعدة غرائزه ، فتلقى من ربه كلمات علّمه بها : كيف يتوب ويرجع إلى ربه ، فلما عمل بمقتضاها ، تاب الله عليه . وكان ذلك لتعليم ذريته كيف يتوبون إذا عصوا .

ويؤيد هذا أن الله لم يغضب على آدم بعد أن أهبطه إلى الأرض ، بل كرمه وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ، وجعل له الأرض مستقرا ، وجعل له ولذريته فيها معايش .

هذا إلى ما توحى به الآيات الكريمة ، من أنّ الله فضل الإنسان بالعلم ، فكلما ازداد علمه كان جديرا بخلافة الله فى أرضه ، وحمل أمانته بين خلقه، كما توحى بالمسئولية الإنسانية ، وأن من أخطأ استحق العقاب ، ومن أطاع استحق الثواب ، ومن تاب تاب الله عليه ، وأن الإنسان لايحكم فى أمر وهو جاهل به .

(يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾) .

المفـردات :

(إِسْرَائِيلَ):هو يعقوب عليه السلام ، جد بنى إسرائيل .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِى):أدوا التكاليف التى عهدت بها إليكم وافية .

(أوفِ بِعَهْدِكُمْ):أُعطكم ثوابى الذى عاهدتكم عليه وافيًا . والعهد : الوصية . والوعد : المُوَثّق .

(فَارْهَبُونِ):فخافون .

التفسير

٤٠ – (يَا بَنِيَ إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيَ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ . . .) الآية .

بعد أن عدد الله نعمه العامة فى الآيات السابقة، شرع يبين نعمه الخاصة ببنى إسرائيل ، وهم أكثر الأُمم نعمة وأشدهم عصيانًا وكفرًا ، مع أنهم أهل كتاب ، وكانت الطاعة أجدر بهم .

وإسرائيل:لقب يعقوب – عليه السلام – وهى كلمة عبرية ، مركبة من جزءين : إسرا ، ومعناها : عهد ، أو صفوة ، وإيل معناها : الله .

(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ):أى تذكروها بالشكر ، ولا تكفروها بالمعاصى .

وستجد – بعد هذه الآية – ألوانا من الخطاب لبنى إسرائيل ، تذكيرًا بنعم الله عليهم مجملة أو مفصلة ، وتوبيخا لهم على آثام ارتكبوها .

والخطاب – فى كل ذلك – موجه إلى المعاصرين منهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، مع أن بعض هذه النعم كانت على آبائهم ، كالإنجاء من الغرق ، وإغراق فرعون وجنوده ، وبعض هذه المعاصى كانت من هؤلاء الآباء أيضًا ، كاتخاذ عجل السامرى إلَهًا لهم وقولهم لموسى سمعنا وعصينا .

وإنما ذُكِّر المعاصرون منهم بنعم الآباء ؛ لأن أثرها واصل إليهم ، وفضلها عائد عليهم . وإنما وبخوا على معاصيهم ؛ لأنهم يعتزون بالانتساب إليهم . ومن اعتز بآثم فهو آثم مثله . فكأنما فعل فِعْلَهُ ؛ ولأن عار إثم الآباء يلحق الذرية ، ما داموا على سنتهم فى الضلال . فكأنهم فيه شركاء ؛ ولأن المراد من نحو قوله تعالى للمعاصرين : « ... ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ ... »[1] بيان أن ارتكاب الكبائر أمر كامن فى جنسهم ، فلا غرابة فى كفرهم بما جاءهم

(١) البقرة – من الآية : ٩٢

به محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أشار إليه قوله تعالى : « إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ »[1] .

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِيَ):أي افعلوا ما عهدت إليكم بفعله من الإيمان والطاعة والعمل الصالح ، وَأَدُّوه وافيًا (أُوفِ بِعَهْدِكُمْ):بالإثابة وحسن الجزاء .

فالعهد الأول :(بِعَهْدِي) مضاف إلى الفاعل ، فإنه تعالى عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح : بإرسال الرسل ،وإنزال الكتب ،ونصب الأدلة . والعهد الثاني:(بِعَهْدِكُمْ) مضاف إلى المفعول ، أي بعهدي إياكم ؛ فإنه سبحانه ؛ وَعَدَهم الثواب على حسناتهم . وعاهدهم على ذلك .

(وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) إياي وحدى ارهبونى . والرهبة : خوف مصحوب بالتحرز . والفاء تشير إلى معنى الشرط ، أى : إن كنتم ترهبون أحدًا فارهبونى ، ولا تنقضوا عهودكم معى .

والآية متضمنة للوعد والوعيد ، ودالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد ، وألا يخاف المؤمن إلا الله تعالى .

وفى ذكر قصة بنى إسرائيل - بعد قصة خلق آدم - تصوير لتسلط إبليس اللعين على بعض ذرية آدم وتأثرهم بوسوسته ، مع مزيد فضل الله عليهم ، وأنهم لم يحذروه مع ما صنعه بجدهم من الإغواء ، وما عرف عنه من العداوة له ولأولاده !

(وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾) .

(١) الصافات - الآيتان : ٦٩ ، ٧٠

المفـردات :

(بِمَآ أَنزَلْتُ):أى بالقرآن الذى أنزلته .

(مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ):من التوراة .

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً):لا تجعلوا بدلا من الإيمان بآياتى ، منافع الدنيا ، فإنها قليلة .

(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ):ولا تخلطوه به .

التفسير

٤١ - (وَآمِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّما مَعَكُمْ . . .) الآية .

بعد أن أمرهم الله بالوفاء بالعهود ، أمرهم بالإيمان بالقرآن الذى أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم . فإنه من الوفاء بالعهد الذى أُخذ عليهم .

ومعنى كون القرآن مصدقاً للتوراة التى معهم : أنه يدعو إلى ما تدعو إليه من الإيمان بالله وتوحيده ، والعدل بين الناس ، والنهى عن المعاصى . كما أن فيه ما فيها من قصص المرسلين ، والعمل ليوم الدين ، وغير ذلك من الأُصول .

وما بينهما من المخالفات فى الفروع ، فهو بسبب اختلاف العصور . وليست هذه مخالفة فى الحقيقة ، بل هى موافقة من حيث إن كلا منهما حق فى عصره ، متضمن لِلحِكَم التى يدور عليها التشريع .

وليس فى التوراة دليل على أبدية أحكامها الشرعية . ولا يصح أن يكون فيها ذلك ؛ لاختلاف العصور المقتضى لتغييرها .

فالإيمان بالقرآن المنزل على النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يتنافى مع ما أُنزل إلى اليهود ، فضلا عن أنه واجب عليهم ، إذ هو مما عهد الله به إلى جميع النبيين .

قال تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ[1] ... » .

---

(١) آل عمران - من الآية : ٨١

ويجوز أن يكون تصديقه للتوراة ، أنه نازل حسبما نعت فيها . ومعنى قوله : (وَلَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) لا تكونوا أول المبادرين بالكفر به مع علمكم بصدقه من كتابكم .

فإن قيل : إن مشركى العرب سبقوهم إلى الكفر بالقرآن والنبى . فالجواب أن المراد التعريض ، كأنه قيل لهم : ينبغى أن تكونوا أول المؤمنين به ؛ لما عرفتموه من صفاته فى كتابكم ، فأنتم تعرفونه كما تعرفون أبناءكم ، وكنتم تبشرون به ، وتستفتحون على أعدائكم .

ويمكن أن يجاب بأن المعنى : ولا تكونوا أول كافر به من أهل الكتاب ، فإنهم سبقوا المسيحيين فى الكفر به .

ووقوع (أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) خبرًا عن ضمير الجمع فى قوله (وَلَا تَكُونُوا) بتأويل : أول فريق كافر به .

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلاً) الآيات : هى الدلائل التى أيد الله بها نبيه عليه الصلاة والسلام ، وأعظمها القرآن ، والثمن القليل : هو ما كان رؤساؤهم من رجال الدين يحرصون عليه من الرياسة والمنافع المالية .

وإنما وصف الثمن بالقلة لأن كل ما عدا الحق قليل وحقير ، فإن مَنْ جَانَبَ عزةَ الحق ، خسر عقله ، وخسر منزلة الرضا عند ربه ، وآثر ما يفنى على ما يبقى ، وما أعظمها من خسارة !

(وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ):أى لا تتقوا غضب رؤسائكم ومرؤوسيكم بدوامكم على الكفر ، ولكن إياى وحدى فاتقون : بالإيمان واتباع الحق ، والإعراض عن متاع الدنيا .

٤٢ - (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

أى لا تخلطوا الحق الذى علمتموه ، بالباطل الذى تخترعونه وتكتبونه ، حتى يشتبه أولهما بالآخر ، أو : لا تجعلوا الحق ملتبسًا على أتباعكم وخفيا عليهم ، بسبب الباطل الذى تكتمونه فى أثنائه ، أو تذكرونه فى تأويله .

(وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ):معطوف على تلبسوا ، داخل معه تحت النهى السابق ، أى : لا تجمعوا بين الجريمتين ؛ لبس الحق بالباطل وكتمانه ، فكل منهما كبيرة فى الجرائم .

(وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ): أى والحال أنكم عالمون بالحق ، وليس لكم عذر بالجهل . وما أقبح صدور الذنب ممن يرتكبه وهو عالم !

(وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾).

المفردات :

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) : اجعلوها قائمة باستكمال متطلباتها .

(وآتُوا الزَّكَاةَ) : أعطوها لمستحقيها .

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ): صلُّوا فى جماعة .

التفسير

٤٣ ـ (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) :

بعد أن دعاهم الله إلى الإيمان بما أنزل على محمد ، أمرهم بالأعمال الصالحة ؛ فإن الإيمان كالأساس ، والعمل الصالح كالبناء عليه .

وذكر فى الآية عملين من الأعمال الصالحة :

أولهما : الصلاة ؛ وهى عنوان العبادة البدنية ، ومعراج الأرواح للمناجين ربهم . وهى عماد الدين .

والثانى : الزكاة ؛ وهى العبادة المالية ، وهى أثر من أجل آثار الإيمان ، تعالج مرض الشح والبخل فى النفس ، وتعتبر من أهم عوامل الإصلاح الاجتماعى ، وعنوان الشفقة من أغنياء المؤمنين على إخوانهم الفقراء والمساكين . واقتصر عليهما لأهميتهما بين أركان الإسلام .

و « أل » فى (الصَّلَاة) و (الزَّكَاة) للعهد . والمعهود صلاة المسلمين وزكاتهم . أمر الله بهما اليهود ـ بعد أمرهم بالإيمان وعدم كتمان الحق ـ ليجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح .

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) : أى صلوا مع المصلين جماعة ، فإنها تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ، لِمَا فيها من اجتماع النفوس وتآلف القلوب .

والتعبير عن الصلاة بالركوع : احتراز عن صلاة اليهود التى لا ركوع فيها ، وهو من إطلاق الجزء على الكل ، ويصح أن يكون المعنى : واخضعوا مع الخاضعين ، فإن من معانى الركوع : الخضوع ، قال الشاعر :

لا تحقرن الضعيف علَّك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه

(أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾) .

المفردات :

(بالبرّ) : بالتوسع فى الخير .

(الْكِتَابَ) : التوراة .

(لَكَبِيرَةٌ) : لثقيلة .

(الْخَاشِعِينَ) : الخاضعين .

(يَظُنُّونَ) : يعتقدون .

(مُلَاقُوا رَبِّهِمْ) فى الآخرة لنيل ثوابه .

التفسير

٤٤ ـ (أَتَأْمُرُونَ النَّاس بِالْبِرِّ . . .) الآية .

هذا توبيخ من الله لبنى إسرائيل ، وتعجب من شأنهم ، والخطاب فيه ـ وإن كان خاصا بهم فهو عام من حيث المعنى : يراد به توبيخ كل واعظ يأمر بالخير ولا يأتمر ، ويزجر عن

الشر ولا ينزجر . والبر : يتناول جميع أصناف الخير ، فيشمل عبادة الله ، والإحسان للأقارب والغرباء ، وغير ذلك .

والخطاب لعلماء اليهود ، فإنهم كانوا يأمرون الناس بالخير ولا يفعلونه . ومن ذلك أنهم كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون .

(وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ):النسيان : السهو الحادث بعد العلم ، والمراد به هنا : الترك ؛ لأن أحدا لا ينسى نفسه ، بل يحرمها من البر ويتركها ، كما يترك الشئ المنسى ، مبالغة فى الغفلة وعدم المبالاة بما ينبغى أن يفعله فى حقها .

(وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ):تقرءون التوراة وتدرسونها .

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ):هذا استنكار واستهجان لعدم تعقلهم ؛ إذ نصحوا سواهم وتركوا أنفسهم . والعقل فى الأصل : المنع والإمساك . سمى به النور الروحى ، الذى به تدرك العلوم الضرورية والنظرية ، لأنه يمسك النفس ، ويمنعها عن تعاطى ما يقبح ، ويعقلها على ما يحسن .

ومعنى الآية : لا ينبغى لكم يا بنى إسرائيل ، أن تأمروا الناس بخصال الخير وتتركوا أنفسكم فلا تزكوها بصفات البر ، وأنتم تتلون كتاب التوراة : التى توجب البر على النفس وعلى الناس ، (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) قبح صنيعكم شرعا لمخالفته ما تتلونه فى التوراة ، وعقلا ؛ لأن تطويع النفس للبر والخير يجب عقلا أن يسبق تطويع الناس لهما ، فإن الناس لا يأخذون كرائم الأخلاق ، ولا يعملون بها إلا إذا رأوا الدعاة إليها يعملون بها قبل غيرهم .

٤٥ ـ (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ . . .) الآية .

لما أمرهم الله سبحانه وتعالى بترك الضلال والإضلال ، والتزام الشرائع ـ وكان ذلك شاقا عليهم لما فيه من مخالفة الطبع ، وحب الرياسة والجاه والمال ـ طلب منهم أن يستعينوا بالصبر والصلاة ؛ فإنهما كفيلان بتذليل الصعاب وإزالة العقبات التى تعترض فى سبيل الهدى والبر المأمور بهما .

والصبر : ضبط النفس والسيطرة عليها ، بحيث تحتمل ما تكره انتظارًا للفرج ، وتمتنع عن لذائذها وشهواتها إن لم تكن من حقها .

وهو صفة الصالحين ، فهم لا يقنطون من رحمة الله إذا مسهم البلاء ، ولا يندفعون في المعصية ، ولا يطغون إذا مستهم النعماء . قال تعالى : « وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) »[1] .

والصبر : دعامة كل عمل صالح ، ومعين على اجتياز المصاعب . وقد أمر الله تعالى بالاستعانة بالصبر فى كل الأمور ؛ بأن نصبر على مشقة الطاعات ، وصعوبة البعد عن الشهوات وعن اللذات الآثمة ، وعلى مكاره الشدائد والمحن ، امتثالا لأمر الله فى الأولى ، وصبرا على بلائه فى الأخرى . كما أمر بالاستعانة بالصلاة ؛ لما فيها من العبادة النفسية والبدنية وإظهار الخشوع لله . وكل ذلك يزكى النفس ويقويها على احتمال التكاليف والشدائد . ولذا حثَّ الله نبيه وأمته عليها بقوله : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ . . . »[2] وكان النبى – صلى الله عليه وسلم – إذا حزبه أمر ، فزع إلى الصلاة .

ويحتمل أن المراد بالصلاة : معناها اللغوى ؛ وهو الدعاء ، فإنه من خير ما يستعان به .

والخطاب موجه إلى اليهود بعد دعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح ، ليجمعوا – إلى الإيمان المطلوب – هذه العبادات . فكأنه قيل : ولا تكتموا الحق – وهو نبوة محمد – فأعلنوه وآمنوا به ؛ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وصلوا مع المصلين من المسلمين ، بعد إيمانكم ، ولا تأمروا الناس بالبر على حين تهملون أنفسكم .

وأول خصال البر والخير هو الإيمان ، واستعينوا بالصبر والصلاة على الأمر كله .

وللخطاب صفة العموم فى الحكم لجميع المسلمين أيضًا ، كما سيأتى .

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ): الضمير فى (إِنَّهَا) عائد إلى الصلاة ، أى وإن الصلاة لثقيلة إلا على الخاشعين الخاضعين بقلوبهم لله ، أو عائد إلى جميع الأمور ؛ التى أمر بها بنو إسرائيل ، والتى نهوا عنها ، فى قوله تعالى : « يَا بَنِيَّ إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ » الآيات .

---

(١) هود .   (٢) طه من الآية : ١٣٢

ومعنى كونها كبيرة : أنها صعبة (إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ):وهم المتواضعون الخاضعون بقلوبهم. وإنما لم تثقل عليهم لأنهم يرونها حقًّا لله ، ويتوقعون حسن الجزاء عليها ، فتهون عليهم . ولذا قيل : مَن عَرَف ما يطلب ، هان عليه ما يبذل ، ومن أيقن بالخلف ، جاد بالعطية .

والخشوع : حالة فى النفس ، تستتبع فى القلب التسليم لأحكام الله ، وفى الجوارح السكون والتواضع على الوجه اللائق . والخشوع المتكلف – بالتباكى وطأطأة الرأس – مذموم شرعا . فهو من الرياء ؛ يفعله الجهال ؛ لِيُرَوْا بعين البر والإجلال .

ولهذا قال عمر لشاب نكس رأسه : « يا هذا ، ارفع رأسك » فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب .

٤٦ – (الَّذِينَ يَظُنُّونَ . . .) الآية .

الظن هنا : بمعنى العلم والتيقن ، ومنه قوله تعالى : « إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[١]

وقيل : الظن بمعناه المعروف ، وهو إدراك الطرف الراجح ، على أن تجعل ملاقاة الرب مجازا عن الموت ، لأنهم يلقون بعده ربهم ، ويكون المراد : وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يتوقعون الموت فى كل لحظة ، ويعلمون ما وراءه من البعث والحساب ، فهؤلاء لا يكون الصبر على الطاعة وعلى ترك المعاصى كبيرة على نفوسهم ، كما لا تكون الصلاة ثقيلة على نفوسهم أيضًا ، حذرا من العقاب – بعد البعث – على معصية الله .

ويجوز أن تفسر ملاقاة الرب بملاقاة ثوابه ، وذلك مظنون فالزاهد العابد ، لا يقطع بكونه ملاقيا ثواب الله . بل يظن ذلك ؛ ليحمله هذا الظن على كمال الخشوع . والأول أولى ؛ لقوله تعالى عقبه : (وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ):أى ويعلمون أنهم إلى ربهم راجعون للحساب والجزاء ؛ فإن الإيمان بالبعث وما وراءه ، لا ينفع فيه الظن ، بمعناه المعروف ، إذ لا بد فيه من القطع واليقين ، الذى هو العلم .

وهذه الآيات الثلاث – وإن نزلت فى علماء بنى إسرائيل – فالحكم فيها عام ، يشترك فيه علماء الإسلام ، ورجال جميع الديانات السماوية من قبل . فهو مبدأ مقرر فيها ، فَمَن

(١) الحاقة الآية : ٢٠

أمرٌ بالبر ، ينبغي له أن يسبق من يدعوه إليه ، فلا ينسى نفسه ويذكر الناس ، وعليه أن يستعين بالصبر والصلاة على قهر النفس وتطويعها للبر ، وعلى تحمل مشاق الحياة ومتاعبها ، فإنهما يمنحان النفس قوة الاحتمال ، ويسهلان لها صعاب الأمور .

(يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾) .

المفردات :

(نِعْمَتِيَ) : المراد بها ؛ جميع ما أنعم الله به عليهم .

(وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) : أى على عالمى زمانهم ، قبل أن يضلوا ، وتنسخ شريعتهم بما بعدها .

(لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا) : أى لا تقضى عنها شيئًا من الحقوق .

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ) : أى ترد شفاعة من يشفع لها ، لو فرض أنها وجدت شفيعًا .

(وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) : أى ولا هم يمنعون من عذاب الله لهم .

التفسير

فى هاتين الآيتين ، يذكر الله تعالى ، بنى إسرائيل بنعمه التى أنعمها عليهم ، ويطلب منهم أن يقوا أنفسهم ويحموها من العقاب ، بالإيمان والعمل الصالح . ويخبرهم : أنهم إن جاءُوا بشفاعة شفيع ، فلن تقبل منهم ، أو أعْطَوْا فدية فلن تؤْخذ منهم ، أو حاولوا الخلاص بالقهر ، فلن يتمكنوا منه . فلا منجاة من عذاب الله لمن يستحقه . وفيما يلى تفصيل ذلك :

٤٧ ـ ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ الآية .

كرر نداءهم وتذكيرهم بنعمته عليهم ؛ للتوكيد وربط ما بعده ـ من الوعيد الشديد ـ بتجاهلها ، ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾: أى فضلت آباءكم الذين كانوا قبل نسخ شريعتكم .

وإنما وجّه الخطاب ـ بالتفضيل ـ إلى المعاصرين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ باعتبار أن نعمة الآباء نعمة عليهم .

والمراد بالعالمين : سائر الموجودين فى وقت التفضيل .

وتفضيلهم عليهم ؛ إنما كان بما منحهم الله من النعم ، المشار إليها بقوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ... »[1] .

ولأنهم كانوا وقتئذ ، أصحاب دين سماوى ، وغيرهم كانوا يعبدون الأوثان . فلذا ، فضلوا غيرهم .

ولا يفهم من الآية تفضيلهم على النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته .

بل هو ـ عليه السلام ـ وأمته أفضل منهم .

قال تعالى ـ موجهًا كلامه لأمة محمد : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ... »[2] .

٤٨ ـ ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا . . . ﴾ الآية .

المراد : من اتقاء اليوم ، اتقاء ما يحصل فيه من العقاب والشدائد ، بالإيمان والعمل الصالح .

﴿ لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾: أى لا تقضى نفس عن نفس شيئًا من الحقوق فى هذا اليوم . فالحقوق منوطة بأصحابها التزامًا وقضاء . تقول : جزى عنى هذا الأمر ، أى قضاه عنى .

وقرأ أبو السماك ﴿ لاَ تُجْزِئُ ﴾ من أجزأ عنه ، إذا أغنى . أى لا تغنى نفس عن نفس شيئًا ، من الإغناء ، ولا تجديها نفعًا .

(١) المائدة من الآية : ٢٠ (٢) آل عمران من الآية : ١١٠

وفى الآية من التهويل والإيذان بانقطاع المطامع ما لا يخفى .

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ):الضمير فى (مِنْهَا) للنفس الثانية ، وهى الكافرة ؛ لأنها أقرب مذكور ، وليوافق قوله بعد : (وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) ولأنه المتبادر من قوله : (وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ) أى أن النفس الكافرة ، لو استأذنت ربها فى شفاعة شفيع ، فإنه لا يجيبها إلى رغبتها .

وقد استدل المعتزلة - بعموم الآية - على أنه لا شفاعة لأهل الكبائر . وهو مردود بما ورد فى الكتاب والسنة من قبول الشفاعة بإذن الله تعالى ، قال الله تعالى : « ... مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ... »[1] وقال تعالى : « ... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ[2] » إلى غير ذلك من الآيات .

وقد ثبتت الشفاعة للمؤمنين المقصرين نصًّا ، فيما رواه البخارى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - حيث قال : « أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة ، من قال : لا إلَه إلا الله ، خالصًا مخلصًا من قَلْبِهِ » وفى رواية : « مِن نَفْسِه » .

وفيما رواه أحمد والترمذى وأبو داود والنسائى عن جابر ، والطبرانى عن ابن عباس ، عن النبى -صلى الله عليه وسلم- : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى »إلى غير ذلك من الأحاديث .

وقد وردت أحاديث الشفاعة مطولة فى كتاب التوحيد من صحيح البخارى . وفى باب الإيمان فى صحيح مسلم وغيرهما .

فالمراد من قوله تعالى : « وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » اليهود ، فإن الخطاب معهم لردّهم عما يعتقدونه من شفاعة آبائهم الأنبياء لهم .

ومثلهم فى حكمهم : جميع الكفار من النصارى والوثنيين ومن لا عقيدة لهم .

وإنما يقبل الله الشفاعة للمؤمنين المقصرين . رحمة بهم بسبب إيمانهم الذى خلطوه بعمل صالح وآخر سيئ . وهؤلاء قد وعدهم الله بالغفران إن تابوا . قال تعالى : « ... خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ... »[3] .

---

(١) يونس من الآية : ٣
(٢) الأنبياء من الآية : ٢٨
(٣) التوبة من الآية : ١٠٢

والشفعاءُ الذين تقبل شفاعتهم بإذن الله ، هم : الأنبياءُ والملائكة والصالحون .

(وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ): أي فدية ، كما قال ابن عباس .

قال الآلوسى : وأصل العدل – بفتح العين – ما يساوى الشئ قيمة وقدرًا . وإن لم يكن من جنسه – وبكسرها – المساوى فى الجنس والجرم . انتهى . سميت به الفدية ؛ لأنها تساوى المفدى وتجزىءُ عنه .

ومعنى الآية : أن النفس الكافرة إن جاءت بشفاعة شفيع ، لم تقبل منها ، ولو أعطت فدية لم تؤخذ منها .

(وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ): النصر ؛ العون ، فالمعنى : ولا هم يعانون بالقوة حتى يفلتوا من العقاب ، فهم ونصراؤهم مقهورون مذللون تحت سلطانه تعالى .

وقد سدت الآية عليهم – بما تقدم – طرق الإفلات من العقاب ، إذ دلت على أنهم لا ينجون منه بشفاعة شفيع لهم ، ولا بفداءٍ يقدمونه ، ولا بنصير يحميهم ويخلصهم من العذاب بقوته وجاهه .

(وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾) .

المفردات :

(يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ): يوقعون بكم العذاب السيِّئ .

(يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ): يبقونهن أحياءً .

(بَلَآءٌ): اختبار ، أو مشقة ومحنة .

(فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ): فصلناه .

التفسير

٤٩ ـ (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) :

أى واذكروا نعمتى ، وقت إنجائكم من عدوكم فرعون ، فى عهد موسى عليه السلام .

والحقيقة أن الإنجاء منه كان لآباء المخاطبين بهذا التذكير ، وهم من كانوا فى عهد نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من اليهود ولكنهم ـ لما نجوا منه بإنجاء آبائهم ـ اعتبر إنجاء آبائهم نعمة عليهم . فلهذا ذكَّرهم الله بها . وآل فرعون : أهله . والمراد : نجيناكم من فرعون وآله ، وهم من ينسبون إليه والمراد: رعيته ، ويطلق على من يؤُول إليك ؛ فى قرابة أو رأى أو مذهب ، فألفه بدل من الواو كما قال يونس : ويخص ـ فى غالب الاستعمال ـ بالإضافة إلى من له خطر وشأْن ، ولا يضاف إلى مؤَنث ، فلا يقال آل عَزَّةَ مثلا ، وقد يضاف إلى من لا خطر له كآل الكوفة وقد لا يضاف ، نحو : هم خير آل .

وفرعون : لقب لمن ملك مصر ، ككسرى لملك الفرس ، وقيصر لملك الروم ، وخاقان لملك الترك ، وتُبَّع لملك اليمن ، والنجاشى لملك الحبشة .

ويرجح بعض الباحثين : أن فرعون موسى هو منفتاح بن رمسيس الثانى ، ارتكازا على بعض عبارات مأْثورة عثر عليها فى لوحة فى « تل العمارنة » حديثًا .

(يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ) بمعنى : يبغونكم العذاب ويطلبونه لكم . من : سامه خسفا . إذ أولاه ظلما . وسوء العذاب : سيئه وأفظعه . وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أى يُذيقونكم العذاب السيِّئ الفظيع ، وهو ما فى قوله تعالى : (يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ) فهو بدل من (يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ) و (يُذَبِّحُونَ) ـ بالتشديد ـ على التكثير . فقد كان فرعون يذبح الأطفال الذكور ، ويبقى البنات ، كما كان يقتل الرجال الذين يخاف منهم الخروج عليه ، والتجمع لإفساد أمره .

وقيل فى سبب ذلك : إن فرعون خاف من ذهاب ملكه على يد مولود من بنى إسرائيل ، ففعل ما فعل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، وكان ـ هو ورعيته ـ إلى جانب ذلك يستخدمونهم فى الأعمال الشاقة المهينة .

(وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ):أى يستبقون بناتكم – يا بنى إسرائيل – أحياء لخدمتهم .

(وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ):الإشارة راجعة إلى التذبيح والاستحياء ، أو إلى الانجاء أو إلى الجميع ، فإن البلاء : الاختبار . وهو يكون بالضار ليصبروا ، وبالسار ليشكروا ، وبهما جميعا ليشكروا على السار ويصبروا على الضار .

ولا تخلو اختباراته تعالى وبلاؤه لعباده من حِكَم.(مِن رَّبِّكُمْ):أى من مالك أموركم . الذى يبلوكم بالشر والخير فتنة وامتحانا ؛ ليثيب من شَكر على السراء . ويحرم الثواب من لم يصبر على الضراء .

والإشارة إلى المخاطبين فى عهد محمد–صلى الله عليه وسلم – لأن ما أصاب آباءهم ، فكأنما أصابهم ، (عَظِيمٌ):صفة ، وتنكير (بَلَآءٌ عَظِيمٌ):للتفخيم .

٥٠ – (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ . . .) الآية .

هذه نعمة أخرى غير ما تقدم (فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ):فَصَلنا بين مياهه ، حتى صارت فيه مسالك لكم . والباء فى (بِكُمْ) بمعنى اللام ، أى فرقنا لأجلكم البحر لكى ننجيكم من فرعون وقومه ، وتلك نعمة كبرى ، تقتضى منهم مزيد الشكر عليها ؟ بالإيمان والعمل الصالح .

وقيل : الباء للملابسة أى فرقنا البحر حال كونه ملتبسا بكم .

والبحر كما قيل : هو بحر القلزم ، ويطلق على الذى ماؤه ملح والذى ماؤه عذب ، ومنه قوله تعالى : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ »[1] .

(فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ) فى الكلام مُقَدَّرٌ : يدل عليه ما عرف من القصة فى نواحى القرآن . وحذف ما يعلم جائز وبليغ . والتقدير : وإذ فرقنا بكم البحر وتبعكم فرعون وجنوده ، فأنجيناكم من الغرق ، ومن إدراك فرعون وآله لكم ، ومما تكرهون ، إذ أخرجناكم منه سالمين ، وأغرقنا أعداءكم : فرعون وآله من القواد والجنود الذين تبعوكم (وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ):أى تنظرون جميع ما مر ، وفى ذلك تقرير « للنعمة » عليهم ؛ والخطاب لمعاصرى النبى –صلى الله عليه وسلم – باعتبار أنهم أبناء مَنْ صنع الله بهم هذه النعمة الكبرى .

---

(١) الرحمن الآية : ١٩

وهذه الواقعة ، من الآيات الملجئة إلى العلم ؛ بوجود الصانع الحكيم ، وتصديق موسى ، عليه السلام ، ولكنهم كفروها إذ عبدوا العجل بعدها ، وقالوا : «...لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً...»[1] وغير ذلك من سيئاتهم فلا غرابة فى أن يكفر معاصروهم للنبى محمد – صلى الله عليه وسلم – برسالته ومعجزاته . فالجحود فيهم مرض قديم .

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾) .

المفردات :

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) : أعطيناه موعدا أن ننزل التوراة عليه بعد أربعين ليلة .

(اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ) : أى جعلتموه إلٰها .

(مِن بَعْدِهِ) : أى من بعد موسى . والمقصود : من بعد مضيه لتلقى التوراة .

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم) : أى حين تبتم .

(مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ) : من بعد الاتخاذ .

التفسير

٥١ – (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . . .) الآية .

فى هذه الآية : إنعام آخر على بنى إسرائيل ، بعد ما جاوزوا البحر . فقد وعد الله موسى – عليه السلام – أن يعطيه التوراة بعد أربعين ليلة ، وقَبِلَ موسى ، فالمواعدة – على هذا – من الجانبين . فهى من الله وعد ، ومن موسى عليه السلام ، قبول . على حد قول الطبيب : عالجت المريض ، فالمعالجة من الطبيب فعل ومن المريض قبول .

---

(١) البقرة – من الآية : ٥٥

ويجوز أن تكون المفاعلة على غير بابها ، فتكون المواعدة بمعنى الوعد من جانب واحد ، وذلك مألوف فى كلام العرب مثل : عاقبت اللص وشاهدت الحديقة ، فتكون المواعدة من الله خاصة لموسى ، إذ هى بمعنى : وعدنا موسى .

وتدل له قراءة أبى عمرو (وَعَدْنَا) .

ويجوز أن يكون واعدنا بمعنى : وافينا ، أى : وافيناه بالتوراة بعد أربعين ليلة .

وموسى : اسم أعجمى لكليم الله ، الذى بعثه لبنى إسرائيل ، وهو منهم .

وتعبير الله عن ميقاته بقوله : (أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) إما لأن افتتاح الميقات كان من الليل ، أو لأن الأشهر القمرية تعرف بالهلال ، والهلال يرى ليلا . وأكثر توقيتات القرآن بالليل .

(ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ) : أى صنعتموه من ذهب على شكل العجل ، أو جعلتموه إلها .

وعلى المعنى الأول : يتعدى إلى مفعول واحد وهو العجل .

وعلى الثانى : يتعدى إلى مفعولين والثانى محذوف تقديره « إلٰها » وهو المقصود . فكلهم عبدوه ، إلا هارون وقلة معه ، أو إلا هارون والسبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام فى ميقات ربه . والعرب تذم أو تمدح القبيلة بما صدر عن بعضها . والعجل: ولد البقرة الصغير . وقد رأى السامرى - عند بنى إسرائيل - رغبة جامحة فى عبادة العجل ، كما كانوا يفعلون بمصر فى عهد الفراعنة ، إذ كانوا يعبدون معهم العجل (أبيس) فاتخذ من الْحُلِىِّ تمثالا على صورة العجل ، وجسمه ووضعه فى مستقبل الريح ، فإذا دخلته أحدثت صوتا كخوار العجل ، فعبدوه لهذا .

وفى الآية تسرية عن النبى - صلى الله عليه وسلم - لما كان يشاهد من جحودهم ؛ لنبوته وللكتاب الذى أنزل عليه ، وإيذان بأن عليه أن يصبر كما صبر موسى فى هذه الواقعة ، فإن بنى إسرائيل - بعد أن خلصهم الله من فرعون ، وأراهم المعجزات العجيبة من أول ظهور موسى إلى ذلك الوقت - اغتروا بتلك الشبهة الواهنة التى لا تقتضى ألوهية العجل ، فعبدوه . ثم إن موسى- إذا كان قد صبر على ذلك- فلأن يصبر محمد - صلى الله عليه وسلم- على أذى قومه أولى ؛ لأنه سيد أولى العزم .

(وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ) : أى فى إشراككم ، إذ وضعتم العبادة فى غير موضعها ، وعرضتم أنفسكم بذلك لعقاب الله .

والظلم لغة : وضع الشىء فى غير موضعه ومجاوزة الحد . والجملة حال أو تذييل ؛ لإفادة أنهم قوم عادتهم الظلم ، وقد أكد تمكن الظلم منهم ، بالجملة الاسمية المفيدة للاستمرار .

وفى الآية تنبيه إلى أن ضرر الكفر لا يعود إلا عليهم ؛ لأنهم ما استفادوا بذلك إلا أنهم ظلموا أنفسهم بتعريضها للعقاب .

٥٢ - (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ . . .) الآية .

العفو لغة : المحو والإزالة . والمراد به هنا: غفران ذنبهم ، وشركهم بعبادة العجل ، بعد توبتهم منه .

والتعبير بلفظ (ثُمَّ) للإيذان بالتفاوت الكبير بين إشراكهم القبيح ، وبين لطفه تعالى ؛ بالعفو عنهم لما تابوا .

والمعنى : ثم محونا عنكم عقوبتكم على اتخاذكم العجل إلٰها ، بعد توبتكم منه .

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ): لعل هنا للتعليل ، أى : لكى تشكروا نعمة عفوه تعالى ، بالاستمرار على طاعته ، والعدول عن معصيته .

(وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾) .

المفـردات :

(إِذْ) : ظرف للوقت الماضى .

(ءاتَيْنَا) : أعطينا .

(الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ) : أى التوراة الجامعة بين كونها كتابا ، وكونها فارقة بين الحق والباطل .

التفسير

٥٣ - (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) :

هذا هو الإنعام الرابع على بنى إسرائيل . والمراد بالكتاب والفرقان : التوراة ، فهى جامعة بين كونها كتابا سماويا وفارقة بين الحق والباطل ، والعطف لتغاير العنوان ، وذلك على حد قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا ... »[1] . أو المراد بالكتاب : التوراة . وبالفرقان : معجزات موسى عليه السلام ، لأنها فرقت بين الحق والباطل ، أو النصر على فرعون وقومه بإغراقهم . فهو فارق بينهم وبين بنى إسرائيل ، كما سمى يوم بدر : يوم الفرقان .

والمعنى : ولقد آتينا موسى التوراة وما يفرق بين الحق والباطل ، لكى يهتدى بذلك بنو إسرائيل إلى الحق ، ويرجعوا عما هم فيه من ضلالة .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾) .

المفردات :

(بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ) : أى بعبادة تمثال العجل .

(بَارِئِكُمْ) : خالقكم .

(فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ) : فاصنعوا بها ما يشبه القتل ، وهو الحسرة والندم واللوم الشديد .

(فَتَابَ عَلَيْكُمْ) : فقبل توبتكم .

---

(١) الأنبياء - من الآية : ٤٨

التفسير

٥٤ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوٓا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) :

بين الله فى هذه الآية ؛ طريقة توبة اليهود من عبادة العجل ، التى استعقبت العفو عنهم .

والمعنى : واذكر يا محمد ، لمعاصريك من اليهود ، فضل الله عليهم ، إذ أمر نبيه موسى فقال لآبائهم : يا قوم ، إنكم ظلمتم أنفسكم ، إذ عرضتموها لعقاب الله باتخاذكم العجل إلٰها ، فعبدتم تمثالا ؛ تقربا إليه ، مع أنه - كأصله - مخلوق لله ، ولا قدرة له على شىء فى نفسه ولا غيره ، فتوبوا إلى الله الذى خلقكم وسوّاكم فى أحسن تقويم ، فَأَهلِكُوا أنفسكم بالندم على هذه الجريمة ، والإقبال على الطاعة له تعالى . ذلكم خير لكم عند خالقكم فى الآخرة ، لما فيه من عظيم الثواب والبعد عن شديد العقاب . إنه - تعالى - هو الذى يقبل التوبة كثيرًا عن عباده ، البليغ الرحمة بهم .

مباحث الآية

١ - (فَتُوبُوٓا إِلَى بَارِئِكُمْ): البارىء ؛ هو الذى خلق الخلق بريئًا من التفاوت . قال الله تعالى: «... مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ... »[1] فقد خلق الأعضاء متناسبة متميزا بعضها عن بعض ، فى الصورة والوظائف ، وجعل كل عضو يقوم بوظائفه العجيبة على الوجه الأكمل - دون عناء - فى تعاون مع سائر الأعضاء ، كما جعل الناس متمايزين فى الصورة . حتى يعرف بعضهم بعضا . فلا ترى أحدًا يشبه الآخر تماما فى صورته . إلى غير ذلك من أسباب الكمال فى الخلق .

وصدق الله تعالى إذ يقول فى سورة (التين) : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ».

---

(١) الملك - من الآية : ٣

وفى ذكر : البارىء فى هذا المقام ، تقريع لهم بما كان منهم ؟ من ترك عبادة الله الذى برأهم بلطيف حكمته ، إلى عبادة مالايقدر على شىء ، وهو مثل فى الغباوة والبلادة .. والفاء هنا . تفيد تسبب الأمر بالتوبة على اتخاذهم العجل .

٢ ـ (فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) : المتبادر من القتل ؛ إزهاق الروح ، فإن كانت توبتهم هى القتل ، فالمراد بقوله تعالى : (فَتُوبُوا) : اعزموا على التوبة ، هذا إذا كانت الفاء للتعقيب .

فإن كانت تفسيرية . فالتوبة على أصل معناها ، والقتل تفسير لها ، كما قيل فى قوله تعالى : « فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ ... [1] » .

وإن كانت توبتهم هى الندم المعبر عنه بالقتل مبالغة ، فعطف القتل على التوبة للتفسير ، ولا إشكال فيه .

وكثير من المفسرين ـ سلفًا وخلفًا ـ على أن القتل حقيقى .

قال سفيان بن عيينة : كانت توبة بنى إسرائيل القتل .

وقال الزهرى : لما قيل لهم : (فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) قاموا صفين . وقتل بعضهم بعضًا حتى قيل لهم : كفوا ، فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبة للحى اهـ .

ورُوِىَ: أنه أمر من لم يعبد العجل أن يقتل من عبده .

قيل : كانت جملة القتلى سبعين ألفا . وبتمامها نزلت التوبة وسقطت الشِّفَارُ من أيديهم .

ونظرًا لأنه لم يأت نص يعول عليه فى السنة ، يقتضى أن القتل حقيقى ، فقد جنح بعض العلماء إلى أن المراد بالآية : اجعلوا أنفسكم كالمقتولة : بمزيد الغم والندم والإذلال .

وقد ورد استعمال القتل فى غير حقيقته فى اللغة والسنة .

ومما ورد فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الأخير منهما » . أى أبطلوا دعوته كمن مات ـ اهـ من لسان العرب .

وقد صدّر أبو السعود والبيضاوى تفسير الآية بهذا المعنى المجازى ، فقال كلاهما : (فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) : إتماما لتوبتكم بالبخع [2] أو قطع الشهوات اهـ .

---

(١) الأعراف ـ من الآية : ١٣٦

(٢) البخع : قتل النفس غمًا اهـ من القاموس .

ومن الحكم : من لم يعذب نفسه لم يَنعمها ، ومن لم يُقتلها لم يُحْيها . ذكره البيضاوى فى تفسير الآية .

وأنكر القاضى عبد الجبار ، أن يكون الله تعالى قد أمر بنى إسرائيل بقتل أنفسهم ، إذ الأمر لمصلحة المكلف ، وليس بعد القتل حال تكليف ليكون فيه مصلحة .

وقرأ قتادة (فأَقِيلُوا أَنفُسَكُمْ):بالياء بدل التاء . والمعنى : إن أنفسكم تورطت فى هذا الذنب العظيم ، وفعلت مايهلكها ، فأَقيلوها وارفعوها من هذه الورطة ؛ بالتوبة والتزام الطاعة . وهذه القراءة تزكى المعنى الثانى لقتل النفس المطلوب منهم .

٣ ـ (ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ) جملة معترضة : للتحريض على التوبة . يعنى أن قتلهم لأَنفسهم ـ بالندم على عبادة العجل ـ خير لهم من بقائهم على عبادته ، لما يترتب عليه من العذاب والهلاك الدائم . وكرر كلمة البارىء ، اعتناءً بالحث على التسليم لما أَمَرَ به ، وتَلَقِّى مايرد من قبله بالقبول والامتثال .

٤ ـ (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) إن كان خطابا من الله لهم ، فهو معطوف على محذوف ، وكأَنه قال : ففعلتم ما أمركم به ، فتاب عليكم بارئكم .

وإن كان كلام موسى ، فهو جواب شرط تقديره : إن فعلتم ما أُمرتم به فقد تاب عليكم . وإنما لم يقل : فتاب عليهم ؛ ليعود الضمير على القوم أسلافهم ؛ لأَن هذه نعمة أريد بها تذكير المخاطبين فى عهده صلى الله عليه وسلم . لا أسلافهم . فالنعمة على الآباء نعمة على الذرية .

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾) .

المفردات :

(لَن نُّؤْمِنَ لَكَ) : «لن» ؛ لنفى الفعل فى المستقبل ، ولا تفيد تأْكيدًا ولا تأْبيدًا ، خلافًا للزمخشرى ، حكاه صاحب القاموس . والإيمان : التصديق الجازم .

(جَهْرَةً) : هى فى الأصل مصدر جهرت بالقول ، استعيرت للمعاينة ، لتشابههما فى الوضوح والانكشاف .

(فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ) : هى نار جاءتهم من ناحية السماء فأحرقتهم . ومن معانيها : الموت وكل عذاب مهلك .

التفسير

٥٥ - (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) :

أضفى الله تعالى على بنى إسرائيل الآلاء السابقة ، وقابلوها بالكفر ، حتى عبدوا العجل . ودعاهم إلى التوبة : بالندم وكف نفوسهم عن أهوائها وشهواتها ، فلما تابوا قبل توبتهم . ومع كثرة البينات المتوالية التى قدمها موسى بإذن من الله تعالى ، تفننوا فى الطلب ، وحسبوا أن الله تعالى فى مكان وله حيز ، بحيث يمكن أن يروه جهرة فى الدنيا ، فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة : أى معاينة .

فالآية سيقت ؛ لبيان تعنتهم فى طلب الآيات ، وتأثرهم بما قاله سيدهم فرعون مصر لهامان : « ... يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ [١] » .

وفى ذلك عبرة وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، فيما يلقاه من تعنتهم .

والمعنى : واذكروا أيها اليهود المعاصرون للنبى صلى الله عليه وسلم ، إذ قال أجدادكم لموسى عليه السلام : (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ . . .) أى لن نسلم لك - مصدقين مذعنين راضين مطمئنين - (حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) : أى حتى نراه مشاهدة وعيانا .

أو الجهرة صفة لخطابهم ، كما روى عن ابن عباس .

---

(١) غافر - من الآية ٣٦ والآية ٣٧

والمعنى على الرأى الثانى : وإذ قلتم – جهرة وعلانية غير مبالين – ياموسى ، لن نؤمن من أجل قولك ، حتى نرى الله بأعيننا .

(فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ) : استولت عليكم وأهلكتكم ، لفرط عنادكم وطلبكم المستحيل .

والصاعقة : الموت ، أو نار سقطت عليهم من السماء .

(وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) : أى تنظرون إليها ، وهى تصيبكم وتباشر إهلاككم .

٥٦– (ثُم بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ . . .) الآية .

(مِن بَعْدِ مَوْتِكُمْ) بالصاعقة ، وكان ذلك بدعاء موسى عليه السلام ، ومناشدته ربه بعد أن أفاق .

والموت هنا ، ظاهر فى مفارقة الروح الجسد بقرينة ذكر البعث معه .

وقال بعض العلماء : كان موتهم غشيانا وهمودا ، لا موتا حقيقيا . كما فى قوله تعالى : « . . . وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ . . . » [1] .

والمراد من البعث على هذا ، إعادة النشاط والصحو لهم .

وقال آخر : موتهم ؛ هو جهلهم الذى كانوا فيه . وبعثهم : تعلمهم أحكام التوراة ؛ ومن هذا المعنى قوله تعالى : « أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ . . . » [2] وقول الشاعر :

وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يُظَنُّ من الأحياء وهو عديم

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى لكى تشكروا نعمته تعالى ببعثكم بعد الموت ، أو جميع نعمه بعد ما كفرتموها .

والمراد من شكرهم له تعالى : مايعم قيامهم بما كلفوا به ، وتركهم لما نهوا عنه قبل موتهم بالصاعقة ؛ فإن الله – بعد موتهم – بعثهم ليشكروه تعالى : بالعمل بما شرعه لهم قبل صعقهم ؛ حتى تغفر لهم جرائمهم .

فلفظ الشكر : يتناول جميع الطاعات ، لقوله تعالى : « . . . اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا . . . » [3] .

(١) إبراهيم – من الآية : ١٧
(٢) الأنعام – من الآية : ١٢٢
(٣) سبأ – من الآية : ١٣

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

المفردات :

(الْغَمَامَ) : السحاب . واحده غمامة ، كسحابة . سمي به : لأنه يغم وجه السماء ، أي يستره .

(الْمَنَّ) : المشهور ، أنه الترنجبين . وهو شيء يشبه الصمغ : حلو مَشوب بحموضة .

(وَالسَّلْوَى) : طائر يشبه السمانى ، أو هو السمانى بعينها .

التفسير

٥٧ - (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) :

هذه الآية تتضمن الإنعام السابع على بنى إسرائيل ، وهى معطوفة على (بَعَثْنَاكُم) مؤذنة بأن الإظلال بالغمام ، كان بعد البعث ، ولم يكن قبل الصعق ، فإنهما جميعا معطوفان بلفظ (ثُمَّ) على ماقبلهما ، وهو أخذتكم الصاعقة ، و (ثُمَّ) : تفيد الترتيب على ماسبقها .

والمعنى : وجعلنا الغمام يظلكم ، بعد البعث ، ويرد عنكم حر الشمس فى التيه .

(وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) المن هو - كما سبق - صمغة حلوة فيها بعض الحموضة ، وكان ينزل عليهم كالندى ، من الفجر إلى طلوع الشمس . وقيل : هو ما مَنَّ الله به عليهم من غير تعب ولا زرع . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث رواه مسلم : « الكمأة من الْمَنِّ الذى أنزل الله على بنى إسرائيل » أى : بعض المن . والكمأة : نبات معروف . والسلوى : هى السمانى أو طائر صغير يشبهها . وكانت تأتيهم بُكْرَةً وعشية فيختارون سِمَانَها ويَدَعُون غيرها .

(كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ) : المراد من طيبات الأرزاق: مستلذاتها . وفى الكلام قول مقدر . أى : وقلنا لهم : كلوا .

(وَمَا ظَلَمُونَا) بتركهم لشكرنا ، وإقبالهم على معصيتنا ، واقتراحهم أدنى الأرزاق وهو الفوم والعدس والبصل ، بدلاً من خيرها وهو المن والسلوى (وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : أى ولكن كانوا لايظلمون سوى أنفسهم ، بتعريضها للعقاب والحرمان ، دون أن يعود شىء من ظلمهم وآثاره على الله ، والتعبير بجملة (كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ):يشير إلى أن الظلم لأنفسهم كان خلقًا قديما فيهم ، وأنهم مستمرون عليه .

(وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾) .

المفـردات :

(القَرْيَةَ): المدينة من قريتُ إذا جمعتُ ، سميت بذلك لأنها تجمع الناس ، وقيل : القرية: مسكن القلة من الناس . والمدينة: مسكن الكثرة منهم . والمشهور عن ابن عباس وغيره : أنها بيت المقدس .

(رَغَدًا) : واسعا هنيئا .

(حِطَّةٌ) : أى حَطٌّ لذنوبنا وغفرانٌ لها .

(رِجْزًا): أى عذابا ، وراؤه مثلثة لغة .

التفسير

٥٨ - (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ القَرْيَةَ . . .) الآية .

الظاهر أن الأمر كان على لسان موسى ، وهو كالأوامر السابقة واللاحقة . والقرية على المشهور : هى بيت المقدس أو أريحا ، ولكنا لم نجد دليلا يؤيد هذا القول المشهور ، والأمر للإباحة ، بدليل عطف (فَكُلُوا مِنْهَا) عليه ، فإن الأمر بالأكل للإباحة ، وهو غير الأمر المذكور فى قوله تعالى : « يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ... »[1] ، فإنه للإيجاب . بدليل عطف النهى عليه فى قوله : « وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ » ، فإن النهى فيه للتحريم وقد عوقبوا على مخالفته بأن يتيهوا أربعين عاما ، وأمر الإباحة هنا مؤخر عن أمر التكليف فى قوله : « ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ » .

(فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا) : أى فكلوا منها فى أى مكان شئتم أكلا واسعًا : لا يقتصر على سد الجوع ، وهذه نعمة كبرى ، أنعم الله بها عليهم ، بعد خروجهم من التيه : حيث أمرهم أن يدخلوا قرية ذات زروع وثمار ، وأباح لهم أن يأكلوا من طيباتها ـ حيث شاءوا ـ أكلا واسعًا هنيئًا ، بعد أن كانوا حيارى فى التيه : مقصورين فيه على لون واحد من الطعام . وقد أمرهم الله أن يدخلوها من بابها فقال : (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) متطامنين خاشعين : شكرًا لله تعالى على إخراجكم من التيه ، والإنعام عليكم بالاسترزاق فى هذه القرية .

كما أمرهم أن يسألوه تعالى : العفو عن ذنوبهم الماضية فقال لهم : (وَقُولُوا حِطَّةٌ) أى حِطَّةٌ منك يا ألله لخطايانا وغفرانٌ لذنوبنا . ووعدهم الله أن يستجيب دعاءهم واستغفارهم عن خطاياهم فقال : (نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ) : نستر لكم سيئاتكم السابقة ، فلا نعاقبكم عليها (وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) : ثوابًا على إحسانهم ، فوق غفران خطاياهم ، ولكن هؤلاء المنكرين للنعم لم يستجيبوا (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) بما أمروا به وهو قولهم : حطَّةٌ ، المفيد لطلب حَطِّ ذنوبهم وغفرانها (قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ) ليس فيه خضوع واستغفار لذنوبهم، إعراضا وعنادًا منهم لربهم (فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) : أى فأنزلنا عليهم ـ لظلمهم ـ عذابًا من السماء ، بسبب مااستمروا عليه من الفسق المتجدد ، والخروج عن الطاعة آنا فآنا .

وظاهر قوله تعالى : (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ) أنهم لم يشتركوا جميعًا فى تبديل ماقيل لهم ، بل الذين بدلوا هم الذين ظلموا .

---

(١) المائدة ـ من الآية : ٢١

وعلى هذا فإن النص يفيد : أن مَن دخل القرية قسمان : قسم أطاع ولم يبدل ، وقسم عصى وبدل . فبدلاً من أن يدخلوا خاضعين خائفين متواضعين ، دخلوا مستكبرين . وبدلاً من أن يستغفروا ويطلبوا حط الذنوب وغفرانها ، لم يعترفوا بذنوبهم ولم يستغفروا الله منها ، بل قالوا ما يخالف ذلك ؛ استهزاءً بما كلفوا به ، فاستحقوا أن ينزل الله عليهم من السماء رجزًا أي عذابًا ، بسبب فسقهم وفساد سرهم وعلانيتهم .

ويصح أن يكون التبديل وقع منهم جميعًا ، وأن المعنى : فبدلوا - جميعًا - قولا غير الذى قيل لهم ؛ لظلمهم .

(وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾) .

المفـردات :

(اسْتَسْقَى مُوسَى) : طلب السُّقيا من الله .

(اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ) : المراد بالعصا هنا ؛ آية موسى ، وهى المسئول عنها بقوله تعالى : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى » والمراد بالحجر : أى حجر ، وليس حجرًا بعينه .

(فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) : أى فخرجت منه بقوة بعد انصداعه هذه العيون .

(كُلُّ أُنَاسٍ) : أناس ؛ جمع لا واحد له من لفظه ، وتحذف همزته مع أل . والمراد بهم : السبط من أولاد يعقوب ؛ أى كل سبط .

(مَّشْرَبَهُمْ) : أى موضع شربهم .

(وَلَا تَعْثَوْا) : العثو عند بعض المحققين ؛ مجاوزة الحد مطلقًا ، فسادًا أو غيره ، ثم غلب في الفساد .

التفسير

٦٠ - (وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا . . .) الآية .

كلمة (إذ) تكررت خمس عشرة مرة ، فى القصص الخاصة ببنى إسرائيل .

وهى فى اللغة : لمطلق الظرفية فى الزمن الماضى . وهى على تقدير : اذكر : والمراد من ذكر الوقت فيها : تذكر ماوقع فيه من النعم والحوادث ، لعل ذلك يفيدهم العبرة ، ويهيئ نفوسهم للتوبة والاستجابة لأمر الله .

ولم يعن القرآن بالترتيب الزمنى فى ذكر قصصهم ، لأنه ليس له دخل فى تصحيح عقائدهم وأعمالهم . والذى له دخل فى ذلك ، هو تذكر النعم التى أنعم الله بها عليهم ، والعقوبات والحوادث التى حلت بهم فى أى زمان ، فإن لهم - فى تذكر ذلك - أعظم العبر ، التى يجب أن تردهم إلى رشدهم ، وتكفهم عن التمادى فى طغيانهم .

وقد سيقت هذه الآية ؛ لبيان حال من أحوال بنى إسرائيل فى هجرتهم . وكانوا قد أصابهم فى التيه عطش شديد ، فاستغاث موسى بربه ، وطلب منه أن يسقى قومه حتى لايموتوا عطشا وذلك قوله تعالى : (وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ) : أى دعا ربه ، أن يهيئ لهم وسائل السقيا والرى .

(فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ) : أجاب الله موسى عليه السلام فى طلب السقيا ، ودله على الطريقة التى تحقق رغبتهم ، وتكون معجزة له أمام قومه فقال له : (اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ) ، فضرب موسى الحجر (فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) بعدد الأسباط : وهم ذرية يعقوب من أولاده الاثنى عشر . والمراد بعصا موسى : العصا التى ضرب بها البحر فانفلق ، وكان كل فرق كالطود العظيم . وهى معجزته الكبرى . والمراد بالحجر : أى حجر ، كما قال الحسن : ضربه فانفجر منه الماء ، وهذا أبلغ فى الإعجاز وأبين فى القدرة .

والمراد من انفجار تلك العيون من الحجر ، خروج الماء الغزير - بقوة - من اثنى عشر مكانا ، فى الحجر الذى ضربه موسى عليه السلام بعصاه . وتلك نعمة كبرى ، من نعم الله على بنى إسرائيل .

وقد يقال : إن الله قادر على أن يمنحهم الماء بدون ضرب الحجر بالعصا ، فلماذا لم يفعل ؟ .

والجواب : أن الله تعالى ، أراد أن يبين لهم كرامة نبيهم موسى على الله تعالى ، ويؤكد لهم نبوته : بإجراء تلك المعجزة على يديه ، بمجرد ضربه الحجر بعصاه ، حتى يقوى إيمانهم بنبوته ، التى يتشككون فيها من آن لآخر .

وقد مرّ قريبا أنهم قالوا له : « لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً » كما أن فيها تثبيت إيمانهم بالله ، لأنه إيمان يتزلزل من آن لآخر . فقد مرَّ قريبًا : أنهم أُشربوا فى قلوبهم حبَّ عبادة العجل، مع عظيم آيات الله التى مرت بهم ، والتى من شأنها أن تصرفهم عن الكفر به . ومن أقواها : شقه البحر لهم ، وعبورهم إلى سيناء — فى طرق يابسة — بين حوائط من ماء .

(قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ) : أى قد علم كل ناس من الأسباط ، محل شربهم من تلك العيون . فقد خصص لكل سبط منهم عين ، حتى لايحدث خلاف بينهم على الماء ، فهم أهل خلاف وشقاق .

(كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ) أى قلنا لهم : كلوا المن والسلوى ، واشربوا من رزق الله الذى تفضل به ، فجمع لكم بين النعمتين المتلازمتين ، بحيث تحصلون عليهما فى يسر وسهولة ، وذلك من أجَلِّ النعم وأعظمها .

وقوله : (مِن رِّزْقِ اللَّهِ) : إشارة إلى أن الأكل والشرب نعمة متمحضة من جانب الله تعالى ، لادخل لعملهم فى الحصول عليها .

ثم عقب الأمر بالأكل ، والشرب بالنهى عن الفساد ، فقال : (وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) فإن من شأن النعمة أن تستحثهم على الطاعة والاستجابة للمنعم سبحانه، فى نهيه لهم عن الإفساد فى الأرض ، فقد هيأ لهم ما يكفهم عنه .

والعثو : الإفساد . فقوله بعد ذلك : (مُفْسِدِينَ) حال مؤكدة ؛ لأن المعنى واحد لكل من العثو والإفساد ، ولكن لو نظرنا إلى أصل معنى العثو وهو : مجاوزة الحد مطلقا ، فسادا أو غيره ، يكون التعبير بلفظ (مفسدين) لتعيين المراد من العثو .

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾) .

المفردات :

(بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا) : البقل ، النبات الرطب ، مما يأكله الناس والأنعام ، والمراد به هنا : أطايب البقول التي يأكلها الناس .

والقثاء : هى المعروفة . وقال الخليل : هى الخيار .

والفوم : الحنطة وسائر الحبوب التى تخبز ، قاله الزجاج . وقال الكسائى : هو الثوم . أبدلت ثاؤه فاء ، وهو بالبصل والعدس أوفق ، وبه قرأ ابن مسعود .

(وَبَآءُوا بِغَضَبٍ) : أى رجعوا به .

التفسير

٦١ - (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ . . .) الآية .

فى هذه الآية بيان حال آخر من أحوال بنى إسرائيل ، الناشئة عن العناد والبطر والشهوة فقد كانوا فى التيه حينئذ ، وقد أكرمهم الله فيه ، فجعل طعامهم المن والسلوى . ولكنهم بطروا هذه النعمة ، وطلبوا دونها .

قال الحسن : كانوا يأكلون فى مصر البقل والعدس والبصل ، فحنُّوا إليه ، أو ذلك مكرٌ منهم ، فهم يحتالون بطلبه ؛ ليعودوا إلى مصر ، فإنها تنبت ما طلبوا .

وقولهم لموسى : (لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا) : تفوح منه رائحة مكرهم وخبثهم ؛ لأنهم - وهم فى التيه - يعلمون أنهم فى صحراء : لاتنبت ماطلبوا ، ولذلك لم يتجه سيدنا موسى إلى أن يطلب من الله أن يخرج لهم هذا النبات معجزة فى أرض الصحراء ، ولو أنهم طلبوا تغيير طعامهم - لملل من استمرارهم على طعام واحد - لما أصابهم لوم وتأنيب .

ولعل حكمة حبسهم فى التيه ، أن يبعدوا عن الاتصال بأهل مصر ، حتى ينسوهم وينسوا عقيدتهم التى شاركوهم فيها ، وهى عبادة العجل ، ويتهيأوا للطاعة والامتثال لما أمرهم به موسى ، من عبادة الله الواحد الديان .

وقد شرحنا فى المفردات : البقل والقثاء والفوم .

وأما العدس: فهو من الحبوب المعروفة بمصر ، وكان طعاما محبوبا لبنى إسرائيل وأنبيائهم .
والبصل : معروف بمصر وغيرها .

(قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ) : أى قال لهم موسى مُتَعَجِّبًا من طلبهم : أتستبدلون الطعام الذى هو أدنى وأقل قيمة ، بالمن والسلوى الذى هو خير وألذ : فالباء فى قوله : (بِالَّذِى) داخلة على الذى يريدون تركه ، وهو المن والسلوى .

قال تعالى : (اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ) المراد من الهبوط : مجرد الانتقال ، فإنه كما يقال على النزول من أعلى إلى أدنى ، يقال أيضا على مجرد الانتقال من مكان إلى آخر . ويجوز أن يراعى المعنى الأصلى : وهو النزول من أعلى إلى أدنى ، بأن يكون التيه أعلى مكانًا من المصر ، أو أن يراعى نزولهم من أعلى إلى أدنى فى الرتبة ، تبعا لطلبهم الأدنى من الطعام ، بدل أرقاه وأعلاه قيل : وهو الأنسب بالمقام .

والمصر : البلد العظيم ، والمراد به أى بلد زراعى من ريف الشام ، حيث يتيسر فيه وجود ماطلبوا من الطعام ، أمرهم بذلك ؛ لخلو الصحراء منه . وقيل المراد به : مصر فرعون . وسواء أكانوا فى التيه

أم فى المصر، فوجودهم فى أيهما، وجود هجرة وإيواء لا وجود تملك، فلا يكتسبون به حق انتزاعه من أهله العرب، كما يدعون.

(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ) : معنى ضربت عليهم الذلة ؛ أُحيطوا بها من كل جانب . مأخوذ من ضرب القبة والخيمة ، أى : إقامتها ، فالذلة كأنها محيطة بهم ، إحاطة الخيمة بمن ضربت عليه ، أو ألصقت بهم الذلة ، مأخوذ من ضرب الطين على الحائط ، والذلة : الصغار والضعة ، ويقابلها العزة والإباء . والمسكنة هنا : فقر النفس .

والمعنى : أنهم جبلوا على الصغار والخسة وفقر النفس ، فقد تربوا عليها فى خدمة سادتهم أهل مصر ، وصارت من طبعهم ، فاستخدموها فى كل زمان لنيل مآربهم الخبيثة .

(وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ) : أى رجعوا به ، أو صاروا مستحقين له بسوء أعمالهم .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) : أى ذلك الذى استحقوه - من ضرب الذلة والمسكنة وغضب الله - بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله الكونية ، والتنزيلية ، - ومن جملتها : فلق البحر ، وإظلال الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وانفجار العيون من الحجر - وإخفاء آية الرجم ، ونعت محمد فى كتابهم . وبسبب أنهم يقتلون الأنبياء بغير حق ، كما فعلوا بأشعياء وزكريا ويحيى عليهم السلام . وفائدة تقييد قتلهم بأنه بغير حق - مع أن قتل الأنبياء يستحيل أن يكون بحق - للإيذان بأنه عندهم فى دينهم كذلك ، فهم فعلوه عمدا ، معتقدين أنهم يرتكبون إثما فى دينهم ، إذ لم يروا منهم مايقتضيه ، وما حملهم عليه إلا اتباع الهوى ، والغلو فى العصيان والاعتداء ، كما يفصح عنه قوله تعالى : (ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ) : أى ذلك الكفر منهم بآيات الله وقتلهم للأنبياء بغير الحق - بسبب أنهم درجوا على العصيان ، ومداومة الاعتداء ، ومجاوزة الحدود ، حتى قست قلوبهم فاجترءوا على الكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء . فإن الاستمرار على صغار المعاصى ، يؤدى إلى الاجتراء على كبارها ، كما أن الاستمرار على الطاعات ، يستتبع تحرى كبارها .

فلهذا ينبغى تخول الناس بالموعظة ، ونهى العصاة عن المنكر ، أولا فأولاً ، حتى لايصير عندهم - بطول الممارسة - مرضا يستعصى علاجه .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾) .

المفـردات :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) : صدقوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم (وَالَّذِينَ هَادُوا) : أى الذين دانوا باليهودية ؛ دين موسى – عليه السلام – ويطلق عليهم اسم اليهود .

(وَالنَّصَارَى) : من ينتسبون إلى النصرانية ؛ دين عيسى – عليه السلام – وهو جمع واحده نصران ومؤنثه نصرانة .

وهذا الاسم مأخوذ من الناصرة ، التى سكنتها السيدة مريم بعد عودتها بعيسى من مصر وهو مراهق – وكانت سنه حينئذ اثنتى عشرة سنة – كما قيل . (وَالصَّابِئِينَ) : من يخرجون من دين إلى دين ، مفرده صابئ ، وسيأتى بسط الحديث عنهم فى التفسير .

التفسير

٦٢ – (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

جاءت هذه الآية الكريمة عقب وصف اليهود باستحقاق غضب الله ؛ بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق ، لتشعرهم بأن غضب الله عليهم وما يستتبعه من عقاب يمكن رفعه عنهم وحلول الرضا محله ، وفوزهم بالأجر الجزيل بلا خوف من عقاب ، ولا حزن على فقدان ثواب ، إن هم آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحا .

وقد شاء الكريم المنان ، ألا يحرم من هذه المنة غيرهم ، فعم بها النصارى والصابئين ؛ ويدخل فى حكمهم مَنْ دان بأى دين آخر ، أو كان ممن لا دين لهم ، فكل من آمن بعد كُفر ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

والمراد بقوله: (الَّذِينَ آمَنُوا) : من قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . بدليل نظمهم في سلك الكفرة ، وبدليل قوله في آخر الآية : (مَنْ آمَنَ مِنْهم بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) فإن المقصود به طلب الإيمان من جميع مَنْ دُرِجُوا في الآية . وقد ذهب إلى هذا الرأى سفيان الثورى رضى الله عنه .

وقيل هم المتدينون بدين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مخلصين أو منافقين ، واختاره القاضى ، ولكن هذا الرأى يقتضى أن يكون (مَنْ آمَنَ) بمعنى : من استمر على الإيمان ـ بالنسبة إلى المخلصين ، وبمعنى : من أحدث الإيمان ـ بالنسبة إلى المنافقين وغيرهم من الكفار ـ فيكون الإيمان محمولا على معنيين مختلفين : وفيه خلاف بين العلماء والرأى الأول أقل مؤنة كما قال الآلوسى ـ يعنى بذلك أنه لاتكلف فيه فيكون أرجح .

والمراد بقوله : (وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى) : اليهود والمسيحيون . فهؤلاء وأولئك مطلوب منهم الإيمان بالله واليوم الآخر ، لأن إيمانهم بهما كلا إيمان . فإيمانهم بالله مشوب باتخاذهم لله ولدا ، ووصفه بأوصاف البشر . وفيهم من وصفه بما يتنزه عنه كرام الناس ، كالخطإ فيما يصنع ، والندم على الخطإ . وكمصارعة الله للبشر طول الليل .

كما أن إيمانهم بالله مشوب بكفرهم بخاتم المرسلين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن كفر برسول ربه فقد كفر بربه ، كما أن إيمانهم باليوم الآخر . ليس على النحو المقرر في الشرائع السماوية الحقة .

وأما الصابئون فهم أهل دين غامض . ولذا اختلف العلماء في بيانه ، فمنهم من قال : هم قوم يقدسون الروحانيات ، ويتخذون لها وسائط يعبدونها ، لتقربهم إليها ، وقد انقسموا فيما يعبدون إلى فرق : فرقة منهم تعبد السيارات من الكواكب ، وأخرى تعبد الثوابت منها ، وثالثة تعبد الأوثان .

ونقل النويرى في ج ١ من نهاية الأرب . تحت عنوان ـ عُبَّاد الشمس ـ أن عُبَّاد الشمس طائفة في الهند . وأن مذهبهم هو مذهب الصابئة .

ونقل الآلوسى عن أبى حنيفة أنهم ليسوا عبدة أوثان . بل يعظمون النجوم . كما تعظمُ الكعبة .

نقول : ولعل الغرض من هذا التشبيه ، أنهم يجعلونها قبلة لهم لا معبودا . فهم يعظمونها تعظيم القبلة .

وقيل هم قوم موحدون ، لكنهم يعتقدون تأثير النجوم ، كما قيل إنهم يؤمنون ببعض الأنبياء كيحيى عليه السلام . ، ومن أغرب ماقيل فيهم أنهم يعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة .
وقيل إنهم أخذوا طرفا من كل دين، وهذا أليق باسمهم، فإن الصابئ من خرج من دين إلى دين.

والكلام فى فرقهم ، وفيما قيل فى دينهم كثير . وحسب القارئ ماقدمناه [١] وهم على أى اعتبار مطالبون بالإيمان بالله واليوم الآخر ، فإن إيمانهم بالله - لو صح - مَخْلُوط بعقائد وثنية ، كشأن المشركين وأهل الكتاب .

وقد قررت الآية الكريمة أن من آمن بالله من جميع الطوائف ، إيمانا لا يشوبه شرك ولا تجسيم ولا تشبيه ولا ادعاء ولد له سبحانه ، وآمن أيضا باليوم الآخر ، ومافيه من بعث وحشر وحساب وجزاء ، وضم إلى هذا الإيمان العمل الصالح ، فلهم أجرهم اللائق بإيمانهم - عند ربهم - ولا خوف مما كانوا فيه من كفر ، ولا هم يحزنون على فوت ثواب - فإن الإيمان يغفر ماسبقه من الكفر
والخلاصة أن هذه الآية - بهذا التوجيه - تدعو تلك الطوائف إلى اعتناق الإسلام ، فهو الذى قرر الإيمان بالله على الوجه الخالص من الشرك وشوائب النقص ومشابهة البشر ، كما قررت الإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من العدل الكامل لله ، فلا تمييز فيه بين ذرية الأنبياء وغيرهم، ولا بين طائفة وأخرى ، ولا بين إنسان وإنسان ، فلا يحق لطائفة أن تدعى أنهم أبناءُ الله وأحباؤُه، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات ، ولا غير ذلك من الدعاوى المناقضة لعدل الله ، أو التى تنافى ماقرره الإسلام من شئون الحياة الأُخروية وأحداثها .

كما قررت وجوب العمل الصالح على نحو ما قرره الإسلام «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٢] » وقد ضرب النبى - صلى الله عليه وسلم - أروع الأمثال فى العمل الصالح ، هو وآل بيته ، وما أعظم قوله لابنته فاطمة الزهراء : «يا فاطمة ابنة محمد : اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا [٣] » .

---

(١) إن أردت المزيد فى معرفة ماكتب عن الصابئة ، فراجع « الفصل » لابن حزم ، « والملل والنحل » للشهرستانى ، « والصابئة » لعبد الرازق الحسينى ، والجزء السادس من تاريخ العرب قبل الإسلام ، للدكتور جواد على .
(٢) الزلزلة - الآيتان : ٧، ٨ (٣) رواه البخارى ومسلم فى تفسير (وأنذر عشيرتك الأقربين) .

ويمكن تأويل الآية بمعنى آخر وهو ما يلي :

إن الذين آمنوا بالله إيمانا صادقا واليهود والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا من هؤلاء – وهم الأولون – فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم من عقاب ولا هم يحزنون من فوت ثواب ، أما غيرهم ممن يدعون الإيمان فإنهم معاقبون لكفرهم بالله واليوم الآخر ، فإن إيمانهم بالله مشوب بالشرك وشوائب النقص وإيمانهم بالآخرة مشوب بدعاوى كاذبة ، فسقط هذا الإيمان من حيز الاعتبار ، إذ لا فرق بينهم وبين المشركين ، فهم مثلهم مؤمنون بالله ، ولكنهم كفار فى جميع الأديان – لشركهم – فأى فرق بينهم وبين المشركين الذين حُكِمَ بكفرهم .

وعلى هذا التأويل ، لا تؤخذ دعوة الطوائف غير المؤمنة إلى الإيمان من هذا النص ، بل من قوله تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ[1] »

وقد أساء فهم هذه الآية بعض الملحدين ، فزعموا أنه يمكن تحقيق الإيمان من هذه الفرق غير المسلمة ، مع بقائها على دينها ، وهذا الزعم باطل ، لأنها جميعا كافرة فى نظر الإسلام لما تقدم ، لقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ »[2] ، وغير ذلك من النصوص .

وبما أن الإيمان لا يتحقق إلا بالإيمان بالله وجميع رسله وفيهم محمد –صلى الله عليه وسلم– لقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا »[3] فلهذا تحدد الإيمان المطلوب فى الآية وهو الإيمان بالدين الإسلامى . فلا بد من اعتناقه . وجمع بين الإيمان بالله واليوم الآخر، لأهمية الإيمان باليوم الآخر فى تثبيت دعائم الإيمان بالله وإتقان العمل الصالح ، فلو لم يؤمن المكلف باليوم الآخر ومافيه من حساب وجزاء لما اهتم بالإيمان بالله والعمل الصالح ، فإن النفس البشرية لا يوقظها من غفلتها إلا الجزاء ، فالإيمان بالله واليوم الآخر هو أساس العمل الصالح .

---

(١) الأنفال – من الآية : ٣٨ (٢) البينة – الآية : ٦ (٣) النساء – الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾) .

المفردات :

(مِيثَاقَكُمْ) : عهدكم .

(الطُّورَ) : لغة ، الجبل ، والمراد به : جبل معين بسيناء .

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ) : أى من الشريعة .

(بِقُوَّةٍ) : بجد وعزيمة .

التفسير

٦٣ ـ (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ . . .) الآية .

هذا بيان لنعمة أخرى أنعمها الله على اليهود ، مع بيان حالهم فيما عرض عليهم من التكاليف ـ أى واذكروا وقت أن أخذنا عليكم العهد : بأن تتبعوا موسى وتعملوا بالتوراة التى يجيئكم بها من عند الله . (وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) تخويفًا لكم . فعن أبى حاتم عن ابن عباس أن موسى ـ عليه السلام ـ لما جاءهم بالتوراة وما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم وأبَوْا قبولها ، فأمر الله جبريل بقلع الطور فظلله فوقهم حتى قبلوا ، لأنهم ظنوا أنه واقع بهم .

والطور : اسم للجبل مطلقاً ، والمراد به هنا : جبل معين وهو الذى كَلَّمَ الله نَبِيَّهُ موسى عليه .

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ) :

المراد من القوة : الجد والاجتهاد كما قاله ابن عباس ، أى قلنا لهم : خذوا ما آتيناكم بجد واجتهاد مع حسن النية والإخلاص ، فإن ذلك يدفعهم إلى النظر فى الآيات حتى يقتنعوا ويحسنوا العمل .

وهنا سؤال وهو : أنه يؤخذ من الآية أن إيمانهم كان بالإلجاء والإكراه ، وهذا ينافى التكليف الذى يقوم على الاختيار ، فهو الذى يكوِّن العقيدة الصحيحة المبنية على الإقناع ، ولهذا قال تعالى : « لَآ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ... »[1] . وقال لنبيه وكان حريصًا على إيمان الناس : « ... أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »[2] .

والجواب : أن الاختيار كان موكولا إليهم فى كل عروض الإيمان عليهم ، فلما لم يمتثلوا ، كانت آيات التخويف لهم بمنزلة مشروعية القتال للكفار ، لإصلاح حالهم مع الله تعالى ، فإن الحكمة تدعو إلى الأخذ بالقوة إذا فشل النصح والإرشاد ، ولهذا ينبغى أن يؤدب الوالد بالقوة ابنه المعوج السلوك ، الذى لم يُجْدِهِ تكرار النصح ، حتى لا يستمر فساده .

ومعنى قوله تعالى : (وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) : أى بعد أخذ الكتاب بقوة ، ادرسوا ما فيه وداوموا على تذكره ، حتى يرسخ فى قلوبكم ، فإذا فعلتم ذلك ، صفت قلوبكم ، وارتقت فى السلوك إلى ربكم ، حتى تكونوا فى مقام الرجاء والاطمئنان ، لاتخاذ وقاية من غضب الله .

وفى الآية دليل على أن مجرد العلم غير كاف . بل لا بد من الدراسة والمتابعة حتى يكون تذكر الإنسان للعلم من دوافع العمل بما علم ، فإذا فعل وطبق علمه على عمله ، كان ذلك كفيلا بالوصول إلى مقام التقوى التى هى خير الزاد كما قال تعالى : « ... وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ »[3] .

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾) .

المفردات :

(تَوَلَّيْتُمْ) : أعرضتم عن الوفاء بالعهد .

(لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ) : أى من المعاقبين ، بسبب نقضكم للعهد .

---

(١) البقرة — من الآية : ٢٥٦ (٢) يونس — من الآية : ٩٩ (٣) البقرة — من الآية : ١٩٧

التفسير

٦٤ـ (ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ . . .) الآية .

أى ثم أعرضتم ، من بعد أخذ الميثاق عليكم وقبولكم إياه ، وذلك نقض للعهد ، تستحقون من أجله العقاب .

(فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ): بتوفيقه إياكم للتوبة (وَرَحْمَتُهُ) بكم (لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ) : أى لصرتم من الخاسرين لسعادة الدنيا : بالطمأنينة والأمن والتمكن فى الأرض ، ولسعادة الآخرة : بالعقاب وفوت الثواب .

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾) .

المفردات :

(اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ) : السّبت؛ هو اليوم المعروف ، واعتداؤهم فيه تجاوزهم فى حكمه كما سنبينه .

(خَاسِئِينَ) : صاغرين مطرودين .

(فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا) : فى المختار ؛ نكل به تنكيلا : أى جعله نكالا وعبرة لغيره . والمراد : جعلنا عقوبتهم عبرة لغيرهم ، تنكلهم وتمنعهم عن مثل ما فعلوا .

(لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا) : للمعاصرين ـ لها ولمن بعدها ـ من الأمم .

التفسير

٦٥ - (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ . . .) الآية .

ورد الخبرهنا ، مؤكدا بلام القسم وقدْ ، لتحقيق علم اليهود بما جاء فيه . والخطاب لليهود المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمعتدون فيه هم آباؤهم ، واعتداؤهم فيه : أن يوم السبت جعله الله لهم يوما مخلصاً للطاعة ، بحيث لا يشتغلون فيه بالاسترزاق . ولذا حرم عليهم فيه صيد السمك . فكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شُرَّعًا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم على هذا النحو . فلما رأوا ذلك ، خالفوا النهى ، واصطادوا السمك فيه ، كما قاله الحسن ، أو احتجزوه من يوم السبت إلى يوم الأحد ببعض الحيل كما قال غيره . ولما كان احتجازه من يوم السبت إلى الأحد ، لا يفترق عن صيده فى يوم السبت من جهة المقصود ، اعتبر اعتداء فى السبت .

وسواءٌ أكان اعتداؤهم بهذا أم بذاك ، فقد عاقبهم الله . وذلك لقوله سبحانه : (فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .

روى النسائى عن صفوان بن عسَّال قال : قال يهودى لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي ، فقال له صاحبه : لا تقل : نبي ؛ لو سمعك ، فإن له أربعة أعين . فأتيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسألاه عن تسع آيات بينات ، فقال لهم : « لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا المحصنة ، ولا تولوا يوم الزحف ، وعليكم - خاصة يهود - أى لا تعدوا فى السبت » فقبلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبى . قال : « فما يمنعكم أن تتبعونى » ؟ قالوا : إن داود دعا ، بأن لا يزال من ذريتى نبى ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود .

وأخرجه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

والاعتداءُ فى السبت كان من بعضهم . ولم يكن من الكل . ولذا قال تعالى : (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ) فمِن : فى قوله (مِنكُمْ) للتبعيض ، أى علمتم اعتداءهم ، أو علمتموهم بأعيانهم .

واختلف فى المراد من قوله : (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) فقيلَ : إنه على الحقيقة . وإنَّ الله حولهم قردة . وقِيلَ : إنه مجاز عن مَسخ قلوبهم ، وصرفها عن الخير .

وهذا الرأى أولى من سابقه . وبه أخذ بعض السلف .

فقد روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : «ما مسخت صورهم ، ولكن مسخت قلوبهم ، فلا تقبل وعظا ، ولا تعى زجرا » وذاك على حد تمثيلهم بالحمار فى قوله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً . . . »[1]

ولا شك أن الإنسان الذى ينقاد لشهواته ، وليس له وازع من دينه ، يمسخ قلبه ، فيصبح كالحيوان : منقاد لغرائزه وشهواته كلما دعته .

وفى مثله قوله تعالى : « ... إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً »[2] .

والمعنى : فقلنا لهم كونوا أذلاء محتقرين كالقردة . واليهود كذلك فى المجتمعات الفاضلة ، ولذا قال عقبه : (خَاسِئِينَ) أى : أذلاء مطرودين ، من خسأَ الكلب : بَعُدَ وطُرِدَ .

٦٦ - (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا . . .) الآية .

هذه الآية مرتبة على قوله : « كُونُوا قِرَدَةً » أى فترتب على عقوبتهم المذكورة : أن جعلناها نكالا ، أى عبرة تنكل المعتبر بها . أى تمنعه من فعل مثلها ، ، وتزجره عنه . والمراد من قوله : (لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا) لمعاصرى هذه العقوبة ، ومَنْ بعدهم .

وهذا هو المروى عن ابن عباس وغيره .

(وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) أى : تذكيرا لهم . وهم من يقون أنفسهم من عقاب الله من كل أمة ، أو من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أو من بنى إسرائيل . وخص المتقين ؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالمواعظ .

---

(١) الجمعة - من الآية : ٥ (٢) الفرقان - من الآية : ٤٤

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾) .

المفـردات :

(أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) : أتجعلنا موضع استهزاء ، أى سخرية .

(لا فَارِضٌ) : غير مسنة .

(وَلَا بِكْرٌ) : وغير فتية .

(عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ) : نَصَفٌ : بين المسنة والفتية .

(فَاقِعٌ لَّوْنُهَا) : الفاقع ، هو شديد الصفرة .

(تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) : لحسنها .

(إِنَّ الْبَقَرَ) : أى إن البقر الفاقع ، الذى هو وسط بين الفارض والبكر .

(تَشَابَهَ عَلَيْنَا) لاشتراك كل بقرة مع مثيلتها فى الأوصاف المطلوبة ، فلا نستطيع أن نفرق بين البقر فيها ، حتى نحصل على البقرة المطلوبة .

(وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) : إلى عينها لنذبحها ، يظهرون بقولهم هذا ، أنهم يريدون معرفة ما وقعت مشيئة الله عليه من هذا النوع من البقر ، بذكر وصف مميز للمطلوب .

(لَاذَلُولٌ) : أى ليست مذللة وميسرة .

(تُثِيرُ الْأَرْضَ) : أى تقلبها بالمحراث .

(وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ) : أى لا تروى الزرع .

(مُسَلَّمَةٌ) : سليمة من العيوب وآثار العمل .

(لَاشِيَةَ فِيهَا) : لا لون فيها يخالف لون معظم جلدها .

(جِئْتَ بِالْحَقِّ) : جئت بحقيقة وصف البقرة ، ولم يبق فيها إشكال .

(وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) : وما قربوا من أن يذبحوها لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة .

التفسير

٦٧ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً . . .) الآية .

فى الآيات السابقة ، كان الله يذكرهم بالنعمة ، ثم يذكر مخالفتهم وما وقع لهم من العقوبة ، وأنهم يتوبون فيقبل الله توبتهم : فضلا منه ورحمة .

وفى هذه الآية وما بعدها ، بين موقفهم من ذبح البقرة التى أمرهم أن يذبحوها ؛ ليستبينوا المجرم فى جريمة قتل حدثت بينهم .

وتفصيل ذلك : أنه قتل فى بنى إسرائيل قتيل ، وأخفى القاتل نفسه ، وجعل كل منهم يدرأ التهمة عن نفسه ، فسألوا موسى أن يدعو ربه لمعرفة القاتل الحقيقى ، فسأل موسى ربه ، فطلب منه أن يأمرهم بذبح بقرة ؛ ليضربوا المقتول ببعضها ، فيحيا ، ويكلمهم بذكر اسم القاتل .

وستجد السبب فى أمرهم بذبحها ، عقب استيضاحاتهم فى شأن البقرة التى أمروا بذبحها ، وذلك فى قوله تعالى : « وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ... » وكان حقه أن يتقدم حسب ترتيب الوقائع .

فلماذا جعل آخر القصة أولها ، وجعل أولها آخرها ، حتى بدت كأنها قصتان ؟

والجواب : أنه قدم قصة الذبح أولا ، لأمرين اقتضتهما بلاغة القرآن .

الأول : عناية القرآن بتصوير مخالفتهم ، وما تعودوه من عنت ومعارضة لنبيهم موسى ، ليسجل عليهم حرصهم على العناد ، ولو كان فيما طلبوه مصلحة لهم ، وقصة الذبح ظاهرة فى ذلك .

والثانى : أن تقديم قصة الذبح ، يهيئ النفوس لاستطلاع السبب ، فيكون ذكر السبب - بعد ذلك - أوقع فى النفس ، لاستشرافها وتطلعها إلى معرفته .

على أن القرآن الكريم - حين يذكر الحوادث أو القصص - فإن ذلك لمجرد العبرة بما فيها ، دون اهتمام بالترتيب الزمنى ، حيث لا يكون له شأن فى بيان الهدف المقصود من الآيات .

هذا ، وللعناية بقصة البقرة وما فيها من العبرة ، سميت هذه السورة الكبيرة باسمها .

* * *

ويمكن أن تكون قصة الذبح مستقلة عن قصة النفس المقتولة ، فهما قصتان بيانهما فيما يلى :

القصة الأولى منهما : سيقت للإيذان بأن بنى إسرائيل ، كانوا لا يزالون على عهدهم ، فى تقديس البقرة التى كانوا يعبدونها هم وسادتهم المصريون ، فلذا أمرهم الله تعالى بذبح بقرة ، حتى يزيلوا من أنفسهم عقيدة حبها وتقديسها ؛ فإنهم كانوا لا يذبحونها ولا يأكلون لحمها ، فلما أمرهم بذبحها ، تَلَكَّأُوا فى تنفيذ ما أُمروا به ، خوفا من ذبح ما كانوا يعبدون ، فجعلوا يراوغون بالأسئلة المتنوعة عنها ، لعلهم يفلتون بالمراوغة من ذبحها . ولكن الله تعالى كان يجيبهم على أسئلة المراوغة ، بتحديد الأوصاف التى طلبوا تحديدها ، حتى لم يجدوا مفرا من ذبحها ، فذبحوها وما كادوا يفعلون .

وبذلك زالت عقدة تقديسها من نفوسهم . ومما يساعد على هذا الفهم ، عبادتهم العجل الذى صنعه لهم السامرى من حليهم . مع أن الله وحده هو الذى نجاهم مما كانوا فيه . فحقه ان يعبد دون سواه .

وأما الثانية منهما : فهى خاصة بنفس قتلوها وجُهِلَ القاتل ، فأرشدهم الله إلى أن يضربوا المتهم ببعض نفس القتيل ، وعلى هذا فمعنى قوله تعالى : (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) فقلنا اضربوا المتهم ببعض نفس القتيل فالضمير المؤنث فى قوله : « بِبَعْضِهَا » يعود على النفس المقتولة ، فإذا كان المتهم هو القاتل ، وضرب بجزء من القتيل ، فإنه ينهار ويعترف .

ذلك هو الغرض من التكليف بضربه ببعض النفس المقتولة .

ومعنى قوله : (كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ) على هذا الوجه : كذلك يحييها بالقصاص .

لكن الوجه الأول الذى جَعَلَهُمَا قصة واحدة ـ أظهر فى فهم الآيات ؛ لقوله فى ختام موضوع القتيل:(كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) فإنه يؤذن : بأن ما تم فى شأن القتيل من الآيات المادية ، التى تدل على قدرة الله تعالى بصفة عامة . وقدرته على إحياء الموتى حقيقة وبعثهم بصفة خاصة . وذلك يستدعيه حال اليهود من شئون الله جل وعلا . فإنهم لا يزالون متأثرين بعقائد الشرك القديمة .

ولا شك أن القرآن الكريم ، عودنا أن يبرز لنا صورا حسية ـ من الآيات الواقعية ـ على إمكان البعث ، كما فى قصة أصحاب الكهف . وقصة الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه .

فقصة البقرة هذه منها . وليست عجيبة على قدرته تعالى . والله أعلم .

وقد ذكرنا هذه المقدمة ، قبل الشروع فى تفسير الآية ؛ لأنها تزيح ما عساه أن يقع فى بعض الأذهان ، من تساؤل عن عكس ترتيب الوقائع .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ) : من عطف قصة على قصة بالواو ، أى واذكر يا محمد الوقت الذى قال فيه موسى لقومه . والأمر هنا لكل من يصلح للخطاب ، ليعرف ما كان عليه بنو إسرائيل من اللجاجة والعناد ، والفرار من الرشاد (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) ليكون ذلك وسيلة إلى معرفة القاتل ، وأكد الخبر بلفظ (إِنَّ) لما تعوده موسى

من معارضتهم وإنكارهم . وتنكير لفظ (بَقَرَةً) يشير إلى أنهم لو ذبحوا أيّة بقرة بعد الأمر لكفتهم ، ولكنهم – كعادتهم – شددوا بتكرار الأسئلة ، فشدد الله عليهم[1] .

وقوله : (قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) ؟ استئناف بيانى ، كأن سائلا قال :

ماذا قال بنو إسرائيل لموسى ، بعد أن أمرهم بذبح البقرة ؟ فكان الجواب : قالوا : (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) وهزوًا : أى سخرية ، وهو بتقدير مضاف أى : موضع هزو .

استبعدوا أن يكون ذبح البقرة له صلة بتبرئة المتهم بالقتل ، فظنوا – لجهلهم – أنه يسخر بهم ، فسألوه مستنكرين « أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً » وكان حقهم أن يمتثلوا ، ولا يقولوا ماقالوا . فقد عرفوا فى رسولهم الجد فى أمره كله ، ولا سيما ما ينقله لهم عن الله تعالى ، ولكن غلب عليهم سفههم ، وخفة أحلامهم ، وجهلهم بعظمة الله تعالى .

(قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) لأن مثلى – وهو مكلف من الله بإرشادكم – لا يكون سفيها مستهزئا ، فإن ذلك من شأن الجاهلين ، والمراد بالجاهلين هنا : الذين يضعون الشيء فى غير موضعه ؛ قولا أو فعلا .

٦٨ – (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ) :

(قَالُوا) لموسى – بعد أن عرفوا من جوابه عين الجد – : (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ) ظاهر قولهم : ما هى ؟ أنهم يسألون عن حقيقة البقرة . ولكن هذا الظاهر غير مقصود ؛ فإنهم لايجهلون حقيقتها ، فمرادهم السؤال عن صفتها ، حتى يعينوا المطلوب ذبحه من نوعها .

وكما يسأل بما عن الحقيقة ، يسأل بها أيضًا عن الصفة ، وتقول : ما زيد ، فيقال عالم أو طبيب .

---

(١) وموضوع قصة البقرة ، موجود عندهم فى التوراة ، فى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التثنية ، وطريقة التبرئة فيها : أن يذبحوا عجلة ، وأن يأتى كل منهم ويغسل يديه على جسمها ، ويتبرأ من التهمة ، فإن كان بريئاً سلم ، وإلا أصابه الله بعقوبة الكذاب .

لذلك أجابهم موسى عليه السلام ، ببيان صفة البقرة ؛ (قَالَ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ) : لم يكن هذا الجواب من تلقاء نفس موسى ، بل من ربه ليخبرهم به والفارض من البقر : الكبيرة المسنة التى فرَضتْ سنها ، أى قطعتها وأتمتها ، فانقطعت ولادتها ، ويقال لكل ما قدم وطال أمره : فارض . والبكر من البقر : الفتية الشابة . والمراد من البكر فى قوله : « وَلَا بِكْرٌ » ؛ الصغيرة التى لم تلد ، أى لا هى مسنة ولا هى صغيرة ، بل (عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ) : أى نَصَفٌ ووسط : بين الكبيرة التى نهكها العمل وبين الصغيرة الضعيفة ، و (ذَٰلِكَ) : اسم إشارة راجع لما ذكر من الوصفين : الفارض والبكر ، وبما أن مرجعه متعدد من جهة المعنى . صح قوله : (بَيْنَ ذَٰلِكَ) . إذ كلمة (بَيْنَ) تقتضى التعدد ، وقوله : (فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ) تفريع على ما قبله .

وفيه تجديد للأمر السابق . وتأكيد له وتنبيه لهم على ترك التعنت .

٦٩ ـ (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا . .) الآية .

اللون : هو الهيئة التى تعطى صفة البياض أو السواد أو الصفرة أو نحوها . وقد طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو ربه . راجيا أن يبين لهم لون البقرة ؛ تعيينا للمطلوب (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا) الفقوع : أشد مايكون من الصفرة وأبلغه ، ولذا يكون وصف الصفرة به للتأكيد . كأمس الدابر . وكما يختص الأصفر بالفاقع ، يختص الأسود بالحالك ، والأخضر بالناضر ، والأحمر بالقانى . والأبيض بالناصع. (تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) : أى تعجبهم وتشرح صدورهم ، لشعورهم باللذة القلبية لحسن منظرها . وجمهور المفسرين يقولون : إن الصفرة من الألوان السارة .

وكلما وجد بنو إسرائيل أوصاف البقرة مشتركة فى كثير من البقر ، سألوا مرة أخرى ما حكاه الله عنهم بقوله :

٧٠ ـ (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) .

كرروا سؤالهم الأول لطلب الاستكشاف الزائد ، وبينوا علة التكرار بقولهم : (إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا) : لاشتراك كثير من البقر فيما ذكر من الصفات ، وقولهم بعد هذا : (وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) : فيه تخفيف لصورة عنادهم ، وإتيانهم بالمشيئة لتحسين الظن بهم .

وفى الحديث : « لو لم يستثنوا ـ أى بقولهم إن شاء الله ـ لما بينت لهم صفتها إلى آخر الأبد » أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة مرفوعا موصولا وابن جرير عن ابن عباس مرفوعا معضلا وغيرهما .

وقولهم : (لَمُهْتَدُونَ) : أى إلى المطلوب ذبحه منها ، أو إلى معرفة القاتل بسببها .

وقد أجابهم سيدنا موسى بما حكاه لهم عن ربهم بقوله :

٧١ ـ (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا . . .) الآية .

أى غير ميسرة لحرث الأرض ، وسقى الزرع ، فلفظ (لَا) بمعنى : غير . ومعنى (مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا) : أى سلَّمها الله من العيوب . ومعنى (لَا شِيَةَ فِيهَا) : لا لون فيها يخالف جلدها الأصفر ، والشية فى الأصل ، مصدر : وَشَاهُ يَشِيه وَشْياً وشِيَةً ، إذا خلط لونه بلون آخر .

وإلى هنا عينت البقرة بأوصافها تعيينا تامًّا ، فانقطعت أسئلة الاستفهام .

فماذا كان موقف السائلين من بنى إسرائيل ؟

الجواب فى قوله تعالى : (قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ) : أى جئت بحقيقة وصف البقرة ، ولا وجه لنا فى طلب الإيضاح بعد ذلك .

(فَذَبَحُوهَا) : أى فجاءوا بالبقرة الموصوفة ، فذبحوها .

وقوله : (وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) : معناه ؛ وما قاربوا أن يفعلوا الذبح . والمقصود منه المبالغة فى تباطئهم ، وتعمدهم إطالة الزمن ، بكثرة المراجعات فى وصف البقرة .

ولعل إكثارهم من المراجعات فى أوصافها ؛ لغرض الوصول إلى تعيين وصف يتعذر وجوده فى أبقارهم ، فيعفون من ذبح البقرة التى ستكشف لهم الجانى ، سترا لفضيحته

وتجنبا لقتله ، أو لأنهم لا يريدون ذبحها لأنهم كانوا يعبدونها ، فلهذا يتهيبون ذبحها ، أو لأن طبيعتهم اللجاجة والتعنت .

وجملة (وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) : حالية .

(وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾) .

المفردات :

(فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا) : تدافعتم فيها ، فكل منكم كان يدرأ تهمة قتلها ، أى يدفعها عن نفسه .

(وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) : أى مظهره مهما كتمتم .

التفسير

٧٢ - (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) :

أى واذكروا يا بنى إسرائيل ، وقت أن قتلتم نفسا منكم ، وقد أخفى القاتل نفسه ، فادّارأتم وتدافعتم فى شأنها ، فكان كل منكم يدفع التهمة عن نفسه ، حتى لا يقتل فى المقتول ، وأسند الفعل (قَتَلْتُمْ) إلى جميعهم ؛ لأن المسئولية فى القتل مشتركة بين الجميع ، حتى يتعين القاتل ، فيبرأ من عداه .

وهذه الجناية الآثمة ، هى السبب فى الأمر بذبح البقرة ، لتكون وسيلة لمعرفة شخص القاتل ، ومعجزة لسيدنا موسى عليه السلام ، بين قومه .

وتقدم بيان الحكمة فى تقديم قصة ذبح البقرة على سببها وهو قتلهم النفس .

ولما تم ذبح البقرة بعد تحديد وصفها ، أراد الله أن يخرج ويظهر ما كانوا يكتمون من إخفاء شخص القاتل ، بآية تضمنت عدة آيات ، وذلك هو ما حكاه الله بقوله :

٧٣ - (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا . . .) الآية .

أى اضربوا القتيل ببعض البقرة المذبوحة ، ولا قطع بتعيين هذا البعض ، وإن قيل : إنه اللسان أو الفخذ أو عجب الذنب ، فضربوه بجزء منها ، فأحياه الله تعالى ، ونطق باسم القاتل ، ثم مات بعد أن أخبر به .

وقد أراد الله أن يذكرهم بالبعث ، قياسا على إحياء هذا القتيل ، ليقيسوا الغائب على الأمر المشاهد من إحياء الميت فقال :

(كَذَٰلِكَ يُحْيِى اللهُ الْمَوْتَى) : أى مثل الذى رأيتموه ، يكون إحياء الله تعالى للموتى . ثم قال :

(وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) : أى لكى تعقلوا وتعرفوا أن الموت بعده بعث . فإنَّ مَن قدر على إحياء هذا القتيل ، فإنه يقدر على إعادة الحياة لغيره ، أو لعلكم تعقلون أنفسكم أى : تمنعونها عن عبثها ، أخذًا من العقال : الذى يقيد الدابة ، ويمنعها عن السير .

قد يقال : إن الذى رأوه آية واحدة ، وهى القتيل ، فما وجه الجمع فى لفظ (آياته) ؟

والجواب : أنها آية تضمنت جملة آيات ، وهى : ترتُّبُ الحياةِ على ضرب عضو ميت ، وتكلُّم المقتول ، وإخبارُه باسم القاتل .

وكما أنها آيات للبعث . فهى معجزة لسيدنا موسى ، لأنها أمور خارقة للعادة .

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾) .

المفردات :

(قَسَتْ قُلُوبُكُمْ) : القساوة ؛ الغلظ مع الصلابة كما فى الحجر ، وهى فى القلوب . مثل فى البعد عن الاعتبار .

(يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ) :التفجر ؛ التفتح بسعة وكثرة ، كما تدل عليه صيغة التفعُّل ، وهو لايسند إلى الأنهار ، إلا بتضمين فعل مناسب ، أى يتفجر ويخرج منه الأنهار .

(يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) :أى ينزل من أعلى ، خوفًا من الله . وهذه الجملة مجاز عن انقيادها ، وعدم امتناعها على مايريده الله – تعالى – منها .

التفسير

٧٤ – (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ . . .) الآية .

الخطاب لمعاصرى النبى – صلى الله عليه وسلم – والقسوة لغة : الغلظ ، والصلابة . فهى من صفات الحجارة ، فلا تتصف بها القلوب إلا مجازا ، كما هنا . فهى مستعارة لِبُعْدِ قلوبهم عن التأثر بالقوارع والعظات .

والإشارة فى قوله : (مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ) راجعة إلى ماذكر من إحياء القتيل ، أو إلى جميع ماتقدم من الآيات ، التى توجب لين القلوب واتجاهها نحو الحق ، و (ثُمَّ) لاستبعاد قسوة قلوبهم بعد العظات السابقة الموجبة لرقتها ، كما فى قوله تعالى : « . . . ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ »[1] .

والمعنى : أنه ما كان ينبغى لكم أن تقسو قلوبكم بعد شدة تلك العظات ، التى تلين القلوب . ولكنها قست : (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) والفاء لتفريع كونها كالحجارة أو أشد على قسوة قلوبهم .

(وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ) :

هذه الجملة أريد بها تأكيد ما تقدم : من أن قلوبهم أشد صلابة وقسوة من الحجارة ، حيث ذكر فيها أن الحجارة مع قسوتها وصلابتها – تتشقق ويخرج منها الماء ، وأما قلوبهم ، فدائمة الصلابة ؛ لا تلين بالمواعظ ، فلذا ، لايخرج منها الهدى .

---

(١) أول الأنعام .

(وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ) : أى يتشقق . (فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ) : أى ماء العيون .

والتفجر أقوى من التشقق ، لأن الأول ناشئ عن ضغط بالغ منتهى القوة ، بسبب كثرة الماء ، وشدة ضغطه . ولذا ، خرجت بالتفجر الأنهار ، وأما التشقق ، فناشئ عن ضغط يسير للماء . فلذا ، خرجت به مياه العيون .

وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك كله .

(وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) : أى يتردّى من أعلى إلى أسفل ، من أجل الخوف من الله . وقد جعل الله لهذا الهبوط ضوابط ، فالشهب والنيازك والرجم تهبط من السماء إلى الأرض ، بموجب قانون الجاذبية . الذى جعله الله للأرض ، والحجر الذى تتركه – من يدك – – وأنت فى شرفة منزلك – يهبط إلى الأرض ، بموجب هذا القانون ، وليس المراد من الهبوط حقيقته ، وهى النزول من أعلى إلى أسفل فقط ، بل هو مجاز عن انقياد الحجارة لأمر الله وقوانينه ، كما قاله أبو السعود ، فيشمل ذلك تشققها وتحطمها ، وتأثرها بأى سبب جعله الله لذلك .

وإذا كانت الحجارة تتأثر إلى هذا الحد فى الانقياد لأمر الله ، وقلوبهم لا تتأثر ، فتكون أشد منها قسوة ولا محالة .

وحمل بعضهم الآية على الحقيقة قائلا : لا مانع من أن يخلق الله فى الحجارة إدراكا وخشية من الله – تعالى – .

ويستدل لهذا الرأى بحديث صحيح عنه – صلى الله عليه وسلم – : « إِنِّى لَأَعْرِفُ حَجَرًا كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ [1] » .

وما صح من أنه – صلى الله عليه وسلم – ما مر بحجر ولا مدر إلا سلّم عليه [2] .

---

(١) مختصر صحيح مسلم رقم ١٥٢٨

(٢) مجمع الزوائد : ٨/٢٦٠ الطبرانى فى الأوسط عن على .

وتلك القسوة التى وصفهم الله بها قد نشأت من عَمَهِ قلوبهم ، وشدة طغيانهم ، حتى قبروا أنفسهم فى ظلمات الحجاب عن الله عز وجل .

(وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

ختم القصة بهذا الوعيد ؛ ليعلموا - هم ومن كان على شاكلتهم - أن الله تعالى ، ليس بغافل عنهم : يمهلهم ولا يهملهم .

ومن لم تنفعه صنوف النعم ، يعاقبه الله بضروب النقم : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [1] » .

---

(١) الزلزلة - الآيتان : ٧ ، ٨



مطبعة المصحف الشريف



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الثانى

الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

(أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنوا لكُمْ) : الهمزة لإنكار طمع المومنين فى إيمان اليهود بعد ماعلموا حالهم ، أى استنكاره واستبعاده منهم ، والفاءُ عطفت ما بعدها على مقدر ، والتقدير : « أتحسبون قلوبهم صالحة للإيمان بعد ما علمتموه من حالهم ، فتطمعون أن يؤمنوا لكم » ، والمراد نهيهم عن الطمع فى إيمانهم بعد علمهم بحالهم .

(فريقٌ مِّنهُمْ) : جماعة منهم .

(كَلاَمَ الله) : المراد به : التوراة .

(فَتَحَ الله عَلَيْكمْ) : بين لكم خاصة ، أو حكم وقضى عليكم

(لِيُحَاجُّوكمْ) : ليخاصموكم ويقيموا عليكم الحجة .

(عِنْد رَبِّكُمْ) : أى فى كتاب ربكم وشرعه ، كما تقول هو عند الله كذا ، أى فى كتابه وشرعه .

التفسير

كان النبي – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنون معه ، شديدى الحرص على إيمان اليهود ، طامعين فى دخولهم فى الإسلام ؛ لأنهم أهل كتاب ، ولأنهم كانوا من : قبل يستفتحون ويستنصرون على الأوس والخزرج بالنبي الذى قرب زمانه ، وذكرت أوصافه فى كتابهم ،

لكنهم – عندما جاءهم ما عرفوا – كفروا به ؛ لما انطوت عليه نفوسهم من الخبث ، وسوء السريرة ، ولما جبلوا عليه من سوء السيرة ؛ ولهذا حكى الله فيما مضى مساوئهم ، ونعى عليهم جناياتهم ، وذكر أن قلوبهم قاسية ، كالحجارة أو أشد قسوة ، ورتب على ذلك إقناط المؤمنين من إيمانهم ، ونهيه لهم عن الطمع فيه فقال :

٧٥ – (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ . .) الآية .

أى لا تطمعوا فى إيمان اليهود مستجيبين لكم .

(وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) : وهم الأحبار والرهبان .

(يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ) : أى يسمعون التوراة ، ثم يتعمدون تحريف ما فيها ، مما لا يوافق أغراضهم ، ولا يتمشى مع أهوائهم ، من بعد ما فهموها ، فَقُدَمَاؤُهُمْ حرفوها بتحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، كما قاله مجاهد . ومعاصروهم للنبى – صلى الله عليه وسلم – حرفوها بتغيير نعت النبى – صلى الله عليه وسلم – وتبديل آية الرجم ، وغير ذلك ، حتى يحتفظوا لأنفسهم بالزعامة الدينية : يفعلون ذلك (مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ) : أى فهموه حق الفهم ، دون أن تكون لهم شبهة فيما حرفوه ، (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أنهم مبطلون كاذبون . أو معناه : وهم يذكرون من غير نسيان ، فهم – فى جريمتهم هذه – عامدون مصرون . وإذا كان أمرهم كذلك ، فلا تطمعوا فى إيمانهم ، فلا يؤمن من ضاعت أمانته ، وخبثت سريرته ، واجترأ على كلام الله بالتحريف مع العمد والإصرار . فجملة (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) : حال مؤكدة لاستهجان قبح ما اجترأوا عليه من التحريف . والتعبير باللام في قوله (لَكُمْ) : لتضمين الكلام معنى الاستجابة فكأنه قيل : أفتطمعون أن يؤمنوا مستجيبين لكم .

ثم عقب الله اتصافهم بالخيانة العلمية ، باتصافهم بالنفاق فى الإيمان فقال :

٧٦ – (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا . .) الآية .

أى ومن صفاتهم التى تدعو إلى اليأس من إيمانهم : أنهم منافقون ، فقد كان بعضهم إذا لقوا الذين آمنوا ، نافقوهم ، وأظهروا أنهم مؤمنون برسول الله وما أنزل عليه ، وأخبروهم أنه – صلى الله عليه وسلم – مبشر به فى التوراة .

(وَإِذَا خلاَ بعْضُهُمْ إِلَى بَعْض) .

أى وإذا فرغ وخلا بعض اليهود ــ وهم الذين لم يظهروا النفاق ــ إلى بعض آخر ــ وهم المنافقون منهم ــ بعدما سمعوهم يحدثون المؤمنين ببعض ما كتموه من التوراة (قَالُوا) ــ لائمين لإخوانهم المنافقين منكرين عليهم :ــ (أَتُحَدِّثُونهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) : أتخبرون المؤمنين بما فتح الله عليكم من أبواب العلم التى كتمناها عنهم كالبشارة بالنبى وعلاماته ، وأخذ الميثاق على أنبيائهم بالإيمان به ، وتبليغ أممهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه إن أدركوه ، ــ أتحدثونهم بذلك ــ (لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ) أى ليقيموا عليكم به الحجة فى كتاب ربكم وشرعه ؟

وقيل المراد بقوله : (عِنْدَ ربِّكمْ) يوم القيامة ، أى ليحاجوكم به يوم القيامة توبيخاً لكم ، وزيادة فى فضيحتكم على رءوس الأشهاد ؟

وهذا الرأى غير مقبول ، فإنهم عالمون بأنهم محجوجون بما فى كتابهم يوم القيامة : حدثوا به أو أخفوه ، فلا وجه لتوبيخ إخوانهم على إظهاره للمؤمنين . إذا كان المراد بقوله (عنْدَ رَبِّكُمْ) يوم القيامة .

روى عن ابن عباس أن ناسا منهم أسلموا . ثم نافقوا . فكانوا يحدثون المؤمنين بما عذب به آباؤهم ، فقالت لهم اليهود : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ، أى بما حكم به عليكم من العذاب ، ليقولوا نحن أكرم على الله منكم ؟

نقله القرطبى ، وقدمه على ما سواه من الآراء .

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) خطر هذا الفعل علينا وعليكم ؟

والتعبير بالفتح فى قولهم : (بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ) للإيذان بأنه سر مكتوم ، وباب مغلق فى وجه غيرهم ، فلا ينبغى أن يطلع عليه سواهم .

ثم وبخهم الله ــ تعالى ــ وجهّلهم ، وأنكر عليهم هذا التلوّن والنفاق فى الدين فقال :

٧٧ ــ (أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) ؟

أى أيلومونهم على التحدث بما فتح الله عليهم ، مخافة أن تقوم عليهم الحجة ، ولا يعلمون أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ محيط بما يسرونه من أقوالهم عن المؤمنين ، ومايعلنونه

من النفاق ، فلا تخفى عليه خافية من أمرهم ، وأنه مطلع رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالوحى على كيدهم فتحصل المحاجة ، كما حدث فى آية الرجم ، وتحريم بعض المحرمات عليهم ؛ فأى فائدة فى اللوم والعتاب ؟ فليرتدعوا عن ذلك وينزجروا ، ويدخلوا فى الإيمان بقلوبهم .

والاستفهام فى (أَوَ لَا يَعْلَمُونَ) : إنكارى : مؤذن بشناعة نفاق المنافقين منهم ، وقبح اللوم من أصحابهم لهم، على اطلاع المؤمنين على صفة الرسول وغيرها فى التوراة ، مع علمهم أن الله يعلم سرهم ونجواهم .

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾)

المفردات :

(أُمِّيُّونَ) : جمع أمى ، وهو الذى لا يقرأ ولا يكتب ، منسوب إلى الأم ، إيذانا بأنه - فى الخلو عن العلم والكتابة - كما ولدته أمه .

(أَمَانِىَّ) : جمع : أمنية ، وهى فى الأصل ، ما يقدره الإنسان فى نفسه : مأخوذة من مَنَى ، إذا قَدَّرَ . والمراد بها هنا الأكاذيب التى أخذوها عن شياطينهم المحرفين للتوراة ، كما قاله ابن عباس ومجاهد .

(فَوَيْلٌ لَهُمْ) : الويل فى الأصل : مصدر لا فعل له من لفظه ، مثل ويح ، والمعنى هلاك لهم وشدة عذاب . وهى كلمة دعاء .

التفسير

بعد أن بين الله – سبحانه – جنايات اليهود فى ماضيهم وحاضرهم ، وفى جملتها تحريفهم لكتاب الله التوراة ، من بعد ما عقلوه ، عقّب ذلك بذكر فريق جاهل منهم : تأثر بتحريف أحبارهم ، وضل بإضلالهم ، وهم الأُميون فقال :

٧٨ – (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ . . .) الآية .

أى ومن هؤلاء اليهود ، عوام جهلة : لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، فلا يقرءون التوراة ، لا يتحققون مما فيها . ومدى علمهم بها أمانى مدسوسة وأكاذيب باطلة ، تلقوها عن رؤسائهم وأحبارهم ، وعملوا بها تقليداً لهم .

ومن هذه الأُمنيات والأَكاذيب : أن آباءهم الأَنبياء يشفعون لهم ، وأن الله – سبحانه وتعالى – يعفو عنهم ويرحمهم ، وإن كفروا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – وأن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا ، وأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودات ، وأنهم صفوة الإنسانية ، وشعب الله المختار لعمارة الأَرض ، وأنهم أبناءُ الله وأحباؤُه ، وأن السيطرة على الناس لهم ، وغير ذلك من الأَمانى التى تمنوها ، فهؤلاء ضلوا ، تبعاً لأَضاليل أحبارهم .

والاستثناءُ فى قوله (إِلاَّ أَمَانِيَّ) : منقطع عن الكتاب وليس متصلا به ؛ لأَن أمانيهم الكاذبة المذكورة ، لا توجد فى كتابهم ، فهى من اختراع أحبارهم . فإلا بمعنى : لكن ، أى : لكن يعتقدون أمانى فارغة : لا أصل ولا حقيقة لها .

(وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) : أى وما هم إلا قوم يظنون ، والمراد من الظن هنا ، الكذب أو التوهم ، أى : وما هم إلا قوم يكذبون أو يتوهمون هذا ، فلا علم عندهم بما يقولون ، ولا دليل عليه ، فأنى يرجى منهم الإيمان بالرسول وهم على هذه الأَوهام ، مغرورون بتلك الأَمانى !

ثم أنذر الله – سبحانه – الأَحبار المحرفين للحق بالهلاك ، فقال :

٧٩ – (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً . . .) الآية .

أى هلاك عظيم لهؤلاء الذين يحرفون كتاب الله ، وهو التوراة ، إذ يكتبونها بأيديهم ، ويدسون فيها أكاذيبهم ، وما يحفظ عليهم رياستهم وجاههم ، موهمين العوام أنها من عند الله ، ليحملوهم على اعتقادها ، والتعلق بالأمانى التى زيفوها فى التوراة : يبتغون بهذا الفعل ثمناً قليلا ، هو : الاحتفاظ بالرياسة ، وأكل أموال الناس بالباطل . وهم بهذا يرتكبون أكبر جريمة ، وهى : افتراء الكذب على الله ، ويختارون الباطل وينبذون الحق ، فيكونون بذلك : كمن يبيع شيئاً نفيساً غالى القيمة . بثمن تافه !

وسبب ذلك : أنه لما ضعف أمر علمائهم فى أمتهم ، عمدوا إلى أمور تصرف الناس إليهم وألحقوها بالتوراة ، وقالوا لسفهائهم : هذا من عند الله ليقبلوه عنهم ، فتتأكد رياستهم . وكان مما أحدثوا فيها أن قالوا : « لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ »(١) : يعنون بالأميين : العرب ، ويعنون بأنهم ليس عليهم فى الأميين سبيل : أن ما أخذوا من أموالهم فهو حل لهم ، ومنه قولهم : لا يضرنا ذنب ، فنحن أبناء الله وأحباؤه ، وأن النار لن تمسنا إلا أياما معدودات . إلى غير ذلك مما كذبهم الله فيه فقال : (فَوَيْلٌ لَّهُمْ مما كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ) : من تحريف كلام الله ، وتبديله ، وسوء تأويله (وَوَيْلٌ لهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) بالباطل من جاه ورياسة ومال .

وتكرير الويل هنا ؛ لتأكيد الوعيد ، وتعليله صراحة بالتزوير فى الحق ، وبكسبهم الحرام ، بعد الإشعار به فى صدر الآية (فَوَيْل لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بهِ ثَمَنًا قَلِيلاً) .

وإنما قيد الكتابة بالأيدى ، مع أنها لا تكون إلا بها ، لتحقيق مباشرتهم ما حرفوه ، زيادة فى تقبيح أفعالهم ، ولتأكيد القصد إلى التحريف ، ليشتروا به ثمناً قليلا . ولأن الأيدى جوارح تقع بها أكثر الجنايات .

وقدم الكتابة وأخر : يكسبون ؛ لأن الكتابة مقدمة ، والكسب مترتب عليها ، فالكتابة سبب ، والكسب مسبب عنها .

---

(١) آل عمران ٧٥

(وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ) : لن تصيبنا ، والمس : اتصال أحد الشيئين بآخر وإصابته له .

(أَيَّاماً مَّعْدُودَةً) : يضبطها العد ، فهى إذن قليلة

(بَلَى) : حرف جواب كنعم ، إلا أنها لا تقع إلا جواباً لنفى متقدم ، سواءٌ أدخله استفهام أم لا ، وتفيد إثبات ما بعدها .

(وَأَحَاطَتْ بِهِ خطِيئَتُهُ) : الخطيئة : السيئة التى استمكنت من النفس ، وحملتها على تجنب الصواب عمداً ، وإحاطتها به : شمولها له واستيلاؤُها على جميع تصرفاته ، كما يحيط الثوب بلابسه .

التفسير

اليهود أهل غرور وزعم باطل ، فهم يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شعب الله المختار ؛ ولذا عطف القرآن على ماسبق ؛ضرباً آخر من ضروب غرورهم ،وافترائهم الكذب على الله وهم يعلمون ، فقال :

٨٠ - (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودةً . . .) الآية .

إدّعى هؤلاء اليهود أن النار لاتمسهم فى الآخرة ولا تصيبهم إلا أياماً قليلة يضبطها العد . ومثل هذا الكلام الذى قالوه ؛ لايجوز قوله أو اعتقاد مدلوله ، إلا بعهد من الله -

تعالى - مالك يوم الدين ، الذى يقضى فيه بدخول الجنة والنار ، ولا معقب لحكمه . ولذا أمر الله نبيه أن يرد عليهم موبخاً ومبكتاً بقوله : (قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا) . بأن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة ؟ !

والاستفهام فى (أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا) للإنكار والنفى ، أى : لستم على عهد من الله بما تدعون .

أما قوله تعالى : (فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ) فهو جواب شرط مقدر ، أى إن صح أن لكم عهدا عنده - تعالى - بما قلتم ، فلن يخلف الله عهده . وإظهار لفظ الجلالة فى موضع الإضمار ، للإشعار بعلة الحكم . فإن عدم الخلف فى العهد من أحكام الألوهية .

ثم أكد توبيخهم على ما افتروه على الله فقال : (أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ) أى بل أتقولون على الله مالا دليل لكم عليه ، فأنتم تفترون على الله الكذب « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ » (١) .

وإنما وبخهم على قولهم على الله مالا يعلمون وقوعه - مع أن ما أسندوه إليه يعلمون أنه لم يقع - للمبالغة فى التوبيخ والنكير . فإن التوبيخ على الأدنى مستلزم للتوبيخ على الأعلى بالطريق الأولى .

ثم أبطل الله دعواهم على وجه أعم وأشمل ، لهم ولسائر الكفرة بقوله :

٨١- (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

أى بلى : تصيبكم النار فيصهر بها ما فى بطونكم والجلود ، أنتم وغيركم ممن سار سيرتكم ، وأحاطت به خطيئته مثلكم ، وتلازمكم وإياهم النار خالدين فيها ، لأن القانون الإلٰهى العادل ، الذى شرعه رب العالمين :أن من كفر بالله ، وعمل السيئات ، واستولت عليه الخطايا حتى صار لا يخلو منها ، فأولئك أصحاب النار ، أى الملازمون لها فى الآخرة . هم فيها خالدون لا يبرحونها .

---

(١) الزمر : ٦٠ .

وقد دل قوله تعالى : (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وأَحَاطتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) على أنه لم يبق جانب من قلبه ولسانه وجوارحه إلا اشتملت عليه سيئته وخطيئته ، واستولت عليه . وهذا لا يتحقق إلا فى الكافر .

ولذلك فسر علماء السلف: السيئة والخطيئة فى الآية بالكفر . وقد روى ذلك عن ابن عباس وأبى هريرة ، ومجاهد وعطاء وغيرهم .

ويشهد لهذا : أن الجزاء عليهما هو الخلود فى النار ، كما نص عليه قوله تعالى: (أُوْلٰئِكَ أَصْحَابُ النَّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) . كما آذن به تعقيب هذه الآية بثواب المؤمنين فى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون) .

وبهذا التأويل . لا يحتج بالآية على خلود أصحاب الكبيرة فى النار .

وفى الآية تحذير شديد من ارتكاب السيئات ، فانها تؤدى إلى التمادى فيها ، فلا يبالى صاحبها بالكفر ، فعلى من يرتكب سيئة أن يبادر بالتوبة منها ، فإن من لم يبادر بها ، أحاطت الخطيئة بقلبه ، فأصبح مظلمًا لا ينفذ إليه النور ، فيكفر ، والعياذ بالله تعالى .

قال صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا أذنب ذنباً نُكِتَتْ فى قلبه نُكْتَةٌ سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صَقَلَ قلبه ، وإن عاد زادت حتى تعلوَ قلبه ، فذلك الران الذى ذكره الله – تعالى – فى القرآن : « كلا بَلْ (١) رَانَ عَلَى قُلوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (٢) .

وفى هذه الحالة تحيط به الخطايا ، كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه منها مخرجا .

وجريا على سنة القرآن فى ذكر الوعيد مقرونا بالوعد ، ترهيباً وترغيباً ، أردف ذلك الوعيد ببيان جزاء المؤمنين الصادقين فى الإيمان ، ليظهر الفرق بين الأشقياء والسعداء ، فقال سبحانه :

٨٢– (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

أى والذين جمعوا بين الإيمان الصحيح ، وما يترتب عليه من أعمال صالحة ؛ أولئك هم أصحاب الجنة الجديرون بدخولها ، بحسب وعد الله وفضله . هم فيها خالدون : منعمون بكل ما يشتهون .

(١) السين للسكتة فى التلاوة وسط الكلام .

(٢) سورة المطففين : الآية ١٤ ؛ والحديث رواه أحمد والترمذى والحاكم والنسائى وغيرهم .

وترتيب الإثابة بالجنة على الإيمان والعمل الصالح :يؤذن بأن العمل الصالح ،لابد منه للحصول على هذا الثواب ، فهو الدليل على صدق الإيمان وقوته ، وحياته ، فكما أن أغصان الشجرة وثمارها،دليل على حياة الشجرة وقوتها ،فكذلك العمل الصالح ،دليل على حياة الإيمان وقوته .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣))

المفردات :

(مِيثَاق) : الميثاق : العهد المؤكد .

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) : أى وتحسنون بالوالدين إحسانا مطلقا بلا حدود .

(وَالْمَسَاكِينِ) : الذين أذلتهم الحاجة وأسكنتهم .

(وقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) : أى قولوا لهم قولا حسنا ، وهو ما تطيب به النفوس . ومنه الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فى غير عنف ولا خشونة .

التفسير

شروع فى ذكر بعض القبائح التى ورثها اليهود المعاصرون للرسول عن أسلافهم ، ممَّا يجعل الإيمان مستبعدًا منهم ، ويحمل المؤمنين على ألا يطمعوا فيه. وذلك أنهم تولَّوا مدبرين عما أخذ عليهم العهد به من الفضائل . ومن كانوا كذلك؛فلا ينبغى أن يطمع المؤمنون فى إيمانهم .

٨٣- (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنى إِسْرَائيلَ . . .) الآية .

أى واذكروا أيها المومنون ، وقت أن أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ،وعاهدناهم عهدًا مُؤكداً فى التوراة : (لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ) أى وقلنا لهم فى العهد : لا تعبدون إلا الله ،

والمقصود منه : نهيهم عن عبادتهم لغيره تعالى ، فهو نفى بمعنى النهى ، أى لا تعبدوا غيره تعالى ، وهذا نظير قولك لشخص : تذهب إلى فلان وتقول له كذا ، فهو بمعنى : اذهب إليه وقل له كذا ، وهو أبلغ من صريح النهى ؛ لما فيه من الإيذان بأنه ينبغى أن يسارع المنهى إلى الامتثال ، حتى يخبر عنه بأنه امتثل فعلا ، وانتهى عما نهى عنه .

والميثاق - بالتوحيد وغيره من العقائد وأمهات الشرائع والأخلاق - مأخوذ على جميع الأمم ، كما أخذ على بنى إسرائيل ، فلا خلاف بينها إلا فى فروع الشرائع ، فإنها تختلف تبعاً للزمان والأجيال ؛ رعاية لمصلحة البشر ، بحسب التطور الإنسانى .

والمراد من أخذ الله الميثاق عليهم بالأمور الآتية : توصيتهم بالعمل بها توصية مؤكدة فى التوراة التى أنزلها على موسى - عليه السلام -

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) : وأخذ الله عليهم العهد أيضاً : بأن يحسنوا إلى الوالدين

وهذا الإحسان المأمور به عامّ : يدخل فيه جميع ما يجب لهما من أنواع الرعاية والعناية ، وقد قرن الله - سبحانه وتعالى - الأمر بالإحسان إلى الوالدين بالأمر بعبادته ؛ لما للوالدين من الفضل الكبير على الولد ؛ لأنهما بَذَلاَ الكثير من العناية الصادقة فى تربيته والقيام بشئونه ، أيام أن كان ضعيفاً عاجزًا ، وكفلاه حتى قدر على الاستقلال ، والقيام بشئون نفسه ، مع الحنان العظيم ، لا يبغيان من وراء ذلك أية مصلحة تعود عليهما ، فهما أحق بالعناية والرعاية ، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان .

وتنكير الإحسان فى قوله : (إِحْسَانًا) ؛ للإيذان بتعميمه ، وإبلاغه إلى أقصى مداه .

(وَذِى الْقُرْبَى) : أى وأوصيناهم بالإحسان كذلك إلى ذوى القربى ، وهم : مَن تكون بينهم وبين الإنسان صلة قرابة من جهة الأب أو الأم ، والإحسان إليهم هو : القيام بما يحتاجون إليه بقدر الطاقة ، وذلك تقوية للروابط بين الأقارب ؛ ولأن من لا خير فيه لذوى قرابته فلا خير يرجى منه لغيرهم .

(وَالْيَتَامى وَالْمَسَاكِينِ) : أى وأخذ عليهم الميثاق أيضاً : بالإحسان إلى اليتامى والمساكين .

واليتامى هم : الذين مات آباؤهم وهم دون البلوغ ، فهم لهذا فى أمس الحاجة إلى الإحسان ، ويكون : بالكلمة الطيبة ، والتوجيه الرشيد ، والرعاية الحانية ، والمعونة بالمال ؛ إن احتاجوا إليها .

وفى القرآن والسنة كثير من الوصايا باليتامى؛ ليجدوا من المسلمين الكرماء العاملين بدينهم ،مايعوضهم عن فقد آبائهم ، ولأن الإحسان إليهم والرحمة بهم ،حماية للمجتمع ؛ حتى لا يكونوا عنصر شرّ وإفساد فيه .

ومن أهل الحاجة الذين أوصاهم الله بالإحسان إليهم أيضاً : المساكين الذين لايقدرون على الكسب ، أو لا يكفيهم مايكسبونه ، ففى العناية بهم تعاون وتكافل ، وإقامة للمجتمع على أسس من التوادّ والتراحم .

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) : ومن جملة الميثاق الذى أخذ عليهم : أن يقولوا للناس قولا حسنا ، كالنصيحة لهم ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، مع التزام الحكمة والموعظة الحسنة ولين الجانب ، والمخاطبة بما تطيب به نفوسهم ؛ وعدم الإساءة إليهم بالقول والخشونة ؛ فإن الفظاظة والغلظة لا تليق بأهل الشرائع السماوية .

وقد اشتمل الميثاق على وجوب إفراد الله – تعالى – بالعبادة والتوحيد ، وهو الأهم. ولذلك قدم الأمر به على سواه ، ثم عطف عليه الأمر بالإحسان إلى العباد فى معاملتهم.

ولمّا كانوا متفاوتين فى ذلك ، بدأ بأحقهم وهما الوالدان ،ثم أتبعهما ذوى القربى؛ رعاية لحق القرابة ، ثم اليتامى لضعفهم ، ثم المساكين سدّا لحاجتهم ،ثم سائر الناس ، بما هو مقدور لكل أحد ، وهو الإحسان بالقول ، بأن يلقوهم بالطيب من القول ويجتنبوا إيذاءهم . فهذا النوع من الإحسان سهل هين على النفوس : يقدر عليه كل إنسان ، ويستطيع أداءه فى كل حال ، فلا عذر لتاركه .

ومن هذا نرى :أن هذا العهد قد اشتمل–بالإجمال–على أهم المقاصد للشرائع السماوية. فهى تكون أولا : داعية إلى تطهير العقول والقلوب من رجس الوثينة ، وإخلاص العبادة لله وحده .

وتكون–ثانيا : لإصلاح المجتمع ،وأول إصلاحه : رعاية الأقارب والضعفاء–واليهود لا يفعلون ذلك .

ومما أخذ الله به الميثاق على اليهود ، وفرضه عليهم فى كتابهم ،ما حكاه بقوله :

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ) وإقامة الصلاة : أداؤها تامة مستوفية الشرائط والأركان . وإيتاء الزكاة : إعطاؤها لمستحقيها .

والصلاة التى أمر بنو إسرائيل بإقامتها ، والزكاة التى أمروا بإتيانها هما : الصلاة والزكاة المشروعتان فى ديانتهم .

وقد ذكر ذلك كله ؛ ليعقب عليه : أنهم أعرضوا عما أخذ عليهم الميثاق بأدائه ، كما سيجىء ؛ حتى يعلم المؤمنون أن نقض اليهود لمواثيق الله مرض قديم فيهم ، فلا ينبغى للمؤمنين أن يطمعوا فى إيمانهم .

ومع أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ داخلان في عبادة الله التى أخذ بها الميثاق على بنى إسرائيل ، فإنه -تعالى- أفردهما بالذكر- بعد الإحسان إلى الوالدين والأقربين وأصحاب الحاجات - لعظم شأن هاتين العبادتين ، ولما للصلاة من الأثر الكبير فى تربية النفس ، والنهى عن الفحشاء والمنكر ، والخشوع لعظمة الله ، ولما فى الزكاة من تخفيف ويلات الفقر والبؤس عن المحتاجين ، وحسن الصلة بالمجتمع عن طريق الإحسان إليه .

هذا هو الميثاق الذى أخذه الله على بنى إسرائيل فى التوراة ، فماذا كان من شأنهم ؟ هل التزموا العمل بهذا الميثاق ؟ إنهم لم يلتزموه ، وكانت حالهم كما قال تعالى :

(ثُمَّ تولَّيْتُمْ إلاَّ قَلِيلا مِّنكُمْ وأَنتُم معْرِضُونَ) : فقد أفصحت الآية عما كان من أكثرهم - بعد أخذ الميثاق عليهم ، بما فيه خيرهم وسعادتهم - وهو أنهم تولوا عن العمل به ،وهم معرضون غير مكترثين بما يترتب على إعراضهم .

أما القليلون منهم فإنهم التزموا العمل بالميثاق ، وحافظوا على تنفيذه ، وهم المخلصون فى إيمانهم من أسلافهم - قبل أن تنسخ شريعتهم بالإسلام - ومن آمن منهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وحافظ على هذا الميثاق الموجود فى سائر الأديان ، كعبد الله بن سلام ، وزيد بن سعنة . وقوله : (وأَنتُم مُّعْرِضُون) لتأكيد توليهم ، أى ثم توليتم وأعرضتم عن تنفيذ هذا الميثاق ، وأنتم قوم عادتكم التولى والإعراض عن المواثيق ، وهى عادة ورثتموها عن آبائكم ، ويؤخذ كونه عادة لهم من الجملة الإسمية الدالة على الثبوت . (وَأَنتم معرضونَ) .

وفى الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب للحاضرين من اليهود فى قوله : (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ)، لأنهم خلف لهؤلاء السابقين ، فى السير على نهجهم فى نقض العهود وعدم احترام المواثيق ، فكأنهم هم ، فلذا خوطبوا بتوليهم وإعراضهم .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾)

المفردات :

(لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) : تريقونها ، بأن يقتل بعضكم بعضاً .

(تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم) : أصله تتظاهرون ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفا ، أى تتعاونون عليهم .

(بالإِثْم) : هو الفعل الذى يستحق عليه صاحبه الذم والملام .

(وَالْعُدْوَان) : هو التجاوز فى الظلم .

(أُسَارَى) : جمع أسير ، بمعنى مأسور ، وهو من يؤخذ على سبيل القهر والغلبة .

(تُفَادُوهُمْ) : تنقذوهم بدفع الفداء ، وهو ما يدفع فى فك الأسير .

(خِزْيٌ) : هوان .

(يُرَدُّونَ) : يرجعون .

(اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ) : آثروا متاعها على نعيم الآخرة .

التفسير

ذكّر الله بنى إسرائيل فى الآية السابقة . بأهم الأوامر التى أخذوا العهد عليهم بالإتيان بها ، وأنهم لم يأتمروا بها . ونقضوا الميثاق الذى واثقهم به .

وهنا ،ذكّرهم بأهم المنهيات ،التى أخذ الميثاق عليهم فى التوراة :بأن ينتهوا عنها ،فلم ينتهوا . على سياق الالتفات إلى الخطاب الذى ختمت به الآية السابقة . فإن الميثاق بذلك – وإن كان على أسلافهم– غير أن المعاصرين منهم للدعوة الإسلامية : يزعمون تمسكهم بالتوراة ، وأنهم عاملون بها . فلذا خوطبوا بأنهم خالفوا ما أخذ عليهم فيها من المواثيق كما صنع أسلافهم . وذلك لإلزامهم بما يزعمون تمسكهم به .

وقدم توبيخهم على ترك امتثال الأوامر : على التوبيخ على عدم اجتناب المنهيات ؛ لأن الأوامر هى الأصل فى التكاليف الشرعية . وكل نهى عن فعل ، أمر بضده . فالنهى عن الزنى ، أمر بالعفة ، وهكذا ، فالأمر هو الأساس . والنهى تابع له .

٨٤ – (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ) .

أخذ الله عليهم الميثاق بألا يسفك بعضهم دم بعض . وعبر عنه بقوله :

(لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) : إشعارا بأن دم كل فرد من أفراد الأمة ، كأنه دم الآخر . فإذا سفكه فكأنه سفك دم نفسه .

وكذلك واثقهم ألا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ، كما بينه بقوله : (وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم من دِيَارِكُمْ) : ويدخل فى معنى الإخراج من الديار المنهى عنه : أن يتصدى الرجل لإيذاء جاره ، حتى يلجئه إلى الخروج من داره .

ومن الإخراج : أن يكونوا سببا فيه ، كما حدث من اليهود فى خيانتهم لعهودهم مع المسلمين ، إذ كانت خيانتهم لهم ، سببا فى إخراجهم من ديارهم حول المدينة عقابا لهم .

(ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ) : ثم أنتم - أيها المعاصرون للنبى صلى الله عليه وسلم - قد أقررتم بهذا الميثاق ، واعترفتم بلزوم العمل بمقتضاه ، وأنتم تشهدون على أنفسكم باعترافكم به ، ولزوم العمل بمقتضاه ، وذلك مثل قولك : أقر فلان بكذا شاهداً على نفسه .

أو المعنى : وأنتم تشهدون اليوم على أسلافكم : أنهم أقروا بهذا الميثاق .

وسواء أكان المعنى هذا ، أم ذاك ، فإنه يقتضى أن يعمل اليهود المعاصرون للرسول ، بالميثاق الذى أخذه الله على اليهود فى كتابهم ، حيث إنهم معترفون به ، زاعمون أنهم متمسكون بالتوراة .

وهذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون وما يعترفون به ، لا من باب أن التوراة لا يزالون مكلفين باتباعها ، فقد نسخت بالقرآن .

وقد تضمن هذا الميثاق أربعة أمور تعتبر أساسا لمجتمع فاضل ، يسوده السلام والطمأنينة ، والعدالة والمودة والرحمة : ألا يسفك بعضهم دم بعض ، وألا يخرجه من داره ، وألا يتظاهر عليه بالإثم والعدوان ، وأن يفتديه إذا أسر . ولكنهم لم يعملوا بهذا الميثاق ، كما تحدثت به الآية الكريمة ، إذ تقول :

٨٥ - (ثمَّ أنتمْ هؤُلاَءِ تَقْتلونَ أنفسَكمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنكم . . .) الآية .

وقوله : (ثمَّ أنتمْ هؤلاَءِ) : خطاب خاص باليهود المعاصرين للرسول ، فيه توبيخ شديد لهم واستنكار واستبعادٌ قويٌّ لما ارتكبوه بعد إقرارهم الميثاق ، وشهادتهم عليه . و(أنتم) : مبتدأ ، و(هؤلاء) : خبره . ومناط الإفادة اختلاف الصفات ، وإن اتحدت الذات ، إذ المعنى : ثم أنتم - بعد ذلك الميثاق والإقرار والشهادة - هؤلاء المشاهدون الناقضون المتناقضون ، كما تعرب عنه الجمل الآتية :

(تَقْتلونَ أنفسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِم . . .) إلخ ، فإنها بيان للخبر ، وتفصيل لأحوالهم المدرجة تحت إسم الإشارة ضمنا ، كأنهم قالوا : كيف نحن ؟ فقيل : تقتلون أنفسكم ، وذلك يشبه قولك : أنت ذلك الرجل الذى فعل كذا وكذا .

وقال الفراء : هؤلاء ، هنا : اسم موصول بمعنى ، الذين وما بعده صلة .

(تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) : أى تتعاونون عليهم قتلا وإخراجا آثمين فى حقهم ، معتدين ظالمين فيما تصنعونه بهم .

(وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ) : أى وأنتم مع قتل بعضكم بعضا ، وإخراج بعضكم بعضا من ديارهم ، إذا وجدتم الذين أخرجتموهم من ديارهم ، أسرى فى أيدى غيركم من الأعداء ؛ تسعون لفكهم ، وتبذلون عوضا لإطلاقهم ، وهذا من التناقض العجيب ، حيث استحللتم إخراجهم وتعريضهم للأسر .

(وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ) : فكيف تخرجونهم من ديارهم ، وتستحلون ذلك ، وهو حرام عليكم فى التوراة ، وإذا صاروا فى الأسر بإخراجكم لهم فاديتموهم ؟

أليس هذا نقضا للميثاق فى جانب ، وعملا فى جانب آخر ؟ فلماذا لم تتبعوا حكمها فى النهى عن إخراجهم ، وقد اتبعتموه فى افتدائهم ؟

فقد جاء فيها أنه - تعالى - أخذ عليهم الميثاق : ألا يقتل بعضهم بعضا ، أو يخرجه من داره ، وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل ، فاشتروه واعتقوه .

وكان اليهود من بنى قريظة وبنى النضير يقيمون بالمدينة ، ويحالف الأولون الأوس ، والآخرون الخزرج ، فكانت الحرب إذا قامت فى الجاهلية بين الأوس والخزرج ، انضم إلى كل فريق منهما حليفه من اليهود ، وقتل بعض اليهود بعضا ، أو أخرجوهم من ديارهم ، وبعد الحرب : يفدى كل فريق منهم ، أسرى الفريق الآخر عند حلفائهم ، فعيرتهم العرب ، وقالت : كيف تقاتلونهم ، ثم تفدونهم ؟ فيقولون : أمرنا أن نفديهم ، وحرم علينا قتالهم ، ولكن نستحيى أن نذل حلفاءنا ؛ فذمهم الله على تناقضهم فقال :

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ) : فتفدون أسراكم ، (وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) فتقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم ؟ إذ لو كانوا يؤمنون به كله لما تناقضوا فى العمل به .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، على التفريق بين أحكام الله التى أخذ عليهم العهد بالعمل بها فى التوراة .

ومناط التوبيخ والإنكار، هو كفرهم ببعضها مع إيمانهم ببعضها الآخر، وسمى عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كفرا ؛ إبرازا لشناعة ما ارتكبوه ، بتنزيله منزلة الكفر بأحكام التوراة .

لذا توعدهم الله، تعالى -على عصيانهم بنقضهم الميثاق المنزل منزلة الكفر - بالخزى العاجل فى الحياة الدنيا ، والعذاب فى الآخرة . فقال تعالى :

(فَمَا جَزَاءُ مَن يَفعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إلاَّ خِزىٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : فالإشارة فى قوله (ذَٰلِكَ) : راجعة إلى القتل والإخراج من الديار : اللَّذَيْنِ نقضوا بهما عهد الله بغيا وكفرا.

والمراد بالخزى فى الحياة الدنيا : الذل والهوان مع الفضيحة بين الناس ، إذ كانت العرب تعيرهم بقتلهم للنوبهم، مع أنهم يفادون أسراهم، ثم ما تلا ذلك من قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير إلى أذرعات وأريحاء من الشام ، وفى ذلك أعظم الخزى .

وتنكير الخزى لتهويله . ووعيدهم بالعقاب على مخالفتهم التوراة مع أنها نسخت بالقرآن : إما لأن ما فعلوه بقومهم، كان قبل البعثة . وهم كانوا حينئذ ، مكلفين بالتوراة ، أو لأن القرآن لا يقر الظلم ، كما لم تقره التوراة .

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَاب) : أى أن هذا الخزى الذى نزل بهم فى الدنيا، لا يكفر عنهم سيئاتهم ، وإنما يصيرون إلى أشد أنواع العذاب يوم القيامة .

والمراد من قوله : (يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ): أنهم يعاقبون به وينتهون إليه .

وبهذا التفسير لا يقال : إن الرد إلى أشد العذاب يقتضى أنهم كانوا فيه قبل ذلك .

والتعبير بقوله (يُرَدُّونَ) بضمير الغيبة، للإيذان بعموم هذه العقوبة لمن يكون على هذا الكفر ، وأنها لا تختص بالمخاطبين من قبل ، كما أن تحويل الكلام من أسلوب الخطاب السابق إلى الغيبة هنا، يؤذن بالإعراض عن خطابهم ؛ لعظيم جرمهم .

(وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) : وليس الله بساهٍ عن أعمالهم القبيحة، التى من جملتها هذا المنكر ، بل هو عالم ومحيط بها ، ومجازيهم عليها .

وقد عاد القرآن إلى أسلوب الخطاب فى قوله لليهود : (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) . بعد أسلوب الغيبة المؤذن بالإعراض عنهم فى قوله : (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ) . للمبالغة فى التهديد والوعيد .

ثم أكد الله عليهم الوعيد الشديد ، مبينا السبب الذى من أجله استحقوه بقوله :

٨٦ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ . . .) الآية .

أى آثروا متاعها من نحو الرياسة والمال ، وكل ماينتفعون به من حظوظ عاجلة : آثروه على نعيم الآخرة . فأعرضوا عنها ؛ وتركوا شرع الله . مع علمهم أن متاع الدنيا قليل ، وأن الآخرة خير للمتقين .

والإشارة إلى المذكورين بأوصافهم ، فيها بيان أن تلك الأوصاف هى السبب فيما توعدهم الله به .

وليس فيما صنعوا شراء وبيع على الحقيقة ، ولكنهم لما جعلوا حظوظهم من نعيم الآخرة المقيم ، بدلا لما تمتعوا به فى الحياة الدنيا الفانية .

شبهت حالهم هذه بحال من يشترى شيئاً هينا ، بثمن خطير عظيم ، من حيث عدم تكافؤ قيمة البدل والمبدل منه فى كل . فإنهم لما كفروا ببعض أحكام التوراة ، كان ثمنهم على هذا الكفر مرضاة حلفائهم ، وبعض المنافع الدنيوية التافهة - على رأى - أو بقاء رياستهم الدينية فى قومهم - على رأى آخر - وكلاهما متاع الحياة الدنيا الذى لا يساوى شيئاً بجانب نعيم الآخرة المقيم .

(فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) : أى هؤلاء الذين تقدم ذكرهم - وقد آثروا متاع الدنيا عوضاً عن نعيم الآخرة - لا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة ، ولا يُقطع عنهم ، ثم لا يجدون نصيرا يدفع عنهم - بقوته أو بشفاعته - ما وقعوا فيه من أشد العذاب ، لأن أعمالهم قد سدت عليهم جميع أبواب الرحمة ، فهم فى العذاب الشديد خالدون .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(الكتاب) : التوراة .

(وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) أى : بعثناهم على أثره إليهم يقال : قفاه به أى : أتبعه إياه وأرسله على أثره .

(الْبَيِّنَات) : الآيات الواضحة الدالة على نبوته .

(وَأَيَّدْنَاهُ) : قويناه ، من آدالرجل إذا اشتد وقوى .

(بِرُوحِ الْقُدُسِ) : القدس : الطهارة . وروح القدس : هو جبريل – عليه السلام – أى الروح المطهر .

(غُلْفٌ) : جمع أغلف أى : مغشاة بأغلفة مانعة من وصول الهدى إليها

(يَسْتَفْتِحُونَ) : يستنصرون من الاستفتاح . وهو طلب الفتح والنصرة .

(فَلَعْنَةُ اللهِ) اللعنة : الإبعاد والطرد من مواقع رحمة الله .

التفسير

٨٧– (وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ . . .) الآية .

هذا تذكير من الله لبنى إسرائيل ، بضرب من النعم التى أنعم بها عليهم ، فقابلوها بالكفر والعصيان . وهى أن الله – سبحانه وتعالى – أرسل موسى – عليه السلام – إليهم ، وآتاهم التوراة فيها هدى ونور لهدايتهم .

(وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) : وأتبعناه بالرسل تترى - ومن هؤلاء الرسل : يوشع وداود وسليمان ، وعزير وإلياس واليسع . ويونس وزكريا ويحيي - عليهم السلام - فلم يكن لبنى إسرائيل عذر يعتذرون به عن مخالفة هؤلاء الأنبياء . وكثرة الرسل فيهم ليست لأنهم شعب الله المختار . أو أنهم أبناء الله وأحباؤه كما يزعمون ، بل لغلظة قلوبهم ، وصعوبة انقيادهم . وليتوالى تفسير التوراة لهم بما تلاها من أسفار رسل بنى إسرائيل ، ولطول الفترة بين موسى وعيسى - عليهما السلام - ، فقد كانت خمسا وعشرين وتسعمائة وألف سنة . على ما قيل .

(وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ) : وأرسل الله إليهم فى أعقاب أولئك الرسل عيسى ابن مريم ، وأعطاه الآيات الواضحة الدالة على نبوته . كإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله . والإخبار ببعض المغيبات . وكذلك آيات الإنجيل ، وإضافة عيسى إلى أمه ؛ للرد على اليهود الذين زعموا أن له والدا . وقالوا فيه وفى أمه ما قالوا ، فأساءوا إلى الحق المؤيد بالمعجزات .

(وَأَيَّدْنَاه بِرُوحِ الْقُدُسِ) : أى قواه الله تعالى - بجبريل الأمين الذى يؤيد الله به أنبياءه . وإطلاق روح القدس على جبريل فى الإسلام شائع . ومن ذلك قوله تعالى : « قُلْ نَزَّلَه رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ »(١) وقوله - صلى الله عليه وسلم - لحسان : « قل وروح القدس معك » (٢) . وقال له مرة أخرى : « وجبريل معك » (٣) . وكان حظه معهم كحظ من سبقه من الرسل . وإنما خص عيسى - عليه السلام - بالذكر من بين أنبياء بنى إسرائيل؛ لكونه صاحب كتاب نسخ بعض أحكام شريعة موسى - عليه السلام - .

---

(١) النحل : ١٠٢ .

(٢) قال عمر لحسان : أنشدك الله . أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول : « أجب عنى . اللهم أيده بروح القدس » قال : (اللهم نعم) رواه مسلم عن أبى هريرة .

(٣) عن البراء - رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان ابن ثابت « أهجهم أو هاجهم . وجبريل معك » رواه مسلم .

وقوله : (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ) : من أولئكم الرسل (بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ) : من الحق المبين (اسْتَكْبَرْتُمْ) : على الاستجابة له (فَفريقًا) : منهم (كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتلونَ) : غير مكتفين بتكذيبهم .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ على موالاة تكذيب الرسل وقتل بعضهم .

وفى الآية التفات من الغيبة فى قوله تعالى : « فلا يُخَفف عَنْهمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) ، إلى الخطاب فى قوله : (أَفَكلَّمَا جَاءَكمْ رَسُولٌ . . .)

والآية لتشديد النكير عليهم ، والإيذان بأن المعاصرين للرسول منهم على نهج أسلافهم ، من التكذيب والفجور .

فقد كذبوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - وحاولوا قتله .

ولقد ذكرت الآية الكريمة أن السبب فى ضلالهم هو : الاستكبار والاستعلاء . فهذا الاستكبار جعل هواهم هو المتحكم فيهم ، فلا يتبعون إلا ما يناسب هواهم ، حتى جعلوه إلّهم ، فأداهم ذلك إلى أن يكذبوا النبيين أو يقتلوهم ، إن تمكنوا من قتلهم .

وعبر فى جانب القتل بالفعل المضارع فقال (تَقْتلونَ) ولم يقل : قتلتم ، كما قال كذبتم ، استحضارا لصورة قتل الأنبياء أمام السامع ، وجعله كأنه ينظر إليها بعينه ، فيكون إنكاره لها أبلغ ، واستفظاعه لها أعظم .

وعقب الله هذه الجنايات بأخرى : حكاها عنهم بأسلوب الغيبة - إعراضاً عنهم - فقال سبحانه .

٨٨- (وَقَالوا قلوبُنَا غُلْفٌ . . .) الآية .

أصر اليهود على العناد والكفر ، وعدم الاستماع إلى مايدعوهم إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - معللين عدم إيمانهم ، بأن قلوبهم مغشاة بأغطية لا ينفذ منها إلى قلوبهم ماجاء به - صلوات الله عليه - حتى تفقهه عقولهم ، على حد قول مشركى مكة « قُلُوبُنَا فى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » (١) يعنون أن

(١) فصلت : ٥ .

قلوبهم ليس فيها استعداد لقبول ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد كذبوا ، فإنه دين الفطرة ، فلو تركوا فطرتهم - كما خلقت عليه - لقبلته وآمنت به ، ولكنهم أساءوا الاختيار ، ففسدت فطرتهم .

ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله : (بَلْ لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ) .

و(بل) هنا للإضراب الإبطالى ، ورد ما يقولون ، أى : ليس الأمر كما زعموا ، بل أبعدهم الله عن رحمته ، بأن خذلهم وتركهم وشأنهم ؛ بسبب إصرارهم على الكفر ، لسوء اختيارهم الذى أبطلوا به استعدادهم الفطرى لقبول الهدى ، فاستحقوا بذلك أن يحرمهم الله من لطفه ورحمته . « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (١)

ثم ختم الآية بالنتيجة فقال : (فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) الفاء فى (فَقَلِيلا) أفادت ترتب ما بعدها - وهو قلة إيمانهم - على ما قبلها ، وهو لعن الله لهم . وقليلا صفة لمحذوف ، و (ما) : صلة لتأكيد القلة ، وليست نافية . أى : فإيمانا قليلا يؤمنون . والمقصود من القلة العدم ، أى لا يؤمنون أصلا ، لأن الإيمان الشرعى لا يتجزأ ، فإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر . لا يعتبر إيمانا بل كفرا ، واستعمال القِلَّة بمعنى العدم معروف فى لغة العرب ، يقولون : هذا شىء قلما ينفع ، يريدون أنه لا ينفع أصلا .

٨٩ - (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ . . .) الآية .

وهذا نوع آخر من ضلالات اليهود الذين كانوا فى عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو أنه لما جاءهم كتاب منزل من الله - وهو القرآن - مصدق للتوراة التى معهم ، فى التوحيد وأصول الدين ، وموافق لها فيما يختص ببعث النبى - صلى الله عليه وسلم -

(وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) : وكانوا - قبل مجيئه - يستنصرون على أعدائهم من المشركين ، بالنبى المبعوث فى آخر الزمان ، قائلين : اللهم أنصرنا عليهم

(١) آل عمران : ١١٧

بالنبي الذى نجد نعته فى التوراة . ويقولون لهم : قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ماقلنا . فنقتلكم به قتل عاد وإرم .

(فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) : تكرير للشرط الأول فى قوله (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ) مع تغيير الأسلوب ، وذلك لطول العهد بسبب توسط الجملة الحالية : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) - أى : فلما جاءهم الكتاب الذى عرفوا أنه من عند الله كفروا به . وإيراد الموصول (ما عَرَفُوا) دون الاكتفاء بالإضمار بأن يقال لهم : فلما جاءهم أى الكتاب إنما جاء لبيان كمال مكابرتهم . فإن معرفتهم لما جاءهم . من دواعى الإيمان لا الكفر . وقوله (كَفَرُوا) جواب (لمَّا) الأولى عند المبرد . وقال أبو البقاء هو جواب الأولى والثانية معاً .

وقيل إن المراد بلفظ (ما عرفوا) هو النبي - صلى الله عليه وسلم - واستعمال « ما » فيمن يعلم كثير ، كقوله تعالى « والسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا » (١) يعنى ومن بناها . وعلى هذا تكون جملة (كَفَرُوا بِهِ) جوابا عن (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا) أما جواب (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ) : فمقدَّرٌ وتقديره : كذبوه . وقد دل عليه جواب الثانية .

والمعنى عليه : فلما جاءهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى عرفوا صفاته ونبوته من التوراة : معرفة لا يخالجها ريب ، حسدوه . لأنه من العرب أولاد إسماعيل . وملأ الحسد قلوبهم غيظا ، (فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) : الفاء لترتيب ما بعدها - من اللعن - على ماقبلها من الكفر : أى : فلعنة الله عليهم وطرده لهم من رحمته وتوفيقه ، بسبب كفرهم بما عرفوا أنه الحق . وإصرارهم عليه ، وإنما . قال (عَلَى الْكَافِرِينَ) ولم يقل عليهم ليشعر بأن سبب حلول اللعنة بهم هو كفرهم (وَعَلى) تفيد استعلاء اللعنة عليهم وشمولها لهم .

---

(١) الشمس : ٥ .

(بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾)

المفردات :

(بِئْسَما اشْتَرَوْا) : بئس فعل يستعمل لإفادة الذم ، والمعنى : بئس شيئاً اشتروا به أنفسهم أن يكفروا . واشتروا هنا ، تستعمل للشراء وللبيع . قال فى الصحاح : شرى الشىء يشريه شرى وشراء إذا باعه وإذا اشتراه أيضا وهو من الأضداد ، وهو هنا بمعنى : باعوا .

(بَغْيًا) ، البغى : الفساد ، من قولهم : بغى الجرح أى فسد . والمراد منه هنا : الحسد ، لأنه من فساد النفس .

(فبَاءوا بغَضَب عَلَى غَضَب) : أى رجعوا بغضب فوق غضب ، يقال : : باء بإثمه يبوء بمعنى : رجع يرجع .

(مُهِينٌ) : مذل من الهوان ، وهو الذلة .

التفسير

٩٠ـ (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ . . .) الآية .

اليهود كانوا ينتظرون بعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما تقدم بيانه ، فلما جاءهم حسدوه ، واستبدلوا بالإيمان الذى هيأ الله لهم أسبابه ليسعدوا . . استبدلوا به الكفر الذى يودى بهم إلى الشقاء الدائم ، وآثروه عليه ، فكان اختيارهم الكفر على الإيمان ، بمنزلة بيع أنفسهم بالكفر إلى النار .

ولما كانت الخسارة فى ذلك الاستبدال عظيمة . قال سبحانه : (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ) أى بئسما باعوها به (أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) . فالكفر هو الثمن الذى باعوا به أنفسهم ، والمشترى الشيطان، أو جهنم ، وكل ذلك من باب التصوير والتمثيل ، لتهويل سوء ما اختاروه وتقبيح أمره .

(بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) : بسبب بغيهم وحسدهم أن ينزل الله الوحى على من يختاره من عباده . وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد حسدوه على النبوة ، لما لم يكن من بنى إسرائيل . بل كان من ولد إسماعيل أخى جدهم إسحق . وكان ذلك منهم حبا فى الرياسة ، وتعصبا لبنى جدهم إسرائيل ، دون نظر إلى الحق ، يريدون أن يقصروا فضل الله عليهم ، ولا يرضون عما أعطى الله غيرهم من فضله .

(فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ) : فرجعوا - بسبب حسدهم - بغضب من الله فوق غضب منه ، أى استحقوا غضبا عظيما من الله ، بكفرهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وحسدهم له على فضل الله عليه .

وقيل الغضب الأول لكفرهم بمحمد . والثانى لكفرهم بعيسى من قبله ، فكان غضبا على غضب ، بسبب كفر منهم بعد كفر ، وقيل غير ذلك .

(وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) : ولهؤلاء الذين عرفوا نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وكفروا بها ، عذاب مهين مذل . جزاء كفرهم واستكبارهم . وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وقال : « لِلْكَافِرِينَ » ولم يقل لهم : تعليلا للوعيد بوصف الكفر .

٩١ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا) . . . الآية .

أى وإذا دعوا إلى الإيمان والتصديق بما أنزل الله على نبيه محمد أنكروا وعارضوا ، وقالوا مستكبرين : إنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل على أنبيائهم ، زاعمين أنه لا حق إلا عندهم .

يريدون بذلك أن يتحكموا فى وحى الله وفضله . و « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ »(١)
وصيغة الدعوة فى قوله تعالى : (ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) تحتوى على حكمة فى التعبير ، إذ لم يقل بما أنزل الله على محمد . فإنها تؤذن بوجوب الإيمان بما أنزل الله تعالى ، من حيث إنه هو الذى أنزله : فليس لهم أن يقترحوا الرسول المنزل عليه ، ويختاروه بأنفسهم ، فالأمر ليس لهم : ولكنهم – للجاجتهم فى التعصب – يكفرون بغير ما عندهم ، ولا يؤمنون إلا بما يجىء عن طريقهم .

(وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ) ، أى : : ويكفرون بما عداه ، مع أن ما دُعوا إليه هو الحق الثابت المؤيد بالآيات والبراهين ، حال كونه مصدقا لما عندهم ، ومن كفر بما صدق كتابه فقد كفر بكتابه الذى يدعى الإيمان به .

وقد أفحمهم الله بالحجة التى تدحض قولهم بقوله لرسوله محمد – صلى الله عليه وسلم – :
(قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِين » . أى قل لهم مبكتا مفحما :
إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله عليكم كما تزعمون ، فَلِمَ قتلتم أنبياء الله الذين جاءوا بما أُنزل عليكم ؟ . وإنما قال (فَلِمَ تَقْتُلُونَ) بدلا من « فلم قتلتم » . استحضارا لصورة هذا الجرم الفظيع مبالغة فى التقريع والتشنيع .

والخطاب للموجودين فى زمن النبى – صلى الله عليه وسلم – بما فعل آباؤهم ، لرضاهم به ، فإن من رضى بالمعصية ، فكأنه فاعل لها . وإن كان غائبا عنها .

وقد يقال إن هذا من باب قولك مجازا لأهل قبيلة : أنتم قتلتم فلانا إذا كان القاتل آباءهم . والمراد : أن الأمر فيكم من قديم على الكفر بكتابكم ، لا على الإيمان به ، فدعواكم التمسك بكتابكم ، منقوضة : خلفا عن سلف .

---

(١) الأنعام (١٢٤)

(* وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾).

المفردات :

(الْعِجْل) : هو ما صنعه لهم السامرى من الحلى . تمثالا على صورة العجل .

(الطُّور) : هو الجبل ، المعروف فى شبه جزيرة سيناء .

(وَأُشْرِبُوا فى قلوبِهِمُ الْعِجْلَ) : داخل قلوبهم مُخَالَط بحب عبادة العجل .

التفسير

٩٢ - (وَلَقَدْ جَاءَكم مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ).

أى ولقد أرسلنا إليكم موسى بالآيات الواضحة ، الدالة على صدقه - عليه السلام - فى دعوته ، وهى : العصا واليد ، والسنون ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، الطوفان ، والجراد والقمل ، والضفادع والدم ، وفلق البحر ، وغير ذلك : (راجع الأعراف ١٣٠ ، ١٣١ والآية ٥٠ من سورة البقرة) وليس منها التوراة .فإن الآية ناطقة بأنهم عبدوا العجل بعد مجىء الآيات . والتوراة جاءتهم بعد أن عبدوا العجل ، وموسى غائب عنهم لتلقيها من ربه ، وقد غلط من عد التوراة منها .

والمعنى لقد أرسلنا إليكم موسى بهذه الآيات البينات ،ولكنكم كفرتم بالله وأشركتم به ، فعبدتم تمثالا للعجل صنعه السامرى من حليكم ، بعد مجىء موسى بهذه الآيات من ربه ، وانتهزتم لذلك فرصة غيابه عنكم لتلقى ألواح التوراة ، وقد فعلتم ذلك وأنتم ظالمون بالإشراك

بدل التوحيد الذى تقتضيه البينات التى جاءكم بها . وأى ظلم أعظم من هذا (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١)) .

والتعبير بالجملة الاسمية : (وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) فيه دلالة على ثبات الظلم واستقراره فيهم . وأنه شأن من شئونهم .

ولقد سبق التبكيت باتخاذهم العجل فى قوله تعالى : « وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ » وأعيد هنا بعبارة أخرى فى سياق آخر . وهو أن الآيات البينات الدالة على النبوة والوحدانية . لم تزدهم إلا إيغالا فى الشرك ؛ وانهماكا فى الوثنية ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ) : أى ثم اتخذتم العجل من بعد مجىء موسى بالبينات على رسالته . وصحة ما دعاكم إليه من : توحيد الله بالعبادة .

والتعبير بقوله (مِنْ بَعْدِهِ) يفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ذلك الاتخاذ . فإنه بعد بلوغ الدعوة . قامت الحجة عليهم . وخاطب الحاضرين لأنهم يسيرون على نهج أسلافهم ويعتزون بانتمائهم إليهم فهم فى الكفر جميعا سواء .

٩٣ ـ (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ...) الآيَةَ .

واذكروا يا بنى إسرائيل إذ أخذ الله العهد المؤكد عليكم بأن تعبدوه ـ سبحانه وحده ـ ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعملوا بشرعه . وكان أخذه الميثاق عليكم ؛ فى موقف كله رهبة وخشوع ، وبيان لقدرة الله تعالى . على عقاب من لم يمتثل ، إذ رفع فوقكم جبل الطور كأنه ظلة تظلكم ، وظننتم أنه سيقع عليكم ،وطلب منكم حينئذ . أن تأخذوا ما آتاكم الله من الشرع بقوة : بأن تسمعوه سماع تدبر وفهم وقبول . وتعملوا بما جاءكم فيه من التكاليف بحزم وعزم . ولكنكم لم تلبثوا أن نقضتم العهد . بمجرد أن زال عنكم هذا الموقف

(١) لقمان : ١٣ .

(قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) : أى كانت حالهم فى المخالفة مثل حال من قالوا : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك .

(وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ). . . واختلط حب عبادة العجل بقلوبهم : تقليدا لساداتهم من الفراعنة : الذين كانوا يعبدونه ويقدسونه ، ولم ينتفعوا بتحرير الله لهم من ذل العبودية والقتل ، بشق البحر لهم وإنجائهم .

لهذا انتهزوا فرصة ذهاب موسى – عليه السلام – لتلقى ألواح التوراة ، فأرضوا حبهم لمعبودهم القديم ، وعبدوا صنما على شكل العجل : صنعه لهم موسى السامرى من حليهم ، (انظر آية ١٤٨ من سورة الأعراف ، وآية ١٨ وما بعدها من سورة طه).

والكلام على تقدير مضافين ،أى : وأشربوا حب عبادة العجل ، وجاء النظم بدون المضافين للمبالغة ، كأن الذى أشربوه هو ذات العجل ، والإشراب إفعال من الشراب . ومن عادة العرب أنهم إذا عبروا عن مخامرة حب أو بغض ، استعاروا لهما اسم الشراب ، وآثروه على الطعام ، لأنه يتغلغل فى جميع الأعضاء أسرع وأقوى منه .

(قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) ، قل لهم يا محمد : بئس الذى يأمركم به إيمانكم المزعوم بالتوراة : من الأعمال التى تقترفونها ،كعبادة العجل ، وقتل الأنبياء ، ونقض الميثاق . وقولكم (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) ، وإضافة الإيمان إليهم فى قوله : (إِيمَانُكُمْ). للإيذان بأنه ليس بإيمان حقيقة ، كما ينبىء عنه قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ) فإنه قدح فى دعواهم لإيمان بما أنزل عليهم من التوراة ، وإبطال لهذه الدعوى . وتقرير الإبطال : إن كنتم – فيما اقترفتموه من الشرك والمعاصى – مؤمنين بها ، عاملين بما فيها كما ادعيتم ، فبئسما يأمركم به إيمانكم المزعوم بها ، إذ أن الإيمان الصادق بها ، لا يأمركم بما اقترفتموه من الشرك والمعاصى ؛ فليس فيها إباحة شىء من ذلك . وهذا برهان على عدم إيمانكم بها.

(قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾) .

المفردات :

(يُعَمَّر) : يطول عمره .

(بِمُزَحْزِحِهِ) : بمبعده .

التفسـير

٩٤ـ (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

ما أكثر دعاوى اليهود الكاذبة !: ادعوا الإيمان بما أنزل عليهم ، فبينت الآيات السابقة فساد ادعائهم : بعبادتهم العجل واقترافهم كبائر الإثم . وادعوا دعاوى أخرى منها : أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا ، فهى خالصة لهم دون غيرهم ، فأبطل الله دعواهم بهذه الآية .

والمعنى : قل لهم يا محمد : إن كانت لكم جنة الدار الآخرة عند الله ، وفى حكمه وكتابه خالصة لكم ، وخاصة بكم من دون الناس جميعا كما زعمتم : ـ إذ قلتم لن يدخلها إلا من كان هودا ـ فتمنوا الموت الذى يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص لكم ، الخاص بكم . إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى دعواكم . فإن النفس تستعجل خيرها .

٩٥ـ (ولَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ . . .) الآية

ولن يتمنوا الموت أبدا ، بسبب ما ارتكبوه من الآثام ، لشدة خوفهم من العاقبة ، لأنهم

يعرفون أنهم عاصون ، مقترفون للذنوب التى يستحقون عليها العقوبة فى الدار الآخرة ، ولذلك يستأجلون ولا يستعجلون .

وعبر عن أنفسهم بأيديهم ؛ لأن معظم الأعمال تتم بالأيدى ، ونفى تمنيهم الموت بلن المفيدة لتأكيده ؛ لأنه ظاهر من حالهم ، فإنهم أحرص الناس على الحياة وجمع المال ، والانغماس فى الشهوات والملذات ، ومن كان كذلك ، لا يتمنى أن يموت .

وهم فى هذا الزعم - بأن الدار الآخرة خالصة لهم - ظالمون ، كما أنهم ظالمون فى كل أمورهم ؛ ولهذا هددهم الله وتوعدهم على ظلمهم ، فقال : (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) أى : عليم بهم ، وبما صدر عنهم من فنون الظلم ، من الكفر وسائر المعاصى المفضية إلى أشد العذاب ، وعليم بأنهم لن يتمنوا الموت لظلمهم ، كما أنه عليم بسائر أحوالهم .

وكان التعبير (بِالظَّالِمِينَ) دون (بِهِمْ) . للإيذان بأن السبب فى حرمانهم من الدار الآخرة ، أنهم ظالمون فى أمرهم كله ، وأن كل من كان على شاكلتهم فى الظلم والمعاصى ، فهو مهدد بالعقاب ، كما هددوا به .

٩٦- (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ . . .) الآية .

فى هذا والذى قبله ، إبطال لزعمهم ، وبيان لحقيقة حالهم : من الإخلاد إلى حياة الدنيا ، فهم أشد الناس حرصا عليها ، وعلى التمسك بأهدابها . ولو كانوا يؤمنون حقيقة بأن الدار الآخرة لهم - كما زعموا بألسنتهم - لتمنوا الموت ، وما كانوا أحرص الناس على حياة .

وتنكير (حياة) للإطلاق : أى أحرص الناس على أية حياة ، وإن كانت ذليلة ، فهى عندهم خير من الموت ، كيفما كانت .

(وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) : أى وهم أشد حرصا على الحياة من الذين أشركوا ، ولم يؤمنوا بالله ، ولا باليوم الآخر . وخصوا بالذكر بعد اندراجهم فى الناس ، لأنهم لا يؤمنون بحياة أخرى بعد هذه الحياة ، ويقولون : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[1] فجىء بهم لتأكيد حرص اليهود على الحياة الدنيا .

(١) المؤمنون : ٣٧ .

وفى هذا توبيخ عنيف لليهود ، لأنهم إذا زاد حرصهم على الحياة ـ وهم أهل كتاب ، يؤمنون بالآخرة ـ على حرص الناس جميعا ، حتى الذين لا يعرفون إلا الحياة الدنيا ، ولا يصدقون ببعث ولا نشور ـ كانوا جديرين بأعظم التوبيخ .

وقوله : (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) معطوف على ما قبله بحسب المعنى ، كأنه قيل : أحرص من الناس ومن الذين أشركوا . فقوله (أَحْرَصَ النَّاسِ) فيه كلمة (من) مقدرة بعد أحرص .

وإلى هذا ذهب عبد القاهر ، وأبو على وغيرهما ، فقد قالوا إن أفعل إذا أضيف وأريد منه الزيادة على ما أضيف إليه ، كانت إضافته لفظية بتقدير : مِنْ

(يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) : أى بلغ من شدة غلوهم فى الحرص على الحياة ، أن الواحد منهم ، يتمنى أن يعيش السنين الكثيرة ، ولو تجاوزت الحد الذى يبلغه الإنسان فى العادة . فكلمة (أَلْفَ سَنَةٍ) كناية عن المدة الطويلة ، التى يود أن يحياها . وليس المراد خصوص العدد ؛ لأن العرب تذكر الألف ، وتريد الكثرة .

وإنما يودون البقاء فى الدنيا ، لأنهم يرون أنها ـ على ما فيها من منغصات ـ خير من الآخرة لما يتوقعون من سخط الله ، وتعذيبه لهم على ما أسلفوا من كفر وعصيان ، وذلك خير شاهد على أنهم لا يعتقدون ما يقولون : من أن نعيم الدار الآخرة خالص لهم .

(وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ) وما ذلك التعمير لو تم ، بنافعه ولا مبعده من عذاب الله المحتوم ، لأنه لا بد له من الموت والعرض على الله ، ليجازى على ما قدم فى دنياه .

والتعبير بالجملة الإسمية ، للدلالة على دوام بقائهم فى النار ، وعدم تزحزحهم عنها .

(وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) أى والله عالم بأعمالهم ومحيط بها ، علم من يبصر ويرى ، ولا تخفى عليه خافية من أمرهم ، ومجازيهم عليها ، بما أعده لهم من العقاب .

وفى هذا تهديد ووعيد لهم .

وعبر بالمضارع (يَعْمَلُونَ) بدلا من المصدر ؛ لتصوير عملهم بأنه كان يتجدد آنا بعد آن .

(قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾) .

المفردات :

(عَدُوًّا) : العدو ضد الصديق . ويطلق على الواحد والجمع .

(جِبْرِيل) : أمين الوحى بين الله – تعالى – ورسله ، وهو روح القدس .

(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) : أى مؤيدا ما تقدمه من الكتب السماوية ، التى نزلت على من سبق نبينا من الرسل .

التفسير

٩٧ – (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بيْنَ يَدَيْه . . .) الآية .

سبب نزولها : أن اليهود قالوا للنبى – صلى الله عليه وسلم – إنه ليس نبى من الأنبياء ؛ إلا ويأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحى . فمن صاحبك حتى نتابعك ؟ فقال : جبريل ، قالوا : ذاك الذى ينزل بالحرب وبالقتال ، ذاك عدونا : لو قلت : ميكائيل الذى ينزل بالقطر وبالرحمة . تابعناك ، فأنزل الله الآية ، إلى قوله : (لِلْكَافِرِين) أخرجه الترمذى .

رُوِىَ أن عمر جلس إلى بعضهم وسألهم عن جبريل – عليه السلام – فقالوا : ذاك هو عدونا ، يطلع محمدًا على أسرارنا ، وهو صاحب كل خسف وعذاب . وميكائيل يجىء بالخصب والسلام ، فرد عليه عمر : بأن من كان عدوا لأحدهما ، فهو عدو للآخر ، ومن كان عدوا لهما ، كان عدوا لله – سبحانه – فلما رجع عمر ، وجد جبريل عليه السلام ، قدسبقه بالوحى ، فقال – صلى الله عليه وسلم – « لقد وافقت ربك يا عمر »

المعنى : من قبائح اليهود، قولهم فى جبريل - عليه السلام- هو عدونا، وأرادوا من هذا القول : أنهم لا يؤمنون بوحى يجىء به عدوهم . فهم لا يؤمنون بالنبى - صلى الله عليه وسلم - من أجل أن جبريل هو الذى ينزل عليه بالوحى. فأمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بما معناه : قل لهم يا محمد : من كان عدوًّا لجبريل لأنه جاءك بالقرآن فهو عدو لله ؛ فإن جبريل نزل بالقرآن على قلبك ، بإذن الله مصدقا لما سبقه من الكتب السماوية ، وهدى ورحمة ، وبشرى للمؤمنين ، ولم يأت به إليك من عند نفسه . ومن عادى ملكا جاءك من عند الله بكتاب هذا شأنه ، فإنه عدو لله الذى أرسله .

وجعل القلب محل التنزيل ، لأنه موضع العلم والعقل وتلقى المعارف .

ومعنى قوله : (مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) ، أنه مؤيد ما سبقه من الكتب السماوية ، ومنها التوراة فى أصول العقائد والأحكام والأخلاق، وإذا كان كذلك، لا يصح أن يعادى من جاء به ، ولا من أنزل عليه (وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) ، أى وهاديا إلى سبل السعادة والفلاح ، وبشرى للمؤمنين بالجنة ، والنعيم المقيم .

وفى وصفه بهدى وبشرى - وهما مصدران - فيه توكيد لكونه هاديا ومبشرا وقوله (فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ) تعليل لجواب الشرط المقدر . قائم مقامه ، والتقدير : من كان عدوا لجبريل ، كان عدوًّا لله ، فإنه نزّله على قلبك .

وخص المؤمنين بالذكر : لأنه - بالنسبة إليهم - هدى وبشرى . أما غيرهم من المصرِّين على الكفر . فهو عليهم عمى ، ولهم نذير بأشد العذاب .

٩٨ - (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ)

أى من كان عدوا لله بمخالفة أمره عنادا ، والخروج عن طاعته مكابرة ، وعدوا للملائكته برفضه الحق الذى جاءوا به من عنده - تعالى - لرسله ، وعدوا لرسله بتكذيبهم ، وعدوا لجبريل وميكائيل خاصة ، من كان عدوا لهؤلاء - وعداوتهم كفر - عاداه الله ، فإن الله عدو للكافرين - ومن عاداه الله باء بالعذاب المهين .

وجمع الملائكة ،مع أنهم عادوا جبريل-وحده-لأن معاداة أحدهم معاداة لسائرهم، وَجَمَعَ الرسل ، مع أنهم عادوا محمدا ، لأن معاداة أحد الرسل معاداة للجميع . وميكال هو ميكائيل ،

وبالثانية قرأ حمزة والكسائى وابن عامر وغيرهم ، وبالأولى قرأ أبو عمرو وحفص وهى لغة أهل الحجاز .

وإفراد جبريل وميكائيل بالذكر - مع دخولهما فى الملائكة - لإظهار فضلهما ، وللتنبيه على أن عداوة جبريل تعتبر عداوة لميكائيل ، فلا وجه لادعائهم حب ميكائيل وكراهة جبريل ، لأن بغض أى ملك ، فى حكم بغض الجميع .

وقال فى الآية (عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) . . . ولم يقل عدوله أو لهم ؛ للإيذان بأن عداوة من ذكر فى الآية كفر ، وأن الله عاداهم لكفرهم .

(وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)) .

المفردات :

(آيات) : المراد بها آيات القرآن .

(بَيِّنَات) : واضحة الدلالة على معانيها .

(الْفَاسِقُونَ) : الخارجون عن الحق إلى الباطل والفساد .

(نَبَذَهُ) : طرحه وألقاه ، من النبذ وهو إلقاء الشىء وطرحه ، لعدم الاعتداد به .

التفسير

٩٩ - (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . .) الآية .

ولقد أنزلنا إليك آيات القرآن حُجَجًا على نبوتك ، بما اشتملت عليه من وجوه الإعجاز للبشر ، وأضحت الدلالة على معانيها وكونها من عند الله ؛ ولذلك كانت أحق وأولى بالقبول والاذعان .

واستهلال العبارة بقوله : (وَلَقَدْ) لمزيد تحقيق ما اشتملت عليه الاية الكريمة

(وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ) : ولا يكفر بهذه الآيات البينات إلا الفاسقون ، أى المتمردون فى الكفر ، الخارجون عن حدوده ، فإن من ليس على تلك الصفة من الكفر ، لا يجترىء على الكفر بمثل هذه الآيات الواضحات .

قال الحسن : إذا استعمل الفسق فى نوع من المعاصى ؛ وقع على أعظم أفراده من كفر أو غيره . ومن أشد هؤلاء الفاسقين فسقا : اليهود ، إذ أنهم كفروا بالآيات البينات ، مع تأكدهم من صدق من جاء بها ، عناداً لمن ظهر الحق على يديه ، وحَسَداً له ، فإنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

١٠٠ - (أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم). . . الآية .

من عادة اليهود : أن ينقضوا العهود والمواثيق ؛ ولا يفون بها .

ومن ذلك : أنهم كانوا على نية الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم إذا بعث . ولهذا كانوا يستفتحون ويستنصرون به إذا حاربوا المشركين قبل أن يبعث ، فيسألون ربهم النصر ببركة النبى المنعوت بصفاته فى التوراة ، ويقولون لهم : قد أطل زمان نبى سنقتلكم نحن معه قتل عاد وإرم ، كما سبق بيانه .

والاستفهام فى (أَوَ كُلَّمَا) : للإنكار والتوبيخ والتعجيب من شأنهم ، و (كُلَّمَا) لإفادة تكرارهم لنبذ العهود ، والواو قبلها للعطف على مقدر يستدعيه المقام . والتقدير : أكفروا بهذه الآيات ، وكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، ومن جملة ذلك : عهدهم ووعدهم بالإيمان بك يا محمد إذا بعثت !

وعبر عن نقضهم للعهد ، بالنبذ ، ليشير إلى أنهم تركوه مستهينين به ، لأن النبذ يكون للشئ الذى لا يعتد به . وإسناد النبذ إلى فريق منهم ، يؤذن بأن منهم من لم ينبذه .

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) ، أى : بل أكثر اليهود لا يؤمنون بالتوراة ، إلى جانب أن أكثرهم ينقضون العهد . فإيمانهم بالتوراة ، لا يجاوز حناجرهم ، ولو آمنوا بها حقا ، لسارعوا إلى الإيمان بك يامحمد ، فأنت منعوت بأوصافك فيها .

١٠١ - (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ . . .) الآية .

الرسول : هو محمد - صلى الله عليه وسلم - ووصفه بأنه جاءهم من عند الله فيه تعظيم له. فإن عظمة المرسِل تقتضى عظمة رسوله . وفيه إلى - جانب ذلك - مبالغة فى استنكار كفرهم به ، أى : ولما جاءهم رسول عظيم من عند الله : مصدق لما معهم من التوراة ، من حيث إنه جاء على الوصف الذى وصف به فيها ، كما أن كتابه الذى جاء به موافق لما فيها ، من قواعد التوحيد وأصول الدين والأخلاق ، وأخبار الأمم .

(نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) .

أى ولما جاءهم محمد - صلى الله عليه وسلم - مصدقا لما معهم فيما تقدم ، نبذ فريق من اليهود الذين أوتوا التوراة ، كتاب الله وهو القرآن ، إذ كفروا بالرسول الذى جاء به ، وأعرضوا عما جاء فى التوراة مبشرا به - صلى الله عليه وسلم - كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله ، أو أن محمدا رسول الله ، والواقع أنهم يعلمونه علما يقينيا ، ولكنهم نبذوه مكابرة وعنادا وجريا على سنتهم فى نبذ العهود . فإنه قد أخذ عليهم العهد فى التوراة أنه : إذا جاءهم هذا الرسول المنعوت ، يؤمنون به وينصرونه ، فنقضوا هذا العهد بكفرهم به .

وإنما شبههم بمن لا يعلمون ، لأن رفض الحق من شيمة الجهلاء ، وهم بنبذهم الحق ، مع علمهم به - يشبهون الجهلاء الذين لا علم عندهم .

وفى الآية تصوير بيانى حكيم ، حيث شبه حال التاركين للعمل بالكتاب المهملين له ، بحال من يرمى شيئا وراء ظهره ، نابذاً له وكارها .

وإضافة كتاب إلى (الله) ، فيها إظهار لبشاعة جرمهم ، حيث طرحوا أعز كتاب وراء ظهورهم .

وقصرُ نَبذ الكتاب - وهو القرآن - على بعضهم ، يؤذن بأن بعضا آخر لم ينبذه ، كعبدالله بن سلام ، وزيد بن سعنة من أحبار اليهود ، وغيرهما ممن أكرمهم الله بالإيمان الصادق برسول الله والقرآن المجيد .

ويرى بعض المفسرين : أن المراد بكتاب الله الذى نبذوه : التوراة .

قال السدى : لما جاءهم محمد - صلى الله عليه وسلم - عارضوه بالتوراة ، فاتفقت التوراة والقرآن ، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف ، وسحر هاروت وماروت ، فلم يوافق القرآن .

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾)

المفردات :

(تَتْلُوا) : تخبر وتحدث أو تقول .

(عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) : على عهد ملكه وفى زمانه .

(السِّحْر) : إخراج الباطل فى صورة الحق ،وهو – فى الأصل – مصدر سحر يسحر – بفتح الحاء فيهما – إذا أبدى ما يدق ويخفى ، ويستعمل فيما لطف وخفى سببه

والمراد هنا : أمر غريب يشبه الخارق المعجز وليس بالخارق ، إذ يجرى فيه التعلم كالذى حصل من سحرة فرعون ، حيث أظهروا لموسى حبالهم وعصيهم أنها تسعى ، وليس ذلك من باب قلب الحقائق ، بل هو تخييل . وسيأتى لذلك مزيد بيان فى المعنى .

(بِبَابِلَ) : بلدة قديمة ، كانت بالعراق ينسب إليها السحر .

(هَارُوتَ وَمَارُوتَ) : اسمان للملكين اللذين أنزل عليهما علم السحر ، وسيأتى بيان المراد منهما .

(فِتْنَةٌ) : ابتلاء واختبار

(اشْتَرَاهُ) : استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله .

(خَلَاق) : نصيب فى الخير .

(لَمَثُوبَةٌ) : لأجر وثواب .

التفسير

١٠٢ - (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ . . .) الآية .

أخبر الله - سبحانه وتعالى - فى الآية السابقة : أن اليهود الذين أوتوا التوراة : لما جاءهم رسول من عند الله ؛ نبذوا كتاب الله وهو القرآن ، وكفروا به - صلى الله عليه وسلم - مع أنه مصدق للكتاب الذى معهم . لكونه مطابقا للأوصاف الموجودة فيه .

ثم عطف على هذه الجريمة - وهى نبذهم لكتاب الله - جريمة أخرى ، هى : اتباعهم الشياطين بمزاولة السحر بدل العمل بكتاب الله .

والمعنى : أن اليهود - لما جاءهم الرسول بالقرآن - نبذوه . واشتغلوا بالسحر الذى كان عليه آباؤهم من قبل .

فالمراد مما تتلوه الشياطين : كتب السحر ، التى كانت تقرؤها الشياطين : أى المتمردون من الإنس والجن .

وتتلوا : حكاية للحال الماضية ، أى ما كانت تتلوه الشياطين على عهد ملك سليمان ، والمراد باتباعهم إياها : استمرار اتباعهم لها واشتغالهم بها ، فقد كانوا متبعين لها قبل مجى الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وقد كانت الشياطين فى عهد سليمان تلقن كهان اليهود . وتتلوا عليهم قواعد السحر ، وتخبرهم كذبا : أن ملك سليمان وسلطانه على الإنس والجن ، والطير والريح ، لم يقم إلا على تلك القواعد ، فكانوا يدونونها عن الجن فى كتب لديهم : توارثها الخلف عن السلف ، حتى وصلت إلى اليهود بالمدينة ، فكانوا يشتغلون بما فيها قبل مبعث النبى - صلى الله عليه وسلم - ولما بعث ، رفضوا كتاب الله الذى جاء به ، وفضلوا عليه الاستمرار فى مزاولة السحر الذى

يحرمه ، مع أن الديانة اليهودية قامت على إبطال السحر ، الذى جاء به سحرة فرعون وحملتهم على الإيمان بالله ، وقررت أن الساحر لا يفلح حيث أتى .

ولما كان السحر يؤدى إلى الكفر . كما سيأتى ، وكان اتهام الشياطين واليهود لسليمان بمزاولته يشينه ، نفاه الله عنه بقوله :

(وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) : فأكذبهم الله - سبحانه وتعالى - بهذا ، ونزه سليمان - عليه السلام - عن عمل السحر الذى نسبه إليه أولئك الشياطين ، وتبعهم فى ذلك اليهود الذين من شيمتهم تلويث الأنبياء ، كما نلمسه فى أسفار العهد القديم .

وفى الآية دليل على أن من يستخدم السحر ويؤمن به ؛ يكون من الكافرين ؛ لأن قوله تعالى : (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ) : حجة على أن السحر : ضرب من ضروب الكفر .

وقد أطلق القول بكفر من يزاوله : العلامة التفتازانى .

ولكن الشيخ أبا منصور ذهب إلى أن إطلاق القول بأن السحر كفر خطأ ، وأنه يجب التفصيل فيه ، فإن كان فيه رد مالزم من شروط الإيمان فهو كفر ، وإلا فلا .

وعلى هذا ، فالمراد من السحر الذى هو كفر : ماكان بالتقرب إلى الشيطان بالسجود له أو لصنم أو غيره ، أو بالرُّقَى بعبارات فيها شرك بالله - تعالى - أو نحو ذلك مما ينافى أصول العقيدة الإسلامية ؛ كاعتقاد الساحر أن ما يستعين به فى سحره - مثل الجن والنجوم - لها قدرة ذاتية على النفع والضر .

وعقاب السحر الذى هو كفر : قتل الذكور وحبس الإناث وضربهن ما لم تقع منهم توبة وأما ما ليس بكفر - وفيه إهلاك النفس - ففيه حكم قطاع الطريق ، ويستوى فيه الذكور والإناث ، وتقبل توبة صاحبه إذا تاب . هذا رأى بعض الفقهاء .

والمشهور عن أبى حنيفة رضى الله عنه : أن الساحر يقتل مطلقا إذا علم أنه ساحر ، سواء أكان ذكرا أم أنثى . وتقبل توبته إذا تاب .

ومذهب مالك رضى الله عنه كما نقله القرطبى : أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرا ، فإنه يقتل ، ولا يستتاب ، ولا تقبل توبته .

ومن أراد معرفة مذاهب العلماء وآرائهم فى السحر وأحكامه ، فليرجع إلى المطولات .

وأما الشعوذة وما يجرى مجراها ، مما فيه إظهار أمور عجيبة باستعمال آلات هندسية أو خفة يد ، أو الاستعانة بخواص الأدوية والأحجار ، فإنها ليست من السحر ، وإطلاق السحر عليها من قبيل التجوز ، أو لما فيها من الدقة كما ذكره الآلوسى .

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ) أى : اتبع اليهود ما كانت تقرؤه الشياطين على الكهنة من أبواب السحر من عهد ملك سليمان ، زاعمين أن سلطانه قام عليه ، واتبعوا أيضاً ما أنزل على الملكين : هاروت وماروت ببابل ، وذلك أن بابل كانت مدينة بالعراق يسكنها الصابئون الذين يعبدون الكواكب ، وكان منهم أناس يزاولون السحر ، ويدعون الناس إلى الكفر ، وتقديس الكواكب والشياطين ، ويسيطرون عليهم بالسحر ؛ ليحملوهم على عبادتها .

ومن رحمة الله – تعالى – أنه جعل من نواميسه ألا يذر الشر وحده يسيطر على عباده ، فلذا سخر رجلين صالحين – اسمهما هاروت وماروت – لتحذير الناس ، فكانا لصلاحهما – يشبهان الملائكة ، فلذا أطلق الله عليهما الملكين .

ولما كان لكل شىء آفة من جنسه ، فلذا ألقى الله فى قلبيهما علم السحر ، فكانا يعلمان الناس السحر لكى يتخلصوا بتعلمه من سيطرة السحرة من الصابئة ، ويتقوا شرورهم ، وكانا يمزجان التعليم بالتحذير ، فيقولان لمن يعلمانه : إنما نحن فتنة ، أى امتحان من الله – تعالى – لعباده لينظر : أينتفعون بسحرنا فى اتقاء الشر وجلب الخير ، أم يسيئون استخدامه فى الإضرار بالناس ، وإفساد العقائد ؟ ، فهو سلاح ذو حدين ، فكما ينفع ، يضر ويفسد العقيدة .

وفى ذلك يقول الله – تعالى – :

(وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ) .

والمقصود من إنزال السحر على هذين الرجلين المشبهين للملائكة : إلقاؤه فى قلبيهما وتعليمهما إياه .

وكل العلوم والمعارف تنزل على القلوب من عند الله – تعالى – :

وقيل : إنهما ملكان ، وإن السحرة قد كثروا فى ذلك العهد ، واخترعوا فنونا غريبة من السحر : يموهون على الناس بها ، وربما زعموا أنهم أنبياء ، فبعث الله - تعالى - هذين الملكين ليعلما الناس وجوه السحر حتى يمكنوهم من التمييز بينه وبين المعجزة ، فيحذروا الكذابين ، ولا ينخدعوا بسحرهم .

وماقلنا من أن الملكين : رجلان صالحان شبها بالملائكة لصلاحهما ، هو الرأى الحق ، وتؤيده قراءةُ (الملكين) بكسر اللام .

أما من أخذ اللفظ على ظاهره ، وقال : إنهما من الملائكة بعثهما الله لتحذير الناس من السحر ، فقد جانبه الصواب ، لأن سنة الله أن يجعل رسله من البشر لا من الملائكة .

ولهذا لما طلبت قريش أن ينزل الله لهم ملكا ، رد عليهم بقوله « وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ »(١).

وقد دلت الآية على : أن تعلم السحر كله غير محظور ، وإنما المحظور منه ما يؤدى بصاحبه إلى الكفر ، باعتقاد فاعلية الشيطان ، والكواكب ، وألوهيتها ، أو السجود لها أو لصنم أو غير ذلك . مما ينافى الإيمان . فالمقصود من قوله (فَلَا تَكْفُرْ) : أى لا تكفر بما يخالف شروط الإيمان من قول أو عمل أو اعتقاد .

(فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ)

ذكر الله فى هذا الجزء من الآية ، لونا من ألوان السحر ، الذى كان يعلمه الملكان لأهل بابل ، وهو السحر الذى يكون من أثره إزالة الألفة بين الزوجين ، وإحداث العداوة أو البغضاء بينهما ، إلى أن يتفرقا . واختصه بالذكر ؛ لأنه من الصور التى تظهر فيها مفسدة السحر بأشد ما يكون . فلهذا آثر إبرازها ، ليعلم الناس منها مدى ما يصل إليه السحر من الإضرار بالمجتمع ؛ فإن إفساد الأسرة إفساد للمجتمع ؛ لما فيه من تشريد الأولاد الذين هم أساسه .

ويتسع الشر إذا أريد بالمرء وزوجه : الإنسان ومن يزاوجه ويقارنه ، فينضم إلى الإنسان وزوجته كل قرينين بينهما إلفة كالأخوين والشريكين والصالحين ، ومن هذا المعنى . قوله : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » (٢) .

(١) الأنعام : ٨ و٩ . (٢) الصافات : ٢٢ .

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) : أى وما يضر السحرة بهذا السحر أحدا كائنا من كان ، إلا بعلم الله وإرادته ، فهم إذن لا يستطيعون أن يحدثوا بسحرهم ضررا دون إرادة الله ، ودفع بهذا توهم أن يكون ضاراً بذاته ، بل بإذن الله — تعالى — ربطا للمسببات بالأسباب .

(وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ) : ويتعلمون من السحر ما يضرهم ولا ينفعهم لأنهم يقصدون بتعلمه الشر والإضرار بالناس . وقصدُ المعصية يعتبر معصية يعاقب الله — تعالى — عليها يوم القيامة .

أو لأن العلم يدعو إلى العمل ويجر إليه ، ولا سيما الشر الذى هو هوى النفس ومطلبها .

والتصريح بقوله : (وَلاَ يَنْفَعُهُمْ) بعد إثبات ضرره ؛ للإيذان بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضر ، بل هو ضرر محض .

وظاهر هذه الفقرة من الآية يُقَوِّى رأى القائلين بحرمة تعلمه مطلقا .

(وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ) : ولقد علم هؤلاء اليهود الذين نبذوا : كتاب الله ، واتبعوا السحر : أن من استبدل السحر بكتاب الله وآثره على شرعه — سبحانه — ليس له أىّ حظ من الجنة ، ولا أى نصيب من الخير يوم القيامة ؛ لأنه لم يكن له إيمان ولا عمل صالح يكافأ عليه .

(وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .

(شَرَوْا) أى باعوا ، وهى من الأضداد ، ومما جاءت به بمعنى البيع أيضا قوله تعالى (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ (١)) أى باعوه بثمن قليل . والعلم هنا منزل منزلة اللازم ، غير منظور فيه إلى مفعول ، أى لو كان عندهم علم وعقل .

والمعنى : ولبئس هذ الذى باعوا به حظ أنفسهم من الخير ، وهو تعلم السحر والعمل به . ولو كان عندهم علم وعقل ، لأدركوا أن هذا السحر ضار ، مفسد للنفس والعقل والناس ، ولامتنعوا عن تعلمه والعمل به .

وإنما نفى عنهم العلم ، لأن العالم إذا لم يجر على موجب علمه ، ينزل منزلة الجاهل وينفى عنه العلم كما ينفى عن الجاهل .

١٠٣— (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أى : ولو أن هؤلاء الذين يتعلمون السحر ويؤثرونه على ما أنزل الله ، لو أنهم آمنوا بالنبى — صلى

---

(١) يوسف : ٢٠ .

الله عليه وسلم - وبما أنزل عليه من القرآن الذى فيه هدايتهم ، واتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، لأُثيبوا على ذلك ، وثواب الله خير لهم من السحر . ولو كانوا من أولى العلم الذين ينتفعون بما يعلمون ،لم يفعلوا ذلك ، ولكنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، فكفروا وعصوا ، فكانوا من الخاسرين .

وفى النظم الكريم : تنكير مثوبة ليبين فضلها بأى قدر ، فقليل من ثواب الله - تعالى - فى الآخرة خير من نعيم الدنيا الفانية . مهما كثر وعظم ، فكيف وثواب الله - تعالى - كثير دائم :

وفى ذلك : ترغيب فى طاعة الله ، وترهيب من المخالفة التى تجر إلى عقابه تعالى .

واستنبط بعض العلماء من الآية : أن مَنْ تعلم السحر لا ليعمل به ، ولكن ليتقى ضرر ، أو علمه غيره لهذا الغرض ، فلا حرمة عليه ، فإن القرآن الكريم ذكر عن الملكين أنهما كانا يعلمان الناس السحر ، ولم يعقب حكاية ما فعلاه بالنهى عنه . وهذا يقتضى إباحة تعلمه ، للتمييز بين السحر وبين المعجزة والكرامة . ولاتقاء ضرره .

ولا ننسى ما بيناه من الخلاف فى حكم تعلمه وتعليمه .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾) .

المفردات :

(رَاعِنَا) : أى انتظرنا وتأَنَّ بنا حتى نفهم كلامك . وأصله من المراعاة ، وهى المبالغة فى الرعى . وهو الحفظ والتدبير . وتدارك المصالح .

(انْظُرْنَا) : انتظرنا وتأَنَّ بنا .

(مَا يَوَدُّ) :الود : محبة الشيء وتمنى وقوعه .

التفسير

١٠٤ـ (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . . .) الآية .

هذا نداء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمؤمنين ، صدرت به الآية لأهمية الأدب الذى دعت إلى الأخذ به ؛ لأن نداء المؤمنين بوصفهم ، يذكرهم بأن الإيمان يقتضى من صاحبه : أن يتلقى أوامر الله ونواهيه بحسن الطاعة .

(لا تَقُولُوا رَاعِنَا) : كان المسلمون ـ إذا ألقى الرسول عليهم شيئاً من العلم ـ يقولون : راعنا يا رسول الله ، يريدون منها : انتظرنا وتأن بنا ؛ حتى نفهم كلامك ونحفظه .

وهذه كلمة لا شيء فيها من سوء الأدب ، إلا أن اليهود حينما سمعوهم يقولون ذلك ، صاروا يخاطبون الرسول بها ، محرفين لها عن معناها الذى أراده المسلمون ، إذ أرادوا سبه بنسبته إلى الرعن ، وهو الحمق أو الاستهزاء به باللغة العبرانية . فقد كانوا يتسابون فيما بينهم بكلمة « راعنا » العبرانية فاستعملوها مقلدين ـ فى اللفظ ـ ماينطق به المؤمنون مع سوء النية ، على دأبهم دائما فى تحريف الكلم عن معناه ، كما حكى القرآن عنهم ذلك فى سورة النساء بقوله : « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدِّينِ » (١) .

وكان سعد بن عبادة يعرف لغتهم ، فلما سمعهم يقولون ذلك ، قال لهم : عليكم لعنة الله ، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأضربن عنقه فقالوا : أو لستم تقولونها ؟ فأنزل الله الآية : نهيا للمؤمنين عن مخاطبة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه اللفظة : قطعا لألسنة اليهود ، حتى لا يتخذوها ذريعة لسب النبى صلى الله عليه وسلم ـ وإيذائه والاستهزاء به ؛ فإن معناها فى لغتهم كما قيل : اسمع لاسمعت ، وأمرهم أن يقولوا له بدلا عنها (انْظُرْنَا) : انتظرنا وتأنَّ بنا ، حتى نحفظ

---

(١) الآية : ٤٦ .

ونفهم ما تقول ؛ فإنها تؤدى المعنى الذى يقصدونه بقولهم : (رَاعِنَا) ولا يمكن اليهود أن يحرفوها إلى سبه – عليه السلام – والاستهزاء به .

وفى هذا تنبيه إلى أدب كريم ، وهو : أن الإنسان يتجنب فى مخاطبته – صلى الله عليه وسلم – الألفاظ التى توهم جفاء أو تنقيصا . وإلى جانب ذلك ، هو نهج قويم للخلق الإسلامى والإنسانى .

(وَاسْمَعُوا) : أيها المؤمنون قوله – صلى الله عليه وسلم – سماع قبول وامتثال ، مع وعى قلبى ، حتى تحفظوا ما يلقيه عليكم ، ولا يفوتكم منه شىء .

(وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : ولهؤلاء اليهود الذين كفروا برسالة محمد ، وحرفوا الكلام عن مواضعه وآذوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – واستهزأوا به ، عذاب موجع فى نار جهنم .

وفى التعبير بقوله (وَلِلْكَافِرِينَ) : بيان لأن ما صدر عنهم من سوء الأدب فى خطاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو أثر من آثار الكفر ؛ وأنهم استحقوا هذا العذاب المقصور عليهم بسبب كفرهم .

١٠٥– (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ . . .) الآية .

لا يحب الكافرون من اليهود والنصارى ، ولا المشركون : أن ينزل الله عليكم – أيها المؤمنون – شيئاً من الخير ، وذلك لعداوتهم وحسدهم لكم ، فهم لا يحبون لكم الخير .

وأعظم الخيرات هو القرآن الكريم ؛ لأنه الهداية العظمى إلى الصراط المستقيم . وقد جمع الله به شملكم ، وأخرجكم به من الظلمات إلى النور ، فكيف لا يحرق الحسد أكبادهم على إنعام الله عليكم بهذه النعمة : وكذلك المشركون : يرون فى تتابع نزول القرآن ، قوة للإسلام وتثبيتا لدعائمه وأركانه . وهم يكرهون ذلك ويودون أن تدور الدائرة على المسلمين ، ويستكثرون أن يكون نزول القرآن على محمد – صلى

الله عليه وسلم - من بينهم « وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » : (١) .

وخص بعض العلماء الخير هنا ، بالوحى . مراعاة للمقام . فهو الذى من أجله كره أهل الكتاب والمشركون النبى والمؤمنين . وَيَسْتَدلون لذلك بقوله تعالى : (وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) أى : والله يختص بنبوته من يشاء ممن أعدهم وهيأهم لها . فكانوا جديرين بها . ولهذا اختص بها محمدا - صلى الله عليه وسلم - من بين الناس ؛ لتمام أهليته لذلك .

وصدق الله تعالى إذ يقول : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » (٢) .

وقد فسرها على رضى الله عنه بذلك ، فهى الخير الذى يكرهه هؤلاء للنبى صلى الله عليه وسلم ، (وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) : فلا حرج على فضله تعالى ، أن يمنح النبوة من يشاء ممن هو أهل لها ، فكيف يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؛ ومن حسد أحدًا على فضل الله ، فهو ساخط على حكم الله ، معترض على قضائه ، ولا يضر الحاسد بحسده إلا نفسه .

وفى إسناد الرحمة والفضل إلى اسم الذات . بيان أنهما حقه - تعالى - لذاته ؛ فليس لأحد من عبيده ، أدنى تأثير فى منحهما ولا فى منعهما .

(۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾) .

المفردات :

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آية) : النسخ لغة : المحو والإبطال ، والمراد هنا بالآية : الجملة القرآنية ذات الحكم الكامل . والمراد بنسخها : بيان انتهاء التعبد بها . وقيل المراد بها : الشريعة ، على حد قوله تعالى : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ » . (٣)

(١) الزخرف : ٣١ ، ٣٢ . (٢) الأنعام : ١٢٤ . (٣) الزمر ٧١ :

والمراد من نسخها على هذا : تغييرها بشريعة أخرى تأتى بعدها ، أو : الآية المعجزة .
ونسخها : الإتيان بآية أخرى غيرها . وسيأتى بيان ذلك .

(أَوْ نُنسِهَا) : نُبِحْ لكم تركها . من نسى : بمعنى ترك ، دخلت عليه الهمزة للتعدية .
قال أبو على وغيره من أئمة اللغة : هذا متجه ؛ لأنه بمعنى : نجعلك تتركها .

وقرئ نَنْسَأْهَا - بفتح النون مهموزا ، من نسأه . :إذا أخره أى : نؤخر نزولها
عليكم (وَلِيّ) : من يلى أمرك أو يملكك . كالمولى

(نصير) : معين .

التفسير

١٠٦- (مَا نَنسخْ مِنْ آية أَوْ ننسِهَا نَأْتِ بخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مثلهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على
كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ) .

الربط :

جاء فى الآية السابقة ما يفيد : أن أهل الكتاب والمشركين ، لا يودون أن ينزل
الله على المسلمين - فى شخص الرسول - خيرا . أى : وحيا منه .

وكان ذلك حسدًا منهم .

فاليهود كانوا يريدون الرسالة فيهم دون العرب ؛ لأنهم نشأوا فى مهابط الوحى ،
والعرب أميون .

والمشركون كانوا يريدونها لرجل من القريتين عظيم ، وقد أفحمهم الله بأن هذا
ليس من شأنهم ، فالله يختص برحمته - أى بنبوته - من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

لهذا ناسب أن يذكر الله عقب ذلك حكما من أحكام الوحى الذى اختص به رسوله
- عليه السلام - ، وهو النسخ : تقريرا له ، وردا على الطاعنين فى النسخ ، الكارهين
لنزول الوحى عليه - صلى الله عليه وسلم - وذلك قوله سبحانه : (مَانَنْسَخْ منْ آيَة
أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . . .)

وسبب النزول : أن اليهود قالوا - بعد تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة -
إن محمدا يأمر أصحابه بشىء ثم ينهاهم عنه ، فما كان هذا القرآن إلا من عند محمد .
ولهذا يناقض بعضه بعضا .

قالوا ذلك : إنكارا للنسخ وكراهة للتحويل ، إذ كانوا يأنسون بموافقته لهم فى القبلة .

فلهذا نزلت الآية للرد عليهم - كما نزل لذلك قوله تعالى: «وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ »[1]

(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) .

والمعنى : أىُّ شىء من الآيات والأحكام : ننهى التعبد به ، أو نجعلكم تتركونه ؛ نأتى بأفضل منه : مثوبة أو نفعاً أو خفة على المكلفين . أو نأتى بمثله فى ذلك . فإن تنزيل الآيات المشتملة على الأحكام الشرعية ، يكون وفقاً للحِكَم والمصالح ؛ وذلك يختلف باختلاف الأحوال . فرب حُكْم تقتضيه الحكمة فى حال ؛ تقتضى نقيضه فى حال أخرى ، فلو لم يجز النسخ ، لا ختل ما بين الحكمة والأحكام من النظام .

وهذا الحكم غير مختص بالآية الواحدة كاملة . بل هو جارٍ فيما فوقها وما دونها . وتخصيصها بالذكر ، باعتبار الغالب .

ثم ختم الله الآية بهذا التقرير :

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

الخطاب فيه لكل من لديه علم وعقل . والاستفهام للتقرير .

والمراد بهذا التقرير : الاستشهاد بعلم المخاطب ، بأنه تعالى ؛ (عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : على قدرته على النسخ ؛ والإتيان بما هو خير من المنسوخ أو مثله ، أى أنك تعلم أن الله على كل شىء قدير ، فتدرك -بمقتضى علمك هذا- قدرته تعالى على نسخ الآيات ، والإتيان بخير منها ، أو مثلها لمصلحة عباده .

وتعريف النسخ شرعا : إزالة حكم شرعى سبق ، بخطاب ورد متأخرا ، كما قال القاضيان : عبد الوهاب وأبو بكر . وزاد الأخير : لولاه لكان السابق ثابتا .

ومن أراد معرفة الفرق بينه وبين التقييد والتخصيص ، وأحوال النسخ وأمثلته ، وهل يجوز نسخ القرآن بالسنة أولا ؟ فعليه أن يرجع إلى المطولات : فى التفسير وكتب الأصول .

ونسخ الأحكام للمصلحة ، موجود فى جميع الديانات .

ففى صحيح مسلم : « لم تكن نبوّة قط إلا تناسخت » - أى تحولت من حال إلى حال بالنسبة إلى المكلفين - ذكره القرطبى فى المسألة الثالثة من مباحث الآية .

(١) النحل : ١٠١

وأنكرته طوائف من اليهود ، زاعمين أن ذلك من البداء ، وهو مستحيل على الله ، وقد كذبوا ؛ فإن النسخ هو : النقل من حكم إلى حكم ، لضرب من المصلحة .

ولا خلاف بين العقلاء ، فى أن شرائع الرسل قصد بها مصالح الخلق : الدنيوية والأخروية .

وأما البداء ، فهو : ترك ما عزم عليه أولا والعدول عنه ، كقولك لشخص : امض إلى فلان ، ثم يبدو لك نقض الرأى الأول فتقول : لا تمض . أو تقول : له : إزرع كذا . ثم يبدو لك خلافه فتقول له : لا تزرعه ، بل ازرع كذا لشىء آخر ، على سبيل التناقض والتقلب فى الرأى .

وهذا محال على الله – تعالى – لكمال علمه وحكمته ، جائز على الخلق لنقصانهم . فكل حكم له تعالى صالح ، وله حكمة فى وقته : منسوخاً كان أو ناسخاً ، وليس فى أحكامه تعالى بداء .

راى آخر فى النسخ

ذكرنا – فيما تقدم – رأى جمهور العلماء سلفا وخلفا فى معنى النسخ فى الآية الكريمة ، وحكمته . وخلاصته أنه : إزالة حكم شرعى سابق ، بخطاب ورد متأخرا عنه ، وأن كلا من المنسوخ والناسخ لمصلحة العباد فى حينه .

ومن العلماء طائفة لا يقولون بنسخ الأحكام ، فرارا من البداء المستحيل على الله ، فإن تغيير الأحكام فى الشريعة الواحدة ، شأن من لا يعلم المصلحة كما ينبغى العلم ، حينما شرع . فلما علمها ، عدل عما شرعه أولا ، وذلك لا يليق بالله – تعالى – العليم الحكيم .

ويقولون : إن الآية الكريمة ، ليست دليلا على ما يقوله الجمهور فى معناها ، بل إن السياق يدل على خلافه ، فإن الآية قبلها تدل على أن أهل الكتاب يكرهون نزول الخير : أى الوحى من الله على المسلمين . وإنما كرهوا ذلك لأنهم كانوا يريدون بقاء النبوة فى بنى إسرائيل ، وأن تظل التوراة شريعة الناس : لا تنسخ ، فهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .

فأخبرهم الله – تعالى – بأنه يختص برحمته – أى نبوته وشريعته – من يشاء ؛ لأن أمرها ليس لهم ، بل لله وحده « وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » . فلا يحق لهم أن يحتكروا فضله عليهم .

وعقّب ذلك، بما يدل على أن نسخ شريعتهم بالشريعة الإسلامية ليس بدعاً، بالنسبة إلى شأنه تعالى مع سائر الشرائع، فقال : (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) أى : ما نغير من شريعة من الشرائع المعلومة للناس : كالتوراة والإنجيل والزبور ، أو نجعلها منسية دارسة لا علم للناس بها - كالشرائع المجهولة لنا، النازلة على بعض من قصهم الله علينا من الأنبياء ومن لم يقصصهم علينا ، نأت بشريعة خير منها أو مثلها ، حسبما ينبغى لحال الأمة التى شرعت لها .

وقد اقتضت الحكمة نسخ شريعتكم أيها اليهود ، بشريعة الإسلام ، التى هى خير للأمة التى كلفت بها ، من شريعتكم ، فلماذا تكرهون نزول الوحى على سواكم ناسخا لشريعتكم ، وتلك سنة الله فى جميع الشرائع ؟

ويؤول أصحاب هذا الرأى الآيات التى ظاهرها التعارض والنسخ ، بحيث يبعدونها عن دائرة النسخ بمعنى تغيير الحكم .

وقد اتضح مما سبق بيانه ، أن المراد بالآية عند أصحاب هذا الرأى : الشريعة ، وقد أطلقت عليها ، لأنها علامة يهتدى بها الناس فى معاشهم ومعادهم .

وذلك يتفق مع المعنى اللغوى لكلمة الآية فإنها بمعنى العلامة .

رأى ثالث فى النسخ

ومن الباحثين من قال : المراد : بالآية ، المعجزة ، وبنسخها ، تغييرها . وعندهم أنها نزلت للرد على من اقترح أن يأتى محمد بمعجزة كمعجزة موسى ، كما يؤذن به قوله تعالى بعد ذلك « أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ » .

والمقصود من الآية الكريمة على هذا الرأى : بيان أن معجزة النبى - صلى الله عليه وسلم - جاءت من نوع آخر غير معجزات من سبقه وهى محققة لنبوته ، ولذا ختم الآية بقوله (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى وإذا كان الله على كل شىء قدير ، فلا يقترح عليه تعالى آيات بعينها ، فلكل نبى آياته . ولكل عصر ما يلائمه ، وقد أيد محمدا صلى الله عليه وسلم - بما هو كاف من المعجزات أعظم الكفاية .

ومن أر د مزيدا من البيان فليرجع إلى المطولات للموازنة بين تلك الآراء . والله الموفق .

١٠٧ - (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .) الآية .

لما قرر فى الآية السابقة : أنه تعالى على كل شىء قدير ، ذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك ، وهو أنه تعالى : له ملك السموات والأرض ، واستشهد على ذلك بعلم كل ذى علم فقال (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) كما فعل هناك . فالخطاب فيه لكل من يعلم .

والعلم بذلك قدر مشترك بين المسلمين وأهل الكتاب والمشركين .

قال تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ[1] » . وفى شمول الخطاب للمعاندين ، أبلغ رد عليهم . فهو إلزام لهم بما يعلمونه .

ولكون التعميم مراداً ، ختمت الآية بقوله : (وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ ولاَ نَصِير) والهمزة فى : (أَلَمْ تَعْلَمْ) للإنكار والنفى ، دخلت على النفى . ونفى النفى إثبات .

والمعنى : أنك أيها المخاطب ، تعلم علما يقينيا : أنه تعالى ، له ملك السموات والأرض ومن كان كذلك ، فهو على كل شىء قدير .

وإذا ثبتت قدرته على كل شىء - بما ثبت له من ملك السموات والأرض - فهو صاحب الأمر فى خلقه . فله نسخ الآية بخير منها أو مثلها : تدرجا فى الحكم ، وتطويراً له ، حسب تطور حاجة البشر ومصلحتهم ؛ فإن رب الخليقة ومالك الكون ، من شأنه أن يرعى مصلحة عباده .

(وَمَا لَكُم مِّنْ دُون اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِير) : معطوف على الخبر ، داخل معه فى حيز المعلوم للمخاطب .

و (دُونِ) بمعنى : غير . والولى : من يلى الأمر أو يملكه ، والنصير : المعين ، وجمع بينهما ، لأن المالك أو ولى الأمر ، قد لا يستطيع النصر ، والنصير قد يكون أجنبيا غير مالك ، فأفادت الآية أنه تعالى ، اتصف بالوصفين جميعا : الملك والنصر .

والمراد : وما لكم من غير الله مالك ولا معين . فلذا يرعى مصالحكم فى التشريع وغيره . وأتى بصيغة : فعيل فى : (ولى) و(نصير) ؛ لأنها أبلغ من فاعل ، ولأن وليا أكثر استعمالا من من والٍ .

(١) لقمان : ٢٥ :

وجيء بهذه الفقرة ، إشارة إلى أن الواجب على العاقل أن يتجه بكليته إلى من له ملك السموات والأرض ، لا إلى غيره ، ممن لا يستطيع دفع ضر أو جلب نفع لنفسه .

(أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾) .

المفردات :

(أَمْ تريدُونَ) : أم هنا منقطعة بمعنى بل ،وهمزة الإنكار ، أى : بل أتريدون .

(وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكفْرَ بالْإِيمَان) : أى يجعل الكفر فى موضع الإيمان من نفسه

(سَوَاءَ السَّبِيلِ) : السبيل : الطريق ، وإضافة سواء إليه ، من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى الطريق المستوى .

التفسير

١٠٨ ـ (أَمْ تريدُونَ أَنْ تَسْأَلوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسَى من قَبْل . . .) الآية .

سبب نزول الآية :

اختلف المفسرون فى سبب نزولها . والراجح : أنها نزلت فى شأن اليهود حين قالوا : يا محمد ، ائتنا بكتاب من السماء جملة ، كما أتى موسى بالتوراة جملة ، وخاطبهم بذلك ـ بعد رد طعنهم فى النسخ ـ تهديدا لهم . واختار هذا الإمام الرازى . وقال : إنه الأصح ، لأن الحديث ـ من أول قوله تعالى : (يَابَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِى)[1] إلى هذه الآية ـ حكاية عن اليهود ومحاجة معهم ؛ ولأنه جرى ذكرهم قبل ذلك دون غيرهم .

وعبر بالمضارع على هذا فى قوله : (أَنْ تَسْأَلوا) مع أنهم سألوا قبل ذلك إحضارا للصورة لغرابتها ، فقد جهلوا أن تنزيل القرآن ، كان على حسب الوقائع ، وذلك يقتضى إنزاله على دفعات ، فلا وجه لطلب إنزاله جملة .

وقيل : إنها نزلت فى المؤمنين : توصية لهم بالثقة بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وترك الاقتراح عليه ، بعد أن رد طعن اليهود فى النسخ .

(١) الآية ـ ٤٠ ـ من هذه السورة .

على حد قوله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ »[١] . ولذا ، نزل بعدها قوله سبحانه : (أَمْ تُرِيدُونَ أن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْل ...) .

والخطاب – على السبب الأول – لليهود . وإضافة الرسول إليهم باعتبار الواقع ، وإن خالف اعتقادهم . وعلى السبب الثانى ، يكون الخطاب للمؤمنين ، وعلى هذا يكون المعنى : – لا تكونوا أيها المؤمنون – فيما أُنزل عليكم من القرآن – مثل اليهود فى ترك الثقة بالآيات البينات ، واقتراح غيرها ، فتضلوا وتكفروا . يعنى : أن شأنكم – وأنتم مؤمنون – ألا تتجهوا لإرادة ذلك . وإضافة الرسول إليهم – على هذا – باعتبار الواقع والاعتقاد .

(وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بالْإِيمَان فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) :

المعنى : ومن يَخْتَرِ الكفرَ لنفسه ، فى مقابل الإيمان وبدلا عنه . فقد عدل عن الطريق السوى الموصل إلى أسمى الغايات .

(وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾) .

المفردات :

(وَدَّ) : تمنى وأحب .

(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا) : العفو : ترك العقوبة على الذنب . والصفح : ترك اللوم عليه وهو أبلغ من العفو ، إذ قد يعفو ولا يصفح .

(١) المائدة : ١٠١ .

(حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ) : بإذنه فى القتال .

(تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ) : تجدوا ثوابه عنده .

(وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ) أى : أدوها ـ بأركانها وشروطها وهيئاتها ـ فى أوقاتها . وأصله : أفعل من قام الحقّ : ظهر وثبت : أى أظهروها على النحو الذى يرتضيه الشرع

(بَصِيرٌ) : عليم .

التفسير

١٠٩ ـ (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ . . .) الآية

سبب النزول :

روى الواحدى عن ابن عباس : أن طائفة من كبار اليهود قالوا للمسلمين ـ بعد وقعة أحد ـ ألم تروا إلى ما أصابكم ؟ ولو كنتم على الحق لما هزمتم ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم فنزلت : (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفسهمْ . . .) .

المعنى : تمنى كثير من اليهود ـ أهل الكتاب ـ أن يُرجعوكم ـ أيها المسلمون من بعد إيمانكم ـ كفارا : حسداً لكم . تابعا من أصل نفوسهم وأعماق قلوبهم .

(مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ) : من بعد ما اتضح لهم الحق الذى أنتم عليه ؛ بما جاء عنه ـ أى عن الحق ـ من النعوت فى كتابهم ، وبما ظهر لهم من الآيات التى أيد الله بها رسوله ، فلذلك ينتهزون الفرص لتنفيركم من دينكم حتى ترتدوا عنه فلا تبالوا بهم . (فَاعْفُوا) : عنهم ولا تعاقبوهم . (وَاصْفَحُوا) : ولا تلوموهم . (حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ) . أى : بإذنه فى قتالهم .

(إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فينتقم منهم حين يجىء أوان الانتقام . وحسبهم ـ الآن ـ أن يأكل الحسد قلوبهم .

وقد أنزل الله بعد ذلك الإذن بقتالهم، فى قوله : «قَاتِلوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَق مِنَ الَّذِينَ أُوتوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »[1] ، كما أذن بإجلائهم .

وفى التعبير بقوله : (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ . . .) الخ ، إيذان بأن منهم من لم يتمن ارتداد المؤمنين عن الإيمان ، وهم الذين آمنوا من اليهود، كزيد بن سعنة وعبد الله ابن سلام .

١١٠ - (وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتوا الزَّكَاةَ . . .) الاية .

بعد أن أمر الله المؤمنين بمداراة أهل الكتاب - بالصبر على حسدهم وعلى تمنيهم ارتدادهم عن الإيمان ، وبالعفو والصفح عنهم؛ حتى يأذن الله بأن ينتقموا منهم - أمرهم باللجوء إليه تعالى بالعبادة؛ تكميلا لأنفسهم واشتغالا بها عنهم ، وتوسلا بها لنصره لهم فقال : (وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ) أى : أدوها كاملة الأركان والشروط ، مستوفية الهيئات . (وَآتوا الزَّكَاةَ) أى : أعطوها لمستحقيها من الأصناف الثمانية المجتمعة فى قوله تعالى : «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قلوبُهمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »[2] .

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفسِكم مِّنْ خَيْرٍ) مهما كان نوعه (تَجِدُوهُ) أى : تجدوا ثوابه يوم القيامة (عِندَ اللهِ) تعالى : فيما أعده فى جنته للمحسنين . وقد أعد لهم مالا عين رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وفى قوله تعالى : (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفسِكم مِّنْ خَيْرٍ) ، إيذان بأن الخير الذى تعطيه لأخيك المسلم كأنما تقدمه لنفسك ؛ لأن المجتمع الإسلامى كالجسد الواحد .

(إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلونَ بَصِيرٌ) : فلا يضيع عنده عمل العاملين .

---

(١) التوبة : ٢٩ .

(٢) التوبة : ٦٠ .

(وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢))

المفردات :

(هوداً) : جمع هائد، كعُوذ جمع عائذ . ومعنى الهائد فى الأصل : التائب . والمقصود هنا بالهود : اليهود .

(أَوْ نَصَارَىٰ) : يعنون المسيحيين ، جمع نصران ونصرانة ، سموا بذلك نسبة إلى بلدة الناصرة التى كان ينزل بها عيسى ، أو لأنهم أجابوا عيسى إلى نصره لما قال لهم : مَن أنصارى إلى الله ؟ .

(أَمَانِيُّهُمْ) الأمانىّ : جمع أُمنية ــ بتشديد الياء ــ وهى : تقدير شىء فى النفس وتصويره فيها . ولما كان أكثره عن تخمين ، صار الكذب فيه أكثر . فأكثر التمنى : تصور مالا حقيقة له .

(بُرْهَانَكُمْ) : حجتكم .

(بَلَىٰ) : حرف جواب ، وهى هنا نفى لقولهم .

(أَسْلَمَ وَجْهَهُ) : أخلص توجهه وقصده ، أو أخلص نفسه ، وعبر عنها بالوجه ؛ لأنه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر ، ومظهر آثار الإخلاص .

التفسير

١١١ ــ (وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ . . .) الآية .

بعد أن حكى الله عن أهل الكتاب : أن كثيرا منهم يتمنون أن يردوا المسلمين إلى الكفر ، أتبعه بأكذوبة أخرى من أكاذيبهم وهى قول اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا وقول النصارى : لن يدخلها إلا من كان نصرانيا . يعنون بذلك : أن المسلمين لن يدخلوها ، تنفيراً للمسلمين من دينهم . وإثارة للفتنة بينهم ؛ لأنهم كما تقدم . يودون ردهم .

وجمع بين كلام الفريقين فى النظم الكريم : للإيجاز ، وثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله ؛ لأن العداوة بين الفريقين معلومة .

ولقد رد الله فريتهم هذه مشيرا إليها بقوله : (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ) أى تلك أوهامهم الكاذبة التى لا أساس لها . والأمانى تطلق على ما يتمنى دون أن يكون له سبب . فلذا أريد منها ـ هنا ـ الأكاذيب مجازا . وجمعت مع أنها أمنية واحدة ؛ لتعدد أصحابها ، أو لأنها مشتملة على أمانى ثلاث : أمنية اليهود دخول الجنة وحدهم ، وأمنية النصارى كذلك ، وأمنيتهم جميعا ألا يدخلها المسلمون . ثم أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول لهم مبكتا : (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) أى : أحضروا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة (إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) فيما زعمتموه ، فإن كل دعوى لا دليل عليها باطلة . و « إن » تستعمل لفرض مالا يتوقع حصوله أحيانا ، كما هنا .

ثم نفى سبحانه ما زعموه صريحا بعد أن عرّض بكذبه ، وأثبت عكس ما يقولون فقال :

١١٢ ـ (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ . . . .) الآية .

أى : بل يدخل الجنة : من أخلص نفسه وذاته لله ، فآمن به ونزهه ـ تعالى ـ عن الولد (وَهُوَ مُحْسِنٌ) : فى جميع أعماله التى منها الإسلام . (فَلَهُ أَجْرُهُ) اللائق به (عِندَ رَبِّهِ) : المنعم المتفضل المربى فى دار كرامته ، كما وعده سبحانه . (وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) فى الدارين من لحوق مكروه . (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) على فوت مطلوب . فأمرهم كله أمان واستبشار . أما أنتم ـ يأهل الكتاب ـ فلم تسلموا وجوهكم لله ولم تحسنوا ، إذ كفرتم برسوله وكتابه ، فلا حق لكم فى جنته . وسوف تكونون فى خوف دائم وحزن مقيم ، وجعل الوجه كناية عن النفس ؛ لأنه ترجمان عما تنطوى عليه من عقائد وأخلاق وصفات . فهو مظهر مشاعرها .

قال القرطبى : والعرب تخبر بالوجه عن جملة الشىء . ويصح أن يكون الوجه فى الآية : المقصد . ا هـ .

وسمى الثواب أجرا ؛ للإيذان بكمال استحقاقه عنده تعالى ، كما يستحق العامل أجره على عمله . وإضافة الأجر إليهم ؛ للإيذان بأنه أجر يليق بهم وبإحسانهم . وعبر عن الثواب فى الجنة بقوله : (عِندَ رَبِّهِ) ؛ لتكريمهم بإضافتهم إلى الرَّب . والإيذان بتحقيق ما وعدهم به فإن شأن الرب - سبحانه - أن يحقق لعباده ما وعدهم به

(وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾)

المفردات :

(قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) : المراد بهم عبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم من الجهلاء

(مِثْلَ قَوْلِهِمْ) : بأن قالوا عن أهل كل دين آخر : ليسوا على شيء

التفسير

١١٣ - (وَقالت الْيَهُودُ لَيْسَت النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ . . .) الآية .

سبب النزول :

نزلت لما قدم وفد نجران - المسيحى - على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأتاهم أحبار اليهود ، فتناظروا وارتفعت أصواتهم ؛ وقال كل فريق منهم للآخرين : لستم على شيء .

الربط : بعد أن بين الله - تعالى - أن اليهود يتلاقون مع النصارى فى كراهيتهم لغيرهم وادعاء كل منهما أنهم الذين يدخلون الجنة دون غيرهم - شرع هنا يبين تضليل كليهما للآخر فقال :

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَت النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ) معتد به فى أمر الدين . (وَقَالَتِ النَّصارَى لَيْسَت الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ) كذلك . ثم بين الله مدى جهلهم وعنادهم جميعا ، بحكاية حالهم فقال : (وَهُم يَتْلونَ الْكِتَابَ) السماوى ، ومن كان تاليا للكتاب السماوى ، فشأنه أَن يعترف بما فى كتاب سماوى مثله من الحق ، وألا يقول لأهله : لستم على شيء .

فاليهود يقرءُون فى كتابهم : ما يقتضى صحة رسالة عيسى وصدق ما جاء به ، والنصارى يقرءُون فى كتابهم – الإنجيل – أن موسى نبى ، وأن التوراة من عند الله ؛ إذ الكتب السماوية متصادقة ، فقولهم هذا : دليل الجهل والعناد . (كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) أى : مثل ذلك القول قاله الذين لا علم لهم أصلا ، وهم الْمُشْرِكُونَ وأمثالهم من المعطلة والجهلاء ، فلا تيأس يا محمد لما يقولون عن الإسلام (فَاللَّهُ) وحده (يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فهو الذى يعلم الدين الحق (فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) فى شأن الدين ، فيقضى بأن دين كل منهما ، كان على الحق فى زمانه : قبل أن يبدل ، وقبل أن ينسخ بما بعده ، ويعاقب كلا بما يستحق من عقاب على افترائه .

وفى التعبير بعلى – فى قول بعضهم لبعض : لستم (عَلَى شَيْءٍ) المفيدة للاستعلاء والتمكن ، وتنكير (شَيْءٍ) المفيد للتحقير – كمال المبالغة فى تضليل كل فريق منهما للآخر .

وفى التعبير بقوله : (كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) إيذان بأن تلك المقالة لا تصدر عن شخص متصف بالعلم ، بل هى مما يقوله الجاهلون ، فإن شأن أهل العلم أَن يقروا بالحق لأهله .. وفى هذا توبيخ عظيم لكلا الفريقين ، حيث نظموا فى سلك من لا يعلم أصلا . وحذف المحكوم به على كل فريق ، تهويلا لشأنه .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾)

المفردات :

(وَمَنْ أَظْلَمُ) من : استفهام إنكارى ، بمعنى النفى . والمعنى : لا أحد أظلم .

(مَسَاجِدَ اللهِ) : المراد بها جميع مساجد الله ، وأماكن عبادته ، فالآية قاعدة عامة ، وإن كان سبب النزول خاصا كما سيأتى :

(لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ) : هوان وذلة .

التفسير

١١٤ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ...) الآية .

الربط :

ندد الله - سبحانه - فيما سبق ، باليهود والنصارى ، لتضليل بعضهم بعضا

وفى هذه الآية ، بيّن أن من يعطل الشّعائر فى بيوت العبادة ، يعاقب .

وقد دخل فى ذلك : أهل الكتاب المذكورون ، كما أن فيها نفيا لزعمهم : أنهم أهل الجنة ، المختصون بها .

سبب النزول :

نزلت فى المشركين لأنهم منعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام ، الحديبية من دخول المسجد الحرام .

وعلى أى حال ، فالمراد من المساجد : دور عبادة الله جميعا ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ .

وهذا يدل على أن الإسلام يحترم دور العبادة فى الديانات السماوية السابقة له .

المعنى :

لا أحد أظلم ممن منع الناس من ذكر الله فى دور العبادة : فردا كان المانع أو جماعة ،

وسعى فى خرابها ، بإلقاء القاذورات فيها ، أو إغلاقها ، أو الحيلولة دون دخول العابدين فيها ، و تعطيل شعائرها الدينية بأى وجه من الوجوه .

وإنما وقع المنع على المساجد - مع أن الممنوع هم الناس - لأن طرح الأذى والتخريب ونحوهما ، متعلق بالمساجد لا بالناس .

وظاهر الآية يفيد : أنه لا يوجد أظلم منه .

ولكن المراد : نفى وجود من يساويه فى الظلم أيضا ، كما يدل عليه العرف .

فإذا قيل فى معرض المدح مثلا ، من أكرم من فلان ؟ فمعناه عرفا : أنه لا يوجد أكرم منه ولا من يساويه .

(أُوْلَـٰئِكَ) : المانعون المخربون للمساجد . (مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ) أى : ما كان ينبغى لهم دخولها إلا خاشعين خاضعين ، بدلا من الاجتراء على تخريبها أو تعطيلها .

(لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) أى : لأولئك المانعين المخربين هوان وذلة فى الحياة الدنيا ، أى : أن هذا الحكم يبقى إلى يوم القيامة ، ولهم فى الآخرة عقاب فى النار عظيم لا يقادر قدره .

وإذا كان المراد من مساجد الله ، مساجد المسلمين خاصة ، وأن الآية نزلت فى أعدائهم الكافرين ، فمعنى الآية : لا أظلم من الكافرين الذين منعوا ذكر الله فى مساجد المسلمين ، بتخريب أو غيره ، أولئك الكافرون ، ما كان يحق لهم أن يدخلوها إلا خائفين من بطش المؤمنين بهم ، فكيف يستقيم أن يستولوا عليها ، ويمنعوا المؤمنين منها .

والخزى الذى لهم فى الدنيا : بقتل مشركيهم ، وضرب الجزية على أهل الذمة منهم . وحبسهم ، ونحو ذلك .

ويقتضى حمل الآية على هذا المعنى : أن على المؤمنين أن يرهبوا الكافرين أعداء الله ، ويكونوا فى قوة ومنعة حتى يحموا بيوته ، ويمنعوا أولئك الأعداء من تخريبها وتعطيلها . واستنبطوا منها تحريم دخولهم فيها ، وهذا رأى المالكية . وعليه يجعل قوله تعالى : (مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ) : كناية عن النهى عن تمكينهم من دخولها ، ليتفق ذلك مع قوله تعالى : «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ»[1]

(١) التوبة : ٢٨ .

والمساجد يجب تطهيرها عن النجاسات ، ولذا يمنع الجنب والحائض والنفساء من دخولها .

ولكن الحنفية يجيزون دخولهم فيها بإذن المسلمين ، فإن الآية تفيد دخولهم بخشية وخضوع ؛ ولأن وفد ثقيف قدموا على النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنزلهم فى المسجد .

وعلى فرض أن الآية تفيد النهى ، فهو محمول على كراهة التنزيه لا التحريم .

أو على دخول الحرم بقصد الحج لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - فى فتح مكة قال للمشركين : « مَنْ دَخَل دارَ أَبي سُفْيان فَهُوَ آمِنٌ . وَمَنْ دَخَل الكَعْبَةَ فَهُوَ آمِن » .

وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره . وقال: الحديث منسوخ بالآية . ذكره الآلوسى.

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾)

المفردات :

(الْمَشْرِقُ) : موضع الشروق .

(وَالْمَغْرِبُ): موضع الغروب . والمراد بهما هنا : هما وما بينهما من الجهات والأماكن

(فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) أى : فهناك جهته . أى : قبلته التى أمر عباده أن يتجهوا إليها ، فالوجه والجهة شىء واحد .

(إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ) أى : يوسع على عباده فى التشريع . أو واسع العلم . محيط بما تستطيعون عمله ، فلا يكلفكم ما يشق عليكم .

التفسير

١١٥ - (وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ . . .) الآية .

قال ابن عمر نزلت فى المسافر : يتنفل حيثما توجهت به راحلته ، خرّج مسلم عنه قال :

« كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلى - وهو مقبل من مكة إلى المدينة - على راحلته حيث كان وجهه ، قال : وفيه نزلت (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) نقله القرطبى .

لا يمنع السبب المذكور ، من ارتباط الآية بما قبلها : فإن الآية السابقة أفادت : أن بعض الظالمين قد يمنعون المصلين من الصلاة فى مساجد الله ، وهذه الآية أباحت الصلاة فى أى مكان غير المساجد الممنوعة ، على أن يتجهوا إلى جهة الله ، أى قبلته التى شرعها ، كما تضمنت إباحة صلاة النافلة للمسافر على الراحلة ونحوها ، متجها إلى مقصده فهو قبلته ، وهو الذى استفيد أيضا من سبب النزول .

ولله وحده الأرض كلها : مشرقا ومغربا وما بينهما ،

فنى أى مكان ، وجهتم وجوهكم نحو القبلة التى أمر الله عباده بالاتجاه إليها : للعبادة والدعاء والذكر ، فهناك - حيث توجهتم - جهة الله أى قبلته التى أمرتم بالتوجه إليها . فإن منعتم عن الصلاة إليها فى مسجد أومكان ، فاستقبلوها - فى فروضكم ونوافلكم - فى مسجد أومكان آخر . فإن إمكان الاتجاه إليها غير مختص بمسجد دون مسجد ، أو مكان دون مكان.

ومن كان راكبا على دابة ولا يمكنه أن ينزل عنها ، لخوف - على نفسه أو ماله - من ضرر يلحقه بالانقطاع عن القافلة ، أوكان بحيث لو نزل عنها لا يمكنه العودة إلى ركوبها ، أو نحو ذلك ، فإنه يصلى الفرض فى هذه الأحوال على الدابة ، إلى أى جهة يمكنه الاتجاه إليها ، وتسقط عنه أركان الصلاة التى لا يستطيع فعلها على الصفة المطلوبة ، ولا إعادة عليه[1] . وحكم السيارة والقطار والطيارة حكم الدابة أيضا .

وقيل : المراد : بوجه الله : ذاته . وهذا كناية عن علمه - تعالى - بعبادتهم فى أى مكان .

قال أصحاب هذا الرأى : إن الآية نزلت لتنزيهه - تعالى - عن أن يكون فى حيز وجهة ، توطئة لتحويل القبلة إلى الكعبة .

والمعنى عليه : ولله المشرق والمغرب ، فلا يختص ملكه وعلمه بمكان دون مكان ، فأينما تولوا وجوهكم فى الصلاة والدعاء ، فهناك - حيث اتجهتم - سلطان الله وعلمه بعبادتكم ، فلن تضيع عليكم .

ثم ختم الله الآية بهذا التذييل :

(إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) : يوسع على عباده فى دينهم ، ولا يكلفهم بما ليس فى وسعهم (عَلِيمٌ) بمصالحهم وبما يعملون فى مختلف أماكنهم

(١) الفقه على المذاهب الأربعة : ١٤٩

(وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾)

المفردات :

(سُبْحَانَهُ) : تنزيها وتبرئة لله لائقة به مما قالوا .

(قَانِتُونَ) : منقادون خاضعون .

التفسير

١١٦ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ . . .) الآية .

بعد أن بين الله - سبحانه - شيئاً من مآثم اليهود وضلالهم ، وأشار إلى تعصبهم الذى أرداهم ؛ ووقوع النصارى فيما وقع فيه اليهود : حيث اتَّهَمَ بعضهم بعضا بأنهم ليسوا على شيء ، تكلم فى شأن النصارى واليهود . ومن جاراهم فى نسبة الولد لله من الْمُشْركين الذين جعلوا الملائكة بنات الله .

جاء الإسلام بتوحيد الخالق. وتنزيهه عن الولد ، بين أهل كتاب ومشركين : يزعمون أن لله ولدا ، فاليهود يزعمون أن عزيرا ابن الله ، والنصارى يزعمون مثل ذلك لعيسى ، والمشركون يزعمون مثله للملائكة ، فيقولون : إنها بنات الله .

وقد أنزل الله - تعالى - هذه الآية الكريمة لتبرئته - تعالى - عما يزعمون ، وضمنها الدليل على ذلك فى قوله : (بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ) .

وقد تضمن هذا الدليل : أنه لا يصح أن يكون لله ولد ، لأنه مالك السموات والأرض ، ومن يدعونه ولدا ليس كذلك ، ولا بد أن يشبه الولد أباه .

ولأنه مملوك لله ومخلوق له ، فهو من جملة السماء والأرض التى يختص بملكها الله ، والمملوك لا يكون ولدا ، وأن الولد يُحتاج إليه ليعين أباه ، ويرثه بعد موته ، والله غير محتاج إلى معونة لخضوع الكل له - تعالى - وانقيادهم لإرادته ، كما أنه حى لا يموت ، فلا حاجة له إلى ولد يرثه بعد موته . فخضوع الكائنات لربها ، واحتياجها إليه ، باقٍ لا ينتهى ، فكيف يموت حتى يرثه ولده : تعالى الله عما يقولون .

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾)

المفردات :

(بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : مبدعهما ومخترعهما على غير مثال سبق . من بدعه بمعنى أنشأه واخترعه . وكما يأتى فعيل بمعنى مفعول يأتى بِمَعْنَى فاعل، كما هنا . ونظيره : السميع بمعنى الْمُسْمِعُ ، فى قول الشاعر :

« أمن ريحانة الداعى السميع »

وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه يقال له : مبدع ، ومنه أصحاب البدع .

(وَإِذَا قَضَى أَمْرًا) : أى شاء إيجاد شىء .

(كنْ فَيَكون) : نفذه فى حينه بيسر وسهولة .

التفسير

١١٧ - (بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .) الآية

هذه حجة أخرى لإبطال دعوى الولادة لله - تعالى -

وتقريرها : أنه تعالى مبدع لكل ما سواه ، فاعل على الإطلاق ، وهذا أمر لا ينازِعُ فيه صاحبُ كتاب ولا مشرك .

وبما أن من زعموه ولدا لله - تعالى - داخل ضمن من أبدعه واخترعه من السمٰوات والأرض ؛ فلهذا ،لا يصح أن يكون ولدا له سُبْحَانَهُ ؛ لأن الولد ينشأ عن التوالد لا عن الخلق .

وأشار إلى حجة أخرى فى قوله : (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقولُ لَهُ كنْ فَيَكون) . ومن زعموه ولدا ، ليس له هذه القدرة والسرعة فى التكوين ، فكيف يكون ولدا لله ، والولد على سنة أبيه !

وليس المراد بقوله : (كُنْ فَيَكُون) حقيقة الأمر والامتثال ، لأنه تعالى يخلق المعدوم ، والمعدوم لا يؤمر ، بل المراد تمثيل سهولة تَأَتِّى المقدورات وفق مشيئة الله - تعالى ، وتصوير سرعة حدوثها : بانفعال المأمور وطاعته للآمر القوى المطاع . تقريبا للأذهان

والأمر عنده تعالى أيسر من ذلك، فالخلق عنده لا يتوقف على أن يأمر بـ (كنْ)، بل يتوقف على الإرادة والمشيئة . فإذا أراد شيئا كان كما أراد فى حينه ومكانه .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾)

التفسير

١١٨ـ (وَقَالَ الَّذِين لَا يعْلَمُونَ . . .) الآية .

بعد أن حكى الله ـ سبحانه ـ عن الكافرين اعتقادهم أن لله ولدا ، حكى هنا تعنتهم ، وطعنهم فى نبوة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم .

اختلف المفسرون فى المراد من : (الذين لا يعلمون) فقال ابن عباس : هم اليهود . وقال مجاهد : هم النصارى . وأكثر أهل التفسير على أنهم مشركو العرب . لقوله تعالى حكاية عنهم : « فَلْيأْتِنَا بِآيةٍ كَما أُرْسِل الأَوَّلونَ [١] » . وعبر عنهم بالذين لا يعلمون . استهجانا لذكرهم ؛ لقبح ما صدر عنهم ؛ ولأن ما يحكى عنهم لا يصدر إلا عن الجهلاء . وفى التعبير بالفعل : (لَايَعْلَمُونَ) تيئيس من علمهم . فهم لن يتجدد لهم علم ـ مع تجدد الآيات والعبر والعظات ـ لغباوتهم .

(لَوْلَا يُكَلِّمُنَا الله) أى : هلاَّ يكلمنا الله بغير واسطة : آمرا وناهيا . أومصدقا على نبوتك .

(أوْتَـأْتِينَا آيةٌ) : المراد من الآية : ما اقترحوه من جعل « الصفا » ذهبا . ورُقِيِّه فى السماء وغيرهما . مما حكاه الله عنهم بقوله : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتَّى تَفْجُر لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا . . . [٢] » .

وهذا منهم غاية فى الجحود والإنكار ؛ لاستهانتهم بما أنزله الله عليهم من آيات ، وبما أيده به من معجزات .

(١) الأنبياء : ٥ (٢) الإسراء : ٩٠

ثم سرّى الله عن نبيه ، فقال : (كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ) - أى - مثل ذلك القول السقيم ، قال الذين كانوا قبلهم من الأمم السابقة ، أو من اليهود والنصارى ؛ إذ قالوا : «أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً [1] » ، وقالوا : « لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ [2] » وقالوا : « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ [3] » وقالوا : « اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ [4] » .

(تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) أى : تشابهت قلوب السابقين مع قلوب اللاحقين فى الكفر ، والإعراض عن الحق ؛ والعناد ، والمكابرة . والمعنى : أن تشابه أقوالهم نابع من تشابه قلوبهم .

(قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) أى : يطلبون اليقين ، وهو العلم الذى لا يخالطه شك ، وذلك بالنظر والاستدلال .

ولم يتعرض للرد على طلبهم تكليم الله ، لظهور بطلانه .

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾)

المفردات :

(بَشِيرًا وَنَذِيرًا) أى : مخبرًا لمن آمنوا بما يسرهم من الثواب ، ومنذرًا لمن كفروا بما يحزنهم من العقاب .

(الْجَحِيمِ) : النار ، إذا شب وقودها واضطرمت .

التفسير

١١٩ - (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ . . .) الآية .

هذه الآية تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - وبيان لمهمته ؛ كى يتوجه إليها بكليّته ، ولا يلتفت إلى معارضيه من أهل الكتاب والمشركين ، بعدما سجل تعنتهم .

إنا أرسلناك أيها الرسول ، بالدين الحق ، المؤيد بالبراهين : إلى أهل الأرض جميعاً (بَشِيرًا) أى : مبشرا من آمن بصلاح الحال وحسن المآل (وَنَذِيرًا) : ومنذرًا من كفر بعذاب الجحيم ؛ ليختاروا ما أحبوا لأنفسهم . ولست مجبرا لهم على الإيمان ، فلا عليك إن أصرّوا

(١) النساء : ١٥٣ (٢) البقرة : ٦١ (٣) المائدة : ١١٣ (٤) الأعراف : ١٣٨

وكابروا : (وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) فيقال لك : لماذا لم يؤمنوا ؟ ولن ينسب إليك تقصير ، بعد ما بلغتهم رسالة ربك .

وفى التعبير عن الكافرين بأنهم أصحاب الجحيم : استهجان لذكرهم ، وإيذان بعقابهم بالجحيم ، وأنهم ملازمون لهذا العقاب ؛ لما تفيده الجملة الإسمية من الاستمرار والدوام

(وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)) .

المفردات :

(لَئِن) : مكونة من لام القسم وإن الشرطية .

التفسير

١٢٠ - (وَلَن تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى . . .) الآية .

أراد الله سبحانه : أن يبين لرسوله غاية أعدائه من اقتراح الآيات ، ويحذره منهم ، فقال ما معناه : إن اليهود والنصارى يقترحون الآيات تعجيزا ، لا طلبا للهداية ، فلو أتيتهم يا محمد ، بكل ما يسألون ، فلن يرضوا عنك ، ولن تنال رضاهم ، حتى تتبع دينهم الزائف المحرف ، قل لهم يا محمد : إن هدى الله الذى أنزله إليك : هو الهدى الذى يجب اتباعه والاهتداء به ، إذ لا هادى غيره ؛ لأن غيره ليس من عند الله ، ونقسم : لئن اتبعت يا محمد ، ديانتهم الباطلة الناشئة عن الهوى - بعد الذى جاءك من الوحى المقتضى للعلم بالحق - مالك من جهة الله ولىٌّ يواليك ولا نصير يعينك .

والغرض من توجيه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى قوله : (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم . . .) الآية :

هو إقناط اليهود والنصارى من إمكان تخليه عن دعوته ، وليس المراد تحذيره حقيقة من اتباع أهوائهم بعد ما جاءه من الحق ، فإن ذلك لا يتصور حصوله منه .

وقوله : (مَالَكَ مِنَ اللهِ) الآية : جواب القسم فى قوله : (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ) أغنت عن جواب الشرط ، على القاعدة المعروفة ، وهى : أن القسم والشرط إذا اجتمعا يكون الجواب للمتقدم ، ولذا خلت الجملة عن الفاء . ويجوز أن يكون التحذير للأمة المحمدية ؛ مخاطبة به فى شخص الرسول الكريم ؛ وهو بهذا الوجه قائم دائم للمسلمين أجمعين إلى يوم القيامة .

(ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾) .

التفسير

١٢١ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ . . .) الآية .

الذين تفضلنا عليهم بإعطائهم الكتاب من أحبار اليهود حالة كونهم يقرأونه حق قراءته فلا يحرفونه ، بل يحلون حلاله ويحرمون حرامه ويصدقون كل بشاراته ، أولئك يتمتعون حقا بنعمة الإيمان بكتابهم ، ولذلك أسلموا .

أما الذين كفروا به ، بأن حرفوه ، وأساءوا تأويله ، وجحدوا بشارته، فأولئك هم - وحدهم - الخاسرون دون سواهم . ولذلك لم يسلموا كما أسلم الأولون .

ولا وجه لتخصيص الآية بمن أسلم من أهل الكتاب كما جنح إليه بعض المفسرين ؛ فقد تضمنت من كفر منهم فى آخرها .

وقد حمل بعض المفسرين : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) على أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - والكتابَ ، على القرآن . وهذا الحمل خطأ ، فإنَّ عُرْفَ القرآن : على أن أهل الكتاب هم : اليهود والنصارى . ولم يذكر المسلمون فيه . إلا بعنوان المسلمين والمؤمنين . كما أن السياق واللحاق ، فى بنى إسرائيل . فلا وجه لما قاله هؤلاء المفسرون .

(يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾)

المفردات :

(إِسْرَائِيل) هو : يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم ، عليهم السلام .

(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) : تذكروا ما أنعمت به عليكم ، من : الإنجاء من بطش الفراعنة ، وإنزال التوراة ، وغير ذلك .

والمقصود من أمرهم بتذكرها : أن يشكروها بالإيمان ، بما يجب الإيمان به .

(وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) أى : على عالمى زمانهم .

(وَاتَّقُوا يَوْمًا) : المراد باليوم : يوم القيامة ؛ وباتقائه : التحفظ من عقابه .

(لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا) أى : لا تحمل عنها شيئا من جزاء عملها .
(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ) أى : لا يقبل منها فداء .

التفسير

١٢٢ - (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ . .) الآية .

بعد أن نفى الله ما افتراه أهل الكتاب والمشركون من أن لله ولدا ، وأيد نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - التى أنكروها ، ذكَّر بنى إسرائيل بنعمه عليهم ؛ وحذرهم من كفرها .

وقد سبق التذكير بهذه النعم فى الآيتين ٤٧ ، ٤٨ من هذه السورة ، ولكنه كرر تذكيرهم بها هنا ، تأكيدا لوجوب شكرها بالإيمان ، وليرتب عليها الوعيد الشديد .

يا أبناء النبى إسرائيل ، تذكروا ما أنعمنا به من النعم على آبائكم حتى شملتكم . ومنها أنى فضلتكم على عالمى زمانكم ، بما آتاكم الله من التوراة دونهم .

ومِنْ حَقِّ تذكركم لهذه النعم وتقديركم لها : أن تشكروها .

ومن شُكرها : أن تؤمنوا برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى بشرت بها التوراة . التى فضلْتكم بها على الوثنيين والمعطلين المعاصرين لكم ، فقد انتهى العمل بالتوراة .

١٢٣ ـ (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ شَيْئًا . . .) الآية .

أى : واتقوا بإيمانكم بمحمد ، عقاب يوم : لاتحمل فيه نفس مؤمنة عن نفس كافرة شيئا من الجزاء ، (وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ) : أى فداء ، مهما عظم ، لَوْ وَجَدَتْهُ . (ولَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ) إذ لا شفاعة لكافر (وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) من أحد ؛ إذ لا غالب للقهار ـ جل جلاله[1] ـ

واليوم المذكور هو يوم القيامة ؛ وإنما خوطب اليهود فى زمان النبى ـ صلى عليه وسلم ـ بما فى الآيتين ؛ لأن ما أنعم به على آبائهم ، هو نعمة عليهم .

ولكى يأمرهم بوقاية أنفسهم من العقاب: أمرهم بالإيمان بما جاء به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شكرا لهذه النعم .

وفى خطابهم منسوبين إلى جدهم ـ إسرائيل ـ عليه السلام ـ إشعار لهم ، بأن ذرية الرسول الصالح : الذى أمرهم ألا يموتوا إلا وهم مسلمون ، يجب عليهم امتثال ما يأمرهم به رسول الإسلام ، الذى هو دين جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام .

والتعرض لنفى الفداء والشفاعة والنصرة فى هذا اليوم ، لأنها هى الأمور التى اعتادها بنو آدم فى تخليصهم إذا وقعوا فى شدة .

(وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾)

المفردات :

(ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ) : اختبره ببعض التكاليف .

(بِكَلِمَاتٍ) : هى ما كلفه الله به من التكاليف . التى سنتحدث عنها فى المعنى .

(إِمَامًا) : قدوة للناس .

(١) راجع تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة فى موضوع الشفاعة .

(قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) : أي واجعل من أبنائي أئمة .

(لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) : العهد هنا : الإمامة والنبوة . وينال : بمعنى يدرك ، أو يصيب وعهدى : فاعل ؛ والظالمين : مفعول .

التفسير

لما ذكر فيما تقدم اشتراك أهل الكتاب ، وعبدة الأصنام في جعلهم ولدا لله ؛ وَفَنَّدَ هذه الدعوى الكاذبة ، ودعا بني إسرائيل إلى أن يتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا . أتبع ذلك ذكر ما كان عليه إبراهيم – عليه السلام – من عقائد مخالفة لما قالوا ؛ موافقة لما دعاهم إليه رسوله محمد – صلى الله عليه وسلم –

والغرض من ذكر ذلك توبيخهم على ما هم عليه مما يخالف ما كان عليه إبراهيم ، مع ادعائهم الانتساب إليه ، وسيرهم على ملته .

١٢٤ – (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ . . .) الآية .

الابتلاء : الامتحان . وهو عند الخلق لاستجلاء ما خفي علمه لديهم . والمراد به – في حق الخالق – تكليفُ العبد ببعض التكاليف . وأطلق عليه الابتلاء – مع أنه تعالى لا يخفى عليه شيء – لما فيه من إظهار أعمال العبد التي كانت خفية قبل أن يفعلها ، كما يحدث في الامتحان . والكلمات هي : الواجبات التي كلفه الله بها ، ولما كان التكليف بها يكون بكلمات ، أُطلقت عليها مجازا .

قال ابن العربي : تسمية الشيء بمقدمته أحد قِسْمي المجاز .

والمراد بهذه التكاليف : ما كلفه الله به من شرعه . ومنها ما سيأتي مما حكاه الله في شأنه .

وقد أبرزه من بين تكاليفه ، لاتصاله بموضوع المحاجة مع أهل الكتاب والمشركين وجماعها الإسلام .

والمراد من قوله (فَأَتَمَّهُنَّ) أنه وَفَّى بتلك التكاليف جميعا .

روى عن ابن عباس أنه قال : ما ابتلى الله أحدا بهن فقام بها كلها ، إلا إبراهيم : ابتلى بالإسلام فأتمه ، فكتب الله له البراءة ، فقال : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى [1] » .

(١) النجم : ٣٧ .

وقد بين الله هنا : أنه تعالى ،كافأه على هذا الإتمام ، بأن جعله للناس -عامة- إماما يؤتم به ، وقدوة يقتدى به فى جميع العصور والأجيال والملل من بعده . بخلاف كل نبى ، فإمامته خاصة بأمته ؛ ولهذا جيء به موعظة وزجرا لأهل الكتاب والمشركين :الزاعمين أنهم يسيرون على منهاجه .

ولما بشر إبراهم بهذه المكافأة ، طلب إبراهيم مثلها لبعض ذريته فقال : (وَمِنْ ذُرِّيَّتِى) أى واجعل بعض ذريتى إماما للناس ، وهو كعطف التلقين ، كما يقال : سأكرمك ، فتقول : وزيدا ، فتكون الجملة دعائية - فرد الله عليه قائلا : (لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ) أى : لا يدرك عهدى بالنبوة الظالمين العصاة . ولا يصيبهم ؛ لأن الأنبياء معصومون من المعاصى .

وإطلاق الظالمين على العصاة ؛لأنهم ظلموا بمعاصيهم أنفسهم وغيرهم .

وقد حصلت بركة دعوته هذه لعدد من بنيه الصالحين ، جعلهم الله أنبياء ، وهذه القراءة : نصبت الظالمين مفعولا لينال ، و(عَهْدِى) فيها مرفوع محلا على الفاعلية ، أى لا يصيب عهدى - بالنبوة - الظالمين .

وقرأ قتادة والأعمش : (الظَّالِمُونَ) بالرفع فاعلا لينال ، وعهدى حينئذ مفعول .

والمراد من القراءتين واحد ، إذ الفعل تصح نسبته إلى كل من العهد والظالمين ، على الفاعلية أو المفعولية ، فإن ماناالك فقد نلته .

(وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾)

المفردات :

(الْبَيت) : المراد به الكعبة .

(مَثَابَةً لِلنَّاسِ) : مرجعا لهم للعبادة . من ثاب بمعنى : رجع .

(مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ) : هو الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت .

(مُصَلًّى) : مكان صلاة .

(وَعَهِدْنَا) : أى أمرنا أمرا مؤكدا .

(طَهِّرَا بَيْتِيَ) : نظفاه من كل ما لا يليق من الأوثان ، وجميع الخبائث .

(وَالْعَاكِفِينَ) : أى المعتكفين فى المسجد أى : الملازمين له زمنا ما .

(وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) : الركع جمع راكع ، والسجود جمع ساجد ، والمراد بهما المصلون .

التفسير

١٢٥ - (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا . . .) الآية .

أى واذكر يا محمد ، وقت أن أمرنا بأن تصير الكعبة المعظمة مرجعاً للحجاج : يرجعون إليه بعد أن يتفرقوا عنه ، أو موضع ثواب يثاب الناس بالحج إليه ، والاعتمار فيه .

(وَأَمْنًا) أى موضع أمن ، والمقصود من جعل البيت مكان أمن : أن الحج إليه ، يجعل الحاج مطمئنا إلى رحمة الله ، فإنه مكفر لكثير من الذنوب ، وأن من لاذ به ، كان آمنا من ظالميه ، لغلظ عقوبة الاعتداء فيه وفى الحرم الذى حوله ، تشريفا وتكريما له .

ولقد سرى هذا الأمن إلى حيوانه غير المستأنس ، فيحرم صيده فيه ، ولذا أطلق الأمن فى الآية ولم يقيد .

وتكريما لإبراهيم - عليه السلام - أمر الله تعالى أن يتخذ الناس - عند الحجر الذى قام عليه لبناء البيت - موضع صلاة لركعتى الطواف وسواهما . والأمر للاستحباب .

ثم أمر سبحانه إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - أن يطهرا هذا البيت - وما حوله - من كل ما لا يليق بعبادة الله وحده فيه ، وفى مقدمته الأوثان ، حتى تكون العبادة خالصة لله ، وقد حف بالعابد : الطهر والنظافة من الأوساخ الحسية والمعنوية : كالضوضاء ، وأدران القلوب

وهكذا يجب أن يكون الأمر فى دور العبادة فى شريعتنا ، فالحكم ممتد إلينا من عهد إبراهيم عليه السلام . وقد تقرر بالسنة إلى جانب ما ورد هنا ، وإنما خص البيت بالحكم ، لمناسبة الحديث عن شئونه . وقد أمر بتطهيره - على هذا النحو - من أجل الطائفين به للنسك من أهل الحرم ، أو الوافدين عليه من بقاع الأرض ، ومثلهم الزائرون .

فالتطهير عام من اجل الجميع .

وكما أمر بتطهيره مما ذكر للطائفين ، أشرك معهم فى هذا الحكم :المعتكفين فيه عن الناس لعبادة ربهم ، والمصلين الذين عناهم سبحانه بقوله : (وَالرُّكَّعِ السُّجُود) .

وإنما عبر عن المصلين بالركع السجود؛ لأن أبرز معانى الطاعة والخضوع لله فى الصلاة ، يتجسم فى الركوع والسجود .

ولم يستجب أهل الكتاب والمشركون لهذا الأمر (واتخِذُوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى) لكفرهم فإن أهل الكتاب لا يصلون إلى البيت الحرام . الذى بناه جدهم إبراهيم ، وصرف وجوه الناس إليه ، وحملهم على أداء النسك حوله ؛ والمشركون لوثوه بالأوثان والذبائح حولها ، ومع هذا يَدَّعون الانتساب إليه ، فأين دعواهم هذه مما يعملون ؟

أما محمد – صلى الله عليه وسلم – فهوالذى أحيا شريعة جده وحافظ عليها كما أمر .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾)

التفسير

١٢٦ – (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا . . .) الآية .

ما زال الحديث متصلا ، فبعد أن تكلم عن إبراهيم وتكلم عن البيت الذى بناه ، شرع يتكلم عن مَكَّةَ : بلد البيت وموطن ولده إسماعيل ، وموضع نسكهما .

والمعنى : واذكر وقت أن قال إبراهيم – وقد أنزل ولده الرضيع وأمه بوادٍ غير ذى زرع – يارب اجعل هذا المكان المقفر :الذى لا شجر فيه ولا زرع ولا ماء ، اجعله (بَلَداً آمِناً) بأن تحوله من هذا الإقفار إلى بلد آهل بساكنيه ، ذى أمن ، فلا يعتدى على قاطنيه . وقد كانت مكة حرما آمنا قبل إبراهيم – عليه السلام – .

فقد روى مسلم عن ابن عباس مرفوعا « أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض » الحديث ، ودعاء إبراهيم لإظهار تلك الحرمة وتجديدها .

(وَارْزُقْ أَهْلَهُ) الذى يسكنونه (مِنَ الثَّمَرَاتِ) المختلفة ، بأن تجعل بقربه قرى تثمرها ، أو أن تُيَسّر جلبها إليهم من الأقطار الشاسعة ، وخص دعوته بالمؤمنين منهم بقوله :

(مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) إظهاراً لشرف الإيمان وخطره ، واهتماما بشأن أهله ، ومراعاة لحسن الأدب ، وإيذانا بأنهم هم المستحقون لهذا الرزق ،دون من كفر من أهل الكتاب والمشركين (قَالَ) الله تعالى : (وَمَنْ كَفَرَ) منهم (فَأُمَتِّعُهُ) زمانا (قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ) وألجئه إليه يوم القيامة فلا يستطيع الفكاك منه جزاء له على كفره .

والواو فى (وَمَن كَفَرَ) عطف جملة من كلام الله على جملة من كلام إبراهيم ــ عليه السلام ــ وهى (مَنْ آمَنَ) عطف تلقين ؛ للإيجاز فى القول .

وقد أرشدت الآية : إلى أن الله يرزق الكافر فى الدنيا كما يرزق المؤمن ، وإن كان المؤمن أهلا لكل خير . فرزق الكافر لاستدراجه ، ولو حرم الله الكافرين من التوسعة فى الرزق فى الدنيا وخص بها المؤمنين ؛ لانساقوا إلى الإيمان قسرا . وقد قضت ــ حكمته ــ سبحانه أن يكون الإيمان اختياريا ، حتى يتجه إليه الإنسان ،عن طريق النظر فى آيات الله :التى يبصرها قوم ويعمى عنها آخرون . ووصف التمتع بالقلة ؛ لأن مدة الدنيا قليلة بالنسبة إلى الآخرة ، ولتعرض متعها إلى الزوال كل لحظة .

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾) .

المفردات :

(يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ) ، القواعد : الأسس ؛ جمع قاعدة . ورفعها : البناء عليها .

(أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ) : جماعة مستسلمة ومنقادة لك بالإيمان والعمل الصالح ، أو المراد بها : أمة دينُها الإسلام ، وهى أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(وأَرِنَا مَنَاسِكَنَا) : متعبداتنا فى الحج .

(رَسُولاً مِّنْهُمْ) : أى من أنفسهم ، ولم يبعث من ذريتهما فيهم غير محمد ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ .

(الْكِتَابَ) : القرآن .

(وَالْحِكْمَةَ) : وضع الأُمور فى مواضعها .

(وَيُزَكِّيهِمْ) : ويطهرهم من دنس الشرك والمعاصى .

(الْعَزِيزُ) : الغالب الذى لا يقهر .

(الْحَكِيمُ) : الذى لا يفعَل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة .

التفسير

١٢٧ ـ (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

واذكر يامحمد أيضا حين بنى إبراهيم فوق أسس الكعبة ، ورفعها هو وإسماعيل ابنه ، وهما يقولان داعيين : ربنا تقبل منا بناء هذا البيت :الذى سيكون قبلة ومطافا لعبادك ، إنك أنت وحدك دون سواك ، السميع دائما لأَقوالنا ، العليم فى كل حين بخفايا نياتنا .

١٢٨ ـ (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

يا ربنا ، وأضف إلى تفضلك بتقبل طاعتنا فى بناء الكعبة منا ، تفضلك بأَن تجعلنا منقادين دائما لك : لا نخالف أمرك ، ولا نعصى نهيك ، بحيث يكون قياد قلوبنا بيدك وحدك .

يا ربنا ، وأضف إلى ما تفضلت به : أن تجعل بعض ذريتنا جماعة مستسلمة ومنقادة لك . فى إيمانها وطاعتها ، لا للهوى والشيطان .

وعرفنا ياربنا أماكن حجنا ومذابح هدينا ،واقبل توبتنا وتوبة ذريتنا ، إنك أنت ـ لا سواك ـ مانح التوبة ، والمتفضل بقبولها وإن عظم الذنب وتعدد ، وأنت كثير الرحمة ، عظيم الإحسان .

فإن قيل : إن الأنبياء لا يعصون ربهم ، فما وجه طلب إبراهيم وإسماعيل من ربهما أن يتوب عليهما ؟ أى يقبل توبتهما :

فالجواب : أن ذلك محمول على هضم النفس ، أو على أن يتوب عليهما مما خالفا به الأولى ، أو فعلاه سهوا أو أفراد ذرياتهما .

١٢٩ - (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

يا ربنا ،وأتم على ذريتنا نعمتك :بأن تبعث فيهم رسولا منهم ، لا من غيرهم . يتحدث بلغتهم ويقرأ عليهم آياتك البينات ، ويعلمهم معانى القرآن وأسراره ، ويعلمهم الحكمة. أى وضع الأمور فى مواضعها ، ويطهرهم من دنس الشرك وقبيح العادات ، إنك أنت يارب - لا سواك - ، العزيز : الغالب الذى لا يقهر ، الحكيم : المدبر عن حكمة واتقان .

تفصيلات لبعض ما تقدم : لم نشأ أن نقطع على القارئ اتصال المعنى الإجمالى بشئ من التفصيلات وقد رأينا أن نأتى بما يلزم منها فيما يلى .

فى نداء إبراهيم وإسماعيل لله - سبحانه - بعنوان الربوبية لهما إذ يقولان : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) مظهر من مظاهر الخضوع والإجلال له - سبحانه - ، وقد أكد رجاءهما فى تقبله - تعالى - لدعائهما بقولهما : (إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فإن من كان هذا شأنه يتفضل بقبول عملنا الذى علم أننا أخلصناه لوجهه .

وبما أنهما مسلمان مخلصان له تعالى،يكون قولهما : (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) مرادا منه : أدم علينا نعمة هذا الإسلام لك :بامتثال أوامرك واجتناب نواهيك دائما . فالمسلم لا يطلب أن يجعل مسلما ؛ بل أن يدوم على إسلامه ، والمقصود من الإسلام فيما قالا : الخضوع والاستسلام إلى الله - تعالى - بتوحيده ، ونفى الشركاء والأولاد والزوجات عنه - تعالى - ، وغير ذلك من أمهات الفضائل :التى اشتركت فيها جميع الأديان ، إلى جانب ما اختصا به فى شريعتهما .

وما من شريعة إلا كان الغرض منها الإسلام لله أى الخضوع له فيما شرعه .

فالإسلام بهذا المعنى : هو دين الأنبياء جميعا ، وعليه قوله تعالى : « ما كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[1] » .

---

(١) آل عمران : ٦٧ .

وهذا يفيد : أن الإسلام الذى يدين به ، هو ما ليس فيه الشرك الذى تردى فيه اليهود والنصارى والوثنيون .

ويجب أن يعرف أن دين إبراهيم ، ليس مطابقا للإسلام فى فروع الشريعة ، بل فى أصولها وأصول العقائد .

فإن كل دين ، جاءت فيه فروع تناسب الأمة التى كلفت به .

وقد كان دين إبراهيم يسيرا فى شرائعه وأحكامه ، إذ جاء فى صحائف ، ولم يأت فى كتاب كبير ، كالإسلام واليهودية والنصرانية .

وقد امتاز الإسلام بأنه تناول كل فروع الحياة . وأعطاها الأحكام المناسبة لها . فكان - لذلك - صالحاً لكل زمان ومكان .

وقد طلب إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - من ربهما أن يجعل من ذريتهما جماعة مسلمة له - تعالى - ولم يعمما الذرية ، لما وقر فى نفسيهما . من أن بعضهم سيكونون كفارا ، لما عرفاه من طبائع البشر ، وسيرهم على هواهم ، وتنكرهم لشرائع رسلهم .

وخصّا ذريتهما بالدعاء ؛ لأنهم أحق بالشفقة ، والدعاء لهم بالصلاح مطلوب شرعا . ومعنى (وَتُبْ عَلَيْنَا) : وفقنا للتوبة او تقبل توبتنا .

والتوبة فى حق الأنبياء تكون من ترك ما هو الأولى ، أو من خطأ فى الاجتهاد .

وعلى هذا نحمل التوبة التى يسأل الأنبياء والمرسلون قبولها .

ولعل فى ذكر هذه الجملة هنا بعد قوله : (وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا) إرشادا إلى أن تلك المواضع ، أمكنة التخلص منَ الذنوب ، وطلب التوبة مما فات منها .

والغرض من قولهما : (إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) التوسل إلى قبول توبتهما . بما عرف من شأنه - تعالى - وهو : أنه كثير التوبة على عباده ، رحيم بهم .

وقد واصل إبراهيم وإسماعيل دعواتهما فقالا : (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ) أى فى ذريتهما (رَسُولاً مِنْهُمْ) وقد استجاب الله دعاءهما فبعث محمدا - صلى الله عليه وسلم - .

والرسول - فى عرف المتكلمين - إنسان ذكر حر ، أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه . فإن لم يؤمر بتبليغه كان نبيا فقط ، وليس برسول .

وسأل إبراهيم وإسماعيل أن يكون الرسول من الأمة ليكون أدعى إلى الاستجابة ؛ لمعرفتهم بحاله - فى نشأته - وبلسانه .

وسرّ الجمع بين الأمور الأربعة الواردة فى قوله تعالى : (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ

أن تلاوة الآيات وحفظها بألفاظها كما نزلت ، والتعرف على بلاغتها ، وروعة أساليبها ووجوه إعجازها ، - كل هذا - داعٍ إلى تفهم معانيها وتعقل مراميها .

فإذا جمع الإنسان بين التلاوة والفهم ، كان أحرى وأجدر بتقبل الحكمة النبوية التى ظهرت فى حياة الرسول العظيم - صلى الله عليه وسلم - قولا وعملا .

فإذا ما ارتقى إلى هذه الدرجة ، زاد خيره وعم نفعه وطهر قلبه ، وخلص لمولاه ، ونظفت جوارحه مما يغضب الله .

على أن الآية قد استوفت منابع الدين أصولا وفروعا .

فكل رأى لا يستند إلى الكتاب أو السنة - أو إلى أصل مستمد منهما على وجه معقول - فهو ردٌّ على صاحبه .

(وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾)

المفردات :

(وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ) : من اسم استفهام إنكارى بمعنى النفى ، ويرغب : يتعدى للمكروه بعن كما هنا ، فإنهم يكرهون ملته ، أى لا أحد ينصرف عنها لكراهته إياها ، ويتعدى للمحبوب بفى ، يقال رغب فى كذا : أى أحبه : والملة فى الأصل : الطريقة ، وغلب إطلاقها على الدين .

(سَفِهَ نَفْسَهُ) : امتهنها واستخف بها مثل سفَّه - بفتح الفاء مشددة - وأصل السفه الخفة ، فمن رغب عما يرغب فيه - وهو ملة إبراهيم - فقد بالغ فى امتهان نفسه وإهانتها ، والاستخفاف بها. وقيل : إن سفه مضمن معنى جهل ، أى فقد جهل نفسه أى : لم يفكر فيما ينفعها .

(اصْطَفَيْنَاهُ) : اخترناه للرسالة من بين سائر الخلق .

التفسير

١٣٠ - (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ . . .) الآية .

لا أحد يزهد فى دين إبراهيم إلا شخص امتهن نفسه واحتقرها ، لأن [illegible]

(وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) : ولقد اخترناه فى الدنيا لرسالتنا من بين الخلق ، وإنه فى الآخرة لفى عداد الصالحين :المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح ، المستحقين للفوز بأكرم الدرجات .

جاءت هذه الآية : تبين ضلال اليهود والنصارى والمشركين ، فى صدهم عن الإسلام ومحاربة محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن الآيات السابقة سيقت لبيان أن إبراهيم الذى يفخر مشركو العرب بانتسابهم إليه ، وتفخر اليهود والنصارى بأنهم من بنى إسرائيل الذى هو يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم ، إنما كانت شريعته على نمط الإسلام من : التوحيد ، والعقائد وأصول الأحكام .

وهؤلاء وأولئك بصدهم عن الإسلام : ومحاربتهم له قد رغبوا عن ملة إبراهيم إلى الشرك ، وادعاء الولدية له تعالى ، فاستحقوا أن يقول الله فيهم : إنهم سفهوا أنفسهم ، واحتقروها حيث وضعوها فى بؤرة الردة عن دينه الحق ،إلى الوثنية والشرك ، ووصف الله بما لا يليق به ، بدل أن يرفعوها إلى قمة الإسلام : دين إبراهيم الذى يدعون انتسابهم إليه ، والله هو الذى جمع له كرامتى الدنيا والآخرة ، فكان حريا أن يسيروا على منهاجه .

(إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾)

التفسير

١٣١ - (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ . . .) الآية .

المراد بالإسلام هنا أتم وجوهه .من إخلاص التوحيد لله ،وكمال الانقياد لأوامره ،واجتناب نواهيه ، فى كل حال .

(قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) : بادر إبراهيم إلى الامتثال ؛لكمال استقامته التى رفعته عند الله إلى المنزلة العليا ، وقال : أسلمت لرب العالمين ، ولم يقل : أسلمت لك ،

ليذكر الله بما يدل على عظم شأنه ، ويشير إلى أن من كان ربا للعالمين :لا يليق بأحد منهم ، إلا أن يتلقى أمره بالخضوع وحسن الطاعة . فهو إشارة إلى سبب الإخلاص لله .

١٣٢ - (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ . . .) الآية.

التوصية :إرشاد الغير إلى ما فيه صلاح وقربة ، ووصى أبلغ من أوصى لما فيها من معنى التكثير ، والضمير فى (بِهَا) يعود على «مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ» :أى وصى إبراهيم بنيه باتباعها.

ودلت هذه الآية ، على أن إبراهيم يجمع إلى كمال استقامته ، العمل على تكميل غيره ،وأن أحق من يسدى إليه النصح :البنون(وَيَعْقُوبُ) معطوف على إبراهيم ، أى وصى يعقوب أبناءه اتباعا لوصية جده إبراهيم قائلا : (يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ)وهو الإسلام.

وفى نداء الأبناء بلفظ البنوة المشعر بمكانتهم فى قلب الداعى ، وفى تأكيد الجملة بإنّ واسميتها ، وفى التعبير بلفظ الجلالة ، وإسناد الاصطفاء إلى ضميره ، وفى اختيار مادة اصطفى - ما يفيد تأكيد : أن دين الإسلام هو خير دين .

(فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

تفيد هذه الجملة :نهيه لهم عن أن يموتوا إلا وهم مسلمون ، وبما أن الموت ليس فى استطاعة أحد دفعه حتى ينهى المرء عنه ، فلذا يكون الغرض نهيهم عن التدين بدين غير الإسلام حتى لا يدركهم الموت وهم به كافرون .

(أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾)

المفردات :

(أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ) أم بمعنى : بل الانتقالية وهمزة الإنكار . أى : بل أكنتم . . ، (شُهَدَاءَ) : جمع شهيد بمعنى شاهد : أى حاضر .

(إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ) : وقت حضور علاماته ليعقوب .

(تِلْكَ أُمَّةٌ) : تلك جماعة . والإشارة راجعة إلى الأنبياء الثلاثة .

(قَدْ خَلَتْ) : مضت .

التفسير

١٣٣ - (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ . . .) الآية .

بعد توبيخ المخالفين لملة إبراهيم، بقوله تعالى : « وَمَن يَرْغَبُ . . . » الاية . وبعد بيان أن هذه الملة هى التى وَصَّى بها إبراهيم ويعقوب أبناءهما - جاءت هاتان الآيتان ، لإنكار افتراء أهل الكتاب على يعقوب ، أنه كان على ما هم عليه من التدين ، وبيان أن انتسابهم إلى آباء صالحين ، لا يغنى عنهم فتيلا .

والخطاب لأهل الكتاب من اليهود الذين زعموا :أن يعقوب أوصاهم-حينما أشرف على الموت-بالبقاء على يهوديتهم المحرفة ، القائلة : بأن لله ولدا ، وأنه شريك لأبيه . وحضور الموت :حصوله ،والمراد :حضور علاماته ،والإشراف عليه ، لأن الميت فعلا لايستطيع أن يوصى من حضره. وأم بمعنى : بل والهمزة ، وبل للإضراب الانتقالى ،من توبيخهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم :إلى توبيخهم على افترائهم على يعقوب- عليهما السلام - والهمزة لإنكارمشاهدتهم يعقوبَ عند احتضاره ، أى : بل ما كنتم حاضرين عند مشارفة الموت له،حتى تقولوا ماقلتم .

(إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى) : وجه يعقوب الوصية لبنيه فى صورة سؤال ، لبيان شدة اهتمامه بأمرهم ، وليطلب بسؤاله جوابا منهم :يعبر عن رسوخ إيمانهم ، وعقدهم النية على أن يخصوا الإله الحق بعبادتهم والاستفهام بـ (مَا) فى قول يعقوب لبنيه : (مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى) : لأنها تستعمل عند إبهام المسئول عنه لغرض،كما هنا ، حيث أراد ألا يرشدهم إلى الجواب،حتى ينبع هومن عقولهم دون إيحاء، كما تستعمل فى السؤال عن المجهول ، وإن دخل فيه العاقل والعالم ، فإن سئل عن عاقل بعينه استعملت مَنْ الخاصة به . أما غالب استعمالها - أى ما- فى السؤال عن غير العاقل ، وقد تستعمل فى السؤال عن وصف العاقل ، كقولك ما زيد ؟ أطبيب أم فقيه ؟

ويجوز أن يكون السؤال عن العبادة التى يتعبدون بها .

(قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا) .

كان يكفى فى جوابهم أن يقولوا نعبد الله ، ولكنهم أطنبوا وأسهبوا :اغتباطا وتمسكا بالحق ، وإيذانا بأنه عقيدة مشتركة بين الأنبياء الثلاثة كما هو عقيدته ، وليس أمرا مخترعا ، بل هو حقيقة الاتباع لإبراهيم وذريته ، وذكروا إسماعيل – عم يعقوب – فى جملة آبائه تجوزا ، وقدموه على أبيهم إسحاق لأنه أسنُّ منه ، وذكروا (إِلَٰهًا وَاحِدًا) : للتأكيد ، وللتلذذ بالإقرار بالوحدانية ، وأكدوا أيضا ، واستمتعوا بقولهم : (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) أى : مستمرون فى عبادته ، والتمسك بدين الإسلام.

١٣٤ – (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ . . .) الآية .

(تِلْكَ) : إشارة إلى إبراهيم وأبنائه الأنبياء ، وأنثت لتأنيث الخبر وهو (أُمَّةٌ) .

(خَلَتْ) : مضت وانقضت . والأُمَّة : الجماعة يجمعهم أمر واحد ، نحو الموطن أواللغة .

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ) ، الكسب : العمل لإصابةما فيه نفع . لفظ مقدر يقتضيه المعنى – والتقدير : لها جزاءُ ما كسبت ،ولكم جزاءُ ما كسبتم .

وحاصل المعنى : تلك جماعة من الأنبياء لها جزاءُ ما كسبت من التوحيد والإسلام لله ، ولكم جزاءُ ما كسبتم من الكفر والمعاصى .

(وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى : لايقع لكم سؤال عن أعمالهم . بل عن أعمالكم أنفسكم . فلا تنفعكم أعمالهم الصالحة وأنتم على نقيضها ، وإن كنتم من ذرياتهم ، فمن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . فاستقيموا على الإسلام الذى دعاكم إليه رسوله محمد . كما استقام أنبياؤكم عليه ،فإن أباكم إبراهيم وَصَّى به بنيه فقال : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ »

(وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾)

المفردات :

(حَنِيفاً): مائلا عن الباطل إلى الحق ، من الحنف بمعنى : الميل ، أو مستقيما من الحنف بمعنى : الاستقامة ، فهو يستعمل في المعنى وضده .

(الْأَسْبَاط) : جمع سبط وهو : ولد الولد ، من السبط وهو التتابع ، وكان ليعقوب إثنا عشر ولدا خرجت من كل منهم ذريات كثيرة ، أطلق على ذرية كل واحد : منهم سبط ، بالنسبة لجدهم يعقوب .

فالأسباط في بني إسرائيل ،قبائل يهودية ، تنتمي إلى أصل واحد، كالقبائل العربية ، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة ،كما قال تعالى : «وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا»[1] .

(بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ) أحد: اسم موضوع لمن يصلح للخطاب ، يستوى فيه المذكر والمؤنث . مفردا كان أو مثنى أو جمعا ، ولذا صح دخول (بَيْنَ) عليه[2] .

(فِي شِقَاقٍ) : الشقاق : الخلاف أو العداوة ، وكل تصح إرادته هنا .

(صِبْغَةَ اللهِ) :الصبغة في الأصل :الحالة التي يكون عليها الصبغ ،وهو تلوين الشيء بلون ما .

(١) الأعراف : ١٦٠ .

(٢) ومنه قوله — صلى الله عليه وسلم : « ما أحلت الغنائم لأحد سواد الرأس غيركم » .

وأطلقت فى الآية على الإيمان ، لأنه يتداخل فى القلوب تداخل الصبغ فى المصبوغ ، ويظهر أثره على المؤمن ، كما يظهر أثر الصبغ فى الثوب ، ويقال : تصبغ فلان فى الدين ، إذا أحسن دينه .

التفسير

١٣٥ - (وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

بعد أن بين الله - سبحانه - ضلال اليهود والنصارى - فى أنفسهم - بقوله حكاية عنهم : « لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى[1] » بين هنا إضلالهم لغيرهم ، بقولهم : (كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا) ثم أتبع ذلك الرد عليهم ، وفيما يلى بيان ذلك .

(وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا) .

حكت لنا هذه الجملة ، دعوة كل من اليهود والنصارى للمؤمنين ، إلى اتباع دينهم ، وزعمهم أنه الحق دون غيره . وليس المعنى أن كلا الفريقين قالوا ذلك على وجه التخيير ؛ بل المعنى : أن اليهود قالوا لهم : كونوا هودا تهتدوا ، والنصارى قالوا لهم : كونوا نصارى تهتدوا .

ويساعد على إفادة هذا المعنى - باللفظ الموجز - ما هو معروف ، من أن كل فريق منهما يدعى أن ديانة الآخر باطلة .

(قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) الخطاب للنبى - صلى الله عليه وسلم - و (بَلْ) : إبطال لما ادعاه كل من الفريقين . و (مِلَّةَ) : منصوب بفعل مقدر تقديره : نتبع . و (حَنِيفاً) : حال من إبراهيم ملازمة له .

والمعنى قل يا محمد : بل نتبع ملة إبراهيم مستقيما دائما على الحق .

وهذا يشير إلى أن اليهودية والنصرانية - بعد تحريفهما - غير مستقيمتين ، وأن ملة إبراهيم - وهى الإسلام الذى نحن عليه - أولى بالاتباع من الملل المعوجة .

وقوله تعالى : (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) نفى عن إبراهيم أن يكون مشركا ، وعرض بإشراك جميع الكافرين : الذين يفخرون بانتسابهم إلى إبراهيم ، ويدعون أنهم على ملته . فكفار العرب عبدوا الأصنام واقترفوا كثيرا من النقائص .

---

(١) الآية ١١١ - من هذه السورة

واليهود قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، وغير ذلك من القبائح. فكأنه يقول لهم : بل أنتم المشركون .

١٣٦ - (قولوا آمَنَّا بالله . . .) الآية

الخطاب للأمة الإسلامية جمعاء ، والإيمان بالله تصديق جازم بما اختص به - سبحانه - من صفات الكمال : تصديقا قائما على النظر فى أسرار الكون ، والانتباه إلى مايلقاه الإنسان فى حياته ؛ من رعاية الله ولطفه ، وغير ذلك من عظائم خلقه وحكمته .

(وَما أُنْزِلَ إِلَيْنَا) : وآمنا بالقرآن الذى أنزله الله إلينا ؛ لنعمل بما كلفنا الله فيه .

(وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاق وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ) المراد بما أنزل إليهم : الصحف التى أنزلها الله إلى إبراهيم ، المشار إليها بقوله تعالى : « إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى [١] » وصح نسبة إنزالها إلى الأنبياء الثلاثة من بعده ، ثم الأسباط ، مع أنها أنزلت على إبراهيم خاصة ؛ لأنهم مأمورون باتباعها ، والتعبد بما فيها والدعوة إليها .

(وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى) : وآمنَّا بما أعطى موسى وهو التوراة ، وبما أعطى عيسى وهو الإنجيل . وعطف عيسى على موسى دون تكرير الفعل ؛ لأن عيسى جاء مصدقا لما فى التوراة ، عاملا بما فيها ، مع نسخ أحكام يسيرة منها ، كما قال تعالى : « وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيكُم [٢] » ، فكأن ما أوتيه النبيان شىء واحد .

(وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنَ رَّبِّهِم) وآمنا بما أعطى النبيون جميعا من عند ربهم ، وهذا تعميم بعد تخصيص ، وتخصيص المنزل إلى إبراهيم ومن تبعه ؛ لأن من دخلوا فى هذه المحاجة من اليهود والنصارى والمشركين ؛ يدعون الانتساب إليه . وتخصيص موسى وعيسى لما مر قريبا : من أن اليهود والنصارى ، دعوا المسلمين إلى اتباع اليهودية أو المسيحية ، وترك الإسلام . وقدم الإيمان بالله ؛ لأن ما بعده متوقف عليه . وقدم : (مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا) لأن الإيمان به واجب على وجه التفصيل ، والإيمان ببقية الكتب يكفى على وجه الإجمال ، ولأنه مصدق للكتب السابقة وَمُهَيمِنٌ عليها .

---

(١) الأعلى : ١٨ ، ١٩ . (٢) آل عمران . ٥

(لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُم) التفرقة : جعل الشيء مفارقا لآخر ، وأحد هنا بمعنى : جماعة ؛ لأن بَيْنَ لا تدخل إلا على متعدد .

والمعنى : لا نفرّق بين جماعة من النبيين ،فَنؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ، كما فعل اليهود.

وقيل : إن فى الكلام معطوفا مقدرا لظهوره ، أى لا نفرق بين أحد منهم ، وبين غيره كما فى قول النابغة :

فما كان بين الخير لو جاء سالما   أبو حجر إلا ليال قلائل

أى بين الخير وبينى .

وهذا التعبير أبلغ من قولك :لانفرق بينهم ؛ لما فيه من الدلالة ـ صراحة ـ على عدم التفريق بين كل فرد منهم وبين من عاداه ،كائنا من كان .

وفيه تعريض باليهود إذ آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد .

وتعريض بالنصارى ؛ لكفرهم بمحمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ

(وَنَحنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) : وقولوا ـ أيضا ـ ونحن لله مسلمون خاضعون بالطاعة .

ومن جمال التعبير : أن هذه الآية ، ابتدأت بالإيمان الذى هو فعل القلب ، واختتمت بالإسلام الذى هو فعل الجوارح .

١٣٧ ـ (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا . . .) الآية .

الفاء فى قوله تعالى : (فَإِنْ آمَنُوا) لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، وسيأتى نظم هذا الترتيب فى ذكر المعنى .

وظاهر الآية مشكل ؛ لأنه يقتضى أن يكون لله مثل ، ولو آمنوا بهذا المثْل لاهتدوا ، وذلك لا يصح ، فالله ـ تعالى ـ منزه عن المثل ، فلا اهتداء إلا بالإيمان به وحده .

ولهذا ذهب المفسرون فى تأويلها عدة مذاهب ، نذكر منها رأيين :

(أحدهما) أن (مِثْلَ) صلة جاءت لمجرد التوكيد ، ولم يقصد معناها وهى (المثلية) ، كما هى فى قوله تعالى : « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِى إسرَائيل عَلَى مِثْله [1] » أى عليه ـ وأُيِّدَ بقراءة ابن مسعود

(١) الأحقاف : ١٠ .

وابن عباس « فَإِنْ آمَنُوا بِمَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا » بحذف كلمة (مثل) :

(والرأى الثانى) ـ وهو الذى نختاره ـ أن :(مثل)، ليست صلة (أى ليست زائدة للتوكيد) وأن الباء فى قوله (بِمِثْلِ) للاستعانة ، وأن المعنى : فإن دخلوا فى الإيمان بوساطة شهادة مثل الشهادة التى ثبت لكم الإيمان بموجبها ـ فقد اهتدوا ، والمراد بهذه الشهادة : ما مر فى الآية قبلها .

وحاصل معنى الآيتين على هذا التأويل : قولوا ، أيها المؤمنون : آمنا بالله وما أنزل إلينا فى القرآن ، وما أنزل إلى إبراهيم وذرياته من الأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مخلصون . فإن ترتب على هذا البيان الشامل لما عند أهل الكتاب وما عندكم : أنهم دخلوا فى الإيمان ـ بسبب اعتراف وشهادة مثل الشهادة التى ثبت لكم الإيمان بموجبها ـ فقد اهتدوا إلى الحق .

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ) أى : وإن أعرضوا عن الدخول فى الإيمان بهذا الاعتراف ، وفرقوا بين الرسل ، فآمنوا ببعض ، ولم يخلصوا لله ـ فما هم إلا غارقون فى خلاف وعداوة ، وليسوا طلاب حق .

وسمى الخلاف شقاقا ؛ لأن أحد المختلفين يأخذ فى شق غير شق صاحبه : صورة أو معنى .

(فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ) : يكفى من الكفاية بمعنى الوقاية .

والمعنى : فسيقيك الله شرهم ، أو بمعنى الإغناء ، والمعنى : فسيغنيك الله عن مقاومتهم وتصدير الفعل بالسين دون سوف ، للإشعار بأن ظهوره عليهم سيتم فى زمن قريب من نزول الآية .

وقد أنجز الله وعده بتفريق كلمتهم ، وقتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير ، وغير ذلك مما حاق بباقى اليهود ، وكل ذلك بفضل الله .

(وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) إيراد وَصْفَيِ : (السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) بعد وعد الله نبيه بالنصر فى قوله : (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ) إنما يشعر : بأنه محيط بمكرهم ومحبطه ، فلن يأخذوا رسوله على غرة .

١٣٨ - (صِبْغَةَ اللهِ . . .) الآية .

صِبْغَةَ مصدر مؤكد لفعل من معناه وهو قوله السابق : (آمَنَّا بِاللهِ) وكأنهم قالوا : صبغنا الله صبغته .

والصبغة : الحالة التى يكون عليها الصبغ ، عبر بها عن الإيمان على الوجه الذى مضى فى الآيات ؛ لأنه يظهر أثره على المؤمن ، ظهورَ لون الصبغ على المصبوغ ، ويتداخل فى قلوبهم ، تداخلَه فى نسيج الثوب .

فالكلام من الصور البلاغية على سبيل الاستعارة .

ويجوز أن تكون فيه مشاكلة تقديرية لما يصنعه النصارى ، من صبغهم أولادهم بماء أصفر يسمونه : المعمودية ، يزعمون أنه يطهر المولود .

والمراد من الآية على هذا : أن دين الله الإسلام ، هو الذى يطهر من الآثام دون سواه .

و (مَنْ) فى قوله : (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً) للاستفهام الإنكارى ، فهى بمعنى النفى .

والتفضيل فى المعنى جار بين صبغة الله وصبغة غيره ؛ لا بينه - تعالى - وبين غيره فى الصبغة ، والمعنى : لا صبغة أحسن من صبغة الله ؛ أى لا دين أحسن من دين الله ، الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وكما أنه لا دين أحسن من دينه ، فلا دين يساويه فى الحسن أيضا . فإنه لا يوجد حسن فى غيره من الأديان ، بعد أن تجاوزت الحق فى شأنه وشأن رسوله كما مر فى الآيات .

وهذا الأسلوب - وإن كان ظاهره نفى الدين الأحسن من دين الله - فإنه فى الاستعمال العربى ، نفى لما يساويه فى الحسن أيضا ، فأفعل التفضيل فيه على غير بابه .

(وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) أى : ونحن - لله الذى أعطانا هذه النعمة - عابدون ؛ شكرا له عليها وعلى سائر نعمه .

(قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾)

المفردات :

(أَتُحَاجُّونَنَا) : أتجادلوننا . فصيغة المفاعلة اعتبارية ، فكأن كلاً من المتجادلين يأتى بحجة يدحض بها قول خصمه .

(وَالْأَسْبَاط) : هم أولاد يعقوب . والمراد بهم هنا ، أنبياؤهم .

(وما الله بِغَافِلٍ) : أى وما الله بساه ؛ بل هو عالم .

التفسير

١٣٩ - (قُلْ أَتُحاجُّونَنَا فِى اللهِ . . .) الآية .

الخطاب بقُلْ للنبى - صلى الله عليه وسلم - والمراد من المحاجة فى الله : المجادلة فى دينه .

ذلك أن اليهود والنصارى : يدّعون أن الدين الحق هو دينهم ، وأن الجنة لن يدخلها سواهم ؛ كما تقدم قريبا . والاستفهام هنا للإنكار .

(وهُو ربُّنَا وربُّكُمْ) الرب : الخالق المربى لعباده بنعمه . والمعنى : لا وجه لتفضيلكم أنفسكم علينا ، فنحن - وأنتم فى العبودية لله - سواءٌ ؛ فكيف تحرموننا من فضله ؟

(وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُم أَعْمَالُكُم) أى :ولنا أعمالنا الحسنة ،ولكم أعمالكم السيئة ،كما يستفاد ذلك من التعقيب بقوله :

(وَنَحنُ لهُ مُخْلِصُونَ) والإخلاص : هو أن يقصد بالعمل وجه الله وحده . وهؤلاء لم يخلصوا أعمالهم لله . فقد عبدوا عزيرا وعيسى ـ عليهما السلام ـ فأنّى لهم دخول الجنة بأعمال أشركوا فيها :

ولم توصف أعمال المسلمين بالحسن ، وأعمال سواهم بالسوء ؛ تجنبا لنفور المخاطبين ، وا كتفاء بالتعريض اللطيف : الذى توحى به جملة (وَنَحنُ لَهُ مُخلصُونَ) .

١٤٠ ـ (أَم تَقولونَ إنَّ إبرَاهِيمَ وَإسمَاعِيلَ وَإسْحَاقَ ويَعْقوبَ وَالأَسبَاطَ كَانُوا هُودًا أَو نَصَارَى . . .) الآية .

أم : منقطعة ، بمعنى بل وهمزة الإنكار ، والآية مسوقة لإنكار قول اليهود : إن الأنبياء السابقين ، كانوا على دينهم ، وقول النصارى : إنهم كانوا نصارى مثلهم ، أى : لا يقل أحد منكم هذا القول الباطل ، وقد أمر الله فيها نبيَّه أن ينكر عليهم ويُبَكّتهم فيقول :

(قُل ءَأَنتُم أَعلَمُ أَمِ اللهُ) : فالهمزة للاستفهام الإنكارى التوبيخى ، وأعلم : أفعل تفضيل ، والتفضيل على سبيل الاستهزاء ، إذ المقصود أنهم لا علم عندهم ، والمعنى : أن ما زعمتوه هو على خلاف ما يعلمه الله : فأنتم تقولون : إنهم كانوا على يهوديتكم أو نصرانيتكم ، والله يقول :

(يٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إبرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إلَّا مِنْ بَعدِهِ[1]) فكيف يكون على دينكم وأنتم بعده ؟ والحق أنه كان حنيفا مسلما ، أى : على المبادىء التى أقرها الإسلام ، وأهمها : التوحيد ، وعدم اتخاذ الولد .

ولذا صح أن يقول الله فى شأنه « مَا كَانَ إبرَاهِيمُ يهُودِيًّا وَلَا نَصرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسلِما وَمَا كانَ مِنَ الْمُشرِكِينَ[2] » .

(١) آل عمران : ٦٥

(٢) آل عمران : ٦٧

أى إن إبراهيم ، لم يكن على طريقة اليهود والنصارى، فى زعمهم : أن لله ولدا . وغير ذلك من أكاذيبهم . ولم يكن على طريقة من أشرك بالله ، بل كان حنيفا مائلا عن الباطل إلى سنة الإسلام من التوحيد ونظافة العقيدة ، وأبناؤه الذين ذكرتموهم كانوا على دين أبيهم . فهل أنتم أعلم بديانتهم من الله ؟

الله هو الذى يعلم . أما أنتم فتجادلون بالباطل .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ) .

الشهادة : هى شهادة الله : أن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، بل كان حنيفا مسلما .

وقد شهد الله بذلك فى كتابى اليهود والنصارى — التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ — وهم يعلمون ذلك ، وقد كتموا الشهادة بذلك فى جدلهم مع النبى — صلى الله عليه وسلم — ، وادعى كل من الطائفتين : أنه كان على دينه ، فأنكر الله عليهم كتمان الحق الذى شهد به الله ، فقال ما معناه : لا أحد أظلم ممن كتم شهادة ثابتة عنده فى كتابه ، منزلةً من الله ، حين زعم أن إبراهيم كان على دينه . مع ما فيه من شرك بالله . واتخاذ ولد له سبحانه ، والحق أنه لم يكن كذلك ، بل كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين .

وكما أنه لا أظلم ممن ادعى ذلك ، فكذلك لا يساويه أحد فى الظلم .

ويجوز أن تكون هذه الشهادة هى ما جاء عنه فى القرآن : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا .. » الآية .

والمعنى : أن محمدا أدى شهادة عنده — فى القرآن من الله — عن إبراهيم بأنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، بل كان حنيفا مسلما ، ولم يكن يسعه كتمانها فإنه لا أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، فلماذا كَتَمتُمُوهَا ولم تؤدوها كما أداها محمد — صلى الله عليه وسلم — ؟ وعلى كل ، فى عموم الآية تعريض بكتمانهم شهادته تعالى بنبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — فى كتابهم ، وسائرَ شهاداته .

(وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) : الغافل : هو الذى لا يفطن للأمور . مأخوذ من قولهم : أرض غفل ، أى : لَا عَلَمَ بها ، ولا أثر عمارة . والغفلة : السهو والإهمال .

والحكمةُ فى اختيار طريق نفى الغفلة لإثبات عدم الترك : أن نفى نقيض الصفة أبلغ فى إثباتها من الإثبات نفسه ، لأنه يستلزم إثبات الصفة إلى جانب نفى النقيض . لأن المقام للتهديد والوعيد .

والمعنى : أن الله مُحصٍ أعمالكم ، محيط بها ، لا تخفى عليه خافية . ولن يترك أموركم دون عقوبة ، وبخاصة إذا كانت بالغة السوء ، ككتمان ما أنزل الله .

١٤١ - (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

الأمة المشار إليها فى الآية : إبراهيم وأبناؤه الرسل وقد وردت هذه الآية آنفا : فى ختام دحض مزاعم ومفتريات أهل الكتاب ، وتكررت هنا ؛ للمبالغة فى تحذيرهم من تركهم لدين الإسلام الذى كلفوا به ، وادعائهم أنهم على دين آبائهم الأنبياء

وكأن الآية تقول لهم : إن أمامكم دينا دعيتم إلى اتباعه ، واقترنت دعوته بالحجة الواضحة . فانظروا فى دلائل صحته وسمو حكمته ، ولا تردوه بمجرد دعوى : أن آباءكم الأنبياء السابقين ، كانوا على ما أنتم عليه الآن ، فإن دعواكم هذه لا تفيد ، ولو فرضنا تَسْلِيمَهَا لكم ؛ فإن الشرائع تختلف باختلاف الأمم ، فتلك أمة مضت . لها عملها وفق شريعتها ، وهذه أمة أخرى : لها عملها حسب شريعتها ، ولا تُسألون عن أعمال آبائكم وشريعتهم ، بل عن أعمالكم أنتم ، وفق شريعتكم التى شرعها الله لكم . وهى الإسلام ، فلا تتمسكوا بشريعة كانت لمن قبلكم ، بل تمسكوا بشريعة الإسلام التى نسختها ، وقام الدليل على صحتها ، وقد تعبدكم الله بها .



رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/٧٣


الأزهر
مطبعة المصحف الشريف



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الثالث

الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

القاهرة

١٩٧٣

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ .

المفردات :

(ٱلسُّفَهَآءُ) : خفاف العقول ، أو الجهلاء .

(مَا وَلَّاهُمْ) : ماصَرَفهم .

(صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : طريق قويم ، لا عوج فيه . والمراد به هنا : طريق الحق .

التفسير

١٤٢ ـ (سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا . . . الآية .

روى البخارى فى صحيحه ، عن البراء : « أن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان أول ماقدم المدينة ، صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا ، أو سبعة عشر شهرًا ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت ، وأنه صلَّى أول صلاة صلاها [1] صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان صلَّى معه ، فمر على أهل مسجد وهم راكعون [2] ، فقال : أشهد بالله ، لقد صليت مع النبى – صلى الله عليه وسلم – قِبَلَ مكة ، فداروا كما هم قِبَلَ البيت » .

وفى رواية ابن إسحاق ، وغيره ، عنه ، زيادة : فأنزل الله – تعالى – : (سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلَّاهُمْ عن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا . . .) الآية

ذهب الإمام الزمخشرى وغيره من المفسرين ، إلى أن الله – سبحانه – أخبر بما سيقوله السفهاءُ قبل وقوعه ؛ ليكون وقعه خفيفا على قلوب المسلمين عند حدوثه ؛ لأن مفاجأة المكروه

---

(١) أى جهة البيت ، كما سيأتى .

(٢) أى فى العصر .

أشد ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع ، لما يتقدمه من توطين النفس ، وأن الجواب العتيد [1] قبل الحاجة إليه أقطع للخصم ، وأردُّ لشغبه ، - وفى هذا - أيضا - إعجاز قرآنى ، للإخبار بالغيب قبل وقوعه .

وذهب القرطبي وغيره : إلى أن الفعل : (سَيَقُولُ) ، بمعنى : قال ، وأن الآية الكريمة أوردت الماضى بصيغة المستقبل ، دلالة على استمرار ذلك القول وتجدده .

والسفهاءُ المتسائلون عن تحويل القبلة هم اليهود ، كما ذكر ابن عباس ، أو المشركون كما ذكر الحسن ، أو المنافقون ، كما ذكر السُّدِّىّ . . .

قال الراغب : ولا تنافى بين أقوالهم ، فكلٌّ قد عابوا ، وكلٌّ سفهاء .

وقد تناولت الآيات السابقة : أن أهل الكتاب سفهوا على ملة إبراهيم - عليه السلام - فإنهم علموا الحق ، وكتموه ، « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ » [2] ، وجاءت هذه الآية الكريمة ، لتذكر لونا آخر من ألوان سفههم ، وسَفَهِ من ماثلهم من المشركين والمنافقين .

والتعبير بقوله (السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ) للإيذان بأنهم انفردوا من بين الناس بالحمق والجهل .

أما غيرهم من المؤمنين فقد كملهم الله بالعقل ، فاطمأنوا لحكمة الله فى تحويل القبلة .

مضمون الآية : أن الله - تعالى - سيستجيب لكم ، ويوليكم قبلة ترضونها ، وهى البيت الحرام ، وسيقول السفهاء حينئذ : ما الذى جعل المسلمين يتجهون إلى البيت الحرام ، وينصرفون عن بيت المقدس ؟ .

وَقَدْ لَقَّن الله رسوله الإجابة على ذلك ، بأن الله - تعالى - ليس محدودا بمكان أو زمان فقال : (قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) : ومن كان له المشرق والمغرب ، فله الأرض كلها . فكل مكان منها مشرق عند قوم ، مغرب عند آخرين ، وإذا كانت الأرض كلها لله ، فله - سبحانه - أن يختار منها ما يشاء ، ليكون قبلة لكم ، تتجهون إليها فى العبادة .

---

(١) العتيد : المهيأ والمعد .

(٢) البقرة : ١٤٠ .

إن قيل : ما الحكمة فى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، مع أن الله يقول : « قُل لِلَّهِ الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ » ، ويقول : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » فلماذا لم تبق إلى بيت المقدس عملا بالآيتين المذكورتين . فكما ينطبقان على الكعبة ، ينطبقان على بيت المقدس وسواهما ؟

فالجواب من نواحٍ ثلاث: الأولى : أن الحكمة فيه مذكورة فى الآية التالية، فى قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ . . . » الآية ، وسيأتى بيانها .

والثانية :أن الكعبة كانت قبلة لإبراهيم - عليه السلام - والنبى والمؤمنون أولى الناس باتباعه . قال تعالى: « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمنوا.. »[1] الآية .

والثالثة : أن فى التحويل إليها تأليفا لقلوب قريش ومشركى العرب : الذين يقدسون الكعبة ، ويسوؤهم الانصراف عنها .

(يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : أى يرشد مَن يشاء إرشاده إلى طريق مستقيم يوصل إلى سعادة الدارين . وقد هدانا إليه أولا ، حينما أمرنا باستقبال بيت المقدس : قبلة النبيين ، ثم هدانا إليه آخرا ، حينما أمرنا باستقبال الكعبة ، قبلة أبينا إبراهيم ، وفى كلٍّ خير ورشاد

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾) .

---

(١) آل عمران : ٦٨ .

المفـردات :

(وَسطًا) : خيارا عدولا . فقد روى الترمذى : أن النبى – صلى الله عليه وسلم – ذكر فى قوله تعالى : (أُمَّةً وَسَطًا) قال : الوسط : العدل . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وفى التنزيل : « قَالَ أَوْسَطُهُمْ »(١) : أى أعْدَلُهم وخيرُهم . والصلاة الوسطى هى : الفضلى .

(يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) العقب : مؤخر الرجل ، ومعنى (يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) : يرجع إلى الخلف. والمقصود : أنه يرتد عن دينه .

التفسير

١٤٣ – (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . . .) الآية .

هذا خطاب من الله للمؤمنين ، لتشريفهم بوصفهم بالعدالة ؛ ليكونوا شهداء على الناس ، بعدما وصف الكفار والمنافقين بالسفه والاستهزاء على تحويل القبلة . وبضدها تتميز الأشياء .

أى وكما هديناكم أيها المؤمنون إلى صراطٍ مستقيم ،بتوليتكم القبلة التى ترضونها ، جعلناكم عدولا أخيارًا ، تضُمّون إلى الإيمان العلم والعمل ، فكنتم – بذلك – خير أمة أخرجت للناس .

(لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) بأن الرسل بلغوهم عن الله ، ونصحوهم ، ولم تَعُدْ لهم حجة على الله بعد مجيء الرسل ، وإنما يشهدون بذلك وهم لم يروا شيئًا ، لأنهم يشهدون اعتمادا على شهادة القرآن ، والقرآن كلام الله ، فهم يشهدون بشهادة الله تعالى .

(وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) : بأن ماقلتموه هو الحق ؛ لأن المصدر واحد للجميع ، وهو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وفى هذا المعنى يروى الإمام البخارى ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « يُدعَى نوح – عليه السلام – يوم القيامة ، فيقول : لبيك وسعديك

---

(١) القلم : ٢٨ .

يارب ، فيقول : هل بلّغت ؟ فيقول : نعم ، فيقال لأُمته : هل بلغكم ؟ . فيقولون : ماأتانا من نذير ، فيقول ، من يشهد لك . ؟ . فيقول : محمد وأُمته ، فيشهدون أنه قد بلّغ ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، فذلك قوله عزّ وجلّ : (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . . . .) الآية .

وقد جاء فى رواية أحمد وغيره : أنه – تعالى – يستشهد أمة محمد على تبليغ سائر الأنبياء لأُممهم ، ولا تقتصر شهادتهم على نوح : الذى ورد إفراده بالشهادة فى رواية البخارى المذكورة .

(وعلَى) فى قوله : (عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) بمعنى اللام ، كما قاله القرطبى ؛ أى ويكون الرسول لكم شهيدا ، أو للمشاكلة بين قوله :(لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) ، وقوله : (وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

ثم تحول الخطاب للأُمة – من قوله – تعالى – لهم:(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ...) الآية – إلى خطاب الرسول ، بقوله – تعالى – : (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ) . للإيذان بأن خطابه خطاب لهم ، وأنه كان معهم فيما كانوا فيه من استقبال بيت المقدس : لم ينفرد عنهم .

والمعنى : وما جعلنا قبلتك الأُولى – بيت المقدس – ثم حولناك عنها ، إلى البيت الحرام ، إلا لنميز من يتبعك – فى كلتيهما – ممن ينصرف عن اتباعك ، فإن اتّباع الرسول – ولو كان فيما تكرهه النفس – من آثار الإيمان والتسليم لمن هو أعلم بالحكمة ، وهو الله – تعالى –

فالحكمة فى تحويل القبلة : تمييز الصادق فى الإيمان عن غيره .

وقد ظهر أثر ذلك بارتداد بعض أهل الكتاب الذين أسلموا عن الإيمان ، بعد تحويل القبلة إلى الكعبة ، وجعلوا يرجفون مع بعضهم قائلين : (مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا) .

والله – سبحانه – يعلم ما كان وما يكون .

فالمراد بالعلم هنا : التمييز بالاتباع الفعلى .

والارتداد على العقبين ، هو : الرجوع إلى الخلف ، وهو تمثيل للارتداد عن الإسلام ومخالفة أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لما فى كليهما من أسوء حالات العود والارتداد .

(وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ....) الآية .

أى وإن كانت التولية إلى الكعبة لكبيرة ، أى ثقيلة الوقع على النفوس ، لما فى مخالفة المألوف من مشقة . ولكن الأمر يسيرٌ على من هداهم الله ؛ لأن القضية عندهم ، قضية طاعة الله ورسوله ، وليست الاستمساك بعادة مألوفة ، أو تفضيل جهة على غيرها من الجهات . قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [(١)] .

(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) :

جاء فى حديث رواه البخارى عن البراء بن عازب ، قوله : وكان الذى مات على القبلة - قبل أن تحول إلى البيت - رجالاً قتلوا ، لم ندر ما نقول فيهم ! فأنزل الله - عز وجل - قوله : (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) .

وأخرج الترمذى عن ابن عباس ، قال : لما وجه النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الكعبة قالوا : يارسول الله : كيف بإخواننا الذين ماتوا ، وهم يصلون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله - تعالى - : (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

والمعنى : وما كان الله ليُضيع صلاتكم إلى بيت المقدس قبل نسخ التوجه إليه ، بل سيثيبكم عليها ، لأنها كانت - حينئذ - إلى قبلة مشروعة .

واذا لم ننظر إلى سبب النزول ، كان المعنى : وما صح ولا استقام : أن الله - سبحانه - يُضيع إيمانكم وثباتكم على طاعة الله ورسوله ، فى الاتجاه - أولا - إلى بيت المقدس ، ثم فى الاتجاه - ثانيا - إلى البيت الحرام .

(إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) : تعليل للجملة السابقة ، مؤكد بإن واللام ، يعنى : أن الله - سبحانه - يشمل الناس برأفته ورحمته ، وبخاصة عباده المؤمنين الطائعين ؛ فلهذا لا يضيع إيمانهم .

---

(١) الأحزاب : ٣٦ .

والرأفة : نوع من الرحمة ، تختص بدفع المكروه ، وتخفيف النكبات والعقوبات . أما الرحمة : فتشمل هذا وغيره من أنواع التفضل والإنعام ، وتعمُّ كلتاهما الإنسان والحيوان .

ولما كان دفع الضرر مقدما على جلب النفع ؛ فلهذا سبق هنا ذكر الرأفة ، كما ورد فى قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا فى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً . . . . »[1] .

(قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾) .

المفـردات :

(تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فى السَّمَاء) : ترددوجهك ، وتطلعك إلى السماء .

(شَطْرَ) : جهة ، وناحية .

(وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ) : فى أى مكان وُجدتم .

(فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا) : أى فلنمكننك من استقبالها ، من قولك : وليته كذا إذا صيَّرته واليًا له ، أو لنحولنَّك إليها .

(فَوَلِّ وَجْهَكَ شطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) : أى فاصرفه نَحوه .

التفسير

١٤٤ - (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاء . . .) الآية .

المعنى : قد رأيناك تتجه بوجهك إلى السماء دائمًا ، تصرفه فى أرجائها ، مرددًا بصرك فى ضراعةٍ ، ورجاء ، تطلعًا للوحى ، بتحويلِ القبلة إلى الكعبة .

---

(١) الحديد : ٢٧ .

و (قَدْ) هنا للتحقيق ، وعبر بالمضارع : (نَرَى) : استحضارًا للصورة الماضية ، أو إيذانًا بتعدد الرؤية ، حسب تجدد تقلب وجهه - صلى الله عليه وسلم - .

(فلنُوَلِّيَنَّكَ قبْلَةً تَرْضَاهَا) · استجبنا لرجائك ، فلنحولنَّك إلى القبلة التى تحبُّها وهى الكعبة . والتأكيد باللام والنون ، يفيد أنَّ هذا الوعد الكريم لابد من حصوله .

وارتضاء النبى للقبلة : حُبُّه لها ؛ لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله وحكمته .

والتعبير عن الوعد بتحويل القبلة بهذا الأسلوب ، فيه من تكريم النبى - صَلَّى الله عليهِ وسلم - مالا غاية وراءه .

وقد عقب الوعد بالتنجيز ، فقال :

(فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) : أى فاصرفه نحوه لوجود الكعبة فيه . والمراد بالحرام : المحرَّم ، لأن القتال فيه محرم .

والتعبيرُ عن الكعبة بالمسجد الحرام : إشارةٌ إلى أنَّ الواجبَ هو مراعاة الجهة .

روى ابن ماجه ، والحاكم والدارقطنى ، عن النبى - صَلَّى الله عليه وسلم - أنَّه قال : « مابين المشرقِ والمغربِ قِبلة » . .

وروى البيهقى ، أنه - عليه الصلاة والسلام - قال : « البيت قبلة المسجد . والمسجد قبلة لأهل الحرم . والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى » .

(وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) : توجيه الأمر للأمة بعد توجيهه للنبى - صَلَّى الله عليهِ وسلم - لِئلا يلتبس الحكمُ على المسلمين ؛ فيظنوا أنَّ الأمر خاص به وحده - عليه السلام - أى وفى أى مكانٍ من الأرض وجدتم ، فاصرفوا وجوهكم فى الصلاة نحو المسجد الحرام .

وفى الآية إشعار بانتشار الإسلام فى بقاع الأرض ، وأن المسلمين سيفتحُ الله عليهم البلادَ ، وأنَّ عليهم - حيثما كانوا - أن يتجهوا فى صلاتهم نحو المسجد الحرام .

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) : المقصود بالذين أوتوا الكتاب هنا : الذين اعترضوا وشنعوا على المؤمنين حينما انصرفوا عن استقبال بيت

المقدس قبلتهم إلى استقبال الكعبة ، كما مرَّ فى سبب النزول ، وهم الذين نزل فيهم الوعيد الآتى .

والمعنى : وإن الذين أُوتوا الكتاب ، وأثاروا الفتنة فى شأن تحويل القبلة ، ليعلمون يقينًا أنَّ تحويلَها هو الحق من ربهم ، وأنه منزل من الله ، فما بالهم يثيرون الفتنة بشأْنه ؟ فهم يعلمون من كتبهم : أنَّ لكل دينٍ قبْلةً ، وأنك صادق لا تنطق إلا بالحق الذى يصدر عن ربهم . وكما يعلم اليهود ذلك من كتابهم ، يعلمه النصارى من كتابهم أيضا .

والآية مؤكدة بعدة مؤكدات ، هى : إنَّ وأنَّ واللام ، وذكر الحق ونسبته إلى الرب ــ سبحانه ــ ؛ لتقرير أنه وحى من الله .

(وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) : أى أن الله لا يخفى عليه مايدبره أهلُ الكتاب ، من الكيد للإسلام ، وسيحاسبهم عليه حسابًا عسيرًا ، لأَنهم يعلمون الحق ، ويكتمون مايعلمون

هذا ، وفى قراءةٍ (تَعْمَلُونَ) . والخطاب للمسلمين الذين يستمعون إلى أقوالهم ويتأَثرون بها ، فيكون ــ على كلا المعنيين ــ إنذارًا من الله للمحرِّفين والمنحرفين .

ومن هذا يُسْتَنْبَط : أنَّ الإصغاء للأَراجيفِ والشائعاتِ الضارة ، لا يحل للمسلمين .

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾) .

المفـردات :

(آية) : الآية : المعجزة ، أو الدليل القطعى .

التفسير

١٤٥ - (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ . . .) الآية .

المقصود من أهل الكتاب هنا : من شنع فى أمر القبلة ، وهم اليهود سكان المدينة وأضرابهم ، وكذا من لم يشنع ، وهم النصارى ، إذ لم يشتركوا معهم فى الفتنة ، لأنهم لم يكونوا من سكان المدينة ، لا وقت التحويل ولا بعده ، فهم جميعًا لا يتبعون قبلة الرسول ولو جاءهم بكل آية . والتعبير عنهم جميعًا بأهل الكتاب تلميحًا بلومهم ، وإيذانًا بأنه ينبغى لهم - وهم أهلُ كتابٍ سماوى - أن يعملوا بنصوصه ، ولا يحرِّفوها أو يسيئوا تأويلها .

واللام فى « وَلَئِنْ » : للتوكيد .

والمعنى : ولئن جئت يا محمد أهل الكتاب بكل حجة دالة على مشروعية التحويل ، ما استجابوا لك ، فلا تعلق آمالك باجتذابهم إليك ، لأن ترك اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بحجة ، بل هو مكابرة وعناد ، على الرغم من علمهم بأنك على الحق .

(وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ) : ولست أنت بمتبع قبلتهم بعدما جاءك من الوحى ، لأنك على الحق المبين ، وهو حسم لأطماعهم فى ذلك ، ولن يتبع بعضهم قبلة بعض ، فلا اليهود متجهون إلى قبلة النصارى ، وهى المشرق ، ولا النصارى متجهون إلى بيت المقدس ، قبلة اليهود ، مع أن المسيحية امتداد لليهودية ؛ لتمسك كل فريق بقبلته ، فكيف يعيبون على المسلمين انفرادهم عنهم فى القبلة ، وهى حق من عند الله ؟ !

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ) .

المعنى : ولئن اتبعت اليهود يا محمد فى شأن القبلة وغيرها ، من بعد ما جاءك من وحى الله المفيد للعلم واليقين ، فإنك حينئذ لمن الظالمين ، بترك علم الله إلى هوى هؤلاء المبطلين .

والخطاب وإن كان للنبى - عليه الصلاة والسلام - فهو لأمته عامة ، تحذيرا لهم ، كما فى قوله تعالى : « وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ » [1] ، وما أجدر المسلمين أن

(١) ص : ٢٦ .

يتدبروا هذه الآية الكريمة . فقد أصبح الهوى عند معظم الناس الآن إلٰها معبودًا ، حتى قاد بعضهم إلى سوء استخدام العلم ، فأمسى يهدد الإنسانية ، ومدنيتها ، وحضارتها ، بالفناء والانتهاء . فهؤلاء أضلهم الله على علم . على حد قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ »[1] .

(ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾) .

المفردات :

(الْمُمْتَرِينَ) : الشاكّين .

التفسير

١٤٦ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُون أَبْنَاءَهُمْ . . .) الآية .

الذى عليه جمهور المفسرين : أن الهاء فى (يَعرِفُونه) مراد به النبى - صلى الله عليه وسلم - وكنى به عنه - عليه السلام - تفخيمًا لشأنه وإشعارًا بأنه فى غير حاجة إلى تعريف ، لأنه عرف فى كتبهم بالنبى الأمى ، كما قال تعالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ[2] » .

كما عرف فيها بصفات أخرى تحققت فيه .

وذكر الأبناء لأنهم ألصق بآبائهم ، فهم وآباؤهم أكثر خبرة ودراية بهم ، واستيثاقا من نسبهم بحكم الفطرة .

---

(١) الجاثية : ٢٣ .

(٢) الأعراف : ١٥٧ .

فالآية تقرر : أن أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - يعرفون أن محمدا رسول الله ، معرفة حقيقية ، كمعرفة الآباء بالأبناء .

قال عمر لعبد اللهِ بن سَلاَم ، وكان من أحبار اليهود قبل إسلامه : « أتعرف محمدًا - صلى الله عليه وسلم - كما تعرف ابنك ؟ . قال : نعم ، وأكثر . لقد بعث الله أمينه فى سمائه إلى أمينه فى أرضه بنعته ، فعرفته . أما ابنى فلا أدرى ما كان من أمر أمه . فقبَّل عمر رأسه » .

(وَإِنَّ فرِيقًا مِّنهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) : فالبشارة به - صلى الله عليه وسلم - كانت موجودة بوضوح فى التوراة والإنجيل . وعلماء اليهود والنصارى يعرفونها حقا ، ولكنهم ينكرونها لمرض نفوسهم ، إلا من عصمه الله منهم فآمن .

ونحن نعلم أنهم حرفوا الكتابين ، وقاموا بطمس ما يتعلق بالنبى - صلى الله عليه وسلم - لتبقى فيهم السلطة الدينية .

ولكن إنجيل « برنابا » سلم من أيديهم ، وظل قرونًا مدفونا فى خزائنهم ، حتى عثر عليه أخيرًا فى مكتبة الفاتيكان بروما ، وتسرب إلى العالم ، فارتاعوا ؛ لأنه يفضح أكاذيبهم ، فأعلنت الكنيسة أنها لا تعترف به إنجيلا ، مع أنه من أقدم أناجيلهم وأقربها إلى الصحة ، لأنه كتب فى القرن الأول الميلادى ، ونصوصه ناطقة صريحة بأوصاف النبى - صلى الله عليه وسلم - وأهداف رسالته .

وقد جاء فى الإصحاح الثانى والسبعين منه على لسان المسيح - عليه السلام - : « إننى قد أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله الذى سيأتى بقوة عظيمة على الفجار ، ويبيد عبادة الأصنام من العالم » . ثم قال : « وسينتقم من الذين يقولون : إنى أكبر من إنسان . . وسيجئ بحق أجْلَى من سائر الأنبياء . . وسيمتدُّ دينه ، ويعمّ العالم » . .

وجاء فى الإصحاح السابع والستين منه : « تعزيتى هى فى مجىء الرسول الذى سيبيد كل رأى كاذب فىّ ، وسيمتد دينه ، ويعم العالم بأسره . . ولا نهاية لدينه ، لأن الله سيحفظه صحيحًا » .

وفى الإصحاح العشرين بعد المائتين : « يظن كل شخص أنى صُلبْتُ ، لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجىء محمد رسول الله ، فإذا جاء فى الدنيا ، ينبه كل مؤمن إلى هذا الغلط ، وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس » .

والأناجيل التى يعترفون بها ، والتوراة التى بين أيدينا الآن ، بقيت فيها إشارات عدة[١] ترمز إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد عنى بها كثير من الباحثين ، وفى طليعتهم العلامة : رحمة الله الهندى ، فى كتابه : « إظهار الحق » . فارجع إليه إن شئت .

وذكرت الآية الذين يكتمون الحق وهم يعلمونه ، ويستلزم هذا أن هناك فريقا آخر ، يعلم الحق ويعلنه ويؤمن به ويؤيده . ومن هذا الفريق : الصحابى الجليل – عبد الله ابن سَلاَم ، الذى كان من أحبار اليهود ، وأسلم ، ونزل فيه قول الله تعالى : « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيل عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ »[٢] .

ومن أحبار اليهود والنصارى الذين عرفوا الصفات النبوية فآمنوا : زيد بن سعنة وتميم الدارى ، والجارود بن عبد الله . وإدريس بن سمعان . ولإسلام كل من هؤلاء قصة لا يتسع المقام لذكرها ، وإسلامهم جميعًا يستند إلى صفات الرسول فى التوراة والإنجيل .

١٤٧ – (الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) .

الامتراء : إما بمعنى الجدل أو بمعنى الشك ، فإن كان بمعنى الجدل ، فالغرض من الآية وصفُ أهل الكتاب بأنهم قوم عادتهم الجدل ، دون أن يهدفوا إلى الحق ، وأمر الرسول بمجانبتهم وألاّ يجاريهم فى جدلهم .

والمعنى على هذا : الحق نزل عليك يا محمد من ربك ، وهؤلاء قوم عادتهم الجدل بدون طائل ، فاتركهم ولا تكونن من المجادلين مع قوم هذا خلقهم ، فلا فائدة ترجى ممن عميت قلوبهم .

وإن كان الامتراء بمعنى الشك : فالخطاب فيه لكل مكلف ، لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يتصور منه الشك ولا يليق به ، فإنه لم يقم بدعوته إلا على بينة من ربه « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى » . . . « مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طغى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى »[٣] .

---

(١) من أمثلة هذه الإشارات : سفر التثنية : ١٨/١٨ ، ٢/٢٣ . والمزامير إصحاح : ٤٥ حيث أوردفى صفحة ١٧ مطابقة للرسول – صلى الله عليه وسلم – وإنجيل متى ١٧/٤ ، ١٠/٦ ، ٢٤/١٣ ، وإنجيل يوحنا (راجع تفسير المنار ج ٩ ص ٢٤٠ – ٢٨٣) .

(٢) الأحقاف : ١٠ .

(٣) أوائل سورة النجم .

والشاك لا يستطيع أن يمضى فيا يشك فيه ، فضلا عن أنه يلاقى الصعاب فى سبيله ، ولا يستطيع أن يقول ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أتركَ هذا الأمرَ ، ما تركته حتى يُظهرَه الله ، أو أهلِكَ دونه » .

والمعنى على هذا : الحق نزل عليك يامحمد من ربك ، فلا تكونن أيها المكلف ، من الشاكين فى ذلك ، ودع ما يقوله الأفّاكون من أهل الكتاب ، واكتسب المعارف التى تعصمك منه .

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾) .

المفردات :

(وِجْهَةٌ) : جهة .

(مُوَلِّيهَا) : متجه إليها .

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) : فاطلبوا السبق إليها .

التفسير

١٤٨ - (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ . . . . .) الآية .

ولكل فرد أو قوم ، جهة وقبلة هو موليها وَجْهَهُ فى الخيرات وغيرها . و كثير من الشعوب يتسابقون فى سبيل دنياهم ، دون رقابة من الضمير الدينى ، حتى كادت المدنية الحديثة تدمر العالم تدميرا ، أما أنتم - معشر المسلمين - فعليكم أن تتجهوا إلى الخير النافع فى الدنيا والآخرة ، لكم ولغيركم ، وأن تسبقوا سواكم إليه ، فهذا صراط الله المستقيم ، فاتبعوه «وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ »[1]

(١) الأنعام : ١٥٣ .

وهكذا يقرر الإسلام الرقابة الدينية على التصرفات البشرية ، حتى لا ينحرف الناس عن جادة الصواب .

(أَيْنَمَا تكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير) : هذا تحذير من الانحراف فى الاستباق فى الحياة الدنيا ، يعنى أن الله - تعالى - مالكُ أمرِكم جميعاً وإليه مرجعكم . فأينما كنتم فوق الأرض ، أو فى بطنها ، أو بين طبقات الفضاء يأْتِ بكم الله إليه جميعًا ، بأن يقبضَ أرواحكم ، ويحشركم إلى حسابه وجزائه : «وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ»[1] . فقدرته عظيمة ، وعلمه محيط بكل شىء .

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾) .

التفسير

١٤٩ - (وَمِن حَيْثُ خَرَجْت فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . . .) الآية .

ناقشت الآية السابقة السفهاء من الناس ، الذين أشاعوا الأراجيف عند تحويل القبلة ، وأفحمتهم بالدليل القاطع ، وأثبتت أن أهل الكتاب - وهم أصحاب الثقافة الدينية فى ذلك العصر - يعرفون أن الحق فى استقبال الكعبة ، كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم ينكرونه مع أنها قبلة جدهم إبراهيم الذى يشرفون أنفسهم بالانتساب إليه .

---

(١) العنكبوت : ٢٢ .

وقد عقب الله ذلك بـأمر الرسول بالاتجاه فى صلاته إلى البيت الحرام ، سواءٌ أكان بالمدينة ، أم كان خارجها ، تعميما لا ستقبالها فى أى مكان .

وأمرُ الرسولِ أمر لأُمّتِه . فهو إمامهم (وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

أى : وإن الاتجاه إلى المسجد الحرام فى أىمكان ، لهو الأمر الثابت الموافق للحكمة ، المنزل عليك من ربك : الذى وَالاكَ بفضْلِهِ وإحسانه . فلاتعْدِل عن استقبال القبلة التى شرعها لك ، فإنه مُطَّلع على عملك ، وعلى أعمال عباده جميعاً ، فيجازيهم حسبما عملوا .

وفى نسبة الحق إلى (ربك) : إيذان بصدقه – صلى الله عليه وسلم – فيما جاء به وأنه – تعالى – يحفظه من مؤامرات أعدائه ، ويعاقبهم عليها .

وختم الآية بقوله : (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تعْمَلونَ) . لوعد المطيع ، ووعيد العاصى .

١٥٠ – (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . . . الآية) .

أمر الله رسوله بالتوجه إلى المسجد الحرام ؛ ثلاث مرات :

الأولى فى قوله :

(فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) .

والثانية فى قوله :

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ) .

والثالثة فى قوله :

(وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) .

وحكمة هذا التكرير : أن القبْلةَ لها شأْن خطيرٌ . والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فلذا أكد أمرها مرة بعد أُخرى . مع أنه قد ذكر فى كل مرة حكمة جديدة .

ذكره أبو السعود .

وقال القرطبي – نقلا عن غيره فى تعليل التكرار – : إن موقع التحويل كان معنتا فى نفوسهم جدا ، فأكد الأمر ؛ ليرى الناس الاهتمام به ، فيخف عليهم ، وتسكن نفوسهم إليه .

ويمكن حمل التكرار على أن الآية الأولى : «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . لتشريع تحويل القِبْلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، وقوله بعد ذلك :

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) لتشريع الاتجاه إليها فى الأسفار ، وقوله : (وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) لتشريع الاتجاه إليها من المقيمين فى بقاع الأرض المختلفة .

وعلل الأمر باتجاههم إلى الكعبة فى كل مكان يصلون فيه ، بقوله :

(لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) .

فأهل الكتاب يعلمون من كتابهم : أن اتجاهكم إلى الكعبة حق . فإذا اتجهتم إليها لم يكن لهم عليكم أى دليل ينقص من عملكم ، فهى قِبْلَةُ أبيهم إبراهيم ، وإن لم يعجبهم انصرافكم عن قبلتهم .

والمشركون سيعلمون – بهذا الاتجاه – أنكم ورثة مِلَّةِ أبيكم إبراهيم وقبلته، وكانوا يعترضون عليكم ، بمخالفة قبلته ، والآن : سقط هذا الاعتراض .

أما الظالمون المعاندون : فلا حيلة لكم معهم . فهؤلاء يقولون : ماتحوَّلَ إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه ، وحبًّا لبلده . أو بدا له فرجع إلى قبلة آبائه . ويوشك أن يرجع إلى دينهم ، وتسمية هذه الكلمة الشنعاء (حُجَّة) – مع أنها أفحش الأباطيل – من قبيل قوله تعالى : «حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ »[1] حيث كانوا يسوقونها مَسَاقَ الحُجَّةِ .

(فَلاَتَخْشَوْهُمْ) ؛ فإن مطاعنهم لا تضركم .

(وَاخْشَوْنِى) . فلا تخالفوا أمرى .

(وَلأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) :

---

(١) الشورى : ١٦ .

أى : وأمرتكم بذلك ؛ لأُتِمَّ نعمتى عليكم ، ولعلكم تهتدون بامتثال ما أمرتكم به إلى سعادة الدارين .

ومن تمام نعمة الله على المسلمين : تطهير البيت الحرام من الأصنام ، وتطهير الجزيرة العربية كلها منها ، وقد تم هذا فى آخر حياة الرسول - عليه السلام - فحقق الله وعده ونصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

وقد تحققت للمسلمين البُشْرَيَاتُ الثلاث ، التى أشارت إليها الآية الكريمة : قطع ألسنة السفهاء ، وإتمام النعمة بإكمال الأمن ، وتعميم الهداية ونشرها بين الأمم والشعوب .

قال تعالى : «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً . . .»[1] الآية .

(كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾)

المفـردات :

(يُزَكِّيكُمْ) : يطهركم .

(الْكِتَاب) : القرآن الكريم .

(الْحِكْمَةَ) : السنة النبوية ، أو ملكة عقلية للتمييز بين الحق وغيره .

التفسير

١٥١- (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا . . .) الآية .

الخطاب للعرب ، و (كَمَا أَرْسَلْنَا) متعلق بقوله : (وَلِأُتِمَّ) .

والمعنى : ولأُتم نعمتى عليكم بما سبق من جعلكم أمة وسطا ، وكونكم شهداء على الناس ، واستقبالكم الكعبة قبلَةَ أبيكم إبراهيم ،كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ، أى عربيا

(١) المائدة : ٣ .

مثلكم ، وأنزلتُ عليه كتاباً سماويًّا معجزًا ، محفوظًا من التحريف والتبديل ، يتلوعليكم فيخرجكم به من الظلمات إلى النور .

(وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) .

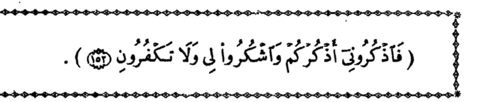
ويطهّر نُفوسكم ، ويمحصها لله بوعظه وإرشاده ، حتى يكون عملكم خالصاً ، لوجه الله - تعالى - وتتلاقى القلوبُ على محبةٍ ورضوانٍ من الله ، وتكونوا - دائما - فى نصرة دين الله ، ويعلمكم كتاب الله ومافيه : من أُصول التوحيد ، وشعائر الدين ، ومناهج الخُلُقِ الفاضل ليكون كل ذلك دستورًا لكم ، ويعلمكم الحكمة ، وهى : سنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما قال الإمام الشافعى .

ومن معانى الحكمة : إصابة الحق والصواب .

وما من شك فى أن فهم القرآن والسنة والعمل بهما ، ينمى فى المؤمن موهبةَ الحكمة التى تهديه إلى الصواب ، فيما يتعرض له من مشكلات .

«وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا »[1]

والمؤمن البصير ، يدرك الصواب بنور الله : «يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً[2] » .



(فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾) .

التفسير

١٥٢ - (فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ . . .) الآية .

فاذكرونى بالطاعة واللسان ، أذكركم بالثواب وبالثناء فى الملإ الأعلى . وإن نعم الله المتوالية عليكم : تستدعى أن تلهج ألْسنتكم بذكر الله - تعالى - وتنفعل جوارحكم بطاعته .

---

(١) البقرة : ٢٦٩ .

(٢) الأنفال : ٢٩ .

ومن كرمه – تعالى – إكرامه الذين يذكرونه : بذكره إياهم .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى حديث قدسى عن الله – عز وجل – :

يقول الله تعالى : « أَنَا عِند ظنِّ عبدى بى ، وأنا مَعَهُ حين يذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرتُهُ فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملإ ، ذكرته فى ملإٍ خيرٍ منهم »(١) .

والذكر من العبد : يكون بالأقوال والأفعال الخالصة . ومن الرب : بحسن المكافأة .

(وَاشْكُرُوا لِى) . أى اشكروا لى نعمى عليكم . ومن أجَلِّها أننى أرسلت فيكم رسولا منكم يزكيكم ، ويعلمكم ، ويهديكم إلى الله .

وشكر المنعم واجب .

والشكر ، يكون : بتوجيه الجوارح إلى ماخلقها الله له ، وبذل المال فيما أباحه وندب إليه ، ونشر العلم فيما ينفع ، لوجهه – تعالى – فشكر العالم : نشر العلم ، وشكر القوى : مساندة الضعيف ، وشكر الغنى : الصدقة . وشكر الحاكم : العدل والتواضع. وهكذا . وقد وعد الله الشاكرين بموالاة نعمه عليهم : «لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ »(٢) .

(وَلَاتَكْفُرُونِ) أىْ ولا تكفروا نعمى بجحدها أو منع زكاتها . أو ترك طاعة الله شكرا له عليها ؛ فإن العقاب على ذلك شديد .

وقد أعطى الله قارون المال الوفير . فلما ادعى أنه ناله بجهوده وعلمه ، و« قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِى»(٣) ، خسَفَ الله به وبداره الأرض . ولما أعطى الله – سبحانه – سليمان – عليه السلام – ملكه الواسع ، قال : «هٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ »(٤) فشكرَ اللهَ ، فحفِظَ عليه نعمتَه .

---

(١) رواه الشيخان والترمذى .

(٢) إبراهيم : ٧

(٣) القصص : ٧٨

(٤) النمل : ٤٠

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾) .

المفردات :

(الصَّبْر) : ضبط النفس ، وقوة الاحتمال .

التفسير

١٥٣ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ . . . .) الآية .

يُعِدُّ الله المسلمين لما سيواجهونه من الفتن والمحن والحروب ، ويدربهم تدريبًا نفسيا على ملاقاة الشدائد ، واحتمال الأهوال ، فيأمرهم سبحانه وتعالى ، أن يستعينوا على خوض غمار الأحداث والمحن بسلاحين رئيسيين ، هما : الصبر ، والصلاة .

أما الصبر ، فيكون برياضة النفس على احتمال المكاره ، وقمع الشهوات ، وملاقاة النكبات ، مع التسليم لله بقضائه ، وانتظار فرجه . والرضا بحكمه .

وبعض المفسرين يقسم الصبر إلى ثلاثة أنواع : صبر على ترك المحارم ، وصبر على فعل الطاعات ، وصبر على المكاره والنوازل .

ومن أهم مواطن الصبر : الصبر عند لقاء العدو جهادا فى سبيل الله .

ولهذا ، كان ثواب الصابرين غير محدود : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ »[1] .

ولأهمية الصبر : ورد ذكره فى القرآن ، فى نحو سبعين موضعًا . وأورد ابن القيم الجوزية فى كتابه : «عدة الصابرين » أكثر من عشرين فضيلة للصبر .

وأما الصلاة : فهى : أم العبادات ، ومعراج المؤمنين إلى منازل الصالحين . واستغراق المؤمن فيها ، علاج لما قد يتعرضله من أخطار الحياة ؛ لأن المؤمن الذى يستعين فيها بالله

(١) الزمر : ١٠ .

تعالى – على شدائده ، لا يتخلى عنه سبحانه ، بل يعينه على الخلاص منها ، وقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

ثم أكد نتيجة الاستعانة بذلك ، فقال : (إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) أى : يمنحهم السكينة والعزاء والعوض ، والمدد الذى يعين على الثبات والخروج من المآزق . ولم يقل إن الله مع الصابرين والمصلين ، لأن الصلاة تجعل المصلى مع الله – تعالى – وإذا كان المصلى مع الله ، فالله معه مثلما هو مع الصابر ، كما أن الصلاة نوع من الصبر .

وليس الصبر بلادة فى الإحساس ، واستسلامًا للنوازل وإنما هو : ثبات على مكافحة البلاء .

(وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾) .

التفسير

١٥٤ – (وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ . . .) الآية .

إن الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف ، بل بعدها مرحلة القبر ، ثم البعث ، ثم الحساب ثم الجنة أو النار .

والشهداء فى قبورهم أحياء حياة كريمة ، وإن كانت غير مشاهدة ، فلهذا نهى الله الناس عن أن يقولوا : إنهم أموات ، وقرر أنهم أحياء فقال :

(بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ) .

أى : بل هم أحياء : حياة مؤكدة ، وإن لم نشعر بها ؛ لأننا لا ندرك مما يحيط بنا إلا القليل . وحياة الشهداء مصحوبة بالرزق . قال تعالى .

« أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »[1] .

فهم أحياء ممتعون برزق ربهم ، وهم به فرحون : ويستبشرون بما يقدمه إخوانهم من الجهاد فى سبيل الله وما ينتظرهم من ثوابه الجزيل ، ولكن كنه هذه الحياة ، علمه عند الله .

وقد أنبأنا النبى – صلى الله عليه وسلم – فيما رواه مسلم : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر ، تسرح فى الجنة كيف شاءت . . . الخ » . وكل ما نعلمه فيما عدا ذلك : أن الشهداء فى حياة خير مما نحن فيه .

وذكر حالة الشهداء بعد الحض على الصبر ؛ لأنها من ثمراته الطيبات .

(وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾) .

المفردات :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) البلاء : الاختبار .

التفسير

١٥٥ . ١٥٦ – (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ . . .) الآية .

اقتضت حكمة الله تعالى – أن تكون هذه الدنيا دار ابتلاء وتمحيص ، « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ »[2]

(١) آل عمران : من آية : ١٦٩ وآية : ١٧٠ . (٢) الأنفال : ٤٢ .

والإيمان درجات : فمن الناس « مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ »[١] ، « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ »[٢] ، « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ »[٣] .

والله ـ سبحانه ـ ليس فى حاجة إلى أن يختبر عباده ، ولكنه اختبرهم ليقيم عليهم الحجة: « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُواْ أَنْ يَقُولُواْ آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ »[٤] .

وسنة الله تجرى على خلقه أجمعين ، حتى الأنبياء .

روى البخارى والترمذى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « أشد الناس بلاءً : الأنبياءُ ، ثم الأمثل فالأمثل » . وخرَّج مسلم ، عن أبى سعيد وأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ أنهما سمعا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : « ما يصيب المؤمنَ مِنَ وَصَبٍ ولا نَصَبٍ ، وَلَا سَقَمٍ ولا حَزَنٍ ، حتى الْهَمِّ يهمه ، إلا كُفِّر به من سيئاته » .

وقد أعدَّ الله المسلمين لحمل رسالتهم الكبرى إلى العالم ، فأمرهم بالصبر والجهاد ، حتى تعلوَ كلمة الله ، وأنبأهم بأنهم سيتعرضون لشىء من الخوف ، وهو غير الجبن ، إذ هو : غريزة توقظ فى صاحبها التوقِّى من الأخطار .

وقد حدث الخوف للمسلمين فى غزوة الخندق وحنين ، وأنبأهم ـ سبحانه ـ أنهم سيتعرضون لشىء من الجوع ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يربط الحجر على بطنه من الجوع .

وقالت عائشة ـ رضوان الله عليها ـ : « لقد مات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما شبع من خبز وزيتٍ فى يومٍ واحد مرتين » رواه مسلم .

وكان عليه الصلاة والسلام : يغزو مع أصحابه أحيانا ، وليس لهم طعام إلا ورق الشجر ، أو ثمرات يتبلغ بها الواحد منهم

(١) الحج : ١١ .
(٢) العنكبوت : ١٠ .
(٣) البقرة : ٢٠٧ .
(٤) العنكبوت : ٢ .

كما أنبأهم – جل شأنه – أنهم سيتعرضون لنقص من الأموال ، كما حدث لهم فى أُحُدٍ وَتَبُوكَ ، ولفقد الأنفس ، كما حصل لهم فى أُحُدٍ ومُؤتة ، ولنقص الثمرات ، كما حدث فى عام الرَّمادة .

ومعنى الابتلاء من الله : أنْ يعاملهم معاملة المختبر – وهو العالم بحالهم – ليتميز الصابر المجاهد المحتمل ، من الضعيف فى دينه ونفسه ، وفق ما علمه الله منه أزلا ، فيجازى كلا منهما على ما عمله ، لا على ما علمه الله منه .

والخوف : يكون من إزعاج أعدائهم لهم وإرهابهم إياهم ، أو من توقع المكاره فى النفس أو المال أو الولد .

والجوع : يكون من قلة الموارد ، ونحو ذلك .

ونقص الأموال : بقلة الكسب والخسارة فى التجارة ونحوها .

ونقص الأنفس : بالقتل أو الموت .

ونقص الثمرات : بنحو الآفات .

وقد أردف الله تأكيد الابتلاء بذلك ، بالحث على الصبر وبيان عاقبته ، فقال :

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .) .

الخطاب فى قوله (بَشِّرِ) : للنبى – صلى الله عليه وسلم – ، أو لكل من يستطيع التبشير . والمصيبة : المكروه الذى يؤلم . وليس الصبر هو : الاسترجاع باللسان وحده ، بل بالقلب معه ، بأن يتذكر أن نعم الله عليه كثيرة ، وأن ما أبقاه الله له ، أضعاف ما استرده منه ، فيهون المصاب بذلك على نفسه ، ويستسلم ، فذلك هو المقصود بقوله : (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ، لا مجرد الاقتصار على النطق : (إنا لله وإنا إليه راجعون) ، وإن كان ثواب هذا القول عظيما .

قال – صلى الله عليه وسلم – : « ما من عبدٍ تصيبه مصيبة فيقول : (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم آجرنى ، إلا آجره الله – تعالى – فى مصيبته ، وأخلف له خيراً منها . . . » إلخ . أخرجه مسلم .

وإطلاق البشرى - بدون تقييد - يشير : إلى أن ثواب الصابرين الذين يقولون ذلك ، لا يحيط به الوصف .

ويجوز أن يكون الْمُبَشَّرُ به ، هو ما دلت عليه الآية التالية من أن : عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأنهم مهتدون ، فما أعظمها بشارة !

(أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾) .

المفـردات :

(صلوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ) : الصلاة من الله : الرأفة والمغفرة .

التفسير

١٥٧ - (أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ . . .) الآية .

هذا هو جزاءُ الصابرين الذين يُبَشَّرُونَ به ، وهو : أن لهم من ربهم ثلاث بشريات .

الأُولى : صلوات الله عليهم . وذكرت بصيغة الجمع للتكثير . وصلاة الله عليهم ، هى مغفرته لهم ، ورأفته بهم .

والثانية : رحمته ، بإزالة آثار المصيبة ، أو تعويضهم بما ينعم به عليهم ، من جلب نفع أو دفع ضر .

والبشرى الثالثة : جاءت فى قوله تعالى :

(وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) إلى مطالبهم الدنيوية والأُخروية ، فإن من نال رأفة الله ورحمته ، لم يفته مطلب .

وقد جمع فى البشارة بين الصلاة – وهى هنا بمعنى الرأفة – وبين الرحمة – وهى شاملة للرأفة – ؛ للمبالغة ، كما فى قوله تعالى : « رَأْفَةً وَرَحْمَةً[1] » ، وقوله : « رَءُوفٌ رَّحِيمٌ[2] » .

(إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾) .

المفـردات :

(الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ) : هضبتان ملحقتان حاليا بالمسجد الحرام : يسعى بينهما الحاج والمعتمر .

(مِن شَعَآئِرِ اللهِ) : من علامات دين الله فى الحج والعمرة . والشعائر : لغة : جمع شعيرة ، وهى العلامة .

(فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ) : أى قصد الكعبة لأداء المناسك فى موسم الحج .

والحج لغة : القصد ، وشرعا : قصد الكعبة للنُّسُك المشتمل على الوقوف بعرفة ، فى زمن مخصوص .

(أَوِ اعْتَمَرَ) : أى زار الكعبة لنسك العمرة ، وهى كالحج ، فيما عدا الوقوف بعرفة وأنها لا تختص بزمان . والاعتمار فى اللغة : الزيارة مطلقا ، كالعمرة .

(فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا) : فلا إثم عليه فى أن يسعى بينهما .

(وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً) : أى ومن زاد خيراً على ما طلب منه .

التفسير

١٥٨ – (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ .) الآية .

(١) الحديد : ٢٧ . (٢) الحشر : ١٠ .

روى البخارى ، عن عاصم بن سليمان ، قال : « سألت أنس بن مالك ، عن الصفا والمروة ، فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما » فأنزل الله - عز وجل - : (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا) .

وفى رواية الترمذى ، عن أنس ، أنهما : « كانا من شعائر الجاهلية » .

ويشرح الشعبى أمرهما فى الجاهلية ، فيقول : « كان على الصفا فى الجاهلية صنم يسمى : إسافا ، وعلى المروة صنم ، يسمى : نائلة ، فكانوا يمسحونهما ، إذا طافوا ، فامتنع المسلمون عن الطواف بهما من أجل ذلك ، فنزلت الآية » ، أى نزلت لرفع الحرج من السعى بينهما . بعد أن أزيلت عنهما الأصنام .

والمعنى : إن الصفا والمروة من معالم دين الله ، فهما من مناسك الحج والعمرة فى الإسلام ، بعد أن أزيل الصنمان من فوقهما ، وتمحض الذكر بينهما لله - تعالى -

(فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا) : أى فمن كان حاجا أو معتمرا ، أو جامعا بين الحج والعمرة ، فلا إثم عليه فى أن يسعى بينهما .

وقد علمت مما تقدم : أن السعى بينهما كان نسكا وعبادة فى الجاهلية ، ولكن العبادة فيه كانت للوَثَنَيْن القائمين فوقهما ، فكان الساعون من أهل الجاهلية يمجدون وثنيتهما أثناء السعى . فلما جاء الإسلامُ ، أقر السعى بينهما ، بعد أن أزال الأصنام ، وجعل الذكر لله - تعالى - وحده ، وهذا وأمثاله من السياسة الشرعية فى الإسلام ، فإنه إذا أقر أمراً كان معروفا فى الجاهلية ، لحكمة تقتضى إقراره ، جرده من مظاهر الوثنية ، ووجهه إلى الله - تعالى - قصدا وذكرا .

قال الآلوسى : وقد وقع الإجماع على مشروعية الطواف - أى السعى بينهما فى الحج والعمرة - لدلالة نفى الجُناح على ذلك ، لكنهم اختلفوا فى الوجوب ، فعن أحمد : أنه سنة ، وبه قال أنس ، وابن عباس ، والزبير ؛ لأن نفى الجناح يدل على الجواز ، والمتبادر منه

عدم اللزوم ، كما فى قوله تعالى : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا[1] » وليس مباحا بالاتفاق ؛ لقوله تعالى : (مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ) فيكون مندوبا .

وعن الشافعى ومالك : أنه ركن فيهما ، وحجتهما فى ذلك : ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله كتب عليكم السعى فَاسْعَوْا » . وكتب بمعنى : فرض ، كما فى قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ[2] » . وما رواه مسلم ، عن عائشة ، قالت : « ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة ، ولا عمرته » ، ولقوله - صلى الله عليه وسلم - : « خذوا عنى مناسككم » . وقد صح أن النبى - صلى الله عليه وسلم - سعى بينهما .

وعن أبى حنيفة : أنه واجب يجبر تركه بدم . ا هـ . بتصرف

ومن أراد مزيدا فى تعرف وجوه نظر الأئمة . فليرجع إلى كتب الفقه .

(وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) .

التطوع : ما يأتى به الإنسان من الطاعة غير المفروضة عليه ، أى وَمَن أتى بشىء من النوافل ، فإن الله (شَاكِرٌ) له ، أى يثيبه عليه (عَلِيمٌ) بكل شىء ، فلا يخفى عليه تطوعه ، نيةً وكيفيةً ومقداراً ، فلا ينقص من أجره شيئاً .

واعلم أن السعى بين الصفا والمروة ، شعيرة موروثة عن أم إسماعيل - عليه السلام - فقد جاء فى حديث طويل ، رواه البخارى ، عن ابن عباس ، بعد ما ذكر : أن إبراهيم - عليه السلام - جاء بهاجر وابنها إسماعيل ، عند مكان البيت ، وتركهما ، فقالت له : « يا إبراهيم : أين تذهب ، وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء ؟ » ، ثم قالت له : « آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يضيعنا » ومضى ابن عباس فى الحديث إلى أن قال : « حتى إذا نَفِد ما فى السقاء ، عطشت ، وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يَتَلَوَّى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر ، هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا ، فهبطت من

(١) البقرة : ٢٣٠ . (٢) سورة البقرة : ١٨٣ .

الصفا ، حتى إذا بلغت الوادىَ ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود ، ثم جاوزت الوادِىَ ، حتى أتت المروة ، فقامت عليه . . إلى أن قال : « ففعلت ذلك سبع مرات » . قال ابن عباس : قال النبى – صلى الله عليه وسلم – : « فذلك سعى الناس بينهما » ومضى فى الحديث ، إلى أن قال : « فإذا هى بالملَك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه – أو قال بجناحه – ، حتى ظهر الماء : (أى ماء زمزم) إلى آخر الحديث .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾) .

المفردات :

(الْبَيِّنَات) : الحجج الواضحات ، جمع بينة .

(الْهُدَى) : ما يهدى إلى الحق والرشاد .

(فِى الْكِتَابِ) : المرادُ به ما يشمل جميع الكتب السماوية ، ومنها التوراة والإنجيل والقرآن .

(يَلْعَنُهُمُ اللهُ) : يطردهم من رحمته .

(وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ) : يسخط عليهم الناس .

(وَبَيَّنُوا) : أى أظهروا ما كتموه .

التفسير

١٥٩ – (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى . . .) الآية .

قال الآلوسى : أخرج جماعة عن ابن عباس ، قال ، سأل معاذ بن جبل ، وسعد بن معاذ ، وخارجة بن زيد ، نفراً من أحبار يهود ، عن بعض ما فى التوراة ، فكتموهم إياه وَأَبَوْا أن يخبروهم ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

وعن قتادة : أنها أنزلت فى الكاتمين من اليهود والنصارى .

المعنى فى هذه الآية الكريمة - وإن كان سبب نزولها خاصا - وعيدٌ لكل من كتم علمًا يحسنه : سواءٌ أكان من اليهود ، أم النصارى ، أم غيرهم . فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فكل من آتاه الله علما ، وَجَبَ عليه أن يبذله للمحتاجين إليه ، ولا يكتمه ، وإلا كان آثما . ولكونها عامة ، قال أبو هريرة ، فيما رواه البخارى عنه : « لولا آية فى كتاب الله ما حدثت أحداً بشيء أبدًا » ، ولعله قال ذلك ، حين قيل له : أكثرت فى الرواية .

وكما جاء الوعيد عن الكتمان فى القرآن . جاء فى السنة .

أخرج أبو يعلى والطبرانى ، بسند صحيح ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من سُئل عن علمٍ فكتمه ، جاء يوم القيامة ملجَماً بلجام من نار » .

ومع أن العلم يجب تبليغه ، فليس على العالم أن يبلغ منه إلا ما يناسب السامع ، لكيلا يضل بسبب ضعف استعداده الفكرى ، أو العلمى أو وهن دينه .

ولهذا كان ابن مسعود يقول : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لاتبلغه عقولهم ، إلا كان لبعضهم فتنة » .

وفى هذا المعنى ، يقول صلى الله عليه وسلم : « حدثوا الناس بما يفهمون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله »[1] ؟ !

وقد دلت الآية على هذا المعنى . فإن الوعيد فيها ، إنما هو على كتمان ما كان من البينات الواضحات ، والهدى الذى لايضل به الناس .

أما سواه ، فيكتم - إلا عن أهله - مخافة الفتنة . وقد فعل ذلك أبو هريرة .

(١) أورده الفردوسى وذكره القرطبى .

روى البخارى عنه : أنه قال : « حفظت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعاءين أما أحدهما : فبثثته ، وأما الآخر : فلو بثثته ، قطع هذا البلعوم ».

قال القرطبى : قال علماؤنا : وهذا الذى لم يبثه أبو هريرة ، وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل ، إنما هو يتعلق بأمر الفتن ، والنصّ على أعيان المرتدين والمنافقين ، ونحو هذا ، مما لا يتعلق بالبينات والهدى .

(مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ) .

المراد بالكتاب : جنس الكتاب الشامل للتوراة والإنجيل والقرآن .

فاليهود من أهل هذا الوعيد ، لأنهم كتموا ما فى كتابهم ، من نعت محمد – صلى الله عليه وسلم – الذى « يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ »[1] ، وكتموا عقوبة الرجْم ، وغير ذلك من الحق الذى أخفوه وهم يعلمون .

والنصارى كذلك لكتمانهم ما فى كتابهم الإنجيل من البشارة برسول يأتى من بعد عيسى اسمه أحمد ، وأنه أُمّىٌّ ، وغير ذلك من نعوته ، ونعوت أتباعه التى منها أنهم « كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى على سُوقِهِ »[2] .

وكل من حبس عِلْماً عن الناس بيّنه الله فى القرآن أو السنة ، فهو كاتم لما بيَّنَهُ الله فى الكتاب .

وينطبق هذا على كل علم نافع ضرورى .

(أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ .) :

أى أولئك الكاتمون للعلم الذى بينه الله فى الكتاب ، يطردهم الله من رحمته ، ويسخط عليهم الخلق ، فيزدرونهم وينبذونهم ، ففى العلم حياة النفوس ، وهو حق للناس يجب بذله .

١٦٠ – (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا . . .) الآية .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٦ .

(٢) سورة الفتح : ٢٩ .

استثنى الله من أولئك الكاتمين المعاقبين بالطرد من رحمته وبسخط الخلائق: مَنْ تابوا ورجعوا عن كتمانهم العلم، (وَأَصْلَحُوا) بإظهار ما كتموه، وتصحيح ما حرفوه أو أساءوا فيه الفتوى، وردهم ما أخذوه بسبب التحريف أو الكتمان (وَبَيَّنُوا) الحق دائماً ،ليكون ذلك أمارة على صدق توبتهم من الكتمان. فهؤلاء: لا يعاقبهم الله بما توعد به الكاتمين لأن الله - تعالى - يفرح بتوبة عباده، وقد أكد الله - سبحانه - العفو عنهم، المأخوذ من الاستثناء بقوله: (فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ) أى: أقبل توبتهم المقرونة بالإصلاح، وتبيين الحق، (وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) ومن كان شأنه المبالغةَ فى قبول التوبة وسعة الرحمة، فهو الجدير بأن يتوب على عباده ويرحمهم، إذا بادروا بالتوبة والإصلاح والتبيين.

وقد اشتملت الآية على أركان التوبة :

١ - الرجوع عن الذنب ويشير إليه قوله : (تابُوا).

٢ - الندم على ما فات لأنه من تمام التوبة.

٣ - رد المظالم إن وجدت، ويشير إليهما قوله : (وَأَصْلَحُوا).

٤ - العزم على عدم العود، ويشير إليه قوله : (وَبَيَّنُوا).

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾).

التفسير

١٦١ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ ...) الآية.

بَيَّنَ الله قبل ذلك: أن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى، يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. واستثنى منهم من تابوا، وأصلحوا، واستقاموا على تبيين الهدى فأولئك يقبل الله توبتهم، ويعفو عنهم.

وبين فى هذه الآية والتى بعدها ، عقوبة الكافرين بصفة عامة . ويدخل فيهم الذين كفروا بكتمان الهدى من أهل الكتاب ، تأكيدا لعقوبتهم السابقة .

والمعنى : إن الذين كفروا بالهدى الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - وأصروا على الكفر ، فلم يتوبوا - غير مكترثين بما يقرع أسماعهم من آيات الهدى ، وماتراه أبصارهم من دلائل الحق ، وأقاموا على إصرارهم ، حتى ماتوا وهم كفار - أولئك تستمر عليهم لعنة الله التى لازمتهم من أول كفرهم ، ولعنة الملائكة والناس .

وجميع هؤلاء تستمر لعنتهم عليهم . بسبب إصرارهم على الكفر .

وكلمة : (أَجْمَعِينَ) : تأكيد وليست خاصة بالناس ، وليس المقصود من لعنة الناس لهم : أنهم جميعاً يلعنونهم ، بل المقصود : أن كثيرًا من الناس يلعنونهم .

١٦٢ - (خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ) .

أى خالدين فى لعنة الله ، أو فى النار . لايخفف عنهم العذاب بأنواعه ، يوم القيامة فهم فيه معذبون بغضب الله ونار جهنم ، والزمهرير .

(وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ) : أى ولا هم يؤخرون ساعة دون عذاب . مأخوذ من الإنظار بمعنى التأخير ، أو المعنى : ولاهم ينظرون من الله - تعالى - نظر رحمة [1] ، وإرجاع الضمير فى قوله : (خَالِدِينَ فِيهَا) إلى النار ، ولم يسبق ذكرها ، للإيذان بأنها معروفة حاضرة فى الذهن ، وإن لم تذكر . تهويلا لأمرها ، ولأن لعنة الله تؤذن بها ، فإنها هى الطرد من رحمته ومَن طرده الله من رحمته ، عذبه بناره .

(وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾) .

المفردات :

(إِلَٰهٌ) الإله : المعبود .

(١) النظر بهذا المعنى يتعدى ، ويأتى منه المبنى للمجهول ، كما فى الأساس .

(الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ) : صيغتان للمبالغة فى الرحمة . الأُولى سماعية . والثانية قياسية ، وتختص الأُولى بالله – تعالى – ويجوز إطلاق الثانية على غيره .

التفسير

١٦٣ – (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ) .

لما ذكر الله فى الآيتين السابقتين وعيد الكافرين ، وختمه بأَنهم خالدون فى العذاب وأَنهم لايخفف عنهم ولاينظرون ، أَتبعهما هذه الآية والتى تليها ، ليرشدهم إلى توحيده – سبحانه – لعلهم ينقذون أنفسهم من هذا الوعيد الذى ينتظرهم ، فهما مسوقتان لإثبات الألوهية لله – تعالى – وتفرده بها ، وقد مرّ قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ . . . » الآية . لإثبات نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – الذى كتموا شهادة الكتب السماوية بنبوته .

وسبب النزول على مانقله الألوسى :

عن ابن عباس – رضى الله عنه – : أن كفار قريش قالوا : للنبى – صلى الله عليه وسلم – : صف لنا ربك ، فنزل قوله تعالى : (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) ومع أن السبب خاص ، فالخطاب عام لكل من يصلح للخطاب . والسائلون فى جملتهم .

والمعنى : وإله البشر الذى يستحق العبادة ، إله واحد ، هو الله – تعالى – لا إله إلا هو بليغ الرحمة ، فقد عمت رحمته فى الدنيا المؤمن والكافر ، والبر والفاجر . وعمت رحمته فى الآخرة ، أهل الإيمان : من وفى منهم ، ومن قصر وتاب .

(قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ • وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ . . . »[1]

ومن كان كذلك : فلا يصح أن يُعبد معه سواه ، فإن سواه مجرد من صفات الألوهية محتاج إلى الله – سبحانه وتعالى ، فى خلقه وتدبيره ، كما أنه – عز وجل – لو كان معه إله آخر ، لفسد العالم .

---

(١) سورة الزمر : ٥٣ ، ٥٤ .

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا »[١]

والتعبير بقوله : (لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) بعد قوله: (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) لتقرير وحدانية الإله وتأكيدها . ونفى الشريك عنه نفياً حاسما . باستعمال أسلوب القصر .

وبعد أن ذكر هذه الآية الناطقة بتوحيد المعبود . أتبعها مايدل على ذلك فقال :

(إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾) .

المفردات :

(وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : أى تعاقبهما . أو اختلافهما بالزيادة والنقصان وغيرهما .

(وَالْفُلْكِ) : اسم يطلق على سفينة أو أكثر ، بلفظ واحد . ومن الأول : « فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ »[٢] ومن الثانى : « حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ »[٣] .

(وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ) : أى ونشر فيها من كل نوع من الدواب . والدابة : مايدب ، ويمشى على الأرض .

(وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ) : أى تقليبها جنوبا وشمالا وشرقا وغربا ، حارة وباردة ، إلى آخر أنواعها .

(وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ) : المنقاد لله : يوجهه كيف يشاء .

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٢ .

(٢) سورة الشعراء : ١١٩ . (٣) سورة يونس : ٢٢ .

التفسير

١٦٤ - ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ... ﴾ الآية.

بينت الآية السابقة : أن المعبود بحق يجب أن يكون واحدا ، فقال كفار قريش : كيف يسع الناس إله واحد ؟ ! وقالوا : هل من دليل على ذلك ؟ فأنزل الله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . رواه سفيان عن أبيه عن أبي الضحى .

وسواء أصح هذا السبب فى نزول الآية ، أم لم يصح ، فقد ذكر فيها أدلة جليلة على ما جاء فى الآية التى قبلها ، وهو : أن إلهنا إله واحد ، تثبيتا له وتأييدا . فقد ذكر الله - تعالى - فى هذه الآية أدلة كونية عظيمة ، تدل من يعقلون ، على وحدانية الله - تعالى - وأنه رحمن رحيم .

وأول هذه الأدلة : أنه - سبحانه - أبدع السموات والأرض متناسقة على غير مثال سبق .

قال تعالى : « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ • ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ »[1] .

كل ما فى السماء عجيب نافع ، فشمسها المشرقة نهارا : تبث فى أرضنا الدفء ، وتنشر فيها الضوء ، وتنبت الزرع ، وتستخلص من مياهنا المالحة بخارا حُلْوًا نَقِيًّا ، يصيره الله بقدرته سحابًا ، ثم يعيده إلينا مطرا عذبا ، فيسلكه فى أعلى الأرض أنهارا ، ويسلكه فى جوفها ينابيع ، فنعيش به ، ويعيش حيواننا ، على ما أوجد الله بسبب الشمس من الماء والنبات « هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »[2] « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »[3] سبحانه ، هو أرحم الراحمين .

---

(١) سورة الملك : ٣ ، ٤ .

(٢) سورة فاطر : ٣ . (٣) سورة المؤمنون : ١٤ .

وقمرها المضيء ليلا ، خلقه الله ليهديَ السائرين ، ويرشد الحائرين .

ونجومها المنيرة السابحة وكواكبها اللامعة الزاهرة : جُعِلَت معالم للحيارى ، ومراشد للمدلجين : « وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »[1] .

وفى هذه النيرات نجوم ملتهبة منيرة كشمسنا أو أكبر ، وكواكب تدور حولها كمجموعتنا الشمسية ، وتستمد ضوءها منها ، كما تستمد مجموعتنا ضوءها من شمسنا . وهذه وتلك ، جاوزت أرقام الحساب التى عرفها البشر ، وفاقت عظمتها ما يخطر بالعقول . وقد ارتبط بعضها ببعض ، بنظام الجذب والدفع الذى حفظ الله به توازنها .

وكل ما فى الأرض عجيب مفيد ، فجبالها أوتادٌ لها ، تحفظها من أن تميد بنا ، وأنهارها وبحارها مصادر لأرزاقنا ، ومعابر لسفننا ، وسبب لحفظ حياتنا ، ومعادنها نتخذ من بعضها حُلِيَّنا وعملتنا ، ونتخذ من بعضها أوانِينَا وأدواتِنا وموادَّ بنائنا ، وأسلحة دفاعنا وهجومنا على أعدائنا ، والسهل من أرضها نزرع فيه أقواتنا ، والتلال والهضاب نتخذ فيها الحصون والقلاع لنرد عادية خصومنا ، وأشجارها وزرعها وطيورها وحيوانها لأرزاقنا ومنافعنا ، وهواؤها حياة لنفوسنا وحيواننا ونباتنا .

أفلا يدل ذلك على إله عليم قادر حكيم ، رحمن رحيم لاشريك له فيما صنع ! ، فإن وحدة الوجود وكماله واتساقه يشهد بوحدة الخالق المدبر ، إذ التعدد مصدر للفساد ، « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »[2] .

وثانى هذه الأدلة : (اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) ، واختلافهما : تعاقبهما ، فبينما الليل يلف الأرض بظلامه ، والناس فيه رقود ساكنون ، إذ ينبعث النهار من تحت إهابه . فتسجع الأطيار ، وتطير من الأوكار باحثة عن رزق الكريم الرحيم ، ويهب النائمون من مراقدهم ، يبحثون عن أرزاقهم ، ويسعون فى سبيل عيشهم .

وكما أن الليل والنهار يختلفان بالتعاقب ، فإنهما يختلفان كلاهما بالطول تارة والقصر أخرى .

---

(١) سورة النحل : ١٦ . (٢) سورة ق : ٣٧.

فمَن أبدع ذلك لصالح خلقه سوى إلٰه واحد قدير عليم ، مهيمن حكيم ؟ ! .

وثالث هذه الأدلة : (الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ) فهذه الفلك :أرشد الخالقُ العقولَ البشرية إلى صنعها من خشب أوحديد ، على نحو معين يسمح لها بأن تطفو فوق سطح الماء بما تحمله من أثقال ، وأن تتحرك يَمنةً أو يَسرة ، حسب الاتجاه الذى يراد لها ، وأن تجرى بالريح التى تملأ أشرعتها وتدفعها ، أو بالآلات والوسائل والأسباب التى يسر الله للعقول استحداثها ، وهى تحمل أثقالَنا وأنفسنا ، وتجارتَنا النافعةَ لنا ، من قُطر إلى قطر ، وتربطُ البلاد بعضها ببعض: « وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ »[1] .

والله تعالى كما يمسك بنواصى النفوس ، يمسك أسباب السلامة فى رحلة هذه السفن . ولو شاء لأسكن الريح ، « إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ »[2] ، ولو شاء لعطل آلاتِها ، فتغرقَ بمن فيها ، أو يموتَ راكبوها جوعاً وظمأ . فَمَنِ الذى خلق المواد التى صنعت منها ؟ ومن الذى أرشد العقول إلى صنعها على نحو يرجى فيه السلامة ؟ ومن الذى يسّر لها أسباب الأمان ، سوى إلٰه واحد قادر عليم ، رحمٰن رحيم ؟ .

ورابع هذه الأدلة : (مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) والسماء هنا : السحاب ، والآية تشير إلى حجة عظيمة ، تتجلى فيها الرحمة والشفقة بالعباد أويتجدد فيها التعهد بالفضل والنعمة ، كلما احتاجت الكائنات الحية إلى الماء : أصل الحياة وينبوعها . قال تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ »[3] .

فبينما نرى السماء صافية الأديم ، إذا رحمة حانية من الخالق الكريم الحكيم ، تبعث الرياح ، فتثير سحابا كوّنته قدرته تعالى من بخار المياه ، فيبسُطه برحمته فوق أرجاء مختلفةٍ من الأرض ، ويوزعه بعدالته بين عباده الذين يعيشون على رحماته ، وينزل مياهه ـ بحكيم تدبيره ـ على الروابى والبطاح والسهول والجبال ، فتتخذ سبيلها إلى خزانات وأغوار فوق سطح الأرض أو تحت سطحها .

---

(١) سورة الشورى : ٣٢ .
(٢) سورة الشورى : ٣٣ .
(٣) سورة الأنبياء : ٣٠ .

فأمّا مياه الخزانات العلوية ، فتتخذ سبيلها فى أنهار وغدران ، إلى أطراف البلاد . وأما مياه الخزانات السفلية . فتتفجر ينابيع ، تجرى بالعذب الزلال ، ويظل هذا الفضل ممدودًا ، وتلك الرحمة مرسلة ، ينهل منها من يشاء ، ويغرس ويزرع على سلسبيلها من أراد أن ينشىء : « جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ »[1] يتغذى بأرزاقها ، ويتفكه بفواكهها وثمارها . ويطعم منها دوابه المختلفة .

ولم تنس هذه العناية الرحيمة دواب الصحراء الشاردة ، فقد أنبتت لهم فى واحاتها المراعى المخضرة ، دون أن يزرعها الزارعون ، وأخرجت لهم المياه العذبة ، دون أن يستنبطها المستنبطون . فَمَنِ الذى صنع هذا الجميل ، وتعهد به عباده ؟ إنه إلٰه واحد عليم ، رحمٰن رحيم ! !

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَى »[2] .

« وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »[3] .

« فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا »[4]

وخامس هذه الأدلة : أنه : (بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) .

والدابة : مايَدِب ويمشى على الأرض ، ويدخل فيها الحيوان كله ، حتى الطير . قال تعالى :

« وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ »[5] ... الآية .

والدواب من آيات الألوهية ، بخلقها ونشرها فى أنحاء الأرض ؛ لينتفع بها سكانها فى مرافقهم وضروراتهم وحاجاتهم المختلفة . فقد علم الإلٰه الرحيم : أن الإنسان لاغنى

---

(١) الأنعام : ١٤١ . (٢) فصلت : ٣٩ .
(٣) الحج : ٥ (٤) الروم : ٥٠ . (٥) النور : ٤٥ .

له عنها ، فخلقها إلى جواره ، وذَلَّلها له . لينتفع بها فى أغراضه . فَمَنْ يقدر على ذلك سوى إلٰه واحد رحمٰن رحيم ، قادر عليم ؟ .

وسادس هذه الأدلة : (تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ) : أى تقليبها وتلوينها .

فأحيانًا تكون نسيما عليلًا رطيبًا ، ينعش الأرواح ، وأُخرى تكون جافة حارة تضيق بها النفوس . وتارة تجدها لينة رخاءً ، وأُخرى عاصفة هوجاء ، وأحيانًا ريحًا عقيمًا : « مَاتَذَرُ مِنْ شىءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كالرَّمِيمِ »[1] إلى غير ذلك : مما تقتضيه حكمة الحكيم : الذى أحسن كل شىء خلقه . ورتبه على حسب مشيئته وما ينبغى لصلاح أرضه . ولو أمسك الريح ساعة لهلك كل شىء حى على سطحها . فَمَنْ فعل هذا سوى إلٰه واحد : حكيم عليم ، قهار مقتدر ! !

وسابع هذه الأدلة : (وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) .

فهذا السحاب جعله الله مصدر المطر الذى به حياة الكائنات الحية ، ومخازن له متنقلة متجددة من آن لآخر ، وهو يشبه الضباب الذى نراه صباحا ، فى الأوقات التى يكون الجو فيها مشبعا بالرطوبة .

وهو يتكون من بخار الماء ، ويكون فى الجو كالجبال ، وقد سخره الله بقدرته وذَلَّلَهُ . وجعله مطواعا للريح . تنقله إلى حيث شاء الله .

والسحاب فى تكوينه ، وتسخيره ، وجعله بين السماء والأرض ، ورعده ، وبرقه ، ومطره - آية عظيمة ، من آيات الخالق سبحانه وتعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ . يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى الْأَبْصَارِ »[2] .

ثم ختم الله هذه الآية بقوله : (لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أى إن هذه الآيات الكونية السبع ، لدلائل واضحة على ماجاء فى الآية التى قبلها من صفات الله وهى قوله تعالى :

---

(١) الذاريات : ٤٢ .

(٢) النور : ٤٣ و ٤٤ وسيأتى شرحهما .

« وإلَهُكُمْ إلَهٌ واحدٌ لا إلَهَ إلا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ » وهى آيات لقوم يتفكرون :

فإن من تأمل فى كل آية مما سبق ، وجدها مشتملة على وجوه كثيرة من الدلالات على وجوده تعالى ووحدانيته ، ورحمته وسائر صفاته .

وفى الآية تعريض بجهل المشركين وغبائهم ، لاقتراحهم على الرسول آية تدل على ذلك .

أخرج ابن أبى الدنيا وابنُ مردويه ، عن عائشة رضى الله عنها : أَنَّ النَّبِىَّ - صَلَّى اللهُ عليه وسلم - لما قرأ هذه الآية قال : « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَدَبَّرْ فِيهَا » .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾)

المفردات :

(أَندَادًا) : الأنداد : جمع نِد ، وهو النظير والشبيه . والمراد بها هنا : الأوثان .

التفسير

١٦٥ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ . . .) الآية .

لما عرض فى آخر الآية السابقة ، بعدم تعقل من يعبدون الأوثان العاجزة المصنوعة ، ويجعلونها أنداداً ونظراء لمن له تلك الأدلة الواردة فيها ، الشاهدة بتفرده بالألوهية ، أتبع هذا التعريض ببيان سائر أحوالهم مع هؤلاء الأنداد فى الدنيا والآخرة .

والأنداد هنا : الأوثان ، على ما رآه مجاهد وأكثر المفسرين . وإطلاقها عليها هو الشائع فى القرآن الكريم .

وقيل : هم الرؤساء الذين يطيعونهم طاعة الأرباب . ومن الممكن أن يراد هنا بالأنداد : الأوثان والرؤساء الذين يصرفون الناس عن عبادة الله - تعالى - وحده ، دون شريك . فلا مانع من إرادتهما معا .

والمعنى : ومن الناس من يتخذ من غير الله الواحد – الذى وردت آياته الكونية العظمى فى الآية السابقة – نظراء له وأمثالاً ، فلا يقصرون الطاعة عليه – سبحانه – بل يطيعون معه أولئك النظراء ، ويحبونهم كحبهم لله الذى يؤمنون به ، ويخلطون هذا الإيمان والحب بطاعتهم لرؤسائهم فى الشرك والمعاصى وحبهم لهم .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)

والذين صدقوا بوحدانية الله ، أَشَدُّ حبًّا له من حُبِّ أولئك المشركين لأوثانهم ورؤسائهم ، أو أشد حبا لله – تعالى – من حب المشركين له ، لأن المؤمنين لايعبدون سواه . ويلجأون إليه فى الرخاء والشدةِ ولا اتجاه لهم إلى غيره ، أما هؤلاء : فقد وزعوا حُبَّهم بين أوثانهم – وشركائهم ، وبين الله – تعالى – والله لايرضى عن هذا الشرك ولا يغفره « إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ »[1] .

وهذه شهادة من الله للمؤمنين يعتزون بها ، ويجب أن يكونوا أهلاً لها ، بطاعته ، والإخلاص له فيها ، وأن يحذروا الشرك الخفى ، حتى لا يبغضهم الله ويتخلى عنهم .

فنى الحديث القدسى « أنا أغنى الشركاء عن الشِّرْك ، فمن عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركتُهُ وشريكَهُ » .

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)

المراد : بالذين ظلموا : هم هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، فهم ظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ، وظالمون للحق بجعلهم لله أندادًا وهو غنى عن العالمين . وَ« يَرَى » الأولى علمية ، والثانية بصرية .

والمعنى – كما قال الزمخشرى – ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القدرة لله على كل شىء ، من العقاب والثواب ، دون أندادهم ، ويعلمون شدة عقابه للظالمين ، لكان منهم مالايدخل تحت الوصف ، من الندم والحسرة على ظلمهم وضلالهم .

ثم قال : فحذف الجواب هنا ، كما فى قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا على النَّارِ »[2] وكما فى قولهم : لو رأيت فلانا حين تأخذه السياط اهـ . أى : لرأيت أمرًا عظيما !

---

(١) النساء : ٤٨ . (٢) الأنعام : ٢٧ .

(إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾) .

المفردات :

(الْأَسْبَابُ) ، معناها اللغوى : الحبال ، جمع سبب والمراد بها فى الآية : مايصل الرؤساء والأتباع بعضهم ببعض من الصلات ، كالدين الواحد والأنساب والأتباع .

(كَرَّةً) : رجعة إلى الدنيا .

(حَسَرَاتٍ) : جمع حسرة ، وهى أشد درجات الندامة على شىء فات .

التفسير

١٦٦ - (إِذ تَبَرَّأَ الذين اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ) .

الربط : فى هذه الآية والتى تليها ، حكاية لما سوف يحدث فى الدار الآخرة ، من العداوة بين التابعين والمتبوعين ، وتبرؤ كل فريق منهما من الآخر ، حين يرون العذاب .

ومعنى الآية مع ما قبلها : ولو يرى المشركون الظالمون أن القوة لله جميعا وقتما يرون العذاب ، حينئذ ، تنقطع بينهم الأسباب والصلات ، فلا يهتمون بما كان يجمعهم بهم ، من عقيدة أو نسب أو تبعية أو مصلحة ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، لعل ذلك يخفف عنهم العذاب ، ويقول الرؤساء لله تعالى ، فى تبرئهم من تبعة شركهم : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ »[1] ويأتى بعد ذلك دور التابعين ، وهو ما حكاه الله بقوله :

---

(١) القصص : ٦٣ .

١٦٧ - (وَقَالَ الذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا . . .) الآية .

والمعنى : وقال التابعون : لو أن لنا رجعة إلى الدنيا ، فنتبرأ من هؤلاء الرؤساء المتبوعين ، كما تبرءُوا منا ، يريدون بذلك التمنى أن يعودوا إلى الدنيا ، ويطيعوا الله - تعالى - حتى إذا ماتوا وحشروا ، استطاعوا أن يتبرءُوا منهم ، وهم فى حالة صالحة للتبرؤ .

وقيل : إنَّ المعنى : لو أنَّ لنا نحن وهم رجعة إلى الدنيا ، فنتبرأ منهم فيها ، كما تبرءُوا منا هنا ونخذلهم ، ونتشفى فيهم .

(كذٰلِكَ يرِيهُمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ) .

المعنى : مثل ذلك الذى بينته الآية من عذابهم وتبرؤ بعضهم من بعض ، يريهم الله أعمالهم التى عملوها ، بتقديس الأنداد وإغواء التابعين ، أو التبعية للرؤساء المشركين ، إذ يجدونها حسرات وندامات عليهم .

والمقصود : أنَّ أعمالهم لا يجدون لها أثرًا من الخير ، بل يبدلها الله حسراتٍ وزفراتٍ ، حين يرون العذاب على كل عملٍ منها .

(وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) بل يخلدون فيها أبدًا .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾) .

المفردات :

(حَلَالاً طَيِّباً) : حلالا لا شبهة فى حله ، أو لا تعافه النفوس .

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) : خطوات : جمع خُطوةٍ ، بضم الخاء وفتحها ، كما قال الفراءُ . والمراد بالنهى عن اتباع خطواته : ألا يسيروا تبعا لوساوسهِ ومغرياتهِ .

(عَدُوٌّ مُبِينٌ) : أي عدو بيِّنُ العداوةِ وَاضِحُها .

(إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ) : أي ما يحرضكم إلا على ما يسوؤكم ، ويحزنكم فى عاقبته وهو المعاصى .

(وَالْفَحْشَاءِ) : ما اشتد قبحه من الذنب .

التفسير

١٦٨ - (يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

بعد أن ذكر الله - فيما تقدم - أن إله الناس واحد ورحمن رحيم ، وأقام الأدلة على ذلك ، وحذر من عاقبة الإشراك ، أتبعه إباحة الحلال الطيب . مما فى أرضه - تعالى - لهم ، وحذرهم أن يتبعوا الشيطان فى أمرهم كله من عقائد وأعمال وأرزاق ؛ لعداوته لهم ؛ ولأنه لا يأمر الناس بغير السوء والفحشاء ، وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون .

وقد نزلت هذه الآية فيمن حَرَّموا طيبات أُحِلَّت لهم ، فالمشركون لم يقتصروا على الإشراك بالله - تعالى - ، بل ضموا إلى ذلك تحريم الْبَحِيرَةِ ، والسَّائِبَةِ ، والوَصِيلة ، والحام ، وهى أنواع من الإبل ، حَرَّموا ذبحها وأكلها . وسيأتى بيانها فى تفسير سورة المائدة آية (١٠٣) .

واليهود كانوا يحرمون لحم الإبل على أنفسهم .

والآية الكريمة ، وإن نزلت فى هؤلاء ، فهى عامة الخطاب لهم ولمن على شاكلتهم ، كالسيخ من أهل الهند الذين يحرمون ذبح البقر وأكل لحمها . لأنهم يعبدونها .

هؤلاء جميعاً ، يقول لهم ربهم - سبحانه - ما معناه :

يأيها الناس كلوا مما فى الأرض ، من حيوانها ونباتها وثمارها ، حلالاً لا حرمة فيه ، طَيِّباً لا تعافه النفوس ، فلا تمنعوا أنفسكم من هذه المطاعم التى حَرَّمتموها وهى لكم حلال ؛ كما لا تمنعون أنفسكم من غيرها ، بشرط أن تكسبوها بطريق مشروع ، وألا تكون محرمة لخبثها أو لعارض ، كذكر اسم الأوثان عليها . والأمر فى : « كُلُوا » : للإباحة .

والتعبير بقوله : « فِي الأَرْضِ » ؛ لتعميم دائرة الإباحة المذكورة ، وإفساح مداها .
(ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) أى لا تسيروا تابعين للشيطان فى أموركم كلها من عقائد واكتساب للأرزاق ، وتناول للمطاعم والمشارب ، وغير ذلك من العبادات والمعاملات .

(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) أى إنه عدو ظاهر العداوة لكم ، فقد أخرج أبويكم : آدم وحواء من الجنة حَسَدًا لهما . والحسد كامن فى نفسه لذريتهما ، والعداوة تابعة للحسد . فلا ينبغى لعاقل أن يستمع لما يزيّنه له عدوه : « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً »[1] ؟ !

١٦٩ - (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ) .

علّل الله النهى عن اتباع خطوات الشيطان بعِلّتين :

أولاهما : (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) ، وقد تقدمت .

والثانية : (إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ . .) الآية .

وخلاصة الآيتين : لا تتبعوا وساوس الشيطان ؛ لأنه لا يأمركم إلا بما يسوؤكم ويحزنكم فى العاجلة أو الآجلة ، وبما اشتد فحشه وقبحه من الذنوب ، كالإشراك بالله والزنى وعقوق الوالدين ، وادعاء أن الله حرم ما لم يحرمه : كذبح البحيرة والسائبة ، أو حلل ما لم يحلله : مثل شرب الخمر وأكل الربا ، ومن كان شأنه الأمر بذلك ، فلا يصح اتباع وساوسه .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾) .

(١) الكهف ٥٠

التفسير

تمهيد : نهى الله الناس فى الآيتين السابقتين عن أتباع خطوات الشيطان . لعداوته وأمْرِه لهم بالسوءِ والفحشاءِ . وذلك يستلزم أنهم مأمورون باتباع ما أنزل الله . فجاءت هذه الآية لتوضح حالهم عند الأمر باتباع ما أنزل الله : فقال تعالى :

١٧٠ ـ (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . . .) الآية .

المعنى : وإذا قيل لهم : اتبعوا فى دينكم ما أنزل الله على نبيه محمد ـ صَلَّى الله عليهِ وسلم ـ قالوا معرضين : لا نتبعه ، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . وسواء قالوا ذلك بلسان المقال ، أم قالوه بلسان الحال ، فالمراد : أنهم أصروا على سلوك سبيل آبائهم البعيدة عن الهدى . وتركوا سبيل مولاهم الحق ، وقالوا « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ »[1]

والآية عامة : تشمل كل أهل الباطل المقلدين لغيرهم فيه . ويدخل فيهم المشركون .

(أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) .

الهمزة فى « أَوَ لَوْ » : للإنكار . والمعنى : أيتبعونهم ، ولو كان حال آبائهم أنهم لا يعقلون شيئاً ، ولا يهتدون إلى رشاد ، لتعطيلهم قوى الإدراك والهدى ، إن هذا الاتباع الأعمى أمر تنكره العقول السليمة :

ما يستنبط من الأحكام

التقليد : وهو قبول قول الآخرين دون معرفة الحجة ،

والتقليد فى الباطل مذموم . لأن هذا هو الذى عابه الله على الكفار .

أما التقليد لأهل العلم الأمناء فى الحق فهو ـ كما قاله القرطبي ـ فرض على العامى الذى لا يشتغل باستنباط الأحكام من أصولها فيما يحتاج إليه ، مما لا يعلمه من أمر دينه ، عملاً بقولِهِ تعالى : «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ »[2] .

---

(١) الزخرف : ٢٣ .

(٢) النحل : ٤٣ .

وحكى ابن عطية : أنَّ التقليد فى العقائد مجمع على منعه . وحكى - فيه خلافًا - القاضى أبوبكر الباقلانى ، وعثمان بن عيسى ، والشافعى وغيرهم .

هذا : والآيات السابقة تنهض بالعقول ، وتحميها من إسار التبعية والتقليد للآخرين ، وفقاً للقواعد المقررة فى الإسلام : « أما مازعمه الجهال كطائفة الحشوية من وجوب التقليد وحرمة النظر والاستدلال فباطل؛ لقوله تعالى : «قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»[1] وغير ذلك من الأدلة .

وتعتبر هذه الآيات مصدرًا لتكوين الشخصية المستقلة الجديرة بالمسلم ، بحيث لايكون إمَّعة ، أو تابعًا لسواه دون رويّةٍ أو تفكيرٍ .

(وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾) .

المفـردات :

(يَنْعِقُ) : يصيح ، والنعيق : التصويت على البهائم للزجر .

(دُعاءً وَنِدَاءً) : الدعاء والنداء : استدعاء الآخرين . فهما بمعنى واحد ، وقيل : الأول : لطلب القريب ، والثانى : لطلب البعيد .

(صُمٌّ) : لا يسمعون .

(بُكْمٌ) : لا يتكلمون .

التفسير

١٧١ - (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّدُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) :

بينت الآية السابقة أنَّ الكفارَ يقلدون آباءهم فيماهم فيه من الكفر ، من غير تعقل ، وأنَّهم إذا دعاهم داعٍ إلىَ ماأنزل الله أعرضوا ، وأصروا على دينِ آبائِهم ، ولو كانوا لايعقلون شيئاً ولا يهتدون .

(١) يونس : ١٠١ .

وجاءت هذه الآية . لتمثيل حالهم هذه – مع من يدعوهم إلى الحق . وهم لايعقلون مايقال – بحال البهائم مع الراعى الذى يدعوها ويحذرها . وهى لا تعى منه إلا مجرد الصياح والصراخ .

وفى الكلام مضاف مقدر : إما فى جانب المشبه . والتقدير : مثل داعى الذين كفروا إلى الإيمان ، كمثلِ الذى ينعِق . أو فى جانب المشبه به . والتقدير : ومثل الذين كفروا كمثلِ بهائم الذى ينعق . وسنأتى بالمعنى على الوجه الأول . ومنه يفهم المعنى على الوجه الثانى .

المعنى : ومثل هادى الذين كفروا وداعيهم إلى الحق . وهم لا يعقلون . كمثل الراعى الذى ينعق بماشيته ، ويصيح بها ، ليكفها عن الرعى فى مرعى وخيم يضرها . وكما أن البهائم لا تعى من الراعى إلا صوت الدعاءِ والنداءِ . دون أن تفهم غرضه وهو كفُّهم عن المرعى الوخيم العاقبة ؛ لعدم تمييزها . فكذلك هؤُلاءِ المقلدون . لم يدركوا من هاديهم وداعيهم إلى الحق ومحذرهم من الباطل سوى الدعاء و النداء ، لانهماكهم فى التقليد الذى أغلق عقولهم ، فلم تدرك ما يقول ، وكما أن البهائم وقعت فى المرعى الوخيم العاقبة – بجهلها – فكذلك هؤُلاء ، وقعوا فى مهاوى الردى . بإعراضهم عن الهدى .

ويجوز أن يكون المراد : تمثيلهم فى اتباع آبائهم على ظاهر حالهم – جاهلين حقيقتها الأَليمة – بالبهائم التى تسمع الصوت ، ولا تفهم المراد منه .

ثم ذكرت الآية أنهم (صُمٌّ) : لا يسمعون الدعوة إلى الحق لانصرافهم عنه . (بُكْمٌ) : لا يتكلمون بالحق لجهلهم إياه (عُمْىٌ) لا يبصرون الحق لإغماضهم عيونهم عن أضوائه . (فَهُمْ لَايَعْقِلُونَ) : لا يدركون شيئاً لفقدان الحواس الثلاث التى هى أبواب العلم . وليس المراد نفى هذه الحواس والعقل حقيقة ، بل المراد : أنها لا ينتفع بها فكأَنها مفقودة .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾) .

المفردات :

(مِن طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ) : المراد من الطيبات : المستلذات ـ أو الحلال من الرزق

(وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ) : أى وماذبح مذكورًا عليه اسم غير الله ، وأصل الإهلال : رفع الصوت عند رؤية الهلال ، ثم أطلق على رفع الصوت مطلقا ، ومنه إهلال الصبى عند الولادة .

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ) : فمن أجبرته الضرورة على تناول شيء مما ذكر ، لإنقاذ نفسه من الهلاك ، غير ظالم لغيره .

(وَلاعَادٍ) : ولا معتد بتجاوزه مايمسك الرمق ويدفع الجوع .

التفسير

١٧٢ ـ (يَـٰأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوالِلهِ إن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) .

يٰأَيها الذين آمنوا بالله ورسوله : أَبَحْنا لكم أن تأْكلوا من المستلذات ، وأن تنتفعوا بما أحللناه لكم من أرزاقنا التى مننا بها عليكم ، وأمرناكم أن تشكروا الله على ما أنعم به عليكم ، إن كنتم تخصونه بالعبادة ، ولا تشركون معه غيره فيها ، فإن من شأْن المؤمن الذى يخص ربه بالعبادة : أن يقتصر على ما أحله له ، وألا يتوسع فى تناوله ، حتى لا تَطْغَى نفسُه وتتجاوز الحلال إلى الحرام .

١٧٣ - (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ......) الآية .

بين الله فى هذه الآية : ما حرمه علينا من المطعومات ، لأسباب تقتضيها .

وأول هذه المحرمات : (الْمَيْتَة) ؛ فإذا ماتت بهيمة - سواء أكانت تحل مذبوحة ، كالبقرة والشاة والطير ، أم لاتحل كالخنزير - حرم أكلها ، مهما كان سبب موتها . فسواء فى التحريم : أن تموت بمرض أو بغيره .

وحكمة التحريم فى الموت بالمرض : ظاهرة ، وفى الموت بسواه : الاحتياط للسلامة ؛ فإن البهيمة التى تموت غريقة أو نحو ذلك . قد تكون مريضة وصاحبها لا يعلم مرضها ، وإنما حلت الذبائح من الحيوانات التى يحل ذبحها ؛ لأن الدم الذى يخرج منها بالذبح ، يخرج معه ماعسى أن يكون فيها من أسباب الأمراض . فضلا عن أنه - بدفعه لا بمسيله - أمارةٌ على السلامة والحيوية فى الذبيحة .

وفى حكم الميتة فى التحريم : مايقطع من الحيِّ من لحمه ، أو أعضائه . فقد أخرج أبوداود والترمذى وحسنه ، عن أبى واقد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما قُطع من البهيمة ، وهى حية فهو ميتة »

ويستثنى من تحريم الميتة : السمك والجراد ، لما أخرجه ابن ماجه والحاكم ، من حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - مرفوعا : « أُحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال » . وفى العرف أنه إذا قال قائل : أكل فلان الميتة ، لم يتطرق إلى الذهن السمك والجراد .

ويحل الانتفاع بجلدها بعد الدبغ . وإذا ذبحت أُنثى حيوان يحل أكله وفى بطنها جنين - حلَّ أكله إذا وجد ميتا ، لأن ذكاة الجنين بذكاة أمه ، فإن وجد حيا ذبح ليحل أكله .

وثانى هذه المحرمات : (الدَّم) والمراد به : الدم المسفوح ، لما صرحت به آية الأنعام : (أَوْ دَمًا مَّسْفُوحاً)[1] . أما الدم المعقود : وهو الكبد والطحال من الحيوان المذبوح ، فيحل أكله . .

---

(١) الأنعام : ١٤٥ : والمراد من الدم المسفوح الدم السائل ، أما الدم المعقود كالكبد والطحال فهو حلال .

واستدل بالآية : على نجاسة الدم المسفوح ، ولو كان ذلك من السمك ، وإنما حرم الدم ؛ لأنه يشتمل على جراثيم الأمراض ، ويتعرض للفساد بسرعة .

وثالث هذه المحرمات : (لَحْمُ الْخِنزِيرِ) ؛ لأنه يحمل بويضات الدودة الشريطية ، وهى أخطر أسباب الضعف وفقر الدم للإنسان ، فإنها تمتص خلاصات الأغذية التى يتناولها ، وهى على شكل شريط طويل ، يمتد فى الأمعاء . وهى شديدة النهم ، ولا تكاد تشبع . وربما كان التحريم لحكم أخرى ، لاتزال مجهولة لنا .

ورابع هذه المحرمات : (مَاأُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ) أى ماذبح ، وقد ذكر عليه اسم غير الله ،

وإذا كانت المحرمات السابقة قد حرمت لخبث ذاتها ، فما ذكر اسم غير الله عليه ، حرّم ؛ لخبثه معنويا : فقد ذكر عليه اسم غير خالقه المنعم به عند ذبحه ، ولولا ذلك لكان حلالا ، وسمى الذكر إهلالا : لما فيه من الإهلال أى رفع الصوت ، والمراد بغير الله : مايشمل الأصنام وغيرها .

وذهب عطاء والحسن ومكحول والشعبى وسعيد بن المسيب ، إلى تخصيص التحريم بما ذكر عليه اسم الصنم ولهذا أباحوا ذبيحة النصرانى ، إذا ذكر عليها اسم المسيح ؛ وقد خالفوا بذلك ظاهر النص ، وماعليه الجمهور من التحريم ، وقد شمل حكم الآية : ذبيحة الوثنى ، والمجوسى ، وكذا ذبيحة المعطل الذى لا يعتقد فى الله – تعالى – فهى حرام كذبيحة من ذكراسم غير الله عليها .

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

فى هذا الجزء من الآية ، إباحة هذه المحرمات للمضطر ، وهو من أكره على تناولها ليعيش . والمضطر هنا ، هو الجائع جوعا مهلكا ، ولا يجد غير تلك المحرمات ، ومثله من كان فى يد عدوٌّ ، أكرهه على أكل لحم الخنزيز وغيره .

ومعنى (غَيْرَ بَاغٍ وَلاعَادٍ) ، كما قال السدى : غير طالب لأكلها شهوة وتلذذًا ، ولاعادٍ : باستيفاء الأكل إلى حد الشبع اهـ .

ومن كان فى مجاعة مستمرة فله الشبع من هذه المحرمات ؛ استبقاءً لنفسه .

وعند الشافعي وأبي حنيفة : أن المضطر لايأكل من الميتة إلا قدر مايمسك رمقه ؛ لأن الإباحة للاضطرار .

وذهب مالك : إلى أنه يأكل منها حتى يشبع ويتزود ، فإن وجد غيرها طرحها .

والكلام مبسوط فى المطولات .

وقد استفيد من الآية : أنه لا إثم على المضطر فى الأكل مما ذكر فى الآية . أما وجوب الأكل منها لحفظ حياته فلا يؤخذ منها ، بل من قوله تعالى : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ »[1].

وليس المراد من الآية حصر التحريم فيما ذكر ، فإن المحرمات أوسع منها ، ولكن المقصود ردُّ اعتقاد المشركين أن الأكل منها حلال .

وختم الآية بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ : للإيذان بأن الحرمة باقية ، إلا أنه تعالى ، أسقط الإثم عن المضطر وغفر له ؛ لاضطراره .

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾) .

المفردات :

(وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) : ويأخذون بدله عوضاً قليلاً .

(١) البقرة : ١٩٥ .

(مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ) : أى مايأكلون من الطعام المشترى بهذا العوض إلا ما يؤدى بهم إلى النار .

(وَلَا يُزَكِّيهِمْ) : ولا يطهرهم من دنس الذنوب .

(اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) : باعوا الهدى بالضلالة ، وجعلوها مكانه .

التفسير

١٧٤ - (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ مَايَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .)

نزلت هذه الآية - كما روى عن ابن عباس - فى علماء اليهود . كانوا يصيبون من سفلتهم هدايا ، وكانوا يرجون أن يكون النبي الموعود منهم . فلمابعث من غيرهم ، كتموا ، وغيروا صفته - صلى الله عليه وسلم - فى كتابهم ، خشية أن يتبع ، فتزول رياستهم ، وتنقطع هداياهم .

وإطلاق النار على الرشوة ، لأنها تؤدى بهم إليها .

أونزلت فيهم ، لأنهم كتموا من الكتاب أحكام المحللات والمحرمات من الأطعمة ، كما أشارت إليه الآية السابقة .

والآية - وإن نزلت فيهم - فهى عامة فى كل من يكتم شيئا من كتب الله التى أنزلها على رسله ، ولايبين أحكام الله لعباده لقاء عرض من أعراض الدنيا الفانية .

والمعنى : إن الذين يخفون ما أنزل الله فى كتابه من الأحكام ، فى مقابل عرض قليل من أعراض الدنيا - وكل عرضها قليل وإن كان كثيرا - هؤلاء مايأكلون فى بطونهم من هذا العرض الدنيوى إلا مايؤدى بهم إلى النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة كلام رحمة ، وإن كان يكلمهم بلسان ملائكته كلام سخط ومؤاخذة .

(وَلَا يُزَكِّيهِمْ) : أى ولا يطهرهم من دنس الذنوب .

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : أى ولهم عذاب مؤلم ، بسبب كتمانهم الحق عن عباد الله .

١٧٥ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ) .

المعنى : أُولئك المستحقون لهذا العذاب الأَليم ، هم الذين استبدلوا فى الدنيا الضلالة التى ارتضوها لأَنفسهم ، بالهدى الذى رفضوه ، وكتموه عن غيرهم ، واستبدلوا فى الآخرة العذاب بالمغفرة ، فأَى شىءٍ أصبرهم على النار ، مع أنها لا يمكن الصبر عليها .

و(مَا) فى قوله تعالى :(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ) : استفهامية ، لغرض التعجيب ، كما قال الفراءُ

١٧٦ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) .

ذلك الذى تقدم من الجزاء الشديد المترتب على الكتمان ، حاصل بسبب أن الله نزل القرآن بالحق ، فلايصح أن يكتم أمره وأمر من جاء به ، ولا أن يُفْتَرَى عليه ، وإن الذين اختلفوا فى شأْنه لفى خلاف بعيد عن الحق ، موجب لأَشد العذاب ؛ فإن منهم من يقول : هو سحر ، ومنهم من يقول : هو شعر ، ومنهم من يقول : أساطير الأَولين . ومنهم من يقول : افتراه على الله كذبا ، أم به جِنة ، ومنهم من يقول : إنما يعلمه بشر .

ويرى بعض المفسرين : أن المراد من الكتاب : جنس الكتب التى أنزلها الله ، وأن المعنى : ذلك العذاب بسبب أن الله نزل كتبه بالحق ، فلا جرم أن يعذب من يكتمها ، أو يكذبها .

وإن الذين اختلفوا فى كتب الله ، بأَن آمنوا ببعضها ، وكفروا بالبعض الآخر ، وأساءوا تأْويل بعضها ، وكتموا بعضها الآخر - إن هؤلاء - لفى خلاف بعيد عن الحق والصواب ، مستوجب لأَشد العذاب .

(لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾) .

المفردات :

(الْبِرّ) : اسم جامع لكل أعمال الخير .

(الْبَأْسَاء) : المشقة ، أو الفقر ، أو الداهية .

(الضَّرَّاء) : كل ضرر يصيب الإنسان ، فيؤلمه إيلاما شديدًا ، مثل : المرض ، أو فقد عزيز .

(وَحِينَ الْبَأْس) : وحين جهاد الأعداء .

التفسير

١٧٧ - (لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . . . .) الآية .

بعد أن أوضحت الآيتان السابقتان : أن من الناس طائفة يشترون الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، ومنهم من يختلفون فى فهم الكتاب ، ويقعون فى شقاق بعيد أوضحت هذه الآية وجوه البر ، توضيحا دقيقاً ، لايقع بسببه فيها لبس أو خلاف .

والخطاب لأهل الكتاب ، فإنهم كانوا أكثَرُوا الْخَوض فى أمر القبلة ، حين حُوِّلت إلى الكعبة ، فقال الله لهم ما معناه : ليس البر فى أن تولوا وجوهكم ، فى أية ناحية من نواحى الأرض حَتَّى يكون ذلك موضع اهتمامكم ، ومثار فتنتكم للمؤمنين بغير حق .

(وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) :

يعنى : ولكن البر الذى يحق الاهتمام بشأنه ، والجد فى تحصيله ، هو فى : إيمان مَن آمن بالله وحده ، إيماناً بريئاً من شائبة الشرك ، لا إيمان اليهود الذين أشركوا بقولهم : عزير ابن الله ، ولا إيمان النصارى الذين أشركوا بقولهم : المسيح ابن الله ، لأن نسبة ابن إليه – تعالى – نوع من الإشراك به .

والبر الحقيقى أيضًا فى : تصديق من صدق بالله واليوم الآخر ، وما فيه من جزاء كل امرىء على حسب عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر ، وأن المشركين هم أصحاب النار خالدين فيها أبدا ، لا كما زعم اليهود : أن النار لن تمسّهم إلا أياما معدودات . وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم . فهم خالدون فى جهنم ، لا يبرحونها ؛ لشركهم بالله ، وكذا النصارى ، فهم على شاكلتهم .

وفى : إيمان من آمن بالملائكة ، وأنهم عباد الله المكرمون لا يعصون الله ما أمرهم . ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم سفراء الله إلى أنبيائه ورسله ؛ وأن حبهم جميعًا واجب ، وأن عداوتهم أو عداوة بعضهم كفر ، كما حدث من اليهود لجبريل – عليه السلام – .

وفى : إيمان من آمن بالكتب السماوية كلها ، فلا يقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، كما فعل اليهود والنصارى ، إذ كفروا جميعاً بالقرآن ، وكفر اليهود بالإنجيل .

وفى : تصديق من آمن بالنبيين جميعاً ، دون تفرقة بين أحد منهم ، لا كما فعل أهل الكتابين ، بالنسبة لمحمد – صلى الله عليه وسلم – وكما فعل اليهود بالنسبة إلى عيسى – عليه السلام – .

(وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ) .

وفى : تَصَدُّق من أعطى المال الذى يحبه ، ذوى قرابته ، فالإنفاق عليهم من أكرم الأموال : يضاعف ثواب الصدقات .

روى النسائى وغيره ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قوله : « إن الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى الرحم اثنتان : صدقة وصلة » .

وفى حديث آخر : رواه الطبرانى ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – : « إن الصدقة على ذى قرابة يضعف أجرها مرتين » .

ويلى ذوى القربى فى الإحسان : « اليتامى » فالبرّ بهم عطف عليهم ورعاية لهم . وهم أولى بالعطف والرعاية عوضًا عما فقدوا من الآباء . وقد أعظم النبى – صلى الله عليه وسلم – فضل كافل اليتيم ، فقال : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وأشار بسبابته والوسطى »[1] .

وقد عنى الإسلام بالحض على رعاية الأيتام ؛ ليكونوا – فى مستقبلهم – نافعين لأنفسهم وأمتهم ، بدل أن يهملوا ، فينشأوا وفى أنفسهم عُقَدٌ نفسية ، فيكون منهم : اللصوص وقطاع الطريق ، والفاسدون والمفسدون ، ولذلك يقول الله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ »[2] .

ثم يلى ذلك « البر بالمساكين » وهم : الذين لا يجدون ما يحفظ حياتهم إلا بشق الأنفس . ومن كان عمله لا يفى بحاجته فهو مسكين . قال تعالى : « أما السفينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ »[3] .

وفى الصحيحين ، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى ترده التمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان ، ولكنَّ المسكين الذى لا يجد غنًى يُغنيه ، ولا يُفْطَنُ له فَيُتَصَدَّقُ عليه » .

ثم يلى ذلك فى العطاء : « أبناء السبيل » ، وابن السبيل هو المسافر إلى بلد المتصدق ، أو المارّ به ، أُطلق عليه هذا الاسم لملازمته له حين التصدق عليه . ولا يدفع له من الزكاة ، حتى يدعى أنه لا مال معه وأنه محتاج . ويقدح فى حاجته قدرته على الكسب – ويشترط فى استحقاقه : أن يكون سفره مباحا . ويعطَى ولو كان له مال فى بلده يصعب حصوله عليه وهو مغترب . ويمكن معرفة أحكام ابن السبيل تفصيلا من كتب الفقه .

ثم يلى ذلك إعطاء السائلين . وهم الذين يسألون الناس . والسائل ينبغى إعطاؤه إلا إذا تحققت أنه غير محتاج .

(١) رواه البخارى وغيره . (٢) البقرة : ٢٢٠ .
(٣) الكهف : ٧٩ .

ثم يلى هؤلاء فى العطاء، تحرير الأرقاء فقد شرعه الله - تعالى - للمسلمين ، لينقذوا إخوانهم فى الآدمية ، من العبودية التى استحدثها الناس فيهم ، مع أنه - تعالى - خلق الناس أحرارا .

وقد حث على تحرير الرقيق ، وشرعه فى الكفارات ، وجعل من خصالها عتق الرقاب - ودعا إلى مساعدة المكاتبين من الأرقاء ، وهم مَنْ كاتبهم مالكوهمْ على قدر معلوم ، يؤدونه لهم ، نظير عتقهم وتحريرهم ، وقد أوصى الله المؤمنين بهذه العاطفة الكريمة ، فقال : « فَكَاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فيهِمْ خَيْراً ، وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّال الله الَّذِى آتَاكُمْ »[1] .

وأوجب سبحانه لتحرير الأرقاء نصيبا فى مصارف الزكاة .

ثم أتبع ذلك ألوانا أخرى من البر ، فقال :

(وَأَقَامَ الصَّلَاةَ) : أى وفى أداء الصلوات بأركانها وشروطها .

(وَآتَى الزَّكَاةَ) : أى وفى إعطاء الزكاة المفروضة لمستحقيها .

أمّا ما مرّ من إيتاء المال على حبه ، فالمقصود منه : التنفل بالصدقات . قُدِّم على الفريضة ، مبالغة فى الحث عليه .

أو المراد بهما المفروضة : الأول : لبيان المصارف ، والثانى : لبيان وجوب الأداء .

(وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عَاهَدُوا) :

أى : والبر فى الموفين بعهدهم ، إذا عاهدوا سواهم، فمن أبرز أنواع البر : الوفاءُ بالعهود ، قال تعالى : « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً »[2] .

روى البخارى ، أنه - عليه الصلاة والسلام - قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤْتمن خان » . والعهْد يكون بين العبد وربه ، كما يكون بين المؤمن وجماعة المؤمنين ، وبين المسلمين وسواهم .

والمجتمع الفاضل المتماسك : هو الذى يسوده الوفاءُ بالوعد والعهد . أما المجتمع الذى يفشو فيه الغدر والخيانة والغش والخداع ، فمآله التفكك والانحلال .

(١) النور : ٣٣ . (٢) الإسراء: ٣٤ .

وقد ضرب النبي – صلى الله عليه وسلم – أروع مثل ، فى صلح الحديبية ، فى الوفاء بالعهد ، على الرغم مما كان فيه من إجحاف بالمسلمين ، فعوضه الله بسبب هذا الوفاء ، وأثابه فتحا مبينا .

(وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ) .

البَأْساءُ:الفقر والشدة . وَالضَّرَّاءُ:المرض والشيخوخة ونحو ذلك ، والبأس : الجهاد فى سبيل الله ، أطلق عليه ذلك . لما فيه من البأس أى الشدة .

وقد أفاد هذا النص : أن الصبر فى البأساء والضراء وحين الجهاد ، من خلال البر .

والصبر : صفة فى النفس – خِلقية أو مكتسبة بالرياضة – تبعث على تحمل المشاق والمتاعب ، رجاء الفرج من الله تعالى . وهو أساس الفضائل ، إذ يعين على أداء الواجب للخالق والمخلوق ، وعلى قمع الشهوات ، واحتمال النكبات ، ووأد الفتن ، وعلى مشاق الجهاد .

ولهذا ورد فى الآية منصوبا على المدح ، بتقدير فعل مناسب ، نحو وأمدح الصابرين فى البأساء ... الخ .

(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) :

هؤلاء الذين اجتمعت فيهم صفات البر كلها ، كما ذكرتها الآية الكريمة ، هم الذين صدقوا فى الدين ، واتباع الحق ، وتحرى البر ، وأولئك هم الذين اتقوا الكفر ، وسائر الرذائل ، دون سواهم ، ممن كانوا ينازعون فى أمر القبلة ، ومن على شاكلتهم .

والصدق هنا : هو الإخلاص . ويطلب فى العبادات والمعاملات .

والتقوى : المراد بها الخوف من الله – تعالى – فإذا امتلأ بها قلب العبد ، أخلص لربه فى السر والعلن ، والغضب والرضا ، والحب والبغض ، واليسر والعسر .

ونلاحظ : أن هذه الآية الكريمة – على إيجازها – صورت جميع مكارم الأخلاق . فقد جمعت بين الإيمان والعمل ، وبين حقوق الله وحقوق العباد ، وبين جهاد النفوس وجهاد الأعداء ، وبين صلاح الأفراد والجماعات .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾) .

المفردات :

(الْقِصَاصُ) : توقيع العقوبة على الجانى بمثل جنايته .

(عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ) : أى ترك له القصاص فى مقابل الدية .

التفسير

١٧٨ ـ (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى . . .) الآية .

ستجد فى هذه الآية ، وما يليها حتى آخر السورة . أحكاما شرعية . ينبنى عليها أمر المعاش والمعاد ، وهى تعتبر نصف السورة تقريبا . وقد وصفت الآية السابقة الأبرار : بالأوصاف الكريمة التى بها صلاح الأمم .

غير أن المجتمعات لا تخلو من منحرفين ضالين ، لأن الصراع بين الحق والباطل من سنة الحياة . والله ـ تعالى ـ يقول : « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ »[1] ، فكان من الحكمة تأديبهم والقصاص منهم ، فنزلت الآية لتنظيم القصاص ، وعدم الغلو أو القصور فيه ، والقضاء على ما كان عليه العرب من المغالاة فيه ، بقتل الحر بالعبد ، والرجل بالمرأة ، والجماعة بالواحد ، والعظيم بالحقير ، فهم يتركون القاتل ويقتلون أعز منه . كما نزلت لتشريع الدية والعفو عن القصاص .

---

(١) سبأ:١٣ .

وكان فى شريعة اليهود القصاص ، ولم يكن لديهم العفو إلى الدية ، فكان تشريعها فى الإسلام فيه رفق بالمجتمع ، وتهيئة فرصة التوبة للجانى ، والتسامح والتصالح مع أُسرة المجنى عليه ، وذلك يؤدى إلى حقن الدماء ، وعدم معاودة القتل بين الأُسر .

روى البخارى عن ابن عباس ، قال : « كان فى بنى إسرائيل القِصاص ، ولم تكن فيهم الدية ، فقال الله - تعالى - لهذه الأُمة : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ) فالعفو أن يقبل الدية فى العمد » .

(فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) : أى فعلى أهل القتيل أن يطالبوا القاتل بدية المقتول ، بالمعروفِ من غير تعنيف ، وعلى المعفو عنه أن يؤدى الدية إلى أهل القتيل بإحسان ، من غير مماطلة وبخس .

(ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ) : حيث عدل عن القصاص إلى الدية .

(فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ ، فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : أى فمن قتل بعد قبول الدية أو بعد العفو ، أو قتل غيرالقاتل ، أو قتل القاتل إذا لم يقبل العفو عنه إلى الدية ، فله عذاب أليم فى الآخرة .

وذكرت الآية الكريمة حكم القصاص فى النوع الواحد ، ولم تتعرض لحكم ما إذا اختلف القاتل والقتيل نوعا ، كما إذا قتل حر عبداً ، أو رجل امرأة ؛ أو العكس .

والأَحناف يرون أن النفس بالنفس مطلقا ، ويشاركهم فى ذلك : داود والكوفيون وغيرهم؛ لهذه الآية ؛ ولقوله تعالى :

« وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ[1] » فإنَّ شرع من قبلنا يجب العمل به إذا لم يرد فى شرعنا ما ينسخه ؛ ولأَن القصاص يعتمد المساواة فى العصمة ، وهى بالدين أو بالدار ، وهما سواءٌ فيها ؛ ولقوله صلى الله عليه وسلم - : « المسلمون تتكافأُ دماؤهم ... »[2] .

---

(١) المائدة : ٤٥ . (٢) رواه ابن ماجه .

وما قاله الأحناف ، من قتل الرجل بالمرأة ، والعكس ، إذا كان من الأحرار المسلمين ، أمر مجمع عليه ، كما قال القرطبي .

أما قتل الحر بالعبد ، أو المسلم بالكافر فيمنعه مالك والشافعى وغيرهما .

ودليلهم فى ذلك : ماروى عن على – رضى الله عنه – : « أن رجلا قتل عبده ، فجلده رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ونفاه سنة » . وما روى عنه أنه قال : « من السنة ألا يقتل مسلم بذى عهد ، ولا حر بعبد » .

ومن حججهم التنويع والتقسيم فى الآية ، وأنه إذا كان لا قصاص بينهما فى نحو الأطراف ، فكيف يقتل الحر بالعبد قصاصا ؟ إلى غير ذلك من الأدلة .

أما قتل العبد بالحر فلا خلاف فيه ، وكذا قتل الذمى بالمسلم ، أما العكس ، وهو : قتل المسلم بالذمى ، فقد قال به الكوفيون ، والثورى ، للآية التى نحن بصدد شرحها ، ولقوله تعالى :

« وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » ولأن المسلم يقطع إذا سرق مال الذمى . وهذا يدل على أن ماله قد ساوى مال المسلم ، فدل ذلك على مساواة دمه لدمه ، إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه ، إلى غير ذلك .

والجمهور : على أنه لايقتل مسلم بكافر ، لقوله – صلى الله عليه وسلم – : « لايقتل مسلم بكافر » . أخرجه البخارى عن على .

ومن أراد التعمق فى بحث الموضوع . فليرجع إلى المطولات فى الفقه والتفسير .

واستثنى جمهور الفقهاء ، من وجوب القصاص : الأب إذا قتل ابنه ، لأن الابن قطعة من أبيه ، فالخسارة واقعة عليه .

وفى العصر الحديث : ارتفعت أصوات بعض المشرعين وعلماء النفس وعلماء الاجتماع ، تنادى بإلغاء عقوبة الإعدام لفظاعتها ؛ ولأن أغلب مرتكبيها واقعون تحت تأثير أمراض نفسية ، وينادون بعلاجهم لابقتلهم ؛ ولأن القضاة بشر : يخطئون ويصيبون ، وخطؤهم لايمكن إصلاحه ، فى حالة الإعدام .

وأخذت بعض الدول الحديثة ، بهذه المبررات ، فألغت عقوبة الإعدام .

ولكن أكثر العلماء ، ورجال الدين عارضوا هذا الإلغاء ؛ لأنه يشجع على سفك الدماء ، والاستهانة بالأرواح ، إذ الهدف من العقوبة هو الردع .

وذهب بعض علماء الاجتماع : إلى أن الإعدام أخف من السجن المؤبد ، المصحوب بالأعمال الشاقة .

والقرآن الكريم فرض القصاص ، ولكنه فتح أبوابا للرحمة ، أهمها :

١ ـ القتل الخطأ : لا قصاص فيه . وعقوبته تحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلّمة إلى أهله ، إلا أن يتصدقوا ، بتنازلهم عنها .

وللحاكم أن يضيف إلى هذا ، عقوبة التعزير .

٢ ـ لأولياء القتيل حق العفو عن القصاص فى القتل العمد ، مقابل الدية ، ولهم ـ أيضًا ـ حق التنازل عنها ؛ لأنهم هم الذين وقع عليهم الضرر .

٣ ـ إذا عفا البعض من أولياء القتيل ، وخالف البعض الآخر ، سقط القصاص ، وعاد الأمر إلى الدية أو الإحسان بالعفو .

٤ ـ أرجأ الإسلام تنفيذ القصاص فى الحامل ، حتى تضع حملها ، إنقاذا للجنين ، ورجاء لعفو أولياء الدم ، أو قبولهم الدية .

٥ ـ حبب الإسلام فى العفو حيث قال تعالى : (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ، وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) وسيأتى شرحه . وقال : « وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ[1] » .

هذا ، وقد قرر الفقهاء : أن الجانى إذا كان معروفا بالشر ، أو ظهر للإمام أن المصلحة العامة تقتضى عقابه ، فعليه أن يعاقبه العقوبة المشروعة ، ولا يعفو عنه ، صيانة للمجتمع من شره .

---

(١) النور : ٢٢

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ) المراد من أخيه : ولى الدم ، أى فالجانى الذى عُفِى له من ولى الدم شىءٌ من العَفو ، ولو أقل قليل . كأن يعفو بعض الورثة ، عن حقهم فى القصاص ، فإن ذلك يسقط القصاص ، كالعفو التام ، وسماه « أخاه » استعطافا ، بتذكير أُخوة الدين .

وقيل المراد بأخيه : المقتول . والمعنى : فمن عفى له من دم أخيه شىءٌ . والمراد ماتقدم بيانه .

(فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) : أى فليطالب العافى بالدية ، بالمعروف من غير تعنيف ولا إيذاء .

(وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) : يعنى : وليؤد الجانى الدية إلى ولى الدم بإحسان من غير مماطلة

ومن أراد معرفة أحكام القصاص والدية فى حق المسلمين وغيرهم . فليرجع إلى كتب الفقه .

(ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

فتح الله بابًا للرحمة والتخفيف وحقن الدماء ، بإجازته أخذ الدية . وتوعُّدِهِ من يعتدى بعد ذلك - أى بعد أخذ الدية ، بأن يقتص من الجانى ، أو يقتل غيره - بالعذاب الأليم ، لأنه غاش ومخادع .

والمراد بالعذاب الأليم : العقاب فى الدنيا بالقصاص ، وفى الآخرة بالنار .

وقال أبو الحسن : عذابه أن يرد الدية فقط ، ويبقى عذابه فى الآخرة .

وقال عمر بن عبد العزيز : أمره إلى الإمام ، يصنع فيه ما يرى .

وقيل غير ذلك .

ووجه التخفيف بأخذ الدية : أن أهل التوراة ، كان لهم القتل ، ولم يكن لهم غير ذلك ، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ، ولم يكن لهم قَوَد ولادية ، فجعل الله - تعالى - ذلك تخفيفًا لهذه الأمة ، فمن شاء قتل ، ومن شاء أخذ الدية ، ومن شاء عفا . قاله القرطبى .

(وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾)

المفـردات :

(الْأَلْبَاب) : جمع لب ، وهو : العقل .

التفسير

١٧٩ - (وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الْأَلْبَاب . . .) الآية .

هذه الآية تعليل لإيجاب القصاص الذى مر بيانه فى الآية السابقة ، وتوضيح لمحاسنه على وجه بديع ، حيث جعل الشىء سببًا فى ضده .

فقد ذكرت فى إيجاز معجز ، الهدف من القصاص ، وهو حياة المجتمع فى أمن وسلام ، ولهذا خاطبت أولى الألباب ، أى : أصحاب العقول الخاصة من العلماء والأذكياء .

فإذا انحرف بعض الأفراد ، اقتضت المصلحة العامة للجميع . استئصال المنحرف ، محافظة على سلامة غيره فالقصاص من الجناة حياة آمنة للأمة . وإلى هذا أشارت الآية الكريمة :

« مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا [1] » .

فالأصل : هو القصاص . أما العدول عنه إلى قبول الديات أو العفو ، فمتروك لأولياء الدم .

وقد عنى علماء البلاغة والمفسرون بالموازنة بين التعبير القرآنى : « ولكم فى القصاص حياة » ، وبين الحكمة العربية : « القتل أنفى للقتل » .

وأورد السيوطى فى كتابه : «الإتقان» عشرين وجها ، لتفضيل العبارة القرآنية .

ومن أبرز وجوه امتيازها على العبارة العربية : أنها واضحة الهدف وهو الحياة للأمة ، وأن القتل فيها للقصاص .

(١) المائدة : ٣٢ .

أما العبارة العربية : فليست كذلك ، كما أن القصاص قد يكون بغير قتل ، وذلك عند إصابة بعض الأعضاء . وليس فى العبارة العربية تعرض له .

وسبب الحياة بالقصاص : أن من يفكر فى القتل ، ويعلم أنه سيقتص منه إذا قتل ، يمتنع عن القتل ، فيتسبب ذلك الامتناع فى حياة نفسه ، وحياة من يريد قتله ، فإذا عم هذا التفكير بين الناس ، ساد فيهم الأمن والسلام ، وتوفرت لهم الحياة ، كما أنهم كانوا يقتلون الجماعة بالواحد ، فإذا اقتص من القاتل وحده سلم الباقون ، فيكون ذلك سبباً لحياتهم .

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾) .

التفسير

١٨٠ - (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ بالمعرُوفِ ...) الآية .

بعد أن تناولت الآية السابقة حقوق أولياء الدم فى القصاص أو الدية أو العفو ، تناولت هذه الآية حقوق بعض أولياء الميت فيما ترك من خير وهم : الوالدان والأقربون ، فذكرت : أن مَنْ تَوقَّعَ النهاية ، فعليه أن يوصى بتركته لوالديه وبقية أقاربه ، بما يعرف العقلاء حسنه فلا يحرم بعضهم بدون حق .

وجمهور المفسرين القدماء - وفى مقدمتهم ابن عباس وابن عمر - على أن هذه الآية منسوخة بآيات الميراث فى سورة النساء . وسندهم فى ذلك : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - خطبهم على راحلته فقال : « إن الله قد قسم لكل إنسان نصيبه من الميراث ، فلا تجوز لوارث وصية » . أخرجه أحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجه . وكذلك ما أخرجه الإمام أحمد والبيهقى فى سننه عن أبى أمامة الباهلى . سمعت رسول الله - صلى

الله عليه وسلم ـ فى حجة الوداع فى خطبته ، يقول : « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » .

فهذا الحديث وذاك ، أفهما أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرهم أن آية المواريث نسخت وجوب الوصية للوالدين والأقربين ، المأخوذ من هذه الآية .

والقائلون بنسخ وجوب الوصية اختلفوا :

فمنهم من قصر النسخ على الذين يرثون ، وأبقى وجوبها فيمن لا يرثون ، كأن يكون الوالدان أو الأقارب كافرين ، أو يكونوا مؤمنين ، ولكنهم حجبوا من الميراث ، كابن الأخ الذى حرم بأخ ، وكذوى الأرحام .

فالوصية واجبة لهؤلاء وأمثالهم عند بعض من قال بالنسخ . وممن قال بذلك : ابن عباس وعلى ـ رضى الله عنهما ـ روى عن على أنه قال : من لم يوص عند موته لذوى قرابته ممن لايرث ، فقد ختم عمله بمعصية .

ومنهم من قال : إن الوجوب نسخ فى حق الجميع ، ولكنها مستحبة فى حق الذين لايرثون ، وإلى هذا الرأى ذهب الأكثرون .

وقيل إن هذه الآية لم تنسخ بآيات المواريث ، بل حدد بها ما كان الموصى حراً فى تحديده بمقتضى هذه الآية . فقد رأى الحكيم ـ سبحانه ـ أنه قد لايحسن التدبير فى مقدار ما يوصى به لكل واحد من أقاربه ، ولايعرف من هو أولى بالوصية من سواه ، وقد يقصد المضارة . فتولت حكمته تعالى بيان ذلك الحق ، بما أنزله من آيات المواريث متفقاً مع الحكمة والمصلحة ، حيث حصر الأنصباء فى النصف والربع والثمن ، والثلثين والثلث والسدس وعين أصحابها ، وما فضل ـ بعد أصحاب الفروض ـ أعطاه لأولى الذكور العصبات ، وبَيَّنَ دَرجاتِهم ، فتحول التقسيم بآيات المواريث من الموصى ـ كما كان شائعا ـ إلى المولى سبحانه وتعالى ، فقال فى سورة النساء : « يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلادِكُمْ . . . [1] » الخ أى يوصيكم فى ورثتكم ـ

(١) النساء : ١١ .

وقد عجزتم عن تحقيق المصلحة بينهم بأنفسكم - بأن يكون تقسيم أموالكم بينهم على النحو المبين فى الآية ، وذلك كمن أمر غيره بإعتاق عبده ، ثم أعتقه هو بنفسه .

ومن أراد المزيد من تحقيق الموضوع ، فليرجع إلى الموسوعات فى تفسير تلك الآية الكريمة : (حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) أى هذه الوصية : جعلها الله حقا ، يلتزم به من اتقى الله وراعاه .

(فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾) .

المفردات :

(إِثْمُهُ) : الإثم : ارتكاب ذنب .

(خَافَ) : الخوف هنا بمعنى العلم .

(جَنَفًا) : الْجَنَفَ : الجور والميل عن الحق .

التفسير

١٨١ - (فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ . . .) الآية .

هذا تحذير من الله ، لمن يبدل وصية الميت من الأوصياء والشهود ، بعد ما تأكد من صدورها عنه ، وإنذار له بأنه آثم مرتكب لكبيرة من الكبائر . ومن كان كذلك ، عوقب عقاب كبائر الذنوب ؛ لأنه أعان على قيام باطل ، بدلاً من الإعانة على تنفيذ حق شرعه الله .

وتبديل الوصية : يكون بإنكارها ، أو بالنقص فيها ، أو بتغيير صفتها ، أو بغير ذلك .

(إِن اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) فيسمع أقوال المبدلين والموصين ، ويعلم نياتهم : فيجازيهم على حسبها ، وفى هذا وعيد مؤكد للمبدلين ، ووعد للموصين العادلين .

واستدل بالآية : على أن وجوب الوصية يسقط عن الموصى بنفس الوصية وأنه لا يلحقه تبعة ، إن لم يعمل بها .

١٨٢ - (فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ . . .) الآية .

والمعنى : فمن علم من المسلمين جورا من موصٍ فى وصية ، بأن أوصى بالمال إلى زوج ابنته ، أو ابن ابنته - مثلا - لينصرف المال إلى ابنته ؛ رغبة فى حرمان وارث ؛ أو أوصى لبعيدٍ وترك القريب ، فأصلح بين الموصى لهم وبين غيرهم ممن وقع الجور عليهم ، بتعديل الأنصباء التى فى الوصية ، لصالح من جار عليهم الموصى فلا إثم على هذا المصلح ، فى مخالفة الوصية ؛ لأنها جائرة ، ولا ينطبق عليه الإنذار الإلٰهى ، فى قوله تعالى : (فَمَنْ بَدَّلَهُ) ؛ لأنه تبديل للمصلحة ، لا تبديل للهوى .

وقيل : المراد أنه فعل الإصلاح بينهم فى حياة الموصى . بأن أمر الموصى بالعدول عن جوره فى وصيته ، وتحقيق العدل بينهم .

وعلى كلٍّ ، فالإصلاح بينهم فرض كفاية . يأثم الجميع بتركه ، فإذا قام به أحد المسلمين ، سقط الإثم عن الباقين .

(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

هذا تذييل ، قصد به الوعد بثواب من أصلح على إصلاحه ، وذكر المغفرة مع أن الإصلاح طاعة ، والمغفرة إنما تليق بمن عصى ، لتقدم ذكر الإثم الذى تتعلق به المغفرة . ولذا حسن ذكرها . يعنى : أنه - تعالى - غفور للآثام ، فلأنْ يكون رحيمًا بمن أطاعه أولى !

وقيل : المعنى : إن الله غفور للمصلح ما يفرط منه فى الإصلاح ، كأن يكذب للمصلحة . أو غفور لجور الموصى بعد ما أصلح الوصى . بين من أوصى لهم وبين غيرهم .

وقيل : غير ذلك .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾) .

المفردات :

(الصِّيَامُ) : الإمساك عن الشيء . ويقول البيضاوى : إنه الإمساك عما تشتهيه النفس .

(يُطِيقُونَهُ) : يحتملونه بمشقة كبيرة . وسيأتى بيان آراء الفقهاء فى ذلك .

التفسير

١٨٣ - (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ . . .) الآية

تناولت الآيات السابقة بعض الأحكام ، ولا يزال حديث الأحكام موصولا ، فقد ذكرت هذه الآية وما تلاها : كثيرًا من أحكام الصيام .

وقررت هذه الآية أن الصيام فرض على المؤمنين ، كما كان مفروضاً فى الديانات السابقة ، وإن اختلف الصيام فى كل أمة فى الكيفية أو المُدة .

قال صاحب الكشاف ، فى تفسير قوله تعالى : (كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) : على الأنبياء والأُمم ، من لدن آدم إلى عهدكم .

وقال على - رضى الله عنه - : « إن الصوم عبادة قديمة ، ما أخلى الله أُمةً من افتراضها عليهم » .

وإنما فرضه الله على كل أمة ؛ لما فيه من فوائد جسمية وروحية .

والحكمة فى تشبيه فرضه علينا بفرضه على من كان قبلنا ، هى تخفيف مشقته على الصائمين ؛ فإنه إذا كان شريعة عامة فى جميع الديانات ، كان ذلك أدعى إلى الصبر عليه ، وعدم التقصير فيه . ولأهميته جُعِل الركنَ الرابعَ من أركان الإسلام ، كما فى الحديث الصحيح المجمع عليه : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لاإله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحجّ » . رواه ابن عمر عن الرسول – صلى الله عليه وسلم .

والصوم لغة : الإمساك ، ومنه الصوم عن الكلام ، كقول مريم عليها السلام : «إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا . فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا »[1] .

وشرعا : الإمساك عن الطعام والشراب ومباشرة النساء ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، مع تبييت النية .

وللصيام آثار حسنة كثيرة .

فهو يربى الوازع النفسانى ، وينمى الإرادة ، ويبعث على الخير ، ويقمع الشر ، ويعلم الصبر ، ويحقق المساواة بين الفقير والغنى فى الجوع ، ويذكر الغنى أخاه الفقير ، فيعطف عليه ، ويعينه . . إلى غير ذلك من الفضائل . وله فوائد صحية عديدة ، أجمع عليها الأطباء .

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) : لعلكم بالصوم تتقون المعاصى ، فإنه يذكر الصائم بخشية ربه ، ولذا حببه الرسول إلى الشباب الذين لا يجدون مئونة الزواج .

فقد جاء فى الصحيحين : «يامَعْشَرَ الشباب من استطاع منكم الباءَةَ فَلْيتزوّجْ ، فإنه أغض للبصرِ ، وأحْصنُ للفرجِ ، ومَن لم يستطعْ فعليه بِالصومِ ، فإنه له وجاءٌ »[2]

---

(١) مريم : ٢٦ .

(٢) أى دفع الشهوة وقمع لها .

وقد بينت السنة فضائله .

ومن ذلك : ما رواه الشيخان عن النبي – عليه الصلاة والسلام – : «من صام رمضان إيمانا واحتسابا ، غفر له ما تقدم من ذنبه » . ومارواه مسلم فى حديث قدسى :

« كل عملِ ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها ، إلا الصوم فإنه لى ، وأنا أجزى به » .

١٨٤ – (أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ . . .) الآية

أى كتبه أياما قليلة تعد .

والمراد بالأيام المعدودات : شهر رمضان ، الذى سيصرح به فى الآية التالية ، وهذا هو رأى ابن عباس ، وأكثر المحققين وأحد قولى الشافعى ؛ فيكون الله قد أخبرنا – أولا – بأنه كتب علينا الصيام ، ثم بين عدته بيانا يقصد به التخفيف ، بقوله : (أَيَّامًا مَّعْدُوداتٍ) ثم بينه بيانا تاما بقوله : (شَهْرُ رَمَضَانَ) ... الخ .

والتعبير عن الشهر : بأنه أيام معدودات ، لتقليل مدته ، والتيسير على الصائمين وكأنه – تعالى – يقول – : فرضناه شهرا تُعَدُّ أيامه ، ولم نفرضه أكثر من ذلك ، رحمة بكم ، وتيسيرا عليكم .

وقيل : المراد بالأيام المعدودات : ثلاثة أيام من كل شهر قمرى فى وسطه ، وهى أيام الليالى البيض : الثالث عشر والتاليان له ، ونسخ صيامها بشهر رمضان ، ونسب هذا الرأى إلى ابن عباس وجماعة .

والراجح الأول .

ويمكن تحقيق دليل كلٍّ فى المطولات .

(فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) : أى فمن مرض منكم أو سافر فله أن يفطر مدة المرض أو السفر ، ثم يقضى أياما بعدة أيام فطره .

وتقدير المرض والسفر ، فيه خلاف بين الفقهاء .

فقد ذهب بعضهم : إلى أن أى مرض أو سفر ، يبيح الفطر .

وذهب الجمهور : إلى أن المرض المبيح للفطر ، هو الذى يشق احتمال الصيام معه ، ولا يحتمل عادة . ومثل المرض الشديد : الخوف من استمراره ، أو زيادته أو توقع حدوثه إن صام ، بحكم عادة أو مشورة طبيب عادل . وهذا هو الراجح . وقيل : غير ذلك .

وأما السفر ، فحدده بعضهم بثمانية وأربعين ميلا ، بينما نزل به البعض الآخر إلى ثلاثة أميال . وقيل : غير ذلك . ويشترطون فيه ألا يكون سفر معصية .

وعلى المسلم أن يحتاط فى تقدير المرض ، فالصوم أمانة بين العبد وربه ، كما عليه أن يحتاط فى تقدير مشقة السفر ، وبخاصة فى هذا العصر الذى توافرت فيه سبل الراحة بالمواصلات السريعة . وحسبه قوله تعالى : (وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) فينبغى له أن يصوم كلما أمكن الصوم ، وإن انطبقت عليه الرخصة .

وإذا أفطر المترخص بالسفر أو المرض ، فلا ينبغى أن يعيب عليه من صام ، مع وجود الرخصة له .

فقد روى الشيخان عن أنس – رضى الله عنه – : « كُنَّا نُسَافِرُ مَعَ النَّبِىِّ – صلى الله عليه وسلم – فَلَمْ يَعِبِ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ » .

(وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ) .

يقول كثير من المفسرين : إن الصيام فى أول الإسلام كان بالخيار للقادر عليه ، لأنهم لم يكونوا معتادين الصيام قبل الإسلام ، فكان فرضه مع الإلزام فيه مشقة عليهم ، فرخص لهم الفطر مع الفدية ، وقَدْرُها طعام مسكين فى اليوم ، عن كل يوم . وقدرها أهل العراق : بنصف صاع من بُرٍّ (أى قمح) أو صاع من غيره ، وقدرها أهل الحجاز : بمدٍّ[1] لكل يوم .

ويستدل من قال : إن الصيام أول الإسلام كان اختياريا ، وأن الآية نزلت لتخيير من قدر عليه بين الصيام وبين الفدية المذكورة ، بما أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، عن

(١) المد بضم الميم : مكيال خاص وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز ، ورطلان عند أهل العراق ، وقدره بعض الباحثين بنصف قدح مصرى .

سلمة بن الأكوع ـ رضى الله عنه ـ قال : لما نزلت الآية : (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ) كان مَنْ شاء مِنَّا صَامَ ، ومن شاء أفطرَ وَيَفْتَدِى ـ فُعِلَ ذَلِكَ ـ حتَّى نَزلت الآيَةُ التى بعدها فَنَسَخَتْهَا : (فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) .

ومن العلماء من لم يقل بالنسخ ، ويفسر (يُطِيقُونَهُ) بمعنى : يصومونه جهدهم وطاقتهم ، وهذا مبنى على أن الوسع هو القدرة على الشىء مع السهولة ،والطاقة هى القدرة عليه مع المشقة ، فيصير المعنى : وعلى الذين يصومونه مع الشدة والمشقة ـ إن أفطروا ـ فدية إلخ . ويدخل فيهم : الشيخ الضعيف والحامل والمرضع ونحوهم .

ويقول بعض أصحاب هذا الرأى : إن الهمزة فى أطاق للسلب ، فمعنى (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ) على هذا الرأى : وعلى الذين تسلب طاقتهم بالصيام فدية . . . إلخ ، وذلك كما فى : قسط بمعنى جار ، وأقسط بمعنى عدل ، وترب بمعنى افتقر ، وأترب بمعنى استغنى . ونحو ذلك .

(فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ). أى فمن زاد على القدر المذكور فى الفدية ، أو زاد على من يلزمه إطعامه ، بأن أطعم مسكينين فصاعدا ، أو جمع بين الإطعام والصيام ، فهو خير له.

(وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تعْلَمُونَ) :

الخطاب بذلك لمن أبيح لهم الفطر ، على أى وجه مما سبق ، أى : وأن تصوموا خير لكم من الفطر ، إن كنتم تعلمون ما فى الصوم من الفضيلة .

روى الشيخان عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « ما من عبد يصوم يوماً ، إلا باعَدَ الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا » .

وإنما يفضل الصوم الفطر ، إذا لم يتعرض به الصائم إلى الخطر ، فإن كان يفضى صومه إليه ، فالفطر واجب بالإجماع ، لقوله تعالى : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ »[1] .

ومذهب الظاهرية : وجوب الإفطار لعذر السفر والمرض مطلقا ، وأن من صام فى سفر ، أو مرض ، لا يصح صومه وهو رأى مرجوح ، لأنه ثبت أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفطر فى بعض الحالات ، تشريعا لأمته .

(١) البقرة : ١٩٥ .

(شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾) .

المفـردات :

(الْفُرْقَان) : الفارق بين الحق والباطل .

(شَهِد مِنْكُمُ الشَّهْرَ) : علم به بأى وجه مِن وجوه العلم .

(الْيُسْر) : السهولة .

(الْعُسْر) : المشقة .

التفسير

١٨٥ - (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ...) الآية .

هذه الآية بينت أن الأيام المعدودات فى الآية السابقة هى شهر رمضان ، وذكرت أن الله تعالى شرف هذا الشهر بإنزال القرآن الكريم فيه ، وكان ذلك فى ليلة القدر ، قال تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ »[1] أى بدأنا إنزاله فيها . وعن ابن عباس وابن جبير والحسن ، أنه أُنزل فيها إلى سماء الدنيا جملة ، ثم أُنزل منجما فى ثلاثة وعشرين عاما حسب الوقائع .

(١) سورة القدر : ١ .

(هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) أى : أنزل الله القرآن الكريم فى شهر رمضان ، هداية للناس إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإلى مصالح المعاش والمعاد ، وآيات واضحات من جملة الكتب الهادية إلى الحق ، الفارقة بينه وبين الباطل .

(فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) :

أى فمن حضر منكم فى الشهر ، ولم يكن مسافرا فلْيصم فيه ، أو من علم هلال الشهر بأىّ وسيلة من وسائل العلم به فليصمه .

روى الشيخان عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته ، فإن غُمَّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » .

وكانت رؤية العين هى الوسيلةَ الوحيدة للعلم به فى عهد الرسول – عليه الصلاة والسلام – وصحابته .

وبعض الفقهاء العصريين يرى : أن رؤية العين غير دقيقة ، وأن علم الفلك قد تقدم ، وأصبح بالإمكان تحديد الأوقات بالثانية والدقيقة عن طريقه ، وأصبح اعتمادنا فى تحديد أوقات الصلوات عليه ، ويرى ارتكانا على هذا : اعتبار أول رمضان على أساس حسابه الدقيق .

وقال بهذا الرأى – عند الغيم – من القدامى – مطرف بن عبد الله ، وهو من كبار التابعين ، وابن قتيبة ، وهو من كبار المحدثين ، فقد قال : « يُعَوَّل على الحساب عند الغيم بتقدير المنازل ، واعتبار حسابها فى صوم رمضان » .

وقد قرر مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية : الاعتماد على الرؤية فى حال الصحو ، والاعتماد على المراصد الفلكية فى حال الغيم ، إذ الرؤية فيها رؤية . ومع هذا فلا يزال المسلمون يعتمدون على الرؤية بالعين المجردة ، ومن لم ير الهلال فى دولته اعتمد على رؤيته فى دولة مجاورة .

(وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) : بعد أن عظّمت الآية شأن الصوم ، أعادت إباحة الترخيص فى الإفطار ، توكيداً لأمره ، وذلك عند من يقول : إن الصوم كان واجباً من غير تخيير ، منذ أول التكليف به ، وأما عند من يقول : إنه كان على التخيير ، ثم نسخ التخيير بالإلزام فى قوله : (فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) :

فإن إعادة الترخيص بالفطر للمريض والمسافر ؛ لإفادة إباحة الفطر لهما عند الإلزام ، كما كان عند التخيير ، حتى لا يظن زوال هذا الترخيص ، بالإلزام بالصيام .

والأيام الأُخَرُ ، تتم فى غير رمضان والعيدين ، ويكون صيامها بعدد أيام الفطر .

واستدل بالآية على جواز القضاء متتابعاً ومتفرقا ، وأنه ليس على الفور ، خلافا لداود ، كما استدل بها على أن من أفطر رمضان كله ، قضى بعدد أيامه ، فلا يجزئه صيام شهر عدده تسعة وعشرون يوما ، مكان رمضان الذى كان ثلاثين يوما ، بل يزيد عليه يوما .

(يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ) :

تخفيفا عنكم بهذا الترخيص . قال تعالى : « يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضعيفًا » [1]

(وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) : لغاية رأفته ، وسعة رحمته فلا يكلفكم ما لا تطيقون فإنه : « لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا » [2] .

(وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

أى شرع لكم ما ذكر من الأحكام فى هذه الآية ؛ لتكملوا عدة شهر رمضان أداء أو قضاء ، فلا تنقصوا من عدته يوماً أو أكثر ؛ فإن صيامه كله مفروض عليكم ؛ ولتعظموا الله بالحمد والثناء على ما هداكم إليه ، من صيام هذا الشهر المبارك ، والترخيص بالفطر عند العذر ، وطريقة قضاء الصيام عند زوال العذر ، ولعلكم تشكرون الله على نعمة الصيام المشتمل على فوائد خلقية واجتماعية وصحية عديدة ، وعلى نعمة الترخيص بالفطر للعذر ، وقضاء ما أفطرتموه عند زواله .

---

(١) النساء : ٢٨ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾) .

التفسير

١٨٦ ـ (وَإِذَا سَأَلكَ عِبَادِى عَنِّى فإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ . . .) الآية .

ورد فى سبب نزول هذه الآية : أن أعرابيا قال : يا رسول الله ، أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ : (وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ، فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) .

والآية متصلة بعبادة رمضان ، إذ هو شهر صيام وقيام ، حافل بالعبادة والدعاء ، ولهذا وردت آية الدعاء بين آيات الصيام . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « الصائم لا تُرَدُّ دعوته » رواه الترمذى .

ومعنى (فَإِنِّى قَرِيبٌ) : فقل لهم : إنى ، والمراد بالقرب : الإحاطة والعلم ، لا القرب المكانى .

وقد وعد الله ـ تعالى ـ فى الآية أنه يجيب دعاء من دعاه ويحققه . وقيد الله إجابته بقوله : (إِذَا دَعَانِ) للإشارة إلى أنه ـ تعالى ـ يجيبه إذا اتجه إليه وحده بالدعاء .

ولا تقتضى الآية أنه يجيب الدعاء دائما . فهى وعد بالإجابة فى الجملة ؛ إذ الإجابة

تابعة لمشيئة الله - تعالى - طبقا لحكمته ، قال تعالى : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ »[1] .

وقد يبدّل الله للعبد خيرًا مما طلبه ، أو يدخر له دعاءه فى الآخرة ، فيحط عنه من سيئاته ما شاء ، أو يوليه فضلاً منه ورحمة .

ففى الحديث الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما من مسلم يدعو بدعوة ، ليس فيها إثم ، ولا قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله - تبارك وتعالى - إحدى ثلاث : إما أن يعجل له فى الدنيا ، وإما أن يدخر له ، وإما أن يكف عنه السوء بمثلها . قالوا : إذن نكثر ، قال : الله أكثر » .

رواه مالك فى الموطأ ، كما رواه غيره .

والدعاءُ : ترجمان العبودية والخضوع والاستسلام من العبد لربه ، وإيمانه بأن الأمور كلها بِيَدَىْ مولاه - سبحانه - .

ولذا صح عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « الدعاءُ مخ العبادة » . وللدعاءِ آداب هامة ، ذكرها الإمام الغزالى فى الجزء الأول من الإحياء .

(فلْيَسْتَجِيبُوا لِى) : أى فليطلبوا إجابتى بالدعاءِ ، لأن السين والتاء للطلب ؛ أو فليجيبونى إذا دعوتهم للإيمان والطاعة ، كما أنى أجيبهم إذا دعونى لحاجاتهم .

واستجاب وأجاب بمعنى واحد ، غير أن الاستجابة أقوى .

(وَلْيُؤْمِنُوا بِى) : أى وليدوموا على الإيمان بى .

(لَعلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) : أى ليهتدوا إلى مصالح دنياهم وأخراهم .

وقد عقبت أحكام الصيام المذكورة بقوله : (وإذَا سَأَلك عِبادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ...) الآية ، للإيذان بأنه تعالى خبير بأفعالهم ، سميع لأقوالهم ، مجازيهم على أعمالهم ، تأكيداً لتلك الأحكام ، وحثًّا عليها .

---

(١) الأنعام : ٤١ .

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)) .

المفـردات :

(الرَّفَثُ) : كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة ، قاله الزجاج . وفى الكشاف : هو الإفصاح بما ينبغى أن يكنى عنه بين الرجل والمرأة ، ورفث فى كلامه : أفحش . والمراد من الرفث فى الآية : المباشرة الزوجية .

(تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ) الاختيان : الخيانة البليغة .

التفسير

١٨٧ - (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ . . .) الآية .

سبب نزول هذه الآية كما رواه البخارى : « لما نزل صوم رمضان ، كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم ، فأنزل الله :

(عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ) .

وعن ابن عباس ، قال : كان المسلمون فى شهر رمضان إذا صلوا العشاء ، حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة . ثم إن أناسًا من المسلمين أصابوا من النساء والطعام

فى شهر رمضان بعد العشاء ، منهم : عمر بن الخطاب ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فأنزل الله ـ تعالى ـ :

(عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ) .

وعن ابن عباس ـ أيضا ـ قال : إن الناس كانوا ـ قبل أن ينزل فى الصوم ما نزل فيه ـ يأكلون ويشربون ، ويحل لهم شأن النساء ، فإذا نام أحدهم ، لم يطعم ولم يشرب ولا يأتى أهله ، حتى يفطر من القابلة ، فبلغنا أن عمر بن الخطاب بعدما نام ووجب عليه الصوم ، وقع على أهله ، ثم جاء إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أشكو إلى الله وإليك الذى صنعت . قال : وماذا صنعت ؟ قال : إنى سَوَّلَت لى نفسى فوقعت على أهلى بعد ما نمت ، وأنا أريد الصوم ، فزعموا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ما كنت خليقاً أن تفعل » ، فنزل الكتاب : (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ) ذكره ابن كثير .

ومن ذلك يفهم : أن الأكل والشرب والجماع ، كانت محرمة عليهم من العشاء ، أو من بعد النوم إلى الفجر ، فخالفوا ، ـ وهم بشر ـ قبل أن يُشَدد الإسلام النكير على المخالفين فى ذلك ، ويستدلون للتحريم السابق ، بقوله تعالى : (فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ) .

وقد دلت الآية : على جعل الصيام من الفجر إلى المغرب ، بنص الآية . وهذا يدل على أن الصيام قبل ذلك لم يكن بهذه الصورة . ويشهد لذلك أيضا قوله :

(كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ) .

وبعضهم فسّر الآية بأنَّ بعض الصحابة خالف ما اعتقد أنه واجب الأداء ، وهو بدء الصيام من العشاء .

أمَّا جُملة (أُحِلَّ لكم) فلا تدل على أنه كان حراما ، وإنما لتقرير إباحته ، مثل قوله تعالى (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ[1]) .

والمراد من الرفث إلى النساء : جماعهن .

---

(١) المائدة : ٩٦ .

والمعنى : أحل لكم أيها المؤمنون ، جماع زوجاتكم ليلة الصيام دون حرج .

(هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ) : هذه الجملة فى قوة التعليل للإباحة ، وهى مجاز عن أن كليهما يمنع الآخر عما لا يحل ، فكما يمنع اللباس الحر والبرد ، فكذلك كل من الزوجين يمنع الآخر ، ويستره عن الفاحشة ، بما أحله الله له من المباشرة .

وقال ابن عباس معناه : هن سكن لكم وأنتم سكن لهن .

(عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ) : بغشيان نسائكم وإنقاص حَظِّ أنفسكم من الثواب وتعريضها للعقاب بفعل ما تعتقدونه محرما عليكم .

(فَتَابَ عَلَيْكُمْ) : أى قبل توبتكم (وَعَفَا عَنْكُمْ) : أى محا أثره عنكم ، فلم يَعُدْ فعله خطيئة لكم .

(فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ) : بهذا أزال الله عن المؤمنين الحرج ، فأباح لهم أن يباشروا نساءهم ليلة الصيام ، مع مراعاة أن الهدف ليس إرضاء الشهوات فحسب ، بل إعفاف الزوجين ، وحفظ النوع الإنسانى ، فينبغى أن ينوى ذلك بالمباشرة كما سنَّها الله .

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) .

أحلت هذه الآية للصائمين : أن يباشروا زوجاتهم ، وأن يأكلوا ويشربوا من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . والخيط الأبيض : كناية عن الشعاع الضوئى الممتد بعرض الأفق ، فإذا بدأ ظهوره ؛ تميز من فوقه الليل أسود اللون ، وهو الذى كَنَّتْ عنه الآية بالخيط الأسود ، فإذا اجتمعا على هذا النحو ، كان الفجر .

فالفجر : عبارة عن مجموع الخيطين الأبيض والأسود . ولذا بينهما الله مجتمعين بقوله : (مِنَ الْفَجْرِ) ولكون الفجر مجموع الخيطين ، قال الشاعر :

وَأَزْرَقُ الْفَجْرِ يبدُو قبلَ أبيَضِهِ . . . .

أى : سواده يظهر فوق بياضه .

فمتى جاء الفجر على هذا النحو ، وجب الإمساك عن هذه المباحات .

(ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُم عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ) :

حين يبدأ الإمساك عن المفطرات ، فعلى الصائم أن يتم صومه إلى الليل . وله فى الليل ما أحل الله له ، إلا أن يكون معتكفاً فى مسجد لطاعة الله ، فمحظور عليه ليلا مباشرة النساء ـ مراعاة لحرمة المسجد ـ ، لا الطعام والشراب ، فإنهما مباحان .

والمباشرة المنهى عنها ـ حينئذ ـ : هى الجماع ، أما نحو اللمس والقبلة ، فإن كان بغير شهوة فمباحان ، ولكن يكرهان . وإن كانا بشهوة وتلذذ ، فسد الاعتكاف .

(تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا) : (تِلْكَ) إشارة إلى ما تقدم من أحكام ، وسماها حدوداً ؛ لأنها حجزت بين الحق والباطل ، والنهى فى (فَلَا تَقْرَبُوهَا) آكد من لا تعتدوها ؛ لأنه يشير إلى البعد عنها ، حتى لا ينزلق المؤمن فى غفلة منه ، فيتجاوز الحد ، فمن حام حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه .

ولم ينهنا الله ـ تعالى ـ عن مقاربة حدوده ، إلا فى هذه الآية وآية الزنى ، وآية مال اليتيم ، فإن غريزة الجنس ، وغريزة حب المال ، تعصفان بالإنسان ، إلا من التمس أن يعصمه الله .

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) : وعلى هذا النحو الدقيق : وضح الله الأحكام للناس حتى لا يلتبس عليهم الحق بالباطل ، وبهذا تصح عبادتهم ، وتسمو نفوسهم ويتمسكوا بتقوى الله .

« وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ[1] » .

وهكذا نرى آيات الصيام مختومة بالتقوى ، مثلما انتهت بها آيات الأحكام السابقة . لأنها الهدف الأسمى للمؤمنين .

---

(١) النور : ٥٢ .

(وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾) .

المفـردات :

(تُدْلُوا بِهَا) : تلقوا بها .

(الْإِثْم) : الذنب .

التفسير

الربط : الصوم يفضى إلى القناعة والعدالة الاجتماعية ، والمال موطن الظلم والطمع والجور. فلذا حذرنا الله من فتنته بهذا النهى الحكيم .

١٨٨ - (وَلَاتَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الحُكَّامِ ...) الآية . فقد تناولت الآية فى سياق ما أوردت الآيات السابقة من أحكام - حكماً جديدًا ، يتعلق بحرمة الأموال .

فإنها تنهى عن أكل أموال الآخرين ، عن طريق غير مشروع . والمراد من الأكل مايعم الأخذ والاستيلاء وغيرهما . وعبر به لأنه أهم أغراض المال .

والمعنى : ولايأكل بعضكم مال بعض بغير حق ، وتلقوا بالخصومة فيها إلى الحكام : فإن فى ذلك خراب البيوت .

وقيل معنى : (وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ) : ولا تلقوا بعضها إلى حكام السوء على سبيل الرشوة .

(لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) : أى لا تأخذوا أموالكم بينكم بغير وجه حق ، وتلقوا بالخصومة فيها إلى الحكام ، لتبرروا أكل بعض أموال الناس ، بسبب يوجب الإثم والذنب ، كشهادة الزور ، واليمين الفاجرة ، والرشوة ، وأنتم تعلمون أنكم مبطلون ، وقد استدل بقوله :

(وَأَنْتُمْ تعْلَمُونَ) : فمن لا يعلم أنه يأكلها بالباطل ، لظنه أنها حق له وحكم له الحاكم بأخذها ، فهي له حلال .

ولكنْ على المسلم أن يتحرى فى كسبه البُعْد عن الشبهات ؛ فإن الجهل بالجرائم لايبرر ارتكابها . وعبارة (وأنتم تعلمون) لإظهار بشاعة تعمد ارتكاب الآثام .

وسبب نزول هذه الآية ، على ما رواه ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير مرسلا : أن عبد الله بن أشوع الحضرمى ، وامرأ القيس بن عابس ، اختصما فى أرض ، ولم تكن بينة ، فحكم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأن يحلف امرؤ القيس ، فهمّ به ، فقرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا[1] » فارتدع عن اليمين ، وسلم الأرض ، فنزلت .

واستدل بالآية : على أن حكم القاضى لأحد بما ليس له ، لايجعله حلالًا فى الواقع .

وجاء فى ذلك حديث رواه البخارى ومسلم ، عن أم سلمة زوج النبي – صلى الله عليه وسلم – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إنما أنا بَشَرٌ وأنتم تختَصِمُون إلىَّ ، ولعل بعضَكم أن يكون ألحنَ بِحُجَّتِهِ من بعض ، فأَقضِيَ له على نحوِ ما أسمعُ منه ، فمن قضيتُ له بشيء من حَقِّ أخيه ، فلا يأْخُذَنّه ، فإنما أقطعُ له قِطْعَةً من النار » .

(يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾) .

المفردات :

(الْأَهِلَّة) : جمع هلال ، وهو القمر أول الشهر العربى .

(مَوَاقِيتُ) : معالم زمنية يوقت بها الناس شئونهم ، ويعرفون بها وقت حجهم .

(١) البقرة : ١٧٤

التفسير

١٨٩ ـ (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ . . .) الآية .

سبب النزول : روى عساكر ، عن معاذ بن جبل ، وثعلبة بن غنم ، قالا : يارسول الله ، مابال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ، ويستوى ، ويستدير ، ثم لايزال ينقص ، ويدق ، حتى يعود كما بدا ، لايكون على حالة واحدة ؟ فنزلت الآية .

وإنما قال : (عَنِ الأَهِلَّةِ) بالجمع ؛ مع أنهم سألوا عن الهلال ؛ وهو واحد ، لأن الحالة التى سألوا عنها ـ لما كانت تتكرر كل شهر ، وتتعدد : نزل تعدد الأحوال منزلة تعدد الذات ، فصح الجمع وكان أولى من الإفراد .

والسؤال يحتمل أن يكون عن الحكمة فى تطور شكل الهلال ، وأن يكون عن السبب والعلة ، والآية ليست نصاً فى المراد ، وقد أمر الله الرسول أن يجيب السائلين بقوله : (قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) .

وهذا الجواب مطابق للسؤال ، إن كانوا يسألون عن الحكمة ؛ وهو من الأسلوب الحكيم ، إن كانوا يسألون عن العلة .

والأسلوب الحكيم : أن يجاب السائل بغير مايطلب ، توجيهاً له إلى مايفيده ، وماهو جدير بالسؤال عنه .

والمعنى : يسألونك يامحمد عن الأهلة ، قل : هى معالم للناس يُوَقِّتون بها أمورهم الدنيوية مثل مواعيد الزراعة ، والتجارة ، وسداد الدين ، والقدوم والسفر ، ونحو ذلك ، مما يصلح فيه التوقيت القمرى ، ومعالم للعبادات المؤقتة ، كالصيام والحج ، ولو كان القمر على حالة واحدة ، لم يتيسر هذا التوقيت .

(وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا) .

سبب النزول : أخرج ابن جرير ، والبخارى ، عن البراء ، قال : « كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية ، أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله : (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا . . .) الآية . وكأنهم كانوا يتحرجون من الدخول من الباب ، من أجل سقف الباب أن يحول بينهم وبين السماء ، كما صرح به الزهرى ، فى رواية ابن جرير – رضى الله عنه – ، ويعدون فعلهم ذلك برًّا ، فبين لهم : أنه ليس ببر .

وكما كان يحدث هذا فى البيت الحرام ، كان يحدث منهم فى بيوتهم ، فقد روى أن الأنصار كانوا إذا قدموا من سفر ، لم يدخل الرجل من قبل بابه .

ويقول الحسن البصرى : كان أقوام من أهل الجاهلية ، إذا أراد أحدهم سفراً ، وخرج من بيته يريد السفر الذى خرج له ، ثم بدا له – بعد خروجه – أن يقيم ويدع سفره : لم يدخل البيت من بابه ، ولكن يتسوره من قِبَلِ ظهره ، إلى غير ذلك ، مما يشابهه . وقد نزلت هذه الآية لتعليمهم أدب الدخول .

ووجه الاتصال بين دخولهم البيوت من ظهورها ، وبين سؤالهم عن الأهلة : التعريض بأن السؤال عن الأهلة ، يعتبر كإتيان البيوت من ظهورها ، وأن اللائق بحالهم ألا يسألوا عن هذا الأمر ، الذى لم يستعدوا لإدراكه من الناحية العلمية .

والآية : تعتبر مثلا فيمن يباشر الأمور بطرق غير مألوفة .

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى) : أى ولكن البرَّ برُّ من اتقى المحارم والشهوات .

(وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) : أى باشروا أموركم من وجوهها ، التى يجب أن تباشر عليها .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ) : فى جميع أموركم .

(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) : لكى تفوزوا بما تطلبون من الهدى والبر ، فإن من اتقى الله ، تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه ، وانكشف له من الأسرار حسب تقواه .

(وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾).

المفـردات :

(فى سَبيلِ الله) : سبيل الله : دينه .

(ثَقِفْتُمُوهُمْ) : وجدتموهم .

(الْفِتْنَةُ) : الابتلاء .

التفسير

١٩٠ - (وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

الربط : هذه الآية وما تلاها من الآيات ، تشتمل على أحكام القتال فى الحج فى البلد والشهر الحرام ، فكانت مناسبة للآية السابقة التى تحدثت عن مواقيت الحج .

ولقد اعتزم المسلمون أن يحجوا فى العام التالى لصلح الحديبية ، وفقاً لما حدث الاتفاق عليه فيه ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية ، يعلمهم فيها مايصنعون ، إذا قاتلهم المشركون فى البلد الحرام والشهر الحرام .

سبب النزول : أخرج أبو صالح عن ابن عباس - رضى الله عنهما : أن المشركين صدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية ، وصالحوه على أن يرجع عَامَهُ القابل ،

ويخلوا له مكة ثلاثة أيام ، فيطوف بالبيت ويفعل ماشاء ، فلما كان العام المقبل تجهز رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه لعمرة القضاء ، وخافوا ألا تفى لهم قريش بذلك وأن يصدّوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم ، وكره أصحابه قتالهم فى الشهر الحرام ، فأنزل الله الآية . . .

والمعنى : وقاتلوا فى سبيل الله – أى لغرض إعلاء كلمة الله – الذين يبدءونكم بالقتال دفاعاً عن أنفسكم وحريتكم فى أداء العبادة ، ولا تعتدوا بقتل النساء والصبيان، والشيوخ المسنين، ومن ألقى إليكم السَّلام ، وكف يده عنكم ، فإن قتلتموهم فقد اعتديتم وتجاوزتم ما يحل لكم ، إن الله لايحب المعتدين ، بل يبغضهم ويعاقبهم .

١٩١ – (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ . . .) الآية .

المعنى : : واقتلوهم – غير معتدين حيث وجدتموهم : فى حل أو حرم ، وأخرجوهم من ديارهم ، كما سبق أن فعلوا ذلك بكم ، حيث أخرجوكم من دياركم ، ولم يكتفوا بهذا ، بل تناولوا من بقى منكم من المسلمين فى مكة : بالتعذيب والتنكيل ، ليرتدوا عن الإسلام .

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) : أى بقاؤهم على الشرك ، أشد قبحاً من قتلهم فى الحرم والشهر الحرام ، فلا تبالوا بقتالهم فيه . أو المعنى : والمحنة التى يفتن بها الإنسان :بالإخراج من الوطن والحرمان من المال ، والتعرض لألوان القسوة والعذاب – للتأثير فى العقيدة – أشد من القتل لاتصال تعذيبها ، وتألم النفس بها .

ومن هنا قيل :

لَقَتْلٌ بحَدِّ السيْفِ أَهْوَنُ مَوْقِعاً عَلَى النَّفْسِ مِن قَتْلٍ بِحَدِّ فِرَاقِ

ومن فتن بمثل هذه الفتنة ، فمن حقه المشروع : أن يقابل العدوان بالعدوان .

(وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ) : على المسلمين أن يؤدوا مناسك دينهم ولا يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، فإذا اعتدى عليهم المشركون ، واستباحوا البلد الحرام والشهر الحرام ، فللمسلمين أن يصدوا هذا العدوان : بالدفاع عن حياتهم وعن عقيدتهم . والشر بالشر والبادئ أظلم . وليتحمل المشركون وِزْرَ ما انتهكوه من حرمات .

(فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) :

فإن ابتدأ المشركون بقتال المسلمين ، فعلى المسلمين أن يقتلوهم . وعبر بقوله : (فَاقْتُلُوهُمْ) بدل : فقاتلوهم ؛ للإيذان بأن على المسلمين ألا يمكنوهم من المغالبة ، وأن يسارعوا بقتلهم .

١٩٢ ــ (فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) : أى فإن كفوا عن قتالكم ، أو عن الشرك ، فكفوا عن قتالهم ، غافرين لهم اعتداءهم ، راحمين لهم : تخلقاً بصفتى الله ــ تعالى ــ وهما : المغفرة والرحمة ، لعل الله يهديهم إلى التوحيد ، أو يخرج من أصلابهم من يعبده ويجاهد فى سبيله .

أو أن المعنى : فإن الله يغفر لهم ما قدموا ، ويرحمهم إن آمنوا ، وذلك فتح لباب التوبة ، وإنهاء العداوة والعدوان .

١٩٣ ــ (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ . . .)[1] الآية

والفتنة هنا : الشرك ، أى قاتلوهم حتى لايكون شرك ، ليتحقق للمسلمين حرية العقيدة ، وحرية أدائهم لشعائرهم الدينية . فمشركو العرب لايقبل منهم إلا الإسلام أو السيف لقوله تعالى : (تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) .

فإذا حاول المشركون أن يفتنوا المسلمين فى عقيدتهم ، أو أن يصدوهم عن أداء شعائرهم فعلى المسلمين أن يقاتلوهم ، حتى يقضوا على هذه الفتنة ، بالقضاء عليهم ، ليكون الدين فى الجزيرة العربية خالصاً لله ، حتى يأمن الإسلام فى معقله من معوقات انطلاقه ، وليكون الدين خالصًا لله ، ولتحقيق هذا : لا بد من القضاء على الفتنة القضاء التام .

(فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) : أى فإن انتهوا عن الشرك ، وقتال المؤمنين ، ودخلوا فى الإسلام صادقين مخلصين ، فلا تقاتلوهم ؛ لأن الإسلام يحرم قتال غير الظالمين لأنفسهم بالكفر والإشراك بالله . والمراد بالعدوان : مقاتلة المشركين . وسماه عدوانا لأن مقاتلة المشركين للمؤمنين تعد عدوانا منهم . فهو على حدّ قوله (فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ) .

---

(١) عطف على : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ) والأمر الأول: لوجوب أصل القتال؛ ردا للاعتداء ، وبيان آدابه . والثانى لبيان غايته .

(ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾) .

المفردات :

(الْحُرُمَاتُ) جمع حرمة وهي : ماينبغي صيانته : من عرض أو مال أو كرامة .

(قِصَاص) القصاص : العقاب على جريمة بمثلها .

التفسير

١٩٤ - (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ...) الآية .

إذا استباح المشركون الشهر الحرام الذى لايحل فيه القتال وقاتلوكم فيه ، فقابلوا عدوانهم بمثله ، واستبيحوا الحرب فيه كما استباحوا ، فلا تبالوا بقتالهم لكم فيه ، صداً لعدوانهم ، فإن الحرمات فيها القصاص .

وفى هذا المعنى : يقول الله - تعالى - : « وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ [1] » .

وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح ، عن جابر - رضى الله عنهما - قال : « لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يَغْزُو فى الشهر الحرام إلا أن يُغْزَى » .

والأشهر الحرم هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب .

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) : هذه الجملة هى النتيجة المتفرعة على قوله تعالى : (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ) .

(١) الشورى : ٤١ .

يعنى : أنه إذا كانت الحرمات ، أى الأُمور التى تجب المحافظة عليها ، يجرى فيها القصاص ، بحكم الشرائع والعقول ، فإن لكم الحق فى أن تدفعوا اعتداء من اعتدى عليكم بمثل عدوانه .

والأمر فى قوله : (فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ) . للإباحة . إذ العفو الذى لايضر المسلمين جائز .

وقد استدل الشافعى- رضى الله عنه -بهذه الآية ، على وجوب القصاص بمثل ماارتكبه الجانى من ذبح وحرق وتجويع وإغراق ،حتى لو ألقاه العدو فى ماءٍ عذب ، ألقاه فى ماءٍ عذب مثله ، ولم يلقه فى ماءٍ مالح .

واستدل به أيضا على أن من غصب شيئا وأتلفه يلزم برد مثله : ثم إن المثل قد يكون بالصورة فى ذوات الأمثال ، وقد يكون بالقيمة فيما لامثل له .

وبما أن الآية وردت فى القتال ،وشرعت المماثلة فى الاعتداء ،فلهذا يكون مشروعاً : أن الأعداء استعملوا الغارات الجوية ، أوحرب الجراثيم ، أو المتفجرات النووية ، على المدن المفتوحة ، فالمقابلة بالمثل واجبة شرعاً .

« وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِن كانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[1] .

وسمّى صَدّ العدوان عدوانا ، من باب المشاكلة ، مثل قوله تعالى : « نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ »[2] .

وقوله : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »[3] .

(وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » : انتهت الآية بطلب التقوى من المؤمنين ، كما هو الشأن فى آيات الأحكام ، وطلب التقوى منهم فى القتال أشد وآكد منه فى سواه ، لتعلقه بالأرواح وَبِمَنْ وراء المقاتلين من أهليهم وأموالهم .

فهى من آداب القتال الهامة فى الإسلام .

والله مع المتقين بالنصر والتأييد ودفع كيد الأعداء .

---

(١) سورة النحل : ٣٣ . (٢) التوبة : ٦٧ . (٣) الشورى : ٤٠ .

(وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾) .

التفسير

١٩٥ - (وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ . . .) الآية .

الاستعداد للقتال ، يقتضى أموالًا طائلة لتسليح الجنود برًّا وبحرًا وجوًّا ، ولتنظيم الإمدادات ، وشق طرق للمواصلات ، وإعداد المستشفيات ، وما إلى ذلك ، فيجب تدبيرها وإحكامها ، بحيث تستطيع مواجهة حدة المباغتة .

ولهذا أوجب الإسلام على كل مسلم أن ينفق فى سبيل الله ، وأوجب للحاكم شرعا : أن يفرض من الضرائب مايكفى ، ويبقى رصيداً احتياطيًّا للطوارئ .

والتأهب - فى زمننا - واجب على الأمم الإسلامية ، لأن ظروفها تستوجب ذلك .

وكما أن الإنفاق فى سبيل الله يكون فى الجهاد ، فإنه يكون أيضاً فى وجوه البر ، والخير .

(وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) : تحذير للمسلمين من التقصير فى الإعداد لِلقاء الأعداء ، حتى لايصيبهم بغتة مكروه يهلكون فيه .

والمعنى : ولا تتسببوا - بتهاونكم وغفلتكم - فى إلقاء أنفسكم بأيديكم إلى الهلاك .

ومن ذلك ترك الغزو ، والتقصير فى إعداد الجنود والقادة عسكريا ، وإهمال التحصين والتهاون فى الإنفاق ، وغير ذلك مما لابد منه .

وقد نزلت هذه الآية فيمن فكروا فى الإقامة بين أهليهم بعد انتشار الإسلام .

روى أبو داود والترمذى ، وغيرهما ، عن أسلم بن أبى عمران ، قال : « حَمَلَ رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ، ومَعَنا أبو أيوب الأنصارى ، فقال : ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا ، صَحِبْنَا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وشهدنا معه المشاهد ، ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر ، اجتمعنا معشر الأنصار نَجِيًّا ، فَقُلْنا قد أكرمنا الله بصحبة نبيه – صلى الله عليه وسلم – ونصره ، حتى فشا الإسلام ، وكثر أهله ، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها ، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهم فنزل فينا :

« وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » .

فكانت التهلكة – الإقامة فى الأهل والمال ، وترك الجهاد . وخصوص السبب لايمنع من أن تكون الآية قانونًا عامًّا ، فى القتال وغيره .

(وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) الإحسان فى كل صوره واجب على المسلم فى القتل وفى الذبح ، وفى إغاثة الملهوف ، وفى مباشرة القتال ، وغير ذلك . ولكلٍّ من الحالات إحسان يناسبها ، فإذا قتل فليحسن القتل ، بألا يعذب فيه ، وإذا ذبح فكذلك ، بأن يحد الشفرة ، ويريح الذبيحة ، ويسرع فى الذبح .

وفى إغاثة الملهوف : لايتركه يتضرع ويتذلل ، بل يغيثه سريعا فى الخفاء ، بحيث لاتدرى شماله ماتفعل يمينه .

والإحسان فى الحرب : يتناول معاملة الأسرى ، وعدم المثلة وتجنب قتل النساء والشيوخ والأطفال .

والإحسان فى العبادة : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو يراك .

بهذا وأمثاله – مما يدخل فى نطاق التقوى ، يوصى الله المسلمين . (إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)[1] .

(١) النحل : ١٢٨ .

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾) .

المفردات :

(أُحْصِرْتُمْ) : حوصرتم ، وحبستم .

(اسْتَيْسَرَ) : سهل .

(الْهَدْى) : ما أهدى من الأنعام ؛ ليذبح بمكة فى موسم الحج ، ويوزع على الفقراء تقربا إلى الله .

التفسير

١٩٦ - (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ والْعُمْرَةَ لِلهِ . . .) الآية .

الربط : أشارت آية البِرِّ إلى ثلاثة من أركان الإسلام : الإيمان بالله ورسله وملائكته واليوم الآخر ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأشارت آيات الصيام إلى الركن الرابع ، وأشارت هذه الآية وما تلاها إلى الركن الخامس والأخير ، من أركان الإسلام وهو الحج .

والحج فريضة ، مرة فى العمر لمن استطاع إليه سبيلا . والعمرة عند الفقهاء بين مفروضة فى العمر مرة ، ومسنونة . يفرضها الشافعية والحنابلة ، ويسنها المالكية ، أما الحنفية فيقول بعضهم : بفرضيتها ، وبعضهم : بسنيتها .

وقد أمر الله فى الآية بإتمام الحج والعمرة خالصين لله ، بحيث لا يكون فى أدائهما شرك ظاهر أو خفى ، وهو الرياء .

وإتمام الحج والعمرة : الإتيان بهما كاملين تامين ، وذلك يتحقق بأداء أركانهما وهى الإحرام والطواف والسعى والحلق أو التقصير . ويزيد الحج : الوقوف بعرفة ورمى الجمار مع رعاية شروطهما ، وسائر أفعالهما ، كما هو مقرر فى علم الفقه .

والحج أوانه معروف . أما العمرة فتصح فى أى وقت من السنة . وللحاج أن يقرن بينهما فى إحرام واحد وعمل واحد ، أو أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحج وبعد فراغه من أعمالها يتحلل ويلبس ثيابه ، إلى قبيل الوقوف بعرفة ، فيحرم بالحج ، ويسمى الأول قارنا ، والثانى متمتعاً ، لتمتعه فيما بين العمرة والحج ، بما هو محرم على المحرم .

(فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) : إذا عوقكم معوِّق عن دخول مكة ، أو عن إتمام المناسك ، فعليكم تقديم ما تيسر لكم من الهدى : إبلا أو بقرًا أو غنما أو معزا ، إن أردتم التحلل من الإحرام : يذبحه المحصر عند الأكثرين حيث أحصر ؛ لأنه – صلى الله عليه وسلم – ذبح بالحديبية لما أُحصِرَ فيها ، وهى من الحلّ .

وعند أبى حنيفة رحمه الله : يبعث به إلى الحرم ، ويتفق مع من بعثه على يوم يذبح فيه ، فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح ، تحلل ؛ لقوله تعالى : (وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) والإحصار هنا . قاصر على منع العدو للحاج والمعتمر من المضىّ فى نُسُكِهِمَا ، وذلك عند مالك والشافعى لقوله تعالى : (فَإِذَا أَمِنْتُمْ) ولنزوله فى الحديبية ، وغير ذلك من الأدلة .

أما عند أبى حنيفة : فهو شامل لكل مانع من النسك سواء كان المانع عدوًّا أو مرضا أو غيرهما ، لقوله – صلى الله عليه وسلم – : « مَن كسر أو عرج فقد حل فعليه الحج من قابل ».

فارجع إلى المطولات إن شئت الموازنة بين المذاهب ، والمزيد من الأحكام .

فالمحصر بالعدو أو غيره عند أبى حنيفة ، يتحلل بذبح الهدى ، وعند مالك والشافعى : لايتحلل بذبح الهدى سوى الممنوع بالعدو فهو المقصود من الآية . وأما الممنوع بنحو المرض : فلا يحله إلا الطواف ، وإن أقام سنين .

ومن لاهدى معه وقت الإحصار ولا قدرة له عليه ، أحلّ ، ثم أهدى عندما يقدر عليه . نقله القرطبى عن الشافعى .

ويرى بعض الفقهاء : أن المحصر بعدو لايجب عليه القضاء - وله ثواب الفريضة ، ويكتفى بالهدى - ما لم تكن عليه الفريضة ، بأن لم يسبق له حج ولا عمرة ، وإلا وجب عليه أداؤهما عندما يستطيع .

(وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) .

المعنى : لايحل للمحرم المحصور أن يحلق رأسه ، ويتحلل من إحرامه بالحلق أو التقصير ، حتى يصل الهدى إلى محل ذبحه ، وهو المكان الذى يجب أن ينحر فيه ، وهو حصر العدو عن مالك والشافعى ، حيث أحصر الحاج أو المعتمر . وعند أبى حنيفة : محل الذبح فى الإحصار مطلقاً : هو الحرم .

(فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ) .

يجب على المحرم - إن كان صحيحاً - ألا يخلع ملابس الإحرام ، ولا يحلق شعره ، أو يقصه ، طول مدة الإحرام ، فإن كان مريضاً بمرض يحوجه إلى الحلق ، فله أن يلبس ملابسه العادية ، ويؤدى الفدية عن ذلك ، ومن كان برأسه أذى من : حشرات ، أو جرح يستدعى علاجه أن يحلق ، حلق وفدى . والفدية هنا : صوم ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين ، لكلٍّ نصف صاع من الطعام ، أوذبح شاة وتوزيعها على الفقراء .

(فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) : أى فإذا أمنتم إحصار العدو ، أو كنتم فى حالة أمن وسعة ، فمن تمتع بالعمرة إلى الحج ، فعليه ماتيسر من الهدى .

وتفصيل ذلك : أن من نوى العمره فى أشهر الحج ، ثم تحلل منها بعد الفراغ ، يسمى متمتعاً ، لأنه تمتع بالانتفاع بما هو محرم على المحرم – بعد ماتحلل من عمرته – كاللبس ، والاغتسال ، ومباشرة النساء ، حتى صُبْحِ عرفة : فيغتسل ويلبس ملابس الإحرام ، ويحرم للحج ، ويؤدى مناسكه . وفى مقابل هذا التمتع : يجب عليه أن يذبح هديا : جبراً لهذا التمتع عند قوم . أو شكرًا لله عليه عند آخرين حيث تقرَّبَ إلى الله بالعمرة ، قبل أن يتقرب إليه بالحج ، ويذبح هذا الهدى ، إذا أحرم بالحج ، ولا يأكل منه عند الشافعى : لأن التمتع عنده فيه تقصير ، والهدى لجبر هذا التقصير ، فلا يؤكل منه ، وأجاز أبوحنيفة الأكل منه ، لأنه عنده دم شُكْرَانٍ على نعمة التمتع ، فهو كالأضحية فله الأكل .

(فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) : أى فمن لم يجد الذبيحة أو لم يجد ثمنها ، فعليه أن يصوم ثلاثة أيام فى موسم الحج بعد الإحرام به ، وقبل التحلل منه ، والأفضل أن يكون فى سابع ذى الحجة وثامنه وتاسعه ، ولا يجوز صوم يوم النحر .

وعند أبى حنيفة : أن معنى (فى الْحَجِّ) : فى أشهر الحج فيصوم بين إحرامى الحج والعمرة ، وعليه أيضًا أن يصوم سبعة أيام ، إذا عاد إلى بلده – تلك عشرة كاملة . وذكر جملتها بعد تفصيلها ، لكيلا يتطرق الشك إلى عددها ، بأن يقال : إن الواو : بمعنى أو التى للتخيير كما فى قولك : جالس الحسن وابن سيرين . أى أحدهما ، وقول الشاعر :

كما الناس مجروم عليه وجارم

وهذا الحكم خاص بمن لم يكن أهلوهم حاضرى المسجد الحرام ، وهم غير أهل مكة ، أما أهل مكة وسكانها ، فهم حاضروا المسجد الحرام ، فليس عليهم فدية ، لأنهم لا متعة لهم ولا قران ، لإمكان أداء العمرة طول العام .

والشافعى على أن لهم تمتعاً وقرانا ، ومن تمتع منهمْ و قرن ، كان عليه دم جُبْرَان كغيره فلا يـأكل منه ، كما تقدم .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

ختم الآية بعد ذكر أحكامها بطلب التقوى ، جريا على النسق المطرد فى آيات الأحكام السابقة .

وإذا كان ثواب الحج مغفرة من الله ورضوانا ، فإن العبث فيه ، أو الإخلال بشعائره ، مما يستدعى عقاب الله – تعالى – فهو شديد العقاب لمن خالف مناسكه ، فتجاوز حدود الله ، وترك ما أمر به وارتكب ما نهى عَنه .

(ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾) .

المفـردات :

(رَفَثَ) الرفثُ : الجماع أو الكلام الفاحش .

(فُسُوقَ) الفسوق : المعصية مطلقاً . أو هو مخالفة أوامر الحج وارتكاب نواهيه ، كلبس المخيط والصيد وقص الشعر .

(جِدَالَ) الجدال : المناقشة الحادة مع الرفقاء والخدم وغيرهم .

التفسير

١٩٧ - (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ . . .) الآية .

لما ذكر الحج والعمرة فى قوله تعالى : (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) شرع يبين اختلافهما فى الوقت ، فذكر أن أشهر الحج أشهر معروفات ، لا يشكلن على الناس ، فلا يصح الحج فى غيرها ، وهى : شوال ، وذو القعدة ، وعشر ذى الحجة ، ولا يصح عند الشافعية الإحرام به قبل أشهره ، ليتمه فى أشهره ، ويصح مع الكراهة عند الحنفية . أما العمرة : فجميع العام وقت للإحرام بها وفعلها .

(فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) فمن ألزم نفسه فى تلك الأشهر بالحج ، فعليه أن يبتعد عن الرفث ، وهو جماع النساء أو ذكره لهن ، أو الكلام الفاحش مطلقاً ، كما عليه أن يبتعد عن كل إثم يشوب عبادته . وأن يجتنب المجادلة لأنها توغر صدور الرفقاء ، والخدم وغيرهم ، فإن الوقت وقت مودة وصفاء وتسامح .

روى البخارى ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » .

ثم حث على فعل الخير عقب النهى عن فعل الشر ، وحض على استعمال الكلام الحسن مكان القبيح ، والتزام البرّ والتقوى مكان الفسوق ، والتمسك بالوفاق والأخلاق الحميدة مكان الجدال ، فقال :

(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ) وما دام يعلمه فإنه سيجازيكم عليه ، فلا تدخروا وسعاً فى عمله .

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) .

ذكر البخارى وأبو داود - رضى الله عنهما - : أن أهل اليمن كانوا يحجون ، دون أن يتزودوا من الطعام ، ويقولون : نحن المتوكلون ، ويسألون الناس الطعام ، فنزلت هذه الآية . ولكنها غير مقصورة عليهم ، إذ العبرة - كما يقرر الفقهاء - بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فالمعنى : وتزودوا أيها المسافرون بالطعام ، واتقوا طلبه من غيركم والإثقال عليهم بذلك ، فإن خير الزاد اتقاء الإثقال على الناس وإبرامهم ، أو تزودوا للمعاد باتقاء المحظورات فإن خير الزاد اتقاؤها ، وخافوا عقابى ، يا أصحاب العقول الراجحة .

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾) .

المفردات :

(جُنَاحٌ) الجناح : الإثم .

(فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ) : المراد به الرزق من تجارة أو غيرها .

(أَفَضْتُمْ) : اندفعتم .

(الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ) مزدلفة ـ بين عرفات ومنى .

التفسير

١٩٨ ـ (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ . . .) الآية .

قال ابن عباس ـ فيما روى البخارى ـ : كان ذو المجاز وعكاظ ، متجرا الناس فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ، كره المسلمون الجمع بين الحج والتجارة ، حتى نزلت هذه الآية : (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ) .

والمراد من كونهما متجر الناس فى الجاهلية : أنهم كانوا يقيمون بهما أسواقًا للتجارة ، فى مواسم الحج ، ليتعيشوا منها .

ومن المبادئ الإسلامية المعروفة : أن الإسلام يعنى بالأجسام ، إلى جانب عنايته بالأرواح ، ويعنى بالتنمية المالية ، إلى جانب عنايته بالشعائر الدينية ، قال تعالى :

« فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ »[1] .

---

(١) سورة الجمعة : ١٠ .

فالسعي فى سبيل الرزق عبادة ، على ألا يشغل الحاج عن أداء المناسك على وجهها ، لأن أداءها هو الهدف الأول والغاية العظمى . والمعنى : لا إثم عليكم فى طلب الرزق أثناء الحج .

(فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ) .

الإفاضة من عرفات : هى الخروج منها بكثرة . ومعنى العبارة : فإذا اندفعتم من عرفات جموعا عديدة فاذكروا الله . مأخوذ من أفضتَ الماءَ : إذا صَبَبْتَهُ بكثرة . وعرفات : جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج ، معظمين ربهم وملبين ، والوقوف به أهم أركان الحج ؛ لأن الناس يذكرون فيه الحشر يوم القيامة حيث يكون الناس يومئذ عراة كما خلقهم الله ؛ متساوين لايعلو بعضهم على بعض بجاه أوسلطان . وهو موطن التعارف بين المسلمين ، من مشارق الأرض ومغاربها . ومكان التفاوض فيما فيه مصلحتهم .

والمقصود من الآية : أن الحجاج إذا خرجوا من عرفات - بعد الوقوف بها - متجهين إلى المزدلفة ، فعليهم أن يذكروا الله عند المشعر الحرام ، بالتلبية والتهليل والدعاء ، وذلك فى صبيحة مبيتهم بالمزدلفة .

فقد جاء فى حديث مسلم عن جابر ، قال : « فلم يزل واقفا - يعنى الرسول - بعرفة حتى إذا غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلا ، حتى غاب القرص - أردف أسامة خلفه ، ودفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد شَنَقَ - أى ضم وضيَّق - للقصواء الزمام » . إلى أن قال : « حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء ، بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئا ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح ، بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء ، حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعا الله وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفاً ، حتى أسفر جدًّا ، فدفع قبل أن تطلع الشمس » .

(وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنتُم مِّنْ قَبْلِه لَمِنَ الضَّالِّينَ) :

أى اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة فقد أخرجكم من الظلمات إلى النور وكنتم قبله فى غمار الضلال . أو اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه ولا تعدلوا عنه .

(ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾) .

التفسير

١٩٩ - (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ . . .) الآية .

روى البخارى عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قالت : « كانت قريش ومن دان دينها ، يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الْحُمْس . وكان سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام ، أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يأتى عرفات ، ثم يقف بها ، ثم يفيض منها . فذلك قوله : (مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ) .

وكانت قريش تفعل هذا ترفعاً منهم عن بقية الناس ، فأنزل الله فيهم هذه الآية ، فوقفوا بعرفات مع الحجاج ، ثم أفاضوا منها معهم ، ثم إلى المزدلفة ، ثم منى .

وحرف العطف : (ثُمَّ) للترتيب مع التراخى فى الزمن . وهى هنا للإيذان بتفاوت ما بين الإفاضتين ، كما فى قولك : أحسن إلى الناس ، ثم لا تحسن إلا إلى مستحق .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فكيف موقع ثم ؟ قلت : نحو موقعها فى قولك : أحسن إلى الناس ، ثم لا تحسن إلى غير كريم : لتوضيح التفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم، والإحسان إلى غيره ، وبُعْدِ ما بينهما ، فكذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات ، قال : (ثُمَّ أَفِيضُوا) لتفاوت ما بين الإفاضتين ، وأن إحداهما صواب والثانية خطأ .

(وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) : الخطاب عام للحجاج ، ليفزعوا إلى الله مستغفرين ، فيشملهم برحمته ومغفرته ، بعد أن أدوا مناسكهم .

وقد يكون الخطاب لقريش ، ليكَفِّرُوا بالاستغفار ما كان منهم من الاستعلاء ، وكلاهما صالح . فالكل محتاج إلى مغفرة الله ورحمته .

(فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)) .

المفردات :

(مَنَاسِكَكُمْ) : عباداتكم . جمع نُسك : والمراد بها أفعال الحج .

(خَلَاق) : حظ ونصيب .

(وَقِنَا) : اجعل لنا وقاية .

التفسير

٢٠٠ - (فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا . . .) الآية .

كان العرب فى الجاهلية يلهجون بعد الحج بذكر آبائهم وأجدادهم وأيامهم ، ويبالغون مبالغة تنتهى بالمنافرات . وهى الاحتكام إلى بعض الزعماء ؛ ليحكم بتفضيل أحد المتنافرين على الآخر . وكثيرا ما أدت هذه المواقف إلى تخليدها فى أشعارهم رمزا للعداء ، وكثيرًا ما أشعلت الحرب بينهم .

فلما جاء الإسلام أدَّبهم وهذَّبهم ، وصرفهم عن تلك الحماقات ، وأمرهم بالإكثار من ذكر الله ، بأن يكون مثل ذكرهم آباءَهُم الذين كانوا يبالغون فى محامدهم ، أو أشد ذكرًا ، فهو وحده المستحق لجميع المحامد .

(فَمِنَ الناس مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) .

هذا تفصيل للذاكرين بتقسيمهم إلى مقل لايطلب بذكر الله إلا الدنيا ، ومكثر يطلب به خيرى الدارين ، والمراد به الحث على الانتظام فى سلك الفريق الثانى . أى وبعض الناس يحبون العاجلة ويذرون الآخرة ، فإذا دَعَوُا الله قدموا دنياهم ، وطلبوا كثرة الأموال والأولاد والثمرات ، والجاه العريض ، وهؤلاء لا نصيب لهم فى نعيم الآخرة ، لأنهم لم يطلبوها ، ولم يعملوا لها .

٢٠١ – (وَمِنْهُمْ من يَقُولُ رَبَّنَا آتنا فى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفى الآخرَة حَسَنَةً . .) الآية .

أى وهناك البعض الآخر : يجمعون فى دعائهم بين الدنيا والآخرة ، ويعملون لكلتيهما ، ويطلبون الوقاية من عذاب النار . فالحسنة فى الدنيا : المال ، والجاه ، والولد ، والسلطان . والحسنة فى الآخرة : الجنة ثوابا لما قدموا من طاعة ، ورضوان من الله أكبر . وذهب بعض المفسرين إلى تفسير الحسنة فى الدنيا : بالزوجة الصالحة وفى الآخرة بالحور العين ، وعذاب النار . بالمرأة السوء .

ومنهم من فسرهما : بالعلم والعبادة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة . وكلها أمثلة للحسنات المطلوبة .

وقد ذكرت الآيتان من يطلب الدنيا وحدها ، ومن يطلبها مع الآخرة ، ولم تذكر من يطلب الآخرة وحدها ؛ لأن الآخرة لا تُنال إلا عن طريق الدنيا ، فهى مزرعة الآخرة . وهى نعم المطية إلى الجنة ، والضرب فى مناكبها – طلبا للرزق – عبادة ، لأن به حياة النفس وقوتها ، والإعانة على الطاعة .

والمؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف . ولهذا يرى بعض العلماء أن الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا »[1]

(وَقِنَا عَذَابَ النار) : أى احفظنا من عذابها بالتوفيق للطاعة والتنفير من المعصية ، ومغفرتها إذا وقعت .

---

(١) الأنعام : ١٣٢ .

وهذه الآية من جوامع الدعاء .

فقد ورد فى الصحيحين : عن أنس ـ رضى الله عنه ـ : « كان أكثر دعوة يدعو بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله تعالى : «رَبَّنا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .

ومن المأثورات : الدعاء بها فى ختام الصلوات .

٢٠٢ ـ (أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

ذهب بعض المفسرين ، إلى رجوع الإشارة فى (أُولَٰئِكَ) إلى المؤمنين الذين ينشدون الدنيا والآخرة . ويمكن أن ترجع إلى الطائفة الأخرى أيضا ، وهى التى تنشد الدنيا وحدها ، فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت . وهذا هو الأولى ، على حد قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيَا نُؤْتِه مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ »[1] .

والمعنى : أولئك الذين يطلبون ـ فى دعائهم وعملهم ـ الدنيا وحدها ، أو الدنيا والآخرة لهم نصيب من جنس ما كسبوه ، أو من أجله ، والله سريع الحساب ، فيحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم ، فى مقدار لمحة .

أو يوشك أن يقيم القيامة ، ويحاسب الناس ، فعليهم أن يبادروا إلى الطاعات ، وأن يكثروا من الحسنات . وأن يجتنبوا الموبقات .

---

(١) الشورى : ٢٠ .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٣/٢٥٠٦



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الرابع

الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٣

(وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾).

التفسير

٢٠٣ - (وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ . . .) الآية .

بعد أن أمر الله الحجيج - فيما سبق - أن يذكروه عند المشعر الحرام ، بعد الإفاضة من عرفات ، أمرهم - والمسلمين جميعا - فى هذه الآية الكريمة : بأن يُواصلوا ذكره - تعالى - فى أيام معدودات ، وهى : أيام التشريق الثلاثة[1] ، التى تلى يوم النحر : عيد الأضحى . وليس يوم النحر منها . وتسمى: أيام منًى أيضا . فيدخل غير الحاج - مع الحاج - فى هذا الأمر : (وَاذْكُرُوا) .

والمقصود بالذكر فى الآية الكريمة : هو التكبير والتهليل والتحميد والتسبيح ، فى: أدبار الصلوات ، وعند رمى الجمرات ، وعلى القرابين والهدايا .

(فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ):

فمن تعجل الرحيل عن منى قبل غروب اليوم الثانى من أيام التشريق - بعد رمى الجمار ، عند الشافعية ، وقبل طلوع الفجر من اليوم الثالث إذا فرغ من رمى الجمار عند الحنفية ولم يمكث إلى مابعد رمى الجمار فى اليوم الثالث - فلا يأثم بهذا التعجيل ، ولا حرج عليه فى ذلك ومن تأخر بمنًى حتى رمى الجمار فى اليوم الثالث ، فلا إثم عليه فى تأخره ،

(١) التشريق : تقديد اللحم . ومنه سمى أيام منى : أيام التشريق ، لأنهم كانوا يقددون لحوم الأضاحى فيها .

بل هو أفضل ، لأنه التزم السنة .

وذكر نفى الإثم فى التأخير - مع أنه السنة ، مع ذكر نفى الإثم فى التعجيل - للمجانسة مثل قوله تعالى: « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ »[1] ، وقوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »[2] .

والمقصود : التخيير بين التعجيل والتأخير .

ولا يقدح هذا التخيير فى أفضلية الثانى على الأول .

وفى الكشاف : أن أهل الجاهلية كانوا فريقين : فريقا جعل المتعجل آثما ، وفريقا جعل المتأخر آثما ، فجاء القرآن ينفى المأثم عنهما جميعا .

(لِمَنِ اتَّقَى) :

أى ذلك التخيير لمن اتقى الله فى حجه . وتخصيص التخيير به : إما لأنه هو الحاج - على الحقيقة - والمنتفع بحجه دون سواه ، على حد قوله تعالى : « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ »[3] . وإما لأن المتقى دائما حذِرٌ متحرزٌ عن كل ما يريبه . فإذا كان التخيير بين التعجيل والتأخير لا إثم فيه لمن اتقى - فغيره أولى .

وبذلك تقرر : أن التخيير بينهما ، وإباحة كل منهما لكل حاج - لا ينبغى أن يكون موضع تحرج أو تشكك . ثم ختمت الآية بقوله تعالى :

(وَاتَّقُوا اللهَ) : كما ختمت آيات الأحكام السابقة بالتذكير بتقوى الله تعالى .

والمعنى : واتقوا الله فى جميع أعمال الحج ، بأدائها كما أمر الله ، واجتناب ما حرم الله .

وفى البخارى : « من حجَّ ولم يرفُثْ ولم يفسُقْ ، رجع كيوم ولدته أُمُّه » .

فعلى الحاج أن يذكر هذا ، فيحرص على مواصلة تقوى الله وعبادته ، ليظل طاهرا نقيًّا كيوم ولدته أمه .

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

أى : واعلموا أنكم إليه - وحده - تجمعون للحساب والجزاء يوم القيامة ، على ما عملتم : خيرا كان أم شرًّا ، فاحذروه ولا تخالفوا أمره .

---

(١) آل عمران : من الآية ٥٤ (٢) الشورى : من الآية ٤٠ (٣) الروم : من الآية ٣٨ .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾).

المفردات :

(أَلَدُّ الْخِصَامِ) : أشد العداء .

(تَوَلَّى) : انصرف ، أو وَلِى الحكم .

(الْحَرْثَ) : الزرع أو النساء .

(النَّسْل) : الذرية .

(العزّة) : الكبرياء .

(الْمِهاد) : الفراش الموطأ .

التفسير

٢٠٤ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) :

قسَّم الله سبحانه الناسَ - فيما سبق - إلى فريقين : فريق يطلب الدنيا - وحدها - ولَا يَعمل لآخرته حسابًا ، وفريق يرجو فضل الله فى الدنيا وثوابه فى الآخرة . وقد وضح لنا - سبحانه - وصف كل فريق منهما ، فى هذه الآية وما تلاها .

ففى هذه الآية ، بيَّن الله أنَّ : الفريق الأوَّل: تعمق فى النفاق ، وأتقن صناعة التمويه والغش ، وبراعة التعبير ، واتخذ من هذا وسيلة له فى الحياة الدنيا. فهو يعجب الناس بحديثه ، ويبهرهم بقوله .

وقوله : (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) متعلق بالفعل: (يُعْجِبُ) أى يعجبك – فى الحياة الدنيا – قوله بفصاحته وحلاوته ، فتنخدع بذلك وتعتقد فيه الصدق . أما فى الآخرة فلا يستطيع التمويه والتضليل ، إذ يظهر كذبه ويفضحه باطل دعواه .

ويجوز تعلقه بلفظ: (قَوْلُهُ) أى يعجبك مايقوله فى أمور الدنيا وأسباب المعاش ، سواءٌ أكانت عائدة إليه أم لا .

فالمراد من (الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : مابه الحياة والتعيش .

أو يعجبك قوله فى الدنيا وأنها فانية ، وأنه ينبغى اتخاذها سفينة للآخرة : بادخار الإيمان والعمل الصالح فيها .

وهذا المنافق ، لا يكتفى بأن يخدع الناس ويستولى على إعجاب المسلمين ببراعة حديثه ، بل يفعل هذا .

(وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَافِي قَلْبِهِ):

بأن يدعى أن قلبه موافق لما نطق به لسانه ، ويشهد الله على ذلك ، مع أن مافى قلبه – الذى يشهد الله عليه – ليس إلا الحقد والعداوةُ للإسلام والمسلمين .

(وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) :

أى وهو شديد فى خصومته للرسول وأصحابه، كاذب فيما يتظاهر به من حب وولاء. وهو – بذلك النفاق – أبغض الناس إلى الله .

ففى حديث مسلم ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – « إن أبغضَ الرجالِ إلى الله الألَدُّ الخصم » .

وذكر السدى : أن هذه الآية – وما تلاها – نزلت فى الأخنس بنْ شريق الثقفى ، حينما جاء إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى المدينة ، وأظهر له الإسلام ، وقال : إنما جئت أريد الإسلام . والله يعلم إنى لصادق فيما أقول . وكان حلو الحديث . فأعجب النبىَّ منه ذلك ، فلما خرج من عنده ، مرَّ بزرع لبعض المسلمين وحُمُرٍ ، فأحرق الزرع وعقر الحمر .

وذكر ابن عباس : أنها نزلت فى نفر من المنافقين : تكلموا فى شهداء الصحابة فعابوهم.

والآية عامة فى المنافقين ، وإن وردت بسبب خاص .

فيدخل فى المراد من هذه الآية : أولئك الذين يتظاهرون بالدعوة إلى الإصلاح ، ويستعملون أساليبهم الزائفة ، وعباراتهم البراقة فى خداع الناس لكسب ثقتهم ، والاطمئنان إليهم ، حتى يستطيعوا – عن طريق هذه الثقه – محاربة الدين ، وهم يلبسون ثوب الإصلاح .

٢٠٥ – (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ . . .) الآية .

أى : وإذا أدبر ورجع بعد مابث نفاقه ، ونفث سمه ، وظن أنه نجح ، واكتسب ثقة الناس – سعى فى الأرض لينشر فيها الفساد جهد طاقته ، ويهلك الزرع والذرية : بالإتلاف والقتل ، كما فعل الأخنس الذميم ؛ إذ كان يظهر الإيمان والحب للرسول بكلام معسول ، ثم يتولى ، فيحرق الزرع ، ويتلف الأموال.

ويرى بعض المفسرين: أن المقصود بقوله تعالى : (وَإِذَا تَوَلَّى) : إذا ولِىَ الحكم ، وأخذ بيده مقاليد السلطان .

ويصبح معنى الآية الكريمة على هذا : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ببيانه الساحر ، وادعائه الإصلاح بين المسلمين وحرصه على مصلحة الأمة – توصلا إلى الحكم ، فإذا ولى هذا الحكم ، وتمكن سلطانه بسببه – فعل بالناس مايفعله ولاة السوء ، وظهر من أمره ما كان يخفيه ، فسعى فى الأرض – بحيلته وتدبيره – ليفسد فيها بما يشاء من ألوان الفساد : فيهلك الحرث ، ويسفك الدماء ، ويهدد الحريات ، وينشر الشرور والمنازعات بين الأمة ، ويضرب بعضهم ببعض : باصطناع الأعوان ، وتقريب الأنصار ؛ ليبسط بهم سلطانه على الناس ، ويحتفظ بزعامته عليهم . على حد قوله تعالى : « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ [1] » .

---

(١) محمد : ٢٢ .

(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ) :

أى : لايَرْضَى الله سبحانه وتعالى - بالفساد ولا يقره ، بل يعاقب عليه فى الدنيا والآخرة ، فاحذروه وخافوه.

٢٠٦ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ . . .) الآية .

المعنى : وإذا نصحه الناصحون : باتقاء عقاب الله تعالى فى أفعاله وأقواله ، وفى عدم استغلال ذكائه وعلمه وبلاغته فى التضليل والإفساد - أخذته الأنفة والكبرياء بما يوجب الإثم والتوغل فيه ، فلجَّ فى الضلال والعناد ؛ لأنه يرى نفسه فوق نصيحة الناصحين ، ونقد الناقدين .

فهو فى زمرة من قال الله - تعالى - فيهم : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ[1]) .

والباء فى قوله : (بِالْإِثْمِ) على هذا ، للسببية ، يعنى أن إثمه الماضى ، كان سببا لأخذ العزة له ، واستيلاء الكبرياء عليه ، مع وضوح الحق ، وتنبيه الناصحين له ، ولهذا قال سبحانه :

(فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ) :

أى مهما أحرز من جاه وأموال ، فكل هذا إلى زوال . ويكفيه ماسيحل به من عذاب ، فى نار جهنم يوم القيامة ، فإن جهنم ستكون له فراشا ممهدا .

وإذا كان المهاد هو الفراش الممهد ، ليستريح عليه الراقد ، فاستعماله فى جهنم للتهكم بمن يحلُّ بها .

وجملة (وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ) : جواب قسم مقدر على معنى ؛ والله لبئس المهاد : « جهنَّم » .

قال بعض المفسرين : هذه الآية : تدل على أن من أكبر الذنوب عند الله : أن يجيب العبد من يقول له : اتق الله ؛ فيقول له - معرضا عن النصيحة - عليك نفسك .

(١) البقرة : ١١ ، ١٢

وذكر القرطبي : أن يهوديا طال وقوفه على باب الرشيد لحاجة له ، فلما رآه خارجا ، قال له : اتق الله يا أمير المؤمنين ، فنزل عن دابته ، وخر ساجدا لله ، ثم أمر بقضاء حاجته . فسأله خاصته فى ذلك ، فقال : تذكرت قوله تعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ . . .) الآية .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾) .

المفـردات :

(يَشْرِى نَفْسَهُ):شرى : من الأضداد ، كذا فى الصحاح ، والمراد من شرائها هنا : بيعها ، ومنه قوله تعالى : « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ [1] » أى باعوه .

التفسير

٢٠٧ ـ (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ . . .) الآية .

هذه هى الطائفة الثانية ، المقابلة للطائفة التى حكيت أحوالها المذمومة ، فيما مضى من الآيات .

أى ومن الناس مؤمنون صادقون ، طهرت نفوسهم تقوى الله ، وبرئوا من النفاق ، وزكت أعمالهم ، فلم يستجيبوا للأهواء والشهوات ، وإنما باعوا أنفسهم ـ وهى أعز ما يملكه الإنسان ـ طلبا لمرضاة الله ، إذ بذلوها فى ميادين الجهاد ، وحملوها أقسى أنواع المشقات فى طاعة الله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، موقنين أن [illegible] ما فى الحياة ـ من جاه ومال وسلطان ـ متاع قليل ، وأن الآخرة خير لمن اتقى .

وقد صور التعبير القرآنى مَنْ بَذَلَ نفسه لله ، بصورة من باع نفسه له ـ تعالى ـ بثمن هو مرضاته وثوابه ، فقبل الله هذا البيع ، وأعطاه الثواب الدائم ، مع أن مابذله لله من نفسه وماله ، ملك له تعالى . ولذا ختم الآية بقوله : (وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) حيث أرشدهم لما فيه رضاه ، وجعل النعيم الدائم جزاء العمل الصالح ، على شراء ملكه بملكه .

وأكثر الروايات على أن الآية نزلت فى صهيب الرومى رضى الله عنه .

(١) يوسف : ٢٠

فقد أخرج جماعة : أن صهيبا أقبل مهاجرا نحو النبى - صلى الله عليه وسلم - فاتبعه نفر من المشركين ، فنزل عن راحلته ونثر مافى كنانته ، وأخذ قوسه ثم قال : يامعشر قريش ، لقد علمتم أنى من أرماكم رجلا ، وأيم الله ، لا تصلون إلىَّ حتى أرمىَ بما فى كنانتى ثم أضربَ بسيفى مابقى فى يدى منه شىء ، ثم افعلوا ما شئتم ، فقالوا دلنا على بيتك وَمالِكَ بمكة ، ونخلى عنك ، وعاهدوه إن دلهم أن يدعوه ، ففعل . فلما قدم على النبى - صلى الله عليه وسلم - قال « أبا يحيى ، ربحَ البيع » وتلا عليه الآية .

وعلى هذا يكون الشراءُ - على ظاهره - بمعنى الاشتراء .

وفى رواية سعيد بن المسيب رضى الله عنه : أن الذى قال له ذلك ، هو أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه .

وأيًّا كان ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ولذا أحسن من قال : إن الآية نزلت فى كل من أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وعرّض نفسه للهلاك .

وهذه الآية من قبيل قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ[1] » .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾) .

المفـردات :

(السِّلْمِ) : المسالمة ، أو الإسلام . وهو : الانقياد والتسليم .

(كَافَّةً) : جميعا . (زَلَلْتُمْ) الزلل : الانحراف والسقوط .

(١) التوبة : ١١١

التفسير

٢٠٨ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَآفَّةً . . .) الآية .

يرى ابن عباس أن الخطاب هنا لمن أسلم من اليهود .

فقد ذكر : أن الآية ، نزلت فى عبد الله بن سلام - من أحبار اليهود - وأصحابه الذين آمنوا معه .

وذلك أنهم حين آمنوا بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وآمنوا بشرائعه وشرائع موسى عليه السلام - : فعظموا يوم السبت ، وكرهوا لحمان الإبل وألبانها بعد ما أسلموا . فأنكر ذلك عليهم المسلمون ، فقالوا : إنا نقوى على هذا وهذا ، وقالوا للنبى - صلى الله عليه وسلم - إن التوراة كتاب الله ، فدعنا لنعمل بها ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وعلى هذا ، فالسلم بمعنى الإسلام ، أى : ادخلوا مع المسلمين فى شريعتهم ، مجتمعين معهم ، ولا تفترقوا عنهم ، بالأخذ بما نسخه القرآن من التوراة .

وقيل : الخطاب لأهل الكتاب الذين آمنوا بكتابهم ، وكفروا بالقرآن . والمعنى عليه . يأيها الذين زعموا الإيمان بشريعتهم : ادخلوا فى الإسلام جميعا ، فليس إيمانكم - بما فى كتابكم وحده - بنافعكم .

وقيل : الخطاب للمنافقين . والسلم - على هذا - بمعنى الاستسلام والطاعة القلبية . والمعنى : يأيها الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم : ادخلوا فى الاستسلام ، والطاعة القلبية كافة ، واتركوا النفاق .

وقيل : الخطاب للمؤمنين المخلصين .

والمعنى عليه : يأيها الذين آمنوا بقلوبهم ، ادخلوا فى شعب الإسلام كلها ، ولا تُخِلُّوا بشىء من أحكامه .

وقال الزجاج فى هذا الوجه : المقصود : أمر المؤمنين بالثبات على الإسلام . ويجوز أن يكون المعنى على هذا : يأيها المؤمنون المخلصون ، ادخلوا فى المسالمة جميعا ، ولا تشتغلوا فيما بينكم بالجدل والخلاف المذهبى ، حتى لا تتفرقوا إلى شيع وأحزاب : يقتل بعضهم بعضا .

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) :

أي لا تنقادُوا لوساوس الشيطان ، ولا تستجيبوا له إن دعاكم لعصيان مولاكم .

(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) :

فلا يؤْمنُ جانبه ، فاحذروه فإنه يُحَذِّرُ من البر خوف الفقر ، ويأمر بالفحشاء والمنكر . قال تعالى : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ [1] » .

ولما كان من أساليب الشيطان وحيله ، أن يدعوكم إلى المنكر والفحشاء ، بالتدرج من شر إلى ما هو شر منه ؛ فلهذا قال : (وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) فقد جعل اتباعه فى وساوسه – مرة بعد أخرى – بمنزلة اتباعه فى خطواته ، خطوة بعد أخرى .

وعداوة الشيطان للإنسان قديمة ، منذ أن خلق الله آدم عليه السلام .

فمن العقل ألا تتخذ عدوك صديقا .

قال تعالى : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [2] » .

هذا ، وقد ورد النهى عن تتبع خطوات الشيطان – بعد الأمر بالدخول فى السلم كافة ؛ ليؤكد الاستمساك بالإسلام استمساكا قويا ، فإن من يتبع خطواته ، لا يدخل فى الإسلام دخولا عميقا ، ولا يستمسك به استمساكا قويا ، ولا يذوق حلاوته .

٢٠٩ – (فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) :

أي : فإن انصرفتم عن شرائع الإسلام ، وانغمستم فى الشقاق والخلاف ، وتكبرتم عن الإذعان والتسليم لدين الله ، من بعد ظهور الحجج الواضحة ، الدالة على أنه من عند الله تعالى – فاعلموا أن الله (عَزِيزٌ) : غالب على أمره ، لا يمنعه شىء عن عقابكم ، (حَكِيمٌ) : لا يترك ما تقتضيه الحكمة من مؤاخذة المجرمين .

وحسبكم هذا وعيدًا للمارقين .

---

(١) البقرة : ٢٦٨ (٢) فاطر : ٦

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾) .

المفردات :

(يَنظُرُونَ) : ينتظرون .

(أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ) : الظلل؛ جمع ظلة . وهى مايحجب ضوء الشمس من سحاب أو غيره . والمراد من إتيان الله لهم فى ظلل : إتيان بأسه وعذابه . ففى الكلام مضاف مقدر .

(الْغَمَام) : السحاب مطلقا ، أو الأبيض منه .

التفسير

٢١٠ - (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وقُضِىَ الْأَمْرُ . . .) الآية .

الاستفهام هنا ، إنكارى . بمعنى النفى .

والمعنى : ما ينتظر هؤلاء الذين ينصرفون عن الدخول فى السلم - من بعد ما جاءتهم البينات الواضحات - إلا أن يأتيهم عذاب الله ، فى ظلل من السحاب الأبيض : يحسبونه رحمة ، وهو عليهم نقمة ، فيكونُ أشدَّ وقعا على نفوسهم ! !

ونظير هذا قوله تعالى فى هلاك قوم عاد : « فَلَمَّا رأوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَااسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا [1] » .

ثم قال تعالى : (وَالْمَلَائِكَةُ) : أى وهل ينتظرون كذلك ، إلا أن تأتيهم ملائكة العذاب ، الموكلة بإهلاك الضالين المنحرفين ، فإنهم وسائط فى إتيان أمر الله عز وجل .

(١) الأحقاف : ٢٤، ٢٥

وجملة : (وَقُضِيَ الْأَمْرُ) جملة حالية ، أى هل ينتظرون إلا أن يأتيهم العذاب والملائكة والحال أنه قد قضى أمر هلاكهم وتدميرهم ، فلا يمكن رده ؟

وقيل : الجملة معطوفة على (يَأْتِيَهُمُ) داخل فى حيز الانتظار ، بمعنى : وهل ينتظرون إلا أن يقضى الأمر بهلاكهم ؟

وإنما عبر بالماضى (وَقُضِيَ) ليشير إلى جدية الإنذار، فكأنه وقع ؛ لأن وعيد الله لا يتخلف .

والآية تهديد ووعيد لمن ينصرفون عن الدخول فى الإسلام ، ويعطلون مسيرته عن أن تبلغ مداها .

(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) :

أى أن مردّ الأمور – كلها – إليه تعالى وحده . فما شاء فعل .. فمن لا يدخلون فى الإسلام ، فلا يستعصى إهلاكهم على الله ، الذى ينتهى إليه كل شىء .

وفى هذا ، إنذار بليغ بعد التهديد السابق . وفيه تنبيه للغافلين الضالين ، إلى أن مرجعهم فى الآخرة ، إلى الله وحده .

(سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾) .

المفردات :

(آيَةٍ بَيِّنَةٍ) : حجة واضحة .

(يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ) : يغيرها بالكفر بها ، بدل الإيمان بها ، والشكر عليها .

(مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ) : من بعد ماعرفها .

(زُيِّنَ) : حُسِّنَ فى أعينهم .

(بِغَيْرِ حِسَابٍ) : يرزقهم الله رزقا واسعا لا حساب فيه ، أو لا يُقْدَرُ على حسابه وضبطه لكثرته .

التفسير

٢١١ – (سَلْ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ . . .) الآية .

أمر الله نبيه محمدا – صلى الله عليه وسلم – ، أن يسأل اليهود هذا السؤال؛ تبكيتا لهم وتأنيبا ، وإقامة للحجة عليهم . وهذا السؤال لا يحتمل إلا جوابا واحدا هو : الإقرار بأن الله آتاهم نصوصا عديدة ؛ فى الأحكام والبشارة بمحمد ، بينةً واضحة فى الدلالة على مقاصدها ، ووجوب العمل بها ، وحججًا باهرة على يد موسى وسائر أنبيائهم . ولكنهم لم يعملوا بمقتضاها فقتلوا فريقا من أنبيائهم ، وكذبوا فريقا ، وجحدوا الأدلة الواضحة ، وغيروا الكتب المنزلة ، وجعلوها قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا ؛ طلبا للرياسة ، وحبًّا لأغراض الدنيا الفانية .

ثم يبين عاقبة ذلك فقال :

(وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

هذا حكم عام ، بمؤاخذة من يُغَيِّر آيات الله ، التى هى من أجلِّ نعمه تعالى على المُغَيِّر ، بعد معرفته أنها آياته وأنعمه ، فيستبدل الكفر بالإيمان ، والجحود بالشكر ، ويتناول الآيات الواضحة ، بالتحريف والتبديل ، تبعا لهواه . فإنه يعاقبه عقابا شديدا .

(فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) : لكل من ضلوا بعد ما جاءتهم البينات ، وبدلوا نعمة الله كفرا .

وعبر بقوله : (مِن بَعْدِ مَاجَاءَتْهُ) مع أنها مفهومة من السياق – فالتبديل المعاقب عليه لا يكون إلا بعد الإتيان بها ومعرفتها – لإبراز بشاعة جريمة التبديل للنعم ، بعد المعرفة اليقينية بصلاحها للمجتمع ، ونفعها له . وذلك أبشع ألوان الضلال . ولهذا استحق مرتكبوه أشد أنواع العقاب .

٢١٢ – (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . . . .) الآية .

هذه الآية ، تعليل للآية السابقة ؛ فإن الذى دعاهم إلى تبديل نعمة الله كفرا ، ومقابلتها بالجحود – هو تعلقهم بزينة الحياة الدنيا الكاذبة ، ومظاهرها الخداعة ، واستجابتهم لشهوات نفوسهم ، وحرصهم على حب الرياسة ، وجمع الأموال . وفاتهم أن الآخرة خير لمن اتقى ، وأن الباقيات الصالحات : خير عند الله ثوابا ، وخير مردًّا .

والمعنى : جعلت الحياة الدنيا حسنة فى قلوب الذين كفروا ، فتهافتوا عليها تهافت الفراش على النار ، وأعرضوا عن الإيمان بالله واليوم الآخر .

وفاعل التزيين – هو الله تعالى ، لأنه خلق جمالا كثيرا ، وزينة حسنة فى دنيانا .

وما زين الله الدنيا ، إلا ليختبر بها عباده ، فاغتر بها الجاهلون ، فكفروا أو استمروا على كفرهم ، وأعرض عن مفاتنها ذوو الألباب ، فاستيقنوا وآمنوا ، أو ازدادوا إيمانا على إيمانهم .

قال تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [1] » .

ويجوز أن يكون التزيين من الشيطان ؛ إذ يوسوس لهم الإخلاد إليها ، وترك العمل للآخرة . على حد قوله تعالى :

---

(١) الكهف : ٧

« لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [١] » :

ويجوز أن يكون التزيين – فعل قرناء السوء من شياطين الإنس – . لقوله تعالى : « وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ [٢] » .

وبالجملة : فدواعى الفتن عديدة . نسأل الله السلامة .

(وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) :

أى : يجمعون – مع الافتتان بالدنيا – استهزاءهم بالمؤمنين ؛ لإيمانهم بالله وإقامتهم على طاعته .

(وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) :

أى والذين يخافون الله ويحذرون عقابه ، يكونون – يوم القيامة – فوق الذين كفروا منزلة ومكانة عند الله ؛ لأنهم لم تلههم الدنيا – وإن وُضِعَتْ بكل مافيها من زخرف ومتاع بين أيديهم – عن طاعة الله .

ثم يختم الله تعالى الآية بقوله :

(وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

أى والله يعطى من يشاء إعطاءه بغير تقتير ، فيعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الآخرة إلا من يحب .

هذا والآية عامة فى جميع الكافرين ، ويدخل فيهم اليهود دخولا أوليا .

---

(١) الحجر : ٣٩

(٢) فصلت : ٢٥

(كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾) .

المفردات :

(أُمَّةً) : جماعة من الناس ؛ أمرهم ومقصدهم واحد . مأخوذة من : أمَّه أى قصده .

(مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) : واعدين المتقين بالجنة ، ومخوفين الكافرين من النار .

(البَيِّنَاتُ) : الأدلة المقنعة الظاهرة .

(بَغْيًا) : ظلما وعدوانا .

التفسير

٢١٣ - (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ . . .) الآية .

هذه الآية تحتمل عدة معان ، منها :

أن الناس كانوا مجتمعين على دين واحد ، فى عهد آدم عليه السلام ، حيث نشأ أولاده على دين أبيهم آدم - وهو قائم على توحيد الله وعبادته .

ومنها : أنهم كانوا على فطرة واحدة ؛ فطر الله الناس عليها ، وهى فطرة الإيمان بالخالق - سبحانه - فهو أمر فطرى : يُحِسُّهُ الإنسان ، ويدركه بفطرته ، إذا تجردت نفسه عمن يصرفها عن الحق إلى الباطل .

وعلى هذين المفهومين ، يكون معنى الآية : كان الناس على العقيدة الحقة : التى فطر الله الناس عليها ، فأغواهم الشيطان فكفروا ، فبعث الله النبيين ، مبشرين من آمن بحسن الثواب ، ومنذرين مَن كفر بشديد العقاب .

ومنها : أن الناس كانوا - قبل إرسال الرسل - على دين واحد ، هو الكفر ، بسبب إغواء الشيطان لهم ، وصدهم عن سواء السبيل : فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، رحمةً بهم ، وإرشادًا لهم ، لعلهم يهتدون ، إلى مافيه سعادتهم فى دنياهم وأُخراهم .

وقد جاء فى عدد الأنبياء والمرسلين ، ما أخرجه أحمد وابن حبان عن أبى ذر أنه سأل النبى - صلى الله عليه وسلم - : كم الأنبياء ؟ قال : « مائةُ ألف وأربعةٌ وعشرون ألفا » . قلت : يارسول الله ، كم الرسل ؟ قال : ثلاث مائة وثلاثةَ عَشَرَ : جم غفير » .

(وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) :

أى وأنزل معهم الكتب السماوية التى توضح لهم العبادات ، وشرائع المعاملات ، طبقا للحق والعدل .

فإذا حادوا عن سواء السبيل ، عادوا إلى هذه الكتب السماوية : يحتكمون إليها ، فتردهم إلى الصواب .

ثم بين من اختلفوا فى دين الله وبدلوا كتبه ، فقال :

(وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) :

أى : وما اختلف فى الحق ، أو فى الكتاب المنزل ، إلا الذين أوتوه من أرباب العلم والدراسة ، بعد ما جاءتهم الحجج الواضحات على وجوب الأخذ به ، وعدم الاختلاف فيه . وكان اختلافهم هذا : بغيا بينهم ، أى ظلمًا أو حسدًا حاصلاً بينهم ، ونسوا - أو تناسوا - حظًّا مما ذُكِّروا به ، وبدّلوا نعمة الله كفرًا فأصبحوا مصدرًا لإضلال الناس - وهم يعلمون - بدلا من أن يكونوا لهم هداة مرشدين .

وهكذا ، عكسوا الأمر ، فجعلوا ما أنزله الله مُزيلا للاختلاف - سببا لبقائه ورسوخه .

(فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ) :

أى : فهدى الله الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم – فى كل الأديان – للحق الذى اختلف فيه هؤلاء المختلفون ، وأعرضوا عن خلافهم ، ولم يعبأوا بهم ، وأقاموا على طاعة مولاهم .

وقيل : المراد من (الذين آمنوا) أمة محمد – صلى الله عليه وسلم –: هداهم الله لما اختلف فيه أهل الكتاب من الحق ، بإذنه تعالى وتيسيره ، فعرفوه .

ومن ذلك : هدايتهم إلى تنزيهه – تعالى – عن الصاحبة والولد ، وأن إبراهيم – عليه السلام – كان حنيفا مسلما ، وما كان يهوديا ولا نصرانيا ولا مشركا ، وأن مريم سيدة شريفة ، وليست كما وصفها اليهود ، وأن عيسى رسول الله ، خلافا لما زعم اليهود من نفى رسالته ، ولما زعم النصارى من أنه ابن الله . . إلى غير ذلك .

وفى هذا يقول الله تعالى : « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [1] » .

وإذا كان المسلمون اليوم ، قد تفرقوا كما تفرقت الأمم السابقة ، وانقسموا إلى طوائف ومذاهب : بعضها يخالف الحق ، فإن الله يقيض لهذا الدين – دائما – من يظهر الحق وينصره ، ويزهق الباطل ويخذله ، استنادا إلى كتاب الله – تعالى – المحفوظ بعنايته من التحريف والتبديل .

وروى ابن ماجه ، عن أبى هريرة ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم –: « لا تزال طائفةٌ من أمتى قوّامةً على أمر الله لا يَضُرُّها مَنْ خالفها » .

وروى الحاكم ، عن عمر ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – : « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقومَ الساعة » .

فالله اللطيف بعباده : يرسل إليهم الرسل ، ويُنْزِل عليهم الكتب السماوية ، ويمدهم بالعلماء العاملين المرشدين المصلحين ؛ ليردوا الطوائف الضالة إلى الصواب ؛ وليُظْهِرُوا زَيْفَ الباطل ؛ وليقوِّموا ما حرَّفه المضلون ، من آيات الله البينات . ولذا قال الله تعالى فى ختام الآية : (وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

---

(١) النمل : ٧٦

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾) .

المفـردات :

(أَمْ) : تأتى بمعنى بل وهمزة الاستفهام . ويرى أبو عبيدة : أنها للاستفهام وحده .

(حَسِبْتُمْ) : ظننتم .

(خَلَوْا) : مضوا .

(الْبَأْسَاءُ) : الفقر ، أو الحرب ، أو الشدة .

(الضَّرَّاءُ) : المرض ، أو الضيق ، أو الضرر مطلقا .

(زُلْزِلُوا) : الزلزلة : الحركة الشديدة . والمراد هنا : إصابتهم بالاضطراب النفسى ، الذى يهزّ النفس هزًّا عنيفا ويزعجها .

التفسير

٢١٤ - (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ. . .) الآية .

الربط :

لما بين الله - فى الآية السابقة - : هدى الأمة المحمدية ، لما اختلف فيه أهل الكتاب - أتبع ذلك ، حثّ المؤمنين على الصبر ، وتحمل الأذى ممن يخالفونهم ، كما كان يفعل المؤمنون من قبلهم .

سبب النزول :

نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق ، حين أصاب المسلمين ما أصابهم ، وبلغت القلوب الحناجر .

وقيل : نزلت فى غزوة أحد ، لَمَّا قُتِل من المسلمين عددٌ كبير .

وقال عطاء : لما دخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه المدينة ، اشتد الضر عليهم ؛ لأنهم خرجوا بغير مال ، وتركوا ديارهم وأموالهم بيد المشركين ، وآثروا رضا الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم – ، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ، وأَسَرَّ قوم من الأغنياء النفاق ، فأنزل الله هذه الآية ؛ تطييبا لنفوس المؤمنين .

وكيف كان سبب النزول ، فالمقصود من الآية هو : حث المؤمنين على التحمل والصبر ، حينما يمتحنون بالشدائد ، فى سبيل دينهم . فلا يَعْبَأُون بما ينالهم – فى أنفسهم وأموالهم – من الأذى ؛ فإن الله عنده خير العوض .

والمراد بمثل الذين خلوا من قبلهم : ما نالهم من الشدائد والمحن فى سبيل دينهم .

وفى ذلك روى البخارى وغيره : عن خَباب بن الأرت ، قال :

شكونا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو متوسِّد بردةً فى ظل الكعبة – مالقينا من المشركين . فقال : « إنَّ مَنْ كان قبلكم : كان أَحَدُهم يوضَعُ المنشارُ على مَفْرِقِ رأسه ، فيخلُصُ إلى قدميه : لايصرفهُ ذلك عن دينه ، ويُمشطُ بأمشاط الحديد مابين لحمِهِ وعظمه : لايصرفه ذلك عن دينه . ثم قال : « والله ، لَيتِمَّنَّ هذا الأمرُ ، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموتَ : لايخاف إلا الله ، والذئب على غنمه . ولكنكم تستعجلون » .

وأداة الجزم (لَمَّا) تدل على نفى الماضى مع ترقب وقوعه فى المستقبل ، وهذا ليوطِّن المؤمنون أنفسهم ، على احتمال ما ينتظر أن يقاسوه من أهوال .

ومعنى الجملة على هذا : بل أظننتم أنكم – بمجرد إيمانكم – تدخلون الجنة ، دون أن تتعرضوا للمشقة والابتلاء ، كما تعرض المؤمنون الاتقياءُ من الأمم السابقة ؟

قال تعالى : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [1] » .

وقد أوضح الله ما نال المؤمنين الصادقين ـ فى الأمم السابقة ـ من المحن ، حتى يتأسى بهم المسلمون ، فقال : (مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ) ؟

والجملة هنا ، كالجواب عن سؤال مقدر ، هو : ماذا أصاب الذين كانوا من قبل من شدائد وأهوال ؟ فكان الجواب : (مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ . . .) أى أصابتهم الشدائد والأهوال ، وتعرضوا لفظائع الحروب الظاهرة والخفية ، واهتز كيانهم اهتزازًا عنيفًا ، حتى كاد اليأس يسيطر على نفوسهم ، وحتى تطلّع الرسول والمؤمنون معه ـ من هول ماقاسوه ـ إلى الله ، استعجالًا لنصره . فهم لايَشُكُّون فى تحقيق وعده ، ولكنهم يتعجلون حدوثه .

والرسول هنا : للجنس ؛ لأن كل رسول جاهد فى سبيل الله ، هو والمؤمنون به ، وتعرضوا للشدائد والأهوال ، فلجأوا إلى الله ـ تعالى ـ يطلبون نصره الذى وعده عباده المؤمنين .

والتعبير بصيغة المضارع : « يَقُول » بدلا من الماضى « قال » لأن هذا كان يتكرر من جميع الرسل والذين آمنوا معهم ، ولاستحضار هذه الصورة ؛ ليتأسى بها المسلمون .

(أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) :

أى : فقيل لهم طمأنة لنفوسهم ، وتطييبًا لقلوبهم ، وإسعافا لهم بمرامهم (أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

وإيثار الجملة الاسمية على الجملة الفعلية المناسبة لما قبلها ، وتصديرها بحرف التنبيه ، وتأكيد مضمون الوعد بإنّ لتأكيد تحقق مضمونه .

---

(١) العنكبوت : ٢ ، ٣

(يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾) .

المفـردات :

(وَالْمَسَاكِين) : هم من لايجدون كفايتهم ولو مع العمل ، قال تعالى : « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ [1] » .

(وَابْنِ السَّبِيلِ) : القريب المنقطع عن وطنه ، ولامال معه . ويمكن إطلاقه على اللاجئ أو المهاجر ، ولامال يكفيه .

التفسير

٢١٥ - (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...) الآية .

بعد أن ذكر الله - فيما سبق - أن الحياة الدنيا ازدانت للكافرين ففتنتهم ، وأن الله أرسل الرسل لهداية المستعدين للهداية ، وأن على المؤمنين أن يستعدوا للجهاد والبذل والتضحية فى سبيل الله ؛ لينالوا ثوابه وجنته ؛ وليظفروا بنصره الموعود - أتبعه بيان وجوه إنفاق المال .

سبب النزول :

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - فيما رواه أبوصالح عنه : (كان عمرو بن الجموح شيخًا كبيرًا ذا مال كثير ، فقال . يارسول الله ، بماذا نتصدق ؟ وعلى من ننفق ؟ فنزلت) .

وعن ابن جريج قال : « سأل المؤمنون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أين يضعون أموالهم ؟ فنزلت .

(١) الكهف : ٧٩

ظاهر الآية يفيد : أنهم سألوا عما ينفقونه من الأموال ؟ وكانت الإجابة ببيان مصارفها ، لأنها أهم ، فإن قيمة النفقة ومنزلتها المستتبعة للثواب ، باعتبار هذه المصارف .

قال بعض العلماء : هذا من الأسلوب الحكيم ، الذى يقصد به توجيه السائل إلى ماكان ينبغى أن يسأل عنه . ويمكن أن يقال : إنه تعالى أجاب عن سؤالهم بما يناسبه، وزاد عليه فائدة أخرى ، هى بيان المصرف . فإن الإجابة عن سؤالهم : (مَاذَا يُنفِقُونَ) واردة إجمالا فى الآية الكريمة وهى : (مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ) :

فالخير : يتضمن ماكان حلالا ، كثيراً كان أو قليلا ؛ إذ لايسمى ماعداه خيرًا .

ومثل هذا مثل رجل يسأل طبيبه : هل يأكل العسل؟ فيجيبه الطبيب- قائلا : كُلْهُ مع الخل.

فالزيادة فى الجواب - على مايقتضيه السؤال - مستحسنة . وتسمى أيضًا : أسلوب الحكيم .

على أننا لو نظرنا إلى سبب النزول الأول ، لوجدناهم فيه يسألون الرسول أيضًا عن المصرف . ولم يذكر فى الآية ؛ للإيجاز فى النظم : تعويلا على الجواب ، فتكون الآية جوابًا لأمرين مسئول عنهما .

(فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) :

وقد استفيد من الآية : أن ماينفق من الخير : يعطى للوالدين ، والأقارب الفقراء ، (وَالْيَتَامَى) : وهم من فقدوا آباءهم وكانوا فقراء . (وَالْمَسَاكِينِ) : وهم من لا كسب لهم ، أو لهم كسب لايفى بحاجتهم . (وَابْنِ السَّبِيلِ) : وهو المنقطع فى سفر ، ولايجد مايكفيه .

ولم تتعرض الآية للسائلين لدخولهم فى المساكين ،كما أنها لم تتعرض للأقارب لذلك .

والأكثرون : على أن الآية فى صدقة التطوع . وقيل : فى الزكاة . واستدل بها من أباح صرفها للوالدين .

والأول أرجح ، لعموم كلمة (خَيْرٍ) ، وخصوص الزكاة ، وكونها مُقَدَّرة .

(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) :

أى وما تنفقوه من نفقات طيبة لا إثم فى كسبها ، أو تصنعوه من معروف ـ يعلمه الله ، ويجز عليه الجزاء الأوفى . وقال : (وَمَاتَفْعَلُوا) ولم يقل : وماتنفقوا من خير ؛ لأن فعل الخير عام : يدخل فيه الإنفاق وغيره : من معاونة القوى للضعيف ، وصاحب الجاه لمن لاجاه له ، والصحيح للمريض ، كما يدخل فيه الإصلاح بين المتخاصمين ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وعيادة المرضى ، وهكذا .

وجواب الشرط هنا ، مؤكد بإن ؛ لتقرير الوعد بحسن الجزاء المستنبط من جواب الشرط .

وَ(عَلِيمٌ) : صيغة مبالغة من العلم ، وليس المراد مجرد الإفادة بعلم الله للخير ، بل المقصود مع ذلك – أنه يحسن الجزاء عليه «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » [1] .

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾) .

المفردات :

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ) : فُرض عليكم قتال الكفار .

(كُرْهٌ) : بمعنى مكروه ، كخبز بمعنى مخبوز ، أى مكروه ـ طبعا ـ لمشقته .

ويجوز أن يكون القتال هو نفس الكره ، بمعناه المصدرى ، مبالغة فى مشقته على النفوس ، مثل قول الخنساء :

فإنما هى إقبال وإدبار :

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨

التفسير

٢١٦ - ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ . . .﴾ الآية .

بين الله قبل هذه الآية ، أن الجنة لايدخلها المؤمن ، حتى يقاسى البأساء والضراء في سبيل دينه ، كمثل الذين من قبلهم ، وذكر لهم مصارف المال ، ومواضع النفقات .

وجاءت هذه الآية لتبين لهم وجوب الجهاد ، دفاعا عن الإسلام ، وهو المظنة الأولى للبأساء والضراء ، التي لابد من امتحان المؤمنين بها .

وقد بين الله في هذه الآية الكريمة : أنه فرض على المسلمين الجهاد ، وأنه مكروه لهم ، وتلك الكراهة أمر جبلي ، لما فيه من القتل والأسر ، وإتعاب البدن ، وتلف المال ، وقتل ماعسى أن يكون من الأقارب على الكفر - وهم يحبون أن يهديهم الله إلى الإسلام . وهذا لاينافي رضاهم بما كلفهم الله به حبًّا في مرضاة الله وطمعًا في ثوابه ، كالمريض يرضى بشرب الدواء الكريه الطعم ؛ حبًّا في الشفاء .

والجهاد أصلا: فرض كفاية ، يقوم به المجندون من شباب المسلمين ، نائبين عن بقية المسلمين .

فإذا دخل العدو بلاد الإسلام غازيا ، فقد انعقد الإجماع على أن الجهاد فرض عين، على جميع المسلمين سواء أكان بالقتال أم بالحض عليه ، أم بتجهيز المقاتلين ، أم تثبيتهم ، أم برعاية أسرهم ، أم علاجهم : أم تأليب الرأى العام على المعتدين .

ويكون ذلك حسب طاقة المجاهد .

قال تعالى : « انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ».[1]

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « من مات ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ نفسهُ بالغزو ، مات على شُعْبَةٍ من النِّفاق »[2] .

---

(١) التوبة : ٤١

(٢) رواه مسلم

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «من لم يَغْزُ أو لم يُجَهِّزْ غَازِيا ، أو يُخْلِف غازيا فى أهله بخير ، أصابه بقارعة قبل يوم القيامة »[1] .

(وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ) :

عسى هنا ، للتحقيق ، كنظائرها الواقعة فى كلامه تعالى أو : للترجى ، باعتبار حال السامع. وموضع الرجاء ، هو الخير المترتب على الجهاد . فالرجاء هنا ، يكون فى نية المقاتلين ، بأن يترقبوا من ورائه النصر والثواب من الله تعالى .

وعسى هنا ، تامة ، سد مابعدها ، مسد اسمها وخبرها .

والمعنى : أنكم قد تجهلون حقائق الأمور ، فتكرهون شيئا مما كلفتم به ، وتحاولون اجتنابه ، ولكن نهايته تكون خيرا لكم ، وتحبون شيئا وتحرصون عليه، ولكن نهايته ـ مع حبكم له ـ تكون شرًّا لكم . فليس كل مكروه ضارًّا ، ولا كل محبوب نافعا .

والجهاد : هو مصدر العزة والكرامة والحرية . وفيه إحدى الحسنيين : الظَّفَرُ أو الشهادة . وماترك قوم الجهاد إلا ذلّوا ، وأصبحوا فريسة سهلة للمعتدين .

فالقعود عن الجهاد ، وإيثار السلامة والاستسلام ـ يقود الأمة إلى : الضعف ، والفقر والذل ، والهوان .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

أى (وَاللَّهُ يَعْلَمُ) ماهو خير لكم ، وما هو شرّ لكم ، (وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ذلك فلا تتبعوا ماتميل إليه نفوسكم ، وبادروا إلى امتثال ما أمركم ، ففيه الخير دائما .

---

(١) رواه أبو داود .

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾) .

المفـردات :

(الشَّهْرِ الْحَرَامِ) : أحد الأشهر التي حرم فيها القتال وهي : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم .

(الْفِتْنَةُ) : المراد منها ؛ تعذيب المسلمين وإخراجهم من ديارهم ، وصدهم عن المسجد الحرام ، وعن دين الله تعالى .

(حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) : بطلت وفسدت .

التفسير

٢١٧ ـ (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ . . .) الآية

تكررت آيات الأحكام فيما سبق ، وتكررت الأسئلة طلبا لتوضيح الأحكام .

والسؤال هنا ، يدور حول حكم السَّرِية التي قادها عبد الله بن جحش ، فَقَتَلت وأَسَرَتْ في الشهر الحرام ؟

سبب النزول :

أخرج الطبرانى ، فى الكبير ، والبيهقى ، فى سننه ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم وغيرهم ماتلخيصه : أن النبى – صلى الله عليه وسلم – بعث رهطا بقيادة عبدالله بن جحش إلى نخلة ، فقال : كن بها حتى تأتينا بخبر من أخبار قريش ، ولم يأمره بقتال ، وكتب له كتابا قبل أن يعلمه أين يسير ، فقال : اخرج أنت وأصحابك ، حتى إذا سرت يومين فافتح الكتاب وانظر فيه ، فما أمرتك به فامض له ففعل ، فإذ فيه أمرهم بالنزول بنخلة . والحصول على أخبار قريش ، فتوجه بأصحابه نحو نخلة ، فلقوا نفرا من قريش فقتلوا أحدهم ، وأسروا اثنين منهم ، وأخذوا عيرهم وعادوا إلى المدينة فلما قدموا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لهم : والله ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام . فأوقف الرسول الأسيرين والعير ، فلم يأخذ منها شيئا ، فلما قال لهم رسول الله ما قال ، سُقط فى أيديهم ، وظنوا أن قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين .

وقالت قريش – حين بلغهم أمر هؤلاء – : قد سفك محمد الدم الحرام ، وأخذ المال وأسر الرجال ، واستحل الشهر الحرام .

فنزلت .

فأخذ رسول الله العير ، وفدى الأسيرين .

واختلف فى وقت حدوث ذلك ، فبعض الروايات تقول : إن ذلك كان فى آخر يوم من جمادى الآخرة وهو حلال : ويليه شهر رجب . وهو شهر حرام .

وبعضها تقول : إنه كان فى آخر يوم من رجب .

ولعل ذلك أرجح ، فإن الآية تؤيده ، إذ فيها أنهم سألوا عن حكم القتال فى الشهر الحرام ، كما أن الرواية التى تقول إنه كان فى آخر يوم من جمادى ، يناقض بعضها بعضا ، فقد ذكرت ما رويناه من أن الرسول ﷺ أنه ما أمرهم بالقتال فى الشهر الحرام ، وتوقف عن أخذ العير ، وأوقف الأسيرين ، وأن الرسول لما قال لهم ما قال ، سقط فى أيديهم ، وظنوا أنهم هلكوا ، وأن المسلمين عنفوا عبدالله بن جحش وإخوانه على ماصنعوا ، ولو كان ذلك فى آخر يوم من جمادى ما حدث ذلك ، ولو حدث لدافع عبد الله وإخوانه عن أنفسهم .

وكما أن السؤال فى الآية ، دلّ على أن القتال كان فى الشهر الحرام ، فالجواب قرر ذلك .
ولكنه عَذَرهم ، إذ بين أنه وإن كان القتال فيه عظيم الوزر ولكن وزر المشركين أكبر ،
كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ) :

السائلون هم المسلمون ، فقد سألوا عن حكم القتال فى الشهر الحرام ، بعد ما علموا
بما كان من سريّة عبد الله بن جحش .

والمعنى : يسألك المسلمون عن القتال فى الشهر الحرام : أهو جائز أم لا ؟ ثم كان
الجواب :

(قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) :

أى القتال فيه عظيم الوزر كبير الإثم .

وقد أثبت هذا الجواب حرمة القتال فى الشهر الحرام ، وأن ما اعتقده أهل الشرك
من استحلال الرسول القتال فيه باطل .

أما ما وقع من عبد الله بن جحش وأصحابه ، فقد كان اجتهادًا منهم ، فقد رأوا أن
قتال المشركين فيه حلال ، لأنهم أخرجوهم من ديارهم ، وصدُّوا عن سبيل الله ، وعن
المسجد الحرام وعذبوهم وهم بمكة . ومن اجتهد وأخطأ ، فله أجره ، فكيف بمن اجتهد
وأصاب ، حيث أَقَرَّ الله اجتهاده وعذره ؟ !

وإعادة لفظ القتال ؛ للاهتمام بأمر الحكم فيه . وتنكيره ؛ للإيذان بأن أى قتال فيه
مذموم وإنْ قَلّ ، وكان ذلك قبل نزول قوله تعالى : « وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ »[1]
وقوله : « وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »[2] ، فالقتال فى الشهر الحرام نسخت حرمته
بما ذكر .

---

(١) البقرة : ١٩١
(٢) النساء : ٨٩

(وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ) :

المعنى : وإذا كان القتال فى الشهر الحرام إثما كبيرا ، فإن الصَّدَّ عن دين الله ، والكفر به ، والصدَّ عن زيارة المسجد الحرام بمكة للعمرة ، وإخراج أهله المسلمين منه - مجردين من أموالهم - كل هذا - أكبر جريمةً ، وأبشع إثما عند الله - سبحانهُ - من القتال فى الشهر الحرام .

وقد فعل المشركون هذا كله .

فقد قاوموا الدعوة الإسلامية ، وعبدوا الأوثان ، ومنعوا المسلمين من أداء شعائر العبادة بالمسجد الحرام ، وعذبوهم ، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بمكة .

فأى إثم أكبر من هذا ؟

ثم عطف على الحكم الجزئى السابق ، حكما كليا : يتناول ما تقدم ، كما يتناول ما يماثله مستقبلا ، فقال تعالى :

(وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ) :

أى ما يفتن به المسلمون ويعذبون به ، أكبر إثما عند الله من القتل . وقد بالغ المشركون فى إيقاع الأذى بالمسلمين ؛ لصرفهم عن دينهم فقد عذَّبوا ياسرًا والد عمَّار : كانوا يكوونه بالنار ليرتدَّ عن الإسلام ، حتى مات فى العذاب .

وعَذَّبَ أبو جهل ، سُميَّةَ أم عمار زوجة ياسر . تعذيبا شديدا ، ثم طعنها بين فخذيها بحَرْبَةٍ طعنةً قضت عليها .

وأوذِىَ عمَّار بن ياسر فى الله ، حتى حملوه على كلمة الكفر فقالها . تقية وغفرها الله له .

وكان أُمَيَّةُ بن خلف يُعَذِّبُ بلالا ، فيجيعه ويعطشه ويطرحه فى الرمضاء ، ويضع على صدره الصخر ، ويكويه بالنار ؛ ليرتد عن الإسلام .

وغيرهم كثير ، بل لم يَسْلَمِ النبى - صلى الله عليه وسلم - من إيذاء قومه . وأخيرا تآمروا على قتله للقضاء على رسالته السماوية ، فنجَّاه الله بالهجرة إلى المدينة .

ومن هنا ،كانت الفتنة أكبر من القتل؛ لأنها قتل بطىء : مصحوب بالتعذيب والتنكيل .

وقيل المراد بالفتنة : الشرك والكفر .

(وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) :

أى هم لم يكتفوا بالصد عن سبيل الله والكفر به ، ولم يقتنعوا بتعذيبكم ، وإخراجكم من دياركم ، بل لا يزالون يفتنونكم ، بشن الحروب عليكم ، لإبادتكم ، أو صرفكم عن دينكم القويم إن استطاعوا ، وسيظل شأن الكفار مع المسلمين مستقبلا كذلك .

ولا شك فى أن مقابلة العدوان ــ بمثله ــ أمر مشروع .

والتعبير بحرف الشرط (إنْ) لاستبعاد استطاعتهم صرفَهم عن دينهم .

ثم حذرهم فقال :

(وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) :

أى من يستجب منكم لهؤلاء المشركين ، فيرجع عن دينه إلى دينهم ، فيمت وهو كافر : بطل كل عمل صالح قدمه ، وخسر الدنيا والآخرة .

وفى هذا ، إنذار شديد ، لمن تحدثه نفسه ــ من ضعفاء الإيمان ــ بالارتداد .

(وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

أى وأولئك المرتدون عن دينهم أهل النار ، هم فيها خالدون ، إذا ماتوا وهم كافرون . ولا يغنى عنهم إيمانهم السابق على الردة .

أما من ارتد عن دينه ، ولم يمت وهو كافر ، بل تاب عن ردته وكفره ، فالله يقبل توبته بفضله .

واستدل الإمام الشافعى بالآية : على أن الردة لا تحبط الأعمال، حتى يموت صاحبها عليها .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾) .

التفسير

٢١٨ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا . . .) الآية .

سبب النزول :

روى جعفر بن عبد الله ، وعروة بن الزبير ، وغيرهما ، أن الآية السابقة ، لما نزلت : اطمأن عبد الله بن جحش ومن معه ، إلى أنهم لم يرتكبوا إثما فى قتال المشركين فى الشهر الحرام ، وظن بعضهم أن الآية السابقة نفت عنهم الإثم فقط ، فقالوا : إن لم يكونوا أصابوا وِزرًا فليس لهم أجر . فقال عبد الله بن جحش ومن معه : يارسول الله ، أنطمع أن يكون لنا غزوة نُعْطَى فيها أجر المجاهدين ؟ . فأنزل الله هذه الآية ؛ ليبين أمرهم وأمر كل من آمن وهاجر وجاهد فى سبيل الله .

والمعنى : أن المؤمنين الصادقين : الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، وتركوا أموالهم وديارهم ، حرصا على دينهم وتمسكا به ، وجمعوا - إلى الإيمان والهجرة - بذل الجهد فى طاعة الله ، والقتال فى سبيل إعلاء كلمة الله - إن هؤلاء الذين جمعوا هذه الصفات - هم على رجاءٍ وأمل فى رحمة الله : ينتظرون ذلك ويطمعون فيه ، جزاء إيمانهم وهجرتهم ، وجهادهم فى سبيله ، ثقة منهم بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قال القرطبى : وإنما قال : يرجون - وقَدْ مَدَحَهُمْ - لأنه لايعلم أحد فى الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ فى طاعة الله كل مبلغ ، لأمرين : أحدهما : أنه لايدرى بم يختم له ؟ والثانى : لئلا يتكل على عمله ، اه .

وقد ختم الله الآية ، بما يطمئن أولئك الذين قاتلوا فى الشهر الحرام فقال : (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى : والله سبحانه واسع المغفرة ، عظيم الرحمة ، بمن آمن به ، وهاجر إليه ، وجاهد فى سبيله ، قاصدا وجهه الكريم ، إن اجتهد فأخطأ ، فما بالك بمن اجتهد وأصاب ، كعبد الله بن جحش !

وكرر لفظ (الَّذِينَ) مع الهجرة والجهاد ، بعد ذكرها مع الإيمان ، مع أن الذين هاجروا وجاهدوا ، هم الذين آمنوا - لتفخيم شأن الهجرة والجهاد ، كأنهما - وإن كانا مشروطين بالإيمان - مستقلان فى تحقق الرجاء .

وقدم الهجرة على الجهاد ؛ لتقدمها عليه وجودا ، كتَقَدُّمِ الإيمان عليهما .

(يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾) .

المفردات :

(الْخَمْرِ) : الخمر ؛ ما أسكر من عصير العنب . ثم أصبح اسما لكل ما أسكر . ففى الحديث : « كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ » . وفيه : « ما أَسْكَرَ مِنْهُ الفَرَقُ[1] فَمِلْءُ الكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ » . رواه أحمد عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - وسميت خمرا ؛ لتغطيتها العقل . من خمر الشىء : إذا ستره .

(١) الفرق بفتح الراء : مكيال كبير يسع ستة عشر رطلا .

(وَالْمَيْسِرِ) : القمار ؛ مصدر يسر . يقال يسرته : قمرته . واشتقاقه من اليسر - بمعنى السهولة - لأنه أخذ الرجل مال غيره بيسر وسهولة ، من غير كدّ ولا تعب ، أو من اليسار لأنه سلب يساره .

والميسر : قمار العرب . كانت لهم عشرة قداح يقامرون عليها وهى : الأزلام ، ثلاثة منها ليس لها علامات ، فليس لمن أخذ واحدا منها نصيب من الربح ، والباقى له علامات متفاوتة ، يتفاوت بسببها الربح . كانوا يضعون هذه القداح العشر فى خريطة على يدى عدل ، يحركها ويخرجها واحدا واحدا . فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء ، أخذ النصيب الموسوم به ، من جزور يذبح ، ويُجَزَّأ على قدر سهام القداح . ومن خرج قدح مما لانصيب له ، لم يأخذ شيئا ، وغرم ثمن الجزور كله . وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ، ولا يأكلون منها ، ويفتخرون بذلك ، ويذمون من لم يدخل فيه ، ويسمونه : البرم .

(إِثْمٌ) : الإثم ؛ الذنب ، أو الشر ، أو الضرر .

(الْعَفْوَ) من المال : مازاد على النفقة ، أو السهل الميسور .

(وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ) : أوقعكم فى مشقة وشدة .

التفسير

٢١٩ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . .) الآية .

كماسأل الصحابة الرسولَ - صلَّى الله عليه وسلم - عما ينفقون ؟ وعن القتال فى الشهر الحرام ؟ سألوه عن الخمر والميسر .

ولقد جاء الإسلام والعرب يعتادون تناول المسكرات - من عصير العنب أو نقيع التمر أو غيرهما - ومع أنها شديدة الضرر بالجسم والعقل ، فإن الإسلام تدرج معهم فى تحريمها ، لتغلغل حُبِّها فى قلوبهم ، وظنهم أنها أساس لبعض مكارمهم ، كما عالج مآثم أخرى عميقة الجذور ، بسياسة التدرج : رحمة وحكمة ؛ لأنه الأسلوب الأمثل فى علاج النفوس التى أقامت على تلك المآثم ، وتوارثتها عبر الأجيال .

وقد بين الزمخشرى ذلك فى كشافه ، فقال :

نزلت فى الخمر أربع آيات . نزلت بمكة : « وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا »[1] ، فكان المسلمون يشربونها وهى لهم حلال .

ثم إن عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة ، قالوا : يارسول الله ؛ أفْتِنَا فى الخمر ، فإنها مذهبة للعقل ، مسلبة للمال ؟ فنزلت : (فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) فشربها قوم ، وتركها آخرون .

ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا وسكروا ، وأمَّهم بعضهم ، فقرأ . « قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ . أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » بغير (لا) فنزلت : « لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى »[2] فقلَّ من يشربها .

ثم دعا عتبان بن مالك قوما ، فيهم سعد بن أبى وقاص إلى طعام وشراب ، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا ، حتى أنشد سعدٌ شعرا فيه هجاء الأنصار ، فضربه أنصارى بلحى بعير فشجه ، فشكا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال عمر : « اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا » فنزلت : « ... إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ... » إلى قوله : « فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ[3] » . فقال عمر – رضى الله عنه – انتهينا يارب .

والمعنى : يسألك المسلمون يامحمد عن حكم تعاطى الخمر والميسر . قل : فيهما ضرر كبير ، ومنافع للناس ، وضررهما أكبر من نفعهما .

أما ضرر الخمر – من أى نوع اتخذت – فقد أثبته الطب بما لايدع مجالا للشك فيه ، فإن تعاطى الخمر يؤدى إلى التهاب الكبد ، وضعف المعدة ، وضعف مقاومة الجسم للأمراض . وقد ثبت من بحوث عديدة بالمستشفيات العامة : أن نسبة الوفيات – بين المدمنين ترتفع إلى خمسين فى المائة ، على حين لاتتجاوز نسبتها – فى غير المدمنين – أربعا وعشرين – فى المائة !!

---

(١) النحل : ٦٧

(٢) النساء : ٤٣

(٣) المائدة : ٩٠ ، ٩١

وتأثيرها فى العقول ملموس . فقد تمت تجارب عديدة ثبت منها أن الغَوْل (الكحول) ، المتولد فى الخمر ، سبب مباشر لخُمسِ الإصابات فى مستشفيات الأمراض العقلية !!

هذا فضلا عما تسببه من الجرائم الخلقية ، فإنها : تزين القبيح ، وتشوه الحسن ، وتدفع صاحبها دفعا إلى ارتكاب الموبقات والآثام ، والاعتداء على الحرمات ، مما يورث الأحقاد والعداوات .

أمّا مافيها من نفع : فلعله أن الغول (الكحول) الذى فيها قد يقتل بعض الجراثيم ، وأنها تتحول إلى خَلّ ، وأن الاشتغال بها ، قد يعود ببعض الأرباح على صانعيها ، والمتجرين فيها ، وأنها قد تحمل على البذل والعطاء وتشجيع الجبان ونحو ذلك .

ومن الموازنة بين الضرر والنفع ، نجد الضرر يفوق النفع أضعافا مضاعفة بحيث لو لم يرد نَصٌّ دينى صريح بالتحريم - لأوجب العقل تحريمها :دفعا لما فيها من آثام .

ويلحق بالخمر المخدرات مثل : الحشيش ،والأفيون ، والكوكايين ، والهيروين . . .

وأمّا ضرر الميسر ، فهو أنه يؤدى إلى إتلاف الأموال ، وإهمال الأعمال ، وشيوع البطالة ، وضياع الوقت فى غير طائل ، والاتكال على الحظ ، والحرص على أكل أموال الناس بالباطل ، وما يترتب على هذا من إثارة العداوة والبغضاء فى النفوس .

ونحن نعلم أن كثيرا من الثروات الطائلة ، تبددت على موائد القمار ، وفى ميادين السباق ، وكثيرا ماتمتد أيدى المقامرين إلى ما تحت أيديهم من أمانات ، فيكون مآلهم السجن . وقد يصل بهم الأمر إلى الانتحار .

أما نفعه : فهو ناشئ عن أخذ الفقراء لحم الجزور المتقامر عليه . وقد مرّ بيان ذلك فى المفردات ، وأن بعض المقامرين ، قد يستفيد من المال الذى أخذه من غيره بدون حق ، وأن بعض ماله - فى العصر الحديث - تنتفع به الجمعيات الخيرية ، خصما من أرباح أوراق (اليانصيب) . وهذا النفع إذا تم ، لايقاس بما يقع من أضرار جسيمة ، وعواقب وخيمة ، وشر عظيم .

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) :

سبب النزول :

أخرج ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس – رضى الله عنهم – أن نفرا من الصحابة – حين أمروا بالنفقة فى سبيل الله – أتوا النبى – صلى الله عليه وسلم – فقالوا : إنا لاندرى ماهذه النفقة التى أمرنا بها فى أموالنا ؟ فما ننفق منها ؟ فنزلت .

وكان – قبل ذلك – ينفق الرجل كل ماله، حتى ما يجد ما يتَصَدَّق ولا ما يأكل ، حتى يُتَصَدَّقَ عليه اهـ .

ومن سبب نزولها أيضا : ما أخرجه ابن أبى حاتم، من طريق أبان بن يمين: أنه بلغه أنّ معاذ بن جبل وثعلبة ، أتيا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالا: يارسول الله ، إن لنا أرقاء وأهلين ، فما ننفق من أموالنا ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وهذا الجزء من الآية، مرتبط بما قبله ارتباطًاوثيقًا. فهو فى الإنفاق فيما يحل ، وماقبله فى الإنفاق فيما يحرم ، وهو معطوف على (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ) عطف القصة على القصة .

والمعنى : ويسألك المسلمون يامحمد، ماالذى ينفقونه من أموالهم؟ قل لهم : ينفقون العفو ، وهو مافضل عن العيال ، دون أن يجهدهم .

أخرج الشيخان وغيرهما ، عن أبى هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : «خير الصدقة ماكان عن ظهر غنى . وابدأ بمن تعول» .

وأخرج ابن خزيمة عنه – أيضا – أنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «خير الصدقة ما أبقت غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول . تقول المرأة : أنفق علىَّ أو طلقنى ، ويقول مملوكك : أنفق علىَّ أو بعنى ، ويقول ولدك : إلى من تكلنى ؟ !» .

وقال أبو سعيد الخدرى : بينما كنا فى سفر مع النبى - صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه رجل على راحلته ، فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من كان معه فضل ظهر فَلْيَعُدْ به على من لا ظَهْرَ له . ومن كان له فضلٌ من زاد فَلْيَعُدْ به على من لا زاد له » .

فذكر من أصناف المال ماذكر، حتى رأينا أنه لاحقَّ لأحدٍ منا فى فضل .

فمما سبق - يعلم أن الصدقة لاتكون إلا بعد كفاية العيال .

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . . .) :

أى مثل هذا البيان الواضح فى الخمر والميسر والإنفاق : يبين الله لكم آيات الأحكام وغيرها ؛ لكى تتفكروا وتتدبروا فى شئون الدنيا والآخرة ، فتأخذوا بما هو أصلح لكم . ولعلَّ هنا ؛ للتعليل .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ) :

سبب النزول :

أخرج أبو داود والنسائى وغيرهما عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال :

لما أنزل الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ[1] . . . » و « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ[2] . . . » الآية . انطلق من كان عنده يتيم ، فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه . فَجَعل يفضل له الشىء من طعامه ، فيحبس له حتى يأكله ، أو يفسد فيرمى . فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ...)الآية : فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه » واللفظ لأبى داود .

---

(١) الأنعام : ١٥٣
(٢) النساء : ١٠

والمعنى : ويسألك الناس عن أمر اليتامى، قل إصلاح لهم خير من تركهم أو ظلمهم .

والإصلاح يتناول كل نفع يعود عليهم من : تنمية أموالهم ، وحسن تربيتهم ، وتوليتهم بعض أمورهم المالية ؛ ليديروها تحت رقابة أوصيائهم ، ونحو ذلك .

ولذا نَكَّر (إِصْلَاحٌ) ليتناول كل فروعه . ونَكَّرَ (خَيْرٌ) ولم يقيد بقيد ، ليفهم منه أنه «خير» مطلق : يعم الأوصياء والأيتام . فالخير للأوصياء : جزيل الثواب وحسن الذكر . والخير للأيتام : يسارهم وطيب نشأتهم ؛ ليكونوا نافعين لأنفسهم وأمتهم .

(وإن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ) :

أى : إن تخالطوهم - فى الطعام والشراب والمسكن - تؤدوا اللائق بكم ، فإنهم إخوانكم فى الدين .

والمقصود : الحث على المخالطة ، بشرط الإصلاح .

(وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ) :

وقد حذر الله المخالطين من الإفساد عند المخالطة لها فيجازى كلا منهما بما يستحقه ، فإن الله لا تخفى عليه خافية : «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ [١] » .

فالمؤمن ، ينبغى أن يراعى هذا ، فيرغب فى إصلاح أحوال اليتيم : طلبا لثواب الله ، ويرغب عن الإفساد ، خشية عقاب الله :

(وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ) :

أى : ولو شاء الله لضيق عليكم ، بأن لم يُجَوِّزْ لكم مخالطتهم ؛ لترعوا مصالحهم دون مخالطة. ولكنه سبحانه - رحيم بعباده ، رءوف بهم ، « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ [٢] » .

(إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) :

أى إن الله غالب على كل شىء : لا يعجزه أمر أراده ، وفى جملته إعناتكم (حَكِيمٌ) فيما يشرعه من أحكام . ومن جملة ذلك : أنه شرع لكم ما تقتضيه الحكمة، وتتسع له الطاقة البشرية : التى هى أساس التكليف .

---

(١) غافر : ١٩

(٢) الحج : ٧٨

(وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)) .

المفردات :

(تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ) : تتزوجوهنّ .

(تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ) : تُزَوِّجوهم .

(الْمُشْرِكِينَ) : المراد بهم هنا ؛ الكافرون مطلقا .

(الْمُشْرِكَاتِ) : المراد بهن ، الوثنيات ، ومن لا دين لهن .

(وَلَأَمَةٌ) : الأمة ؛ المرأة المملوكة .

التفسير

٢٢١ - (وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ . . .) الآية .

الربط :

تناولت الآية السابقة، توصية الأولياء والأوصياء بالإصلاح المطلق لشئون اليتامى . وأعقبتها هذه الآية متضمنة أساس صلاح الأسرة ، وهو الاشتراك فى الدين بين الزوجين ، وبذلك اشتركت الآيتان فى أن كلتيهما : تتناول لونًا من ألوان الإصلاح فى البيئة الإسلامية .

سبب النزول :

روى السدى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن رواحة .كانت له أمةٌ سوداء وأنه غضب عليها فلطمها ، ثم إنه فزع .. فأتى النبى – صلى الله عليه وسلم – فأخبره خبرها ، فقال له النبى – صلى الله عليه وسلم – : ماهى يا عبد الله ؟ فقال هى يارسول الله : تصوم وتصلى ، وتحسن الوضوء ، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

فقال : يا عبد الله ، هى مؤمنة . قال عبد الله : فو الذى بعثك بالحق نبيا ، لأعتقنها ولأتزوجها ، ففعل . فطعن عليه ناس من المسلمين ، فقالوا : نكح أمة ، وكانوا يريدون أن ينكحوا المشركين وينكحوهم : رغبة فى أنسابهم ، فأنزل الله (وَلَاتَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ . . .) الآية .

المعنى : المراد من المشركات : مَن يعبدْن غير الله ، ومن ليس لهن دين . وقد حرمت الآية نكاحهن . فلا يجوز أن يتزوجهن المسلمون بالإجماع .

أما الكتابيات : فلا تدل الآية على منع الزواج منهن ؛ فإنهن لا يُعْرَفْنَ بالمشركات فى لسان الشريعة الإسلامية ، وإن كان اليهود يقولون : عُزَيْر ابنُ الله ، والنصارى يقولون : المسيح ابن الله .

وإنما يعرفن بالكتابيات .

وقد أبيح الزواج منهن–صراحة– فى قوله تعالى : « الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ [1] » .

وبهذا أخذ جمهور العلماء .

---

(١) المائدة : ٥

ومن العلماء من منع الزواج منهن . وحجته فى ذلك : أنها تنكر معجزة النبى - صلى الله عليه وسلم - وتضيفها إلى غيره - تعالى - وهذا هو الشرك .

ولأن الشرك فى هذه الآية ، وقع فى مقابل الإيمان فى الآية التالية ، فوجب حمله على عدم الإيمان بالله ورسوله بأى صورة . ولأنه - تعالى - أطلق الشرك على أهل الكتاب ، لقوله - تعالى - : «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ» إلى قوله : «عَمَّا يُشْرِكُونَ»[1] .

وأخرج البخارى والنحاس فى ناسخة ، عن نافع عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - وكان إذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية أو اليهودية ، قال : حرم الله تعالى المشركات على المسلمين ، ولا أعرف شيئا من الإشراك ، أعظم من أن تقول المرأة : ربُّها عيسى ، أو عبد من عباد الله تعالى .

وإلى هذا ذهب الإمامية ، وبعض الزيدية ، وجعلوا آية المائدة «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» منسوخة بهذه الآية ، نسخ الخاص بالعام ، وتلك - وإن تأخرت تلاوة - فهى مقدمة نزولا .

والجمهور على الأول :

والآية تقرر : أن المرأة المملوكة الرقيقة إذا آمنت ، رفعها إيمانها فوق المشركة : حرة كانت أم أمة ، وإن أعجبت المشركة من يريد الزواج ، لما لها من : حسب ، أو نسب ، أو جمال ، أو مال .

ثم إن التفضيل يقتضى : أن فى المشركة خيرا . فإما أن يراد بالخير ؛ الانتفاع الدنيوى وهو مشترك بينهما ، أو هو على حد قوله تعالى : «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا[2]» .

والمعنى : ولا تتزوجوا المشركات حتى يؤمن ، فنكاحهن - وهن مشركات - حرام : لا ينعقد ، ويعتبر وطؤهن زنى ، ولأمة مؤمنة يتزوجها المسلم ، خير من مشركة : حرة كانت أم أمة ، ولو أعجبتكم ، بجمال أو مال ، أو حسب أو نسب .

---

(١) التوبة : ٣٠ ، ٣١ (٢) الفرقان : ٢٤

(وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ) :

المراد من المشركين هنا : الكفار مطلقا ، سواءٌ أكانوا يعبدون غير الله ، أم من أهل الكتاب ، أم لا يدينون بدين .

والآية تحرم تزويج المؤمنات — سواءٌ كن حرائر أو إماءً — بكفار ، على أى دين كانوا فلا ينعقد زواج المؤمنة من : كتابى ، أو مشرك ، أو معطل .

قال تعالى : « فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ[1] » .

والآية تدل على : أنه لايجوز عقد النكاح إلا بولى ؛ لأن النهى عن إنكاحهن إلى المشركين ، إنما وجه إلى أوليائهن .

وبذلك تصرح السنة . قال صلى الله عليه وسلم : « لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ » . رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، والترمذى ، وابن ماجه . وإلى هذا ذهب معظم الأئمة ، ويعضدهم قوله تعالى : « فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ[2] » وإن كان الزهرى والشعبى وأبو حنيفة يقولون : إذا زوّجت المرأةُ نفسها كفؤًا بشاهدين ، فذلك نكاح جائزٌ ، متمسكين بقوله تعالى : « فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ[3] » وقوله تعالى : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ[4] » .

(أُولَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ) :

هذا تعليل لما سبق من تفضيل العبيد — من المؤمنين والمؤمنات — على السادة من المشركين والمشركات . أى أولئك المذكورون — من المشركين والمشركات — يدعون إلى الكفر المؤدى إلى النار ، فلا تصاهروهم ، حتى لا يفتنوكم ويفتنوا ذريتهم . والله يدعو — بواسطة أوليائه من المؤمنين والمؤمنات — إلى دواعى الجنة من : الإيمان الخالص والعمل المشروع ، فكيف يلتقيان بالزواج ! .

---

(١) الممتحنة : ١٠ (٢) النساء : ٢٥
(٣) البقرة : ٢٣٢ (٤) البقرة : ٢٣٤

(وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

والله سبحانه ، يشرِّع للناس بآياته ماينفعهم فى الدنيا والآخرة ، ويوضحها لهم ؛ لكى يتذكروا ويتدبروا ، فيستجيبوا إليه عن بصيرة واقتناع .

(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾) .

المفـردات :

(الْمَحِيضِ) : الدم الذى تفرزه المرأة شهريا ؛ من موضع المباشرة الجنسية . وهو فى الأصل ، مصدر : حاضت المرأة حيضا ومحيضا ومحاضا ، أى سال دمها ، ثم أطلق على نفس الدم السائل .

(نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ) : الحرث فى الأصل ؛ إلقاءُ البذر فى الأرض ، قال تعالى : « أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ[1] » يعنى : أفرأيتم ماتلقونه فى الأرض من البذور ؟ أأنتم تنبتونه أم نحن المنبتون ؟ . والمراد بكون النساء حرثا : أنهن مواضع الحرث ، وهو هنا ، إلقاءُ النُّطَفِ فى الأرحام . وقال الجوهرى: الحرث الزرع . إهـ . أى نساؤكم موضع زرع لكم . والتعبير عنهن بذلك ، على وجه الاستعارة المبنية على تشبيههن بمواضع الإنبات .

(١) الواقعة : ٦٣ ، ٦٤.

التفسير

٢٢٢ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى . . .) الآية .

الربط :

دلت الآية السابقة على عناية الدين بصحة العقائد، فطالبت المؤمنين أن يقيموا عقد النكاح على أساس من الإيمان الصادق ، كما تدل على الغرض الرئيسى من الزواج ، وهو : إنجاب الأطفال .

وسبب النزول :

ما أخرجه مسلم ، وأحمد ، وأبو داود ، وغيرهم ، عن أنس - رضى الله عنه - « أن اليهود كانوا - إذا حاضت المرأة منهم - أخرجوها من البيت ، ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيوت - أى لم يكونوا معهن فى البيوت - ، فسئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك ، فأنزل الله هذه الآية ، فقال صلى الله عليه وسلم : « جَامِعُوهُنَّ فِى البُيوتِ ، واصْنَعُوا كُلَّ شَىءٍ إِلَّا النِّكَاحَ » أى إلا الوطء فإنه لايحل أثناء المحيض .

وكان اليهود يعتقدون أن الحائض نجسة ، وكل من مسها يكون نجسا ، إلى المساء ، وكذلك يتنجس كل ما تلمسه أو تجلس عليه ، أو تلبسه . فمن مس فراشها لا يطهر إلا بغسل ثيابه واستحمامه ، ومع هذا يظل نجسا إلى المساء . ومن ضاجعها ظل نجسا سبعة أيام[1] .

وكان النصارى يتسامحون فى أمر المحيض .

والمعنى : ويسألك المؤمنون عن دم النساء الذى يأتيهن شهريا ، وعن الأحكام المترتبة على وجوده ، قل لهم : هو أذى ؛ إذ هو ضارٌّ بصحة الأجسام ، وقذر تتأذى منه النفوس .

وقد ثبت طبيا : أن اتصال الرجل بالمرأة - أثناء المحيض - قد يترتب عليه ضرر المرأة ذاتها كالتهاب المبيض ، كما يترتب عليه ضرر الرجل ؛ لوجود جراثيم ضارة فى المهبل

---

(١) راجع فى ذلك سفر اللاويين ، الإصحاح الخامس ١٩ — ٢٩

أثناء الحيض ، فتؤثر فيه وتصيب المثانة والحالبين . وقد تصل إلى البروستاتا والخصيتين والقناة البولية ، وهكذا مما صان الله المسلم منه .

والتعبير بجملة (هُوَ أَذًى) بدلا من هو مؤذ ؛ للمبالغة فى إثبات أذاه ، حيث جعله ذات الأذى .

(فَاعْتَزِلُوا النِّسَآءَ فِى الْمَحِيضِ) :

المقصود باعتزالهن فى المحيض : هو تجنب الاتصال الجنسى بهن أثناء الحيض . أما غيره - كالقبلة واللمس ونحو ذلك - فمباح . وكرر لفظ « الْمَحِيضِ » ولم يكتف بضميره ، لئلا يتوهم رجوعه إلى شىء سواه ، اعتناء بإبراز أذاه .

(وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ) :

هذا تقرير لوجوب اعتزالهن . وليس إنشاء حكم جديد ؛ فإن الأمر باعتزالهن ، يلزمه النهى عن القرب منهن .

والمقصود من : القرب منهن : مباشرتهن فى موضع الحيض ، أى ولا تجامعوهن حتى يطهرن ، فإذا طهرن ، فلكم مجامعتهن .

والمقصود من طهرهن : انقطاع حيضهن عند أبى حنيفة ، إذا كان الانقطاع لأكثر مدة الحيض ، فإن كان لأقل منها ، لم يحل وطؤهن إلا بالاغتسال ، أو مضى وقت صلاة بعد الانقطاع .

أما عند الشافعية : فطهرهن هو اغتسالهن بعد انقطاع الحيض . فلا يحل الوطء عندهم بانقطاع الدم وحده ، لإطلاق الطهر فى الآية ، ولقراءة (يَطَّهَّرْنَ) بتشديد الطاء ، مبالغة فى الطهر .

(فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ) :

الأمر هنا ليس تكليفيا ، وإنما هو للإباحة .

ويقول الفقهاء : إن كل أمر يرد بعد نهى للإباحة ، مثل قوله تعالى : « وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا[1] » .

(١) سورة المائدة : ٢

والمعنى : فإذا تطهرت النساء - بانقطاع الحيض، والاستحمام منه - فلكم أن تباشروهن من المكان الذى أمركم الله باجتنابه - أثناء الحيض - تجنبا للأذى .

قاله ابن عباس وغيره .

وقال الزجّاج : معناه : من الجهات التى يحل فيها أن تقربوا المرأة ، ولا تقربوهن من حيث لا يحل، كما إذا كن صائمات أو محرمات . وأيِّد بأنه لو أراد الفرْج لقال : فى حيث أمركم الله - لأنه أظهر .

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) :

ختم الله الآية الكريمة بتأكيد حُبِّه للتائبين المبالغين فى التوبة ، فيما عسى أن يصدر منهم من الذنوب ، كإتيان الزوجة فى الحيض ، وحبه للمتطهرين من الأقذار ، الحريصين على تنفيذ أوامره ونواهيه .

أخرج أحمد ، والترمذى ، والنسائى ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « مَنْ أَتَى حَائِضًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » .

والحديث للترهيب ، والمقصود: أنه فعل مايفعله الكافرون .

٢٢٣ - (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ . . .) الآية .

سبب النزول :

أخرج البخارى وجماعة عن جابر ، قال : « كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من خلفها فى قبلها - أى فى فرجها - ثم حملت ، جاء الولد أحْول فنزلت » .

وقد أباحت الآية ، ماحرمه اليهود من إتيان المرأة - فى موضع الحمل - من جهة الخلف، إذ جوزت إتيانها من أية جهة شاءها الأزواج ، عند مجامعتهن فى القبل .

والحرْث : الزرع كما نقلناه عن الجوهرى ، أى مواضع زرع لكم . والمقصود من الزرع : إنجاب الأولاد . والكلام على التمثيل والتشبيه .

والمعنى : نساؤكم موضع إنجاب الذرية لكم ، فأتوهن فى مكان الإنجاب ، كيف شئتم : من الأمام أو من الخلف ، أو نائمات على جنوبهن . ولا تعبأوا بمقالة اليهود ، مادمتم تأتونهن فى مواضع الحمل ، حيث أمركم الله تعالى .

وفسر ابن عباس : (أَنَّى شِئْتُمْ) بأى وقت شئتم من الليل أو النهار . وسيأتى بيان ذلك .

وليس فى الآية دليل على حل وطء الزوجة فى دبرها ، فإن إباحة إتيانها - كيف شاء الزوج - مقيدة بموضع الحرث ، أى موضع إنجاب الذرية وهو القبل . كما أن سبب النزول الذى ذكرناه يدل على ذلك .

ولهذا حرم جمهور الفقهاء إتيان النساء فى أدبارهن

ومما يدل على ذلك :أن الله تعالى ، حرم إتيانهن فى المحيض ؛ لاستقذاره ، فكيف يباح إتيانهن فى الأدبار وهى أشد قذرا من مكان المحيض وقت الحيض ؟

أخرج ابن جرير ،وابن أبى حاتم، عن سعيد بن جبير: قال : « بينا أنا ومجاهد جالسان عند ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - إذ أتاه رجل فقال : ألا تشفينى من آية الحيض ؟ قال : بلى ، فقرأ : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ) إلى (فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ) : فقال ابن عباس : من حيث جاء الدم ، مِن ثَمَّ أُمِرْتَ أن تَأْتِيَ ، فقال : كيف بالآية ، (نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) فقال : ويحك ، وفى الدبر من حرث؟ لو كان ماتقول حقا ، لكان المحيض منسوخا ، إذا شغل من هنا جئت من ههنا ، ولكن أنى شئتم : من الليل والنهار » .

وقد جاء التحريم نصًّا عن رسول الله - صلَّى الله عليه وسلم - .

روى أبو داود والنسائى قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِى دُبُرِهَا » .

وروى الإمام أحمد ، وابن ماجه ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِى دُبُرِهَا » إلى غير ذلك من الأحاديث .

(وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ) :

ثلاثة أوامر متتالية ، تدعو إلى العمل الصالح ، واجتناب المعاصى .

أولها : قدّموا لأنفسكم ، وحذف المفعول هنا للتعميم ، أى قدموا لأنفسكم كل عمل صالح يقربكم إلى الله .

فإنجاب الأبناء ، وحسن تربيتهم ، عمل صالح يستمر أثره حتى بعد وفاة الوالدين .

والعلم النافع ، يبقى أثره بعد وفاة صاحبه .

وكذلك الصدقة الجارية ، وكل أنواع البر . والخير :عاجلها وآجلها .

ومنها ماتقدم فى الآية التىقبلها ، من : اعتزال النساء فىالمحيض ، على ماتقدم بيانه .

الأمر الثانى : الأمر بالتقوى . وهو يتكرر عقب آيات الأحكام ، كما لاحظنا سابقا . ومعنى التقوى : خشية الله ، واتقاء غضبه ، بفعل الطاعات ، وترك المنهيات ، فإنها خير زاد . قال تعالى : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى »[1] .

والأمر الثالث : فى تذكير المؤمنين بانتهاء هذه الحياة الدنيا ، وبأن كلاً منهم سيلقى الله ، وسيجنى جزاء ماقدمت يداه .

والعلم اليقينى بهذا المصير : يلازم صاحبه فى كل زمان ومكان ، فيجعله حريصا على أداء الطاعات ، واجتناب المنهيات .

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) :

ذيّل الله الآية الكريمة بأمر رسوله صلّى الله عليه وسلم : أن يبشر المؤمنين بالثواب الجزيل ، على ماقدمت أيديهم من أعمال صالحات .

---

(١) البقرة : ١٩٧

(وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾) .

المفـردات :

(عُرْضَةً) : أى معترضا وحاجزا .

(لِأَيْمَانِكُمْ) : الأيمان جمع يمين. وهى هنا : اسم للحلف . وهى فى الأصل مصدر لا فعل له، تقول : حلفت يمينًا ، كما تقول حلفت حلفا ، ثم أُطلقت على المحلوف عليه . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ـ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَفْعَلِ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ » أخرجه مسلم وغيره وسيأتى .

(أَن تَبَرُّوا) : أن تفعلوا البر .

(اللَّغْوِ) : مالا يعتد به من الكلام . واللغو فى اليمين : مايجرى على اللسان دون قصد ، مثل قول القائل : والله ، وبلى والله .

التفسير

٢٢٤ـ (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ...) الآية .

لما أمر الله ـ تعالى ـ فى الآية السابقة بتقواه ، وحذَّر من لقائه على معصية ، وبشَّر المؤمنين ـ أتبع ذلك لونًا من ألوان التقوى ، وهو ألا يجعلوا الله عرضةً لأيمانهم ، حتى تنالهم بشارته سبحانه وتعالى .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير ، عن ابن جريج : أنها نزلت فى الصدّيق رضى الله عنه ، لَمَّا حلف ألّا ينفق على مسطح ابن خالته، وكان من الفقراء المهاجرين ، حين وقع فى إفك عائشة رضى الله عنها .

والمعنى : ولاتجعلوا الله – لأجل حلفكم به – عرضة وحاجزا : يمنعكم عن البر والتقوى، والإصلاح بين الناس .

وقيل : معناه : لا تجعلوا الله غرضا لأيمانكم ، بكثرة الحلف به فى كل حق وباطل ؛ لأن فى ذلك جرأةً على الله تعالى .

وهذا هو التفسير المأثور عن عائشة – رضى الله تعالى عنها – وبه قال الجبائى وأبو مسلم. ويكون : (أَن تَبَرُّوا) علة للنهى ، على معنى أنهاكم عن الحلف : رغبة بركم وتقواكم وإصلاحكم .

فإذا حلف الإنسان على ترك خير ، فليفعل الخير ، وليكفر عن يمينه ، ولايجعل اليمين مانعة له من المعروف .

قال ابن عباس : لاتجعل الله عرضة ليمينك ، ألَّا تصنع الخير ،ولكن كفّر عن يمينك ، واصنع الخير .

وروى مسلم ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خيْرًا منْهَا ، فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ ، وَلْيَفْعَلِ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ » .

والآية توحى بالإقلال من الإقسام ، حتى لايعتادها اللسان .

وقد ذم الله المكثرين من الحلف فقال : « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ » [1]

والبر : الخير مطلقا . والتقوى : مراعاة الله فى السر والعلانية ، واتقاء غضبه ، والإصلاح بين الناس : إزالة مابينهم من جفاء وعداوة .

---

(١) القلم : ١٠

وكل ذلك رغَّب فيه الشارع . فلا ينبغى الحلف على ترك شىء منه . ومن حلف فليكفر عن يمينه ، بعد أن يفعل الخير الذى حلف على تركه .

(وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

هذا تحذير بليغ ، خُتِمَت به الآية ؛ ليعلم كل مؤمن : أن الله سميع لكل مايقوله ، عليم بكل مايفعله أو ينويه ، وأن عليه مراعاة الله فى الأفعال والأقوال والنيّات .

٢٢٥ - (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ . . .) الآية .

الأيمان ثلاثة أقسام : الأول : يمين لغو : لا يُعتد بها ، ولا مؤاخذة عليها . وهى اليمين التى تجرى على الألسنة فى الأحاديث ؛ لمجرد التأكيد مِثل : لا والله ، وبلى والله ، وهذا هو المروى عن عائشة فى تفسير يمين اللغو .

ويرى آخرون : أنه القسم الذى يعتقد المقسم أنه صحيح ، ثم يتبين خطؤه .

ويرى بعضهم : أنه قسم الغضبان الذى يخرجه الغضب عن اتزانه . ويعده بعضهم : يمين المكره ، أو الذى يقسم وينسى قسمه ، فيخالف ماأقسم عليه .

وهذا كله لا كفارة فيه ، على أرجح الآراء .

والقسم الثانى : هو أن يحلف الحالف على ترك أمر غير محرم ولا مكروه ، فإذا رأى الأولى أن يخالف ما أقسم عليه - فعل الأولى وكفَّر عن يمينه : بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة . فمن لم يجد ، فصيام ثلاثة أيام . وإذا أقسم الحالف على فعل معصية ، أو ترك طاعة ، فواجب عليه أن يخالف ماأقسم عليه ، ويكفر عن يمينه .

والقسم الثالث : أن يقسم كاذبا متعمدا ليخدع السامعين ، فهذا إثمه عظيم . فعلى هذا المقسم أن يبادر بالتوبة والإنابة إلى الله .

روى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - : « مَنِ اقْتَطَعَ حقَّ امْرِئٍ مسلمٍ بيَمينِه ، فَقَدَ أوجبَ اللهُ له النارَ . فقال رجل : وإن كان شيئًا يسيرا ؟ . قال : وإنْ كان قضيبًا منْ أراكٍ » رواه مسلم وغيره .

(وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ) :

أى أن الله سبحانه ، رحيم بعباده : لايعاقبهم على أيمان اللغو غير المقصودة ، ولكنه يعاقب من أقسم به كاذبًا متعمدًا ؛ لأنه مخادع منافق . يقحم اسم الله ليخدع به الناس ، جلبا لمنفعة ، أو دفعا لمضرة .

(وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) :

لا يعجل بعقوبة المسىء ، لعله يتوب وينيب .

(لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾) .

المفردات :

(يُؤْلُونَ) : يُقسمون . يُقال : آلى عليه . ومنه : أقسم . والألية : اليمين .

والإيلاءُ شرعا ؛ معناه : أن يحلف الرجل أن لا يقرب زوجته .

(تَرَبُّص) : التربص ؛ الانتظار .

(فَاءُوا) : رجعوا . وفاءَ الرجل إلى امرأته : رجع إليها ، بعد أن حلَف ألَّا يقربها .

التفسير

٢٢٦ - (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ...) الآية .

وردت هذه الآية الكريمة متممة لأحكام القسم ، ومكملة لتنظيم الأسرة الإسلامية ، على أساس من صلات المودة والرحمة ، والتعاون المثمر ، والاحترام المتبادل .

واعلم : أن للنفوس والشيطان تأثيرا على سلوك الناس ، فقد يحدث بين الزوجين مايعكر الصفو بينهما ، تأثرا بهوى النفس ووسوسة الشيطان ، فيحلف الزوج : ألَّا يباشر زوجته ، ويجعلها بذلك كالمعلقة : لا هى متزوجة ، ولا هى مطلقة ، فيمزق بذلك شمل الأسرة ، ويقطع أواصر المودة والرحمة ، ويعرِّض الذرية للانحرافات الخلقيَّة .

فأنزل الله هذه الآية الكريمة ، علاجا لهذه الحالة .

فقد تحدثت عن الإيلاء ، وهو الحلف على ألَّا يباشر زوجته ، وبينت أحكامه .

والإيلاء شرعًا : أن يقول الرجل لزوجته ؛ والله لا أقربك أربعة أشهر ، أو أربعة أشهر فصاعدا ، أو لا أقربك على الإطلاق .

وعلى هذا الأئمة الأربعة ، عدا الشافعية ، الذين قالوا : لا إيلاء إلا فى أكثر من أربعة أشهر ، فلو حلف لا يقربها أربعة أشهر فما دونها ، لا يكون إيلاء شرعًا عندهم ، ولا يترتب حكمه عليه ، بل هو يمين كسائر الأيمان ، إن حنث كفَّر كفارة يمين ، وإن برَّ فلا شىء عليه .

وبعض العلماء - كالنخعى وقتادة - يرونه موليًا إن حلف ألا يقربها أى مدة ، قلَّت أم كثرت .

وحكم الإيلاء عند غير الشافعى : أنه إن فاء إليها - أى رجع عما حلف عليه - بمباشرتها فى المدة التى حلف عليها ، أو بالقول - إن عجز عن الوطء - صح الفىء ، وحنث القادر . ولزمته كفارة اليمين . ولا كفارة على العاجز . وإن مضت الشهور الأربعة ، بانت بتطليقة من غير مطالبة المرأة بإيقاع الطلاق من الزوج أو الحكم .

ويقول الشافعية : إن المولى له التلبث مدة أربعة أشهر ، فلا يطالب بفىء ولا طلاق ، فإن فاء بعودته إلى المباشرة ، حنث فى اليمين ، ولزمته الكفارة ، وإذا مضت أربعة أشهر ، ولم يفىء ولم يطلق ، طولب بأحد الأمرين ، فإن أباهما ، طلق عليه الحاكم .

وخلاصة المعنى : (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ) : أى يحلفون ألا يباشروهن على النحو السابق ، انتظار أربعة أشهر دون مباشرة ، وليس عليهم إثم فى ذلك ، فإن فاءوا - أى رجعوا - إلى المباشرة فى أثنائها - مخالفين بذلك ما حلفوا عليه - حنثوا فى أيمانهم ، ولزمتهم كفارة يمين ، وإن الله غفور لذنب الحنث فى اليمين ؛ لما فيه من المصالحة بين الزوجين ، وغفور لما قصده المولِى من ضرار بالمرأة بإيلائه ، لأن الفيئة توبة .

وإن لم يفيئوا وعزموا الطلاق ، وقع الطلاق بمضى الشهور الأربعة عند غير الشافعى ، وبإيقاع الطلاق عند الشافعى ، فإن الله سميع لإيلائهم ، عليم بطلاقهم ونياتهم ، فيجازيهم على وفقها .

(وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾) .

المفردات :

(يَتَرَبَّصْنَ) : ينتظرن .

(قُرُوءٍ) : القروء ؛ جمع قُرء . وهو الحيض ، أو الطهر منه .

(وَبُعُولَتُهُنَّ) : البعولة ؛ جمع بعل . وهو الزوج .

(بِالْمَعْرُوفِ) : هو مايعرفه العقل ، ويستحسنه الشرع والعرف .

التفسير

٢٢٨ - (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ . .) . الآية .

بعد أن ذكر الله - فى الآية السابقة - حكم المؤلين من نسائهم إن عزموا الطلاق ، ناسب أن يذكر بعدها - فى الآيات التالية - أحكام الطلاق .

والمراد بالمطلقات فى الآية الكريمة : المدخول بهن من الحرائر ذوات الحيض . أما غير المدخول بهن : فلا عدة عليهن .

وأما أولات الأحمال : فـ « أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » .

وأما غير بالغات الحلم أو اليائسات من المحيض : « فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ » . مأخوذ ذلك من قوله تعالى : « وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ »[1].

وأما الإماء : فعدتهن قُرْآنِ بالسنة . راجع الآية الرابعة من سورة الطلاق .

وقد أوجبت الآية : أن تنتظر هذه المطلقة مدة ثلاثة قروء ، قبل الزواج من رجل آخر . والقروء : جمع قرء بضم القاف وفتحها ، ويطْلق لغةً : على الطهر ، وعلى الحيض .

وقد اختلف الفقهاء ، فى المراد من القروء المعتبرة فى العدة . فمنهم من قال : المراد بها الأطهار . ومنهم من قال : المراد بها الحيضات . فإن طلقت الزوجة فى الحيض ، لم تعتد بالحيضة التى وقع فيها الطلاق ، بإجماع الفقهاء . ولا تنتهى عدتها عند من يقول : إن القروء هى الحيضاتُ ، إلا إذا حاضت – بعد الحيضة التى طلقت فيها – ثلاثة حيضات كوامل ، وذلك بدخولها فى الطهر الذى يلى هذه الحيضات الثلاث الكوامل .

ومن طُلِّقت فى طهر ، حُسِبَ هذا الطهر قرءًا ، عند من يقول : إن الأقراء هى الأطهارُ ، فتعتد بعده بطُهْرين كاملين ، وذلك بدخولها فى الحيضة التى تلى الطهرين الكاملين .

وهذه المدة كافية ليراجع كل من الزوجين نفسه : فيفيء إلى المودة والرحمة والصفاء ، إن كان هناك مجال للصفاء ، وكان الطلاق رجعيًّا .

فإذا انتهت مدة التربص ، أصبحت الطلقة بائنًا . ولا يملك الزوج حقَّ المراجعة ؛ إلا بعقد ومهر جديدين ، برضا الزوجة ، إن لم يستنفد عدد الطلاق .

(وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ) :

لما كان أمر العدة يدور على : الحيض ، والطهر ، والحمل – ولا اطلاع عليهما إلا من جهة النساء – جُعِلَ القولُ قولهن فى انقضاء العدة وعدمها ، وجُعِلن مؤْتمنات عليها . فلذا

(١) سورة الطلاق آية : ٤

حذرهن الله ـ فى هذه الآية ـ من كتمان مافى أرحامهن من الحمل : رغبة فى الإسراع فى الزواج من رجل آخر ، بزعمهن انقضاء عدتهن بالأقراء ، أو من الحيض : رغبة فى إطالة العدة للحصول ؛ على النفقة أطول مدة ممكنة .

(إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) :

هذا وعيد وتحذير شديد ؛ لتأكيد تحريم الكتمان ، وإيجاب أداء الأمانة فى الإخبار عن الرحم بحقيقة مافيها . فسبيل المؤمنات أن لا يكتمن الحق ، ولا يتعرضن لزواج غير مشروع أثناء الحمل . ويُعْتَبَرُ الوطء فيه زنى . كما أن فيه نسبة الحمل إلى رجل آخر لا صلة له به ، وهى جريمة بَشِعة .

وجواب الشرط : مفهوم مما سبقه . والتقدير : إن كن يؤمنَّ بالله واليوم الآخر ، فلا يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن .

(وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا إِصْلَاحًا) :

أى للأزواج ـ فى مدة التربص ـ حق مراجعة الزوجات المطلقات ، إن كان الطلاق رجعيا ، فلا يمتنعن عن الرجوع إليهم .

وجواب الشرط مفهوم مما سبق . والتقدير : إن أراد الأزواج إصلاحا بينهم وبين المطلقات ـ بغير قصد الإضرار بهن ـ فلهم الحق فى ردهن .

وأفعل التفضيل (أَحَقُّ) ليس على بابه ، إذ لاحق للزوجة فى المراجعة . فمتى راجعها الزوج ـ فعليها العودة إليه .

وليس المراد من قوله تعالى : (إِنْ أَرَادُوٓا إِصْلَاحًا) اشتراط جواز الرجعة بإرادة الإصلاح حتى لو لم يكن قصده ذلك لا تجوز ـ للإجماع على جوازها مطلقا ـ بل المراد : تحريضهم على قصد الإصلاح بالمراجعة ، فلايقصدون بها المضارة بتطويل العدة عليهن ... لهذا جعل قصد الإصلاح ، كأنه منوط به حق المراجعة .

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) :

أى : ولهن على الأزواج - من الحقوق وحسن العشرة - مثل الذى عليهن للأزواج من الواجبات .

فللزوجة حقوق عند الزوج ، وعليها واجبات له ، وكذلك للزوج حقوق على زوجته ، وعليه واجبات لها .

فللزوجات والأزواج - كلاهما على الآخر - حقوق العشرة بالمعروف من غير مشقة .

وللزوجات على الرجال النفقة ، ولهم عليهن حفظ الزوج فى : ماله وولده وفراشه .

والرجل أحق بزعاية أسرته - والقيام بأمرها وزعامتها - من المرأة ؛ لقوته وخبرته وتجاربه ؛ ولأنه هو الذى يعول الأسرة ، ويكدح فى سبيلها ، ويدافع عنها .

وهذه هى الدرجة التى فضّل الله بها الرجل ، والمعبر عنها بقوله تعالى :

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) :

فتجب طاعتهن لهم ؛ لما ساقوه من المهر والإنفاق .

قال تعالى : « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ . . . [1] » .

وينبغى للرجل أن يَعْلَمَ أنه مسئول عن رعاية أسرته أمام الله .

وعلى المرأة كذلك أن تَعْلَمَ أنها مسئولة عن رعايتها لبيتها أمام الله ، وأمام زوجها .

قال - صلى الله عليه وسلم - : « كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعيةٌ فى بيت زوجها ومسئولةٌ عن رعيتها » الحديث رواه الشيخان .

---

(١) النساء : ٣٤

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) :

انتهت الآية بإظهار عزّة الله وقهره ، وأنه شديد الانتقام ممن خالف أمره ، وخرج على أحكامه ، وهو حكيم فى تشريعاته : يسنّ للناس ما يوائم مصلحة الجميع . فعلى كل من الرجال والنساء ، أن يرعى الله ، بالتزام ما سنّه من أحكام .

(ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾) .

المفردات :

(الطَّلَاقُ) : هو التطليق كالسلام بمعنى التسليم . والمراد به : حل العقد القائم بين الزوجين بألفاظ مخصوصة .

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ) : المراد به ، رجعة الزوجة بعد طلاقها ، مع أداء حقوقها ، وحسن عشرتها : طبقا للعرف والشرع ، فى المعاملة .

(أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) : والتسريح بإحسان ، إخلاء سبيل الزوجة بإحسان فى المعاملة . وذلك بعدم مراجعتها حتى تنقضى عدتها ، أو بتطليقها الثالثة – وفى كلتيهما – يحسن إليها : بجبر الخاطر ، وأداء الحقوق ، وحفظ الأسرار .

التفسير

٢٢٩ ـ (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ . . .) الآية .

كان الطلاق فى الجاهلية ـ وفى مستهل الإسلام ـ غير مقيد بعدد محدود ، وكانت العِدةُ عندهم معروفة مقدرة . فكان الرجل ـ فى أول الإسلام ـ إذا غاضب زوجته طلقها ، ثم راجعها قبل انقضاء عِدتها : يكرر ذلك كما يشاء ، فلا هو يحسن عِشْرتها ، ولا هو يخلى سبيلها ؛ لتأْخذ لنفسها وجهة أُخرى مع زوج جديد ، وليغنى الله كُلًّا من سعته .

قال القرطبى : قال رجل لامرأته على عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا آويك ولا أدعك تخلين. قالت : وكيف ؟ قال أُطلقك ، فإذا دنا مُضىّ عدتك راجعتك ، فشكت المرأة ذلك إلى عائشة ، فذكرت ذلك للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية ، بيانا لعدد الطلاق الذى يحل للمرء أن يراجع فيه مطلقته ، دون مهر أو عقد ، حتى لايتجاوزه : مضارة للزوجة .

وقد بينت الآية : أن الطلاق المشروع ، مرتان ، أى مرة ثم مرة

فللرجل أن يطلق زوجته ، ثم يراجعها أثناء العدة ـ إذا شاء دون توقف على رضاها ، ثم له أن يطلقها مرة ثانية ، ثم يراجعها أثناء العدة ـ إذا شاء ـ دون توقف على رضاها كذلك . وكل طلقة من هاتين الطلقتين تسمى طلقة رجعية .

أما إذا أمضت العدة بعد الطلقة الأُولى ، أو الثانية ـ دون مراجعة لها ـ فإن الطلاق يصبح بائنا ، فلا تعود إليه ، إلا بعقد ومهر جديدين ، وبرضا الزوجة أو وليها ، فإذا طلقها الثالثة بعد أن راجعها مرتين ، فإنها تصبح حراما عليه : لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، كما تشير الآية التالية .

ومعنى إمساكها بالمعروف ـ بعد الطلقة الثانية ـ أن يراجعها مع حسن العشرة والمودة والرحمة . فذلك هو المعروف عند أرباب المروءات ، وفى لسان الشرع ، ونظر العقل .

ومعنى تسريحها بإحسان ـ بعد الطلقة الثانية ـ أن يتركها دون مراجعة أو أن يطلقها الثالثة ، وأن يؤدى لها حقوقها من : نفقة العِدة ، وأُجرة الرضاع ، والحضانة لولده ، وجبر الخاطر ، وحسن القالة .

والآية الكريمة بهذا ، أعطت الزوجين فترات كافية : يتروّى فيها كل منهما ، ويُراجع نفسه ، لعله يفيءُ إلى المودةِ والصفاء . فأبغض الحلال عند الله الطلاق .

وقد اختلف الأئمة فيمن يوقع الطلاق ثلاثا مرة واحدة :

فذهب بعضهم ، إلى أنه يقع طلقة واحدة .

ومذهب الأئمة الأربعة : أنه يقع ثلاث طلقات .

وقد أخذت المحاكم الشرعية فى مصر الآن ، بالرأى الأول فى لائحتها ، اتباعا لرأى بعض الصحابة وكبار التابعين ؛ ولأن منطوق الآية يؤيده .

والخلاف بين الفقهاء - فى هذا الموضوع - مبسوط فى الكتب المطولة ، أمثال : الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، وأحكام القرآن للجصاص ، وأعلام الموقعين لابن القيم الجوزية ، ونيل الأوطار للشوكانى ، وأحكام القرآن لابن العَرَبى ، وغيرها .

قال تعالى :

(وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ) :

لما ذكر الله فى الآية السابقة : أن الطلاق مرتان ، وأن للزوج بعدهما أن يمسك زوجته ، ويستبقيها بمعروف ، أو يسرحها ويتركها بإحسان - على نحو ما أوضحناه سابقا - أتبع ذلك بيان نوع من أنواع الإمساك بغير معروف ، والتسريح بغير إحسان ، وهو أن يمسكها ويراجعها ، أو يطلقها فى مقابل أن يأخذ بعض مالها ، فإن ذلك ليس معروفا ولا إحسانا .

قد أفادت الآية : أنه لا يحل للزوج أن يأخذ شيئا من صداق الزوجة ، الذى أوجبه الله ؛ لكى يبقيها فى عصمته ، أو لكى يطلقها . لأن ذلك منافٍ للمعروف والإحسان الذى أمره الله به ، والذى هو لائق بصلات المؤمنين بعضهم مع بعض ، فضلا عن الزوجين .

ومثل الصداق فى الحكم ، سائر أموالهن . وتخصيص الصداق بالذكر ؛ لرعاية العادة ، أو للتنبيه على أن تحريم الأخذ من غيره أولى .

وقد أباح الله للزوج أن يأخذ منها بعض مالها فى مقابل طلاقها ، إذا خافا - كلاهما - أن لايقيما حدود الله ، بعدم القيام بواجبات الزوجية ، كاستخفاف المرأة بحق زوجها وسوء طاعتها إياه ، وكعدم إنفاق الزوج عليها وسوء عشرته لها .

فإن كان الخوف من عدم القيام بحقوق الله من جانب الزوج وحده - مع حسن عشرة المرأة - فلايحق له أن يأخذ منها - فى مقابل طلاقها - شيئا من المال . فإن أخذه ، وجب عليه رده .

وإن كان الخوف من جانب الزوجة وحدها ، والنشوز من جانبها - فله الحقُّ فى أخذه .

قال الإمام مالك : لم أزل أسمع ذلك من أهل العلم - وهو الأمر المجتمع عليه عندنا - وهو أن الرجل : إذا لم يضر بالمرأة ولم يسئ إليها ، ولم تؤت من قبله ، وأحبت فراقه - فإنه يحل له أن يأخذ كل ما افتدت به ، كما فعل النبى - صلى الله عليه وسلم - فى امرأة ثابت . وإن كان النشوز من قبله ، بأن يضيق عليها ويضرها - رد عليها ماأخذ منها .

ويدل لجواز أخذه المال منها - إذا كان الشقاق من جانبها فحسب - مارواه البخارى عن ابن عباس : أن امرأة ثابت ، أتت النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يارسول الله ، ثابت بن قيس : ما أَعْتُبُ عليه فى خلق ولا دين ، ولكن لا أطيقه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «أَتَرُدِّينَ عليه حَدِيقَتَهُ» ؟ قالت : نعم زاد ابن ماجه (فأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأخذ منها حديقته ، ولا يزداد) .

والفراق - فى مقابل المال - يسمى : خُلْعا . ويعتبر خلع ثابت بن قيس لزوجته ، أول خُلْع فى الإسلام .

واستدلت طائفة من الفقهاء بحديث امرأة ثابت المذكور ، على أنه يجوز الخلع من غير اشتكاء ضرر ، فإنها تقول : إنها لاتعتب عليه فى خلق ولا دين ، ولكنها لاتطيقه . وقالوا : إن الآية لم تذكر الخوف من عدم إقامة حدود الله على جهة الشرط ، بل لأنه الغالب . وقالوا : إن الذى يدل على ذلك - صراحة - قوله تعالى : « فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا »[1] .

(١) النساء : ٤

ومعنى قوله تعالى :

(فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) :

فلا إثم على الزوجين فيما افتدت به الزوجة نفسها ، لتخلص من زوجها بالخلع فى مقابله . أى لا إثم على الزوج فى أخذه ، ولاعلى الزوجة فى إعطائه إياه .

واستدل كثير من الفقهاء ، بعموم قوله تعالى :(فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) على جواز الخُلع بأكثر مما أعطاها ، فما تراضيا عليه ، صح الخلع به : قَلَّ أوكثر .

وهذا هو رأى الجمهور .

وإن كان مالك يرى أخذ الزوج الزيادة على ما أعطاها ، مجافيا لمكارم الأخلاق .

وقالت طائفة : لايأخذ منها أكثر مما أعطاها .

وبه قال أحمد وإسحاق وغيرهما .

واختلف العلماء فى الخلع : هل هو طلاق ، فيعد طلقة ؟ أم هو فسخ ، فلا يعد طلقة .

فقال مالك ، والشافعى فى أحد قوليه ، وأبو حنيفة ، والثورى ، وغيرهم : هو طلاق بائن ، فيعد طلقة .

وقالت طائفة : هو فسخ لاينقص عدد الطلاق إلا أن ينويه .

وبه قال ابن عباس ، وأحمد ، والشافعى فى أحد قوليه ، وإسحاق وغيرهم

ولهم فى ذلك أدلتهم .

ومن ذلك ماروى : أن سعد بن أبى وقاص سأل ابن عباس - رضى الله عنهما - : عن رجل طلّق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه ،أيتزوجها ؟ قال : نعم لينكحها ، ليس الخلع بطلاق ذكر الله - عزوجل - الطلاق فى أول الآية وآخرها ،والخلع فيما بين ذلك ، فليس الخلع بشىء ، إلى آخر ما قال .

ومن ذلك قولهم : إنه لوكان الخلع طلاقا لكان بعد ذكرالطلقتين ثالثاً ، وكان قوله بعد الخلع : (فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ) دالًّا على الطلاق الرابع ، فيكون التحريم بعد أربع طلقات ، ولاقائل به ، إلى آخر ماقالوا .

ويترتب على هذا الخلاف: أن من طلق زوجته تطليقتين، ثم خالعها ، ثم أراد أن يتزوجها ، فله ذلك عند ابن عباس ومن يرى رأيه ، لأنه لم يقع منه سوى تطليقتين ، والخلع لغو . ومن جعله طلاقا لم يُجِز له أن يرتجعها حتى تنكح زوجا غيره .

وعلى القول بأنه طلقة بائنة : يجوز للزوج أن يعود بعده لزوجته ، إذا لم يسبقه طلقتان: بأن لم يسبقه طلاق أصلا ، أو سبقه طلقة واحدة .

ولكنه لايعود إليه ، إلا بعقد ومهر جديدين .

(تَلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا) :

أى تلك الأحكام التى مضت : ماحدَّه الله وشرعه من الأحكام ، فلا تتجاوزوها بالمخالفة .

(وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

أى ومن يترك أحكام الله التى شرعها وبينها لعباده ، فإنه ظالم لنفسه وغيره ، متبع لهواه . والظالم يستحق عقاب الظالمين المعتدين .

وفى هذا بلاغ لمن يجادلون ، مدعين ظلم الأسرة :مطالبين بتعديل حدود الله تبعاً لأهوائهم ، أو تطبيقا للمبادىء الزائفة ، التى استجلبوها من غير البيئة الإسلامية ، باسم المدنية والحضارة . ونسوا أن الذى شرع هذه الأحكام ، وحدد هذه الحقوق ، هو رب العالمين : خالق الأسرة : العليم بمصالحها ، وأنه أرأف بها من هؤلاء الذين يدعون الإشفاق عليها ، وهم إنما يريدون بذلك . الوصول إلى زعامات كاذبة ، وأغراض هدامة .

والله من ورائهم محيط .

(فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾) .

التفسير

بين الله سبحانه - فى الآيات السابقة - طريقة إيقاع الطلاق ، وأنه يكون على دفعات لادفعة واحدة ، حتى لايضيق الرجل على نفسه ، بل يستطيع أن يستأنف - بعد الطلقة الأولى أو الثانية - حياته الزوجية .

ثم أتبع ذلك بيان حكم الفراق ، إذا كان بافتداء المرأة نفسها من الرجل ، بمال تدفعه .

وفى هذه الآية الكريمة يبين - سبحانه - الطلاق المكمل للثلاث ، الذى لايمكن بعده استئناف الحياة الزوجية ، بل تحرم عليه المطلقة ، حتى تنكح زوجا غيره ، فيقول سبحانه :

٢٣٠ - (فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ . . .) الآية .

أى فإن طلقها الثالثة - بعد الطلقتين اللتين سوغ الله - سبحانه - له الرجعة بعد كل منهما ، فى أثناء العدة - فلا تحل له مراجعتها فى عدتها ، أو العقد بعد انقضائها من هذا الطلاق الثالث ، حتى تتزوج زوجا غيره ، بعد انقضاء عدتها منه ، على أن يكون الزواج الثانى زواجا شرعيا صحيحا ، وأن يجامعها فيه .

فإن طلقها الزوج الثانى ، وانقضت عدتها منه ، فلا إثم على المرأة وزوجها الأول أن يتراجعا بعقد جديد إن ظنا أن يقيما حدود الله ، ويتعاشرا بالمعروف ويحرص كل منهما على القيام بواجب الزوجية .

وقال سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير: النكاح فى الآية : العقد الصحيح . فهو كاف فى التحليل للأول ، وإن لم يجامعها ، مالم يُرَدْ بالعقد مجرد إحلالها للأول . وإطلاق النكاح

على العقد، معروف لغة وشرعا. ولكن هذا الرأى ضعيف؛ لمخالفته لما جاءت به السنة الصحيحة، وللحكمة المقصودة من هذا الزواج، وهى تخويف الناس من البت فى الطلاق، حتى لاتصير نساؤهم إلى هذا المصير، ولتأديب مَن بَتَّ طلاق امرأته.

وإذا تزوجها الزوج الثانى - بقصد إحلالها للزوج الأول:

فقد قال أبو حنيفة وأصحابه: النكاح جائز للأول إن دخل بها الثانى وطلقها، وله أن يمسكها إن شاء.

وفى رواية أخرى عنهم: لاتحل للأول إن تزوجها ليحلها له، ولم يختلفوا فى أن نكاح الزوج الثانى صحيح.

وحكى الماوردى عن الشافعى: أنه إن شرطا التحليل قبل العقد، صح النكاح وأحلها للأول، وإن شرطاه فى العقد، بطل النكاح ولم يحلها للأول.

وفى هذا الموضوع كلام طويل، وآراء عدة فراجعه فى كتب الفقه.

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ):

أى وتلك الأحكام المذكورة التى تتصل بالنكاح والطلاق، والرجعة والخلع، وغير ذلك، هى حدود الله وأحكامه: يبينها بيانا واضحا مفصلا، لقوم يعلمون حقها وأهميتها، فيحافظون عليها، ويتعهدون بتنفيذها. وذلك لا يدركه إلا عالم متدبر. أما الجاهل، فلا ينظر إلى العواقب، ولايحافظ على حدود الله.

وتكررت جملة: (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ) فى أحكام الطلاق؛ لإبراز أهميتها، وإظهار الذنب الكبير فى مخالفتها.

هذا حكم المطلقات ثلاثا. أما غيرهن ممن طلقن واحدة أو اثنتين، فقد بين الله ماينبغى اتباعه بقوله مخاطبا الأزواج:

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)) .

المفردات :

(فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ) : أى قاربن نهاية عدتهن . والأجل - كما يطلق على المدة كلها - يطلق على آخرها : مجازا .

(لِتَعْتَدُوا) : أى لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء ، فرارا من إمساكهن مع المضارة .

(آيَاتِ اللهِ) : المراد بها ؛ هذه الآيات المشتملة على أحكام النساء . أوكل الآيات ، وهذه داخلة فيها .

التفسير

٢٣١ - (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ . . .) الآية .

والمعنى : وإذا طلقتم النساء طلاقا رجعيا ، فقاربن انقضاء عدتهن ، - بالقروء . أو الأشهر أو الحمل -[1] فأمسكوهن - بالمراجعة إلى عصمتكم - بمعروف ، من غير إضرار بهن ، إن رغبتم أن تستمر الحياة الزوجية بينكم .

والمعروف : هو أن تقوموا بما يجب عليكم لهن من حسن العشرة والنفقة ، وحسن المعاملة كما أمركم الله . أو سرحوهن بمعروف إن كرهتم البقاء معهن ، وذلك بأن تتركوهن

(١) راجع تفسير الآية : ٢٢٨ من البقرة ، والآية : ٤ من الطلاق .

حتى تنقضى عدتهن ، مع أداء جميع حقوقهن المالية ، من غير مشاحة ولا تجريح ، على حد قوله تعالى : « وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا »[1] .

(وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا) :

أى ولا تمسكوهن بالرجعة ، مضارة لهن ، لتعتدوا عليهن ، بإلجائهن إلى الافتداء ، أو تطويل عدتهن ، حَبْساً لهن عن الزواج من غيركم .

روى مالك عن ثور بن زيد الدِّيلى : أن الرجل كان يطلق امرأته ، ثم يراجعها ، ولاحاجة له بها ، ولايريد إمساكها ، كيما يطوّل بذلك العدة عليها ، وليضارها . فأنزل الله تعالى : (وَلَاتُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا) :

وأخرج ابن جرير وغيره عن السدى : أن رجلا من الأنصار يدعى : ثابت بن يسار ، طلق زوجته حتى إذا انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة ، راجعها ثم طلقها ، ففعل ذلك بها حتى مضت لها تسعة أشهر : يضارها . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

والنهى هنا ، تأكيد للأمر قبله بالإمساك بمعروف ، وتوضيح لمعناه ، وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه ، من تطويل عدتها على نحو مابينه سبب النزول .

فلا يحل له أن يراجع إلا إذا كان قد اعتزم العدل وأراده . فإن تعذر قيام الحياة الزوجية ، فلا يسوغ له أن يستأنفها : معاندة للزوجة ، وعداوة لها . فإن ذلك اعتداء وظلم ، ولهذا قال :

(وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) :

أى ومن يفعل ذلك الإمساك المؤدى للضرار — اعتداء وظلما فى موطن الرحمة — فقد ظلم نفسه : بتعريضها لعذاب الله .

أما قوله تعالى :

(وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا) :

---

(١) الأحزاب : ٤٩

فهو تأكيد آخر ، أى ولا تتخذوا آيات الله هزوًا بها : بمخالفتها وعدم تنفيذها ؛ لعدم مبالاتكم بحقوق النساء ، بل جدوا فى الأخذ بها ، والعمل بما فيها من أحكام وتشريعات.

وقيل : معنى اتخاذها هزوًا : إدعاء العبث والهزل ، وعدم الجد فيما يقولون من عبارات ذات أحكام شرعية : كالطلاق ، والرجعة ، والعتق .

روى أبو داود ، والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه ، عن أبى هريرة قال : قال صلى الله عليه وسلم : « ثَلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وهَزْلُهُنَّ جِدٌّ : النكاح ، والطلاق ، والرجعة » .

وعن أبى عمرة ، وابن مردويه ، عن أبى الدرداء قال : « كان الرجل يطلق ثم يقول : لعبت ، ويعتق ثم يقول : لعبت . فنزلت » . والآية على هذا عامة فى جميع الأحكام .

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ) :

أى واذكروا نعمة الله عليكم : بالإسلام والتزويج وجميع النعم . واذكروا كذلك ما أنزل عليكم من آيات الكتاب الحكيم ، المنزل على رسولكم ، المبين لما يسعدكم من الشرائع والأحكام . واذكروا أيضا : ما أنزل عليكم من حكمة الرسول ، وسننه التى بين بها آيات الله وتشريعاته .

(يَعِظُكُم بِهِ) :

أى اذكروا ما أنزله عليكم من الكتاب والحكمة ، والحال أنه يعظكم ويذكركم به : لتعملوا بمقتضاه .

(وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

فلا يخفى عليه شىء مما تأتون وما تذرون ، فيؤاخذكم بما تعملون : من خير أو شر . ولاشك أن معرفة المسلم ذلك ، توجب عليه الالتزام بأوامر الله ، واجتناب ما نهى الله عنه ؛ ليكون بذلك ، فى وقاية من عذاب ربه : العليم بكل شىء .

ثم أردف ذلك بمخاطبة أولياء الأمور أو المؤمنين جميعا فقال :

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾) .

المفردات :

(فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ) : أى وصلن إلى نهاية عدتهن ، تماما من غير نقصان.

(فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) : فلا تمنعوهن من الزواج .

التفسير

٢٣٢ - (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ . . .) الآية .

سبب النزول : روى البخارى وغيره ، عن معقل بن يسار قال : « كانت لى أخت ، فأتانى ابن عم لها ، فأنكحتها إياه ، فكانت عنده ماكانت ، ثم طلقها تطليقة ، ولم يراجعها حتى انقضت عدتها ، فَهَوِيَهَا وَهَوِيَتْهُ ، ثم خطبها مع الخُطَّاب ، فقلت له : يالكع ، أكرمتك بها وزوجتكها : ثم طلقتَها ، ثم جئتَ تخطبها ، والله ، لاترجع إليك أبدا. وكان رجلا لابأس به ، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه ، فعلم الله حاجته إليها ، وحاجتها إلى بعلها ، فأنزل الله هذه الآية. قال : ففىَّ نزلت هذه الآية ، فكفرت عن يمينى ، وأنكحتها

إياه » . وفى رواية «فلما سمعها معقل قال : سَمْعاً لربِّى وطاعة » ثم دعاه ، فقال : أزوجك وأكرمك » .

المعنى : وإذا طلقتم النساء أيها الأزواج ، فبلغت المطلقات نهاية عدتهن ، فلا تمنعوهن أيها الأولياء ، أن يتزوجن أزواجهن الذين طلقوهن ، وصلا لما انقطع بينهم وبينهن ، إذا وقع التراضى بينهم ، بما عرف حسنه شرعا ومروءة ؛ فإن للزوجة حقًّا ثابتا فى اختيار زوجها ؛ لأنها هى التى ستعيش معه .

وكما يحرم العضل بالنسبة إلى زوجها الأول ، يحرم بالنسبة إلى زوج جديد : تم بينهما تراض شرعى .

(ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) :

(ذَٰلِكَ) : النهى عن العضل والإضرار ، وما اتصل به من الأحكام . (يُوعَظُ بِهِ) : أى يذكر به .

(مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) : فيغلب جانب المصلحة على هوى نفسه ؛ لأن شأن الإيمان : العمل بالأحكام ، لهذا خص بالذكر .

(ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ) :

أى ذلكم الاتعاظ بما كلفتم به من ترك العضل ، أعظم بركة ونفعا ، وأطهر لكم ولهم عن الريبة والتهم ، بسبب ماقد يحصل بينهما من صلات غير مشروعة .

(وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ) :

أى والله يعلم مافيه صلاح أموركم من الأحكام والشرائع .(وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ذلك فاتبعوا أمره ، واجتنبوا نهيه .

ثم شرع فى الحديث عن الولد وحقه بعد الحديث عن الزواج لأنه ثمرة له فقال :

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾).

المفردات:

(الْمَوْلُودِ لَهُ): أبو الولد . فإن الولد يولد له وينسب إليه .

(رِزْقُهُنَّ) : نفقتهن .

(وُسْعَهَا): الوسعة ؛ الطاقة والاحتمال .

(فِصَالاً): فطاما للولد عن الرضاع .

(جُنَاحَ) : الجناح ، الإثم .

(أن تَسْتَرْضِعُوا): أن تطلبوا مرضعات لأولادكم غير أمهاتهم .

التفسير

٢٣٣ - (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . . .) الآية .

المعنى: أفادت الآية :أن الوالدات يرضعن أولادهن ، وهذا خبر يراد به الندب والاستحباب ، مالم يمتنع الصبى عن الارتضاع من غير أمه ، أو لايوجد له مرضع سواها ، أو يعجز الوالد عن الاستئجار ؛ فإنه يكون واجبا على الأم ، ويكون الخبر فى الآية مرادا منه الأمر لها إلزاما .

والمراد بالوالدات فى الآية : جميعهن ، سواء كن زوجات لآباء أولادهن الرضعاء ، أو كن مطلقات منهم .

وحتى لايختلف الوالدان فى مدة الرضاعة ، بأن يريد الأب أن يقصر مدتها ، حتى لايمتد دفعه أجر الرضاعة ، أو تعمل الأم على إطالتها ، انتفاعا بأجر أكثر ـ حدّد الله مدة الرضاع اللازمة للطفل ، بقوله تعالى : (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) : سنتين كاملتين بالتقويم القمرى : شأن مافيه حكم زمنى من شئون الإسلام .

فمدة الرضاع : حولان كاملان تامان : ينفصل بهما النزاع .

ذلك التوقيت بالحولين (لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) والمقصود بمن أراد أن يتم الرضاعة : والد الطفل . فهو المكلف بالإرضاع . والأم ترضع له . فاللام فى قوله : (لِمَنْ أَرَادَ) لبيان من تَوَجه إليه الحكم ، وهو الأب .

قال الشافعى : لا يلزم الإرضاع إلا والدا أو جدًّا وإن علا .

وسيأتى مزيد بيان لذلك فى قوله تعالى : (وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ) .

وكون الإرضاع واجبا على الأب أو الجد ، لاينافى أنه يندب للأمهات إرضاع أولادهن . وقد يجب عليهن ، عند فقد المراضع أو وجودهن بأجر لا يطيقه الأب ، أو امتناع الرضيع عن الرضاع من غير أمه كما تقدم .

وقد دل قوله : (لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) على أن إرضاع الحولين ليس حتما ، وأنه يجوز الفطام قبل الحولين ، ولكنه ـ كما قلنا ـ تحديد لقطع النزاع بين الزوجين فى مدة الرضاع . فلا يجب على الأب إعطاء الأجرة لأكثر من حولين ، مالم تكن حالة الطفل الصحية : تقتضى ضرورة الزيادة فى الرضاع عليهما ، فيجب عليه إعطاؤها .

وإذا أراد الأب الفطم قبل تمام الحولين ، ولم ترض الأمّ ـ لم يكن له ذلك .

ويجب أن تكون مصلحة الصبى مقدمة على كل اعتبار .

وإذا كنت قد عرفت أن توقيت الرضاع بحولين كاملين ، الغرض منه قطع النزاع بين الزوجين ، وأنه بيان لأقصى مدة الرضاع ، عند اعتدال صحة الطفل ، وأنه يجوز إنقاصهما إلى مادون ذلك عند اتفاق الزوجين ، واستعداد صحة الطفل للفطام قبلهما - فإنك - حينئذ - تعرف الحكمة فى قوله تعالى : « وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ... [1] » .

فإننا إذا اعتبرنا الحمل تسعة أشهر - أو عاما ، كما يحدث فى بعض الحالات - فإن مدة الرضاع - فى سورة الأحقاف - تنقص عن حولين كاملين ؛ لأننا إذا نقصنا تسعة أشهر من الثلاثين شهرا ، كان الباقى للرضاع ثمانية عشر شهرا : أى سنة ونصفا ، وذلك شاهد بصحة ما قلناه - من أن تحديد المدة بحولين - لبيان أقصى مدة للرضاع ، كما أنه لقطع النزاع بين الزوجين ، وليس للتحديد الملزم .

ولهذا قال تعالى : (فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا) وسيأتى الكلام عليه .

وقد دلت الآية : على أن الحرمة بالرضاعة ، لا تثبت إلا بالإرضاع أثناء الحولين ، فتجعل للرضيع فيهما حرمة النسب ، وهذا هو الصحيح .

ومن العلماء من أثبت الحرمة بالرضاع بعد الحولين إلى شهر ، وقيل : إلى شهرين . وقيل : إلى ثلاثة . وقيل : إلى ستة أشهر . وكل ذلك ضعيف لمخالفته نص الآية ، ولحديث مالك فى الموطأ : « لارضاع إلا ما كان فى الحولين » . قال تعالى :

(وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ) :

المراد بالمولود له : الأب ، فإن الولد يولد له ، ولم يعبر بالأب مع أنه أخصر : للدلالة على علة الوجوب مع مافيه من معنى الانتساب ، الذى تشير إليه اللام . ورزقهن : نفقتهن .

وقد أوجبت الآية على الوالد أن ينفق على أم رضيعه ويكسوها ، سواء أكانت زوجة له أم مطلقة منه ، وذلك أجرة لها على إرضاع ولدهما . بهذا قال الشافعى .

(١) الأحقاف : ١٥

وعند الأحناف : لا تأخذ الزوجة أجرة على الرضاع ، مادامت فى النكاح ، أو فى العدة ، اكتفاء بنفقتها المشروعة لها . وكل من النفقة والكسوة واجبان حسب المعروف بين الناس ، بلا إسراف ولا تقتير ، بحيث تكون فى وسعه وطاقته ، كما يدل عليه قوله تعالى : «لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا » فلا يلزم الوالد بما يشق عليه ، بل يكون الأجر فى حدود طاقته ، ولا تلزم الأم بالإرضاع دون أجرة ، أوْ بأجر غير كاف ، لكى يستطيع كلاهما أن يقوم بأعبائه نحو ولده .

ومعنى (لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ) : لا تضار والدة زوجها بسبب ولدها ، بأن تطلب منه ماليس بعدل من الرزق والكسوة ، وأن تشغل قلبه بالتفريط فى شأن الولد ، وأن تقول له : اطلب مرضعا ، بعد أن ألفها الرضيع ، ولا يضر مولود له ــ وهو الأب ــ زوجته المرضعة بسبب ولده ، بأن يمنعها شيئا مما وجب لها عليه من زرق أو كسوة ، أو يأخذ منها الصبى ــ وهى تريد إرضاعه ــ أو يكرهها على الإرضاع .

ومعنى قوله : (وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ) : أن والد الرضيع ــ إذا مات ــ قام وارثه ــ بالرزق والكسوة : بالمعروف ــ لوالدته التى ترضعه .

والمراد بوارث الأب : نفس الرضيع ، إن كان له مال ، فإن لم يكن له مال ، فعلى جده لأبيه إن وجد ، فإن لم يوجد ، فعلى الأم . وقيل : الوارث هو ذو الرحم المحرم : قرأ ابن مسعود : « وَعَلَى الْوَارِثِ ذِى الرَّحِمِ الْمَحرمِ مِثْلُ ذَٰلِكَ » وقيل : عصباته . وقيل : المراد بالوارث : وارث الصبى .

وفى الموضوع كلام طويل ، يطلب من الموسوعات .

ذلك حكم الرضاع ومايجب فيه : على الوالدة ، والمولود له ، والوارث .

(فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا) :

أى : فإن أراد الوالد والأم فطام الرضيع ــ قبل تمام الحولين ــ فلهما ذلك ، دون إثم عليهما أو حرج ، بشرط أن يتم ذلك عن تراض وتشاور بينهما ، دون إضرار بالرضيع . وهذا الحكم من رحمة الله تعالى بعباده ، حيث أرشد الوالدين إلى ما يصلح للطفل ، ثم قال :

(وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ) :

يقول: وإن أردتم - أيها الآباء - أن تسترضعوا مراضع أخرى أولادكم غير الوالدات، لمصلحة الطفل، أو لأى سبب آخر، فلكم ذلك، ولا جناح عليكم فيه، إذا سلمتم المراضع ما أردتم إيتاءه من الأجرة، بالوجه المتعارف المستحسن شرعا، عن طيب خاطر، ليقمن بإرضاعه على خير وجه.

وهنا يقول الزمخشرى: أمروا أن يكونوا - عند تسليم الأجر - مُسْتَبْشِرِى الوجوه، ناطقين بالقول الجميل، مطيبين لأنفس المراضع بما أمكن، حتى يؤمن تفريطهن بقطع معاذيرهن.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ) :

الخطاب فى (وَاتَّقُوا اللَّهَ) للآباء والأمهات.

فيما فرض عليكم فلا تظلموا.

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

فلا تخفى عليه خافية من أحوالكم وأقوالكم، فاحذروا أن تخالفوا عن أمره، فلستم بمعجزيه.

وفى الآية - من التهديد والتحذير - ما لا يخفى.

ولما انتهى من الطلاق وعدته، والولد - وما يجب له - شرع يبين عدة المتوفى عنها زوجها، فقال:

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾).

المفردات :

(وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا) : جمع زوج. ويستوى فيه المذكر والمؤنث. والمقصود هنا - الزوجات، أى: يتركون زوجات لهم فى عصمتهم وقت الوفاة.

(يَتَرَبَّصْنَ) : ينتظرن فى بيت الزوجية.

التفسير

٢٣٤ - (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا . . .) الآية .

أى : والرجال الذين يموتون منكم - أيها المسلمون - ويتركون زوجات ، يجب عليهن أن ينتظرن بعدهم بدون زواج ، أربعة أشهر وعشر ليال بأيامها ، وتسمى هذه المدة : عدة الوفاة .

ويستوى فى قضاء هذه المدة كل زوجة : صغيرة كانت أو كبيرة : مدخولا بها ، أو لا :

وقال ابن عباس : لا عدة لغير المدخول بها .

وهو محجوج بعموم اللفظ .

وتكون المعتدة بعيدة عن الطيب والزينة أثناء عدتها . وتمكثها فى منزل الزوج ، إن تيسر لها ذلك . ولها الخروج لحاجتها على هذه الحال نهارا . وهذه المدة لغير الحامل .

أما الحامل ، فعدتها تنتهى بوضع الحمل ، ولو كان ذلك بعد لحظة من الوفاة ؛ لقوله تعالى : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » [1] .

وهذا هو رأى الجمهور .

ويرى الإمام على - وبعض الفقهاء - أن تمام عدتها : أبعد الأجلين . جمعا بين الآيتين .

والجمهور : على الأول .

فقد صح أن آية الطلاق ، نزلت بعد هذه الآية - كما رواه البخارى وغيره .

ولهذا قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : « لو ولدت وزوجها على سريره لم يُدفَنْ ، لَحَلَّتْ » .

وصح أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قضى لسبيعة الأسلمية بذلك .

---

(١) الطلاق : ٤

والحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا -كما قال ابن الأثير - احتمال اشتمال الرحم على حمل، فإذا انتظرته- هذه المدة - ظهر إن كان موجودا . كما جاء فى حديث ابن مسعود فى الصحيحين وغيرهما : « إنَّ خَلْقَ أَحَدِكُم يُجمَعُ فى بطن أمه أربعين يوما نُطفةً ، ثم يكونُ عَلَقةً مثل ذلك ، ثم يكون مُضْغةً مثل ذلك ، ثم يُبْعَثُ إليه الْمَلَكُ فينفُخُ فيه الروحَ » . فهذه أربعينات بأربعة أشهر . والاحتياط عشر بعدها ؛ لما قد ينقص من بعض الشهور ، وانتظارًا لِظُهور الحركة بعد نفخ الروح فيه . والله أعلم بأسرار أحكامه .

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) :

أى : فإذا بلغن أجلهن ، واستوفين عدة الوفاة الواجبة عليهن -كاملة دون نقص - واستبان حال الرحم ، فلم يكن فيه حمل - فلا جناح عليكم - أيها الأولياء المسلمون - فيما فعلن فى أنفسهن من زينة وغيرها ، مما مُنِعْنَ عنه إبَّان فترة العدة ، إن كُنَّ قد فعلن ذلك بالمعروف ، فى حدود الشرع الشريف ، بأن لم يخرجن عن حدوده ، فإن خرجن عنه ، فالإثم عليكم أيها الأولياء ، لأن مراقبتهن واجبة عليكم .

وحداد الزوجة على زوجها - أى ترك الزينة والطيب ونحوه - واجب عليها مدة عدتها التى حددها الله - تعالى - ، كما ثبت فى الصحيحين من غير وجه ، عن أم حبيبة وزينب بنت جحش :أمَّى المؤمنين رضى الله عنهما : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر : أن تَحُد على ميت فوق ثلاث ، إلا على زوجٍ أربعة أشهر وعشرا » . وهذا هو رأى جمهور العلماء .

وقال الحسن بن أبى الحسن : ليس الإحداد بشىء ، إنما تتربص عن الزوج ، ولها أن تتزين وتتطيب .

وهذا الرأى ضعيف لمخالفته للسنة .

ثم ختم الآية بقوله تعالى :

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

أى والله عليم بامتثالكم أمره أو مخالفته ، مجازٍ لكم حسب عملكم ، فاحذروه .

وبذلك حملت الآية الكريمة المسلمين -جميعا- مسئولية حماية الآداب العامة ؛ حفاظا على المجتمع الإسلامى الفاضل .

ثم أتبع ذلك بيان الطريق المستقيم ، لمن أراد الزواج بمن توفى عنها زوجها أو غيرها من المعتدات ، فقال :

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾) .

المفـردات :

(عَرَّضْتُم) : التعريض والتلويح : إبهام المقصود بما لم يوضع له ، حقيقة أو مجازا . كقولك : جئتك لأسلم عليك ؛ تلويحا بأنك جئت لطلب دين أو عطاء ممن تخاطبه .

(خِطْبَةِ النِّسَآءِ) : طلبهن للزواج قبل العقد . والمقصود هنا من النساء : المعتدات عن وفاة ، بقرينة الآية السابقة ، فأل فيه للعهد .

(أَوْ أَكْنَنتُمْ) : أو أخفيتم .

(لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا) : لا تواعدوهن - فى العدة - زواجا .

(وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ) : ولاتقصدوا قصدا جازما تنفيذ عقده .

التفسير

٢٣٥ - ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ . . . ﴾ الآية .

المعنى : ولا إثم عليكم - أيها المسلمون الذين تريدون خطبة أولئك المعتدات - أن تعرِّضوا بخطبة النساء ، وتشيروا إليها - أثناء عدّتهن من وفاة أزواجهن - : بأن يقول الرجل للمرأة قولا تفهم منه عرضا أنه راغب فيها . وذلك كما رواه البخارى وغيره ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : « إنى أُريد التزوج ، وإنى لأُحب امرأة من أمرها وأمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف - وإن النساء لمن حاجتى ، ولوددتُ أن الله كتب لى امرأة صالحة » .

أما التصريح بخطبتها ، فلا يجوز .

هكذا حكم المطلقة المعتدة فى طلاق بائن .

فقد ورد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لفاطمة بنت قيس . حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حَفْص آخر ثلاث تطليقات . فقد أمرها أن تعتد فى بيت أم مكتوم . وقال لها : فإذا حللت فأذنينى ، فلما حلت ، خطبها لأُسامة بن زيد مولاه ، فزوجها إياه .

أما المطلقة الرجعية ، فلا خلاف فى أنه لا يجوز فى عدتها التصريح ولا التعريض بخطبتها .

وكما لا إثم عليكم فى التعريض بخطبة المعتدات عن وفاة ، فلا إثم عليكم إذا أخفيتم - فى قلوبكم - نكاحهن بعد مضى عدتهن ، ولم تعرضوا بخطبتهن أثناء عدتهن .

ثم ذكر حكمة الترخيص بذلك فقال :

﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ :

أى علم الله أنكم ستذكرونهن فى أنفسكم ، فرفع الحرج عنكم ، ورخص لكم - فيما ذكر - من التعريض بالخطبة ، وكتمان النكاح فى أنفسكم .

ثم نهى عن التصريح بخطبتهن فقال :

(وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا) :

هذا استدراك على مقدر . فكأنه قيل : فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن سرًّا . والمراد بالسرّ هنا : النكاح ، وأطلق عليه السرّ لأنه ؛ يخفى وراءه ما هو سر ، وهو المباشرة .

أو المعنى : لا تواعدوهن ماهو سرّ فى أنفسكم من الزواج بهن. والمقصود : نهيهم عن التصريح بالزواج والوعد به ، أثناء العدة .

ثم استثنى من ذلك قوله :

(إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا) :

أى لا تواعدوهن نكاحا مواعدة ما ، إلا مواعدة بقول معروف ، وهو ما كان بالتعريض . وهذا تصريح بما فهم من قوله تعالى : (وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ) إلخ ؛ لغرض التأكيد .

ثم قال ناهيا – عن الزواج فى العدة بأبلغ وجه – :

(وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ) :

أى : لا تقصدوا – قصدا جازمًا – تنفيذ عقد النكاح ، حتى ينتهى ما كتب وفرض من العدة .

وإذا كان قد نهى عن العزم على العقد قبل فراغ العدة – فالنهى عن العقد من باب أولى . ومن المعلوم أن عقد النكاح – فى زمن العدة – باطل . والمباشرة – حينئذ – زنى . والتفريق بينهما واجب .

ثم ختمت الآية بهذا التحذير :

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ) :

من جميع الخواطر والعزائم ، ومنها الرغبة فيهن ، أو الميل إلى مخالفة ما نهاكم الله عنه .

(فَاحْذَرُوهُ) :

أى فاحذروا الله وخافوا أن تخالفوا أمره .

ثم لم يقنطهم من رحمته ومغفرته ، فقال :

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ) :

لمن أذنب ثم تاب ورجع .

(حَلِيمٌ) :

لايعجل بعقوبتكم إن أذنبتم ، لعلكم تثوبون إلى رشدكم ، فتتوبوا إلى ربكم .

وتكرير (وَاعْلَمُوا) للاعتناء بشأن الحكم .

ولا يخفى مافى ختام الآية من سعة رحمة الله تعالى .

(لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾) .

المفـردات :

(تَمَسُّوهُنَّ) : المسّ هنا ؛ الجماع .

(أَوْ تَفْرِضُوا) : أو هنا ؛ بمعنى الواو .

(فَرِيضَةً) : الفريضة ؛ المهر .

(وَمَتِّعُوهُنَّ) : المتعة ؛ مقدار مالى ، تُعطاه المطلقة قبل الدخول ، قُصِدَ به أن يكون تعويضا لها عما فاتها من زوجها ، وجبْرًا لها ؛ لما نالها من انكسار النفس .

(الْمُوسِعِ) : الغنِىُّ .

(الْمُقْتِرِ) : الفقير .

(قَدَرُهُ) : طاقته وسعته .

التفسير

٢٣٦ - (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً . . .) الآية .

(أو) فى قوله : (أَوْ تَفْرِضُوا) بمعنى الواو ، كما فى كقوله تعالى : « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا »[1] أى وكفورا .

المعنى : لا إثم عليكم أيها الأزواج ، إن طلقتم الزوجات قبل الدخول بهن وفرض مهر لهن .

أو : لا تبعة عليكم من المال ، إن طلقتموهن عند انتفاء مباشرتهن وتقدير مهر لهن .

وقيل : (أو) هنا بمعنى : إلا .

والمعنى - على هذا - ولا تبعة عليكم من المال عند عدم الدخول بهن ، إلا أن تفرضوا لهن فريضة من المهر .

ولكن (أَوْ) بمعنى الواو ، هو الأنسب ؛ لقوله تعالى :

(وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ) :

فإن المعنى : ومتعوا المطلقات عندما يجتمع لهن أمران ، عدم الدخول بهن ، وانتفاء تقدير مهر لهن : على الغنى مايقدر عليه ، وعلى الفقير مايقدر عليه .

وهذه المتعة ، جبر لما أصابهن من الحرمان ، وهى واجبة - فى هذه الحالة - عند كثير من فقهاء السلف ، ومنهم على بن أبى طالب ، وابن عمر ، وسعيد بن جبير ، والزهرى وغيرهم ،

وقال بعض الفقهاء : إنها مندوبة .

فالآية ظاهرة فى الرأى الأول .

أما غيرهن من المطلقات : فالمتعة مندوبة فى حقهن عند الجمهور .

وقال مالك وأصحابه : المتعة مندوبة فى كل مطلقة - وإن دخل بها - إلا فى التى لم يدخل بها ، وقد فرض لها - فحسبها مافرض لها ، وهو نصف المهر المسمى . ولا متعة لها .

(١) الإنسان : ٢٤

وليس للمتعة حَدٌّ معروف فى الكتاب أو السنة . ولكنها - على ما قال الله تعالى :

(عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ) :

وقال ابن عمر : أدنى ما يجزئ فى المتعة . ثلاثون درهما .

(مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ) :

أى تمتيعا بما عرف حسنه شرعا ومروءة .

(حَقًّا):ثابتا على من ينبغى له أن يحسن إلى نفسه - وهو المكلف - بالمسارعة إلى الامتثال

وإطلاق وصف (الْمُحْسِنِينَ) على المكلفين ؛ للترغيب والتحريض .

(وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾) .

التفسير

٢٣٧ - (وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَافَرَضْتُمْ . . .) الآية .

هذه الآية مسوقة لبيان حكم من سُمِّى لها مهر .

والمعنى : وإن طلقتموهن ، من قبل الدخول بهن - والحال أنكم قد فرضتم لهن صداقا معلوما - فواجب عليكم أن تؤدوا نصف مافرضتم لهن .

(إِلَّا أَن يَعْفُونَ) :

يعنى : أن هؤلاء المطلقات - قبل الدخول ، وقد سمى لهن صداق - يجب لهن نصفه إلا فى حال عفوهن ، وتجاوزهن عنه ، أو عن بعضه للزوج الذى أوقع الطلاق .

(أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ) :

المراد بهذا : الزوج . فهو الذى بيده أمر عقد النكاح ، إن شاء أبقاه ، وإن شاء أبطله بالطلاق . ومعنى عفوه : أن يترك - تكرما - مايعود إليه من نصف المهر الذى ساقه كله إلى من طلقها ، أو يعطيه إليها إن لم يكن أعطاه من قبل .

وقيل : المراد بمن بيده عقدة النكاح : هو ولى المرأة المطلقة الذى لا تتزوج إلا بإذنه ، فإن له العفو عن نصف مهر البكر إذا طلقت ، وإن لم تبلغ المحيض .

والتفسير الأول هو المأثور . وبه قال جمع من الصحابة . وهو الأنسب لقوله تعالى :

(وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) :

الخطاب هنا للرجال والنساء ، على ما رآه ابن عباس . أى وأن تعفو المطلقات عن حقهن فى النصف ؛ لأن الأزواج لم يدخلوا بهن ، وأن يعفو الأزواج بالزيادة على النصف ، جبرًا لخاطر المطلقات قبل الدخول - أقرب للتقوى . والبادئ بالفضل أكرم . فإن إسقاط حق الغير ، ليس من التقوى .

(وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) :

أى لا تجعلوا الفضل بينكم كالشىء المنسى ، بأن تتركوا التعامل به بينكم .

والفضل كما - قال مجاهد - إتمام الرجل الصداق كله ، أوترك المرأة النصف الذى لها .

(إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

أى بجميع أعمالكم ومجازيكم عليها .

ثم عقب هذا ، بالأمر بالمحافظة على الصلاة ؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتوجب العمل بما تقدم من التكاليف .

(حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾).

المفردات :

(الْوُسْطَى) : تأنيث الأوسط ، وهى الفضلى . ووسط الشىء : خيره وأعدله .

(قَانِتِينَ): القنوت؛ الطاعة والعبادة . وأصله الدوام على الشىء . ومن هنا سمى المداوم على الطاعة : قانتا .

التفسير

٢٣٨ - (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) :

المعنى : أمر الله بالمحافظة على الصلاة فى هذه الآية الكريمة ، فأصبح الناس - بهذا الأمر الكريم - مكلفين بتنفيذه : وقتا فوقتا .

والمحافظة عليها ، تقتضى أداؤها فى أوقاتها : مستكملة لأركانها وشروطها : مشتملة على الخشوع والخضوع حين أدائها ؛ تعظيما لله - تعالى - الذى يقف المصلى بين يديه ، حتى تأتى بالغاية المنشودة التى شرعت من أجلها ، وهى أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فإن العبد فيها يناجى ربه ، ويقف بين يديه خمس مرات فى اليوم والليلة . فإذا كان خاشع القلب فيها - استحيى أن يقف بين يدى مولاه عاصيا .

وأمر أيضا : بالمحافظة على الصلاة الوسطى . ورجح بعض العلماء أنها صلاة العصر ، لما أخرجه مسلم ، عن على - كرم الله وجهه - أنه - صلى الله عليه وسلم - قال يوم الأحزاب : « شغلونا عن الصلاة الوسطى : صلاة العصر ، ملأ الله بيوتهم نارا » .

وخصت بالذكر؛ لأنها تقع وقت اشتغال بعض الناس - ولاسيما العرب - أو وقت الراحة والكسل ، بالنسبة إلى طائفة أخرى من الناس .

وسميت الصلاة الوسطى؛ لتوسطها بين صلاتى النهار وصلاتى الليل .

وقيل : المراد بالوسطى : المتوسطة كيفية : بين الإفراط والتفريط ، حتى لا يمل الناس الصلاة إن أفرطت فى الطول ، ولا تكون كنقر الغراب إن فرط فى كيفيتها .

(وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) :

القيام هنا ، مراد منه : الاهتمام والتشمير عن ساعد الجد ، من قولهم : قام فلان بالأمر خير قيام ، إذا أداه أحسن أداء . أى : شمروا عن ساعد الجد فى الصلاة ، لأجل الله وحده ، بلا رياء ولا سمعة ، خاضعين لله خاشعين .

(فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)) .

المفـردات :

(خِفْتُمْ) : الخوف ؛ الفزع من أى مصدر يبعث عليه .

(فَرِجَالًا) : جمع راجل ؛ أى فصلُّوا راجلين .

(أَوْ رُكْبَانًا) : جمع راكب ؛ أى راكبين على الإبل وغيرها ، مما يركب ، كالمصفّحات والدبابات وغيرها .

التفسير

٢٣٩ - (فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا . . .) الآية .

لما أمر الله - فى الآية السابقة - بأداء الصلاة فى حال القنوت ، وهو السكينة والخشوع : حيث يكون الأمن والطمأنينة ، أتبعه ببيان أدائها حال الخوف الطارئة ، للإيذان بأنها لا تسقط عن العبد ، بأى حال .

والمعنى : هذه الصلاة المبينة فى الآية ، رخصة لنا فى حال الخوف ، سواء كان سببه عدوًّا مقاتلا مسايفا ؛ أو كان سبعا ؛ أو عدوًّا يتبعه ليسرقه أو يقتله ، أو سيلا يخاف الغرق منه ؛ أو نحو ذلك .

ففى كل هذه الأحوال ، يصلى الخائف فردًا بلا جماعة ، سواءٌ أكان راجلا أى ماشيا على قدميه ، أم كان راكبا على أية وسيلة من وسائل الركوب ، كالدواب وما استحدثه المخترعون من وسائل الانتقال المختلفة : برًّا وبحرا وجوًّا ، وتكون قبلته حيثما توجه ، ويتقلب ويتصرف - بحسب نظره - فى نجاة نفسه . ولا يلزمه ركوع ولا سجود إذا كان هذا يضره ، ويكفيه عنهما الإيماء بالرأس ، بطريقة لاتعرضه للتهلكة .

أما الصلاة التى يكون فيها إمام ، وينقسم فيها الناس ، فهى غير هذه ، وسيأتى بيانها فى سورة النساء ، فى قوله تعالى : « وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ [1] » .

ولا ينقص عدد ركعات صلاة الخوف عن صلاة المسافر ، وهى ركعتان فى الرباعية ، واثنتان فى الصبح ، وثلاث فى المغرب .

هكذا قال مالك ، والشافعى ، وجماعة من العلماء .

وقال الحسن بن أبى الحسن وقتادة وغيرهما : يصلى ركعةً إيماءً .

روى مسلم ، عن بكير بن الأخنس عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : « فرض الله الصلاة على لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الحضر أربعا ، وفى السفر ركعتين ، وفى الخوف ركعة » .

وضعف هذا الرأى ، بأن الاخنس انفرد بهذا الحديث ، وليس بحجة عند الانفراد .

والصلاة أولى ما يحتاط فيه .

(فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَّالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) :

أى فإذا زال خوفكم الذى ألجأكم إلى هذه الصلاة ، فاذكروا الله بالشكر ، لأجل تعليمه إياكم مالم تكونوا تعلمونه ، من صلاة الخوف التى وقع بها الإجزاءُ ، ولم تفتكم صلاة من الصلوات ؛ فإن صلاة الخوف المذكورة : هى التى لم يكونوا يعلمونها من قبل . وهذا كما يقول لك قائل : اشكر معلمك كما علمك . أى لأجل ماعلمك من العلم ، فالكاف للتعليل .

(١) الآية : ١٠٣

وقيل إنها للتشبيه : والمعنى : فاذكروه تعالى بأن تشكروه شكرًا يماثل تعليمه إياكم مالم تكونوا تعلمونه من الشرائع ، وكيفية الصلاة : حالتى الأمن والخوف .

والمعنى الأول أنسب .

ويجوز أن يكون المعنى : فإذا زال خوفكم ، فصلُّوا لله صلاة الأمن ، كما علمكم من شأنها مالم تكونوا تعلمون على لسان نبيه ، حيث عرفتم كيفيتها منه ، ولم يكن لكم بها علم قبل ذلك .

والكلام جار مجرى الامتنان من الله عليهم بذلك ، فقد كانوا من قبل يعبدون الأوثان ولا يعرفون هذه العبادة .

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾) .

التفسير

٢٤٠ - (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ . . .) الآية .

الربط :

بعد أن ذَكَّر الله المؤمنين بوجوب المحافظة على الصلاة : فى حالتى الأمن والخوف ، عاد إلى ذكر أحكام أخرى لمن توفى عنهن أزواجهن من النساء

وتوسيط الصلاة - بين تلك الأحكام المتجانسة - لأنها أهم وسيلة فى تقوى الله : التى تقتضى تنفيذ هذه الأحكام .

المعنى : والذين يتوقَّعون قرب الوفاة منكم أيها المسلمون ، ويتركون بعدهم زوجات : كتب الله عليكم أيها الأزواج - قبل الاحتضار - وصية لهن : بأن يُمتعن بعدكم - بالنفقة

والسكنى - إلى نهاية عام كامل بَعْدَ الوفاة ، غير مخرجات من مساكنهن طيلة الحول ، أى لايخرجهن منه أولياءُ الميت .

وسيأتى مزيد بيان لذلك ، بعد الفراغ من شرح الآية .

(فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ) :

يعنى : فإن خرجن باختيارهن من مسكن عدة الوفاة - قبل تمام الحول - فلا إثم على أحد من ولى أو حاكم أو غيره - فيما فعلن فى أنفسهن من معروف لا ينكره الشرع ، كالتطيب والتزين للخطَّاب وترك الحداد ، أو لا إثم عليكم فى ترك منعهن عن الخروج ، أو قطع النفقة عنهن .

وقد دلت الآية : على أنهن كن مخيرات بين ملازمة المسكن حولا وأخذ النفقة فيه ، وبين الخروج وتركها .

(وَاللهُ عَزِيزٌ) :

أى والله قوى غالب على أمره ، ينتقم ممن خالف شيئا من هذه الوصايا والأحكام .

(حَكِيمٌ) :

يرعى مصالح عباده .

وقد دلت هذه الآية : على أن المتوفَّى عنها زوجها : تتربص فى بيت الزوجية عاما كاملا ، ينفق عليها فيها ، من مال المتوفى .

وظاهر ذلك : أنها منافية لما سبق تفسيره من قوله تعالى : «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » .

وقد ذهب جماعة فى التوفيق بينهما : إلى أن هذه منسوخة بالتى قبلها . فهى - وإن تأخرت تلاوة - فهى متقدمة فى النزول على الآية السابقة .

وقالوا فى كلامهم : إن المتوفى عنها زوجها : كانت تجلس فى بيته حولا ، وينفق عليها من ماله ما لم تخرج من المنزل ، فإن خرجت لم يكن على الورثة جناح فى قطع النفقة

عنها ، ثم نسخ الحول بالأربعة الأشهر والعشر ، ونسخت النفقة بالربع والثمن فى سورة النساء

قاله ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما .

وذهب آخرون إلى عدم النسخ ، وسلكوا طريقا آخر فى التوفيق بينهما .

قال الطبرى عن مجاهد : إن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها . والعدة كانت قد ثبتت أربعة أشهر وعشرا . ثم جعل الله لهن وصية منه : سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة – هى تمام الحول – فإن شاءت المرأة سكنت فى وصيتها ، وإن شاءت خرجت . وتلك الوصية – على سبيل الإحسان والندب – قائمة لم تنسخ .

قال القرطبى : ماذكره الطبرى عن مجاهد ، صحيح ثابت

خَرَّج البخارى عن مجاهد : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ قال :

كانت هذه العدة ، تُعْتَد عند أهل زوجها واجبا[1] فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ إلى قوله : ﴿ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ قال : جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية : إن شاءت سكنت فى وصيتها وإن شاءت خرجت . وهوقول الله تعالى : ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾ .

المفـردات :

﴿ مَتَاعٌ ﴾ : المتاع ؛ مايمنحه الأزواج للمطلقات ، تطييبًا لنفوسهن .

---

(١) أى أمرا واجبا .

التفسير

٢٤١ - (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ . . .) الآية .

أى لجميع المطلقات - سواءٌ كن مدخولا بهن أم لا - متاع .

وينقسم هذا المتاع إلى قسمين : واجب ، ويكون للمطلقة قبل الدخول ، ولم يكن سمى لها مهر . وقد مرَّ بيانه فى الآية (٢٣٦) من سورة البقرة .

ومندوب : فى غيرها .

وأوجبه - فى الجميع - سعيد بن جبير ، وأبو العالية والزهرى .

وقيل : المراد بالمتاع : نفقة العدة للمعتدات .

ومعنى كون هذا المتاع (بِالْمَعْرُوفِ) : أن يكون حسب العرف بين الناس ، وبحيث يكون على نحو ما قال الله : « وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ »[1] .

ثم أكدت الآية الكريمة هذه المتعة فقالت :

(حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) :

أى : متاعا قد حقه الله وأثبته على المتقين لربهم ، المسارعين إلى امتثال أمره - تعالى - .

والتعبير بقوله : (حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) مع أنه حق على الجميع ، قصد منه : الترغيب فى البذل والإحسان ، وترقيق القلوب : بالإيذان بأنه من الطاعات التى يتحلى بها المتقون ، ويحفظون بها أنفسهم من عقاب الله .

٢٤٢ - (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) :

مثل هذا البيان الواضح ، لأحكام النكاح ، والطلاق ، والعدة بأنواعها ، والمتعة ، وغير ذلك - يبين الله لكم آياته - كلها - فى شريعته ، لكى تدركوا أسرارها ، وتعقلوا أغراضها ، فتنفذوها عن يقين واقتناع .

---

(١) البقرة : ٢٣٦

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾) .

التفسير

٢٤٣ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ . . .) الآية .

(أَلَمْ تَرَ): كلمة تُذكَر لمن يعلم مابعدها ؛ لتعجيبه وتذكيره ، وتقرير موضوع التعجيب بأهل الكتاب ، وقراء التاريخ .

وتُذكَر - أيضا - لمن لا يكون له علم بذلك؛ لتعريفه وتعجيبه ، وللتقرير كذلك .

وقد اشتهرت فى خطاب من لايعلم ، حتى أجريت فيه مجرى الأمثال ، بأن يشبه حال من لم ير الشيء بحال من رآه ، فى : أنه لاينبغى أن يخفى عليه ، وأنه ينبغى أن يتعجب منه . ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع من رأى ؛ قصدًا إلى المبالغة فى شهرته .

والخطاب فيه هنا ، لمن يعلم ولمن لايعلم ويتأتى منه العلم ؛ للأغراض السابقة . والرؤية فيه علمية ، وتعدت بإلى فى قوله : (إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا) لتضمينها معنى الوصول والانتهاء .

والمعنى : ألم ينته علمك إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف - وكانوا فوق عشرة آلاف - لأن العشرة فما دونها جمع قلة ، فيقال فيها : آلاف ، ولا يقال ألوف إلا لجمع الكثرة ، الذى يزيد على العشرة . .

ولذا ، روى عن ابن عباس : أنهم كانوا أربعين ألفا ، كما فى بعض الروايات عنه . وكان خروجهم بهذه الكثرة ، خوفا من الموت ، وحذرا منه ، مع أن الحذر لايمنع من القدر ، فإذا جاء أجلهم معا – أو متفرقين – لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون .

ويرى بعض المفسرين : أن هذه الآية الكريمة : تنبئنا عن قوم من بنى إسرائيل ، دُعوا إلى الجهاد فى سبيل الله ، فخرجوا من ديارهم فرارا منه ، حتى لا يموتوا – مع أنهم كانوا ألوفا ، فلا ينبغى لهم أن يفروا – لأن من عادتهم أن يجبنوا عن القتال ، كما حدث عندما أمرهم موسى – عليه السلام – بقتال الجبارين ، فقالوا له : « اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ »[1] . فأماتهم الله جميعا ، عقابا لهم على فرارهم ، ثم أحياهم ليبين لهم قدرة الله عليهم ، وأنه لا ينفعهم الفرار من القتال ، إن كان الموت فيه مكتوبا عليهم ، فقد يموت المرءُ بدون قتال كما حدث لهم .

ويقول صاحب هذا الرأى : إنه – تعالى – بعد أن أحياهم ، أمرهم بالجهاد بقوله لهم : « وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ »[2] لعلهم يعتبرون بذلك ، فيخلصوا فى الجهاد .

وقال ابن عطية منكرا لهذا وأمثاله من القصص : وهذا القصص كله لين الأسانيد . وإنما اللازم من الآية أن الله – تعالى – أخبر نبيه محمدا – صلى الله عليه وسلم – إخبارا فى عبارة التنبيه والتوقيف، عن قوم من البشر ، خرجوا من ديارهم فرارا من الموت ، فأماتهم الله ثم أحياهم ليروا – هم وكل من خَلَفَ من بعدهم – أن الإماتة إنما هى بيد الله – تعالى – لا بيد غيره ، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغتر . وقد جعل الله هذه الآية مقدمة بين يدى أمره للمؤمنين من أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – بالجهاد . هذا قول الطبرى . وهو ظاهر معنى الآية .

---

(١) المائدة : ٢٤ (٢) البقرة : ٢٤٤

ويرى الشيخ محمد عبده : أن هذا مَثَلٌ لا قصة واقعية ، وأن الموت هنا - مجازى .

وخلاصة رأيه . أن هؤلاء القوم فروا أمام أعدائهم دون قتال ، وتركوا أوطانهم غنيمة للأعداء ، فعاشوا أذلاء مشردين ، فى حياة أشبه بالموت . فلما عرفوا جنايتهم على أنفسهم - عادوا إلى جهاد أعدائهم ، وتحرير أوطانهم ، فاستردُّوا كرامتهم ، وعاشوا حياة كريمة جديرة بالمجاهدين الأبطال .

ويرى آخرون : أنها تتحدث عن قوم نزل ببلادهم وباءُ الطاعون ، فعمها بأسباب الموت ، فظنوا أن فرارهم من هذا الوباء ، سيكفل لهم النجاة من الموت ، فأماتهم الله عقابا لهم ، فلكل أجل عند الله كتاب وقدر . وقد فاتهم أنهم سينقلون معهم وباء الطاعون ، إلى بلاد خالية منه . وتلك جريمة أخرى . وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن هذا السُّقم ، عُذِّب به الأُمم قبلكم ، فإذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع - بأرض وأنتم فيها - فلا تخرجوا فرارا منه . . . » إلخ . أخرجه الإمام أحمد عن عمر . ولِلشَّيخين نحْوهُ .

وهذا الإرشاد منه - صلى الله عليه وسلم - مطابق لأحدث النظم الصحية ، وهو مايعرف اليوم ، بالحجر الصحى .

والتعبير بقوله - تعالى - : (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) : إما على ظاهره ، وإما مجاز عن تعلق إرادة الله تعالى بموتهم دفعة واحدة .

وقيل : هو تمثيل لإماتتهم ميتة نفس واحدة ، فى أسرع زمان ، بأمر مطاع لمأمور مطيع .

والله يعلم مقدار المدة التى ظلوا فيها أمواتا . ولكنها لابد متراخية فترة عن إماتتهم ، كما يوحى به العطف بثم فى قوله تعالى : (ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) : أى ثم أعادهم الله إلى الحياة مرة أخرى ، بعد فترة موت ، ليستوفوا آجالهم ، وليؤمنوا بقضاء الله وقدره ، وليكونوا عبرة يعتبرون بها هم وغيرهم ، وليظهر فضل الله الذى عبر عنه قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ) :

بما أنعم به عليهم من نعمة الخلق ، ونعمة البقاء والرزق ، وبما يريهم من الآيات الباهرة ، والحجج القاطعة ، التى تنفعهم فى دينهم .

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) :

فَضْلَ الله عليهم ، بالاعتراف بهذه النعم ، والعمل بموجبها .

هذا وقد تناول الإصحاح السابع والثلاثون ، من سفر حزقيا ، هذه القصة . فارجع إليه إن شئت . وكذلك راجع هذا التفسير للآية (٢٥٩) من البقرة .

وفى هذه القصة عبرة ودليل على أنه لايغنى حذر من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فإن هؤلاء فروا من الموت طلبا للحياة ، فعوملوا بنقيض قصدهم ، وجاءهم الموت من حيث لا يشعرون ، وظهر لهم أنهم قد فروا من قضاء الله إلى قضاء الله .

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾) .

المفردات :

(سَبِيلِ اللهِ) : السبيل ؛ الطريق ، يذكّر ويؤنث . وإذا أُطلق ، انصرف إلى الجهاد.

(يُقْرِضُ) : الإقراض ؛ إعطاءُ شخص مالاً لغيره ؛ ليرده إليه بعد حين .

(يَقْبِضُ): يُضيِّق على من يشاءُ فى الرزق .

(وَيَبْسُطُ): يُوسِّع على من يشاءُ .

التفسير

٢٤٤ ـ (وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

هذه الجملة معطوفة على جملة (أَلَمْ تَرَ) من جهة المعنى ؛ فإن (أَلَمْ تَرَ) بمعنى : انظروا وتفكروا .

وإنك لترى الأمر بالجهاد منثورا فى هذه السورة ، ضمن آيات الأحكام ، مذكرا به من آن لآخر ؛ لأنه من أشق التكاليف ، وعليه يدور بقاء هذا الدين ، الذى يتربص به أعداؤه . فلو لم يجاهدوهم لهلكوا ، وضاع دينهم .

وقد بدأ الحديث عن الجهاد - فى هذه السورة - بقوله تعالى : « وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ[1] » حتى وصل إلى هذا التكليف الكريم ، ثم ينتهى فى آخر السورة : بالحث على الإنفاق فى سبيله .

والخطاب هنا ، لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - .

والجهاد فى سبيل الله : هو ما كان لإعلاء كلمة الله ، فلا يكون الجهاد فى سبيل الله ، إلا إذا كان همُّ المقاتل ومقصده - إحياء دينه ونشره والدفاع عنه . فإن لم تكن تلك نيته ، فإنما يقاتل لأمر دنيوى . ومن كان كذلك ، لا يحصل على الثواب العظيم : الذى أعده الله لمن يجاهدون فى سبيله .

وفى مضمون الآية الكريمة : تحذير لكل مسلم من أن يجبن عن القتال حذر الموت ، بقوله : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

فإن الموت قدر لابد منه . قال تعالى : « قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ[2] » إذ الموت أجل يبلغه المرء فيموت : سواء أكان على فراشه ، أم كان فى حرب ضروس .

كما أن فيها رمزا إلى وعدهم بحسن الجزاء . وكأنه يقول : واعلموا أنه سميع عليم ، فلا يخفى عليه مجاهد أو قاعد . فمن قعد عنه ، عوقب أشد العقاب . ومن جاهد ، جوزى أعظم الجزاء .

ثم حرّضهم على الإنفاق فى سبيل الله بأموالهم ، بعد أن أمرهم ببذل أنفسهم ، فقال :

٢٤٥ - (مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ....) الآية .

---

(١) البقرة : ١٥٦

(٢) الجمعة : ٨

بهذا الأسلوب الاستفهامى البليغ ، يدفعنا الله - تعالى - دفعا إلى المشاركة بالمال ، فى الإعداد للقتال : إعدادا نرهب به عدو الله وعدو دينه ؛ لتكون كلمة الله دائما هى العليا .

وقد صورت الآية إعطاء الباذل ماله فى سبيل الله : يبتغى ثوابه ، بصورة تقديم قرض إلى مقترض ؛ للإيذان بأن ثوابه محقق ، ولازم لزوم أداء الدين . .

وفى الآية :لطف من الله بعباده ، وتوثيق لثوابه ، وأنه لازم الأداء : تفضلًا منه وتحقيقًا لوعده الذى لا يتخلف ، حيث جعل نعمته التى أنعم بها على عباده - إذا أنفقوها فى سبيل الله - كأنها قرض يقدمونه له - سبحانه - مباشرة ، مع أنه غنى عن عباده ، فهو الذى يقول : « وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ [(١)] » .

والمراد بكون القرض حسنا : أن يكون الغرض منه وجهَ الله ، لا الرياء والسمعة ، وأن يكون حلالا طيبا . ومع أن القرض مع الناس يؤدى بمثله ، فإنه - تعالى - بيّن لعباده أن القرضَ معهَ يؤدى مضاعفا ؛ إذ قال :

(فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً) : عوضا عن هذا القرض الذى قدموه خالصا لله . وتلك المضاعفة ، تكون فى وقت تشتد فيه حاجتهم إلى هذا الربح الوفير ، وهو يوم القيامة .

وقد بيّن الله هذه المضاعفة فى أواخر السورة إذ يقول : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [(٢)] » .

(وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

أى يضيّق الرزق على بعض ، ويوسعه على بعض ، أو يضيقه تارة ، ويوسعه أخرى ، حسبما تقتضيه الحكمة .

وإذا علمتم أنه - تعالى - واهب الأرزاق ، يوسعها ويضيقها كما يشاء ، وأن ما عندكم هو من بسطه وعطائه ، فأنفقوا مما وسع عليكم ، ولا تبخلوا بما هو من فضله ، فإنه مجازيكم على إنفاقكم جزاء مضاعفا ، حسبما وعدكم .

---

(١) محمد : ٣٨

(٢) البقرة : ١٦١

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾) .

المفـردات :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ) : الملأُ من القوم ؛ وجوههم وأشرافهم ، وهو اسم للجماعة لاواحد له من لفظه . سموا بذلك ؛ لأنهم يملأُون القلوب مهابة ، والعيون حسنا وبهاءً ، والمقصود به هنا – وفى كل القرآن – الرجال : كالقوم ، والرهط ، والنَّفر .

والرؤْية – هنا– علمية كسابقتها : ضمنت معنى الانتهاء . فعديت بحرف الجر (إِلَى) . والاستفهام : للتعجيب والتشويق لهذه القصة . ومعنى (هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا) : فقد قاربتم عدم القتال إن كتب عليكم كما يتوقع منكم ، فعسى للتوقع . والمراد : تقرير أن المتوقع منهم كائن . ولابد من وقوعه .

التفسير

٢٤٦ – (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ . . .) الآية .

كان العبرانيون جيرانا لبنى إسرائيل . وكان يحكمهم ملك يُقَالُ له : جالوت – ولما فسق بنو إسرائيل ، وقتلوا أنبياءهم – سلطهم الله عليهم ، فهزموهم ، وظهروا عليهم ، وأخذوا كثيرا من بلادهم ، وأسروا من أشرافهم عددا كبيرا ، وضربوا عليهم الجزية ، وأخذوا توراتَهم ، واستباحوا نساءهم . فلما رأوا ماحلّ بهم – عادوا إلى رشدهم ، وقالوا لنبيهم يوشع – عليه السلام –: أقم علينا ملكا يضم شتاتنا ، وتنصاع له جماعتنا ، ونقاتل

تحت لوائه فى سبيل الله وشريعته ، فقد كفانا مالقيناه من ذل الهزيمة والاستعباد . وكان الملك فيهم هو الذى يسير بالجموع .

أما النبى ، فهو الذى يقيم أمره ويرشده ويشير عليه ، فيطيع الملك أمره كسائر بنى إسرائيل .

والخطاب فى قوله (أَلَمْ تَرَ) : لكل من تتأَتى منه الرؤية والعلم[1] .

(قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا) :

هل : هنا ـ للتحقيق فهى بمعنى « قد » ، و « عسى » تفيد التوقع ، وأُدخلت « هل » عليها لتحقيق ما يتوقعه النبى ، و (أَلَّا تُقَاتِلُوا) :خبر « عسى » .

والمعنى : قال لهم نبيهم مجيبا لهم : أتوقع عدم قتالكم ، إن كتب عليكم القتال ، وذلك التوقع محقق عندى وثابت ، وقد بنى توقعه هذا على تاريخهم فى الجهاد ، وجبنهم طول حياتهم أمام عدوهم ، وقولهم لموسى ـ عليه السلام ـ حينما دعاهم للجهاد : « فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا . . . »[2] فأجابوا نبيهم :

(قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا) :

والمعنى : وأى شىء يمنعنا من أن نقاتل فى سبيل الله ، ويصرفنا عنه مع وجود مقتضيه ، فقد أخرجَنَا الأَعداءُ من ديارنا ، وطغى علينا قومُ جالوت ، فاستباحوا أبناءنا ونساءنا ، وهذه حالٌ تقتضى الجهاد ، الذى تركناه طلبا للعافية والسلامة ففقدناهما ، فاسأَل ربك ماطلبناه منك : من تنصيب ملك علينا : نقاتل معه ؛ لنستردَّ أرضَنا ، وكرامتَنا ، ومقدساتِنا.

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ) :

أى : فلما فُرض عليهم قتال أعدائهم ـ بعد مااختار لهم نبيهم ملكا كطلبهم وبرزوا لقتاله ، وشاهدوا جده فى قتالهم ـ وَلَّوْا فرارًا وَجُبْنًا ، إلا نفرا قليلا منهم : آثروا أخراهم على دنياهم ؛ طمعا فيما عند الله ؛ وإيمانا بأَن آجالهم قد قدرت عليهم ،

---

(١) راجع ما كتبناه عن مثلها فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ » البقرة : ٢٤٣

(٢) المائدة : ٢٤

فلا ينجيهم من الموت فرارٌ ، إن كان مكتوبا عليهم ، فصبروا مع ملكهم طالوت على قتال عدوهم جالوت .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) :

أى جميعا ، ومنهم الذين تركوا القتال من بنى إسرائيل ، ونافت أعمالُهم أقوالَهم ، فهو مجازيهم على ظلمهم ، بتوليهم وسائر معاصيهم .

وهذه الآية إجمال ، يأتى تفصيله فى الآيات التالية :

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾) .

المفردات :

(أَنَّى يَكُونُ) : كيف يكون ؟

(سَعَةً مِنَ الْمَالِ) : بسطة فيه .

(التَّابُوتُ) : صندوق فيه ألواح التوراة ، وبعض مقدساتهم .

(فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَّبِّكُمْ) : فى التابوت طمأنينة لقلوبكم من ربكم ؛ لما فيه من علوم وشرائع .

التفسير

٢٤٧ – (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) :

أى قال لهم نبيهم : إن الله قد اختار لكم طالوت ملكا يدبر أمركم ، وتصدرون عن رأيه فى القتال ، واسمه فى العهد القديم : شاول[1] ، ولم يكن طالوت من سبط الملك – يهوذا – ولا من سبط (لاوى) الذى فيه الأنبياء ، ولا من الأغنياء ، ولهذا ضاقت نفوسهم به ، فاعترضوا على تنصيبه ملكا عليهم .

(قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ) :

أى قالوا لنبيهم – مستنكرين – كيف يتملك علينا ذلك الرجل وهو لا يستحق الملك فى نظرنا ؛ لوجود من هو أحق بالملك منه بيننا ، فنحن الملأ من بنى إسرائيل (أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ) : نَسَبًا وَحسبًا ! ولأنه لم يؤت سعة من المال ، وتلحقه بالأشراف . والملك عندهم ، يتوقف على الحسب واليسار . ونسوا أنهم سألوا الله أن يبعث لهم ملكا يلى أمرهم ، ويقودهم فى حربهم ، وأن الله هو الذى اختاره لهم – لا النبى – ولا مَلِك أصلح لهم ممن اختاره الله ، فلا سبيل إلى تغييره .

(قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ) :

واختاره ملكا لكم ، والله أعلم به منكم ، وذكر لهم مزاياه التى ترشحه للملك فقال :

(وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ) :

أى سعة فيهما . وهاتان الميزتان أصلح للملك من سواهما .

(وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) :

أى والله وحده صاحب الخيرة : لا يُسأل عَما يَفعل : يؤتى ملكه من يشاء من خلقه ، بمقتضى حكمته ، وينزعه عمن يشاء من خلقه . (وَاللَّهُ وَاسِعٌ) : فضله ، يختص برحمته وحكمته من يشاء . (عَلِيمٌ) : بمن يستحق الملك والقيادة ممن لا يستحقه .

---

(١) راجع قصة فى العهد القديم : سفر صموائيل الأول من الإصحاح الثامن ، والحادى عشر .

ثم بين لهم نبيهم علامة تدل على صحة ملك طالوت ، وقد طلبوها منه ، وذلك ماحكاه الله بقوله :

٢٤٨ - ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ . . . ﴾ الآية .

المعنى : قال لهم نبيهم إن علامة صحة ملك طالوت لكم وأنه من عند الله : أن يأتيكم التابوت ويرجع إليكم على يديه : فى إتيانه طمأنينةٌ لكم ، أو فيه ما تسكنون وتطمئنون إليه ، وهو التوراة وغيرها من مقدساتكم.

وقيل : إنهم كانوا يستفتحون به على عدوهم ، ويقدمونه ، فى القتال - أمام جيوشهم - فينصرهم الله بسببه . وكانوا يجدون فيه - كلما نظروا إليه - سكينة لقلوبهم ، يطمئنون إليها ، ويتبركون بها .

والآية الكريمة ، تصرح : بأن الملائكة تأتيهم بالتابوت حاملة له . والظاهر أن ذلك على الحقيقة ؛ ليروه ويطمئنوا .

روى ابن جريج عن ابن عباس : « قال جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض ، حتى وضعته بين يدى طالوت ، والناس ينظرون » .

وقيل : إن الحمل مجاز عن الإيصال ، كما تقول : حمل فلان متاعه إلى مكة ، أى أوصله إليها .

فلما رأوا ذلك آمنوا بصدق نبيهم ، ورضوا بطالوت ملكا عليهم . وكان ختم الآية .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ :

أى علامة لكم على صدق ، فيما أمرتكم به من طاعة طالوت .

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ : أى : مصدقين .

وفى التعبير بلفظ (إنْ) إشارة إلى أصالة الشك فى نفوسهم ، وأنهم سيتمردون على أمر الله ، ولن يطول بهم القرار على الخضوع له ، كما سيأتى . فهى تفيد الشك فى تحقيق مفهوم خبرها .

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾).

المفردات :

(فَصَلَ) : خرج .

(مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ) : أى مختبركم به ؛ ليظهر الصادق منكم والكاذب فى طاعة الملك ، والجهاد فى سبيل الله ، لإخراج العدو من البلاد التى أخذها منكم .

(يَطْعَمْهُ) : يذق طعمه .

(اغْتَرَفَ غُرْفَةً) : الغرفة ؛ ما يغرف .

(لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ) : لا قوة لنا على حربه ، فضلا عن الانتصار عليه .

(يَظُنُّونَ) : هى هنا بمعنى ؛ يوقنون بالبعث ، على حدّ قوله تعالى : « إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ[1] » .

(مُلَاقُو اللهِ) : أى مبعوثون إليه .

(بَرَزُوا) : ظهروا واصطفوا للقتال ، على بارز من الأرض .

التفسير

٢٤٩ – (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ . . .) الآية .

فلما خرج طالوت بالجنود من بيت المقدس ، لقتال أعدائهم ، قال لهم : إن الله مختبركم وممتحن مقدار صدقكم – فى لقاء عدوكم ، واستجابتكم لأوامر قائدكم – (بِنَهَرٍ) يعترض طريقكم : أطلب منكم عدم الشرب منه ؛ ليظهر منكم المطيع والعاصى ؛ فإن طاعة القائد شرط أساسى للنصر ، فمن غلبته شهوته وشرب من مائه ، فليس من أتباعى : لأنه إذا عصانى اليوم ، فهو أحرى أن يعصى أمرى وقت اشتداد الحرب ، فتحدث الهزيمة . ومن لم يذق ماءه استجابة لهذا الأمر وصبر ، فإنه مِنِّى ، ضالع معى فى لقاء العدوّ ، والرغبة فى الانتصار عليه .

ثم استثنى من القسم الأول وهو : من شرب من النهر فقال : (إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ) يبلّ بها ريقه فى هذه الفلاة وشدة العطش ، فلا بأس عليه فى ذلك .

قالوا – فى حكمة الأمر بالاكتفاء بالغرفة – إنه اختبار لطاعتهم كما تقدم ، كما أن فيه سلامة الجندى ، فإن الإسراف فى الشرب – عند مناجزة العدو – يضر ضررا بليغا .

(فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ) :

أى : فلم يمتثلوا ما أمرهم به طالوت ، بل شربوا منه أكثر مما أمرهم به ، إلا قليلا منهم ، نفذوا أمره فاغترف كل واحد منهم لنفسه غرفة واحدة .

---

(١) الحاقة : ٢٠

(فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ) :

المعنى : فلما جاوز طالوت النهر ، وتركه هو والذين آمنوا معه ، وهم القليل الذى نفذ أمره ، وصدق إيمانه بربه ، ونظروا إلى كثرة عدوهم وهم قليل ، فأوجس بعضهم خيفة ، وقالوا : (لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ) بقتال (جَالُوتَ وَجُنُودِهِ) أى : لا قدرة لنا على محاربتهم ، فضلا عن غلبتهم . وهؤلاء – وإن كانوا من المؤمنين معه ، المنفذين لأمره فى اغتراف الغرفة – إلا أنهم قالوه إظهارا لواقع الحال ، ورجاء المعونة من الله ، وليس نكوصا وامتناعا عن القتال .

(قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللهِ) :

أى قال أفضلهم وخلصاؤهم ، الذين يتيقنون أنهم ملاقو جزاء الله يوم القيامة .

(كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) :

أى كم من جماعة – قليلة العدد والعُدد – استعصمت بإيمانها بالله ، وتوكلت عليه – غلبت فئة كثيرة العدد والعُدد ، بإرادة الله ونصره ؟ ! فإن النصر من عند الله ، لا بكثرة الجنود . فلا ينبغى لنا أن نستقل أنفسنا فنجبن عن لقاء عدونا .

ثم ختمت الآية بهذه البشرى : (وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) : أى ؛ معهم بالنصر والتأييد .

وهذه الجملة إما : من جهته – تعالى – تقريرا لكلامهم ، ودعاء للسامعين إلى مثل حالهم ، وإما : من كلام هؤلاء الذين يظنون أنهم ملاقو الله ، قالوها تشجيعا وترغيبا فى الصبر .

٢٥٠ – (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) :

ولما واجه حزب الإيمان أعداء الله ، وصاروا إلى براز الأرض ، المتكشف منها ، متأهبين لحرب جالوت وجنوده ، قالوا ذاكرين عبوديتهم : (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا) عظيما غامرا من عندك ، يشملنا ويعمنا ، ويقوى نفوسنا .

(وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا) : بطمأنينة نفوسنا عند اللقاء ، فإن طمأنينة النفس تهب القوة ، وتثبّت الأقدام . (وَانصُرْنَا) : بفضلك . وأعنا بقوتك . (عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ): الجاحدين لألوهيتك ونعمك المتوالية عليهم .

٢٥١ – (فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ . . .) الآية .

أى : فاستجاب الله دعاءهم ، فهزموهم بإرادة الله – تعالى – ونصره لهم ، بسبب إيمانهم واعتمادهم عليه ، وصبرهم فى ملاقاة العدو ، واستمساكهم بأسباب النصر ، وعدة الحرب (وَقَتَلَ دَاوُدُ) : أحد جنود طالوت (جَالُوتَ): زعيم العبرانيين ، وانتصرت القلة المؤمنة ، على الكثرة الكافرة .

وفى ذلك ترغيب للمؤمنين فى الجهاد ، وتحذير من الضعف والفرار حذر الموت . ثم مات طالوت ملك بنى إسرائيل ، فتولى داود الملك بعده (وَآتَاهُ اللهُ) – بسبب شجاعته وعقله ودينه – الملك ، ووهبه الحكمة ، وعلمه مما يشاء الله تعليمه إياه ، من العلم الذى اختصه به عليه السلام .

وبذلك دفع الله بداود عن بنى إسرائيل معرة الجبن والهزيمة .

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) :

وهكذا يدفع الله بالصالحين – من الناس – المفسدين فى الأرض ، المعطلين مصالح العباد ، ولولا ذلك لفسدت الأرض ، ووقع الناس فى الفوضى .

(وَلَٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) : فيدفع الله بعضهم بقوة بعض ، رحمة بهم .

(تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾).

التفسير

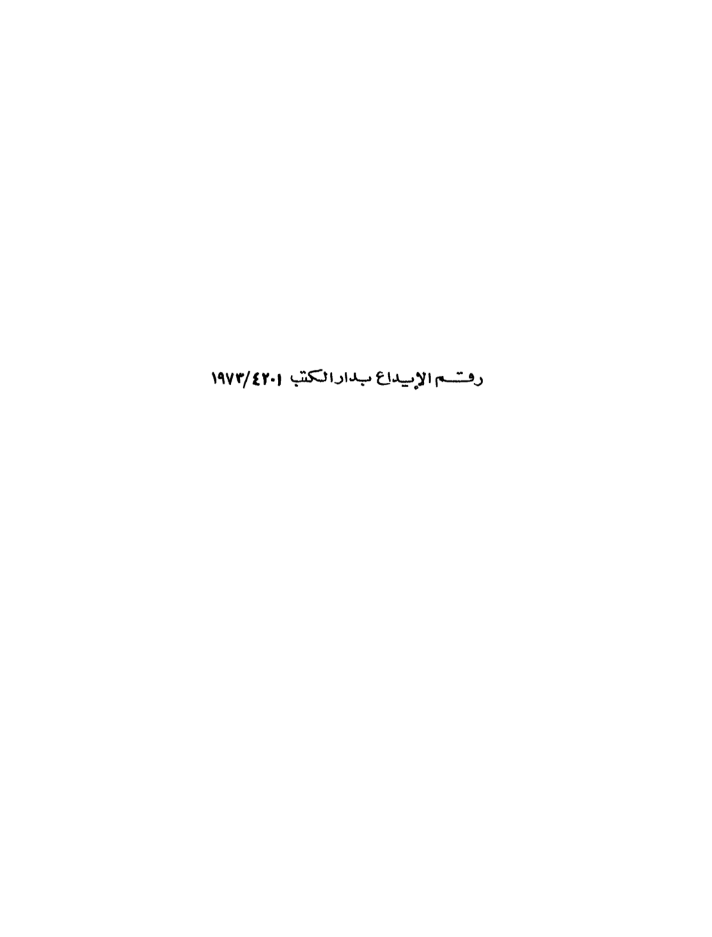
٢٥٢ - (تِلْكَ ءَايَٰتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) :

المعنى : تلك يا محمد ، قصص قصصناها عليك ، تحكى لك شأن الجهاد والمجاهدين والعاصين والمنافقين ، من بنى إسرائيل .

(نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ) : الثابت ؛ لتكون حجة لك على الناس ، ودليلا واضحا على صدق نبوتك .

(وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) : بشهادة إخبارك عن الأمم الماضية : من غير مطالعة كتاب ، ولا اجتماع بأحد يخبرك عنها ، ويدارسك بها .

هذا ، وقد وردت هذه القصة مفصلة فى سفر صموائيل الأول - من الإصحاح الثامن إلى آخر الإصحاح الحادى عشر - والنبى فيها هو صموائيل ، وطالوت هو - شاول - وجالوت هو - جليات - والله أعلم .



رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٣/٤٢٠١



مطبعة المصحف الشريف



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الخامس

الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م

١٩٧٤

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣))

المفـردات :

(تِلْكَ) : يشار بها إلى المؤنث ، ويعامل جمع الذكور معاملة المؤنث بتأويله بالجماعة لهذا أنث اسم الإشارة هنا . أى تلك جماعة الرسل .

(مَن كَلَّمَ اللَّهُ) : أى كلَّمه بلا وساطة ، ومن غيرسفير ، وهو موسى – عليه السلام – .

(الْبَيِّنَاتِ) : الحجج والأدلة .

(بِرُوحِ الْقُدُسِ) : أى بالروح المقدس . أى المطهر ، وهو جبريل عليه السلام .

التفسير

٢٥٣ – (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . . .) الآية .

لما ذكر الله قبل هذه الآية مباشرة قوله عز من قائل : « تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » . عقبه بتفصيل الحديث عن شأن هؤلاء الرسل الكرام – عليهم الصلاة والسلام – .

ومعنى الآية : هؤلاء الرسل الكرام – الذين بعثهم الله تعالى إلى الناس برسالاته وهُداه فى مختلف البقاع والأزمان – فضَّل الله تعالى ، بعضهم على بعض : فى المكانة والمعجزات . وإن كانوا جميعا ، قد تآخوا فى شرف النبوة والرسالة .

(مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ) :

أى منهم من فضله الله بتكليمه مباشرة ودون وسيط مثل : موسى - عليه السلام - ومثل : محمد - صلوات الله وسلامه عليه - ليلة الإسراء والمعراج ، كما سيرد فى تفسير أول سورة الإسراء . ومنهم من كلمه بغير ذلك ، كما فى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ . . . »[1]

(وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) :

فمنهم أولو العزم ، ومنهم خليل الله ، ومنهم كليمه ، إلى غير ذلك مما يمتاز به بعض الرسل عن بعض .

وعلينا أن نكف عن الموازنة بينهم ، تكريمًا لهم عن أن يكونوا مجالا للمناقشة والجدال ، والتعصب الجنسى أو الدينى ، قال تعالى : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ . . . »[2] الآية .

والإجماع منعقد على أن أفضل الرسل جميعًا محمد - صلى الله عليه وسلم - لأن رسالته عامة للبشرية جمعاء ، ممتدة من عصره إلى آخر الزمان .

أما كل منهم فرسالته محصورة فى قوم ، وتنتهى رسالته ببعثة خلفه ؛ ولأن الله تعالى أخذ عليهم العهد - جميعًا - بالإيمان به صلى الله عليه وسلم ، وبرسالته ، ومناصرته إذا أدركوا بعثته . قال تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ »[3]

وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ يومَ القيامةِ ، وأولُ مَن يَنْشَقُّ عنه القبرُ ، وأَوَّلُ شَافِعٍ ، وأَوَّلُ مُشَفَّعٍ »[4] . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فَخْرَ ، وبيدى لواءُ الحمدِ ولا فَخْرَ . وما من نَبِى يومئذ - آدمَ فمن سواهُ - إلا تحتَ لوائى ، وأنا أَوَّلُ شافِعٍ ، وأولُ مُشَفَّعٍ ولَا فَخْر »[5] .

---

(١) الشورى : من الآية ٥١ (٢) البقرة : من الآية ٢٨٥ (٣) آل عمران : الآية ٨١
(٤) رواه مسلم وأبو داود . (٥) رواه أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه .

أما ما رواه الشيخان من أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « لا تُفَضِّلونى عَلَى الأنبياء .. » فإن ذلك من باب تواضعه صلى الله عليه وسلم ، وأن الأنبياء إخوة فى الرسالة ، والأخ لا يُفَضِّلُ نفسه على أخيه ؛ ولأن اللجاج والخصام فى هذا التفضيل قد يقود المتخاصمين إلى النيل من بعض الأنبياء . وفى هذا كفر صريح .

ومردُّ التفضيل – بعد هذا كله – إلى الله وحده .

ومع أن الإجماع منعقد على أفضلية محمد – صلى الله عليه وسلم – فمن الواجب على المسلمين : ألاَّ يخوضوا فى الجدال حول تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض ؛ تمسكاً بآداب القرآن .

(وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) :

أعطينا عيسى بن مريم – عليه السلام – الآيات الواضحة الدالة على نبوته . وهى : المعجزات التى أجراها الله على يديه : كإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله – تعالى – وقوّاه الله كذلك على دفع أذى أعدائه بروح القدس . وهو جبريل – عليه السلام – قال تعالى : « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ . . . »[1] .

وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى صفته ، أى الروح المطهر .

ولما كانت هذه الآية واردة عقب قصة بنى إسرائيل مع طالوت ، ومخالفتهم لأمره – خص الله عيسى بالذكر من بين الرسل ، بالتنبيه على بعض معجزاته ؛ للرد عليهم إذ كذبوه ووصفوه وأمه بأوصاف فيها بهتان عظيم . كما قال تعالى : « وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا »[2] .

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا) :

ولما كان جوهر الديانات السماوية واحداً ، وهدفها واحداً . فلذا كان الواجب على أتباع كل رسول : أن يؤمنوا بالرسول الذى جاء بعده ، وألاَّ يختلفوا معه ولا مع أتباعه . ولكنهم تفرقوا واختلفوا ، واقتتلوا ، من بعد ما جاءتهم البينات ، والآيات المؤيدة لرسالته . ولو أراد الله

(١) النحل : من الآية [illegible]
(٢) [illegible]

ألّا يحدث ذلك ما حصل . ولكنه ابتلاهم ؛ لِيَمِيزَ الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر . وهذا ما قاله الله تعالى :

(فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) :

أى : فانقسموا بالابتلاء إلى فريقين : فمنهم من آمن لطيب سريرته ، وحسن اختياره . ومنهم من كفر لخبث نيته ، وسوء رأيه . ولو شاء الله لآمنوا جميعًا ، ولم يقتتلوا . ولكن الله يفعل ما يريد من ترك عباده لاختيارهم ، حتى يتبين الخبيث من الطيب ، ويدفع المؤمنون شرّ الكافرين وفسادهم . ثم يجزى كلا على حسب عمله : « وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ . . . »[1]

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾)

المفـردات :

(خُلَّةٌ) : الخلة ؛ الصداقة والمحبة للقرابة أو غيرها .

(شَفَاعَةٌ) : الشفاعة ؛ طلب التجاوز عن السيئة .

التفسير

٢٥٤ ـ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ . . .) الآية .

هذه الآية ظاهرة الارتباط بما قبلها . فقد دلت الآية السابقة : على أن القتال بين أهل الحق وأهل الباطل ، من سنن الله ـ تبارك وتعالى ـ فلهذا ناسب أن يعقب تلك الآية بمناشدة أهل الحق : أن يجاهدوهم بأموالهم التى رزقهم الله إياها من فضله .

والمعنى : ينادى الله عباده الذين آمنوا به وبكتابه وهدى رسوله ، ويأمرهم : بأن ينفقوا ـ فى سبيل الله ووجوه الخير ـ بعض ما آتاهم الله من فضله ، وأنعم به عليهم من رزق حلال

(١) البقرة : من الآية ٢٥١

طيب ، ما كانوا عليه بقادرين لولا فضل الله وتوفيقه ، وذلك بأن يُعْطوا الزكاة الواجبة عليهم إلى مستحقيها ، ويتطوعوا بالتصدُّق عليهم بما يستطيعونه فوق الزكاة الواجبة ، ويأمرهم بالمسارعة إلى ذلك ، قبل أن ينتهى الأجل المجهول لديهم ، ويقبل عليهم يوم الحساب بالثواب أو العقاب ، وهو يوم القيامة ، الذى لن يجدوا فيه ما يتقربون به حينئذ إلى الله تعالى ، أو يتداركون به ما فاتهم . فلن يجدوا فيه بيعًا لحسنات ترجح بها موازينهم ، ولن تنفع فيه صداقة مهما قويت . ولن تجدى فيه شفاعة شفيع إلا بإذن الله ورحمته . وإنما يأذن الله فى ذلك للمستحقين بعلمه وحكمته [1] .

(وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

والذين كفروا بالله – جل جلاله – هم الظالمون لأنفسهم وللمجتمع .

فكافحوهم بالقتال : بالأنفس والأموال التى أمركم الله بإنفاقها فى سبيله .

(ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾)

المفردات :

(الْحَىُّ) : الباقى ، الدائم البقاء ، الذى لا يناله الفناء .

(الْقَيُّومُ) : الدائم القيام بتدبير الخلائق وحفظهم .

(سِنَةٌ) : ما يكون قُبيل النوم من فتور يشبه النوم . والوسنان : هو من يكون بين النائم واليقظان .

---

(١) راجع فى موضوع الشفاعة تفسير الآية ٤٨ من البقرة .

(مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) : المراد منه ، الدنيا ، أو ما كان قبلهم ، أو المستقبل .

(وَمَا خَلْفَهُمْ) : الآخرة . أو ما يكون بعدهم . أو الماضى .

(كُرْسِيُّهُ) : الكرسى ؛ علم الله – تعالى – أو عرشه . وقيل : هو تمثيل لِمُلكِ الله تعالى وسلطانه ، وقيل : هو فلك يحيط بالسماء والأرض .

(وَلَا يَؤُودُهُ) : أى ولا يثقله ، ولا يشق عليه .

التفسير

٢٥٥ – (اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . . .) الآية .

دعت الآية السابقة إلى الإنفاق فى سبيل الله – سبحانه وتعالى – من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ، ولا تنفع فيه صداقة ولا شفاعة . وإنما ينفع الإنسان عمله ، ومرضاته لربه .

وهذه الآية بينت لهم : أن الله الذى دعاهم إلى الإنفاق : هو الإله الواحد ، القيم على كل نفس بما كسبت ، المحيط بكل شىء علمًا ، وأنه لا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه .

وتُعْرَفُ هذه الآية بين المسلمين ، باسم : آية الكرسى ؛ لأن ذكره ورد فيها .

وقد بدأت الآية الكريمة هذه باسم (الله) جل جلاله ، وأخبرت أنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ، وأنه (الْحَيُّ) : أى الذى له الحياة الكاملة الأزلية ، فلا أول لها ، الباقية فلا آخر لها ، وهو (الْقَيُّومُ) : أى الدائم القيام بتدبير شئون الخلائق وحفظهم .

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) :

لا تعتريه غفلة ولا نوم عن خلقه ، فذلك شأن الحادث الضعيف ، الذى يحتاج إليهما ؛ ليسترد قُوّته ونشاطه .

(لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) :

له – سبحانه – كل ما فى السموات ، وكل ما فى الأرض من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، وجماد ، وكل كائن .

(مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) :

لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد عند الله تعالى ، إلا إذا أذن الله له . وإنما يأذن بعلم وعدلٍ وحكمةٍ وفضل .

وقد نص القرآن الكريم ، والأحاديث الصحيحة ، على أن الله لا يأذن بالشفاعة إلا لمن ارتضى من عباده كالملائكة . وعلى أن الشفاعة العظمى لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم [1] – .

وجملة ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ : فيها رد على المشركين ، حين قالوا عن الأوثان : « ... هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ .. » [2] .

وفيها وعيد للمستخفين بأوامر الله تعالى ، المُصِرِّين على المعصية ؛ اتكالا منهم على أنه سيُشفع لهم ، وذلك بإقناطهم من قبول الله لشفاعة أحد عنهم .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ :

والله تعالى يعلم أمور الدنيا والآخرة : ظاهرة كانت أو خفية . فاحذروا أن تقعوا فى المعاصى التى لا تغنى فيها شفاعة الشافعين .

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ :

أى أن الخلق لا يعرفون أى شىء من معلومات الله – سبحانه – إلا ما يشاء لهم أن يعرفوه : بفضله وتوفيقه .

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ :

سعة الكرسى للسموات والأرض : كناية عن نفوذ سلطان الله تعالى فيهما ، وسعة علمه لهما ، ولجميع ما فيهما . فإنه تعالى أحاط بكل شىء علما .

فإن أريد بالكرسى : الفلك المحيط بالسموات والأرض – كما قال بعض العلماء – فسعته لهما ، على الحقيقة .

وقد أخذوا ذلك من ظاهر النص ، ومن حديث رواه ابن مردويه عن أبى ذَرّ قال : قال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ، ما السموات السبع ، والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحَلْقةٍ ملقاةٍ بأرض فلاة . وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحَلْقة » [3]

---

(١) راجع تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة . (٢) يونس من الآية : ١٨

(٣) [illegible]

وهذا يدل على أن العرش غير الكرسى ، وأنه أعظم منه .

(وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا) :

ولا يثقله سبحانه حفظ السموات والأرض . وهذا ناطق بدوام حفظه وتدبيره لهما ، لا يتخلى عن ذلك طرفة عين .

(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) :

وهو سبحانه الذى يتعالى عن الشبيه والنظير . ويتعالى عن النقص والعجز ، وهو العظيم قدراً وشرفاً .

(لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾)

المفردات :

(لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ) : لا إجبار ، ولا قسر على الإيمان .

(الرُّشْدُ) : الصواب ، أو الهدى ، أو الحق .

(الْغَيِّ) : الخطإ ، أو الضلال ، أو الباطل .

(بِالطَّاغُوتِ) : الشيطان ، أو كل ذى طغيان ، أو كل معبود سوى الله تعالى .

(بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) : العروة : ما يُتعلقُ به ، كالمقبض . والوثقى : مؤنث الأوثق ، وهو الأشد الأحكم .

(لَا انفِصَامَ لَهَا) : لا انقطاع لها .

التفسير

٢٥٦ـ ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ . . . . ﴾ الآية .

ذكرت الآية السابقة صفات الله السامية ، المقتضية لتفرده بالألوهية واستحقاق العبادة. ولم يعد – بعد ما جاء فيها – مجال للمكابرة أو الإنكار ، أو إكراه أحد على الإيمان؛ لأن أدلتها القوية تدعو إليه ، دون قسر أو إكراه ، فلا يحتاج العاقل إلى الإكراه أو الإلزام ، بل يختار الدين الحق من غير تردد . . ولذا قال تعالى عقبها :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾ :

أى لا ينبغى أن يحتاج عاقل إلى الإكراه على دين الإسلام ؛ لوضوح أدلته ، فعليه أن يتجه إليه باختياره .

ويجوز أن يكون النفى بمعنى النهى للمسلمين عن إكراه أحد على الدّين . ولذا قال تعالى :

« ... أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »[1] . وقال تعالى : « لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ... »[2] . وقال : « مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ... »[3] . إلى غير ذلك من الآيات .

والمعنى : لا تكرهوا – معشر المسلمين – أحدا على الإسلام ؛ لأن الحق فيه واضح بيِّن ، لا يحتاج إلى إكراه أحد عليه .

﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ ﴾ :

تعليل للحكم السابق مقرون بكلمة التحقيق ﴿ قَدْ ﴾ ؛ لتأكيد مضمونه أى : قد تبين الرشد والحق فى دين الإسلام ، كما تبين الغى والضلال فيما عداه . فلا حاجة للإكراه على الإسلام .

---

(١) يونس : من الآية ٩٩

(٢) البقرة : من الآية ٢٧٢

(٣) المائدة : من الآية ٩٩

(فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ) :

أى فمن يكفر بما يعبد من دون الله ، ويؤمن بالله وحده – بعد ما تبين له الحق من الباطل بالحجج الواضحة – .

(فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) :

فقد صار ممسكا بالسبب الأوثق الذى يصله بالحق .

(لَا انفِصَامَ لَهَا) :

أى لا انقطاع لهذه الصلة القوية . وبذلك يكون آمنا من التهلكة ومن كل مكروه .

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ) :

أى شامل السمع ، لايغيب عن سمعه شىء .

(عَلِيمٌ) :

واسع العلم : يحيط علمه بكل شىء .

وهذه الآية الكريمة : تنزه الإسلام عما زعمه أعداؤه من قيامه على القتال . فما كانت حروب المسلمين إلا دفاعية أو وقائية . قال تعالى : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا . . . »[1] . وقال تعالى : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا . . . »[2] . فإن جنح أعداء الإسلام إلى السلام سالمناهم . قال جل شأنه : « وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا . . . »[3]

وأساليب الدعوة الإسلامية ، تقوم : على الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال الرقيق . قال تعالى : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . . »[4] .

---

(١) البقرة : من الآية ١٩٠ (٢) الحج : من الآية ٣٩ (٣) الأنفال من الآية : ٦١

(٤) النحل : من الآية ١٢٥

(ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾) .

المفردات :

(وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) : متولى أمورهم ، يهديهم ويعينهم .

(الطَّاغُوتُ) : المراد به ؛ الشياطين .

(يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) : يخرجونهم من نور الحق إلى ظلمات الكفر .

التفسير

٢٥٧ ـ (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . . .) الآية .

الله ـ جل جلاله ـ هو معين المؤمنين الطائعين ، ومتوليهم بتوفيقه وتأييده وهدايته إلى طريق الحق ، فيخرجهم ـ بلطفه ورحمته ـ من ظلمات الحيرة والضلال والكفر ، إلى نور الاستقرار والهداية والإيمان .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) :

والذين كفروا بالله ـ جل جلاله ـ وأنكروا رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ، أولياؤهم الشياطين : يوسوسون لهم ، ويضلونهم عن صراط ربهم ، ويبعدونهم عن طريق الهدى ، ويوقعونهم فى ظلمات الضلال والشر ، ويحجبونهم عن فطرة الإيمان فى نفوسهم . فكأنهم يبعدونهم عن طريق مضىء منير ، ويوقعونهم فى طرق كثيرة الظلمات ، فلا يهتدون سبيلا .

وعبر عن دين الإسلام بالنور ؛ تشبيها له به ؛ لأنه يهدى إلى الحق والسعادة . كما يهدى النور إلى طريق السلامة .

والتعبير عن الشرك بالظلمات : تشبيه له بها ؛ لأنه يُضِل عن الحق والسعادة ، كما يُضِل الظلام عن طريق السلامة .

(أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

أولئك الضالون، هم الذين يستحقون عذاب النار لايفارقونها . بل يستقرون فيها ، ويدوم عليهم عذابها .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾)

المفردات :

(أَلَمْ تَرَ) : عبارة استفهامية لطلب التعجب .

(حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ) : خاصمه وجادله فى شأن ربه .

(فَبُهِتَ) : فتحير وانقطعت حجته .

التفسير

٢٥٨ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ . . .) الآية .

اتضح مما سبق : أن الرشد قد تبين من الغى ، وأن الله يتولى المؤمنين فيهديهم ، وأن الشيطان يتولى الكفار فيضلهم .

ولتوضيح هذه المعانى ، ذكرت هذه الآية - وما بعدها - ثلاث قصص واقعية ، تدور حول الموت والحياة ، وإبراز قدرة الله :

الأُولى : قصة رجل كافر تبين له الحق ، ولكنه أصرَّ على كفره .

الثانية : قصة رجل تبين له الحق فاقتنع به ، واعترف بأن الله على كل شىء قدير .

الثالثة : قصة نبي أظهره الله على بعض آياته ، فازداد إيمانا وتثبيتا .

وفيما يلي بيان القصة الأولى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ) :

أى هل رأيت فى الضلال مثل ذلك الملك الطاغية الكافر ، الذى جادل إبراهيم – عليه السلام – تجبرا منه وطغيانا بسبب ما أعطاه الله من سعة الملك ، وقوة السلطان .

(إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ) :

كانت المحاجة ، حينما أعلن إبراهيم : أن ربه هو الذى يحيي ويميت ؛ لأنه هو الإلٓه الخالق القادر على كل شىء دون سواه : فأجابه الطاغية – وهو لايملك من أمر نفسه شيئا – قائلا : أنا أحيي بالعفو عن محكوم عليه بالموت ، وأميت بقتل إنسان حى . ظانا بجهله أن قتله الإنسان إماتة ، وعفوه عنه إحياءٌ . فاقتضت حكمة إبراهيم أن يغلق باب الجدل ويجابهه بما لايستطيع أن يجادله فيه .

(قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ) :

قال إبراهيم : إن الله تعالى ، يظهر الشمس فى أول النهار من جهة المشرق ، فإن استطعت فأظهرها من جهة المغرب ؛ لتعود إلى الإشراق والإضاءة ، وينعكس بذلك نظامها . فيكون شروقها من جهة المغرب ، وغروبها من جهة المشرق ! !

(فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ) :

فانقطعت حجة الطاغية ، وسكت متحيرا ، ولم يستطع الاستمرار فى التمويه . فظهر الحق ، واندحر الباطل ، عن طريق محاورة إبراهيم النافعة ، التى كشفت الفرق بين الحق والباطل ، وبين الصدق والكذب ؟ !

(وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

والله العادل ، لايعطى الهداية لغير مستحقيها من أولئك الكافرين المعاندين ، فهم ظالمون. والله تعالى لايهدى القوم الظالمين ، أى لايوفقهم إلى حجة يغلبون بها أهل الحق .

(أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾) .

المفردات :

(أَوْ) : للتخيير والتنويع فى التعجيب بين ماجاء فى هذه الآية والتى قبلها من العجائب . والكاف اسم بمعنى: مثل .مفعول لفعل محذوف دل عليه (أَلَمْ تَرَ) السابق . والتقدير : أَوَ رأيت مثل الذى مرَّ على قرية . والجملة معطوفة بلفظ (أَوْ) على جملة :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ)

(قَرْيَةٍ) : اسم للموضع الذى يسكن فيه الناس ولو كبيرا ، كما فى قوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا . . . »[1] وقوله : « لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى . . . »[2] .

(خَاوِيَةٌ) : أى ساقطة من : خوت الدار ، إذا سقط بنيانها .

(عَلَى عُرُوشِهَا) : العرش ؛ السقف . والمراد : أنها متهدمة أو (خَاوِيَةٌ) بمعنى خالية . والمراد حينئذ: أن القرية خالية من أهلها – مع بقائها ، قائمة سليمة العروش –؛ لموت أهلها .

(نُنشِزُهَا) : مضارع أنشز ، أى نركب بعضها فوق بعض ونتنشها . وقرىء (نَنْشُرُهَا) بالراء بمعنى : نبعثها إلى الحياة من جديد ، من النشر . وهو إعادة الحياة بعد الموت .

(١) يوسف : من الآية ٨٢ (٢) الشورى : من الآية ٧

التفسير

٢٥٩ - ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا . . .﴾ الآية .

تناولت هذه الآية القصة الثانية عن الموت والحياة . فقالت ما معناه : أرأيت يامحمد مثل ذلك الرجل الذى مَرَّ على قرية مات أهلها ، وسقطت على سقفها : بأن سقطت العروش أولا ، ثم الحيطان عليها ! أو المعنى : أنه مر عليها -وهى خالية من أهلها مع بقائها قائمة على عروشها لم تنهدم ولم تسقط - فقال فى نفسه متعجبا ، أو بلسان حاله :

﴿ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ :

على معنى : كيف يحيى الله أهل هذه القرية بعد موتهم ؟ . أوكيف يردالحياة إلى هذه القرية ، بعد هذا الخراب الشامل ؟ !

والسؤال هنا عن كيفية الإحياء ، لا عن وقوعه .

لم يَرِد فى القرآن الكريم ، ولا فى السنة النبوية ، ما يعيِّن صاحب هذه القصة ، ولا اسم القرية التى مرّ عليها ذلك الرجل ، لأن العبرة هنا ، فى إحياء موتاها ، لا فى اسمها واسم من مرّ عليها . وإن كان بعض المفسرين قد ذهب إلى أن هذا الرجل نبى ، وأنه : عزير بن شرخيا ، كما ذهب إلى أن هذه القرية هى التى وردت قصتها فى الآية الكريمة : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ... »[1] .

ولعلهم قد استندوا فى ذلك إلى ماجاء فى : العهد القديم . عن هذه القصة ، فقد وردت فى الإصحاح السابع والثلاثين من سفر حزقيا ، على نحو قريب مما جاء فى الآية المذكورة .

وقيل : هى المؤتفكة . وقيل : غيرها .

ونحن نفوض الأمر فى علمها -وعلم أهلها- إلى علّام الغيوب ، ونسكت عما سكت عنه القرآن الكريم ، ولم تشر إليه السنة النبوية المطهرة .

---

(١) البقرة : من الآية ٢٤٣

قال تعالى : (فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ) :

جعله الله ميتا مائة سنة ، ثم ردَّ إليه الروح ، فعادت إليه الحياة بعد تلك المدة الطويلة ، وقد أعاده إلى الحياة مهيأً للتفكير والتدبر ، بدليل هذا الحوار ، وطلب منه النظر . ولم تذكر الآية ما حدث لجثته أثناء هذه الفترة . أَبُلِيَتْ وتحللت . أم ظلت محتفظة بتكوينها ؟

(قَالَ) له الله تعالى : (كَمْ لَبِثْتَ) ؟ :

كم مكثت فى رقدتك ؟ والله يعلم كيف كانت هذه المساءلة . أكانت على لسان ملك جاء فى صورة بشر ، أم كانت على لسان نبى ذلك الزمان ، أم كانت إلهاما نفسيا ، كما حصل لأم موسى – عليه السلام – أم كان ذلك الرجل نبيا ؟

والسؤال لم يكن من الله لهذا الرجل مباشرة ؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ... »[1] . وإنما سأله الله هذا السؤال – وهو عالم بجوابه – ليظهر عجزه التام عن الإحاطة بشئون الله تعالى . بل بشئون نفسه هو ؛ وليبين له قدرته تعالى على إحياء خلقه .

وقد أجاب ذلك الرجل :

(قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) :

مكثت فى رقدتى هذه يوما أو بعض يوم . ولعله قال ذلك ؛ لأنه لم يشاهد فى نفسه ، ولا فى طعامه تغيرا ، حتى يظن أنه مكث مدة طويلة . ولعله ظن أنه كان نائما فقدر زمنين متقاربين ، من المحتمل أن يستغرق الإنسان أحدهما فى نومه .

(قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ) :

أى لم تلبث هذا القدر اليسير الذى ظننته . بل مكثت – ميتا – مائة عام ؛ ليظهر الله لك قدرته على ما سألت .

---

(١) الشورى : من الآية ٥١

ولهذا أمره الله أن يتدبر ويفكر ، فقال :

(فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) :

والفاءُ فى قوله تعالى : (فَانظُرْ) للإفصاح ، لأنها أفصحت عن شرط مقدر ... بمعنى : إذا علمت أنك مكثت مائة عام ميتا ، ثم بعثت — فانظر إلى هذه الآيات البينات ، وتبصر فيها . وقد أمره الله أن ينظر إلى طعامه وشرابه اللذين كانا معه لزاده — وقد مرَّ عليهما مائة عام — وما زالا صالحين للتناول ؛ لم يلحقهما أى تغيير ، مع أن شأنهما المعتاد . هو سرعة التغييروالفساد .

وذلك دليل على أن المؤثر هو الله تعالى ، لا الأسباب بذاتها ، ولذا تخلف تأثيرها فى الطعام والشراب ، اللذين مكثا مائة عام ، لم يتغير فيهما شىءٌ منهما . وهذا هو موضع الاعتبارالأول . وقد أفرد الضمير المستتر فى قوله : (لَمْ يَتَسَنَّهْ) مع أنه راجع إلى الطعام والشراب ، لاعتبارهما غذاءً واحدا ، لتلازمهما .

(وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ) :

وأمره الله أن ينظر إلى حماره ، كيف نخرت عظامه ، وتفرقت أوصاله . على حين بقى الطعام والشراب على حالهما لم يتغير فيهما شىءٌ ؟ وذلك هو موضع الاعتبار الثانى ، الناطق بقدرة الله على الإحياء والبعث .

وقوله تعالى : (وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ) :

معطوف على مقدر يقتضيه المقام . أى : فعلنا ذلك من إحيائك ، وحفظ طعامك وشرابك ، وبِلَى عظَام حمارك ؛ لتدرك صدق إخبارنا : أنك بقيت ميتا مائة عام ؛ ولنجعلك — أنت وهذه الأمور — آية وعلامة يستدل بها الناس الموجودون — وقت بعثك — على عظيم قدرتنا على البعث ، وإحياء الموتى . ويستدل على ذلك أيضا — مَنْ يأتى بعدهم ممن يؤمن بالوحى السماوى ، الذى يروى هذه القصة .

ثم أمره أن ينظر نظرا ثالثا ، فقال :

(وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا) :

المراد منَ العظام : عظام حماره البالية المتفرقة . . طلب إليه أن ينظر كيف يعيد الله تركيبها كما كانت عليه ، بعد إعادة الصلاحية لها ، بأن يرفع بعضها فوق بعض على الشكل الذى كانت عليه ، قبل موت ذلك الحمار . ثم يكسوها لحما ، ثم ينفخ فيه الروح فيعود كما كان جسما وصورة وحركة وصوتا ؛ ليعرف – بالمشاهدة – قدرة الله على إحياء هذه القرية ، التى سأل عنها متعجبا :

(أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) ! !

ويرى بعض المفسرين : أن الحمار بقى حيا لم يمت . على الرغم من مرور هذا الزمن الطويل ، دون أن يأكل الحمار أو يشرب : حفظه الله حيا كما حفظ الطعام غضًّا ، والشراب سائغا هنيئا . وأن العظام – التى أمر أن ينظر إلى إعادتها وكسوتها باللحم – هى عظام أهل هذه القرية التى مر عليها ، وهى خاوية على عروشها ؛ لأن التعجب الصادر منه ، كان بشأن كيفية إعادة سكانها إلى الحياة !

وقيل : هو منظر عظام الأجنة ، وكيفية تكوينها ، ثم إكسائها باللحم ، ثم سريان الحياة فيها بعد هذا التكوين .

وفى قراءة : (نَنشُرُهَا) بالراء أى : نبعثها ، ونحييها بعد الموت . والمؤدَّى فى القراءتين واحد . فأمر الإحياء – على الصورة السابقة – يصدق فيه الانشاز والنشر . فكلاهما فيه إحياء بعد موت ! .

(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

والمعنى : فلما ظهرت أمامه هذه الآيات الثلاث ، واتضح له – بالمشاهدة – كيفية إحياء الله أهل هذه القرية بعد موتهم ، قرر – فى ثقة وإيمان – علمه بأن الله لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه على كل شىء قدير ، وفى جملته : إحياء هذه القرية بعد موتها ! !

قال الآلوسى : والإتيان بصيغة المضارع (أَعْلَمُ)؛ للدلالة على أن علمه بقدرة الله على كل شيء مستمر ؛ لأن أصله لم يتغير . بل تبدل وصفه بالعيان .

فالآلوسى يرى : أن هذا السائل ، كان مؤمنا بقدرة ربه على كل شيء . ومن جملته : إحياء هذه القرية بعد موتها . وأن المعاينة لم تنشئ عنده علما جديدا بذلك . ولهذا عبَّر بصيغة المضارع المفيد للاستمرار . وأن الذى تغيَّر عنده هو وصف العلم . فبعد أن كان علما ناشئا عن استدلال ، انتقل إلى علم ناشيء عن المشاهدة والعيان . فسؤال هذا الرجل ، لا يقتضى أن يكون كافرا ؛ لأنه يقول : (أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) ! أى كيف يحييها ؟ وذلك يشعر بعجزه عن معرفة طريقة إحياء الله تعالى للموتى بعد فناء لحومهم ، وبِلَى عظامهم ، وأنه يبغى معرفة كيفية إحيائها . وذلك لا يدل على أنه كان كافرا . بل الظاهر أنه مؤمن بالله . فقد نطق باسمه الكريم : فقال :(أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) ؟ وإنما سأل عن كيفية الإحياء ، ليراها فيزداد يقينا بقدرة الله على رد الحياة بعد اليأس . على حَدِّ قول إبراهيم ــ عليه السلام ــ لربه : « ... رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ... »[1] .

ولعل اقتران القصتين ، كان من أجل اشتراكهما فى هذا الغرض .

أما القول بأنه كان كافرًا ، فلا دليل عليه . . بل ماجرى منه فى القصة ، يبعد أن يجرى على لسان كافر . فنى تحريه الصدق بقوله : (لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) . ثم قوله بعد ذلك : (أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) مايرجح إيمانه .

هذا ، ومغزى القصة : أن هذا الرجل تولاه الله ، فبين له الرشد من الغى ، فاستجاب لهذا التوجيه ، وازداد إيمانه ، ولم يركب رأسه عنادًا كالكافر المذكور فى القصة السابقة .

---

(١) البقرة من الآية : ٢٦٠

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)) .

المفردات :

(بَلَى) : إيجاب لما بعد النفي السابق . والمراد : نعم ، آمنت .

(لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) : ليزداد يقينا بالقيامة ، بعد خبر الوَحْي والبرهان .

(فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) : أَمِلْهن واضممهن إليك .

التفسير

٢٦٠ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى . . .) الآية .

هذه هي القصة الثالثة عن الموت والحياة . وهي القصة الثانية : عن إبراهيم عليه السلام .

وقد جاء ترتيب النصوص الثلاث في تناسق تصاعدي .

فالأُولى : قصة كافر تبيَّنَ له الرشد من الغيّ ، فأَصَرَّ على الكفر .

والثانية : قصة رجل التمس معرفة كيفية البعث ، فلما بينها الله له ، أقر بعلمه بقدرة الله تعالى .

والثالثة : قصة نبي زاده الحق إيمانا وتثبيتا .

والعبرة بأغراض القصص الثلاث ، لا بالتتابع التاريخي أو الزمني .

ولهذا ذكرت القصة الثانية بين قصتى إبراهيم عليه السلام . قال تعالى :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) : ؟

والمعنى: واذكر يا محمد ، حين نادى إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه ، طالبا منه أن يريه ـ عمليا ـ كيفية إحياء الموتى .

والسؤال يدل على أنه يؤمن بإحياء الموتى ، ولكنه يطلب رؤية طريقة الإحياء عمليا ؛ ليزداد إيمانا ويقينا .

(قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن) : ؟

أى لقد آمنتَ . فلماذا تسأل هذا السؤال ؟ .

(قَالَ بَلَى وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) :

اعْلَمْ أن الله تعالى عَليم بإيمان نبيه وخليله إبراهيم ، وليس بحاجة إلى استفهام عنه . لكن الحكمة فى ذلك : أن يعلن إبراهيم إيمانه العميق بقدرة الله ، حتى لايتطرق إلى الأذهان ، أن إبراهيم حين سأل ذلك ـ خطر له أى شك فى الله .

فالسؤال فى الحقيقة : سؤال تقرير .

ولهذا أجابه إبراهيم مؤكدا إيمانه ، نافيا عن نفسه أية خاطرة من الشك أو الارتياب .

فقال : بلى . آمنت . ثم علل سؤاله لربه بحرصه على الاطمئنان القلبى ـ عن طريق المشاهدة والعيان ، إلى جانب طريق الوحى والبرهان ـ ليزداد إيمانه ثباتا فوق ثبات .

والله يثبت إيمان أنبيائه وأوليائه دائما فيقول : « ... كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا »[1] .

---

(١) الفرقان : من الآية ٣٢

ويقول جل شأنه : « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ . . . »[1] .

ولهذا ، ثبت الله إيمان إبراهيم وطمأنه، فأراه كيف يحيى الموتى ، كما سيأتى بيانه .

(قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا) :

أمره الله سبحانه، أن يأخذ أربَعَةً من الطير ، وأن يضمهن إليه ؛ ليتأمل فى كل منها فيعرف – معرفة يقينية – مميزات كل طائر عن غيره ، حتى إذا ذبحها وفرق أجزاءها – مختلطة على الجبال التى حوله – ضَمَّ الله أجزاء كل طائر ، وأعاده إلى ما كان عليه : جسما وصورة وحركة .

ويروى : أن كل طير كان من نوع يخالف نوع الآخر .

قال أبو السعود : وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل ، ويُمْنِ الضراعة فى الدعاء ، وحسن الأدب فى السؤال ، حيث أراه الله تعالى ما سأل – فى الحال – على أيسر ما يكون من الوجوه . ا . هـ .

ولما كانت هذه القصص الثلاث ، مسوقة للدلالة على قدرة الله على بعث الموتى وإحيائهم للحساب والجزاء – ختمها مخاطبا كل مكلف بقوله :

(وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) :

أى واعلم أيها المكلف – بعد تلك الحجج القاطعة – أن الله تعالى غالب لا يعجزه شىء أراده . حكيم فى أفعاله .

وإذا كان الأمر كذلك ، وجب الإيمان بالبعث ، وإدراك الحكمة فيه ، وهى : أن يجزى الله المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

---

(١) إبراهيم : من الآية ٢٧

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)) .

المفـردات :

(فِى سَبِيلِ اللهِ) : أى فى طريقه الموصل إلى مرضاته ، والمراد منه : الجهاد ، وأعمال البر المتنوعة .

(سَنَابِلَ) : جمع سنبلة وهى : ما يتكون فيه الحب .

(يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ) : يزيد الأَجر لمن يشاءُ من أَهل الإحسان ،على النحو الذى يشاؤُه من الزيادة . كسبعمائة وما دونها ، وأَكثر منها .

والضعف : المثل .

(وَاسِعٌ) : جزيل الثواب .

التفسير

٢٦١ ـ (مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ . . .) الآية .

لما قص الله ما فى القصص السابقة من البراهين على البعث ، حث على الإنفاق فى سبيل الله ؛ لينال المنفقون ثوابهم بعد البعث الذى أَثبته الله لهم بتلك البراهين . فقال جل ثناؤُه :

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ . . .) الآية .

سبب النزول :

رُوى أن هذه الآية نزلت فى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما حث الناس على الصدقة ـ حين أراد

الخروج إلى غزوة تبوك ـ جاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، وقال : أقرضتها لربى . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بارك الله لك فيما أمسكت ، وفيما أعطيت » .

وقال عثمان : يا رسول الله ، علىَّ جهازُ مَنْ لا جهاز له . فنزلت الآية فيهما .

وقيل : نزلت فى نفقة التطوع .

والمعنى : أراد الله ـ تعالى ـ أن يصور لعباده الثواب العظيم ، الذى ينالونه على الإنفاق فى سبيل الله ، الشامل للجهاد ووجوه البر المتنوعة ، فضرب لهم فى ذلك مثلا مشاهداً ؛ ليحثهم ، ويحرضهم على مواصلة الإنفاق فيه ، فَشَبَّه لهم الذين ينفقون أموالهم لوجه الله سبحانه ـ بالزارع المفلح الناجح ، الذى يضع الحبة فى الأرض الطيبة فتنبت نباتا حسنًا ، ويتضاعف خيرها وثمرها ، فيخرج منها سبع سنابل ، فى كل سنبلة منها مائة حبة ، فيكون المجموع سبعمائة حبة .

ثم عقب الله بقوله :

(وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ) :

أى يضاعف تلك المضاعفة ، أو دونها أو فوقها لمن يشاء ، حسب حال المنفق ، من إخلاصه وتعبه .

(وَاللَّهُ وَاسِعٌ) :

كثير الجود ، فلا يضيق بهذه المضاعفة .

(عَلِيمٌ) :

بنيَّةِ المنفق ، ومصدر ما ينفقه ، ومقداره ، فيجازيه حسب حاله .

روى مسلم ، وأحمد ، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال :

« كل عمل ابنِ آدم يضاعف : الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما شاء الله . . . » الحديث .

والمقصود من العدد هنا : الدلالة على الكثرة ، لا التحديد .

(ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾) .

المفـردات :

(مَنًّا) : المن ؛ أن يذكر المنفق لمن أحسن إليه فضله ؛ مستوجبا به حقه عليه .

(أَذًى) : الأذى هنا ؛ أن يتطاول المنفق على آخذ الصدقة بالقول أو العمل .

التفسير

٢٦٢ ـ (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنًّا وَلَآ أَذًى ...) الآية .

هذه الآية مستأنفة، جيء بها لبيان كيفية الإنفاق المستتبع لمضاعفة الثواب، التى مرت فى الآية السابقة .

ومعنى الآية : الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله، من جهاد وغيره من وجوه البر؛ ابتغاء مرضاته تعالى ، ثم لا يُتْبِعون ما أنفقوا منًّا على من أنفقوا عليهم : بأن يَذْكُرُوا لهم إحسانهم ويعتدوا به عليهم ولا يفهمونهم أنهم أوجبوا به حقًّا عليهم ، ولا يتبعونه أذى لهم بالقول ، أو بالفعل – هؤلاء :

(لَهُمْ أَجْرُهُمْ) :

الذى سبق بيانه فى الآية السابقة .

(عِندَ رَبِّهِمْ) :

فى دار الكرامة والمثوبة .

(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

فى الدارين من لحوق مكروه بهم .

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

على فوت مطلوب لهم ، فمطالبهم حاضرة بين أيديهم ، ومسراتهم دائمة بين جوانحهم .

(قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)) :

المفـردات :

(قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ) : المعروف ، اسم لكل فعل يُعرف حسنُه . والمراد بالقول المعروف هنا . القول الجميل ، للسائل .

(ومَغْفِرَةٌ) : المغفرة ، عدم العقوبة .

(حَلِيمٌ) : لا يعاجل بالعقوبة .

التفسير

٢٦٣ - (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ....) الآية .

القول المعروف : أن يرد المسئولُ على من يسأله الصدقة بالقول الجميل ، الذى تقبله النفوس ولا تنكره ، ولا تتأذى منه ، كأن يعتذر إليه بعدم استطاعته ، أو يَعِدَه بالمعاونة فى المستقبل ، أو يدعو له بالتيسير والفرج . والمغفرة له : هى العفو عنه إذا وجد منه إلحاحا فى الطلب ، أو ثقلا فى السؤال .

والآية الكريمة تفيد : أن المسئول إذا سلك مع السائل هذا المسلك ، فإنه يكون أحسن وأفضل من أن يعطيه صدقة ، ثم يتبعها تطاولَه عليه ، أو إيذاءه له بقول أو عمل .

(وَاللهُ غَنِيٌّ) :

فلا يحوج الفقراء إلى تحمل مئونة المن والأذى ، بل يرزقهم من جهة أخرى .

(حَلِيمٌ) :

لا يعجل بالعقوبة لأصحاب المن والأذى ؛ لعلهم يتوبون .

فعلى الغنيّ المسلم : أن يتعظ بهذا التذكير ، فيعطى بلا منّ ولا إيذاء ؛ أو يرد السائل ردًّا جميلا ، مع حسن الاحتمال لما يثقل من السائل .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾)

المفردات :

(لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم) : لا تبطلوا ثوابها بالمنّ أو الأذى .

(رِئَاءَ النَّاسِ) : مراءاة للناس .

(صَفْوَانٍ) : الصفوان ؛ الحجر الأملس .

(وَابِلٌ) : الوابل ؛ أشد المطر ، أو المطر العظيم القطْر .

(صَلْدًا) : الصلد ؛ الحجر الصُّلب .

التفسير

٢٦٤ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى . . .) الآية .

يأيها الذين آمنوا لا تضيعوا على أنفسكم ثواب صدقاتكم بالفخر على الفقراء ، الذين تدفعونها إليهم ، أو بالتطاول عليهم ، وإيذائهم بالقول أو الفعل .

(كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) :

شبهت الآية الكريمة المتصدق الذى يُتْبِعُ صدقاته بالمن والأذى ، بالذى يتصدق بالأموال ؛ ليرائى بها الناس ، وهو - مع هذا - لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر . فهو لا يرجو ثوابًا ، ولا يخشى عقابًا من الله ، بل يلتمس بصدقته رضوان الناس ، لا رضوان الله .

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا) :

شبه الله المرائى ونفقته التى لا ثواب لها ، بحجر أملس عليه تراب ، هطل عليه وابل أى مطر شديد ضخم القطر ، فأزال عنه التراب ، وتركه ناعمًا أملس خاليًا من التراب .

والغرض من هذا التشبيه : أن المرائى بنفقته ، الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر : لا ثواب له كما سيأتى التصريح به .

(لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا) :

أى هؤلاء الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، لا يقدرون يوم القيامة على نيل ثواب شىء مما بذلوه فى الدنيا ؛ لأنهم لم يعملوا لمعادهم ، ولا لطلب ما عند الله فى الآخرة .

وإذا كان هذا الضياعُ مآل أولئك المرائين ، فكذلك مآل من يشبههم ، وهم الذين يبطلون ثواب ما أنفقوا بالمن والأذى .

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) :

والله سبحانه وتعالى لا يوفق هؤلاء الكفار لإصابة الحق فى نفقاتهم ؛ لأنهم آثروا الرياء على ابتغاء مرضاة الله ، فتركهم فى ضلالهم يعمهون .

وقد نهى الله المؤمنين -بهذا التشبيه- عن أن ينزلقوا فيما انزلق فيه هؤلاء الكفار . فإن في الآية تعريضًا بأن كُلاً من : الرياء ، والمن والأذى ، من خصائص الكفار ، ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوها .

(وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ج فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾) .

المفـردات :

(ابْتِغَآءَ مَرْضَاةِ اللهِ) : طلبًا لرضا الله سبحانه .

(وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) : أى وتثبيتًا للبذل والإنفاق فى أنفسهم ، حتى يكون ذلك عادة لها ، فلا تتردد فيه .

(جَنَّةٍ) : الجنة ؛ البستان .

(بِرَبْوَةٍ) : الربوة ؛ المكان المرتفع عن الأرض .

(فَآتَتْ أُكُلَهَا) : أعطت مأكولها وثمرها .

(ضِعْفَيْنِ) : مثلين . أى مثلَىْ ما كان يعهد منها ، أو مثلَىْ ما يعطيه غيرها عادة .

(وَابِلٌ) : مطر عظيم القطر .

(فَطَلٌّ) : مطر خفيف ، صغير القطر ، وهو الرذاذ .

التفسير

٢٦٥ - (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ . . .) الآية .

لما نهى الله المؤمنين- فى الآية السابقة -عن أن يبطلوا صدقاتهم بالمنّ بها على من أعطوهم ، وزجرهم عن أن يؤذوهم بتعدادها والفخر بها عليهم ، وحذرهم من مشابهة المرائين بالنفقات ، فإن الرياء والمن والأذى من صفات الكافرين - أتبع ذلك بيان جزاء الإنفاق فى سبيل الله ، ومعناه : ومثل إنفاق المؤمنين الذين ينفقون أموالهم فى وجوه البِرّ ؛ طلبا لمرضاة الله تعالى ؛ وتثبيتًا للبذل من أنفسهم ؛ حتى يصبح الإنفاق فى سبيل الله عادة لنفوسهم ، وطبيعة فطرية لها ، فلا يترددوا فى وضع صدقاتهم فى مواضعها الجايرة بها كلما دعا داع إلى ذلك - مثل هذا الإنفاق ، كمثل بستان بمكان مرتفع من الأرض تجود فيه الأشجار ، وتزكو الثمار : أنعم الله عليه بالماء الغزير ، فزاد ذلك فى خصبه ، وضاعف من ثماره ، فأعطى أصحابه من الثمار ضعفين ؛ لطيب تربته ، وغزارة مائه .

ثم يقول الله تعالى :

(فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ) :

فرذاذ يكفيها ؛ لتجود بثمرها ، فهى - فى كلتا الحالين - مثمرة نافعة .

وهذا مثل ضربه الله- تعالى- للطائعين المنفقين فى سبيل الله بحسب نياتهم ونفقاتهم ، فكلما حسنت نياتهم ، وزاد بذلهم فى نفقاتهم فى سبيل الله- تضاعف ثوابهم كما يتضاعف ثمر البستان المرتفع : الطيب التربة ، الغزير المطر .

وإن حسنت نياتهم وقلّ بذلهم وإنفاقهم فى سبيل الله وعندهم الكثير ، أثيبوا كذلك على قدر بذلهم ونياتهم ، كما يثمر البستان المرتفع الخصب : الذى يصيبه الطل ويسقى نباته المطر القليل .

قال الآلوسى : وخلاصة هذا التشبيه : أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله ، لا تضيع بحال ، وإن كانت تتفاوت بحسب تفاوت ما يوازنها من الإخلاص والتعب وحب المال ، والإيصال إلى الأحوج التقى وغير ذلك .

ثم ختمت الآية بقوله تعالى :

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

للإيذان بأنه مطلع على أعمالهم ، فيعلم قلتها وكثرتها ، وإخلاصهم فيها إن أخلصوا ، ودرجة هذا الإخلاص ، ويعلم رياءهم فيها إن لم يخلصوا ، ودرجة هذا الرياء ، وأنه يجازى كلاًّ على حسب حاله .

فنى هذه الجملة : ترغيب للمنفقين فى الإخلاص ، ووعيد للمرائين ، وتحذير لهم من عاقبة الرياء .

وفى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشُّركاء عَنِ الشِّرْك ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيْرِى، تَرَكْتُهُ وَشَرِيكَهُ » .

(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾) .

المفردات :

(إِعْصَارٌ) : الإعصار ؛ الريح التى تهب بشدة فتجتاح ما أمامها .

التفسير

٢٦٦ ـ (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ . . .) الآية .

الاستفهام هنا ، للنفى . والمعنى : لايحب أحد أن يحدث له ما أوردته الآية الكريمة ، وهو : أن يكون له بستان فيه نخيل وأعناب - وهما من أنفس أشجار الفواكه المعروفة وأكثرها نفعًا - والأنهار تتخلل هذه الأشجار ، ويملك فى هذا البستان - إلى جانب النوعين السابقين - جميع أنواع الأشجار المثمرة ، ثم يصيبه التلف .؟! على ماسيأتى بيانه فى بقية الآية .

(وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ) :

أى وتقدمت السن بصاحب هذا البستان ، فصار شيخًا كبيرًا ، عاجزًا عن الكسب ، على حين أن له أولادا ضعافًا لا يقدرون على الكسب . . وهذه الحديقة هى مصدر أرزاقهم ومعاشهم .

(فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ) :

فأصابت الحديقةَ - بغتةً - ريحٌ عاصفة مدمرة : فيها نار شديدة ، فاحترقت .

يروى : أن عُمَرَ سأل عن هذه بعضَ الصحابة ، فقالوا : الله أعلم . فقال عُمَرُ : قولوا : نعلم أو لا نعلم .

فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء ، يا أميرَ المؤمنين .

فقال عمرُ : قل يا ابن أخى ، ولا تحقر نفسك. فقال ابن عباس : ضُرِبَتُ مثلا لعمل .

فقال عمرُ : لأى عمل ؟

فقال ابن عباس : لرجل غنىٍّ يعمل الحسنات ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق - أو أحرق - أعماله كلَّها .

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) :

أى مثل ذلك البيان الواضح ، يوضح الله لكم الآيات ، لكى تتفكروا وتعتبروا بما فيها من العظات وتعملوا بموجبها .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾) .

المفـردات :

(مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ) : مِن حلال ما كسبتم وخياره .

(وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ) : أى ومن طيبات ما أخرجناه لكم من باطن الأرض من النبات والحبوب والثمار والمعادن وغيرها .

(وَلَا تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ) : لا تقصدوا ـ بما تنفقون ـ الردىء والحرام .
والتيمم فى اللغة : القصد .

(أن تُغْمِضُوا فِيهِ) : الإغماض فى اللغة ؛ غض البصر . مأخوذ من الغموض ، وهو الخفاء . والمراد هنا : أن تتسامحوا فى أخذه وتترخصوا فيه .

(حَمِيدٌ) : محمود على نعمه ، أو حامد أى مكافئ لمن أنفق فى سبيله من الطيبات .

التفسير

٢٦٧ ـ (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ...) الآية .

سبب النزول : روى الحاكم فى المستدرك ـ وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر بزكاة الفطر ، فجاء رجل بتمر ردىء ، فنزلت الآية .

وروى ابن أبى حاتم والترمذى ، عن البراء بن عازب ـ فى الآية ـ قال :

« نزلت فينا معشرَ الأنصار : كنا أصحاب نخل ، فكان الرجل يأتى من نخله على

قدر كثرته وقلته . وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين [1] ، فيعلقه بالمسجد . وكان أهل الصُّفَّة ليس لهم طعام ، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو ، فضربه بعصاه ، فيسقط البسر والتمر فيأكل . وكان ناس ممن لا يرغب فى الخير ، يأتى الرجل بالقنو فيه الشيص والحشف - والشيص : ردئُ التمر . والحشف : أردأ التمر - وبالقنو قد انكسر فيعلقه ، فأنزل الله تبارك وتعالى :

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ) :

قال : لو أن أحدكم أهدى إليه مثل ما أعطى ، لم يأخذه إلا على إغماض أو حياء ، قال : فكنا بعد ذلك ، يأتى أحدنا بصالح ما عنده » .

قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا أنفقوا من جيِّد ما كسبتم وحلاله ، وأنفقوا من طيبات ما أخرجه الله لكم من جوف الأرض ، سواء كان من النبات ، أم المعادن ، أم غير ذلك . ولا تقصدوا الردىء من أموالكم ، أو الحرام منها لتُنْفِقُوا منه .

(وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ) :

أى أنكم لو أعطاكم أحد من هذا الصنف ، ماقبلتموه ولا أخذتموه إلا تساهلا فى بعض حقكم . فأعطوا الناس مثل ما تحبون أن تأخذوه .

(وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ) :

فلا يدعوكم إلى الإنفاق فى سبيله لحاجة أو عوز ، ولكنه يأمركم به لمنفعتكم . وأنه مستحق للحمد ، لأنه هو الذى يرزقكم هذه الأموال ، ويثيبكم على ما أنفقتموه منها .

(ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾) .

المفردات :

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ) : يخوفكم من الفقر إذا أنفقتم شيئا من الأموال أو الثمرات .

(١) القنو فى التمر ، بمنزلة العنقود من العنب .

والوعد : يستعمل فى الخير أكثر من الشر ، وهو هنا ، مستعمل فى الشر ، كما فى قوله تعالى: « النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا »[1] .

(وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ) : أى ويحضكم على البخل بالصدقات . فالمراد بالفحشاء هنا : البخل . والعرب تطلق كلمة الفاحش : على البخيل . ومنه قول طرفة بن العبد :

أرى الموتَ يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد[2]

وقيل : المراد بالفحشاء ؛ جميع المعاصى .

(وَفَضْلاً) : أى زيادة فى الرزق ، أو ثوابا فى الآخرة ، أو الأمرين جميعا .

(وَاسِعٌ) : أى صاحب سعة . والمراد بها هنا : سعة النعمة والمغفرة .

التفسير

٢٦٨ - (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ . . .) الآية .

لما رغَّب الله تعالى عباده فى الإنفاق من أجود ما يملكون ، حذَّرهم بعد ذلك من وسوسة الشيطان فقال :

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ) : أى يقول لكم إن تصدقتم افتقرتم .

(وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَآءِ) : أى يحضكم على البخل بأموالكم وحبسها عن وجوه البر ؛ لتبقى لكم ، فتظلوا أغنياء ، ويعرضكم بوساوسه هذه للبعد عن رضا الله ورحمته .

(وَاللهُ يَعِدُكُمْ) : على الإنفاق فى سبيله .

(مَّغْفِرَةً مِّنْهُ) : لذنوبكم .

(وَفَضْلًا) : أى زيادة فى الخير لكم بالبركة فى المال ، والسعة فى الرزق ، والثواب فى الآخرة . فلا تثقوا بوعد الشيطان ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، فإنه عدوٌّ لكم ، وثقوا بوعد الله فإنه ربكم وهو أرحم بكم ، وأعلم بما فيه صلاحكم .

(وَاللهُ وَاسِعٌ) : يسع بمغفرته وفضله من أطاعوه فيما أمر ، وانتهوا عما حذر منه وأنذر .

(عَلِيمٌ) : بكل شىء ، فلا يخفى عليه من أطاع شيطانه وهواه ، ومن امتثل أوامر مولاه .

---

(١) الحج من الآية : ٧٢ (٢) يعتام : بمعنى يختار . عقيلة مال : أى خيره ، المتشدد : الشديد البخل .

(يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾) .

المفردات :

(الْحِكْمَةَ) : هى إصابة الحق ، فى قول أو فعل أو رأى . وهى من الملكات النفسية العليا ، التى يمنحها الله مَن هو أهل لها .

التفسير

٢٦٩ - (يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ . . .) الآية .

أى : يعطى الله فضل التمييز بين الحق والباطل ، من يشاء من عباده الأخيار ، فيختار الحق ويعمل بمقتضاه ، ويذر الباطل ويبعد عن طريقه .

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا) :

ومن يعطه الله نعمة التمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والصواب والخطإ يبعده عن المعاطب ، ويصل به إلى السلامة والنجاة .

(وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ) :

وما يتفكر كما يتفكر أهل الحكمة ، أو يتعظ اتعاظهم ، إلا أصحاب العقول الخالصة ، من شوائب الغباء والجهل ، ومتابعة الهوى ، ووساوس الشيطان .

(وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾) .

المفردات :

(مِن نَّفَقَةٍ) : النفقة ، ما ينفقه الإنسان من المال فى خير أو شر .

(مِن نَّذْرٍ) : النذر : هو مايوجبه الإنسان على نفسه ، من غير أن يلزمه الله به قبل نذره ، ثم يصير – بالنذر – واجب الأداء شرعًا .

التفسير

٢٧٠ – (وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ . . .) الآية .

هذه الآية مسوقة للحث على تنقية النفقات والنذور ، وتخليصهما من شوائب الشر .

ومعناها : وما أنفقتم – أيها المكلفون – من نَفَقَةٍ قليلة أو كثيرة ، أو نذرتم من نذر هَانَ أو عظُم ، فإن الله يعلمه بجميع أحواله وأوصافه ، من طيِّب أو خبيث ، قلّة أو كثرة ، ابتغاء وجه الله به ، أو ابتغاء وجه سواه ، وتوجيهه إلى مايرضى الله أوما يغضبه ، ويجازيكم عليه .

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ) :

الذين يضعون الأمور في غير مواضعها ، ويبذلون المال فى غير وجوهه المشروعة ، ويضنون به على مستحقيه .

(مِنْ أَنصَارٍ) :

يمنعونهم من عذاب الله على ظلمهم .

(إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾) .

المفردات :

(إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ) : إن تظهروها بحيث يراها الناس ليقتدوا بكم .

(فَنِعِمَّا هِيَ) : فنعم شيئا هذه الصدقات التى أبديتموها .

وفى الكلام مضاف مقدر ، أى : فنعما إظهارُها .

التفسير

٢٧١ - (إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ...) الآية .

أى إن تظهروا الصدقات المفروضة أو المتطوع بها - وأنتم تدفعونها لمستحقيها من المحتاجين - فنعم شيئا إظهارها ، لما فيه من نفى تهمة البخل عنكم ، وحمل الغير على الاقتداء فى التصدق بكم .

(وَإِن تُخْفُوهَا) :

أى تستروها عن أعين الناس ، ابتعادا عن مظنّة الرياء والنفاق ، وحماية لآخذيها من موقف الذلّ والهوان أمام الناس .

(وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ) :

أى تعطوها من يستحقها من الفقراء ، بعد التأكد من فقرهم بالتحرى عنهم ، لتقع الموقع الشرعى المطلوب .

(فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) :

فالإخفاء خير لكم وأفضل عند الله من الإظهار .

(وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ) : (مِنْ) : بمعنى بعض .

أى والله يكفر عنكم بعض ذنوبكم ، فإن الصدقات يُكفَّرُ بها بعض السيئات ، لا جميعها .

وقد دلت هذه الآية ، على أن الصدقة سرًّا ، أفضل من الصدقة علنًا .

قال الآلوسى : والأكثرون على أن هذه الأفضلية فيما إذا كان - كل من صدقتى السر والعلانية - تطوعا مِمَّنْ لم يعرف بمال « أى لم يعرف بغنى » وإلا فإبداء الفرض لغيره « أى لغير المتطوع المذكور » أفضل لنفى التهمة ، وكذا الإظهار أفضل لمن يقتدى به وأَمِنَ نَفْسَه . انتهى .

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - « صدقةُ السِّر فى التطوع تفضل على علانيتها سبعين ضعفا ، وصدقةُ الفريضة علانيتُها أفضلُ من سرِّها بخمسة وعشرين ضعفا ، وكذلك جميع الفرائض والنوافل فى الأشياء كلها » انتهى .

وفضل صدقة السر على صدقة العلانية ، يؤيدها ما رواه الشيخان مرفوعا أنه صلى الله عليه وسلم - قال : « سبعة يُظِلُّهم الله تعالى فى ظلِّهِ يوم لا ظلَّ إلا ظله : إمام عَدْل ، وشابٌّ نشأ فى عبادة الله ، ورجلٌ قلبه معلَّق فى المساجد ، ورجلان تحابَّا فى الله : اجتمعا عليه وتفرّقا عليه ، ورجلٌ دَعَتْهُ امرأَةٌ ذاتُ منصبٍ وجمال فقال : إنى أخافُ الله ، ورجلٌ تَصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلمَ شِمَالُه ماتنفقُ يمينُه ، ورجلٌ ذكر اللهَ خاليا ففاضَتْ عَيْناه »[1] .

وأخرج الطبرانى مرفوعا : « إنَّ صدقَةَ السِّرِّ تُطفِئ غضَبَ الرَّبِّ » .

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

فهو يعلم جميع أعمالكم سرها وجهرها ، ويعلم صدقاتكم ودوافعها .

(لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾) .

المفردات :

(هُدَاهُمْ) : الهدى لغة : الدلالة والإرشاد ، وقد يطلق على الاهتداء والرشاد ، وهو المراد هنا . تقول : هديته فهدى واهتدى أى أرشدته ودللته فرشد واهتدى .

(ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ) : طلبا لوجهه سبحانه ، والمراد بوجه الله : ذاته ، أو جهته .

التفسير

٢٧٢ - (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ...) الآية .

كان - النبى صلى الله عليه وسلم - حريصا على أن يهتدى الناس لما هداهم إليه . وكان يبذل فى ذلك أشد الجهد ، ويتحمل فى سبيله عبئا نفسيًّا شديدا .

---

(١) النص للبخارى فى باب الصدقة باليمين .

فأنزل الله عليه هذه الآية ، ليخفف عنه أعباءه النفسية ، ببيان أنه ليس عليه سوى التبليغ . وأما الاهتداء ، فمن الله . وأن من أحسن فلنفسه .

والآية متوسطة بين آيات الحث على الإنفاق ، مبالغة فى حمل المخاطبين على الامتثال .

وإلى هذا ذهب الحسن وأبو على الجبائى .

والمعنى : ليس واجبا عليك يامحمد ، أن تجعل هؤلاء المأمورين بتلك المحاسن ، المنهيين عن أضدادها - مهتدين إليها عاملين بها فعلا ، فذلك ليس من شأنك ، ولست مكلفا به ، ولكنه شأن الله الذى يهدى من يشاء إلى الخير ، وهم أولئك الذين اتجهوا باختيارهم إليه ، فيعينهم ويوفقهم ويهديهم .

واتجه بعض المفسرين إلى أن الضمير فى (هُدَاهُمْ) لايرجع إلى من أمروا بالنفقة فى الآيات السابقة واللاحقة ، بل يرجع إلى الكفار ، وإن لم يُذْكَروا ، مراعاة لسبب النزول .

فقد أخرج ابن أبى حاتم وغيره ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يأمرنا ألّا نتصدق إلّا على أهل الإسلام ، حتى نزلت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير عنه قال : « كان أناس من الأنصار لهم أنسباء وقرابة . وكانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ، ويريدونهم أن يسلموا ... فنزلت » .

وأخرج ابن أبى شيبة ، عن سعيد بن جبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تَصَدَّقُوا إلَّا على أهْلِ دِينِكم » فأنزل الله تعالى : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) .

والمعنى على هذا الرأى : ليس واجبا عليك أن تُلْجِئ هؤلاء الكافرين إلى الإسلام ، إن عليك إلا البلاغ ، وقد فعلت ، فلا تجعل التصدق عليهم منوطا بإسلامهم .

والآية على هذا ، لاتعتبر بعيدة عما قبلها وما بعدها من آيات الإنفاق ، إذ هى لإباحة الإنفاق على من خالفنا فى الدين .

(وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ) :

أى وما تنفقوا فى الوجوه المشروعة من مال طيب .

(فَلِأَنفُسِكُمْ) :

لا يعود نفعه إلا عليكم ، فلا تنفقوا من الخبيث ، ولا تبطلوه بالمَنّ والأذى ، ومراءاة الناس .

أو ، فلا تمنعوه عن الفقراء من الكفار ، فإن نفعكم به دينى ، ونفع الكافرين به دنيوى ، فلا يُصَدُّ عنهم ؛ لأن الإسلام لا يمنع البِرَّ عن الناس ، مهما كان دينهم .

(وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ) : الجملة معطوفة على ما قبلها ، أو حال .

والمعنى : وماتنفقون من الخير – لسبب من الأسباب – إلا ابتغاء وجه الله ، وطلبا لرضاه .

وإذا كان أمركم كذلك ، فلا يضيركم أن تعطوا منه الفقراء الكفار ، فلا تمنعوهم إياه ، فإن لكم ثوابه .

ويجوز أن يكون النفى فيها بمعنى النهى ، أى لا تنفقوا الخير إلا لوجهه تعالى ، لا رياء ولا لغرض من الأغراض الدنيوية[1] .

(وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ) التوفية : إكمال الشىء .

أى وما تنفقوا من خير تُعْطَوْن جزاءه وافرا وافيا ، فلا عذر لكم فى أن ترغبوا عن إنفاقه ، على أن يكون على أحسن الوجوه وأجملها .

وقيل : المعنى : يوف إليكم خلفه فى الدنيا ، ولا ينقص به من مالكم شىء .

نقول : ولا يمنع هذا ثواب الآخرة .

(وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) : أى لاتنقصون شيئا مما وُعدتم به من الثواب .

---

(١) وبما أنه تعالى ليس كمثله شىء ، فالمراد بوجه الله : ذاته أو جهته . وعلى كل ، فالمقصود من التعبير به فى العرف اللغوى : الإخلاص وعدم الإشراك . أى ماتنفقون إلا ابتغاء الله تعالى ، دون أن يكون لكم مأرب آخر سوى رضاه سبحانه .

وإذا كانت الجملة خبرية ، ففيها شهادة من الله تعالى لأصحاب رسوله ، وثناء عليهم بأنهم مخلصون فى إنفاقهم ، فلايبتغون به سواه سبحانه .

وفى الآية : دليل على جواز دفع صدقة التطوع للكافر .

أما الصدقة المفروضة فى المال والزرع ونحوها - أى الزكاة - فلا يجوز دفعها له .

(لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾) .

المفردات :

(أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ) : حبسوا فى سبيله تعالى بالجهاد ، أو العمل فى مرضاته .

(ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ) : سَعيا فيها للتكسب .

(مِنَ التَّعَفُّفِ) : من أجل تعففهم وامتناعهم عن السؤال .

(تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ) : أى بعلامتهم كرِقَّةِ الحال ، أو صُفْرَةِ الوجه أو نحوهما .

(لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) : لا يسألونهم - ملحين فى السؤال - حتى يعطوا .

التفسير

٢٧٣ - (لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ ...) الآية .

سبب النزول : نزلت فى أهل الصفة ، وكانوا نحو ثلاثمائة من فقراء المهاجرين يسكنون سقيفة مسجد المدينة ، يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والجهاد ، وكانوا يخرجون فى كل سرية يبعثها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

قاله ابن عباس ومحمد بن كعب القُرَظى .

وعن سعيد بن جبير : هم قوم أصابتهم الجراحات فى سبيل الله ، فصاروا زَمْنَى ، فجعل الله لهم فى أموال المسلمين حقًّا .

نقول : والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب . فكل من كان على مثل حالهم ، يستحق الصدقة . وكذا . كل من كان كسبه لا يكفيه . .

(لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ) :

أى اجعلوا صدقاتكم للفقراء الذين حبسهم عن التكسب العملُ فى سبيل الله ، كالجهاد وطلب العلم ؛ لأنهم بسبب ذلك - لايستطيعون سعيا فى الأرض للتكسب وجلب الرزق .

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) :

أى يظنهم من لايعرف حالهم - أغنياء : لا يستحقون الصدقة من أجل تعففهم ، وامتناعهم عن السؤال .

(تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) :

أى تعرف فقرهم بعلامتهم الملازمة لهم ، المنبهة لفقرهم . وهى صفرة الوجوه ، والجهد والانكسار ونحو ذلك .

والخطاب فى (تَعْرِفُهُمْ) عام للرسول - صلى الله عليه وسلم - وغيره ممن يَنْظُر حالهم .

(لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا): أى لا يسألون الناس مُلِحِّين فى السؤال ، كعادة الفقراء .

والمراد : أنهم لا يسألون الناس أصلا ، كما قاله ابن عباس .

ومن أجل ذلك جُهِل حالهم ، ولم يُعْرَفوا إلا استنباطا من علاماتهم .

فالنَّفْى هنا موجه ، للأمرين جميعا : السؤال ، والإلحاح .

وإلى هذا ذهب الفراء ، والزجاج ، وأكثر المفسرين .

وقيل : المراد ، أنهم لا يسألون ، وإن سألوا عن ضرورة - لم يلحوا .

والأول هو الراجح .

(وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) :

فيجازيكم عليه ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، وهو ترغيب فى الإنفاق عموما ، وعلى هؤلاء خصوصا .

أخرج البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لَيْسَ المسكين الَّذى تَردُّهُ التمرةُ والتَّمرتان ، واللُّقمةُ واللُّقمتانِ ، إنما المسكينُ الذى يَتعفَّفُ ، واقرءوا إن شئتم قوله تعالى : (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) .

* * *

(ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾) .

التفسير

٢٧٤ ـ (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ...) الآية .

لما بين الله فى الآية السابقة أَوْلَى الناس بالصدقة ، بيَّن فى هذه أكملَ وجوه الإنفاق .

سبب النزول :

أخرج ابن المنذر ، عن ابن المسيب : أن الآية نزلت فى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، فى نفقتهم فى جيش العسرة .

وَرُوِىَ غَيْرُ ذلك .

والآية عامة الحكم ، وإن نزلت بسبب خاص .

(الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ) :

أى فى جميع الأوقات ، فلا يخصون وقتا دون وقت .

(سِرًّا وَعَلَانِيَةً) : أى فى جميع الأحوال ، فلا يلتزمون حالا معيَّنَةً .

(فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ) : اللائق بهم .

(عِندَ رَبِّهِمْ) : فى دار كرامته .

(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) : من لحوق مكروه بهم .

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) : على فوت شىء من مطالبهم .

وفى تقديم : الليل على النهار ، والسر على العلانية ، إشعار بأن إخفاء الصدقة أولى من إظهارها .

وفى الآية : حثٌّ لأهل الغنى واليسار ، على الإنفاق فى جميع الأوقات والأحوال ، وترغيبٌ لهم ـ فى ذلك ـ بما وعدهم الله من الأجر العظيم عنده فى دار كرامته . كما أن فيها إشعارا ـ عن طريق المفهوم ـ بأن البخلاء محرومون من هذا الأجر الجزيل، وأنهم عرضة للخوف والحزن .

روى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ، لما استُخْلِفَ ـ خطب الناس فَحمِدَ اللهَ وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

أيها الناس : إن بعضَ الطمعِ فقرٌ ، وإن بعضَ اليأسِ غنى ، وإنكم تَجمعونَ ما لَا تأكلونَ ، وتُؤمِّلُونَ ما لا تُدرِكونَ ، واعلموا أنَّ بعضا من الشح شعبة من النفاق ، فأنفقوا خيرًا لأنفسكم ، فأين أصحاب هذه الآية ؟ وقرأ هذه الآية الكريمة التى نحن بصدد تفسيرها .

* * *

(ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾) .

المفردات :

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا) : المراد بأكله ، الانتفاع به ، عبر به عنه لأنه أهم ما قصد به .

والربا لغة : الزيادة . وشرعا : مال زائد فى معاوضة – مبادلة – مالية ليس له مايقابله .

(يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ) : يمسه بالأذى – قاله صاحب القاموس – وهو كما قال الآلوسى : ضربات متوالية على أنحاء مختلفة . ثم تُجوِّزَ به عن كل ضرب غير محمود .

(فَانتَهَى) : أى كفَّ عن الربا .

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا) : يذهبه ويهلكه – أو المعنى يهلك المال والربح الحرام .

(وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) : أى يزيد ثوابها ، أو يزيد المال الذى أُخرجت عنه .

(كُلَّ كَفَّارٍ) : كل مبالغ فى الكفر بإقامته عليه .

(أَثِيمٍ) : منهمك فى ارتكابه الإثم .

التفسير

٢٧٥ – (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ . .) الآية .

بعد أن بين الله فضل الإنفاق ، ومدَّ يد المعونة إلى الفقراء والمحرومين – أتبعه ذم أهل الربا : الذين يمتصون دماء الناس بدلا من مُعاونتهم والإشفاق عليهم .

والمعنى : الذين يأخذون الربا ويتصرفون فيه : بأى وجه من وجوه التصرف : أكلا أو غيره مثلهم - فى جشعهم وحرصهم على تثمير أموالهم ، وشدة تفكيرهم فيها وتحركهم فى اكتسابها ، والكَلَبِ عليها - كمثل الذى يتخبطه الشيطان ، ويصرعه بسبب مَسِّه له ، فهو دائم الحركة كالمسعور والمجنون .

وتأويل الآية بهذا الوجه ، هو رأى ابن عطية . وعلى هذا النحو . يقول الناس فيمن يسرع بحركات مختلفة : فلان كالمجنون .

ويرى غير ابن عطية أن الآية على معنى : أن من يأكلون الربا لايقومون من قبورهم - يوم القيامة - إلا كالمجانين الذين يتخبطهم الشيطان من المس . مُستدلين بنحو ما أخرجه الطبرانى عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إياك والذنوب التى لاتُغفَر : الغُلولَ .. فَمَن غلَّ شيئا أُتَى به يوم القيامة ، وأَكْلَ الربا ، فمن أَكَلَ الربا بُعِثَ يوم القيامة مجنونا يتخبط » ثم قرأ الآية ، قالوا : ولعل ذلك جعل علامة له يعرف بها فى ذلك اليوم الرهيب .

وممن نسب إليه القول بذلك ابن عباس ، وابن مسعود وقتادة ، واختاره الزجاج .

ومس الشيطان الذى يحدث به التخبط يحتمل أن يكون الوسوسة الدائمة ، فإنها تنتهى إلى الجنون ، ومن إطلاقه على الوسوسة قوله تعالى : « ... إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ[1] » أو أن يكون ضربا من اللقاء الجسدى بينه وبين من يمسه من الإنس ، يحدث به الاختلاط والجنون ، كما يقوله المعنيون بهذا الضرب من العلم .

والمعنى الأخير ، هو المعروف عند العرب ، ومن ذلك ماقالته قريش فيا عرضوه على النبى - صلى الله عليه وسلم - ليكف عن التعرض لآلهتهم وتسفيه أحلامهم « وإن كان الذى يأتيك رئيًّا أى - جنيًّا - قد غلب عليك ، بَذَلنا أموالنا فى طلب الطب لك ، حتى نُبْرِئَكَ أونُعْذَرَ فيك » .

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) :

الإشارة فى (ذَٰلِكَ) راجعة إلى أَكْلهم الربا ، يعنى أنهم استحلوا الربا وأكلوه وانتفعوا به ، بسبب أنهم جعلوه مثل البيع فى الحل ؛ لاتفاقهما فى المعاوضة والزيادة من أحد الجانبين . فكما أنه يحل بيع ماقيمته أربعة دراهم بخمسة ، فكذلك يحل بيع أربعة

(١) الأعراف : من الآية ٢٠١

دراهم بخمسة ، وقد أخطأُوا فى الحكم تبعا لخطئهم فى القياس ، على ماسنبينه . وإنما قالوا : (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) ولم يقولوا : إنما الربا مثل البيع ؛ لإرادة المبالغة ، كأنهم جعلوا الربا أصْلا للحِل ، وشبَّهُوا البيع به فى الحكم كما فى قول الشاعر :

ومَهمَه مُغبَّرة أرجاؤه كأن لونَ أرضه سماؤه

(وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) :

هذه جملة مستأنفة للرد عليهم ، والمعنى : وأحل اللهُ البيع وحرم الربا بالنص ، ولايصح القياس مع وجود النص ممن له حق التشريع . وهو الله سبحانه وتعالى .

والفرق بينهما فى الحكم ، تابع للفرق بينهما فى المقتضى للحكم ، فإن من باع ثوبا قيمته أربعة دراهم بخمسة ، فقد جعل الثوب كله فى مقابل هذه الخمسة ، فلاشىء منه إلا وهو مقابل لجزء من الدراهم الخمسة ، أما من باع أربعة دراهم بخمسة ، فقد أخذ الدرهم الزائد بغير عوض ولايمكن جعل الإمهال فى مقابلته ، لأن الإمهال ليس بمَال حتى يكون فى مقابلة المال . فضلا عن أن الربا يمنع أصحابه عن الاشتغال بالتجارة والصناعة ذات المنافع العامة ، ويفضى إلى انقطاع المعروف بين الناس ، فتضيق الحياة عليهم . فلو أن اللهَ أحلَّه كالبيع ، لاستَغَلَّ المرابى حاجةَ الناس ، وأكَلَ أموالهم بالباطل ، وسدَّ عليهم أبواب الفرج والرحمة .

فلذا كان من رحمة الله بأصحاب الحاجات ، أن حَرَّم الربا على أصحاب الأموال ؛ حتى يسود التراحم بين الناس . . . وتلك سنة الإسلام فى التشريع .

(فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَاسَلَفَ) :

أى فمن بلغه موعظة وتذكير فى شأن الربا من ربه ومالك أمره ، فانتهى عنه ، وامتنع من الاستمرار فى التعامل به ، فله ماتقدَّم من المال الربوى لايُسْتَرَدُّ منه ، ولايُقْهرُ على رده .

وهذا مذهب الباقر وسعيد بن جبير ، فى فهم الآية .

وقال السدى وغيره ، معناها : لامؤاخذة على ما أخذه[1] ، لافى الدنيا ، ولا فى الآخرة .

وقال القرطبى : هذا حكم من الله لمن أسلم من كفار قريش وثقيف ، ومن كان يَتَّجِر هنالك .

(١) أى ما أخذه قبل أن يبلغه التحريم .

ونقولُ : إن غيرهم ممن أسلم ، وكان فى كفره مرابيا ، له هذا الحكم أيضا .

(وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ) :

أى وأمر المنتهى عن الربا إلى الله تعالى : إن شاء ثبَّته على الانتهاء عن الربا لصدق نيته ، وإن شاء خذله لعدم الجدِّ فى انتهائه وخور عزيمته .

ويجوز أن يكون المعنى : وأمره متجه إلى طاعة الله ، كما تقول : وأمره فى نُمُوٍّ وإقبالٍ إلى الله وطاعته .

وأجاز بعضهم عود الضمير على الربا ، أى وأمر الربا إلى الله تعالى فى العفو عنه ، وإسقاط التَّبِعَة عليه .

(وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

أى ومن عاد إلى الربا مستحلاًّ له ، قائلا : إن الربا مثل البيع فى الحل ، لأنه عَمَلٌ تجارى مثله ، فأُولئك العائدون المستحلون أصحاب النار ، الملازمون لها ، هم فيها خالدون لايخرجون منها أبدا ؛ لأن من استحل ماحرمه الله نَصًّا ومدلولا . فهو كافر بالإجماع . والكافر خالد فى النار أبدا .

وإن جعلنا الآية فى مسلم يقول بحرمَة الربا ، ولكنه يعصى ربه باستدامة التعامل به بعد التوبة ـ فالمراد بالخلود هنا : المكث الطويل ، كما تقول العرب : « خَلَّد اللهُ ملكك » أى أبقاك أمدا طويلا .

٢٧٦ـ (يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) :

أراد الله أن يوقف سيل الطمع فى نُمُوِّ المال عن طريق الربا ، وأن يفتح القلوب على الصدقات ، فبين عاقبة كليهما ، فقال مامعناه : ينقص الله الربا ، فَيُذْهِب البركةَ من ماله فى الدنيا وإن كان كثيرا ، ويجعل عاقبته فى الآخرة خسرانا وعقابا ، ويزيد الصدقات ، وينميها فى الدنيا بالبركة فى مالها ، وفى الآخرة بمضاعفة الأجر عليها .

روى ابن مسعود أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إنَّ الربا وإن كَثُرَ فعاقِبَتُهُ إلى قُلٍّ [1] » .

وروى البخارى ، ومسلم ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(١) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، والحاكم وصححه .

« من تَصدَّق بِعِدْل تَمْرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله تعالى إلاطيِّبا ـ فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ، ثم يُرْبيها لصاحبها كما يربى أحدكم فُلُوّه[1] حتى تكون مثل الجبل » .

وفى الآية لطيفة فائقة ،وخلاصتها : أن المرابى إنما يطلب فى الربا زيادة المال ، ومانع الصدقة إنما يمنعها طلبا لزيادة المال أيضا ، فبين الله تعالى أن الربا سبب لنقصانه ، وأن الصدقة سبب لنمائه ، فلذا عقبت آيات الإنفاق بآيات النهى عن الربا وبيان ضرره .

(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) :

أى والله لايرضى عن كل مقيم على الكفر ، بليغ الإثم ، بِجَعْلِه البيع مثل الربا فى الحل ، أو بغير ذلك من ألوان الكفر .

وإنما حرم الربا لما فيه من التضييق على الناس وتخريب البيوت ، كما هو مشاهد فيمن يتعاملون به بخلاف التجارة ، فإنها مورد للأرزاق سائغ ، ولا ضرر فيه على الناس ، فلذا أحلها الله تعالى مادامت فى الحدود المشروعة .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾) .

التفسير

٢٧٧ ـ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ) :

لما بين الله تعالى ضرر الربا ، وفضل الصدقة فى الدنيا والآخرة ، عقب ذلك ببيان فضل الإيمان والعمل الصالح بصفة عامة .

فقال الآية .

---

(١) أى مُهره .

والمعنى : إن الذين صدقوا بالله ورسله واليوم الآخر ، وعملوا الصالحات التي اشتمل عليها كتاب الله وسنة رسوله ، وخصُّوا الصلاة والزكاة بعناية خاصة ، فأدَّوُا الصلاة في أوقاتها : بأركانها وشروطها ، والخشوع اللائق بها ، وأعطَوا الزكاة لمستحقيها . وداوموا على ذلك - لهم أجرهم الموعود في الكتاب والسنة عند ربهم في الآخرة ، إذ ينعمون بجنة فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولا خوف عليهم من مكروه يصيبهم ، ولا هم يحزنون على فوت مرغوب لهم ، فهم في طمأنينة دائمة ونعيم مقيم .

وخص الصلاة والزكاة بالذكر - مع دخولهما في العمل الصالح - تنبيها على فضلهما على غيرهما من العبادات . فالصلاة رأس الأعمال البدنية والروحية . والزكاة رأس الأعمال المالية . فلذا ينبغي أن يخصا بعناية خاصة . كما خصهما الله بالذكر من بين الأعمال الصالحة التي ذكرها عامة .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾) .

المفردات :

(وَذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبَا) : واتركوا ما بقي لكم منه عند الناس .

(فَائْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) : فأيقنوا بحرب من الله ورسوله ، وبذلك قرأ الحسن .

التفسير

٢٧٨ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

سبب النزول :

قال السدى : نزلت هذه الآية فى العباس بن عبد المطلب ، ورجل من بنى المغيرة ، كانا شريكين فى الجاهلية ، وكانا يتعاملان بالربا مع ناس من ثقيف ، فجاء الإسلام ، ولهما أموال عظيمة عندهم ، فتركوها حين نزلت .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل قال : نزلت هذه الآية فى بنى عمرو بن عمير ، وهم الطالبون ، والمطلوبون بنو المغيرة من بنى مخزوم ، وكانوا يداينون بنى المغيرة فى الجاهلية بالربا . وكان النبى – صلى الله عليه وسلم – صالَحَ ثقيفا ، فطلبوا رباهم إلى بنى المغيرة ، وكان مالا عظيما . فقال بنو المغيرة : والله لايعطى الربا فى الإسلام ، وقد وضعه الله تعالى ورسوله عن المسلمين ، فعرَّفوا شأنهم معاذ بن جبل ، ويقال عَتَّاب بن أسيد ، فكتب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن بنى عمرو يطلبون رباهم عند بنى المغيرة ، فأنزل الله تعالى :(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . . .) الخ فكتب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى معاذ ابن جبل « أن اعرض عليهم هذه الآية ، فإن فعلوا فلهم رءوس أموالهم ، وإن أَبَوْا فآذِنْهُم بحرب الله ورسوله » ذكره الآلوسى .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا ، قوا أنفسكم واحفظوها من عقاب الله ، واتركوا مابقى لكم على الناس من مال الربا إن كنتم مؤمنين صادقين ، فإن من شأن الإيمان الحقيقى ، أن يكف أصحابه عن عصيان أوامر الله تعالى ، وبخاصة ما كان متعلقا بحقوق الآدميين .

٢٧٩ – (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ . . .) الآية .

أى فإن لم تفعلوا ما أُمرتم به ، فأيقنوا بحرب من اللهِ ورسولِه ، وإن تبتم عن الربا ، فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون غرماءكم بأخذ الربا عليها ، ولا تُظلمون منهم بالنقص منها ، أو المطل فى أدائها ، فإن النقص منها حرام وظلم ، وكذا المطل والتأخير فى أدائها مع الغنى والسعة .

والمراد بحرب الله ورسوله : إهدار دم المرابى . كما قال ابن عباس . فقد ورد عنه أنه

قال : من كان مقيما على الربا لا يَنْزِع عنه ، فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نَزَع[1] وإلاَّ ضرب عُنُقَه .

وقال قتادة : أوعد الله أهل الربا بالقتل ، فجعلهم بَهْرَجاً – أى شيئا مباحا – أينما ثقفوا .

وقيل : المعنى : إن لم تنتهوا فأنتم حرب لله ولرسوله ، أى أعداء . وقال ابن خُوَيْزِمِنْداد : وَلَوْ أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالا كانوا مرتدين ، والحكم فيهم كالحكم فى أهل الرِّدة ، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالا ، جاز للإمام محاربتهم .

وكما شدد القرآن فى تحريم الربا شددت السنة .

روى البخارى عن أبى جحيفة قال : « نهى رسولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – عن ثمن الدم (أى أجر الحجامة) وثمن الكلب ، وكسب البَغِىِّ ، ولعن آكلَ الربا وموكله ، والواشمة ، والمستوشمة[2] والمصوِّر » .

وروى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :

« اجتنبوا السبع الموبقات » وذكر فيها آكل الربا .

وروى أبوداود عن ابن مسعود قال :

« لعن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – آكل الربا ، وموكله وكاتبه وشاهده » .

وقد تنبأ النبى – صلى الله عليه وسلم – بانتشاره ، فقال : « يأتى على الناس زمان لايبقى أحد إلا أكل الربا ، ومن لم يأكل الربا أصابه غباره » صدق رسول الله .

فهذا مانشاهده فى جيلنا . . . يرحمنا الله .

قال القرطبى : قال علماؤنا : وكيف يتوب المرءُ من المال الحرام ؟ . إن سبيل التوبة مما بيده من الأموال الحرام – إن كانت من ربا فليردها على من أربى عليه ، ويطلبه

---

(١) أى أقلع عن الربا وتركه .

(٢) الواشمة : التى تفعل الوشم ، وهو غرز الإبرة فى البدن ، ووضع مادة زرقاء فى مكان الوشم واسمها (النيلج) وتسميها العامة النيلة ، والمستوشمة هى طالبة الوشم .

إن لم يكن حاضراً ، فإن أيس من وجوده فليتصدق بذلك عنه ، وإن أخذه بظلم ، فليفعل كذلك فى أمر من ظلمه . فإن التبس عليه الأمر ، ولم يَدْرِ كَمْ[1] الحرام من الحلال مما بيده ، فإنه يتحرى قدر مابيده ، مما يجب عليه رده ، حتى لايشك فى أن مايبقى قد خلص له ، فيردّ مِنْ ذلك الذى أزال عن يده ، إلى من عرف ممن ظلمه ، أو أربى عليه . فإن أيس من وجوده ، تصدق به عنه . فإن أحاطت المظالم بذمته ، وعلم أنه وجب عليه من ذلك مالايطيق أداءه أبدا لكثرته ، فتوبته : أن يزيل مابيده أجمع : إمّا إلى المساكين ، وإما إلى ما فيه صلاح المسلمين ، حتى لايبقى فى يده إلا أقل مايجزئه فى الصلاة من اللباس - وهو مايستر العورة ، وهو من سرته إلى ركبتيه - وقوت يومه ، لأنه هو الذى يجب له أن يأخذه من مال غيره إن اضطر إليه ، وإن كره ذلك من يأخذه منه - الخ ما قال :

راجع القرطبى فى الآية ففيها معلومات نفيسة .

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ .

المفردات :

(وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ) : العسرة : ضيق الحال ، وقلة المال : أى وإن كان ذو ضيق وعسر مالى مدينا لكم .

(فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ) : أى فيجب إنظاره وإمهاله إلى ميسرة ، وسعة فى المال .

التفسير

٢٨٠ - (وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

لما حكم الله - تعالى - لأرباب الربا برءوس أموالهم عند ذوى اليسار ، حكم فى ذوى العسرة مع ذلك ، بوجوب إمهالهم إلى حال اليسار والسعة .

(١) الكمّ : المقدار .

سبب النزول :

روى أن ثقيفا لما طلبوا أموالهم من بنى المغيرة ، شكا بنو المغيرة العسرة . وقالوا : ليس لدينا مال ندفعه لكم ، فأمهلونا إلى وقت طيب الثمار ، فأبوا أن يمهلوهم ، فنزلت الآية بوجوب إنظار المعسر .

المعنى : وإن كان ذو ضيق وعسر مالى مدينا لكم، فيجب عليكم إنظاره وإمهاله إلى ميسرة بحقكم فلا تضيقوا عليه بالمطالبة فى عسرته ، وانتظروا وقت الفرج فطالبوه .

مايستنبط من الأحكام :

استنبط العلماء من هذه الآية : وجوب إنظار المعسر حتى ييسر الله عليه ، سواء أكان مدينا فى دين ربا أو غيره ، لأن الآية برفع (ذُوعُسْرَةٍ) معناها : وإن وقع وحدث ذو عسرة من الناس أجمعين . ولو كان فى الربا خاصة ، لقيل فى الآية : وإن كان ذا عسرةَ بالنصب ، إذ يكون المعنى حينئذ ، وإن كان الذى عليه الربا ذا عسرة . وبهذا الرأى أخذ عطاء والضحاك ، والربيع بن خيثم ، والحسن ، وابن عباس فى رواية عنه .

وقيل : لايجب إنظار المعسر إلا فى دين الربا خاصة، واستدلوا بقراءة النصب ؛ (وَإِنْ كَانَ ذَا عُسْرَةٍ) وحملوا عليها قراءة الرفع ، وتقدير الكلام على هذا الوجه فى قراءة الرفع : وإن كان ذو عسرة مدينا لكم ياأصحاب الربا . وفى قراءة النصب : وإن كان المدين لكم أيها المرابون ذا عسرة فأمهلوه إلى ميسرة : وعلى هذا الرأى شريح وإبراهيم النخعى، وابن عباس فى رواية أخرى عنه ، ومما احتجوا به قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا »[1] .

ويقول أصحاب هذا الرأى : إن المدين فى غير دين الربا ، لايقبل منه القول بالإعسار بل يحبس حتى يؤَدىَ ماعليه ، قال ابن عطية : ومحل هذا : إذا لم يكن فقر مدقع . وأما مع العُدْم والفقر الصريح ، فالحكم هو النَّظِرَةُ ضرورة[2] .

---

(١) النساء من الآية : ٥٨

(٢) أى فالحكم هو الإمهال بحكم الضرورة ، أى أنه واجب لعدم الاستطاعة .

والراجح أن لا يحبس المعسر ، لما رواه أهل الحديث واللفظ لمسلم ، عن أبى سعيد الخدرى : أنه قال : « أصيبَ رجلٌ فى عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ثمار ابتَاعها ، فكثر دينه فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تصدقوا عليه » . فتصدق الناس عليه ، فلم يبلغ ذلك وفاءَ دَينِهِ ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لغرمائه : « خذوا ماوجدتم وليس لكم إلا ذلك » .

وعند أبى داود : « فلم يزد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غرماءه على أن خلع لهم ماله » . أى أعطاهم ماعنده .

فقد دل هذا الحديث على أن الرسول لم يأْمر بحبس هذا المدين المعسر ، وهو معاذ بن جبل ، كما قال شريح ، إذ الحبس لافائدة منه للدائن ، كما لم يأْمره أن يكتسب ليسد دينه .

ومن لم يتبين عسره وشُك فى يسره ، يحبسه القاضى حتى يتبين عُدمه وفقره ، قال بذلك : مالك ، والشافعى ، وأبو حنيفة ، فإن صح عسرهُ ، فلا يحبس .

وقد استفيد من هذا الحديث : أن من كثرت ديونه وطلب غرماؤُه مالهم ، فللحاكم أن يخلعه من كل ماله ، ولكن يترك له ماكان ضروريا له ، روى نافع عن مالك : أنه لايترك له إلا مايواريه .

والمشهور ـ كما قال القرطبى ـ أنه يترك له كسوته المعتادة ، مالم يكن له فيها فضل ، ولا ينزع عنه رِدَاؤُه إن كان ذلك مُزْرِيًا به ، ولا يترك له مسكن ولا خادم ، ولا ثوب جمعة ، مالم تقل قيمتها ، وعند هذا يحرم حبسه [1] .

(وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُم إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

المعنى : وأن تتصدقوا على المعسر بكل مالكم عليه أو ببعضه ، خير وأكثر ثوابا لكم من إنظاره ، إن كنتم تعلمون ذلك فافعلوه ، فإن المعسر بحاجة إلى البر والمعونة أكثر من الإمهال ؛ ليسد عوزه ويطعم أهله من جوع ، ويكسوهم من عُرْى .

وفى قوله تَعالى : (إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) حض لهم على الصدقة بعظم أثرها .

---

(١) (قرطبى حـ ٣ ص ١١٨٠ طبع مطبعة الشعب) فى شرح قوله تعالى : (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) .

روى مسلم فى ذلك عن أبى مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « حُوسِبَ رجلٌ مِمَّن كانَ قَبلكم ، فلم يُوجَدْ لهُ مِن الخَيرِ شَىءٌ ، إلا أنه كانَ يُخَالِطُ النّاسَ وكان موسرًا ، فكان يأمر غلمانَهُ أن يَتَجاوزُوا عَنِ المعسرِ ، قال : قال اللهُ - عز وجل - : « نَحنُ أحَقُّ بذلك منهُ . . تَجَاوزُوا عنْهُ » .

وروى مسلم عن أبى قتادة « أنه طلب غريما له ، فتوارى عنه ، ثم وجده فقال : إنى معسر . فقال : اللهِ[1] . قال : اللهِ ، قال : فإنى سمعت رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « من سرَّه أن ينجيَهُ اللهُ من كرْبِ يومِ القيامةِ ، فَلْيُنَفِّسْ عن مُعْسِرٍ ، أو يَضَعْ عنْهُ » .

وجاء فى حديث أبى اليسر - كعب بن عَمْرو - عن مسلم « أنه محا عن غريمه الصحيفة ، وقال له : إن وجدتَ قضاءً فاقْضِ ، وإلاَّ فأنتَ فِى حِلّ »[2] .

(وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾) .

التفسير

٢٨١ - (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

خاطب الله فى هذه الآية جميع المكلفين - وفيهم المرابون السابقون - بأن يتقوا يوم القيامة : الذى يرجعون فيه بالبعث إلى حكم الله وجزائه ، ثم تعطَى فيه كل نفس جزاء ما كسبته - وافيا كاملا - وهم لايظلمون بنقص ثواب ، أو زيادة عقاب على ما اكتسبوه . واتقاءُ هذا اليوم ، هو اتخاذ الوقاية من عذابه بفعل الواجبات ، وترك المنهيات .

وفى الآية ، رد على الجبرية الذين ينكرون كسب العبد . ويعتقدون أنه مجبور على ما يفعل من خير أو شر ، وأنه كالريشة فى مهب الرياح ، فقد أثبتت للعبد كسبا ، وأنه مجزىٌّ عليه خيرا كان أو شرًّا .

---

(١) مجرور بحرف قسم مقدر ، أى والله .

(٢) راجع صحيح مسلم ص ٢ ص ٣٩٤ طبعة بولاق .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾) .

المفردات :

(كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ) : كاتب أمين فقيه .

(وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ) : أى ولا يمتنع كاتب عن الكتابة .

(وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ) : وليكن المدين الذى عليه الحق : هو الْمُلَقِّن والمُمْلى على الكاتب ما يكتبه ؛ فإن الدَّيْن عليه ، وهو المسئول عنه .

(وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا) : ولا ينقص مَنْ عليه الحق شيئا مما عليه من الدَّيْن ، وإن كان صغيرا .

(سَفِيهًا) : أى مُبَذِّرًا لماله .

(أَوْ ضَعِيفًا) : بأن كان صبيًّا أو شيخا خَرِفا .

(أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ) : أو لا يقدر على التلقين ؛ لخرس أو غيره من العوارض .

(فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ) : فليلقن الكاتبَ المتولِّى لأمر المدين بالعدل بينه وبين دائنه .

(أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) : أى شرع لكم شهادة المرأتين ، بدلا من الرجل الواحد فى الدَّيْن ؛ إرادة أن تُذكِّر إحداهما الأُخرى إن غاب عنها شىء مما تشهد عليه .

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) : ولا يمتنع الشهود عن الشهادة إذا دعوا إليها ، و (ما) للتوكيد ، وليست للنفى . وكثيرا ما ترد بعد إذا .

(وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ) : ولا تملوا و تضجروا من كتابة الدَّيْن إلى وقت حلوله ، صغيرا كان الدَّيْن أو كبيرا .

(ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ) : أى أعدل عنده تعالى .

(وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ) : وأعون على أدائها .

(وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا) : وأقرب إلى انتفاء رَيبكم وَشَكِّكُم .

(تِجَارَةً حَاضِرَةً) : أى لا أَجَلَ فيها . والتجارة : تَصرُّفٌ فى المال بِعِوَضٍ لقصد الربح ، سواءٌ أكان المال حاضرا أم فى الذمة .

(تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ) : تتصرفون فيها يَدًا بيد ، بلا تأجيل .

(فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا) : أى لا حرج ولا إثم عليكم ، أو لا مضرة فى عدم كتابتها .

(وَإِن تَفْعَلُوا) : ما نهيتم عنه .

(فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ) : أى فإنه خروج عن الطاعة متلبس بكم .

التفسير

٢٨٢ - (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ...) الآية .

لما أمر الله سبحانه ، بإنظار المعسر وتأجيله ، أتبعه ببيان الحقوق المؤجلة ، وعقود المداينة . فذكر هذه الآية الكريمة .

المعنى والأحكام :

الدَّيْن - كما قال القرطبي - : كل معاملة كان أحد العوضين فيها نَقْدًا ، والآخر فى الذمة ؛ نسيئة أى مؤجلا ، فإن الْعَيْنَ عند العرب ما كان حاضرا ، والدَّيْنَ ما كان غائبا .

وقد بين الله هذا المعنى بقوله (إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) .

وهذه الآية نزلت فى بيع السَّلم خاصة ، كما قال ابن عباس . فقد أخرج البخارى ، عن ابن عباس أنه قال :

« أشهدُ أن السلفَ المضمونَ إلى أجل مسمى - أن الله تعالى أحلَّه وأذِنَ فيه . ثم قرأ الآية » اهـ .

والسلف المضمون هو السلَم ، فإنه مضمون بالثمار والحبوب المؤجَّلة المتعاقد عليها . ومع ذلك ، فالآية عامة فى كل دين .

والسلم بيع من البيوع الجائزة باتفاق ، وهو أن يسلم رجل إلى آخر عِوَضًا كالدراهم والدنانير ونحوها ، فى مقابل حبوب ، أو ثمار غير موجودة عنده ، فى وقت البيع ولكنها مؤجلة إلى أجل معلوم ، ومحددة الأوصاف والمقادير ومكان التسليم .

والشارع وإن كان نهى عن بيع ما ليس عندك لأنه غير مقدور عليه ؛ ولأنه يفضى إلى الشقاق - فقد رخص مع ذلك فى بيع السَّلَم رَفْعًا للحرج بين الناس - فإن صاحب رأس المال محتاج إلى أن يشترى الثمرة ، وصاحب الثمرة محتاج إلى ثمنها قبل ظهورها ؛ لينفقه عليها . ولذا سماه الفقهاء : بيع المحاويج[1] . ولما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة ، - ورأى أهلها يستلفون فى الثمار السنتين والثلاث ، أقرهم على ذلك ، بعد أن شرع لهم قواعده ،

(١) وهى التى فيها الحَدْج ، أى الغبن فى البيع ، ورخص فيه للحاجة إليه .

وصحَّح أوضاعه ، فقال : « من أسْلَفَ فى تَمْرٍ فَلْيُسْلِفْ فى كَيْلٍ مَعْلوم ، ووَزْنٍ مَعْلومٍ ، إلى أجَلٍ مَعْلوم » . رواه ابن عباس ، وأخرجه البخارى ومسلم ، وغيرهما

وعَرَّف علماءُ المالكية السَّلم بقولهم : « هو بيع معلوم فى الذمة ، محصور بالصفة بعين حاضرة ، أو ما هو فى حكمها إلى أجل معلوم » .

والمقصود بالمعلوم فى الذمة : أن يكون المبيع محدودا بأوصاف معينة ، ترفع الخلاف عليه عند التسليم .

والمقصود من حصره بالصفة : ألا يحصره بعينه ... مثل : الذين كانوا يستلفون فى المدينة على ثمار نَخْل بأعيانها ، حين قدم الرسول إليها فقد نهوا عند ذلك لما فيه من الغرر — أى الخطر — إذ قد تُخْلف تلك الأشجار فلا تثمر شيئًا .

وقوله : أو ما فى حكمها ؛ ليدخل رأس المال المؤجل يومين أو ثلاثة ، فإن السلم به جائز عند المالكية . إذ هو معتبر فى حكم العين الحاضرة عندهم .

ولا يجيز ذلك الشافعى ، والكوفيون ، فرأس المال عندهم ، لابد من دفعه قبل الافتراق من المجلس .

والأجل المسمى : هو المعين بالأيام أو الأشهر أو نحوهما ، مما يميز وقت التسليم تمييزا دقيقا ، لا مجال للخلاف فيه .

أما التأجيل لنحو الحصاد والجذاذ ، ففيه خلاف :

فالمالكية : يجيزونه ، فهو عندهم فى حكم محدود الأجل .

وغيرهم لا يعتبره كذلك ، فيمنع حل السلم به ، لأنه يورث الخلاف .

وخلاصة المعنى : يأيها الذين صدقوا بالله ورسوله إذا دَاين بعضُكم بعضا بدين ، إلى أجل معين ، تعيينا لا يستتبع خلافا ، فاكتبوه بأجله .

وسيأتى الأمر بالإشهاد على الدَّيْن المكتوب .

والأمر فى قوله : (فَاكْتُبُوهُ) لإيجاب كتابة الدَّيْن مطلقا ، سواءٌ أكان فى بيع أم غيره ؛ لئلا يقع فيه نسيان أو جحود أو خلاف . واختار هذا الرأى جماعة منهم : الطبرى . ومقتضاه : إثم من لم يكتب الدَّيْن .

وقال الجمهور : كتابة الدَّيْن ليست واجبة ، بل مندوبة .

وقد صَرَف الأَمرَ هنا عن الوجوب : أن الله أجاز لصاحب المال أن يهب ماله ، فإذا كان ذلك جائزا له ، فإنه يجوز له أن يترك الكتابة ائتمانا للمدين ، ولا يعتبر آثما فى ذلك . ولهذا قال الله تعالى :

(فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ) :

وسواءٌ قلنا بالوجوب أو الندب فكتابة الدَّيْن من باب الحزم؛ خوفا من حدوث إنكار من المدين . وحاجة الدائن إلى ماله تمنعه من التنازل عن دينه عند الجحود .

(وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ) :

بعد أن أمر الله سبحانه بكتابة الدَّيْن منعا للجحود ، عَيَّن هنا من يتولَّى الكتابة ؛ إذ طلب من المتداينين أن يتولاها بينهم كاتب عدل ، متمسك بالدِّين ، فقيه ؛ حتى يكون ما يكتبه جاريا على مقتضى الشريعة والعدل ، فإنَّ غيرَ الفقيه لا يستطيع أن يقيم العدل الشرعى بينهما .

وقد أفاد الأَمر فى قوله تعالى : (فَلْيَكْتُبْ) وجوب الكتابة على من يُدْعَى لها من الكُتَّاب ، كما قاله عطاءٌ وغيره .

وقال السدى بوجوبها عليه مع الفراغ لها ، وقيل بوجوبها إذا لم يوجد غيره . وبه قال الحسن .

واستبعد القرطبي أن يكون الأَمر بالكتابة للوجوب على الكاتب ، وقال : لو كانت الكتابة واجبة لما صح الاستئجار بها ، لأَن الإجارة على فعل الفروض باطلة ، ولم يختلف العلماءُ فى جواز أَخذ الأُجرة على كَتْب الوثيقة . والصحيح أنه أَمر إرشاد فلا يكتب حتى يأخذَ حقَّه . ا هـ .

والتعبير بقوله : (بَيْنَكُمْ) بدل (أَحدكم) للإيذان بأنه ينبغى أن يكون الكاتب غير المتعاقدين ، ليكون عدلا بينهما ، وشاهدًا عليهما ، فإن المدين لا يطمئن لكتابة الدائن ،

ولا الدائن يطمئن لكتابة المدين . وقد أمر الكاتب أن يحقق المقصود من كونه بينهما ، بأن يكتب بِالْعَدْلِ ، فلا يميل إلى أحدهما فيما يكتبه ، بل يكون بينهما قائمًا .

وإذا علقنا الباء فى قوله : (بِالْعَدْلِ) بقوله : (فَلْيَكْتُبْ) صح أن يكتب الوثيقة صَبِىٌّ أو عبد أو متحوط غير عادل إذا أقام فقهها وضبطها نحو العدل الإلٰهى .

وبذلك أخذ بعض الفقهاء .

أما الإمام مالك ، فقد جعل (بِالْعَدْلِ) متعلقًا بكاتب . ولذلك اشترط فى كاتب الوثائق أن يكون عادلًا ، عارفًا بها دارسًا لأساليبها ، إذ قال رحمه الله : « لا يكتب الوثائق بين الناس إلا عارف بها ، عدل فى نفسه مأمون . لقوله تعالى : (وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ) نقله القرطبى . وقال الآلوسى : « ومن لم يكتب كذلك يجب على الإمام ، أو نائبه منعه ، لئلا يقع الفساد ، أو يكثر النزاع » .

(وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ) :

المعنى : ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للناس وثائقهم وعقودهم لأجل تعليم الله له وتميزه بالكتابة ، فإنَّ تفضُّل الله عليه بعلم الكتابة ، يبعثه ويدعوه إلى أن يتفضل بها على الناس ، ليؤدىَ حق الله عليه ، على حد قوله تعالى : « وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ [1] » أى لأجل إحسان الله إليك وذلك حسب القاعدة التى قررها قوله تعالى : « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ [2] » .

ويصح أن يكون المعنى : ولا يمتنع كاتب أن يكتب بالعدل ، كما علمه الله بقوله : (وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ) والكاف على هذا بمعنى مثل ، نعت لمصدر مقدر . والتقدير : أن يكتب كَتْبًا مثل الذى علمه الله إياه .

(فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ) :

لم يكتف الله بنهى الكاتب العدل الفقيه عن الامتناع عن الكتابة ، بل أمره بها أمرًا صريحا ، بقوله تعالى : (فَلْيَكْتُبْ) وذلك مؤذن بأن كتابته للوثائق حق عليه للمجتمع ، لا يحق له أن يتخلى عنها ، ولهذا ذهب بعض الفقهاء إلى أنها من فروض الكفايات [3] . إن وجد عدد من الكتاب ، وإلا فهى فرض عين عليه ، وقد أعطى الله الحق فى إملاء الكاتب

(١) القصص : من الآية ٧٧ (٢) الرحمن : الآية ٦٠

(٣) وهى التى يسقط فيها الطلب إن أداها بعض من وجبت عليهم .

للمدين ، الذى عليه الحق بقوله :

(وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ) :

والإملال والإملاء بمعنى واحد ، وهو التلقين . وإنما أعطى حق الإملاء للمدين ؛ لأنه هو المشهور . وعليه ، فلا بد من أن يكون هو المقر لا غيره ، حتى لا يقع عليه غبن .

(وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا) :

هذا يصلح أن يكون أمرا للمدين الذى عليه الحق ، وهو ما ذهب إليه سعيد بن جبير ، وأن يكون أمراً للكاتب .

فعلى الأول ، يكون المعنى: وليتق اللهَ المدينُ ، الذى عليه الحق ، ولا ينقص من الدَّين حين الإملاء شيئًا ، ولو كان حقيرًا ، بل يعترف به ، كما اتفق عليه مع الدائن ؛ منعًا للنزاع بينهما

وعلى الثانى ، يكون المعنى : وليتق الله الكاتب ، ولا ينقص من حق كل من الدائن والمدين شيئًا ، بل يثبت لكل منهما حقَّهُ كاملا ، فلا ينحاز إلى أحدهما ، ولا يضيع شيئًا على أى منهما . كما هو الشأن فى العدل بين الناس .

وقد علمت مما مضى : أن الله جعل للمدين الحق فى إملاء الكاتب ؛ ليكون مُقِرًّا بدينه ؛ حتى تأتى الشهادة صحيحة على إقراره . وبما أن المدين قد لا يحسن الإملاء على الكاتب ، فلذلك أعطى الله حق الإملاء لوليه ، فقال سبحانه :

(فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ) :

والسفيه هو : المبذر لماله ، المفسد لِدَيْنِهِ كما قال الشافعى .

وفسره القرطبى بأنه : «المهلهل الرأى فى المال[1] ، الذى لا يحسن الأخذ لنفسه ، ولا الإعطاء منها » . راجع جـ ٣ فى الآية .

---

(١) تشبيها بالثوب السفيه ، وهو الخفيف النسج .

والضعيف من لايقدر على الإملاء ؛ لكونه صبيًّا ، أو شيخًا خرفًا ، أو مريضًا ، ومن لايستطيع الإملاء نحو الأخرس . فهؤلاء أربعة أصناف : لا يملى على الكاتب سوى أولهم .

أما الباقون ، فيملى على الكاتب ، عنهم أولياؤُهم بالعدل .

والمقصود بالولى : من يتولى أموره ، وإن لم يكن وليه الشرعى . فيدخل فيه : القيم ، والوكيل ، والمترجم .

والمرادُ من عدالة الولى فى الإملاء : أن لا يزيد ولا ينقص عن الحق شيئًا .

واستُدِلّ بوصف العدالة فى الولى –على أنه لا يصح أن يكون ذميًّا ولا فاسقًا ؛ لأنه لا عدالة فيهما . كما استدل بالآية . على أن إقرار الولى العادل على يتيمه ، صحيح .

(وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ) :

لم يكتف الله تعالى فى توثيق الدين بكتابته ، بل أمر المسلمين أن يطلبوا –من رجالهم المؤمنين– شهيدين يَشهدان على ما يجرى عند التعاقد ؛ تثبيتًا للحق ومنعًا لإنكاره أو سوء تأويل النَّص .

وعبر عن الشاهدين بصيغة المبالغة (شَهِيدَيْنِ) للإشارة إلى أنه ينبغى طلب من تكررت منه الشهادة ، فهو عالم بمنزلتها ، دقيق فى أدائها ، قادر على القيام بها . كما أن فيه رَمْزًا إلى عدالتهما ؛ لأنهما لا تتكرر شهادتهما عند الحكام ، إلا إذا كانا مقبولين عندهم . كما أنه لم يَقُل : رجلين ، بل قال : (مِن رِّجَالِكُمْ) ؛ للإيذان بأن الشاهدين من رجال المؤمنين المعروفين بالكمال والعدل .

والأمر بالاستشهاد المذكور ، قيل : للندب . وقيل : للوجوب .

وفى إضافة الرجال إلى ضمير المؤمنين المخاطبين ، دلالة على اشتراط الإسلام والبلوغ ، مع الذكورة فى الشهود ، وكذا الحرية ، لأن المقصود من الرجال : الكاملون فى التصرف .

ويدل لذلك ، قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ) . وساق الخطاب إلى قوله : (مِن رِّجَالِكُمْ) فظاهر الخطاب يتناول الذين يتداينون ، والعبيد لا يملكون التداين بدون إذن السادة . وهذا هو رأى الجمهور .

وقال شريح ، وعثمان العُتْبي ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو ثور : شهادة العبد جائزة ، إذا كان مسلما عدلا . وأجازها الشعبي ، والنخعي في الشيء اليسير ، ورأى الجمهور هو الصحيح ، كما قاله القرطبي ؛ لما ذكرناه . ولم تتعرض الآية لشهادة الكفار بعضهم على بعض . وأجازه - قياسًا - الإمامُ أبوحنيفة ، وإن اختلفت مللهم . واستدل بعض العلماء بعموم (رِجَالِكُمْ) على قبول شهادة الأعمى ، بشرط أن يعلم - يقينًا - ما يشهد عليه .

فقد سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الشهادة ، فقال : « ترى هذه الشمس ... فاشهد على مثلها أَوْ دَعْ » .

ومنهم من قبل شهادته على الصوت إذا تحقق منه ، وبذلك أفتى مالك .

قال ابن القاسم : قلت لمالك : فالرجل يسمع جاره من وراء الحائط ولا يراه ، يسمعه يطلق امرأته فيشهد عليه وقد عرف صوته ؟ قال مالك : شهادته جائزة .

(فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ) :

أى فإن لم يَشْهَد رجلان ؛ لعذر أولعدم الرغبة فيهما ، فليشهد رجل وامرأتان . وشهادتهما مع الرجل تصح - عند الشافعية - في الأموال خاصة . وعند الحنفية ، فيما عدا الحدود والقصاص .

وقال مالك : لا تجوز شهادة أولئك - أى الرجل مع المرأتين - في الحدود ، ولا القصاص ، ولا الولاء ، ولا الإحصان . وتجوز في الوكالة والوصية ، إذا لم يكن فيها عتق وسائر شئون الأموال .

قال القرطبي : قال مالك في الموطإ : وإنما يكون ذلك في الأموال خاصة .

واعلم أن الآية نصت على جواز قبول شهادة المرأتين مع الرجل في الدَّين خاصة ، وذلك موضع اتفاق بين العلماء ، ولا يشمل ذلك الشهادة على دين المهر ، والصلح على دم العمد . فالشهادة عليهما ، ليست شهادة على دين ، بل على نكاح في الأُولى ، وعلى دم في الثانية . والنساء لا يشهدن في ذلك .

وأجاز العلماء شهادة النساء منفردات فيما لا يطلع عليه غيرهن ؛ للضرورة : كالشهادة في الولادة والبكارة ، وحياة الصبي عند الولادة . وما يجرى مجرى ذلك ، مما بُيِّن في كتب الفقه .

(مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ) :

أى فرجل وامرأتان موصوفون جميعًا ، بأنهم مرتضون عندكم أيها المسلمون أو الحكام . أى صالحون للشهادة ؛ لعدالتهم وأمانتهم .

وَعُلِمَ من وصف الرجل والمرأتين بذلك ، وجوب أن يكون الرجلان إذا شهدا متصفين بهذا الوصف . وإنما لم يُذكَر هناك ، اكتفاء بذكره فى أحد النظيرين هنا ، ليعلم منه حكم النظير الآخر .

وقال أبوحيان : إن قوله : (مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ) متعلق باستشهدوا ؛ ليكون قيداً فى الجميع .

(أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى) :

الضلال هنا : مجاز عن النسيان .

وخلاصة المعنى : شرع الله لكم شهادة المرأتين مع رجل ، بدلا من الرجل الثانى ؛ لإرادة أن تذكر إحداهما الأخرى إن نسيت .

وأصل المعنى – حسب النص – شرع لكم شهادة المرأتين بدل رجل ؛ خشية أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى . نقول : وذلك لأن النسيان غالب على طبع النساء فيما ليس من شأنهن مُمَارستُه :

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا) :

أى ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة أمام الحاكم إذا دعوا إليها . وهذا تفسير مجاهد ، وابن جبير .

وقيل : إن الآية نزلت فى تحمل الشهادة وأدائها ، وتسمية من يدعى لتحمل الشهادة شاهداً – وهو لم يشهد بعد – على سبيل المجاز ؛ لأنه مشارف لتحملها ، وعلى هذا الرأى ابن عباس والحسن . قال الحسن : جمعت الآية أمرين على جهة الندب ، فالمسلمون مندوبون إلى معونة إخوانهم ، فإن كانت الفُسْحَةُ لكثرة الشهود والأمن من تعطيل الحق ، فالمدعو مندوب ، وله أن يتخلف لأدنى عذر ، وإن تخلف لغير عذر فلا إثم عليه ، ولا ثواب له . وإذا كانت الضرورة – وخيف من تعطيل الحق أدنى خوف – قَوِىَ الندب ، وقرب من الوجوب . وإذا علم أن الحق يذهب ، فقد وجب عليه أن يشهد ؛ لأنها أمانة تقتضى الأداء . انتهى باختصار .

روى عن الربيع : أن الآية نزلت ، حين كان الرجل يطوف فى القوم الكثير ، فيدعوهم إلى الشهادة فلا يتبعه أحد منهم — أى نزلت للحث على تحمل الشهادة .

(وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ) :

أى ولا تملوا — لكثرة مداييناتكم أو غيرها — أن تكتبوا الدين أو الحق ، صغيرًا أو كبيرًا ، قليلا أو كثيرًا ، مجملا أو مفصلا ، مستقرًّا فى ذمة الذى عليه الحق ، إلى وقت حلوله الذى أقرّ به .

(ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا) :

أى ذلكم الذى تقدم من الكتابة والإشهاد على الحق ، أعدل فى حكم الله ، وأعون على أداء الشهادة على وجهها ، وأقرب إلى انتفاء ريبكم وشككم فى جنس الدين وقدره وأجله ونحو ذلك .

(إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا) :

استثناء من الأمر بالكتابة ، فقوله تعالى : (وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ) إلى هنا أحكام متوسطة بين المستثنَى والمستثنى منه . متعلقة بالأمر بكتابة الدين ، وبعد ما بينهما نص على المطلوب بقوله : (فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا) . وتقدير الارتباط بين المستثنى والمستثنى منه هكذا :

يا أيها الذين آمنوا ، إذا تداينتم بدين فاكتبوه ، لكن وقت كون المعاملة تجارة حاضرة بحضور الثمن والمثمن تديرونها بينكم بتعاطى الثمن والمُثْمَن يدًا بيد — فليس عليكم ضرر أو إثم فى عدم كتابتكم لها ؛ لِبُعْد ذلك عن التنازع والنسيان .

وعدم الكتابة فى التجارة الحاضرة مقصور على القليل ، كما قال القرطبى ، كالمطعوم ونحوه ، دون الكثير كالأملاك ونحوها . وقال السدى والضحاك : هذا فيما كان يدًا بيد . . ا هـ . وذلك حق ، فإن الكثير الحَاضِر ، عرضة للإنكار والجحود والمنازعات . فكتابته والإشهاد عليه ؛ مطلوبان ؛ منعًا للتنازع بين الناس .

(وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ) :

أى وأشهدوا على تجارتكم الحاضرة إذا تبايعتم ، أو أشهدوا على كل بيع تجارة حاضرة أو غيرها ؛ لأنه أحوط .

ورأى بعض الفقهاء : وجوب الإشهاد على البيع ، ولو كان المبيع حزمة بقل .

وممن ذهب إلى ذلك الطبرى ؛ إذ قال : لا يحل لمسلم إذا باع وإذا اشترى ، إلَّا أن يشهد ، وإلَّا كان مخالفًا لكتاب الله عز وجل .

وذهب الشعبى والحسن : إلى أن ذلك مندوب . وهذا قول مالك ، والشافعى ، وأصحاب الرأى .

وذكر القرطبى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - باع واشترى ، ورهن ولم يشهد . ولو كان الإشهاد واجبًا لوجب مع الرهن لخوف المنازعة . ونحن نقول : إن الناس تغيرت أخلاقهم ، فالإشهاد - فى هذا الزمان - واجب ؛ لمنع الخلاف والنزاع .

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) :

نهى عن المضارة ، والفعل يحتمل البناء للفاعل . والدليل عليه قراءة عمر - رضى الله عنه - (وَلَا يُضَارِرْ) بفك الإدغام ، وكسر الراء الأولى ، ويحتمل البناء للمفعول ، والدليل عليه قراءة ابن عباس : (وَلَا يُضَارَرْ) بفتح الراء الأولى .

والمعنى على الأول : نهى الكاتب والشاهد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما ، وعن التحريف والزيادة والنقصان . فإن ذلك كله مضارة للمتداينين .

والمعنى على الثانى : نهى المتعاملين من الضرار بالكاتب والشهيد : بأن يعطلاهما عن مهم لهما ، أو لا يعطيا الكاتب أجره على الكتابة ، أو يحمل الشاهد مؤونة المجىء من بلده .

ويؤيد هذا المعنى ، ماأخرجه ابن جرير ، عن الربيع ، قال : لما نزلت هذه الآية : (وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ . . .) الخ كان أحدهم يجىء إلى الكاتب فيقول : اكتب لى ، فيقول : إنى مشغول أو لى حاجة ، فانطلق إلى غيرى ، فيلزمه ويقول : إنك قد أُمِرْتَ أن تكتب لى ، فلا يدعه ويضاره بذلك وهو يجد غيره . فأنزل الله تعالى : (وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) .

(وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ) :

أى وإن تفعلوا ما نهيتم عنه من المضارة ، فإن فعلكم هذا فسوق وخروج عن طاعة الله متلبس بكم .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) :

واجعلوا أنفسكم فى وقاية وحرز من عقاب الله : بامتثالكم ما أمركم به أو نهاكم عنه . ويعلمكم الله أحكامه المتضمنة لمصالحكم .

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) :

فلا يخفى عليه حالكم ، فيجازيكم حسب استحقاقكم .

وتكرير لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث ؛ لقصد التعظيم ، وتربية المهابة ، وتعليل الحكم .

وفى الآية توجيه لتعلم القراءة والكتابة ؛ لحاجة المسلمين إليها فى وثائقهم .

(وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾) .

المفردات :

(وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ) : أى مسافرين فعلا ، ولذا عبَّر بقوله : (عَلَىٰ سَفَرٍ) إشعارا بمباشرتهم له ، وتمكنهم منه تمكن الراكب مما يركبه .

(فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ) : الرهان جمع رهن ، وهو ما يأخذه الدائن من الأعيان ذات القيمة ضمانًا لدينه ، وهو فى الأصل مصدر ، وشاع استعماله فى العين المرهونة ، حتى أصبح فيها حقيقة عرفية .

التفسير

٢٨٣ - ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ... ﴾ الآية .

بين الله تعالى فى الآية السابقة : أن على من تداينوا أن يكتبوا الدَّيْنَ ، وأن يقوم بكتابته بينهم كاتب بالعدل ، لتكون الوثيقة حرزا من النسيان أو الإنكار . وذكر من أحكام ذلك ما شرحناه .

وفى هذه الآية ، يبين لنا ماينبغى عمله عند فقد الكاتب فى حالة السفر لأجل الاستيثاق من الدين ، فيقول ما معناه :

وإن كنتم - أيها المتداينون - مسافرين ، ولم تجدوا كاتبا يكتب بينكم الدين ، فالذى يستوثق به حينئذ ، رهان يقبضها الدائنون ، وتبقى عندهم حتى أداء الدين ، فترد إلى المدينين .

وأخذ مجاهد بظاهر الآية ، فلم يجز الرهن إلا فى السفر . وقيده الضحاك فى السفر بفقدان الكاتب . ولكن الراجح : جواز الرهن سفرا وحضرا .

فقد روى البخارى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - « رهن درعه فى المدينة عند يهودى على ثلاثين صاعا من شعير »[1] ولم تتعرض الآية للشاهد ، لأن حكم الكاتب يسرى عليه وجودا وفقدانا .

وفى التعبير بقوله : ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ دون تقبضونها ، إشارة إلى الاكتفاء بقبض الوكيل .

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ :

بعد أن بين الله - فيما مضى - طريقى الاستيثاق من الدَّيْنِ - وهما الكتابة والإشهاد أو الرهن - ذكر أسلوبا آخر فى التعامل ، هو أسلوب الاستئمان والثقة ، فقال ما معناه :

فإن أمن بعض الدائنين بعض المدينين - فى حضر أوسفر بسبب حسن الظن والثقة ، فلم يتوثق بالكتابة والشهود والرهن - فليؤد المدين الذى اؤتمنه الدائن أمانة صاحب الدين ، أى دينه الذى له عليه .

---

(١) هكذا يتعامل اليهود دائما . فلا يقبلون أن يكون لهم دين على أحد إلا برهن ، ولوكان أشرف الشرفاء ، فالمال معبودهم الأول . وإنزال الناس منازلهم ، ليس من القيم المعتبرة عندهم .

(وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ) :

فلا يخونه بإنكار كل حقه أو بعضه ، فإنه تعالى رقيب حسيب ، شديد العقاب للخائنين .

وبهذا ، تضمنت الآية الكريمة ثلاثة أصناف من البيع : أحدها بيع بكتاب وشهود ، وثانيها بيع برهن ، وثالثها بيع بأمانة .

(وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ) :

هذا خطاب للشهود المؤمنين ، كما قاله سعيد بن جبير وغيره .

والمعنى عليه : ولا تخفوا الشهادة بما علمتم إذا دعيتم لأدائها .

والآية وإن نزلت فى الدَّيْن إلا أنها عامة – توجب أداء الشهادة على وجهها فى كل حال .

وقيل : هو خطاب للمدينين على معنى : ولا تكتموا شهادتكم على أنفسكم ، بل أقروا بالحق ، ولا تحتالوا بإبطال شهادة الشهود عليكم بالجرح ونحوه أمام القضاء .

(وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) :

أى ومن يكتم الشهادة بالحق ، فإنه آثم قلبه . وإسناد الإثم إلى القلب ، لأن الكلام فيمن كتم ما يعلمه ، وهو بذلك يكون قاصدا إخفاء الحق ، وذلك من عمل القلب ؛ فلذا أسند الإثم إليه . وإذا أثم القلب أثم صاحبه ؛ لأن العبرة بأفعال القلوب . ولذا رفعت المؤاخذة عمن يفعل المعصية ناسيا ؛ لأنه لا قصد له فيها .

كما أن الآية تشير بذلك ، إلى أن أثر المعصية بالكتمان يبقى فى قلبه ؛ إذ يستتبع فيه سوادا .

روى الترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد والحاكم ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَتْ فى قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها ، حتى تعلو على قلبه ، وهو الران الذى ذكر الله تعالى : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ »(١) .

وجاء فى الحديث الصحيح « ألا وإنَّ فى الجسد مضغةً ، إذا صلَحت صلَحَ الجسدُ كله ، وإذا فَسَدتْ فَسد الجسدُ كله ، ألا وهى القلب » رواه الشيخان .

(١) المطففين : الآية ١٤

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) :

ختم الله الآية بذلك ؛ تحذيرا للكاتمين ، وتنبيها للغافلين ، وإنذارا للجاحدين ، وتبشيرًا لأهل الأمانة والوفاء . أى والله بما تعملون من خير وشر ، بليغ العلم ، فيجازى كلاًّ على حسب عمله : إن خيرا فخير ، وإن شرًّا فشر .

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾) .

المفردات :

(تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ) : تظهروه .

(يُحَاسِبْكُم بِهِ) : أى يبينه لكم ، ويجازيكم عليه .

التفسير

٢٨٤ - (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ...) الآية .

حذر الله - سبحانه - فى الآية السابقة من كتمان الشهادة ، وجعل من يكتمها آثما عاصيا ، وبيَّن هنا ، أنه سبحانه وتعالى بكل ما يعملون عليم ، فلا يخفى عليه ما كتموه . وما يظهرون ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء .

(وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

وبذلك استكملت صورة التحذير من مخالفة ما أمرهم به جَلَّ وعلا .

والمعنى : لله ما فى السموات وما فى الأرض من أجزائهما ، وما استقر فيهما ، لا يشاركه فى خلقها أو ملكها ، أو التصرف فيها شريك ، فله أن يلزمكم أيها العباد بما يشاء من التكاليف ،

وعليكم أن تطيعوه ، ولا تعصوه .. وإن تظهروا ما فى أنفسكم من المعاصى أمام الناس ، قلة تبالوا بإظهاره أو تخفوه عنهم تقية أو أنفة ، فإن الله تعالى يعلمه ويجازيكم به ، فإنه يعلم السر ، كما يعلم العلن .

(فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

أى فيغفر بفضله لمن يشاء أن يغفر له ، ويعذب بعدله من يشاء أن يعذبه ، والله على كل شىء قدير . ومن كان كذلك فهو قادر على حساب أهل العصيان ، ومنح الغفران لمن يشاء ، وحرمانه من يشاء ، لا رادّ لفضله وعدله .

الأحكام

دلت الآية على أن الله ـ تعالى ـ عالم بما يعمله عباده . من أعمال : ظاهرة ، أو مستورة عن العيون ، أو مضمرة فى القلوب ، وأنه يحاسبهم عليها . فكل ذلك داخل تحت قوله تعالى : (وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ) .

كما دلت على أنه تعالى يغفر لمن يشاء من المؤمنين ، ويعذب من يشاء من المذنبين .

ومن الأعمال القلبية التى يحاسب الله عليها : النفاق : بالإيمان ، وبالعمل ، وسوء الظن بالمسلمين ، والحقد ، والحسد ونحو ذلك . ولا يدخل فيما يخفيه الإنسان ويحاسب عليه الوساوس ، وحديث النفس ؛ لأن ذلك ليس فى وسع الإنسان اجتنابه ، والله تعالى يقول : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا »[1] .

وفى ذلك يقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما رواه أصحاب الكتب الستة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« إن الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به نفسها ، ما لم تتكلم ، أو تعمل » .

بل إن المؤمن لو تجاوز حديث النفس إلى الهمّ بالمعصية ، ثم عدل عن فعلها فلا تكتب عليه . وفى ذلك يروى الشيخان[2] ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله

(١) البقرة : من الآية الأخيرة .

(٢) واللفظ لمسلم .

عليه الصلاة والسلام: « قال الله: إذا هَمَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هَمَّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها، فاكتبوها عشرا ».

وقد اتجهت نصوص الشريعة بالمؤاخذة على السيئات القلبية: كالحقد، والحسد، والنفاق، كما تقدم.

(ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ (٢٨٥)).

المفردات:

(وَمَلَائِكَتِهِ): الملائكة: أجسام نورانية قادرة على التشكل، خلقوا للطاعة: لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرون.

(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ): أحد: همزته أصلية. وهو اسم يطلق على الواحد والمثنى والجمع، مذكرا كان أو مؤنثا. ولذا صح دخول: بين، عليه، كأنه قيل بينهم. ومنه ما في قوله تعالى: « فَمَا مِنكُم مِّن أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ »[1]

التفسير

٢٨٥ - (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ...) الآية.

قال الزجاج: لما ذكر الله تعالى - عَزَّ وجَلَّ - في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والطلاق والحيض، والإيلاء، والجهاد، وقصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والدَّيْن والربا، ختمها بهذا تعظيما لنبيه وأتباعه، وتأكيدا وجمعا لما ذكر من قبل ... اهـ بتصرف يسير.

(١) الحاقة، الآية ٤٧

المعنى: آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه - فى هذه السورة وغيرها - إجمالا وتفصيلا ، وآمن المؤمنون به كذلك .

والفرق بين الإيمانين ، أن إيمان الرسول مبنى على المشاهدة والوحى ، وإيمان المؤمنين ناشىء عن الحجة والبرهان .

(كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) :

هذه جملة مستأنفة لتقرير الإيمان المذكور وتفصيله ، أى كل من النبىّ وأفراد المؤمنين ، صدَّق بالله وما يتصف به من كل كمال ، وما يتنزه عنه من كل نقص ، وصدق بملائكته وطهارتهم من المعاصى ، وأنهم منفذون لأوامر الله تعالى ، وأن بعضهم سُفَرَاءُ بينه تعالى وبين رسله الأكرمين ، وآمن بكتبه التى أنزلها على رسله متعبدا بها عباده ، وآمن برسله من حيث إنهم مبلغون لكتبه وشرائعه إلى خلقه .

(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ) :

أى كُلٌّ آمن قائلا : لا نفرق بين رسله . فلا نقول : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، كما فعل أهل التوراة والإنجيل ، بل نُؤْمِنُ بهم جميعا ، فهم رسل الله إلى خلقه ، فمن كفر بأحدهم ، فهو كافر بهم جميعا ، فلا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

(وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) :

جملة : قالوا سمعنا ... إلخ معطوفة على (آمَنَ) ، وهذه الجملة من الآية ، حكاية لامتثالهم الأوامر والنواهى إثر حكاية إيمانهم . والمراد من سمعهم : إجابتهم وامتثالهم . والمراد من إطاعتهم : قبولهم ما كلفوه - طواعية واختيارا - دون إكراه .

ولما كان المكلف لا يخلو من تقصير قالوا : غفرانك ربنا لما قصرنا فيه . ثم ختموا كلامهم بالاعتراف بالبعث بعد الموت ، فقالوا : وإليك المصير والانتهاء : لا إلى غيرك .

(لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾) .

المفردات :

(لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) : التكليف ؛ الأمر بما يشق . والوسع : الطاقة .

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) : الكسب والاكتساب بمعنى واحد : وهو التحصيل .

(نَسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا) : المراد من النسيان ؛ ترك الواجبات ، ومن الخطإ : فعل المنهيات .

(وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا) : الإصر ؛ معناه – هنا – العبء الثقيل ، مأخوذ من أصره يأْصِرُه أى حبسه ، والمراد به : التكاليف الشاقة .

(مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) : ما لا قدرة لنا على تحمله من العقوبات .

التفسير

٢٨٦ – (لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . . .) الآية .

هذه جملة مستأْنفة : بيّن فيها الله – سبحانه وتعالى – يُسْرَ التكاليف على عباده ، فقد ذكرها سبحانه بعد تلقى عباده لتكاليفه بالطاعة والقبول .

والمعنى : أنه تعالى ، جرت سنته : ألا يكلف نفسا من النفوس ، إلا ما تطيقه وتتسع له قدرتها . بل هو فى الحقيقة دون وسعها وطاقتها . فالصلاة : كلفنا منها خمسا فى اليوم والليلة ، والطاقة تتسع لأَكثر منها .

والصيام : كلفنا منه شهر رمضان ، والطاقة البشرية تتسع لأكثر منه . وهكذا. وإذا كانت سنته - تعالى - ألا يكلفنا إلا ما نطيقه ، فإن ذلك يدل على أنه لا يكلف بالمحال : فضلا منه وكرما ، وحكمة ورحمة .

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) :

بعد أن بين الله - تعالى - أن تكاليفه دائما فى وسعنا ، وبقدر طاقتنا ، عقب ذلك ببيان أن فعلها ، تعود منفعته على فاعليها ، وأن تركها تعود مضرته على تاركيها دون غيرهم ؛ ترغيبا للمكلفين فى المحافظة عليها ، وتحذيرا لهم من الإخلال بها ، أى للنفس ثواب ما كسبت من الطاعات ، وعليها عقاب ما اكتسبت من المعاصى .

وعبر بالكسب مع الطاعة ، والاكتساب مع المعصية ، من باب التلوين فى نمط الكلام ، كما فى قوله تعالى : « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا »[1] .

(رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) :

شروع فى بقية دعوات العباد ، بعد أن تخللها بيان أن الله لا يكلفهم إلا بما يطيقون .

والمعنى : هذا الدعاء من إرشاد الله بعباده ، فهو على تقدير الأمر منه - سبحانه - كما نقله أبو حيان فى البحر ، عن الحسن :

أى : قولوا فى دعائكم : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا) :

وظاهر الآية يفيد : أن من ترك واجبا ، أو فعلَ محرما ، نسيانا ، أو خطأً ، أى جهلا بالحكم الشرعى يؤَاخذ عليه ، ولهذا يعلمنا الله - تعالى - أن ندعوه ألا يؤَاخذنا على ذلك ، ولكن هذا يخالف قوله - صلى الله عليه وسلم - :

« إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[2] .

كما أننا لو أوخذنا بما نسينا أو أخطأنا ، لكنا مكلفين وقت النسيان أو الخطإ ، وذلك لا يصح ؛ لأنه تكليف بما ليس فى وسعنا ، والله - تعالى - يقول :

---

(١) الطارق : ١٧

(٢) أخرجه ابن ماجه ، وابن أبى حاتم ، وابن حبان فى صحيحه ، والطبرانى ، واللفظ للأخيرين .

(لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) : والمخرج من هذا ، أن يفسر النسيان بالترك عمدا ، فهو من معانيه اللغوية .

ومنه قول الشاعر :

ولم أك عند الجود للجود قاليا ولا كنت يوم الروع للطاغين ناسيا

ويفسر الخطأُ بفعل أو ترك الصواب من الواجبات - أو المنهيات - كسلا أو غواية . أو انحرافا ؛ فإن فسر بذلك ، استقام الدعاء بعدم المؤاخذة عليهما .

وقال الزمخشرى : ذُكِر الخطأُ والنسيان . والمراد ما هما سببان عنه من التفريط والإغفال . ا هـ .

ومقتضى هذا : أن الذى يعرف من نفسه النسيان يجب عليه أن يحتاط بما يُذَكِّرُهُ ، وإلا كان آثما . وكذا المخطىء إذا لم يجتهد فى تجنب الخطإ بسؤال أهل العلم .

(رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا) :

أى ربنا ولا تحمل علينا عبئا ثقيلا ، كما حملته على الذين من قبلنا .

والمقصود منه - كما قال ابن زيد - الذنب الذى ليس له توبة ولا كفارة .

وقيل : هو ما كلفه الله بنى إسرائيل من قتل النفس فى التوبة ، أو فى القصاص ؛ لأنه كان لا يجوز غيره فى شريعتهم ، وقطع موضع النجاسة من الثوب ونحوه ، وصرف ربع المال فى الزكاة . وما إلى ذلك .

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَالَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) :

يعلمنا الله بذلك : أن نستعفيه من العقوبات التى لا تطاق ، بعد أن علمنا الاستعفاء مما يؤدى إليها .

ويجوز أن يكون المراد مما لا طاقة لنا به من المحن والبلايا ، التى لا نطيق تحملها ، كالأمراض الجسدية والنفسية ، والعسر بعد اليسر ، والمشكلات التى لا نجد لها حلاً ونحو ذلك .

(وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا) :

أى وامح آثار ذنوبنا بترك عقوبتنا عليها ، واغفر لنا بستر القبيح ، وإظهار الجميل ، وتعطف علينا بكرمك وفضلك ، رحمة منك .

قال أبو حيان : ولم يأت فى هذه الجمل الثلاث بلفظ : ربنا ، لأنها نتائج الجمل التى تقدمت ، فجاء : (وَاعْفُ عَنَّا) . مقابل : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا) . وجاء (وَاغْفِرْ لَنَا) مقابل : (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا) . وجاء (وَارْحَمْنَا) مقابل ، (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) . إلى آخر ما قال .

(أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) :

أى أنت مالكنا وسيدنا ومتولى أمورنا . وإذ كنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين الذين يريدون المكروه بنا ، فمن كنت مولاه لا يضام .

روى عن معاذ بن جبل : أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال (آمين) .

قال ابن عطية : هذا يظن أنه رواه عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فإن كان ذلك فكمال ، وإن كان بقياس على سورة الحمد ، من حيث هنالك دعاء وهنا دعاء ، فحسن .

وقال على بن أبى طالب كرّم الله وجهه : ما أظن أن أحدا عقل وأدرك الإسلام ، ينام حتى يقرأهما .

وروى مسلم فى هذا المعنى ، عن أبى مسعود الأنصارى ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » .

قيل : معناه كفتاه من قيام الليل . كما روى عن ابن عمر . وقيل : كفتاه من شر الشيطان ، فلا يكون له عليه سلطان ، كما روى عن حذيفة بن اليمان .

والله أعلم .

سورة آل عمران : مدنية

وآياتها : مائتان نزلت بعد الأنفال

أهم مقاصدها :

١ – بدأ الله تعالى هذه السورة بتوحيده ، وذكر بعض أسمائه الحسنى ، وأنه سبحانه أنزل القرآن : مصدقا لما سبقه من الكتب السماوية .

وذكر أن من آياته : المحكم ؛ الذى يتمسك به المؤمنون ، ومنها المتشابه الخفى ؛ الذى يؤَوِّله الكافرون حسب أهوائهم .

٢ – ثم ذكر أن اللذائذ الدنيوية زائلة ، وأن الآخرة خير وأبقى ، ومافيها إنما هو للمؤمنين الذين أيقنوا أن الدِّينَ الحقَّ : هو الإسلام .

٣ – ثم علَّم الله الرسول مايقوله عند محاجة الكفار . وأبان أن أهل الكتاب بعضهم مهتد وبعضهم كافر : يقتلون الأنبياء ، ويدَّعون أنهم لن تمسهم النار إلا أياما قلائل . وأمر المؤمنين أن لايتخذوهم أولياء .

٤ – وأعلم أن محبته سبحانه لا تَتِمُّ إلا بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

٥ – وذكر قصص بعض المصطفين الأخيار : كمريم ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى عليهم السلام – وما جرى لعيسى من المعجزات ، وردَّ على ما اعتقده النصارى فيه من أنه ابن الله .

٦ – وأمر النبيَّ ، أن يدعوَ أهلَ الكتاب إلى المباهلة والدعاء ، بأن ينزل الله لعنته على الكافرين .

٧ – ورَدَّ على اليهود الذين قالوا : إن إبراهيم على ديننا . وذكر أن أَوْلَى الناس بإبراهيم : الذين اتبعوه ، والنبي والمسلمون

٨ – ونَبَّهَ المؤمنين إلى ألا يغترُّوا بكلام اليهود – الذين من عادتهم إلقاءُ الشبهات ، وإظهار الإيمان فى بعض الأوقات ، وإصرارهم على الخيانة ، وتحريفهم التوراة .

٩ – وأبان أنه تعالى أخذ الميثاق على الأنبياء : أنهم يؤمنون بجميع الرسل ، وأن من صفة محمد كونه مصدقاً لما معهم .

١٠– وأظهر أن من مات على الكفر لايُقبل منه مال ولا ولد فداءً له .
وعلَّم المؤمنين كيفية الإنفاق .

١١– وكذَّبَ اليهودَ الذين ادعوا أن كل شيء يحرمونه كان محرماً على نوح وإبراهيم !!

١٢– وأمر النبيَّ أن يحاجهم بكتابهم الناطق بصحة ما يقوله صلى الله عليه وسلم ، وأن يدعوهم إلى اتباع دين الإسلام .

١٣– ثم ذكر أفضلية البيت الحرام على غيره ، وأن حجه واجب على المستطيع .

١٤– وحذَّرَ فريقا من المسلمين من استماع كلام الكافرين . وطلب إلى المسلمين جميعا ، أن يكونوا دعاة إلى الإيمان والعمل الصالح .

١٥– وأبان أحوال الناس يوم القيامة . وبشَّرَ المؤمنين بالنصر . والكافرين بالعذاب .

١٦– ونَهَى المؤمنين أن يتخذوا بطانة من الكفار ، وحثَّهم على أن يخاطبوهم خطاب الأعداء ويعلموهم أن الله مطلع على ماق قلوبهم من : الحقد والبغض للمؤمنين . . .
ودعا المسلمين إلى الصبر ، ووعدهم بالحفظ من كيد الكافرين .

١٧– وذكر قصةَ بَدْر ، ونصْرَ الله للمسلمين .

١٨– ونهى – سبحانه وتعالى – عن أكل الربا .

١٩– وذكر صفات أهل الجنة .

٢٠– وأخبر – عزَّ وجلَّ – أن رسالة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – قد نسخَتِ الشرائعَ السابقة .

٢١- وذكر غزوة « أحد » ، وقرّر أن طريق الجنة : الجهاد والعمل الصالح ، وأن كثيرا من الأمم حاربت مع أنبيائها . وكرر زجر المؤمنين عن متابعة الكفار . وكرر تبشيرهم بالنصر . وذم المنهزمين الفارين .

٢٢- وأبان للنبي - صلى الله عليه وسلم - أنه رحيم بأمته وأنه لو كان سيئ الأخلاق ، لابتعد الناس عنه . وحثه على مشاورة أصحابه والعزم والتوكل على الله . وأبان أنه سبحانه تفضل على الخلق ، برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

٢٣- وبيّن حالَ الشهداء وفضلهم ، ومنزلَتَهم السامية عند الله .

٢٤- وذكر أن الشيطان وأولياءه يثبطون الهمم ، وأن شأن المؤمن الالتجاء إلى الله لينجيه منهم ، وأنه سبحانه سيميز المنافقين من المخلصين .

٢٥- ونَفَّر من البُخْلِ . وأبان أن اليهود يدعون أن الله فقير وأنهم أغنياء . وتوعدهم على هذا القول الفاجر .

٢٦- وسلّى نبيه بأنه - تعالى - سيحاسب الجميع بعد الموت ، وأنه - سبحانه - يختبر عباده ، وأن من صبر ، فله الأجر .

٢٧- وبيّنَ أن اليهود كتموا ما أنزل الله . وكذّبوا الرسول وهم يعلمون صدقه .

٢٨- وقرّر أنه يَبْتَلِي المؤمنين ليمحصهم ويرفع درجاتهم ، ودعاهم إلى الصبر والتقوى .

٢٩- ودعا الناس إلى استعمال عقولهم ، ليصلوا إلى معرفة الله ، ووصف أصحاب العقول بالصفات الطيبة

٣٠- وأبان أن أعداء الله - وإن كانوا فى صولة فى الدنيا - لا ينبغى أن يغتر المؤمنون بما نالوه ، فمصيرهم إلى جهنم . وَطيَّبَ خاطرَ المؤمنين ، بأنه أعدَّ لهم الثواب والنعيم .

٣١- وأبان أن بعض أهل الكتاب آمنوا ، وطلب إلى المؤمنين الصبر والمرابطة والتقوى والتمسك بالوحدانية المطلقة والعمل الصالح رجاء الظفر بقربه تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾) .

المفـردات :

(الٓمٓ) : سبق الحديث عنها فى أول سورة البقرة .

(ٱلْقَيُّومُ) : القائم بذاته ، أو عظيم القيام على تدبير خلقه .

(ٱلْفُرْقَانَ) : القرآن ، أو جميع الكتب السماوية ؛ لأنها تفرق بين الحقّ والباطل .

(ذُوانتِقَامٍ) : ذو عقوبة شديدة لمن عصاه . لايقدر على العقاب بمثلها أحد .

التفسير

١ ـ (الٓمٓ) :

٢ ـ (اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) :

سبب النزول : نزلت فى وفد نجران ، حين قدموا إلى المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحاجونه فى شأن عيسى بن مريم .

روى ابن جرير ، عن الربيع عن أنس ، قال :

« إن النصارى أتَوْا رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخاصموه فى عيسى بن مريم ، وقالوا له : مَن أبوه ؟ ، وقالوا على الله الكذب والبهتان . فقال لهم النبى ـ صلى الله عليه

وسلم - : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ، قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء : يَكْلَؤُه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى ، قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا ؟ قالوا : لا ، قال : ألستم تعلمون أن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ قالوا : بلى ، قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما عُلِّمَ ؟ قالوا : لا ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا صَوَّر عيسى فى الرحم كيف شاء ، وأن ربنا لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب ، ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غُذِّىَ كما يغذى الصبى ، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى ، قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ ! فعرفوا ، ثم أبوا إلا جحودا . . فأنزل الله :

(الٓمٓ . اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ) :

المعنى : ذهب بعض المفسرين : إلى أن (الٓمٓ) وأمثالها ، من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .

وقال آخرون : إنها أسماء حروف هجائية : ترمز إلى تحدى العرب بأن القرآن مؤلف من كلمات ذات حروف كهذه ، فأتوا بمثله إن صحَّ زعمكم أن محمدا افتراه ، فإذا عجزتم ، فمحمد مثلكم لا يستطيع أن يأتى بمثله ، فيجب الإيمان بأنه من عند الله تعالى [ارجع إلى ما قيل فيها فى صدر سورة البقرة] .

(اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) :

(اللهُ) : هو الإله ، المنفرد بالألوهية ، المستحق وحده للعبادة ، فالألوهية مقصورة عليه ، ثابتة له ، منفية عن غيره ، وبذلك نفى الشريك كما تزعم النصارى فى عيسى ، وكما تزعم اليهود فى عُزَيْر ؛ فإن اعتقاد البنوة شرك . كما نَفَى أن يكون هناك إلَه غيره ، كما يزعم المشركون .

كما أن الآية تنفى أن يكون الكون بغير إلَه خالق ، كما يقول الدهريون .

(الْحَيُّ) : المراد بالحى : الدائم الحياة ، الذى لايموت أبدا .

(الْقَيُّومُ) : الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه .

والوصفان ، كالدليل على استحقاق الله للتفرد بالألوهية .

٣ ، ٤ - (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ . مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ . .) الآيتان .

أى نزل عليك القرآن . وعبر عنه بالكتاب ؛ للإيذان بأنه هو الكتاب المتميز ، الذى ينصرف إليه هذا الاسم عند الإطلاق [1] ، أو للإشارة إلى أنه مشتمل على مافى غيره من الكتب السماوية من المقاصد المشتركة بين الأديان فكأنه جنس الكتب السماوية [2].

وعبر فى جانب القرآن بالتنزيل ، وفى جانب التوراة والإنجيل بالإنزال - كما سيجىء - لأن التنزيل للتكثير ، والله نزل القرآن مفرقا حسب الوقائع شاملا لجميع شئون الحياة ، فكان معنى التكثير حاصلا فيه . وأما التوراة والإنجيل فإنه - تعالى - عالج فيهما بعض شئون الحياة .

ومعنى تنزيل القرآن على الرسول بالحق ، أنه - تعالى - نزله عليه ملتبسا بالحق فى جميع صوره : من توحيد الله وتنزيهه عن الصاحبة والولد ، وإخباره عن أحوال الأمم السابقة مع رسلهم ، وشهادته بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وإخباره بأن أهل الكتاب يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل بأوصافه المميزة له ، وماجاء به من العبادات والمعاملات والأخلاق ، وأحوال الآخرة ، فكل هذه الصور من الحق ، جاء بها القرآن العظيم .

وكما نزله الله على رسوله بأنواع الحق التى ذكرناها ، فقد نزَّله مصدقًا لما بين يديه ، أى لما سبقه من الكتب السماوية التى أنزلها الله على رسله قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - أى موافقًا لها فيما اشتملت عليه من العقائد ، وأصول الأحكام . فكل مايوجد فى التوراة والإنجيل مخالفًا لما جاء فيه - كجعلهم لله صاحبة أو ولدا أو غير ذلك ، من العقائد وأصول الأحكام - فهو من تحريف أهل الكتاب ، وهو مردود على أصحابه .

---

(١) فأل فيه على هذا للعهد . (٢) فأل فيه على هذا للجنس .

فالغرض من هذين الوصفين ، رد ماعليه أهل الكتاب ، وإيذان بأن ماهم عليه ، إنما هو مخالف للحق ؛ ولما جاء فى التوراة والإنجيل النازلين من عند الله – تعالى – وبيان أن الحق – الموافق لسائر الكتب السماوية – هو ماجاء فى القرآن المجيد . ولذا عقبه بقوله :

(وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ) :

أى فأنزل التوراة والإنجيل من قبل القرآن ؛ لأجل هداية الناس حين أنزلهما على موسى وعيسى ، فلم يكن فيهما شىء من الضلال ، الذى يشتملان عليه الآن .

(وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ) :

أى وأنزل القرآن بعدهما : فارقا بين الحق الذى كانت عليه الكتب السماوية ، وبين الباطل الذى عليه أهل الكتابين الآن ، وسائر أصحاب الملل والنحل . فقد بين الحق فى أمر عُزَيْر وعيسى ، ونفى أنهما وَلَدَانِ لله . وأحلّ الحلال ، وحرَّم الحرام ، وفرض الفرائض ، وشرع الشرائع ، وسنّ الأخلاق الرفيعة ، وأوجب توحيد الله فى العبادة ، ونفى عنه الشركاء ، وأخبر عن يوم القيامة الذى تجزى فيه كل نفس بما عملت من خير أو شرّ ، وأقام الأدلة على ثبوته .

فمن استحب العمى على الهدى – بعد هذا الفرقان – فأولئك هم الظالمون . « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ »[1]

أخرج ابن جرير ، عن محمد بن جعفر بن الزبير : أنه – أى القرآن – الفاصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى – عليه السلام – وغيره .

وأيد هذا ، بأن صدر السورة نزلت فى محاجة النصارى للنبى – صلى الله عليه وسلم – فى أمر أخيه عيسى .

ولما ذكر الله ما يتعلق بمعرفة الإله ، وتقرير النبوة ، أتبعه الوعيد للكافرين المعرضين عن هذا الحق ، فقال :

---

(١) الشعراء من الآية : ٢٢٧

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) :

المراد بالكافرين : النصارى الذين نزل صدر السورة بسببهم ، أو كل كافر ، فيدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليًّا .

والمراد بآيات الله : الكتب المنزلة على الرسل ، أو مايعمها وغيرها . كالآيات الكونية والمعجزات ، وإضافة الآيات إلى اسم الله - تعالى - تهويل لفظاعة تكذيبها ، وتأكيد لاستحقاقهم العذاب ، وتنكير (عَذَابٌ) لتعظيم أمره . أى أنه عظيم لايقدَّر قدره .

(وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) :

العزيز : الغالب الذى لايغلب . والانتقام : العقوبة . وكلمة (عَزِيزٌ) : للإشارة إلى القدرة التامَّة على العقاب .

والجملة سيقت لتقرير الوعيد السابق عليها .

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾) .

المفردات :

(لَايَخْفَى) : لا يغيب .

(يُصَوِّرُكُمْ) : يخلقكم على ما شاء من صورة .

(الْأَرْحَامِ) : جمع رحم . وهى مكان الحمل . مشتق من الرحمة .

التفسير

٥ - (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) :

إن الله واسع العلم ، لا يخفى عليه شيء كائن فى الأرض ولا فى السماء؛ لعلمه بما يقع فى العالم من كُلِّيٍّ أو جُزْئِيٍّ ، فهو العالم بما كان وما يكون، وهو مطلع على كُفْر مَنْ كَفَرَ بآيات الله، وإيمان من آمن بها . وهو مجازيهم عليه ، والمسيحيون يؤمنون بألوهية عيسى غافلين عن أنه بشر محدود المعرفة فكيف يكون إلَهًا ؟

وعبر عن علمه -تعالى- بذلك؛ إيذانًا بأن علمه -سبحانه- بالكائنات -ولو كانت فى أقصى غايات الخفاء- ليس من شأنه أن يكون فيه شائبة خفاء بوجه من الوجوه، بل هو فى غاية الوضوح والجلاء .

٦ - (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ . . .) الآية .

أى يخلقكم على الصورة التى يريدها .

والآيتان رَدٌّ على نصارى نجران فى دعواهم ألوهية عيسى . ووجه الرّد : أن الإلَه هو الذى لايخفى عليه شيء ما : فى الأرض ولا فى السماء . وعيسى -كخلق الله- يخفى عليه مالم يُعْلِمْهُ اللهُ إياه . فلا يصلح أن يكون إلَهًا .

والله هو الذى يصور الخلق فى الأرحام كيف يشاء . وعيسى لايقدر على ذلك . بل صَوَّره الله فى رحم أمه كسائر خلقه فهو مخلوق لا خالق . ومن كان كذلك -لايصلح أن يكون إلَهًا . كما أن الآية الثانية كالدليل على أن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء . فإن من صَوَّر الأجنة فى الأرحام ، لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فمفهوم هذه الجملة كالنتيجة لما قبلها . فكأنه قيل : ومن كان لايخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء -وجب أن ينفرد بالألوهية ، فلا يشاركه فيها وَلَدٌ أَوْ غيره . وأن يكون هو العزيز الذى يَغلِب ولا يُغلَب ، الحكيم فى صنعه وتدبيره .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ .

المفردات :

(مُحْكَمَاتٌ) : واضحة الدلالة على معانيها .

(مُتَشَابِهَاتٌ) : محتملات لعدة معان لايتضح مقصودها ، فاشتبه أمرها على الناس .

(زَيْغٌ) : ميل عن الحق إلى الباطل .

(ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ) : طلبا لها .

(الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ) : الثابتون فيه .

(الْأَلْبَابِ) : العقول الخالصة .

التفسير

٧ـ (هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ . . .) الآية .

بعد أن بين الله : أن القرآن نزّله الله مصدقا للكتب السماوية التى سبقته ، وأنه فارقٌ بين الحق والباطل ، وتوعَّد مَن كفر به ، وأكد الوعيد بذكر أنه لايخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء ــ عاد إلى الحديث عنه فى هذه الآية ، على ماسنشرحه .

والمعنى : الله الذى تقدم بيان صفاته الجليلة ، هو الذى أنزل عليك - يامحمد - القرآن فيه آيات محكمات : أى واضحة الدلالة على معانيها .

وقد وصف الله هذه الآيات المحكمات بأنها : أم الكتاب . أى مرجع أحكامه ، وأصل معانيه . وسنوضح ذلك فى الكلام على المتشابهات .

(وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) :

أى وفيه آيات أخرى متشابهات ، أى غير واضحة الدلالة على معانيها بنفسها . فهذه ترجع - فى أحكامها ومعانيها - إلى ما تقرر فى المحكمات التى جعلت أصلا ومرجعا لأحكام القرآن ومعانيه المتشابهة . فأطلق عليها : أم الكتاب ، من أجل ذلك . فكما أن الولد يرجع إلى منبته وأصله وهى أمه - فكذلك المتشابهات ، ترجع إلى المحكمات ، فهى أصلها وأمها ومآلها .

ومن ذلك قوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ »[1] ، وقوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[2] ، فتحمل الأولى على معنى : لاتحيط به الأبصار ، وتحمل الثانية على معنى أنها تنظر إليه من غير إحاطة . . بردها إلى المحكم وهو قوله تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[3] ، فإنها تقتضى أن النظر إليه - سبحانه - لايصح أن يكون فيه إحاطة به ، حتى لايماثل مخلوقاته فى ذلك ؛ وليتفق هذا التأويل مع نفى إدراكه الذى اشتملت عليه الآية الأولى . وهكذا كل مايكون متشابها فى القرآن ، يحمل على محكمه .

قال الزمخشرى : فإن قلت : فهلّا كان القرآن كله محكما ؟ قلت : لو كان كله محكما لتعلق الناس به ؛ لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال . ولو فعلوا ذلك ، لعطلوا الطريق الذى لايتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به[4] . ولما فى المتشابه من الابتلاء ، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولما فى تقادح العلماء وإتعاب القرائح - فى استخراج معانيه ورده إلى المحكم - من الفوائد الجليلة ، والعلوم الجمة ، ونيل الدرجات عند الله . ولأن المؤمن المعتقد أن لامناقضة فى

---

(١) الأنعام من الآية : ١٠٣
(٢) القيامة الآيتان : ٢٢ و ٢٣
(٣) الشورى من الآية : ١١
(٤) وهو التفكر العقلى والتدبر فى الآيات .

كلام الله ، ولا اختلاف فيه – إذا رأى فيه ما يناقض ظاهره – وأهمَّهُ طلبُ ما يوفِّقُ بينه ويجريه على سَنَن واحد ، ففكَّر وراجع نفسه وغيره ، ففتح الله عليه ، وتبين مطابقة المتشابه للمحكم – ازداد طمأنينة إلى معتقده ، وقوة فى إيمانه . . . ا هـ والله أعلم .

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) :

لَمَّا بين الله أن فى الكتاب : محكمًا ومتشابها ، فرَّع على ذلك موقف أهل الزيغ من المتشابه .

وأهل الزيغ : هم المائلون عن الحق إلى الأهواء الباطلة ، فيدخل فيهم نصارى نجران ، الذين نزل صدر السورة بسببهم .

(فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ) :

أى فيتعلقون بذلك المتشابه وحده ، ولاينظرون إلى المحكم ليردوه إليه ، بل يأخذون بأحد الاحتمالات الباطلة التى توافق أغراضهم الفاسدة ، ومذاهبهم الباطلة ؛ إلحادًا وكفرًا .

(ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) :

أى طلب فتنة الناس عن دينهم ؛ بالتشكيك فى كونه من عند الله ، بزعم تناقضه ، وطلب تأويله إلى معان توافق مذاهبهم المبتدعة فى الدين ؛ ليحدثوا فِرَقا تشق وحدة المسلمين ، كتلك الفرق التى ظهرت ، مثل النصيرية والقاديانية والبهائية .

والذين يتبعون المتشابه فريقان : فريق من الكفار صرحاء مجاهرون ، يريدون هدم الدِّين بزعمهم تناقضه [(١)] ، وفريق منافقون ملحدون منحرفون عن جماعة المسلمين .

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ) :

أى ومايعلم تأويل المتشابه – حسبما ينبغى له – إلا الله . ولذا أوَّله وفسَّره بآياته المحكمات ؛ التى (هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ) ، ومرجع المتشابه فيه .

(١) كما فعل النصارى فى شأن عيسى ، حيث زعموا تناقض القرآن حين نفى بنوة عيسى لله تارة ، وأثبتها أخرى حين ذكر أنه روح منه . وهذا زيغ منهم يبتغون به الفتنة ، فإن المراد من قوله : « وروح منه » أنه صادر من الله ، فكما أن كل شىء صادر من الله بالخلق والإبداع ، فكذلك روح عيسى ، وصدق الله إذ يقول : « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ » .

(وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) :

يحتمل أن يكون الكلام تَمَّ ، عند قوله تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) وابتدأ كلاما جديدا بقوله : (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) والمعنى عليه : أن المتشابه لايعلم تأويله إلا الله . أما الراسخون فى العلم ، فلايزيغون كما زاغ أهل الفتنة ، بل يقولون آمنا بالمتشابه ، فكل من المتشابه والمحكم صادر من عند ربنا ، فهم بذلك يمسكون عن تأويله ، مفوضين العلم بمعناه إلى من أنزله – سبحانه – ويحتمل أن يكون : (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) معطوفا على لفظ الجلالة فى قوله : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) والمعنى عليه : ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم أيضا . فهم يعلمون تأويله برده إلى المحكم الذى هو أمٌّ للمتشابه . – ومع حسن تأويلهم لهطبقا للمحكم – فهم يقولون : آمنا به : كل – من المتشابه ومن المحكم – من عند ربنا .

ويشهد لصحة هذا الرأى أمران :

أحدهما أن الله – تعالى – ما أنزل القرآن إلا لِيُعْمَلَ به . فلا ينبغى أن يكون فيه ألغاز ومعميات لا يمكن فهمها وإدراكها . فمتشابهه يجب أن يرد إلى محكمه . . كما قال الله فى الآيات المحكمات : (هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ) : أى مرجعه عند الاشتباه .

وثانيهما : فى أن الله تعالى أثنى على الراسخين بقوله : (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) فنى وصفهم بأنهم أصحاب العقول الخالصة المتذكرة ، دليل على أنهم استعملوها فى كشف المتشابهات والتذكر بها .

والراسخون فى العلم : هم الثابتون فى العلم الشرعى ، الذين استناروا بمشكاة الكتاب والسنة ، ومنَّ الله عليهم بالفقه فى الدين .

روى الشيخان وأحمد عن النبى – صلى الله عليه وسلم – « مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرا يفقهْه فى الدِّين » .

(وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) :

أى وما يتدبر القرآن فلا يزيغ فى تفسير المتشابه منه ، إلا الراسخون فى العلم ، الذين قالوا : (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا) فهم أصحاب العقول الخالصة من الركون إلى الأهواء الزائفة .

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾) .

المفردات :

(لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا) : لَا تُمِلْهَا عن الحق .

(مِن لَّدُنكَ) : من عندك .

(لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ) : ليوم لايصح أن يشك فيه ، وهو يوم القيامة .

التفسير

٨ - (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا . . .) الآية .

يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام الراسخين ، ويحتمل أن يكون تعليما من الله لهم ، أى : قولوا ذلك وادعوا به ؛ لأن القلوب تتقلب .

والمعنى : لَا تُمِلْ قلوبنا - يا ربنا - عن نهج الحق بتأويل المتشابه تأويلا لا ترتضيه ، كما أزغت قلوب أولئك . أو : لا تَفْتِنَّا ولَا تَبْلُنَا ببلايا تَزيغ فيها قلوبُنا .

(وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً) : الرحمة المطلوبة لهم : إمَّا الإحسان والإنعام مطلقا ، وإمَّا الإحسان بالتوفيق للثبات على الحق ، كما يُشْعِر به ما قبله .

والمعنى على الثانى : وهب لنا من عندك توفيقا وثباتا على الحق : رحمة منك وفضلا .

(إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ) :

أى كثير الهبات والعطايا ، وهذا تعليل للسؤال ، أو لإعطاء المسئول ، أى أنك - أنت وحدك - الوهاب لكل موهوب .

وفيه دلالة على أن الهُدَى بتوفيق الله ، والضلال بعدم الإعانة منه ؛ لتقصير العبد فى سلوك سبيله ، وأنه متفضل بما ينعم به على عباده ، من غير أن يجب عليه شئ .

٩ - (رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ . . .) الآية .

أى : أنت ياربنا ، جامع المهتدين والزائغين ؛ لحسابهم وجزائهم فى يوم لا ينبغى أن يُرتاب فى وقوعه ووقوع مافيه من الحشر والنشر والجزاء .

ومقصود الراسخين فى العلم من هذا الدعاء، عرض افتقارهم إلى الرحمة ، وأنها المقصد الأسنى عندهم ، وتأكيد إظهار ماهم عليه من كمال الطمأنينة وقوة اليقين بأحوال الآخرة ؛ لمزيد الرغبة فى استنزال الإجابة .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) :

هو كلام الله - عزّ وجلّ - بعد أن تم كلام الراسخين عند قولهم :(لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ) كأن القوم لما قالوا : (إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّارَيْبَ فِيهِ) صدقهم الله فى ذلك ، وأيد كلامهم بقوله : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) .

وقيل : هو من كلام الراسخين .

والمعنى على هذا : إنك لاتخلف وعدك للمسلمين والكافرين بالثواب والعقاب ، أو وعدك بمجىء يوم لا ريب فيه . فهذه الجملة تعليل لمضمون الجملة السابقة المؤكدة لانتفاء الريب فى مجيئه . وإظهار الاسم الجليل -الله- لإبراز كمال التعظيم والإجلال . وللإشعار بعلة الحكم ، فإن الألوهية منافية للإخلاف فى الوعد .

والتأكيد بإنَّ ، وإظهار لفظ الجلالة بدلا من الضمير : يفيد - إلى ما سبق - تأكيد نفى الريب ، كما يفيد تأكيد قيام الساعة تأكيدا حاسما .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾) .

المفردات :

(وَقُودُ النَّارِ) : وقود النار – بالفتح – ماتوقد به . وبالضم : الاشتعال .

(كَدَأْبِ) : الدأب ؛ العادة .

(الْمِهَادُ) : الفراش .

التفسير

١٠ – (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا . . .) الآية .

المراد بالذين كفروا : جميع الكافرين . وفى جملتهم وفد نجران . الذين نزل صدر السورة بسببهم .

والمعنى : إن الذين كفروا جميعا ،لا تنفعهم –فى يوم لاريب فيه – أموالهم التى أعدوها ليبذلوها فى جلب المنافع ودفع الأذى ، ولا أولادهم الذين بهم يتناصرون ، وعليهم فى دفع الخطوب المدلهمة يعتمدون . فكل ذلك لا يغنى عنهم من الله وعذابه شيئا من الإغناء . . أو لن تغنى عنهم بدل رحمة الله وطاعته .

(وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ) :

أى وأولئك المتصفون بالكفر ، حطب النار التى تشتعل بهم ؛ لكفرهم .

وفى الآية : إشارة إلى أن الكفار أَلْهَتْهُم أموالهم وأولادهم عن الله ، والنظر فيما ينبغى له ، حتى كأنهم يعتقدون أنها تغنيهم عن رحمة الله وطاعته ، وتدفع عنهم عذابه .

١١ - (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . .) الآية .

المعنى : لن تغنى عن هؤلاء الكفار أموالهم ولا أولادهم ، شأنهم فى هذا ، شأن آل فرعون ، حيث لم يُغن عنهم ماملكوه من أموال طائلة ، وما أنجبوه من أبناء عديدين ، فأُغرقوا وأُدخلوا نارا ؛ بسبب كفرهم . فكما نزل بمن تقدم العذاب المعجل بالاستئصال ، فكذلك ينزل بكم أيها الكفار بمحمد - صلى الله عليه وسلم - من القتل والسبى والإجلاء وغنيمة الأموال . وكما دخلوا النار لكفرهم ، فستدخلونها أنتم لذلك . وفى ذلك يقول الله تعالى بعد هذه الآية : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » .

والمراد بمن قبلهم : الأمم الكافرة التى كذبت الرسل ، ثم فسر ذلك فقال :

(كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) :

الآيات : المعجزات والبراهين التى أُيد بها الرسل ، أو الأدلة على وجود الله ووحدانيته ، أو هما معا .

(فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ) :

أستعمل الأخذ ؛ لأن من ينزل به العقاب ، يصير كالمأخوذ المأسور ، الذى لا يقدر على التخلص .

والمعنى : فأخذهم الله وعاقبهم ، ولم يجدوا من بأس الله محيصا ، وذلك بسبب ذنوبهم التى أصرّوا عليها ولم يقلعوا عنها .

(وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

أى لمن كفر ، وهذا تذييل مقرر لمضمون ماقبله من الأخذ للجميع ، وتكملة له .

١٢ - (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) :

سبب النزول :

أخرج ابن جرير ، وابن إسحاق ، والبيهقى ، عن ابن عباس : « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما أصاب ما أصاب من « بدر » ورجع إلى المدينة - جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال : يامعشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا ، فقالوا : يا محمد ، لايغرنك من نفسك أن قتلتَ نفرا من قريش : كانوا أغمارا لايعرفون القتال ، إنك - والله - لو قاتلتنا ، لعرفْتَ أنا نحن الناس ؛ وأنك لم تكن مثلنا .. فأنزل اللهُ :

(قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ) إلى قوله : (لِأُولِى الْأَبْصَارِ) .

وحُكم الآية يعم جميعَ الكافرين ، وإن نزلت بسبب اليهود ، فسيغلب المؤمنون الكفار جميعا ، ويُنْصرون عليهم ، كما قال تعالى : « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »[1] ، وقال : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ »[2]

المعنى : قل يامحمد ، لهؤلاء الكفار : ستغلبون - ألبتة - عن قريب ، وستحشرونَ - بعد موتكم ثم بعثكم - إلى جهنم : مستقركم الدائم وبئس الفراش : جهنم ، التى مهدتموها لأنفسكم بذنوبكم وآثامكم .

والتعبير عن جهنم بالمهاد ؛ للتهكم بهم . فإن المهاد هو الفراش الذى يمهد ليستراح عليه ، ولا مهاد ولا راحة فى السعير .

وقد تحقق وعيد الله لهم بأنهم سيغلبون ، وذلك بقتل يهود بنى قريظة ، وإجلاء بنى النضير ، وفتح خيبر ، وضرب الجزية على من عداهم . . فكان الإخبار عن ذلك - قبل وقوعه ثم تحققه بعد ذلك - معجزة للرسول

وفى الآية دليل على حصول البعث بعد الموت ، وحصول الحشر والنشر ، وأن مرد الكافرين إلى النار . فكما تحقق الوعيد الأول ، يتحقق الوعيد الثانى يوم الحساب .

---

(١) الصف : ٩ (٢) الروم : ٤٧

(قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾) .

المفردات :

(آيَةٌ) : الآية هنا ؛ العبرة والعظة .

(فِئَةٌ) : الفئة ؛ الطائفة من الناس .

(الأَبْصَارِ) : البصائر والعقول .

التفسير

١٣ – (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا . . .) الآية .

الخطاب لليهود الذين اغتروا بأنفسهم ، أى قد كان لكم – أيها اليهود – علامة عظيمة دالة على تحقق ما توعدتكم به ، وهو أنكم ستُغلبون قريبا ، وهذه العلامة والآية : فى جماعتين التقتا فى القتال : يوم بدر ، وهم جيش رسول الله وأصحابه وجيش مشركى مكة .

ولاشك أن فى غلبة المسلمين – للكفار مع كثرتهم وعظيم عدتهم – آيةً بينة على صدق وعيد الله لهؤلاء الكافرين ، ووعده بنصر المؤمنين. مع العلم بأن المشركين خرجوا مستعدين للقتال أتم استعداد . بعكس المسلمين .

(فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ) :

أى فئة مؤمنة فى أعلى درجات الإيمان : تجاهد فى سبيل الله لإعلاء كلمته . وهم أصحاب « بدر » .

(وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ) :

أى وفئة أخرى كافرة . والمراد بها : كفار قريش . ولم توصف هذه الفئة بما يقابل صفة الفئة الأولى بأن يقال : إنهم يقاتلون فى سبيل الشيطان ؛ إسقاطا لقتالهم عن درجة الاعتبار ؛ وإيذانا بأنهم لم يتصدّوا للقتال حسب استعدادهم ؛ لما اعتراهم من الرعب والهيبة .

(يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ) :

الرائون : المشركون ، والمرئيون : المؤمنون .

والمعنى : أن المشركين كانوا يرون المؤمنين مِثْلَىْ عدد المشركين ، أو مثلى عدد المسلمين .

والمراد من الرؤية : الظن والحسبان . وقد كثّر الله المسلمين فى أعين المشركين – مع قلتهم – ليهابوهم ، فيحترزوا عن قتالهم ، أو أن الله أنزل الملائكة حتى صار عدد المسلمين كثيرًا فى نظر المشركين ، فكانوا يرونهم مثلين (رَأْيَ الْعَيْنِ):أى رؤية ظاهرة لا لبس فيها .

روى محمد بن الفرات ، عن سعيد بن أوس ، أنه قال : أسر المشركون رجلا من المسلمين فسألوه : كم كنتم ؟ قال : ثلاثمائة وبضعة عشر . قال : ما كنا نراكم إلا تُضْعِفُون علينا – وأرادوا أنهم كانوا ألفًا وتسعمائة وهو المراد مِنْ (يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ) .

وقد يقال : إن هذه الآية تناقض آية الأنفال التى تقول : « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ »[1] . فإن تلك الآية تقتضى أن كلا من الفريقين قُلِّل فى أعين الآخر ، وهذه الآية تقتضى أن المسلمين ضاعفهم الله فى أعين الكافرين . ؟ والحق ألا تناقض بينهما ، إذ المراد بآية الأنفال « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ » أيها المؤمنون « إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً » إنما كانت هذه الرؤية قبل الالتحام لتقدموا عليهم « وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ » ليقدموا عليكم . ، ولا يجبُنوا عن القتال ، فلما التحم الفريقان ، أرى الله المشركين المسلمين مثلين ، فكثر عدد المسلمين فى أعين الكفار ؛ ليهابوهم وتتزلزل أقدامهم ، فيفشلوا وينهزموا ، وكان عدد المسلمين الحقيقى فى بدر ، ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، وعددُ المشركين الحقيقى تسعمائة وخمسين رجلا .

(١) الأنفال : ٤٤

(وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ) :

والله يقوّى بنصره وبعونه من يشاءُ من عباده . فالنصر والظفر ، إنما يحصلان بتأْييد الله ونصره ، لا بكثرة العدد ، ولا بقوة الشوكة ، ولا بقوة السلاح : وقد تقف بعض العقبات فى طريق النصر ، ولكن العاقبة دائمًا للمتّقين .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى الْأَبْصَارِ) :

الإشارةُ إلى ما ذكر من رؤْية القليل كثيرًا ، المستتبعة لغلبة القليل عديم العدَّة على الكثير وافر العتاد والسلاح . والعبرة : الاعتبار أى الاتعاظ ، وأُولو الأَبصار : أَصحاب البصائر أى العقول كما يقال لفلان بَصَرٌ بهذا الأَمر ، أى علم ومعرفة .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾) .

المفردات :

(حُبُّ الشَّهَوَاتِ) : حب المشتهيات للنفس .

(الْمُقَنطَرَةِ) : المجمعة أو المضعَّفة .

(الْمُسَوَّمَةِ) : الراعية فى المرعى . مأْخوذ من : سوَّم خيله ، إذا أرسلها فى المرعى ، أو المطهمة الحسان .

(وَالْأَنْعَامِ) : الإبل والبقر ، والغنم والمعز .

(وَالْحَرْثِ) : مصدر مراد به : المزروع .

التفسير

١٤ - (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ . . .) الآية .

بعد أن توعد الله الكافرين بالهزيمة من المؤمنين ، وآذنهم بوجوب الاعتبار بما أصاب المشركين يوم بدر ، بسبب كفرهم - مع كثرتهم ووفرة عدتهم من المؤمنين مع قلتهم وضعف استعدادهم أتبعه التنفير من زينة الدنيا الفانية - إذا صرفَتْ عن الله - والحثَّ على العمل للآخرة ؛ فإنها خير وأبقى . فذكر - سبحانه - هذه الآية الكريمة .

والمزيِّن لحب الشهوات ، هو الله تعالى كما روى عن عمر بن الخطاب .

والمراد من تزيين الله حب المشتهيات الدنيوية : أنه جعلها حسناء ، ترغب فيها النفوس لحسنها ، وتميل لحيازتها والتمتع بها . ولذا ، أحب الرجال النساء ليتزوجوهن، وأحبوا البنين ليعاونوهم ويرثوهم ، وأحبوا المال لأنَّ به قضاء المصالح ، وأحبوا الخيل والأنعام للزينة وحمل المتاع وغير ذلك . ولولا أن الله أعطى هذه الحياة الدنيا : أسباب الحسن والجمال وجعلها أساسًا للمنافع - لما تزينت ولما تحسنت لهم ، ولأعرضوا عنها ، كما يعرضون عما ليس فيه جمال ولا منفعة ، كالحيوانات الضارة ، أو ضئيلة النفع .

وكما زينها وحسَّنها لهم ، حذرهم من فتنتها ، والركون إليها ، والاغترار بها . كما يشير إليه آخر الآية ، وكقوله تعالى : « قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ »(١) . وغير ذلك .

وقيل المزيِّن : الشيطان . وتزيينه حب الشهوات : حضه على الرغبة فى ارتكاب المحرمات منها .

ويؤيد هذا قوله تعالى : « وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ »(٢) .

وقيل : غير ذلك .

---

(١) التوبة : من الآية ٢٤ (٢) النمل : من الآية ٢٤

والشهوات : جمع شهوة وهى : توقان النفس إلى الشيء .

وفى تسميته المشتهيات بهذا الاسم فائدتان :

إحداهما : أنه جعل الأعيان التى ذكرها شهوات ، مبالغة فى كونها مشتهاة ، محروصا على الاستمتاع بها .

وثانيهما : أن الشهوة صفة مسترذلة عند الحكماء ، مذموم من اتبعها ، شاهدة على نفسه بالبهيمية . فكان المقصود من ذكر هذا اللفظ التنفير عنها .

ولقد عدد الله هنا سبعة أنواع من المشتهيات إذ قال : (مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ) .

والمراد من النساء مايشمل الإماء ، وقدمهن على الكل ، لأن التمتع بهن أكثر ، والاستئناس بهن أتم .

(وَالْبَنِينَ) :

أى الأولاد الذكور ، وخصهم لأن حب الولد الذكر ، أكثر من حب الأنثى . ووجه التمتع بهم : السرور والتكاثر بهم ، إذ هم المعدون للدفاع .

وثنى بالبنين ، لأنهم من ثمرات النساء .

وقيل : المراد بالبنين الأولاد مطلقا . والتذكير للتغليب .

(وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ) :

القناطير ، جمع قنطار ، ويطلق أحيانًا على المال الكثير بغير عدد ، وهو المراد هنا . كما أخرجه ابن جرير عن الضَّحَّاك .

وقد يستعمل فى مقدار كثير معين من المال . كما أخرجه أحمد ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« القنطار اثنا عشر ألف أوقية » كما يستعمل فى وزن محدود ، وهو مائة رطل . فنى القاموس : القنطار مائة رطل من ذهب أوفضة .

ووصف القناطير بالمقنطرة ؛ للمبالغة . . فمن عادة العرب : أن يصفوا الشيء بما يشتق منه للمبالغة ، كظل ظليل .

وقيل معناه : المحصَّنة . من قَنْطَرتُ الشيء . إذا عقدته وأحكمته . وإنما كان الذهب والفضة محبوبين ، لأنهما سبب للحصول على كل محبوب .

(وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ) :

المسوَّمة : بمعنى الراعية . ووصفت الخيل بذلك ، لأنها إذا رعت ازدادت حسنا . وقيلَ : المسومة ، بمعنى المطهمة الحسان . مأخوذة من السيما وهى الحسن . أو هى المعلمة ذات الغرة والتحجيل . من السمة وهى العلامة .

(وَالْأَنْعَامِ) :

هى : الإبل والبقر والغنم والمعز .

(وَالْحَرْثِ) :

أى الزرع من حبوب وبقل وتمر .

(ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) :

الإشارة إلى ماذكر من الأصناف التى زُيِّن للناس حبها ، والمتاع : مايتمتع به فى الدنيا زمنًا قليلا ، لأن الآجال مهما طالت فهى قصيرة .

(وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) :

المآب : المرجع ، وإضافة حسن إلى المآب من إضافة الصفة إلى موصوفها ، أى المآب الحسن وهو الجنة .

وليس المراد من الآية الكريمة الصرف عن التمتع بزينة الحياة الدنيا ، فإن التمتع بها حلال ، كما قال-تعالى- فى سورة الأعراف : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ . وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1] أى خالصة من العقاب عليها يوم القيامة .

ولكن المراد : ألا يشتغل المؤمنون بها عن الله تعالى ، ولايغتَرُّوا بمفاتنها ، وأن يجعلوها وسيلة لحسن المآب ، بصرفها فى طاعة الله ومرضاته ، إلى جانب تمتعهم الحلال بها .

---

(١) الأعراف : ٣٢


الأزهر
مطبعة المصحف الشريف



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب السادس

الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾) .

المفـردات :

(أَؤُنَبِّئُكُم) : الهمزة للاستفهام . والمراد منه : التنبيه والتشويق إلى ما ينبئهم به والإنباء : الإخبار . فكأنه يقول : إنى مخبركم بخبر يسترعى انتباهكم وشوقكم إلى سماعه ، فاستمعوا إليه .

(وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ) : وزوجات مطهرة من الأدناس : حسية ومعنوية .

(وَالْقَانِتِينَ) : والمطيعين لله ، الخاضعين له ، المقرّين بعبوديتهم له .

(بِالْأَسْحَارِ) : الأسحار جمع سحر . وهوآخر الليل قبيل الفجر .

(وَرِضْوَانٌ) : الرضوان : الرضا العظيم .

التفسير

١٥ ـ (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . .) الآية .

لما ذكر الله فى الآيَةِ السابقة ، أنه قد زيّن للناس مشتهيات الدنيا من النساء والبنين ، والكثير من الذهب والفضة ، والخيل الحسان المطهمة ، والأنعام والزرع ، وَنبَّهَهُم إلى أنها

متاع الحياة الدنيا، وأن لديه (حُسْنُ الْمَآبِ) - أتبع ذلك بيان حسن المآب، وأنه خير من هذا المتاع الذى يغتر به قصارُ النظر، وأن الذى يحظى به هم: المتقون. فقال جَلَّ ثناؤه: (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ . . .) الآية.

والمعنى: قل يا محمد، لهؤلاء الذين يخدعون بزينة الحياة وما فيها من جمال وحسن، فيحبون مشتهياتها ولذاتها: هل أخبركم بخير من ذلكم الذى تحبونه، وتميلون إليه من متاع الحياة الدنيا؟ ثم أجابهم عن هذا الاستفهام المشوق ومعناه:

للذين اتَّقَوْا عقاب ربهم فخافوه ولم يعصوه، وأعرضوا عما سواه فلم يفتنوا به، وكانوا بذلك فى وقاية من غضبه وعذابه.

لِهؤلاء: بساتين عظيمة الحسن، تجرى من تحتها الأنهار، فيتضاعف بذلك حسنها، ويكمل به التمتع بمباهجها وقطوفها، وهى - لهم حال كونهم خالدين فيها - لا يبرحونها، ولهم مع ذلك زوجات مطهرات من الأدناس الحسية والخُلُقية، فلا يرون فيهن ما يتوهم من عوارض تغض من جمالهن وطهرهن، وبذلك تكتمل البهجة النفسية، ولهم - فوق ذلك - رضا عظيم صادر من الله ينعمون به، وهم يتقلبون فى هذه العطايا فلا يسخط عليهم بعد ذلك أبدا. وهذا الرضا أكبر من تلك النعم.. كما صرح به فى قوله تعالى: «وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ»[1].

والله خبير بجميع العباد، يعلم أعمالهم وأقوالهم وخواطرهم النفسية، فيثيب المحسن فضلا وكرمًا، ويعاقب المسىء عدلا لا يشوبه حيف.

والتعبير عن الجنات بأنها (عِندَ رَبِّهِمْ): للإشارة إلى علو رتبتها، وسمو شرفها، وفى التعرض لعنوان الربوبية - مع الإضافة إلى ضمير المتقين - تلطف بهم، وتشريف وتكريم لهم.

وقد بدأ الله - سبحانه - فى هذه الآية بذكر الجزاء المقرر وهو الجنات، ثم ثنَّى بذكر ما يحصل به الأنس التَّام وهو الأزواج المطهرة، ثم ذكر ما هو أعظم وأفخم وهو رضا الله الذى يسعى إليه الحبيب الواله.. نسأله تعالى ألا يحرمنا رضاه.

(١) التوبة: ٧٢

١٦ - (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) :

المعنى : هؤلاء المتقون الذين ينعمون بهذا النعيم ، هم الذين يقولون - بإخلاص ويقين - ربنا إننا صدقنا بالذى أنزلته على رسولك محمد وسائر من سبقه من الرسل ، فاغفر لنا - ببركة هذا اليقين الثابت - ذنوبنا : صغائرها وكبائرها ، واحفظنا من عذاب النار التى لاطوق لأحد بقليلها ، فكيف يطيق سعيرها !

١٧ - (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) :

هذه الأوصاف الكريمة ، هى بقية أوصاف المتقين ، الذين وعدوا بالجنات وما فيها من نعيم مقيم .

والمعنى : الصابرين على مشاقّ الطاعات والنَّوائب ، وعن مغريات المعاصى من مُتَع الحياة الدنيا . والصادقين فى إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم . والخاضعين المطيعين لتكاليف ربهم . والمنفقين لأموالهم : فى حقوق الله تعالى وحقوق ذويهم ، وفى أنواع البر التى ندبهم الله ورسوله إليها . والمستغفرين ربهم فى أواخر الليل والناس نيام . فهم ينهضون من لذيذ المنام ، وينتزعون أنفسهم من فراش الراحة والغفلة ، ويطلبون غفران ربهم لما عسى أن يكون قد فَرَط منهم من ذنوب . وهم قائمون فى محاريبهم ، أو جالسون بين يدى مولاهم ، إيثارا لطاعة ربهم على هوى نفوسهم .

وقد جاء فى فضل الطاعة فى الأسحار آثار عديدة :

منها ما رواه النسائى بسند صحيح ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله سبحانه يُمهل حتى يمضىَ شطرُ الليل الأول ، ثم يأمر مناديًا فيقول : هل مِنْ دَاعٍ يستجاب له ؟ هل من مستغفر يُغفَرُ له ؟ هل من سائل يعطَى ؟ » .

وفى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أوله وأوسطه وآخره ، فانتهى وتره إلى السحَر » .

(شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾) .

المفـردات :

(شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) : أى بَيَّنَ لعباده ذلك بالأدلة الواضحة . فكأن ذلك منه شهادة وأى شهادة . أما شهادة الملائكة وأولى العلم فهى : إقرارهم بذلك .

(قَائِمًا بِالْقِسْطِ) : أى قائمًا بالعدل فى تدبير الكون .

التفسير

١٨ - (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ . . .) الآية .

لما ذكر الله فى -الآية السابقة - أن الذين استحقوا حسن المآب هم الذين قالوا : ربَّنا إننا آمنا - أتبع ذلك بيان ما آمنوا به ، وهو توحيد الله الذى شهدت به آياته القرآنية والكونية ، وأقرت به الملائكة وأولو العلم .

المعنى : هذه الشهادة موجهة إلى أهل نجران ، الذين جادلوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى أمر عيسى عليه السلام ، ونزل بسببهم صدر هذه السورة . وإلى هذا يميل محمد بن جعفر بن الزُّبَيْر .

وشهادة الله، المراد بها هنا : تقرير وحدانيته تعالى، بما أقامه من الأدلة فى الأنفس والآفاق ، وبما جاء فى الكتب السماوية من البراهين ، كقوله تعالى فى القرآن : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا »[1] وبما أثبته فيها من عبارات التوحيد كقوله : «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ »[2] . وقوله تعالى : « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ »[3] . وكما شهد الله بأنه لا إله إلا هو ، فقد شهد بذلك الملائكة الذين « لَا يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »[4] . وكذلك أصحاب العلم والفكر السديد من الأنبياء والمرسلين ، ومَن آمن بهم ، وكل من فكر فى آيات الله الكونية فآمن به . هؤلاء - جميعا -

(١) الأنبياء . من الآية : ٢٢ (٢) الإخلاص : ١ (٣) محمد : ١٩ (٤) التحريم : ٦

شهدوا لله بالوحدانية ، حال كونه قائمًا بالقسط والعدل فى تدبيره للكون ، فَبِعَدْلِهِ قامت السموات والأرض .

والعدل هنا ، هو : الحكمة فى التدبير ، الذى استقامت به أمور الكون . . ويختم الله هذه الآية فيقول :

(لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

فيؤكد - بهذه الخاتمة - وحدانيته ويقررها ، ويضيف إليها وصف العزة - وهى الغلبة والقهر - وكذا وصف الحكمة - وهى فعل ما به صلاح الكون - ولولا أنه واحد عزيز حكيم ، لما وُجد هذا الكون ، ولما تم له هذا الكمال .

(إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾) .

المفردات :

(بَغْيًا بَيْنَهُمْ) : ظلمًا قائمًا فيهم ، وحسدًا موجودًا فى بيئتهم .

(فَإِنْ حَآجُّوكَ) : أى جادلوك .

(أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ) : أخلصت ذاتى ونفسى له تعالى .

(وَالْأُمِّيِّينَ) : المراد بهم ؛ من لا يكتبون من مشركى العرب من غير الكتابيين ؛ لشيوع الأُمية فيهم .

التفسير

١٩ - (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ . . .) الآية .

المعنى : إن المِلَّةَ المرضية عند الله - هى الإسلام .. فلا يُقبل من أحد دين غيره « وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ »[1] . فليس لأحد من أهل الكتاب أن يتمسك بملته بعد ما أنزل الله دستوره القرآن ناسخًا لما قبله من الأديان والشرائع ، كما أنه ليس للمشركين أن يتمسكوا بشركهم : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »[2] فلا يرضاه الله لأحد دينًا .

وكما أن الإسلام هو دين هذه الأمة التى رضيه الله لها ، فهو دين جميع الأنبياء والمرسلين وأممهم من قبل محمد ، فهو دين الله دائمًا فى جميع الأزمان ؛ لاشتماله على توحيده تعالى وتنزيهه عن الصاحبة والولد ؛ واحتوائه على أصول الشرائع المشتركة بينهما .. أما الفروع ، فإنها مختلفة ، تبعًا لاختلاف الأمم .

قال تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »[3] ، فإن ما يصلح منها لأمة ، لا يصلح لأمة أخرى .

فالصيام مشروع فى جميع الأديان ، ولكن كيفيته تختلف باختلاف الأمم .

والميراث مشروع فى جميع الشرائع ، ولكن كيفيته تختلف باختلاف الأمم .

وهكذا الأمر بالنسبة لباقى الأحكام .

وبالجملة ، فالأمر كما قال صلى الله عليه وسلم : « الأنبياء إخوة لعلات[4] أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد » والمعنى : أنهم إخوة فى الدين ، وإن تفرقت الأمهات. ولعله يقصد بالأمهات : الأمم التى بعثوا فيها . ويدل لذلك قوله تعالى : « شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »[5] .

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) :

المعنى : كان أهل الكتاب مجمعين - فيما بينهم - على الإسلام إذا جاءهم رسوله الموعود به فى كتبهم .

وكان فريق منهم - وهم اليهود - يعادون مشركى المدينة .. وكانت تحدث بينهم حروب ،

---

(١) آل عمران . من الآية : ٨٥ (٢) لقمان . من الآية : ١٣ (٣) المائدة . من الآية : ٤٨

(٤) أى : إخوة لضرات . حديث رواه الشيخان وأوله : « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم . . . » .

(٥) الشورى : ١٣

فيقولون : اللهم افتح علينا ، وانصرنا بالنبى المبعوث آخر الزمان . ويقولون لأعدائهم المشركين : قد أظلَّ زمانُ نَبِيٍّ يخرج بتصديق ما قلنا ، فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرَم .

وكان هذا حالهم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعائه الناس إلى الإسلام : الذى جاء به مصححا للأخطاء المتعمدة التى اقترفوها فى دينهم ، كدعواهم بُنُوَّةَ عُزير وعيسى ، لله تَعالى..فحسدوه صلى الله عليه وسلم ، لأنه من ولد إسماعيل ، وليس من ولد إسحاق عليهما السلام .

واختلفوا فى أمر الإسلام : فمنهم من آمن به كعبد الله بن سلام ، وزيد بن سعنة ، من أحبار اليهود وغيرهما . ومنهم من كفر به وهم أكثرهم . وكان كفرهم هذا من بعد ما جاءهم العلم اليقينى بأنه الحق ؛ إذ أتاهم على وفق أوصافه ونعوته فى كتابهم . وكان هذا أقبح القبح منهم . وإن الجحود – بعد العلم – أشنع من الكفر عن غفلة أو جهالة .

وما كان اختلافهم فيه – بعد ما أتاهم العلم – إلا بغيا وحسدا فاشيا بينهم ، لا لشبهة تقتضيه .. وصدق الله إذ يقول : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآ آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا »[1]

(وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) :

ختم الله الآية بهذا الوعيد .

والمعنى : ومن يجحد آيات الله – الشاهدة بأن الإسلام هو الدين عند الله فلا يؤمن به – يعاقبه الله عن قريب ، فإنه سريع الحساب ومن كان سريع الحساب ، كان سريع العقاب ، قريب الجزاء .

وقد نفذ الله وعيده فيهم ، فقُتلوا ، وأُخرجوا من ديارهم حول المدينة ... وما ينتظرهم من الجزاء فى الآخرة أعظم .

٢٠ – (فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ...) الآية .

(١) النساء : ٥٤

المعنى : فإن جادلك أهل الكتاب ، أو جميع الناس فى الدين بعد ما جاءهم العلم به ، وظهرت لهم براهينه ، فقل لهم : أسلمت وجهى لله ، أى أخلصت ذاتى ونفسى له ، ومَنْ آمن معى أخلصوا له أنفسهم كذلك .

وإطلاق الوجه على الذات كلها ؛ لأنه ترجمان النفس ، وعليه تظهر آثارها ، وهو من إطلاق اسم الجزء على الكلّ لأهميته .

والمراد من الآية : أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يقول لأهل الكتاب ذلك ؛ ليعلموا أنه ليس مسئولا عن انحرافهم وكفرهم ، وأن تبعة ذلك عليهم وحدهم ، وأنه سائر فى طريق عبادة الله وحده هو وأتباعه ، دون اكتراث بضلالهم ؛ لأن المحاجة والجدل معهم – لا فائدة فيهما ، بعد ما جاءهم العلم بأن ما عليه هو الحق .

(وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) :

المعنى : وقل يامحمد – لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وللأميين – وهم مشركو العرب: الذين عرفوا بهذا الوصف؛ لعدم معرفة سوادهم الأعظم القراءة والكتابة – قل لهم – بعد ما أعلمتهم بترك المحاجة معهم وبإسلام وجهك وتابعيك لله تعالى – هل أَجْدَى معكم هذا وأسلمتم متبعين لى كما فعل المؤمنون ، فإنه قد جاءكم من الآيات ما يقتضى الإسلام ، أو أنتم لاتزالون مصرين على العناد والكفر ؟ .

وهذا كما تقول – إذا لَخَّصْتَ لسائل مسألة بعد ما بينتها له بسعة وإفاضة – هل فهمت ما قلته لك ؟ وذلك على نظام قوله تعالى : « فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ »[1] بعد تفصيل الصوارف عن تعاطى ما حرم الله تعالى.

وفى ذلك توبيخ واتهام لهم بالبلادة وجمود القريحة .

فإن أسلموا متأثرين بذلك ، فقد اهتدوا إلى الحق بإسلامهم ، وخرجوا مما كانوا فيه من ضلال .

وإن أعرضوا عن الإسلام فلا يضرك إعراضهم ؛ فما عليك إلا تبليغهم ، وقد فعلت ، فخلصت بذلك من التبعة .

(وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) :

(١) المائدة . من الآية : ٩١

عليم بأحوالهم ، فلا تخفى عليه أعمالهم ، فيجزى من أسلم بإسلامه ، ويعاقب من تولى وأعرض بتوليه وإعراضه .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾) .

المفردات :

(يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ) : القسط ؛ العدل .

(فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) : التبشير هنا ؛ بمعنى الإنذار . استعمل فيه ، على سبيل التهكم .

(حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) : بطلت أعمالهم الحسنة ، فضاع ثوابها .

التفسير

٢١ - (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) :

بعد أن توعد الله الكافرين بسرعة الحساب وأليم العقاب . وبعد أن بين لرسوله أنه ليس عليه سوى البلاغ ، فإن أسلموا قُبل منهم ، وإن أعرضوا أعرض عنهم وترك محاجتهم وأسلم وجهه مع من تبعه إلى ربه - أتبع ذلك بيان العقوبة التى يستحقها الكافرون بآيات الله ، القاتلون للأنبياء ولمن يأمر بالعدل من الناس .

المعنى : المراد من الذين يكفرون بآيات الله ، كل من جحد براهينه تعالى ، وحججه ، فلم يؤمن بما أنزله على رسله . ويدخل فيهم : أهل الكتاب المعاصرون للنبى من اليهود والنصارى ، الذين كفروا بما أنزله الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ووصفهم بأنهم قتلوا

الأنبياء بغير حق ، مع أن قاتليهم هم آباؤهم ؛ لأن فعل الآباء ، ينسب إلى الأبناء إذا كانوا موافقين عليه أو لم ينكروه . أو أنهم وصفوا بذلك ؛ للإيذان بأن هذا شأنهم ، وأنه متغلغل فى دمهم ، وأنهم لو وجدوا أنبياءهم لقتلوهم ، كما فعل آباؤهم .

ووصف قتلهم الأنبياء بأنه بغير حق ، ليس للتقييد ، بل للإيذان بأنه — دائمًا — يكون بغير حق . فإن الأنبياء لا يرتكبون ما يوجبه أصلا ، إذ هم معصومون من المعاصى مطلقا ، فضلا عن عصمتهم عما يقتضى أن يقتلوا به .

والذين يأمرون بالقسط من الناس ، هم أهل الحق من بينهم : الذين كانوا يأمرونهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر .

ولما كان هذا لا يرضيهم ؛ لتأصل العصيان فى نفوسهم — قتلوهم كما قتلوا أنبياءهم ؛ ليستريحوا من وعظهم وتذكيرهم ولومهم ؛ وليخلوَ لهم جو الفحشاء والمنكر .

روى ابن جرير عن أبى عبيدة بن الجراح ، قال : « قلت يا رسول الله : أى الناس أشد عذابًا يوم القيامة ؟ . قال : رجلٌ قتل نبيًّا ، أو رجلًا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ثم قرأ الآية : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ . . .) .

وتبشيرهم بعذاب أليم : إخبارهم بعذاب شديد الإيلام .

ولما كان الإخبار بوعيد مؤلم يسمى إنذارا ، والإخبار بوعد سارٍّ يسمى تبشيرا ، فإطلاق التبشير على ما هو إنذار ، من باب التهكم والسخرية بأولئك المجرمين الذين لا يعقلون .

وخلاصة المعنى : إن الذين ينكرون آيات الله تعالى ، فيكفرون بما يجب الإيمان به ، ويقتلون أنبياءهم بغير جريمة تقتضى القتل — والأنبياء معصومون من كل جريمة تقتضيه — ويقتلون الواعظين المذكّرين الذين يأمرونهم بالعدل من صفوة الناس ، فأنذرهم — يا محمد — بعذاب شديد الإيلام .

٢٢ — (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) :

المعنى : أولئك الموصوفون بالكفر ، وقتل الأنبياء ومن يأمر بالقسط من الناس — هم الذين بطلت فى الدنيا أعمالهم الصالحة : كالصدقة وصلة الرحم ، فلم تستتبع آثارها المرجوة ، حيث لم تحقن بها دماؤهم ، ولم تحفظ بها أموالهم ، ولم يستحقوا بها مدحا ولا ثناء ، ولم يكن لها حظ الاعتبار فى الآخرة .

وصدق الله تعالى إذ يقول : « وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا »[1]

(وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) : مانعين من العذاب .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾) .

المفـردات :

(أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ) : أعطوا حظًّا منه . والكتاب : اسم جنس لكل كتاب سماوى . والمقصود من النصيب : التوراة والإنجيل .

(وَهُم مُّعْرِضُونَ) : وهم منصرفون.

(أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ) : يقصدون بها أيام عبادتهم للعجل .

(وَغَرَّهُمْ) : وأطمعهم .

(مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : ما كانوا يكذبون من أن النار لن تمسهم ، إلا أياما معدودات.

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ) :وأعطيت كل نفس جزاء ما عملته – من خير أو شرٍّ – وافيا .

(١) الفرقان : ٢٣

التفسير

٢٣ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ) :

المعنى : الخطاب فى قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ) لكل من تتأتى منه الرؤية .
والاستفهام ، للتعجيب من حال الذين أوتوا نصيبًا وحظًّا من كتب الله تعالى : التى أنزلها على رسله . وخص اليهود منهم بالنصيب الأوفر .

وذلك أنهم دعوا إلى كتاب الله - وهو التوراة على ما ذهب إليه ابن عباس - ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه مع النبى صلى الله عليه وسلم .

أخرج ابن إسحاق وجماعة عنه : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيت المدارس على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله تعالى ، فقال نُعَيْمُ بن عمرو ، والحارث بن زيد : على أى دين أنت يامحمد ؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه . قالا : فإن إبراهيم كان يهوديا . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَهَلُمَّا إلى التوراة ، فهى بيننا وبينكم . فأبيا ، فأنزل الله تعالى الآية (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ . . .) .

فلما دُعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، تولى فريق منهم وأعرض عما دعوا إليه .
وهم قوم عادتهم : الإعراض والتولى عن الحق . مع أن ما بأيديهم من الكتاب ، ينبغى أن يجذبهم إلى الإقبال عليه .

والمقصود من الفريق الذى تولى منهم : علماؤُهم . فهم الذين كانوا يقولون الكلام مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢٤ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

المعنى : ذلك الإعراض والتولى ، من الذين أوتوا نصيبا من الكتاب - وهم اليهود - هو بسبب أنهم قالوا : لن تصيبنا النار إلا أياما معدودات ، معتقدين صحة ما يقولون ، مُهَوِّنين بذلك كفرهم بالحق ، وجرائمهم ، ومعاصيهم على أنفسهم ، زاعمين - بذلك - أنهم لايعاقبون عليها .

والمراد بالأيام المعدودات : أيام عبادتهم العجل ، فى غيبة موسى عليه السلام ، لتلقى ألواح التوراة . أو أنهم يريدون بمقالتهم هذه : أنهم لايعذبون إلا مدة قليلة ؛ لزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه . وخدعهم فى دينهم ماكانوا يفترونه عليه من هذا الزعم ، الذى لانصيب له من الصحة .

٢٥ - (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّارَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ) :

المعنى : فكيف يصنعون وقت أن نجمعهم للحساب والجزاء على جرائمهم وأكاذيبهم ، فى يوم القيامة الذى لايصح أن يشك فى مجيئه أحد ، وحينئذ تعطى كل نفس جزاء ماعملته من خير أوشرٍّ وافيا ، وهم لايظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب : فهل يجدبهم - يومئذ - ماافتروه : من أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودات ؟! «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا[1]» .

(قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾) .

المفردات :

(اللَّهُمَّ) : أصله ؛ ياألله . فحذف «يا» وعوض عنها الميم وشددت ؛ لكونها عوضا عن حرفين . ولاتجمع الميم مع «يا» إلا شذوذا . كقول الشاعر :

إنى إذا ماحَدَثٌ أَلَمَّا ... أقول يا اللهمَّ يا اللهما

(١) آل عمران من الآية : ٣٠

(مَالِكَ الْمُلْكِ) : الملك – بضم الميم وفتحها وكسرها – معناه : الاحتواء . أى الحيازة مع القدرة على التصرف . مأخوذ من : مَلَكَ الشىء يملكه : احتواه قادرا على حرية التصرف فيه . وهو بهذا المعنى – يطلق على : ملك الله وملك غيره . ومعنى (مَالِكَ الْمُلْكِ) : صاحب السلطان والتصرف المطلق . وسيأتى لذلك مزيد بيان .

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ) : بقدرتك مَنْحُ الخير ومنعه .

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ) : تدخله فيه ؛ بأن يأخذ من زمن النهار فيطول .

(وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ) معناه : عكس المعنى السابق .

(وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ) : أى وتكوّن الأحياء من المواد الأولية التى لا حياة فيها : كالهواء والماء ، والغذاء والتراب .

(وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ) : وتجعل الحى يموت . فتخرجه بذلك من جنس الأحياء .

التفسير

٢٦ – (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

لما بين الله – فيما تقدم – أن الدين عند الله الإسلام ، وأن أهل الكتاب كانوا متفقين على أن يؤمنوا برسوله ، حين يبعثه الله داعيا إليه ؛ لِمَا كانوا يجدونه فى كتبهم من الدعوة إلى الإيمان به حين يبعث ، ومن بيان أماراته التى تدل عليه ، وأنهم ما اختلفوا – فى شأنه – إلا بعد بعثته ودعوتهم إلى الإيمان به . وكان ذلك بغيا منهم وحسدا – أتبع ذلك بيانَ أن الملك لله : يعز من يشاء ويذل من يشاء ؛ ليكفوا عن حسد من أعزه الله بالنبوة ، ويؤمنوا بدينه الذى هو دين مَنْ بيده الملك .

سبب النزول :

رَوَى الواحدى عن ابن عباس ، وأنس بن مالك : أنه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات : من أين لمحمد ملك فارس والروم ؟ هم أعز وأمنع من ذلك . ألم يكف محمدا مكةُ والمدينةُ ، حتى يطمع فى ملك فارس والروم ؟ . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وروى غير ذلك فى سبب النزول .

المُلك – بضم الميم – فى حق الله تعالى ، هو – على ما قاله المحققون – صفة قائمة بذاته تعالى ، متعلقة بما سواه ، تعلق التصرف التام ، المقتضى استغناء المتصرِّف وافتقار المتصرَّف فيه . ولا يصح إطلاقه – بهذا المعنى – على غير الله تعالى . وهو أخص من المِلك – بكسر الميم – فإنه صفة تقتضى الاستيلاء والتسلط على شىء بطريق مشروع ، وتجعله صاحب الحق فى التصرف فيه ، من غير نظر إلى استغناء المتصرف وافتقار المتصرف فيه . ولهذا ، يصح إطلاقه على غير الله تعالى .

ومعنى الآية : قل يامحمد ، ذاكرا وشاكرا لربك أن آتاك نعمة الرياسة والنبوة اللتين نزعهما عن بنى إسرائيل ، أهل الحقد والحسد : اللهم ياصاحب صفة التصرف التام فى جميع الكون ، بلا شريك ولا ممانع : تعطى السلطان والرياسة من تشاء ، وقد تفضلت فأعطيتنى السلطان والرياسة على أمتى .

وتمنع السلطان والرياسة من تشاء ، وقد منعتهما بنى إسرائيل الذين غرهم بالله الغرور .

وتعز من تشاء فى الدنيا والآخرة ، بأسباب العزة والكرامة ، وقد تفضلت علىَّ بالنبوة والعلم بك وبشريعتك فأعززتنى .

وتذل من تشاء وقد أذللت بنى إسرائيل المتغطرسين ، بتحويل النبوة عنهم إلى العرب بقدرتك الخير كله . تتصرف فيه أنت وحدك ، حسب مشيئتك مَنْحًا ومنعا لايملكه أحد سواك . إنك على كل شىء قدير . فلا يليق بأحد أن يحقد على خير قَسَمه الله لبعض عباده ، فإنه مِن عطاء مَن له الملك ، وبيده الخير . وهو على كل شىء قدير .

ومن كان كذلك ، فهو الحكيم الذى يجب التسليم بما أعطى ووهب ، والرضا به من أعماق النفس دون حقد أو اعتراض .

وإنما خص الخير بالذكر ؛ تعليما لحسن الأدب ، ومراعاة لسبب النزول . وإلا فالشر أيضا بيد الله . ويدل لذلك قوله تعالى : (وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ) . كما يدل عليه التعميم فى قوله : (إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) . كما أن فى القرآن آياتٍ كثيرةً تدل على ذلك : كقوله تعالى : «قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ»[1]

(١) النساء : من الآية ٧٨

واعلم أن الشرَّ الذى يكتبه الله على عباده ليس شرًّا محضا ، بل هو مشوب بخير دائما . فنى نقل الرياسة من إسرائيلَ للعرب ، شرٌّ على بنى إسرائيل ، ولكنه خير للعرب ، وخير للناس أجمعين ؛ لأن بنى إسرائيل لا يصلحون لزعامة العالم – دينيا ودنيويا – فى رسالة عامة كالتى كلف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم : قوم غلاة مستكبرون مغترُّون . فلو كُلف أحد منهم بمثل هذه الرسالة لكان ذلك نكبة على العالم .

وحسبك ما نعلمه من تاريخهم – فى ماضيهم وحاضرهم – من الظلم والطغيان والجبروت !!

فلما نقلت الرسالة منهم إلى العرب ، وكلف بها سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين المنعوت بقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ [1] » – عَمَّ العالَمَ العدلُ والرحمة والبركة .

وكذلك شأن الله فى كل بلاء كتبه ، فإنه لحكمة إلٰهية ، كشرب الدواء الكريه ، والحجامة والفصد ، وقطع العضو الذى يخشى من انتقال مرضه إلى سواه ، ونحو ذلك من الأمور المؤلمة ، فإنها – مع كراهتها – تستعقب الصحة والعافية . وهى خير . كما أن الصبر عليها يورث حسن الجزاء . ثم إن فيها تمحيصا « لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » [2] .

ولاشك أن الشرَّ إذا استتبع خيرا كثيرا كان تقديره مصلحة وحكمة .

٢٧ – (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

هذه الآية مقرِّرة لما قبلها من أن الملك لله : يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وأن بيده الخير ، وأنه على كل شىء قدير . فإن من أولج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، وأخرج الحىَّ من الميت والميتَ من الحى ، ورزق من شاء بغير حساب ، لابد من أن يكون متصفا بالصفات الكريمة ، التى اشتملت عليها الآية السابقة .

والليل لا يدخل فى النهار ، ولا النهار يدخل فى الليل على الحقيقة . ولكنه مستعار لزيادة زمان الليل وقتما يقصر النهار ، ولزيادة زمان النهار وقتما يقصر الليل .

(١) القلم ، من الآية : ٤ (٢) الأحزاب ، من الآية : ٢٤

ولما كانت زيادة الزمان فى كل منهما على حساب النقص فى الآخر ، جعل ذلك إدخالا لأحدهما فى الآخر على سبيل الاستعارة .

أما إخراج الحى من الميت ، فالمراد منه تكوينه من المواد الأولية التى تبنى الأجساد ؛ كالماء والهواء ، وأشعة الشمس والغذاء الذى فقد الحياة بنزعه من أصله .

فمن هذه المواد الميتة تتكون النطفة المملوءة بالحياة . ومن النطفة يتكون الجنين الحى .

وكما أن منشأ الحيوان ماذكر ، فكذلك منشأ النبات الحى : الماء والهواء ، وأشعة الشمس والغذاء . وغذاء النبات تربة الأرض . وكل ذلك من قبيل الميت . وبذلك اتضح قوله تعالى : « يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ »[1]

ولاينبغى أن يفهم أحد أن النبات ليس مقصودا من الآية ؛ بزعمه أن النبات ليس فيه حياة . كلا.. لاينبغى له ذلك . . فإن النبات إذا فقد أسباب الحياة ذبل وتلاشى ، ولم يؤت ثمرا ولاحَبًّا . فهو - لذلك - داخل فى الآية قطعا .

وأمّا إخراج الميت من الحى ، فالمراد منه إبطال الحياة من الحى بأى سبب أراده الله . فتبطل آثارها ، ويعود الجسم إلى أصله الميت ، وهو الماء والتراب ، بعد التحلل والتفاعل مع العوامل التى تنتهى به إلى ذلك .

ومعنى الآية : يطيل الله الليل فى بعض فصول السنة ، بإضافة جزء من النهار إليه . ويطيل النهار فى بعض فصولها ، بزيادة جزء من زمان الليل فيه . ويخرج الحىَّ من المواد الأولية الميتة التى خلق منها ، كالماء والتراب وبعض عناصر الهواء . ويخرج الميت من الحىِّ بأن يفقده أسباب الحياة ، فيموت ويعود إلى أصله . ويرزق من يشاء رزقه بغير حساب . أى رزقا واسعا ، بغير تضييق عليه .

وكما يرزق من يشاء بغير حساب ، يضيقه على من يشاء لحكمة تقتضيه . ولم يذكر ذلك فى الآية لعلمه من أمثاله فيما سبق ؛ ولأن من يملك الإعطاء يملك المنع .

ويرى بعض المفسرين : أن إخراج الحى من الميت ، معناه : إخراج الجنين من النطفة أو الفرخ من البيضة . وأن إخراج الميت من الحى ، معناه : إخراج النطفة من الحيوان أو البيضة من الدجاجة .

ولكن هذا الرأى لايقبل إلا على سبيل التشبيه ، بجعل النطفة - أو البيضة بجانب الحيوان الذى يتكون منها - كالشىء الميت ، لعظم الفرق بينهما . أما على الحقيقة فلا ،

(١) الروم . من الآية : ١٩

لأن النطفة مليئة بالكائنات الحية المتحركة ، كما يتبين ذلك تحت آلة التكبير - المجهر- ومثلها البيضة .

وكذا القول بأن المراد من الميت الذى يخرج من الحى : النطفة أو البيضة التى يخرجها الله من الحيوان ، لايصح أن يقبل إلا على سبيل المجاز ؛ لما قدمناه .

وقال الحسن فى معنى الآية : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، فحمل الحياة والموت على المجاز . وروى هذا التفسير عن أئمة أهل البيت .

ويمكن تفسيرها مجازا بمعنى : يخرج الطيب من الخبيث ، والخبيث من الطيب ، والعالم من الجاهل ، والجاهل من العالم ، والذكىّ من البليد ، والبليد من الذكىّ ، إلى غير ذلك . ولاتغفل عما قلناه فى موضوع النطفة من أن اعتبار النطفة ونحوها كالبيضة ميتة ، إنما هو على سبيل التشبيه بها ، عند مقارنتها بالحيوان الذى يتخلق منها ، وليس على سبيل الحقيقة ؛ ففى النطفة- وما ماثلها - حياة . كما تقدم .

(لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾) .

المفردات :

(أَوْلِيَآءَ) : أصدقاء ، أو أنصارا .

(مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) : متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين .

(فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِى شَىْءٍ) : فليس من دين الله فى شىء .

(إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً) : إلا لِتقُوا أنفسكم وتحفظوها مما يُتّقى ويحذر منهم .

(الْمَصِيرُ) : المرجع .

التفسير

٢٨ -(لَايَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِى شَىْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ...) الآية .

سبب النزول : روى عن ابن عباس ، قال : كان الحجاج بن عمرو ، وكهمس بن أبي الحقيق ، وقيس بن زيد - والكل من اليهود - يباطنون نفرا من الأنصار ؛ ليفتنوهم عن دينهم . فقال رفاعة بن المنذر ، وعبد الله بن جبير ، وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا مباطنتهم ؛ لايفتنوكم عن دينكم . فأبى أولئك النفر ، إلا مباطنتهم وملازمتهم . فأنزل الله هذه الآية .

وروى الضحاك عن ابن عباس : أنها نزلت فى عبادة بن الصامت الأنصارى . وكان بدريا نقيبا . وكان له حِلْفٌ من اليهود . فلما خرج النبى صلى الله عليه وسلم ، يوم الأحزاب . قال عبادة : يانبى الله ، إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى ؛ فأستظهر بهم على العدو . فأنزل الله تعالى : (لَايَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ . . .) الآية .

الربط :

بعد أن أشار الله إلى إعزازه المؤمنين ، وإذلاله الكافرين ، وذكر أن بيده الخير ، وأنه على كل شىء قدير ، وأنه يولج الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ، والميت من الحى ، ويرزق من يشاءُ بغير حساب ؛ ليعلم المؤمنون أنهم يأوون من الله إلى ركن شديد - بعد أن ذكر الله تعالى ذلك - أتبعه تحذيرهم من اتخاذ الكافرين أولياءَ بعد أن أذلهم بإعلائهم عليهم ؛ فإن الموتور لاتخمد فى نفسه جذوة الحقد على من وتَر ، ولايبغى لواتره سوى الشر ، فحسبهم تأييد الله وولايته لهم .

المعنى : تقرر الآية : أن موالاة الكافر خطر على من والاه ، وأنها لاتكون إلا عند الضرورة ؛ لاتقاء ضرر يكون من ناحيته ، على ألا تبلغ الموالاة درجة المباطنة بخفايا المؤمنين .

والموالاة تطلق لغة : على الحب والصداقة والمباطنة بالأسرار . وتطلق : على النصرة . وكلا المعنيين تصح إرادته فى الآية .

ولهذا ، لا يحل للمؤمنين أن يوالوا الكافرين ، بأى معنى من معانى الموالاة . ومن يفعل ذلك فليس من دين الله فى شىء .

وقد ذكر ذلك صريحا فى قوله تعالى : « يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ[1] » .

(١) المائدة . من الآية : ٥١

وقد تكرر النهي -عن موالاة المؤمنين للكافرين -في عديد من آى القرآن؛ لخطورتها على كيانهم. فهم -دائما- يتربصون بهم الدوائر، ويبغونهم الفتنة. وفى المسلمين سماعون لهم، وهم المنافقون، وضعاف النفوس.

فمن الآيات الناهية عن موالاتهم، قوله تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ» إلى قوله تعالى: «وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ[1]». وقوله: «يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا[2]».

فعلى المؤمنين أن يحذروا موالاتهم، حتى يأمنوا شرهم، ويكونوا بذلك أهلا لتأييد ربهم مالك الملك، وصاحب العز والسلطان.

وعليهم أن يقصروا موالاتهم على المؤمنين: لا يتجاوزونهم إلى الكافرين لغرض من الأغراض، إلا لأن يتقوا أو يحفظوا أنفسهم من ضرر شأنه أن يتقى ويُحْذر.. فإذا اضطر المسلمون لموالاتهم دفاعا عن الوطن، أو المال، أو العرض، فلهم ذلك... فى حدود الضرورة.

وأجاز المحققون من العلماء: الاستعانة بالكفار، بشرط الحاجة والوثوق.. أما بدونهما، فلا تجوز.

واستدل لذلك، بأن النبي صلى الله عليه وسلم، استعان بيهود بنى قينقاع ورَضَخَ لهم[3].. واستعان بصفوان بن أمية فى هوازن.

على أن بعضهم ذكر أن الاستعانة المنهى عنها، هي استعانة الذليل بالعزيز. أما غيرها فلا.

وفى فتاوى ابن حجر: جواز القيام فى المجلس لأهل الذمة. وَعَدَّ ذلك من باب البرّ وحسن المعاملة المأذون به فى قوله تعالى: «لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ[4]».

ثم ختم الله الآية بهذا التحذير الخطير، فقال:

(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ):

أى يحذركم الله - أيها المؤمنون - عقابَ نفسه، إن واليتموهم فى غير ما أبيح لكم.. واعلموا أن إلى الله المرجع، فسوف يجازى كل امرئ بما كسب. وفى إضافة تحذيرهم إلى نفسه وإلى ذاته العلية، إيذان ببلوغ المنهى عنه منتهى الخطورة.

---

(١) الممتحنة: ١ (٢) النساء: ١٤٤ (٣) أى أعطاهم مالا قليلا فى مقابل معونتهم. (٤) الممتحنة: ٨

(قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾).

المفردات :

(مُحْضَرًا) : يُحْضِرُه ملائكة الله فى الصحف .

(أَمَدًا بَعِيدًا) : غاية أو مسافة بعيدة .

التفسير

٢٩ - (قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

هذه الآية - والتى تليها - واضحتا الارتباط بالآية التى قبلهما ؛ فإنهما مثلها : فى تحذير المؤمنين من موالاة الكافرين ، وإن كان التحذير فيهما أشمل وأوسع ؛ لعمومه لجميع المنهيات .

والمعنى : قل يا محمد ، للمؤمنين : إن تُسِرُّوا ما فى نفوسكم من الضمائر المنهى عنها ، التى من جملتها ولاية الكفار ، أو تظهروه - يعلمه الله فيؤاخذكم به عند مصيركم إليه ، ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، فوق علمه بما فى صدوركم .

(وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

ومن كان كذلك ، فهو قادر على عقابكم ، فلا تجسروا على عصيانه وموالاة أعدائه .

٣٠ - (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا . . .) الآية .

المعنى : اذكر لهم - يا محمد - يوم تجد كل نفس من نفوس المكلفين ، ما عملته من خير

– وإن قل – محضرا أمامها فى صحائفها ، لتنعم به، « فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ »[1]

وتجد كل نفس أيضا : ما عملته من سوء وشرٍّ فى الدنيا ، محضرًا يوم القيامة فى صحائفها لتساء به ، وتتمنى حين تراه لو أن بينها وبين ذلك اليوم – أو بينها وبين ما عملته من سوء – أمدًا بعيدًا . والأمد : الغاية والمنتهى . أى تود لو أن بينها وبين يوم القيامة – أو بينها وبين عملها السيء – غاية ونهاية بعيدة .

وذهب بعض العلماء ، إلى أن المراد به : المسافة البعيدة . واستظهر ذلك حملا لهذه الآية على قوله تعالى : « يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ... »[2] .

ثم ختم الله الآية ، مكررًا ماسبق من التحذير ، وواصفًا نفسه الكريمة بالرأفة ، فقال :
(وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) :

أى ويخوّفكم الله من نفسه إن خالفتم ما كلفكم به . والله عظيم الرحمة بالعباد ، حين نهاهم عن موالاة الكافرين ، وحذرهم من عقابه إذا خالفوا أمره ؛ فإنَّ بُعدَهم عن موالاة الكافرين ، فيه السلامة لهم ، وتحذيرهم من عقابه تعالى ، يدفعهم إلى طلب رضاه ، واجتناب سخطه . . وكل ذلك رأفة بهم ، ورحمة بالغة نافعة لهم .

(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾) .

التفسير

٣١ – (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

سبب النزول والربط :

قال القرطبي : رُوِى : أن المسلمين قالوا : يا رسولَ الله ، واللهِ ، إنا لَنُحِبُّ ربنا . . فأنزل الله عز وجل (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ) .

(١) الحاقة : ٢١ – ٢٣ (٢) الزخرف : ٣٨

وقال محمد بن جعفر بن الزبير : «نزلت فى نصارى نجران . وذلك أنهم قالوا : إنما نعظم المسيح ونعبده ؛ حبًّا لله تعالى وتعظيما له . فأنزل هذه الآية ردًّا عليهم» رواه محمد بن إسحق .

وسياق الآيات من قبل ، يرجح الأول . فقد نُهِىَ فيها المؤمنون عن اتخاذ الكافرين أولياء ، وتوالى تحذيرهم بعد ذلك من المخالفة ، حتى اتصل الكلام هنا بحضهم على اتباع رسول الله وطاعته : فيما يأمرهم به وينهاهم عنه .

وسواء كان السبب هذا أو ذاك ، فالآية صالحة لخطاب الجميع .

والمعنى : قل يا محمد : لِمَنْ يدعى حُبَّ الله : إن كنتم تحبون الله كما تقولون ، فاتبعونى فيما بلَّغتكم عن الله تعالى ، وبَرْهِنُوا - بهذا الاتباع - على صدق محبَّتكم لله تعالى ، فإن المحبة ليست ادعاء ، ولكنها اتباع لما يرضى المحبُوب . فمن أحبَّ اللهَ فلْيتبع حبيبه ومصطفاه ، ولْيتأدب بما دعا إليه من فضائل وآداب . وإلا فهو كاذب فى دعواه .

وثمرة هذا الاتباع ، لا غاية وراءها لكم وهى حبُّ الله ، وغفران ما عسى أن تقترفوه من ذنوب .. ولا شيء أسمى من ذلك تطمح إليه قلوب المحبين .

وليس الفضل فى أن تقول : إنى أحب . ولكن الفضل فى أن تفعل ما تكون به محبوبًا عند حبيبك .

وقد ختم الله الآية ، بما اتصف به دائمًا ، من صفتى الغفران والرحمة فقال : (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

ولا يتمتع ببركة هذين الوصفين ، إلا من لازم اتباع الرسول فيما أمر به ونهى عنه .

قال ابن كثير : هذه الآية ، حاكمة على كل من ادَّعى محبة الله - وليس هو على الطريقة المحمدية - بأنه كاذب فى دعواه ، حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله ، وأفعاله ، وأحواله . كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » ا هـ .

وقال الحسن البصرى : زعم قوم : أنهم يحبون الله ، فابتلاهم الله بهذه الآية (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) :

والحسن البصرى ، من كبار أساتذة التصوف . وهو إذ يقول ذلك ، يعلمنا ألا نحفل بمن يزعم أنه من المتصوفة المحبين ربهم ، وهو فى وادٍ واتباع الرسول فى وادٍ آخر . فلا ولاية

ولا حب لله ، إلا باتباع كتاب الله وسنة رسوله ؛ عملا بهذه الآية وبقوله تعالى : « وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ »[1] .

وأعلى درجات الحب لله : أن يحبه تعالى لذاته ، ويتفانى فى طاعته .. أما حبه لثوابه ، فدرجته نازلة عن هذه المنزلة .

وإذا كافأ الله عبدًا بحبه ، عُرِف ذلك من حب عباده له .

ففى صحيح مسلم : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ إذَا أحبَّ عبدًا دعا جبريلَ فقالَ : إنِّى أُحِبُّ فلانًا فأَحِبَّهُ . قال : فَيُحِبُّهُ جبريلُ . ثم ينادِى فى السماء فيقولُ : إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلانًا فأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّماءِ . قال : ثُمَّ يوضَعُ له القَبولُ فى الأَرض . وإذا أَبْغَضَ عبدًا دعا جبريلَ فيقولُ : إنى أُبْغِضُ فلانًا فأَبْغِضْه . قال : فيُبْغِضُهُ جبريلُ . ثم يُنادِى فى أَهْلِ السَّماءِ : إنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلانًا فأَبْغِضوهُ . قالَ : فيُبْغِضُونَهُ ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ البَغْضاءُ فِى الأَرضِ » .

٣٢ - (قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) :

المعنى : قل لهم يامحمد ، أطيعوا الله والرسول فى جميع الأوامر والنواهى ، فإن أعرضوا عن ذلك ، فإن الله يبغضهم ولا يحبّهم ؛ لتوليهم وإعراضهم عن طاعة الله ورسوله .

وإطلاق وصف الكافرين على المعرضين عن طاعة الله ورسوله – لأن من تولى وأعرض بقلبه ، فهو نافر من شرع الله كاره له . فيكون بذلك كافرا ، والعياذ بالله تعالى .

أما لو كان تَوَلِّيه وإعراضه مجرد ترك لما أمر به ؛ اتباعا لشهواته – مع اعتقاده أن ذلك حرام ، وأنه مذنب فيما يفعل ، ومقصر فى حقه تعالى – فإن الكفر بالنسبة له كفر للنعمة ، وعدم قيام بشكرها . أو هو من باب التنفير من المعصية . وفى كلتا الحالتين ، يكون تارك الاتباع محروما من حبِّ الله تعالى ؛ لأنَّ الله سبحانه ؛ لا يحبُّ من عصاه بكفر أو فجور .

(إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾) .

---

(١) الأعراف : ١٩٦

المفردات :

(اصْطَفَىٰ) : اختار .

(وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ) : المراد بالآل فيهما : من كان من ذريتهم من الأنبياء. وسيأتى شرح ذلك .

(ذُرِّيَّةً) : الذرية النَّسْل . يطلق على الواحد وغيره .

التفسير

٣٣ - (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) :

قال الآلوسى : قال شيخ الإسلام - رحمه الله - فى وجه المناسبة : لما بيّن الله سبحانه : أن الدين عند الله الإسلام . وأن اختلاف أهل الكتابين إنما هو للبغى والحسد .. وأن الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته ، منوط باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم - شرع فى تحقيق رسالته ، وأنه من أهل بيت النبوة القديمة ، ممهدا إلى ذلك : بذكر جلالة أقدار الرسل ، ومنتهيا إلى تنزيه ساحته ، عما هم عليه من اليهودية والنصرانية المبدلتين. وأن الأمم - قاطبة - مأمورون بالإيمان بمن هو مصدِّق لرسالات الرسل ، تحقيقا لوجوب الإيمان بالرسول وطاعته .. ا هـ . ملخصا .

الشرح : ذكر الله ، أنه اصطفى طائفة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وبدأ بآدم أبى البشر الأول . وثنى بنوح الأب الثانى لهم بعد الطوفان . وعقبه بآل إبراهيم أبى الأنبياء وواسطة عقدهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر آل عمران - مع دخولهم فى آل إبراهيم - اعتناء بأمر عيسى الذى اختلفوا فى شأنه .

والمراد بآل إبراهيم : ذريته من الأنبياء ، والمراد بعمران : والد مريم ، وهو ابن ماثان . وآله : ابنته مريم وابنها عيسى ، عليهما السلام .

وقيل : عمران هنا ، هو عمران بن يصهر أبو موسى . وآله : هم موسى وهارون .

والظاهر الأول ، فإن السورة تسمى : سورة آل عمران . ولم تشرح قصة عيسى ومريم فى سورة أبسط من شروحها هنا .. أما قصة موسى وهارون فلم يذكر منها هنا شىء .

والمراد من العالمين الذين اختارهم وفضلهم عليهم : عالمو زمانهم . وقد فضلهم الله عليهم ، بما آتاهم من النبوة والكتاب فى معظمهم . وفى مريم : بحملها وولادتها من غير مماسة بشر ، مع طهارتها وانقطاعها لعبادة ربها ، وإمدادها فى مصلاها برزق الله فى غير أوانه ، واختيارها لتكون أمًّا لعيسى : الذى شاء له مولاه أن يكون بغير أب .

٣٤ - (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

المعنى : اصطفى الله آل إبراهيم وآل عمران حال كونهم ذرية بعضها من بعض في النسب ، فالمتأخرون منهم سلالة المتقدمين .

وقال قتادة في معناها : بعضها من بعض في النية والعمل الصالح ، والإخلاص والتوحيد .

وقد أثبتت الدراسات الحديثة ، آثار الوراثة في التكوين الخلقي ، والعقلي ، والجسماني . وإلى هذا أشار الحديث الشريف « تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُم ، فأَنْكِحُوا الأكفاء وانكحوا إليهم » رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي .

ويختم الله الآية بقوله : (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ليشير بذلك ، إلى أنه اختارهم واصطفاهم ؛ لصلاحيتهم وأهليتهم التامة للاختيار : في أقوالهم التي يسمعها ، و أفعالهم ونياتهم التي يعلمها ، فإنه سميع بكل قول ، عليم بكل حال وفعل ونية .

(إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾) :

المفردات :

(نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي) : أوجبت على نفسي : أن يكون ما في بطني لك لخدمة بيتك .

(مُحَرَّرًا) : خالصا .

(أُعِيذُهَا بِكَ) : أجيرها بك .

(الرَّجِيمِ) : المطرود .

التفسير

٣٥ - ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ :

امرأة عمران ، هي : حَنَّةُ بنت فاقُوذا ، كما رواه إسحق بن بشر ،عن ابن عباس والحاكم ، عن أبي هريرة ، وهي جدة عيسى عليه السلام لأمه .

وكانت هذه السيدة عاقرا لا تلد . وكانوا أهل بيت من الله بمكان. فتحركت نفسها يوما لأن تكون أمًّا . فلاذت بربها ودعته ـ بضراعة ـ أن يهب لها ولدا ، ونذرت إن حقق الله أمنيتها :أن تجعل ولدها محرَّرًا : أي خالصا للعبادة وخدمة بيت المقدس ، عتيقا من سوى ذلك . وكان ذلك جائزا فى شريعتهم . وكان على أولادهم أن يطيعوهم فيما نذروا . وكانت خدمة البيت والإقامة فيه للعبادة ، قاصرة على الغلمان . فلما تحقق حملها ، قال لها زوجها :أرأيت إن كان ما فى بطنك أنثى - والأنثى عورة - فكيف تصنعين؟ . فقالت عند ذلك ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ : تريد بهذه الضراعة : التماس الولد الذكر؛لعدم قبول الأنثى فى خدمة البيت .فكأنها تقول : رب إنى نذرت ما فى بطنى ،فاجعله ذكرا ؛ لأستطيع تحقيق نذرى .

وجعله بعض الأئمة تأكيدا لنذرها ، وإخراجا له عن صورة التعليق ، إلى هيئة التنجيز .

ومعنى ﴿ نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي ﴾ : نذرته لأجلك . وهى تريد بذلك :أنها نذرته لخدمة بيته وعبادته فيه . وتقصد بقولها: ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ أنها ستخلصه لذلك ، فلا تصرفه فى حوائجها . مأخوذ من التحرر .وهو : التخليص من الشوائب .

وختمت ضراعتها بقولها : ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وهو تعليل لاستدعاء القبول ، أى إنك أنت السميع بكل المسموعات فتسمع دعائى ، العليم بكل المعلومات ، فتعلم نيتى وإخلاصى فَتَفَضَّلْ من أجل ذلك بقبول التماسى .

٣٦ - ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ...﴾ الآية .

ضمير الغائبة فى ﴿ وَضَعَتْهَا ﴾ عائد على ما فى بطنها ، وتأنيثه باعتبار الواقع .

والمعنى فلما وضعت أنثى ـ على خلاف ما كانت تأمله ـ قالت متحسرة حزينة على فوات

رجائها ، رب إنى وضعتها أنثى . قالت ذلك وهي لا تعلم بمكانة ما وضعته ، والله وحده هو الذى يعلم بشأنها ، وما علق بها من عظائم الأمور ودقائق الأسرار . وقالت فى تحسرها : وليس الذكر كالأنثى فى خدمة المسجد الأقصى ؛ فإنها مقصورة على الغلمان دون الإناث . فكأنها تقول : فماذا أصنع فى نذرى يارب ؟ . ثم عطف على ذلك قولها :

(وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) :

دل هذا الكلام :على أنها – لما وضعتها – قالت ما تقدم . وأطلقت عليها اسم مريم فى اليوم الذى وضعتها فيه . وهي السنّة فى شريعتنا أيضا .

فقد أخرج الشيخان ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « وُلِدَ لِيَ الليلةَ ولدٌ سمّيته باسم أبى إبراهيمَ » وأخرجا أيضا ،عن أنس بن مالك : « أنه ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحنّكه وسماه عبد الله » .

لم تشأ أم مريم أن ترجع فى نذرها حَمْلها لخدمة البيت وعبادة الله فيه ، بعدأن تحقق أنه أنثى .

وكان أول شيء اتجهت إليه – فى هذا الصدد – أن تسميها بالاسم المناسب لما أرادته فى نذرها وهو مريم . فإن معناه : العابدة ، فى لغتها . وعقّبت ذلك بضراعتها إلى الله : أن يعصمها ويحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم ، المطرود من رحمة الله . بحيث يكونون – جميعا – فى مرضاة الله وعبادته .

هذا ، وقد قال بعض المتأخرين من المفسرين : إن مريم معرب . مارية . بمعنى جارية.

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)) .

المفـردات :

(فَتَقَبَّلَهَا) : أى قبل مريم – فى النذر – مكان الذكر .

(وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا) : وربَّاها تربية طيبة .. حيث نشأت فى طاعة الله .

(وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) : أى جعله كافلا وضامنا لها .

(الْمِحْرَابَ) : غرفة عالية ، بنيت لها ، أو هو المسجد .

(أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا) : من أَيْنَ لك هذا الرزق الذى لا يشبه أرزاقنا ؟

التفسير

٣٧ – (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا . . .) الآية .

قلنا :إن أم مريم ، مضت فى نذرها مع وليدتها الأُنثى ، مخالفة بذلك مألوف قومها : من أن خادم بيت المقدس يكون من الذكران .

وهنا ، تصرح الآية :أنه تعالى ، تفضل فقبل منها مريم قبولا حسنًا ، وفاءً بنذرها ؛ لما تعلقت به مشيئته من أمور عظيمة ، ترتبط بوليدتها الأُنثى .

والقبول الحسن منه تعالى : أنه اختصها – دون سواها – بإقامتها مُقَام الذكر فى خدمة بيت المقدس .

وكما تقبل الله مريم فى خدمة البيت لأمر يعلمه ، أنبتها ورباها تربية حسنة ، إذ نشأت على طاعة الله تعالى .

وقد ساعد على ذلك : أنه تعالى ، جعل زكريا – عليه السلام – كافلا لها ؛ لتقتبس منه العلوم والمعارف ، ولتمضِيَ على سنته من الصلاح والتقوى . وكان زَوْجَ أُختها ، كما ورد فى الصحيح « فإذا بيحيى وعيسى وهما ابْنا الخالة » ويحيى : ابن زكريا عليهما السلام .

وهكذا تهيأت لها البيئة الصالحة ،كما تهيأت لها الوراثة الصالحة . فكانت سيِّدة نساء العالمين .

وذكر ابن اسحق وابن جرير :أن زكريا ،كان متزوجًا خالة مريم . ويجمع بينهما ،بأن خالة الأُم خالة لولدها . والسبب فى كفالته لها : أن أباها كان متوفيا . أو أن السَّنةَ كانت جدباء ذكر ذلك ابن إسحق .

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

كان زكريا يأتى مريم بطعامها ، بمقتضى كفالته لها . ولكنه كان – حين يأتيها – يجد عندها رزقا جميلا ، وطعاما وفيرا . فيعجب لذلك ، ويقول لها : من أين لك هذا ؟ ! يقول لها ذلك متعجبا من وجود رزق عندها ، ولا كافل لها سواه . فتجيبه قائلة : (هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ) رزقا واسعا (بِغَيْرِ حِسَابٍ) . ويحتمل أن تكون جملة (إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) من كلام الله تعالى ، وليس من كلامها ، سيقت : للإيذان بأنه لاينبغى أن تعجب من هذا الرزق ، فإن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

والمحراب الذى كانت فيه ، قيل : إنه غرفة بنيت لها فى بيت المقدس ، لا يصعد إليها إلا بسلم . وقيل : إنه ذات المسجد ، وكانت مساجدهم تسمى : محاريب .

والحق ، أن المحراب لغة : يطلق على الغرفة ، وهى الحجرة العالية . وعلى صدر البيت وأكرم مواضعه . وإطلاقه على المسجد – أو على مكان الإمام فيه – لرفعة شأنه .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾) .

المفـردات :

(هُنَالِكَ) : أى فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب ، أو فى هذا الوقت الذى رأى فيه من الكرامات ما رأى ، على غير المألوف . وهنالك : يشار به إلى المكان والزمان .

(مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ) : المراد بكلمة الله ؛ عيسى عليه السلام ، حيث جاء بقوله تعالى : (كُنْ) من غير توسط أب .

(وَحَصُورًا) : الحصور ؛ الذى لا يباشر النساء . أو هو الذى يمنع نفسه من المعاصى .

(بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ) : أدركتنى الشيخوخة .

(وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ) : عقيم لا تلد ، من العَقْر وهو القطع ، لقطع أولادها .

(أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ) : أى لا تقدر على كلامهم من غير آفة .

(إِلَّا رَمْزًا) : إلا إشارة .

(بِالْعَشِيِّ) : هو من الزوال إلى الغروب . وقيل : من العصر إلى ذهاب صدر الليل .

(وَالْإِبْكَارِ) : أى وقت الإبكار وهو من الفجر إلى الضحى .

التفسير

٣٨ـ (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) :

هذه قصة مستقلة . سيقت فى أثناء قصة مريم ؛ لأنها ـ مع ارتباطها بها ـ مقررة لها ، بما فيها من عجيب قدرة الله مثلها .

والمعنى : أن زكريا ، لما وجد عند مريم رزقًا عظيما ، وتحقق أنه من عند الله تعالى: لا يأتيها به أحد من الناس ـ قال فى نفسه : إن الذى جاء مريم بذلك الرزق ، لَقَادِرٌ على أن يصلح لى زوجتى ، ويرزقنى منها ذرية .. فعند ذلك ، قام فى المحراب ، وابتهل إلى الله تعالى قائلا : رب هب لى من عندك ذرية طيبة مباركة صالحة ، إنك كثير الإجابة لمن يدعوك .

وهنالك : وإن كان يشار به إلى المكان البعيد ، إلَّا أنه قد يستعمل بمعنى : فى تلك الحال، مجازا ؛ كما تقول : من هنالك ، قلنا : كذا . أى فى تلك الحال كذا . ومن هذه الجهة ، قلت : كذا . ذكره الزجاج .

وقد علل زكريا طلبه بقوله : (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) : وأصله بمعنى : كثير السمع للدعاء ؛ ولكنه أريد منه هنا مجازا : إنك كثير الإجابة لمن يدعوك . فهذا هو الأكثر مناسبة للتعليل .

٣٩ـ (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) :

أكرم الله زكريا فأجاب دعاءه ، وبعث إليه بالملائكة يبشرونه بذلك ، فنادوه -وهو قائم يصلى فى المسجد - أن الله تعالى يبشرك بولد ذَكَر سماه الله يحيى : مصدقًا بعيسى عليه السلام ،الذى سُمِّىَ كلمة الله ؛ لأنه خلقه بقوله : (كُنْ) فكان . ومعنى تصديقه به : إيمانه بأنه رسول الله . وهو بذلك، يكون أول من آمن به . ويحيى أكبر من عيسى .

فهذهالبشارة كانت قبل أن تحمل مريم بعيسى ، أو -على الأقل- قبل أن تلده .

وذكر هذا التصديق ؛ لتسفيه رأى اليهود فى عيسى عليه السلام .

وقال أبوعبيدة : المراد بالكلمة هنا ، الكتاب أو الوحى .

وقد وصف الله يحيى على لسان ملائكته المبشرين ، بأنه سيكون سيدًا. والسيد: من يسود قومه . ثم أُطلق على كل فائق فى الدين أو الدنيا. كما قاله بعض المحققين .

ويمكن أن يجتمع فيه الأمران : الرياسة فى قومه ، والتفوق فى الدين . فإنه نبى الله ، ومن الصالحين . كما سيأتى نَعْتُه بذلك .

ووصفته الملائكة أيضًا بأنه حصور.. وفسره ابن عباس : بأنهالذى لا يأتى النساء مع القدرة على ذلك . ولعل هذا ؛ لأن انهماكه فى العبادة ، شغله عنهن .

والمدح بذلك ، كناية عن مدحه باشتغاله بالعبادة عن متع الحياة الدنيا. وليس معناه أن ذلك أفضل من الزواج مع الاشتغال بالعبادة . فإن الزواج من سنن الله فى الأنبياء . ومن سننه فى الجنس البشرى؛ ليبقى خليفة عن الله تعالى فى عمارة أرضه. وقد كان - على سنة يحيى - فى ذلك -عيسى ،عليهما السلام .

وفَسَّر الحصورَ بعضُ المفسرين : بأنه المبالغ فى حصر النفس ، وحبسها عن المعاصى والشهوات ، وكان ضمن بشارة الملائكة لزكريا عن ولده يحيى : أنه سيكون نبيًّا ناشئًا من الأصول الصالحين ، أو معدودًا فى عدادهم .

والمراد من الصلاح : ما فوق الصلاح الذى لابد منه فى منصب النبوة ، بأن يكون فى أقصى مراتبه ،حتى يكون للوصف به بعد النبوة فائدة .

وتأنيث الفعل (قَالَتْ) عند إسناده إلى الملائكة ، لجواز ذلك عند إسناده إلى الجماعة . فالملائكة ليسوا إناثا . ولهذا رَدَّ الله على المشركين حين ادعوا ذلك فقال : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »[1] . وقد

(١) الزخرف : ١٩

جاء تذكير الفعل معهم بتأويل الجمع ، كقوله تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ »[1] .

ويحيى هذا ، هو المسمى عند المسيحيين : يوحنا المعمدان .

٤٠ - (قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) :

لَمَّا بشرته الملائكة بذلك ، وتحقق من البشارة ، تعجب من وقوع ذلك مع وجود الموانع ، فقال : يا رب ، من أين يكون لي غلام ، وقد أدركتني الشيخوخة - فقد كانت سِنُّهُ - على ما روى عن ابن عباس - مائة وعشرين سنة - وامرأتي عاقر لا تلد ! وقد كانت هي الأخرى متقدمة في السن ، إذ بلغت ثمانٍ وتسعين سنة ، على ما روى عن ابن عباس .

وإنما خاطب بذلك ربه ولم يخاطب الملائكة الذين بشروه ؛ مبالغة في التضرع إلى الله تعالى . وحينئذ أجابه المولى قائلا : (كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) أي : الله يفعل ما يشاء ، مثل ذلك من الأفعال الخارقة للعادة ، الخارجة عن القياس .

٤١ - (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ...) الآية .

قال زكريا - لما سمع هذا الجواب الحاسم من الله رب العالمين - اجعل لي علامة أستدل بها على حمل امرأتي . قال الله له : علامتك ، ألا تقدر على مكالمة الناس ، ثلاثة أيام متوالية من غير آفة .

وتقييد عدم الكلام بالناس ، مؤذن بأنه كان غير محبوس عن ذكر الله تعالى . وكان حديثه مع الناس - في هذه المدة - رمزا. كما قال تعالى : (إِلَّا رَمْزًا) والرمز : الإشارة باليد أو الرأس أو نحوهما .

ثم أمره الله أن يذكره سبحانه ، في وقت لا يحتبس فيه لسانه عن الناس ، فقال :

(وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) يعني : واذكر ربك ذكرا كثيرا ، ونزهه عما لا يليق به : في وقت العشي - من الزوال إلى الغروب - أو من العصر إلى أن يذهب صدر الليل ، واصنع مثل ذلك في وقت الإبكار - من الفجر إلى الضحى .

والمراد من العشي والإبكار . جميع الأوقات. والذكر : يتناول ما كان باللسان والقلب .

(١) الرعد : ٢٣

(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾) .

المفـردات :

(إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ) : اختارك لخدمة بيته لصلاحك .

(وَطَهَّرَكِ) : من الأدناس أو طهرك بالإيمان عن الكفر ، وبالطاعة عن العصيان .

(وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) : اختارك عليهن : بأن تكونى أُمًّا لعيسى من غير أب . وجعلك وإياه آية للعالمين . ولم يكن ذلك لأحد من النساء .

(اقْنُتِي لِرَبِّكِ) : دومى على طاعته .

(وَاسْجُدِي) : واخضعى .

(وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) : وصلى مع المصلين .

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) : وما كنت عند المتنازعين فى كفالتها ، حين يلقون أقلامهم التى يكتبون بها التوراة ، أو سِهَامَهُمْ عند الاقتراع على كفالتها فى طفولتها .

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) : أى إذ يتنازعون فى ذلك .

التفسير

٤٢ - (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ .....) الآية .

هذا عود إلى قصة السيدة مريم عليها السلام - بعد أنْ توسطتها قصة ولادة يحيى لزكريا، بعد أن بلغ من الكبر عتيًّا، من زوجته المسنة العاقر - للتشويق إلى باقى قصتها؛ ولتقرير ما فيها من عجائب صنع الله، المخالفة للنواميس المألوفة؛ ولتقرير اصطفاء مريم.

والملائكة هنا، كالملائكة فى قصة زكريا، يجوز أن يكونوا جماعة، أو أن يكون المراد منهم الجنس الصادق بواحد. والمقصود به جبريل؛ لأنه هو الذى يبلغ رسالات الله إلى المصطفين من خلقه عادة.

والمعنى: واذكر يا محمد، من شواهد اصطفاء الله لأُولئك الكرام، وقت قول الملائكة: يامريم، إن الله اختارك لخدمة بيته، ولم يكن يخدمه قبلك إلا الرجال. وطهرك من الأَدناس: حِسِّية كانت أَو خُلُقِية أَو اعتقادية. واختارك على نساءِ العالمين؛ ليهب لك عيسى من غير أَب، فكنت فريدة فى ذلك بين نساءِ العالمين؛ لطهرك وفضلك!

وظاهر النص: يقتضى أَن كلام الملائكة لها، كان مشافهة. ويجوز أَن يكون إلهامًا.

٤٣ - (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) :

المعنى: وقالت الملائكة لمريم - بعد أَن أخبروها بعلوٍّ درجاتها وكمال قُرْبها إلى الله - يا مريم: دومى على طاعة ربك الذى رباك بنعمه، واخضعى له، وصَلِّى مع المصلين. وقد أمرها الله بذلك، حتى لا يحدث لها فتورٌ أَو غفلة، بعد ما علمت مكانتها عند الله تعالى.

وإذا كان الله يذكِّر مريم بذلك - وهى من جلالة الشأْن على ما وصف الله - فالأَجدر بمن هم دونها: أَن يعلموا أَن الله تعالى لا يغفل عن حقوقه لديهم؛ ليشمروا عن ساعد الجد، حتى لا يفوتهم ركب النجاة.

٤٤ - (ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ . . .) الآية.

المعنى: ذلك الذى تقدم من أَخبار الغيب، ذات الوقائع الدقيقة المفصلة، نعلمك بها عن طريق الوحى. وقد سبقت عهدك بقرون عديدة: ما كنت تعلمها أَنت ولا قومك. ولولاه لما وصل إلى علمك.

وصدق الله إذ يقول: « وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ »[1].

كما أَنه لم يعرف عنك مجالسة أَهل الكتاب حتى تعرفه منهم.

---

(١) العنكبوت: ٤٨

ثم أعلمه الله بغيب آخر فقال :

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) :

الأصل فى الكفالة : أن تكون للوالد ، فلا يقوم غيره بها إلا عند فقده ، أو عند الضيق ، كما كفل النبي صلى الله عليه وسلم عليًّا . وكفل العباس جعفرا ، عن أبى طالب والدهما ؛ لكثرة عياله وشدة الحال عليه . وخصام بنى إسرائيل على كفالة مريم ، لا يكون إلا لواحد من هذين السببين .

وقد دلت الآية : على أن بنى إسرائيل تنازعوا : أيهم يكفل مريم ويقوم بتربيتها؟

ودلت الأخبار : على أن القراء منهم تنافسوا — مع زوج خالتها زكريا — فى كفالتها . فكان زكريا يريدها ؛ لأن خالتها معه ؛ ولأنه كان رئيس الأحبار . ويرى أنه أحق بها لذلك .

وكان كل واحد من القراء يريدها ؛ لأنها ابنة عالمهم. فاقترحوا حلاً لهذه المشكلة أن يقترعوا . وكانت وسيلتهم إلى القرعة أقلامهم ، كما قال القرآن الكريم .

واختلف فى هذه الأقلام فقيل : إنها الأقلام التى كانوا يكتبون بها التوراة . وقيل : هى سهام جعل منها سهم معين لمن يأخذها .

وطريقة الاقتراع لم يَرِدْ بها خبر صحيح . ولعلهم وضعوا الأقلام فى كيس أو نحوه . فإن كانت أقلام الكتابة ، كان إخراج أى قلم منها يدل على صاحبه ، وعلى أنه هو الذى يكفل مريم . وإن كانت السهام ، كان السهم المعين لمريم ، إذا أخذه أى واحد منهم يكون هو الكفيل . وكانت هذه القرعة سبيلا إلى فوز زكريا عليه السلام بكفالتها .

وفى هذه الآية دليل على أن القرعة سبيل مشروع لتمييز الحقوق .

والاستهام[1] ورد فى القرآن فى موضعين : هذا الموضع ، وقوله تعالى : « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ »[2] .

وكان صلى الله عليه وسلم « إذا أراد سَفرًا أقرع بين نسائه »[3] وقال صلى الله عليه وسلم : « لَوْ يعْلَم النَّاس مَا فِى النِّدَاء والصَّفِّ الأوَّل ثمَّ لم يجدوا إلَّا أن يستهموا عليه لاستهموا »[4] .

ولإنباء القرآن بما وقع فى كفالة مريم من نزاع وخصام ، ولجوء المتنازعين إلى القرعة ، دليل على نبوته صلى الله عليه وسلم ، لأن ذلك لا يعلم إلا عن طريق الوحى .

(١) الاستهام : إجراء القرعة . (٢) الصافات : ١٤١ (٣) رواه الشيخان . (٤) رواه الشيخان .

ولذا ، أشار الله إلى هذه المعجزة بقوله :

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) :

أى ما كنت عندهم فى الحالين ، حتى تعلم أمرها . وإنما أعلمك الله بوحيه .

(إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾) .

المفردات :

(يُبَشِّرُكِ) : التبشير ؛ الإخبار بالبشارة وهى الخبر السَّار . وأُطلق عليه ذلك؛ لظهور أثره على البشرة .

(وَجِيهًا) : صاحب جاهٍ وشرفٍ .

(فِى الْمَهْدِ) : المهد هنا ؛ فراش الطفل الرضيع .

(وَكَهْلًا) : الكهل ؛ مَنْ وَخَطَهُ الشيب فى جلال ووقار . وهو بين حالى الغلومة والشيخوخة . ومنه : اكتهلت الروضة إذا عمَّها النُّوَّار . وقيل : من جاوز ثلاثين إلى إحدى وخمسين سنة .

(وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ) : المسّ هنا ؛ كناية عن الجماع .

التفسير

٤٥ - (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) :

هذه الآية -ومايليها من الآيات- تحكى قصة عيسى بن مريم عليهما السلام . والمراد بالملائكة هنا : الجنس . والمقصود منه جبريل عليه السلام ، على المشهور . والقول من الملائكة لمريم ، كان مشافهة . كما رواه ابن أبي حاتم عن قتادة .

وإطلاق لفظ : (كلمة) على عيسى عليه السلام ؛ لأنه لم يجر على نسق البشر . إذ خلق بغير أب . . متأثرا بقوله تعالى فى شأنه : (كُن) كما قال تعالى: « إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ »[1] . وبما أن (كُنْ) كلمة ، فلذا سُمِّىَ : (كلمة) .

والمسيح : لقب لعيسى عليه السلام . وهو من الألقاب ذات الشرف . كالفاروق لعمر . وهو لقب عبرى . ومعناه : القائم على عبادة الله . ومع كونه لقبا ، فقد صرحت الآية بأنه اسم له . والألقاب إذا اشتهرت ، صارت أسماء .

ووجاهته فى الدنيا : شرفه وقدره العظيم ؛ بقبول دعائه : إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وغير ذلك ، مما أكرمه الله به .

وقيل : وجاهته فيها : براءته من العيوب التى افتراها عليه اليهود .

أما وجاهته فى الآخرة : فهى بقبول شفاعته ، وعلو درجته ، وظهور كذب اليهود فيما افتروه عليه ، وعقابهم على ما افتروه .

والمراد من كونه (مِنَ الْمُقَرَّبِينَ) : أنه ممن علت مكانتهم عند الله تعالى وعند الناس .

وخلاصة المعنى : اذكر يامحمد ، حين قالت الملائكة لمريم - يامريم : إن الله يخبرك بخبر يسرك . هو : أنه سيمن عليك بغلام اسمه المسيح عيسى بن مريم : ذا جاه وشرف فى الدنيا ، بما يظهره الله على يديه من المعجزات ، وبما اتصف به من الصلاح والتقوى . وذا جاه فى الآخرة : بقبول شفاعته ، وظهور صدقه وعلو درجته . ومن المقربين إلى الله والناس . المحبوبين لديهم .

---

(١) آل عمران : ٥٩

وبما أن الولد عادة ينسب إلى أبيه ، فإضافة عيسى بالبنوة إلى أمه ، فيه إشعار لها - حين البشارة - بأنه سيكون بغير أب... قبل التصريح لها بذلك . وسيأتى بعد .

٤٦ - (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ) :

وبشرتها الملائكة أيضا : بأن ولدها عيسى عليه السلام ، سيكون ذا شأن عظيم ، وذلك أنه يكلم الناس وهو طفل يلازم فراش الطفولة ، مثلما يكلمهم وهو رجل ذو جلال ووقار . فكلامه فى كلتا الحالتين، كلام رصين، مفيد نافع ، ينفى الريب ويزيل الشكوك ، ويحق الحق .

ومن كلامه فى طفولته . أنه قال لقومه، حين أشارت أمه إليه ليدافع عن عرضها : « إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا »[1] . وذلك حين جاءت به قومها تحمله ، بعد أن وضعته فلما رأوا ذلك: « قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا . يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا »[2] .

أما كلامه فى كهولته ، فهو كلام الوحى والرسالة .

وكما بشّرتها الملائكة بوجاهة ولدها فى الدنيا والآخرة ، وأنه سيكلم الناس فى المهد وكهلا ، بشّرتها أيضا : بأنه سيكون فى عداد الكاملين فى الصلاح والتقوى .

٤٧ - (قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) :

قالت السيدة مريم - متعجبة من تبشيرها بالولد وهى غير متزوجة - ياإلهى. مِنْ أين يكون لى ولد ولم يتصل بى بشر ، والعادة جارية على خلاف ذلك؟ قال الله تعالى - بلسان الملائكة وتبليغهم ، ردًّا على استغرابها - الله يفعل مايشاء ، ولو خالف القياس ، بدون معاناة ولاصعوبة .

ولايحتاج تحقيق المراد إلى قوله تعالى (كُن) بل يكفى أن يريده الله ، فيتحقق فى الحين الذى أراده سبحانه فيه . والأمر بِكُن محمول - عند الأكثرين - على أنه تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى مراده : بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور به ، من غير امتناع ولاتوقف .

وأجاز بعضهم : أن يكون ذلك على الحقيقة ، بأن يتعلق كلام الله النفسى : الذى هو بمعنى : كن ، على ماأراد الله تكوينه ، فيكون ويحدث .

---

(١) مريم : ٣٠ ، ٣١ (٢) مريم : ٢٧ ، ٢٨

(وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾) .

المفردات :

(الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ) : الأكمه : من ولد أعمى . والأبرص : من بجلده بقع بيضاء تخالف لون سائره .

التفسير

٤٨ - (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ) :

فى جملة مابشرت به الملائكة مريم ، عن ولدها عيسى المنتظر : أن الله تعالى : يعلمه الكتاب . والمراد به : الكتابة بالقلم . كما قاله ابن عباس وابن جريج .

أو هو بعض الكتب الإلٰهية التى أنزلها الله على أنبيائه ، سوى التوراة والإنجيل اللذين سيذكران بعد . وهذا رأى أبى على الجبائى . والأول أظهر .

وكما يعلمه الكتاب ، يعلمه الحكمة . وهى إصابة الحق فى القول والعمل ، ويعلمه التوراة التى أنزلها على موسى من قبله ، والإنجيل الذى سينزله الله عليه . وقد كان عليه السلام ، يحفظ هذا وذاك .

وتعليمه ماتقدم : صالح لأن يكون موهبة إلٰهية ، ولأن يكون بمعلم .

روى أنه لما ترعرع أسلمته أمه إلى المعلم . ولكن لاندرى ماذا علمه المعلم . ولعله علمه ماتضمنته الآية من الكتابة والتوراة . أما الإنجيل ، فقد أنزله الله عليه .

٤٩ - (وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ . . .) الآية .

أى : ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل ، يخبرهم : أنى قد جئتكم ببرهان من ربكم على نبوتى . هو أنى أنشىء لكم من الطين تمثالا كهيئة الطير وشكله ، فأنفخ فيه فيكون بعد النفخ طيرا بأمر الله الذى جعل ذلك معجزة وبرهانا على أنه أرسلنى إليكم . فإن مثل ذلك لايقدر عليه البشر ، لأنه مما اختص الله به ، فإذا أمكن الله بعض عباده من ذلك ، فذلك يعتبر تأييدا من الله له فى دعوى الرسالة .

والتعبير بقوله : (وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ) للإيذان بخصوص بعثته إليهم .

أما الرسالة العامة ، فهى لمحمد صلى الله عليه وسلم : لايشركه فيها أحد سواه .

قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . . . . » [1] .

وقد انقسمت بنو إسرائيل فيه إلى فرقتين : فرقة ترميه بأفحش مارمت به أمة نبيها ، وهم الأكثرون من اليهود . وأخرى تصدقه فى مواعظه وإرشاداته . وتقول : إنه لم يخالف التوراة ، بل قررها ودعا الناس إليها ، وإنه من المستجيبين لموسى عليه السلام ، ومن بنى إسرائيل فرقة أخرى تسمى الأتقياء ينفون رسالته ونبوته ، ويقولون : إن سائر اليهود ظلموه : حيث كذبوه أولا ، ولم يعرفوا مدعاه . وقتلوه آخرا ولم يعرفوا مرماه ومغزاه .

وهذه الفرقة تسمى : العنانية . أصحاب عنان بن داود رأس الجالوت .

ذكر ذلك الألوسى ناقلا عن بعض المصادر المشهورة ولم يسمه .

(وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ) :

وأشفى الأكمه الذى ولدته أمه أعمى ، فيصير بصيرا . وأشفى مَنْ بجلده برص . وهو بياض يخالف لون سائر الجلد . وهاتان العلتان أعجزتا الأطباء . ولهذا أراهم الله المعجزة على يد عيسى من جنس الطب . كما أرى قوم موسى المعجزة بالعصا واليد البيضاء ، حيث كان

(١) سبأ : ٢٨

الغالب عليهم السحر . وأرى العرب معجزة القرآن . حيث كان الغالب عليهم فى عصر الرسول : الفصاحة والبلاغة .

والاقتصار على هذين المرضين ، لاينفى قدرته على شفاء غيرهما بإذن الله . وكما كان يقدر على شفاء المرضى ، كان يحى الموتى بإذن الله .

وفى كل هذه المعجزات كان يلجأ إلى الله ويدعوه ، فيحقق الله دعاءه . دون ممارسة الوسائل الطبية .

(وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) : وأخبركم بما تأكلونه فى بيوتكم ولم أشاهده ، وماتدخرونه للمستقبل من مال وطعام لاسبيل لى إلى علمه .

والمراد : الإخبار بهذين النوعين بخصوصهما . وقيل : المراد أنه يخبرهم بالمغيبات .

واقتصر على ذكر هذين الأمرين ؛ لحضورهما لديهم . فلا يبقى لهم شبهة . ولاشك أن صدقه فيما أخبر به شاهد على صدقه فى دعواه الرسالة إليهم .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

هذه الجملة من كلام عيسى حكاها الله تعالى ، أو من كلام الله ، سيقت للتوبيخ .

والمعنى : إن فى ذلك لعلامة لكم على صحة رسالة عيسى ، أو رسالة محمد الذى أخبر بما لم يعاصره ، من غير معالجة أسباب توصله إلى علمه ، كما يفعله المنجمون .

أما ما يفعله علماء الفلك ، من الإخبار عن بعض المغيبات ، فناشئ عن قوانين وضوابط ، لولاها لما عرفوا ما أخبروا به .. فلا يقال : إنهم أخبروا بالمغيبات .

على أن مايخبرون به لا يصل إلى درجة العلم المقابل للظن . بل أقصى مايحصل به هو الظن الغالب — وقد يخطئون — وبينه وبين علم الغيب بَوْنٌ بعيد ، بخلاف مايخبر به المرسلون ، فهومن باب العلم الذى لا شك فيه ؛ لأنه إخبار عن الله تعالى . ولذا لايقع فيه خطأ .

وأما التنبؤ فى شئون التجارة والحروب والحظوظ ونحو ذلك ، فهو إهدار لكرامة العقل ؛ ومخالف للشرع .

ثم ختم الآية بقوله تعالى : (إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى : إن كنتم مريدين الإيمان أو موفقين إليه : فذلك الذى تقدم آية لكم تعينكم على تحقيقه .

٥٠ - (وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ...) الآية .

أى : جئتكم بآية من ربكم ، ومصدقا لما تقدمنى من التوراة النازلة على موسى : مؤمنا بما جاء فيها ، وأنها نازلة من عند الله تعالى . وجئتكم لأُحل لكم بعض الذى حُرِّم عليكم .

واختلف العلماء فى المراد من قوله : (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) :

فمنهم من قال : المراد منه : أن عيسى عليه السلام ، أَحَلَّ لهم بعض ما حرم الله عليهم فى التوراة ؛ تخفيفا عليهم .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع أنه قال : « كان الذى جاء به عيسى أَلْيَنَ مما جاء به موسى عليه السلام » .

ومنهم من قال : المراد منه : أنه أَحَلَّ لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطأوا ، فكشف لهم من ذلك ما كان مغطى .. لقوله تعالى : « وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ » [1]

(وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ) :

وَحَّدَ الآية - مع أنها آيات عديدة - لأنها جنس واحد فى الدلالة على رسالته . وقد جاءت هذه الجملة فى آخر كلامه - مع أنها جاءت فى أوله - لتكون كنتيجة لِسَرْد هذه المعجزات التى تقدمت ؛ وليرتب عليها قوله لهم :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) :

وكأنه يقول لهم : وإذا كنت قد جئتكم بهذه الآيات والمعجزات ، فاتقوا الله وخافوه ، وأطيعون فيما آمركم به عنه سبحانه وتعالى . فإن ذلك يجب عليكم ، عند ظهور الحق فيما أدعوكم إليه .

٥١ - (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) :

بعد أن أمرهم بتقوى الله وطاعته ، علل ذلك بقوله : (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ) : يعنى ومن كان كذلك ، وجب أن يُتَّقَى ويُطَاعَ رسولُه فيما كلفهم به من تكاليفه تعالى .

ورتب على ذلك : ما هو تفسير للتقوى والطاعة ، وما هو فرع وأثر لربوبيته تعالى ، فقال : (فَاعْبُدُوهُ) :

أى : اجعلوا عبادتكم له وحده ؛ لأنه ربكم دون سواه .

(١) الزخرف : ٦٣

وأرشدهم إلى استقامة هذا المنهج فقال :

(هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) : فإنه يجمع بين الاعتقاد السليم ، والعمل القويم .

قال تعالى :

(فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (٥٤)) .

المفردات :

(فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ) : أصل الإحساس ، الإدراك بإحدى الحواس . ويستعار للعلم بلا شبهة . أى : فلما علم منهم المداومة على الكفر علما لا شبهة فيه .

(مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى اللَّهِ) : أى من أنصارى متجها إلى الله ؟ وحاصل المعنى : من ينصرنى حال كونى متجها إلى الله ملتجئا إليه ؟ والأنصار : جمع نصير . وهو من يؤيدك وينصرك .

(الْحَوَارِيُّونَ) : جمع حوارى . وهو الصَّفِيُّ والناصر . يقال : فلان حوارىُّ فلان ، أى خاصته من أصحابه وناصره .

التفسير

٥٢ - (فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى اللَّهِ ...) الآية .

بعد أن بين الله فى الآيات السابقة ، ما يؤكد رسالة عيسى عليه السلام ، ويدعو إلى تصديقه والإيمان بنبوّته ، عقّبها بتلك الآيات التى أوضح فيها : كفر بنى إسرائيل ومكرهم به ، وإنجاء الله له من مكرهم ، ووقوف أهل الحق معه ، وسائر قصصه الحق الذى زيفه أهل الكتاب . فقال جلّ ثناؤه :

(فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ...) الآية .

والمعنى : فلما استيقن عيسى مداومتهم على الكفر ، وعدم استجابتهم لدعوته ، اتجه إلى من خلصت نيتهم من قومه ، مخاطبا لهم بقوله : من ينصرنى ويؤيدنى وأنا متجه إلى الله داعيا لدينه ، لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يمنعه مانع ؟ فاستجاب لندائه عليه السلام ، صفوته وخاصته من قومه .. وقد حكى الله استجابتهم بقوله :

(قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) :

أى : قال المخلصون له من قومه : نحن أنصار دين الله : ننضم معك فى نصرته ، وفى تبليغ دعوته ، وتوضيح رسالتك ، لأننا آمنا بالله . ومن يؤمن به سبحانه ، فعليه أن ينصر دينه. واشهد علينا يارسول الله ، بأننا منقادون لما يريده الله منا .

ثم توجهوا إلى الله مؤكدين ما خاطبوا به عيسى عليه السلام ، فقالوا :

٥٣ ـ (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) :

المعنى : أكد الحواريون إيمانهم الذى أشهدوا عليه عيسى ـ متجهين به إلى ربهم ـ قائلين : ربنا آمنا بما أنزلته على جميع رسلك ، واتبعنا الرسول عليه السلام ، فاكتبنا عندك ـ ببركة هذا الإيمان ـ مع الشاهدين من جميع الأمم : بصدق الأنبياء والمرسلين . ولا تجعلنا من المعاندين المكابرين ، الذين ينكرون الحق مع وضوح دليله .

وعن ابن عباس معناه : واكتبنا مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، الشاهدين للرسل بالتبليغ .

ثم حكى الله تدبير بنى إسرائيل اغتيال عيسى وإحباط الله لكيدهم فقال :

٥٤ ـ (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) :

المعنى : قال ابن عباس فى تفسيرها : لما أراد مَلِكُ بنى إسرائيل قتل عيسى عليه السلام ، دخل ـ أى عيسى ـ خوخة فيها كوة ، فرفعه جبريل عليه السلام ، من الكوة إلى السماء . فقال الملك لرجل خبيث منهم : ادخل عليه فاقتله . فدخل الخوخة ، فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام ، فخرج إلى أصحابه يخبرهم أنه ليس فى البيت . فقتلوه وصلبوه ، ظنا منهم أنه عيسى .

وقد جاء فى إنجيل (برنابا) ما يصدق هذا المروى عن ابن عباس . وزاد على ذلك : أن هذا

الخبيث هو يهوذا . وكان من الحواريين المنافقين . وهو الذى دلّهم على مكانه . وذلك أن عيسى جمع الحواريين تلك الليلة . وأوصاهم وقال : ليكفرن بى أحدكم . فذهب يهوذا إلى ملك اليهود وأخبره بمكانه ، ومكان حوارييه . فلما توجه إليه الملك برجاله ودخلوا عليه البيت ، لم يجدوه ، فقد رفعه الله إليه . وألقى شبه عيسى على يهوذا . فأمر الملك بقتله. فقال له : أنا يهوذا. فقال الملك : إن كنت يهوذا فأين عيسى ؟ فقال يهوذا : إن كنت عيسى فأين يهوذا ؟ فلم يعبأ الملك بهذه المعارضة ، وصلبه لشبهه بعيسى .

ومن العجيب أن النصارى لا يعترفون بهذا الإنجيل ، مع أنه وجد بمكتبة بابا روما ، وترجم إلى اللغة الإيطالية ، ثم إلى الإنجليزية ، وغيرهما من لغات العالم . ولم يوجد بالعربية إلا بعد ترجمته من الإنجليزية أخيرا !!

بل من الأعجب أن النصارى لا يعترفون بهذا الإنجيل لمجرد مخالفته لما هو عليه من الأناجيل الأخرى . . وليس ما عندهم من تلك الأناجيل ما هو أولى بالتصديق منه ؛ لأنها ليس فيها ما يرجحها عليه ، بل إن العكس هو الصحيح .

هذا هو مكر بنى إسرائيل بعيسى ، وإكرام الله له بإنجائه من مكرهم ، وعقابه المنافق بقتله ، بعد إلقاء شبه عيسى عليه ! !

والمكر لغة: هو تدبير خفى ، يقصد به إضرار من يمكر به ، ولا يطلق على الله إلا بأسلوب المشاكلة المعروف فى علم المعانى . وهو التعبير عن الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته . وقد أطلق هنا على إنجاء الله لعيسى . وانتقامه من المنافق ، لوقوعه فى صحبة مكرهم . هكذا قالت طائفة من العلماء .

وقال غير واحد: المكر هو التدبير المحكم . وهو ليس بممتنع على الله تعالى ؛ وفى الحديث الشريف : « رَبِّ أَعِنِّى ولَاتُعِنْ عَلَىَّ . . . وامكُرْ لى ولا تمكر على[1] » .

ثم ختم الله الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ :

أى أقواهم ، وأشدهم مكرا . أو أنه أحسنهم مكرا ؛ لبعد تدبيره عن الظلم .

---

(١) من حديث رواه : أحمد ، والحاكم ، والترمذى ، وغيرهم .

ثم فصل هذا التدبير المحكم بقوله :

(إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾) .

المفردات :

(مُتَوَفِّيكَ) : أى مستوفيك وآخذك إلىَّ. مأْخوذ من قولهم : توفيت دينى على فلان . أى استوفيته وأخذته . ويعتبر قوله عقبه (وَرَافِعُكَ إِلَىَّ) : تفسيرا له .

(وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) : أى مطهرك منهم بإبعادك عنهم بالرفع ، فقد دنَّسهم الكفر .

(وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ) : بتصديق ما جئت به . ومنه : أنه يأْتى من بعدك نبى اسمه أحمد : يجب الإِيمان به .

(فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا) : بذلك .

(إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) : ومن لم يؤْمن منهم بمحمد . فقد كفر بعيسى . فتسلب منه هذه الأَفضلية .

(مِنَ الْآيَاتِ) : من الحجج الدالة على صدقك .

(وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) : والقرآن المحكم المتقن . أو المتصف بالحكمة .

التفسير

٥٥ - (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...) الآية .
اختلف المفسرون فى المراد من التوفى هنا .

فمن العلماء من قال : إنه على حقيقته المعروفة . وإنه مرتبط بالآية السابقة .

والمعنى : ومكر اليهود بعيسى يريدون قتله . ومكر الله فأحبط تدبيرهم . والله خير الماكرين . فقد قال الله لعيسى : إنى متوفيك حين يأتى أجلك . ولن أسلطهم عليك ليقتلوك . وقد حقق الله وعده له إذ ألقى شبهه على يهوذا فقتلوه ، وأنجى عيسى ورفعه إليه . وسيبقى إلى آخر الزمان ليبلغ شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - للناس . ثم يتوفاه بعد ذلك . كما ورد فى السنة الصحيحة على ما سنبينه .

فالآية على هـــذا كناية عن عصمته من الأعداء ، مشفوعةٌ بالبشارة برفعه .

وقال آخرون : معناه : إنى مستوفيك ، أى آخذك من الأرض . مأخوذ من قول العرب : توفيت ما لى على فلان ، أى أخذته . وعلى هذا يكون قوله : (وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) تفسيرا للتوفى .

ونقل الحافظ ابن كثير ، عن ابن عباس (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ) أى مميتك .

ولكن هذا النقل معارض بما سنذكره من الأحاديث الدالة على بقائه إلى آخر الزمان ، وبقوله تعالى : « وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ »[1] . وهذا الوعد لم يتحقق إلى الآن ، فإن اليهود - وأكثر الناس - لم يؤمنوا به . وذلك يدل على أنه لا يزال حيا . وسيظل كذلك . حتى يؤمن به جميع الناس قبل موته ؛ تحقيقا لوعد الله تعالى . وسيكون ذلك آخر الزمان .

كما أنه معارض بما صح نقله عن ابن عباس من أنه رفع من غير وفاة .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : (وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) مرادا منه : رافعك حيًّا بدون وفاة . .

(١) النساء : ١٥٩

ويشهد له – ولنزوله آخر الزمان – ما رواه الإمام مسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « وَاللهِ، لينزلنّ ابن مريم حكما عادلا فليكسرَنَّ الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولَتُترَكَنَّ القلاص[1]، فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، ولَيَدْعَوُنَّ إلى المال فلا يقبله أحد »

ولا ينزل عيسى بشرع جديد ينسخ به شريعتنا، بل ينزل مجددا لما درس منها، متَّبعا لها، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « كيف أنتم إذا أُنزل فيكم ابن مريم وإمامُكم منكم »!

وبما أنه سينزل آخر الزمان، فلابد أنه يبقى حيا إلى حين ينزل ويبلغ شرع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لو مات قبل ذلك، لكان نزوله هذا بعثا له في الدنيا. ولا بعث إلا في الآخرة. كما دل عليه الكتاب والسنة.

والمراد من قوله: (وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أنه تعالى، يبعده عنهم بالرفع، حتى لا يبقى بين من دنسوا أنفسهم بالكفر، تنزيها له عن دنسهم. أو أنه يُبْعِد أيديَهُم عنه، فلا تمسه بأذى .. فهم أنجاس لكفرهم.

ويصح أن يكون هذا وعدا من الله له، بأنه – في آخر الزمان – يزيل من طريقه الكافرين، فلا يستطيعون صده عن الهدى كما كانوا يفعلون قبل رفعه.

(وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ):

لا يقال للأُمة: إنها اتبعت رسولها إلا إذا كانت تنفذ ما جاء به: اعتقادا وقولا وعملا.

والنصارى – بعد أن رفع الله عيسى – انقسموا فرقا وشيعا: فمنهم من آمن به، على أنه عبد الله ورسوله وابن أَمَتِهِ. ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله. ومنهم من قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة.

---

(١) القلاص جمع قلوص. وهي الناقة الشابة.

وقد حكى الله مقالاتهم فى القرآن ، ورد على من عدا الفرقة الأولى ، التى تعتبر متبعة لرسولها ، فى تنزيه الله عن الصاحبة والولد والشريك .

وهذه هى العقيدة السليمة التى جاء بها المرسلون جميعا .

وكل من دان بها ، فهو تابع لرسوله . كما هو تابع لجميع المرسلين وأصحابهم هم المؤمنون . ومن عداهم فهم كافرون .

وقد وعد الله - فى هذه الآية - أنه جاعل من اتبع عيسى عليه السلام ، فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . أى أنهم يكونون أعلى منهم .

والعلو المقصود من الآية : يحتمل أن يكون علوًّا فى الدرجة والمنزلة عنده تعالى . فالمتبعون له - فى حكم الله وقضائه - فى أعلى الدرجات إلى يوم القيامة . ولا مكانة ولا منزلة عنده - جلَّ وعلا - لِمَنْ لم يتبع عيسى : بأن كفر به ، أو آمن به ولكنه جعله إلَهًا أو ابن الله . تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا .

ويحتمل أن يكون العلو بمعنى الغلبة والقهر . وذلك إما بالحجة والبرهان - ولاشك أن أهل الحق منهم ، أقوى حجة على أهل الباطل منهم ومن غيرهم ، كاليهود والمشركين - وإما بالقتل والأسر . وقد حدث ذلك بعد رفع عيسى .

وفى ذلك يقول الله تعالى : « قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » (1) . ولعله حدث فى أوقات أخرى مثل ذلك .

وقد انقرض المؤمنون المتبعون لما جاء به عيسى عليه السلام . وأصبح جميع النصارى قبل بعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، يؤلهون عيسى . ويقولون : هو ابن الله . أو هو الله . أو هو ثالث ثلاثة .

وعلى أى حال كانت عقيدة النصارى فى عيسى ، فإنهم - منذ البعثة المحمدية - لا يعتبرون متبعين لعيسى عليه السلام ، إن كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

---

(1) آخر سورة الصف .

فقد بشر به عيسى ، وأوجب عليهم تصديقه . فإذا زال عنهم وصف اتباعهم لعيسى عليه السلام - بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أو عدم دخولهم فى الإسلام - فقد زال استحقاقهم لوعد الله ، بأن يجعل من يتبع عيسى ، فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة لسببين :

أحدهما : كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبدينه .

وثانيهما : عقيدتهم الباطلة فى عيسى .

وكلا السببين : مخرج لهم عن اتباعهم لعيسى عليه السلام ، مستوجب لحرمانهم من وعد الله أن يكون متبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . فإنهم - بما جَنَوْا - أصبحوا كافرين . فانتقل وعد الله لعيسى : (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) من النصارى إلى المحمديين ، الذين هم - باتباعهم محمدا عليه الصلاة والسلام - يعتبرون متبعين لعيسى أيضا : فيما جاء به من التوحيد وأمهات الشرائع والأحكام ، التى يشترك فيها جميع المرسلين .

ولهذا ، ترى المسلمين ظهروا على من عداهم : - بالحجة التى لا ترد ، والبرهان الذى لا يقهر . كما تراهم ظهروا عليهم ، فى الجهاد والاستيلاء على الأقطار والبلاد - فقد فتحوا بلاد كسرى وقيصر . وتجاوزوها إلى الصين والهند شرقا ، وإلى غرب أوربا وشمال إفريقيا وجنوبها. ولا تجد قارة من القارات ، ولا قطرا من الأقطار ، إلا وفيه الكثير من المسلمين. ولا يزال أمر هذا الدين مستقيما حتى تقوم الساعة كما قال - صلى الله عليه وسلم[1] - وصدق الله فى وعده إذ يقول : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا[2] » .

(ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) :

المعنى : ثم إلى حُكْمِي وقضائى : مَرجِعُكم ومصيركم ، أيها المختلفون فى أمر عيسى عليه السلام ، فأقضى بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من أمره وأمر دينه .

ثم فصل قضاءه فيهم فقال :

(١) مأخوذ من الحديث الشريف « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » رواه الحاكم .
(٢) النور : ٥٥

٥٦ـ (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) :

المعنى : فأما الذين كفروا بأن جحدوا نبوته وجعلوه إلها ، أو ابنا له تعالى ، فيعذبهم الله عذابا شديدا : فى الدنيا بالقتل والأسر ، حتى يخضعوا أو يعطوا الجزية ، فى مقابل رعايتهم والدفاع عنهم . وفى الآخرة حيث يخلدون فى النار ، ومالهم من ناصرين يدفعون عنهم عذاب الله .

٥٧ـ (وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ) :

المعنى : وأما الذين صدقوا بنبوتك ياعيسى ، وصدقوا بجميع الرسالات ، وعملوا الصالحات : فى دينهم ودنياهم ـ فيعطيهم أجورهم وافية وافرة . والله لايحب الظالمين بالكفر والمعاصى ، ولايرضى عنهم بل يبغضهم ولا يرحمهم . فلذلك يعاقبهم فى الدنيا والآخرة .

٥٨ـ (ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) :

المعنى : هذا الذى تلوناه عليك يامحمد، من أمر عيسى مع قومه ، هو من البراهين الشاهدة بنبوتك . فإن ذلك مما لايعلمه سوى أهل الكتاب ـ وأنت أمى ولا صحبة لك مع أهل الإنجيل حتى تعلمه منهم ـ فلم يبق إلا أنك عرفته من الوحى .

وكما أنه من الآيات ، فهو من القرآن الحكيم . أى المحكم المتقن المصون من الباطل . أو صاحب الحكمة وهى إصابة الحق .

والتعبير بالمضارع (نَتْلُوهُ) بدل الماضى ـ تلوناه ـ استحضار للصورة التى حصلت ؛ للاعتناء بها .

ويمكن حمـل المضارع على ظاهره ـ وهو الحال ـ لأن قصة عيسى لم يفرغ منها بعد .

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾) .

المفردات :

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ) : المثل هنا ؛ بمعنى الحال والصفة العجيبة .

(كُن فَيَكُونُ) : أى صِرْ بَشَرًا ، فصار بشرا . والتعبير بالمضارع (فَيَكُونُ) بدل الماضى -فكان - لتصويره بصورة الحاضر المشاهد ؛ إيذانا بغرابته .

(فَلَا تَكُن مِنَ الْمُمْتَرِينَ) : من الشاكِّين . أو من المجادلين فى شأنه بعد وضوح الحق . والخطاب لكل مكلف .

(حَاجَّكَ) : أى جادلك .

(ثُمَّ نَبْتَهِلْ) : أى ثم ندع الله : مضارع . من الابتهال وهو الدعاء .

(وَمَا مِن إِلَٰهٍ) : ما . نافية . ومِن . لتأكيد الاستغراق المفهوم من النكرة المنفية . وهى كلمة (إِلَٰهٍ) قاله الشهاب .

التفسير

٥٩ - (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) :

سبب النزول :

نزلت هذه الآية على الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند حضور وفد نجران .

وكان من جملة شبههم : أن قالوا : يا محمد لَمَّا سلمت أنه لا أب له من البشر ، وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى . فقال : « إن آدم ما كان له أب ولا أم .. ولم يلزمه أن يكون ابنا لله تعالى ، فكذا القول فى عيسى » عليه السلام .

تلك خلاصة ما دار بين وفد نجران ، وبين الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الحوار فى دعواهم أن عيسى ابن الله .

والمعنى : إن حَال عيسى - وصفته العجيبة فى خلقه دون أب - كحال آدم أبى البشر ، عليه السلام ، أراد الله خلقه من تراب ، ثم قال له - عند تعلق إرادته تعالى بتنفيذ خلقه - صرْ وكن بأمرى بشرًا سويًّا : ذا لحم ودم ، وعظام وأعصاب ، وعقل وإرادة .. فصار بشرا ، كما أراده الله .

وتم بذلك خلقه من تراب دون أب أو أم ، فكان بذلك أعجب من خلق عيسى من أم دون أب !!

وإذا كنتم أيها النصارى ، لا تقولون بألوهية آدم ، ولا ببنوته لله - مع أن خلقه أعجب من خلق عيسى - فكيف تقولون بألوهية عيسى ، أو بُنُوته لله ، وهو دون آدم فى غرابة خلقه !!

والآية دليل على صحة القياس ، وشرعية النظر والاستدلال .

فقد احتج الله على فساد ادعائهم الألوهية لعيسى محتجين بأنه ولد بغير أب .. احتج عليهم بخلق آدم بلا أب ولا أم . فحيث لم يقولوا بألوهية من هو أعجب منه خلقا ، وجب القول بعدم ألوهية عيسى من باب أولى .

ولما كان هذا الاحتجاج واضح الدلالة على بطلان زعم النصارى فى عيسى ، أتبعه قوله :

٦٠ - (الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ) :

لما كان الامتراء - هنا - بمعنى الشك ، فلذا لا يصح أن يكون الخطاب فى الآية للرسول ، بل لمن يجادله فى شأن عيسى ، ولكل من يخالجه شك فى أمره عليه السلام .

والمعنى : الحق فى شأن عيسى ، نازل من ربك أيها المجادل فى شأنه . فلا تكونن من الشاكين فى أمره ، بعد ما أسفر الصبح - لذى عينين - بهذه الحجة القاطعة لكل ريب .

ويصح أن يكون الامتراء بمعنى المجادلة بالباطل . أى فلا تكونن بعد هذا الحق النازل من ربك ، من المجادلين المحاجين فيه بالباطل . والخطاب فيه - كسابقه ، لغير الرسول ، فإن الرسول لايجادل بالباطل .

٦١ - (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَاجَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) :

أما الخطاب هنا ، فللرسول صلى الله عليه وسلم .

والمعنى: فمن جادلك فى شأن عيسى - من بعد ماجاءك من أدلة العلم - بأنه بشر لايستحق الألوهية ، كما هو شأن آدم الذى هو أعجب منه خلقًا ، فاترك مجادلتهم فهم مقلدون معاندون : معرضون عن الحق بعد وضوحه . وأفحمهم فقل لهم : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم يَبْتَهل كل منا إلى الله تعالى ويدعوه ، أن يجعل لعنته على الكاذبين منا .

وقد حدث أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لما نزلت هذه الآية أخبر وفد نجران بها ، ودعاهم إلى الغدو فى اليوم التالى ، ومعهم نساؤهم وأبناؤهم . وحضر الرسول فى الموعد ، ومعه الحسن والحسين ، وفاطمة وعلى ، فلم يجدهم . فقد تشاوروا فيما بينهم ، فقالوا للعاقب وكان صاحب رأيهم - : ياعبد المسيح ، ماذا ترى ؟ فقال : والله ، يامعشر النصارى ، لقد عرفتم : أن محمدا لنبى مرسل . ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم . ولقد علمتم أنه مالاعَنَ قوم نبيا قط فبقى كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم . وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم . فإن كنتم أبيتم إلا إلفَ دينكم ، والإقامة على ماأنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم . فأتوا النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاعنك ونتركك على دينك ، وأن نرجع على ديننا . ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا :

يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا . فإنكم عندنا رضا . فأمّرو أبا عبيدة أن يخرج معهم ؛ ويقضى بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه - أفاده القرطبى .

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل ، عن الضحاك وابن عباس : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - صالحهم على الجزية ، ومقدارها ألف حلة فى صَفَر ، ومثلها فى رجب ، ودَرَاهم . وذلك بعد أن أشار عليهم يهود المدينة بالصلح وعدم الملاعنة وقالوا لهم : هو النبى الذى نجده فى التوراة .

قد يقول قائل : إن الجزية فرضت بعد فتح مكة . ووفد نجران جاء قبلها . فكيف يقال : إن الرسول صالحهم على الجزية ؟ . والجواب : أن ذلك من باب المصالحة على ترك المباهلة . وجاء فرض الجزية - بعد ذلك - على وفق ماصنعه الرسول .

وقد أجيب بأجوبة أخرى ، فارجع إليها - إن شئت - فى تفسير ابن كثير .

وروى البخارى ومسلم وغيرهما عن حذيفة قال : جاء العاقب والسيد : صاحبا نجران ، إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريدان أن يلاعناه [1] . قال : فقال : أحدهما لصاحبه : لاتفعل . فو الله ، إن كان نبيا فلاعناه ، لانفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . قالا : إنا نعطيك ماسألتنا وابعث معنا رجلا أمينا ، ولا تبعث معنا إلا أمينا ، فقال : « لأبعثن معكم رجلا أمينا حَقَّ أمينٍ . فاستَشْرَفَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : قم ياأبا عبيدة بن الجراح . فلما قام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا أمين هذه الأمة » .

٦٢ - (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

المعنى : إن هذا الذى قصصناه عليك - يامحمد - فى شأن عيسى ، لهو القصص المطابق للواقع : الذى لايصح العدول عنه إلى ماعليه النصارى فى شأنه : من أنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة .

(وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ) : فلا شريك له فى ملكه ، بأى وجه من الوجوه . ولا معبود بحق سواه .

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ) : أى الغالب الذى يَقْهَرُ ولا يُقْهَرُ . أو العزيز . بمعنى : من لانظير له .

(الْحَكِيمُ) : المتقن لما يصنعه وما يدبره .

٦٣ - (فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ) :

---

(١) أى يستجيبا إلى طلبه عليه السلام ملاعنتهم .

فإن أعرض هؤلاء النصارى عن الاعتراف بالحق فى شأن عيسى ، وعن اتباعك فى دينك - بعد ماتبين لهم الحق - فإن الله عليم بهؤلاء المفسدين ، فيعاقبهم على إفسادهم لعقائدهم وعقائد غيرهم . وأظهر فى مكان الإضمار ، فلم يقل : عليم بهم. بل قال : (عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ) لإظهار فسادهم واستحقاقهم للعقوبة .

وفى هذا تهديد بليغ لهم .

(قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾) .

المفردات :

(تَعَالَوْا) : أقبلوا .

(إِلَىٰ كَلِمَةٍ) : إلى العمل بكلمة . والمراد بها هنا : الكلام الآتى بيانه فى الآية الكريمة .

(سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ): مستوية عادلة نعمل بها جميعا ، ولا نختلف فيها .

(وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ) : أى لايطيع بعضنا بعضا فى معصية الله . وأهمها الشرك .. فإن طاعتهم فى ذلك كاتخاذهم أربابا . وهذه الجملة بالنسبة لما قبلها تعميم بعد تخصيص . وسيأتى بيان ذلك فى المعنى .

التفسير

٦٤ - (قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا . . .) الآية .

نزلت هذه الآية فى وفد نجران كما قاله : الحسن ، والسدى وغيرهما .

وقال الجبائي : نزلت في اليهود والنصارى . ورجحه بعض المحققين ، لعموم الخطاب لهما . وإن كان السياق مع الرأي الأول .

والمعنى : قل يامحمد لأهل الكتاب : أقبلوا إلى منهج موحد في العبادة : يستوى فيه المسلمون والنصارى واليهود . نسلكه جميعا . ولا نعدل عنه إلى سواه .

وهذا المنهج هو : (أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا) لاصنما ولا كوكبا ولا نارا ولا ملائكة ولاغير ذلك . (وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ) : فلا يتخذ اليهود عزيرا ابنًا لله . ولا يتخذ النصارى المسيح ابنًا لله . ولا يقولوا : إنه ثالث ثلاثة ، لتستووا بذلك مع المسلمين الذين لايتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ؛ فإن هذا المنهج التوحيدى - كما دعا إليه القرآن - دعت إليه التوراة والإنجيل قبل تبديلهما . ولاتزال فيهما نصوص كثيرة تدعو إلى التوحيد : تركتموها . وعملتم بنصوص أخرى : اصطنعتموها ، أوْ أسأتم تأْويلها .

وكما دعت إلى التوحيد هذه الكتب الثلاثة - دعا إليه جميع الرسل . قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ »[1] فهو مبدأ مشترك بين جميع الأديان : قامت عليه الأدلة العقلية ، إلى جانب الأدلة النقلية .

ومن اتخاذ البشر أربابًا : أن يأْخذ تابعوهم بآراء متبوعيهم في تحليل أو تحريم ، دون استناد إلى نص إلٰهى .

أخرج الترمذى - وحسنه - من حديث على بن حاتم : أنه لما نزلت هذه الآية قال : ماكنا نعبدهم يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أما كانوا يحلّلون لكم ويحرّمون فتأْخذون بقولهم » . قال : نعم . فقال صلى الله عليه وسلم : «هو ذاك » .

وإلى هذا المعنى ، أشار قوله تعالى: « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ »[2]

وقد جاء في أسفار العهد القديم : نصوص عديدة . . ناطقة بتوحيد الله وتنزيهه عن الشريك[3] .

(١) الأنبياء : ٢٥ (٢) التوبة : ٣١
(٣) راجع سفر الخروج فقرة (٦) وفقرة (١٦) وفقرة (٩) من سفر أشعيا .

ثم قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) :

أى فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه : من توحيد الله ، وعدم إشراك غيره معه فى العبادة – مع أن ذلك أمر مجمع عليه فى جميع الرسالات – فاعلموا أنهم لزمتهم الحجة ، ولكنهم أبَوا الحقَّ عنادا ، فقولوا لهم: أنصفونا واشهدوا معترفين لنا بأننا مسلمون مخلصون لربنا .

وفى هذا الطلب ، تعريض لهم بأنهم لا إسلام لهم – أى لا إخلاص منهم لربهم – حين اعتقدوا فى عيسى وعزير ما اعتقدوه فيهما . كما أنه يؤذن بأن من قاله واثق بعقيدته فى ربه ، مطمئن إلى الأدلة التى أيقن بها .

(يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾) .

المفردات :

(لِمَ تُحَاجُّونَ فِىٓ إِبْرَاهِيمَ) : أى لِمَ تجادلون فيه ؟ فيقول كل منكم : إنه كان على دينه .

(حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ) : كأمر موسى وعيسى عليهما السلام .

(فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ) : هو أمر إبراهيم عليه السلام .

(حَنِيفًا) : مائلا عن الأديان الزائفة ، من الحنف . وهو الميل .

(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ) : إن أحق الناس بالانتساب إليه ، هم الذين اتبعوه فى شريعته ، ممن أرسل إليهم .

(وَهَٰذَا النَّبِيُّ) : محمد؛ لأن دينه التوحيد ، كدين إبراهيم عليهما السلام .

(وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) : مجتبيهم ومحب لهم ، فلهذا ينصرهم ويحسن جزاءهم .

التفسير

٦٥ـ (يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ التَّوْرَىٰةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

سبب النزول :

روى عن ابن عباس أنه قال : اجتمعت نصارى نجران ، وأحبار يهود ، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنازعوا عنده . فقال الأحبار : ماكان إبراهيم إلا يهوديا . وقالت النصارى : ماكان إبراهيم إلا نصرانيا . فأنزل الله : (يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تُحَاجُّونَ . . .) الآية . ذكره ابن كثير .

والمعنى : يأهل الكتاب لماذا تُجادلون فى إبراهيم ، فينسبه كل منكم إلى دينه ، والحال أنه ماأنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده بأزمان بعيدة ؟ فكيف يكون يهوديا على شريعة موسى ، أو نصرانيا على شريعة عيسى وهو سابق عليهما ؟! كما أن كلتا الديانتين دخلهما التبديل ، وزال مابهما من العقائد السليمة والأحكام الصحيحة . فلا يشبهان ماكان عليه إبراهيم عليه السلام ، من التوحيد والأحكام الشرعية الإلٓهية السليمة من التبديل . فكيف تقولون : إنه كان يهوديا أونصرانيا ؟ ! أتحاجون فى ذلك ؟ فهل تتعقلون ؟

فإن قيل : لماذا ينكر الله على اليهود والنصارى ماقالوا ؟ ويدلل على جهلهم وعدم تعقلهم ، بتقدم زمان إبراهيم على كتابيهم ـ مع أن القرآن قال مثل ماقالوا فى حقه : « وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا » كما سيأتى ـ فكيف يكون مسلما وهو سابق على الإسلام ؟ ولماذا صح هذا عن إبراهيم بالنسبة إلى الإسلام ، ولم يصح عنه بالنسبة إلى اليهودية أو النصرانية ؟

فالجواب : أن المراد من كونه مسلما : أن دينه يتفق مع الإسلام : فى الخضوع والاستسلام لله وحده دون شريك ، وفى تنزيهه تعالى عن الصاحبة والولد . كما أنه يتفق معه فى سائر أصول العقائد والأحكام . كشأن جميع الأديان السماوية .

أمَّا ما عليه اليهود والنصارى ، فمخالف للأديان السماوية ؛ حيث بدَّلوا التوراة والإنجيل ، وحرَّفوهما عن أصليهما النازلين من عند الله ، تحريفا يتصل بالنص وبالتأويل .

فإذا نفى القرآن عن إبراهيم : أنه كان يهوديًّا أو نصرانيًّا بقوله : «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا » فمعناه : أنه لم يكن على ماجاء فيهما من العقائد الخاطئة : كالبنوة لله والتثليث ، وكذلك الأحكام المحرفة التى لايمكن أن تكون شرعا لله فى أى زمان .

وإذا أثبت له أنه كان حنيفا مسلما بقوله : « وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا » فمعناه : أنه كان مائلا عن الأديان الباطلة — ومنها ماعليه اليهود والنصارى — ومنصرفا إلى الحق الذى جاء به الإسلام ؛ فإنه هو الدين السماوى النظيف من تحريف البشر : المشتمل على المعارف والأحكام الإلٰهية الرئيسية : التى اشتركت فيها جميع الأديان السماوية ، وإن اختلفت فى كيفية تلك الأحكام المشتركة وطريقة أدائها .

٦٦ — (هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

المعنى : هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم من أمر موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام . فعندكم التوراة والإنجيل تعرفون منهما أمرهم ، وإن كنتم غيرتم فيهما وبدلتم . فلماذا تحاجون فى أمر دين إبراهيم ، وأنتم لاعلم لكم بتفاصيله ولابما جاء فى صحفه ؟

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) : فلهذا جهَّلكم ورماكم بأنكم لا تعقلون .

٦٧ — (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

المعنى : ماكان إبراهيم يهوديا كما ادعى اليهود ، ولانصرانيا كما ادعى النصارى . ولكن كان حنيفا : أى مائلا عن الأديان الباطلة . مسلما : أى على طريقة الإسلام من التوحيد

وتنزيه الله عما لايليق ، والمحافظة على أحكام الله دون تبديل . فلم يقل: إن الله اتخذ له ولدا كما قالوا . ولم يقل : إن له شريكا فى الألوهية والعبادة كما زعموا .

٦٨ - (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) :

سبب النزول :

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رؤساء اليهود : والله يامحمد ، لقد علمت أنَّا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، وإنه كان يهوديا . ومابك إلا الحسد . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

والمعنى : إن أحق الناس بإبراهيم وأولاهم بالانتماء إلى دينه ، هم هؤلاء الذين اتبعوه من أمته التى بعث إليها ، وهذا النبى محمد والمؤمنون معه من أمته ، فإن دينهم الإسلام ، وهو يقوم على توحيد الله وتنزيهه عن الصاحبة والولد ، ودين إبراهيم كذلك ، أما أنتم ، فقد جعلتم عزيرا ابن الله ، وجعلتم الله مجسما يمكن النظر إليه ، وغيرتم فى دينكم ، وحرفتم فى كتابكم ، وكذبتم على أنبيائكم ، ونسبتم إليهم الموبقات . فكيف تقولون : إنكم أولى منا ؟ .

ثم ختم الآية بقوله :

(وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) : أى ناصرهم ومجازيهم أحسن الجزاء .

(وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾) .

المفـردات :

(وَدَّتْ) : أحبت .

(لَوْ يُضِلُّونَكُمْ) : لو ، بمعنى . أن . أى أن يضلوكم .

(وَمَايُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ) : الإضلال هنا بمعنى : الإهلاك مجازا . فالمعنى : وما يهلكون إلا أنفسهم بتمنى إضلالكم . أوبمعنى : الإخراج عن الهدى . فالمعنى : وماتعود عاقبة الإضلال إلا على أنفسهم . أو بمعنى : الخداع . فهم يخدعونكم ، ومايخدعون إلا أنفسهم فى الحقيقة .

(وَمَايَشْعُرُونَ) : ومايفطنون لذلك .

(وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ) : أى وأنتم تعلمون مايدل على صحتها من التوراة والإنجيل .

(لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ) : أى لماذا تسترونه أو تخلطونه به ؟ .

التفسير

٦٩ـ (وَدَّت طَّائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَايُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) :

سبب النزول :

دعا اليهود حذيفة وعمارا ومعاذا إلى اليهودية . فنزلت الآية .

وقيل : نزلت فى اليهود وفى النصارى ، وعلى كل ، فهى لبيان إضلالهم لغيرهم ، إثر بيان ضلالهم فى أنفسهم ، والإضلال هنا : بمعنى الرد إلى الكفر . كما قاله ابن عباس . أو الإهلاك : كما قاله ابن جرير الطبرى .

والمعنى : أحبت جماعة من أهل الكتاب أن يوقعوكم فى الضلال والكفر الذى تَرَدَّوْا فيه ـ بعد أن من الله عليكم بالهدى ، وشرفكم بالإسلام ـ وماتعود عاقبة الإضلال لغيرهم ووباله إلاعلى أنفسهم ، ومايفطنون لذلك ؛ لما اعترى قلوبهم من الغشاوة وزعمهم أنهم على الحق .

ويجوز أن يكون المعنى : أحبت طائفة من أهل الكتاب أن يهلكوكم : بالتكفير والإخراج عن الإيمان ، ومايهلكون إلا أنفسهم بما يفعلون . ومايفطنون لذلك ؛ لزعمهم أنهم على الحق .

وحاصل المعنى فى كليهما : أن محاولتهم إضلال المؤمنين غير مجدية . فقد عصمهم الله بقوة الإيمان . فلا فائدة ترجى مما يفعلون . بل الأمر بالعكس . فإن ما أرادوه سينقلب وباله عليهم وهم لايفطنون لذلك .

٧٠ـ (يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ) :

المعنى : يـٰأهل الكتاب ، لماذا تكفرون بآيات القرآن النازل من عند الله وأنتم تعلمون ـ من التوراة والإنجيل ـ مايدل على صحتها ، ووجوب الاعتراف بها ؟ أو : لماذا تكفرون بآيات التوراة والإنجيل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنتم تعلمون صدقها عليه ، وموافقة أوصافه لما جاء فيها ؟ أو : لماذا تكفرون بآيات الله الشاهدة بوحدانيته ، وأنتم تعلمون ذلك بلا شبهة ؛ فإنكم تشاهدون دلالتها على ذلك فى كل حين ؟ فكيف جعلتم له ولدا وهو غنى عن الولد ؟ وكيف قلتم إنه ثالث ثلاثة ؟! .

٧١ـ (يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

المعنى : يـٰأهل الكتاب ، لماذا تسترون الحق بالباطل أو تخلطونه به ، وذلك بتحريفكم آيات التوراة والإنجيل وسوء تأويلكم لها ؟ ولماذا تكتمون الحق فى شأن محمد وبشاراته الموجودة فى كتبكم ، وأنتم تعلمون أنه حق ، وأن ماجاء به هو من عند الله تعالى ؟ .

(وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾) .

المفردات :

(وَجْهَ النَّهَارِ) : أوله سمى وجها ؛ لأنه أول مايواجهك منه .

(أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ) : أى كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم .

(أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ) : أى يحاجوكم به عند كتاب ربكم : بالتحاكم إليه .

التفسير

٧٢ ـ (وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) :

سبب النزول :

قال الحسن والسدى : تواطأ اثنا عشر رجلا: من أحبار يهود خيبر وقرى عُرَيْنَة . وقال بعضهم لبعض : ادخلوا فى دين محمد أول النهار ـ باللسان دون الاعتقاد ـ واكفروا آخره ، وقولوا : إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذاك ، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه . فإذا فعلتم ذلك ، شك أصحابه فى دينهم. وقالوا : إنهم أهل كتاب . وهم أعلم به . فيرجعون عن دينهم إلى دينكم ... انتهى .

دبر اليهود هذه المكيدة : التى حكاها سبب النزول ، على عادتهم فى تدبير الكيد لمن عداهم . وأنت ترى أنها مكيدة خبيثة . ولكن الله يحفظ منها أولياءه ؛ فإنه سبحانه : « ... لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَآئِنِينَ »[1] « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »[2] فقد فضحهم المولى تبارك وتعالى . فأنزل هذه الآية تنبيها لرسوله وللمؤمنين . وحفظ الله الإسلام من هذه المكيدة الشنعاء : « يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ »[3] .

والمعنى : وقالت طائفة من أهل الكتاب ـ وهم أحبار اليهود ـ لآخرين من قومهم : آمِنُوا ظاهرا بالقرآن الذى أُنزل على المؤمنين أول النهار ، واكفروا آخره .. لعل هؤلاء

(١) يوسف : ٥٢ (٢) آل عمران : ٥٤ (٣) التوبة : ٣٢

المؤمنين يرجعون عن دينهم ، حين يرونكم - وأنتم أهل الكتاب - بعد أن خالطتم المؤمنين - كفرتم به ، ودرستم دينهم - وإنما قالوا : (آمِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) مع أنهم لا يعترفون بأنه أنزل عليهم من الله شيء - من باب المجاراة لما يقوله المؤمنون .

٧٣ - (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) :

أشارت الآية السابقة ، إلى أن رؤساء اليهود ، قالوا لأتباعهم: أظهروا الإيمان أول النهار بما أنزل على المسلمين ، واكفروا آخره ؛ ليرجعوا عن دينهم إذا رأوكم - وأنتم أهل الكتاب - رجعتم عنه وكفرتم به . وإتماما لهذه المؤامرة الشيطانية : أوصوا هؤلاء الأتباع ألا يطلعوا المسلمين على شيء من أسرار كتابهم : كالبشارة بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام وأماراته .. فقالوا لهم :

(وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ) :

من معانى الإيمان فى اللغة : الثقة والطمأنينة . وهو المراد من قولهم: (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ) :

والمعنى : ولا تثقوا إلا بأبناء ملتكم من اليهود . ولا تطمئنوا إلا إليهم . فلا تذيعوا أسرارنا إلى المسلمين ؛ فإن ذلك يفسد علينا تدبيرنا ، ويجعلهم يتمسكون بدينهم أكثر مما هم متمسكون به ، ويجعلهم أيضا ، يحاجوننا بما تخبرونهم به .

وقد انتهى كلام اليهود عند قولهم : (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ) كما رجحه الفراء .

وبعد أن بين الله لرسوله مؤامرتهم هذه ، وفضحهم بهذا البيان أتبعه هذا التكليف :

(قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ) أى قل يا محمد . لهؤلاء المتآمرين ، توبيخا لهم : إن الهدى هدى الله . فلا يتوقف على إظهاركم ما عندكم من البشائر بنبوة محمد ، والعلامات الدالة عليه ، ولا يزيله كفركم آخر النهار بعد إيمانكم أوله ، فمن أراد الله هداه ، أقنعه

بما أيد به رسوله من الآيات البينات ، وأورثه الطمأنينة التامة فى قلبه ، وحفظه من كيد الكائدين ، وكشف له دسائسهم ومؤامراتهم .

وأما قوله تعالى : (أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ) فهو مما أمر الله رسوله أن يقوله لليهود .

وفى الكلام جملة مقدرة يقتضيها المقام . والتقدير : أتكيدون هذا الكيد كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو يحاجوكم به عند ربكم؟!

والمعنى على هذا : قل لهم يامحمد : إن الهدى هدى الله . أتفعلون ما تقدم من أمركم أتباعكم بالإيمان أول النهار والكفر آخره ، وألا يُذيعوا للمسلمين نعت محمد فى كتابكم ؛ كراهة أن يُعطَى أحدٌ مثل ما أُعطيتم من النبوة والكتاب ، أو أن يحاجوكم بما أوتيتم من كتاب عِندَ ربكم ، بأن يقولوا لكم :تعالَوْا نَحْتَكِمْ إلى الله تعالى بقراءة كتابه الذى أنزله على موسى ؛ ليظهر ما كتمتموه من نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليَعْلُوَ بذلك حقهم على باطلكم ، فقد جاءت فيه بشاراته فأخفيتموها حقدا وحسدا ؟! قل لهم يامحمد ، إن الفضل بيد الله : يمنحه من يشاء . فلماذا تحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وتخصون بنى إسرائيل وحدهم بفضله ، والله واسع الفضل فلا يضيق على أحد من أهل الاستحقاق ، بليغ العلم فهو أعلم حيث يجعل رسالته ؟ !

وقد حكت سورة البقرة عنهم مثل تلك المؤامرة. فقد زَجُّوا جماعة منهم لينافقوا بالإيمان ، وحذروهم من أن يخبروا المؤمنين بشىء من صفات الرسول فى التوراة ، حتى لايحاجوهم به ، فلما أخبروهم بها ، أنكروا عليهم مافعلوا ،وذلك ما حكاه الله فيها بقوله: « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »[1] .

ويرى بعض المفسرين : أن الآية ـ كلها ـ يمكن أن تكون خطابا من الله للمؤمنين على جهة التثبيت لقلوبهم وتنوير بصائرهم ، وحفظهم من تشكيك اليهود ، وتزويرهم فى دينهم .

---

(١) البقرة الآية : ٧٦ فارجع إلى تفسيرها إن شئت .

والمعنى: ولا تصدقوا -يا معشر المؤمنين- إلا من تبع دينكم . أما غيرهم فاحذروهم .

قل لهم يامحمد : إن الهدى هدى الله الذى أنزله على محمد . أما ما يقوله أعداءُ الإسلام فهو من تزويرهم ، فلا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الهدى والحق ولا أن يحاجوكم بما لديهم من دينهم عند ربكم. فلا قدرة لهم على ذلك. قل: إن الفضل بيد الله ... إلخ .

وفى الآية تفسيرات أخرى : لا تخلو من مآخذ - فلذا تركناها .

٧٤ - (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) :

يختص بنبوته من يشاءُ من أهل الجدارة والاستحقاق ، ويمنح فضله من هو جدير به . والله ذو الفضل العظيم . فلا يمنعه عن أهل الفضل ومستحقيه .

(وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾) .

المفردات :

(بِقِنطَارٍ) : المراد به هنا ، المال الكثير. وقد تقدم الكلام عليه فى قوله تعالى: « وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ »[1] .

(بِدِينَارٍ) : هو عملة ذهبية مستعملة فى الجاهلية والإسلام .

(١) آل عمران : ١٤

(لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) : يعنون بالأميين : العرب ؛ لجهلهم وقتئذ بالكتابة والقراءة : ومعنى كلامهم : ليس علينا فيما نأخذه من أموالهم مأخذ ولا حساب .

التفسير

٧٥ - (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) :

لا يزال الكلام موصولا فى أهل الكتاب ، وبيان أحوالهم . ففى هذه الآية : يبين الله أن أهل الكتاب لم يكونوا - فى المعاملة المالية مع العرب - على خلق واحد .

فمنهم أمناء يؤدون الحق إلى من استأمنهم عليه ولو كان مالا كثيرًا ، كعبد الله بن سلام ، استودعه عربى قرشى ألفًا ومائتى أوقية ذهبًا - حين كان ابن سلام على يهوديته - فلما طلبها القرشى ، أداها إليه كاملة .

ومنهم خَوَنَةٌ يجحدون أمانات العرب التى استأمنوهم عليها - ولو كانت مالا قليلا - ولا يؤدونها إلا بتكرار المواجهة والمطالبة . زاعمين : أن الله أحل لهم سلب أموال الأميين ؛ إذ يقولون :

(لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) : أى ليس علينا إثم فى أكل أموالهم . فلا حساب ولاعقاب من الله تعالى لهم . وهم - إذ يقولون هذا - يكذبون على الله تعالى ، عن عمد وعلم بأنهم كاذبون .

ومنْ هؤلاء - رجل اسمه فنحاص بن عازوراء استودعه قرشى آخر دينارًا فجحده .

وقد استفيد من الآية : أن الخيانة فى الأمانة من أخلاق هؤلاء ، ولهذا يجب أن يتنزه عنها المؤمنون : امتثالا للمنهج الكريم الذى أوجب الله علينا نهجه وسلوكه : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا . . . »[1]

فلا يحل لمسلم أن يخون أحدًا ولو خالفه فى الدين ..

---

(١) النساء : ٥٨

قال رجل لابن عباس : « إنا نصيب – فى العمد من أموال أهل الذمة – الدجاجة والشاة ، ونقول : ليس علينا فى ذلك بأس .. فقال له : هذا كما قال أهل الكتاب : (لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) ، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا عن طيب أنفسهم » . اه .

كما لا يصح لمسلم أيضًا : أن يتصف بالخيانة مع من خانه . قال صلى الله عليه وسلم : « أَدِّ الأَمانةَ إِلَى مَنِ ائتَمَنَكَ ، وَلَاتَخُنْ مَنْ خَانَكَ »[1] والله تعالى يقول : « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا »[2] .

قال القرطبى : فى الآية رد على الكفرة : الذين يُحَرِّمُونَ وَيُحَلِّلُونَ غير تحريم الله وتحليله ، ويجعلون ذلك من الشرع .

واستدل أبوحنيفة بالآية ، على ما ذهب إليه من مشروعية ملازمة الغريم بقوله تعالى :

(لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا) :

واعلم أن الآية جاءت مثالا للإنصاف . فلم ترم اليهود جميعًا بالخيانة . بل ذكرت أن فيهم بعض الأُمناء ؛ إحقاقًا للحق .

٧٦ – (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) :

هذه الآية ردٌّ لقولهم : (لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) وإيجاب للوفاء بالحقوق ، وبيان لمحبة الله لأهل الوفاء .

والمعنى : بلى .. عليهم سبيل ومؤاخذة فى عدم رد الأمانات إلى أهلها : من أوفى بعهده فأدى الحقوق لذويها ، واتقى الله فى أمره كله ، فلم يخن الأمانة ، ولم يكذب على الله . ولم يفعل سوءًا – فإن الله يحبهم لتقواهم ووفائهم ، ويترتب على حبه لهم ، منحهم أجزل الثواب .

---

(١) رواه البخارى فى التاريخ . كما رواه أبوداود والترمذى والحاكم والطبرانى .

(٢) المائدة : ٨

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾) .

المفردات :

(يَشْتَرُونَ) : يستبدلون .

(بِعَهْدِ اللهِ) : بأمر الله المؤكد.

(ثَمَنًا قَلِيلًا) : عوضًا قليلا .

(لَا خَلَاقَ لَهُمْ) : لا نصيب لهم .

(وَلَا يُزَكِّيهِمْ) : ولا يطهرهم .

التفسير

٧٧ـ (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ . . .) الآية .

سبب النزول :

ذكرت لهذه الآية أسباب نزول عديدة .

نذكر منها : ما أخرجه أصحاب الكتب الستة وغيرهم ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها حقَّ امرىءٍ مسلم لَقِيَ الله وهو عليه غضبان » . فقال الأشعث بن قيس : فِىَّ والله كان ذلك . كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى ، فقدمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَلَكَ بَيِّنَةٌ ؟ قلت : لا . فقال لليهودى : احلِف . فقلت : يا رسول الله ، إذ يحلف فيذهب مالى . فأنزل الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ . . .) الآية .

وما أخرجه ابن جرير ، عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية فى أبى رافع ولبابة بن أبى الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وحيى بن الأخطب : حرّفوا التوراة ، وبدّلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكم الأمانات وغيرهما ، وأخذوا على ذلك الرشوة .

والمعنى : إن الذين يستبدلون بما عاهدهم الله عليه ، من بيان نعت محمد وعدم كتمانه ، ويعتاضون عن أيمانهم الكاذبة الفاجرة ، بالأثمان القليلة من أعراض الدنيا الزائلة — مهما عظمت — أولئك لا نصيب لهم فى ثواب الآخرة ، ولا حَظَّ لهم فى نعيمها .

(وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ) : كلامًا فيه لطف بهم .

(وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) : بعين رحمته تعالى .

(وَلَا يُزَكِّيهِمْ) : أى لا يطهرهم من دنس الذنوب بالمغفرة . بل يأمر بهم إلى النار . ولهم عذاب أليم على الكتمان ، واستبدالهم عهد الله ، والحلف زورًا ، واستحلالهم أخذ المقابل على التزوير .

قال القرطبى : وقد دلت هذه الآية والأحاديث على أن حكم الحاكم لا يحل المال فى الباطن بقضاء الظاهر ، إذا علم المحكوم له بطلانه .

وفى الحديث الصحيح عن أم سلمة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم تختصمون إلىَّ ، وإنما أنا بشر ، ولَعَلَّ بعضَكُم أن يكونَ أَلْحَنَ بحجتِهِ مِن بَعْضٍ ، فَأَقْضِيَ له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هى قطعة من النار .. فليأخذها أو ليتركها »[1] .

---

(١) رواه الشيخان وأحمد .

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾) .

المفردات :

(يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ) : يميلونها بالكتاب؛ عدولا به عن الحق تحريفًا أو تأويلا . واللَّيُّ : الميل . يقال : لوى برأسه إذ أماله . والكتاب : التوراة والإنجيل .

التفسير

٧٨ - (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) :

روى الضحاك عن ابن عباس : أن الآية نزلت فى اليهود والنصارى جميعًا . وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل ، وألحقوا بكتاب الله تعالى ، ما ليس منه .

والمعنى : وإن من أهل الكتاب الخائنين ، جماعةً من علمائهم : يحرفون كلام الله ، ويميلون به عن القصد؛ لتظنوا - أيها المسلمون - حينما تسمعونهم : أن ما حرفوه هو من صميم كتابهم الذى أنزله الله على رسولهم . وما هو - فى الحقيقة - من الكتاب ، بل من كلامهم . ويؤكدون نسبته إلى الكتاب بقولهم : هو من عند الله ، وما هو من عند الله . بل من عند أنفسهم . ويقولون على الله الكذب بنسبته إليه ، وهم يعلمون أنهم عليه - سبحانه - يكذبون .

وكما وقع التحريف فى القراءة ، وقع فى تأويل النصوص فى الكتابة .

ولهذا ترى التناقض والتكاذب والتهافت بين نسخها . .

فمن يقرأ الأناجيل الأربعة ، يجد الاختلاف بينها واسع النطاق . وبخاصة : فيما تورده عن صلب المسيح عليه السلام [1] ، وكذلك التوراة !!

(١) انظر إنجيل متى : إصحاح ٢٧/٢٢ - ٢٤ ، وإنجيل يوحنا : الإصحاح ١٩/١ - ١٢

وأما احتجاج الرسول بقوله : « فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ »[1] . فيحمل على أن الرسول كان يعلم ببقاء بعض ما يفى بالغرض سالماً عن التغيير . فإنهم لم يغيروا جميع ما فى التوراة : إما لجهلهم بدلالة ما بقى على المقصود ، أو لصرف الله إياهم عن تغييره .

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾) .

المفردات :

(وَالْحُكْمَ) : أى الحكمة . وهى إصابة الحق .

(رَبَّانِيِّينَ) : منسوبين إلى الرب سبحانه . والألف والنون يُزادان للمبالغة كثيرًا كَلِحْيانِىٍّ لعظيم اللحية ، وَرَقَبَانِىٍّ لغليظ الرقبة . والمراد من الربانى : العالم الفقيه ، الراسخ فى علوم الدين . وقيل : الحكيم التقى .

(بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) : منقادون مستعدون للدين الحق .

التفسير

٧٩ - (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) :

(١) آل عمران الآية : ٩٣

لا يزال الكلام متصلا مع وفد نجران ، فإنه روى : أن السورة ـ كلها ـ إلى قوله : «وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ . . .» نزلت بسببهم .. ذكره القرطبي .

وَرَوَى ابن اسحق وغيره ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال أبو رافع القُرظى ـ حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الإسلام ـ أتريد يا محمد ، أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانى يقال له : الرئيس : أوذاك تريد منا يا محمد ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نـأمر بعبادة غيره . ما بذلك بعثنى ، وما بذلك أمرنى» فأنزل الله تعالى الآية .

وأخرج ابن أبى حاتم قال : كان ناس من يهود : يتعبدون الناس ـ من دون ربهم ـ بتحريفهم كتاب الله عن موضعه . فقال : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ . . .) الآية .

وأيا كان سبب النزول ، فمعنى الآية : ما صح وما استقام لِبَشر اصطفاه ربه لتبليغ الرسالة إلى خلقه ، وأعطاه الكتاب الذى يرشد الناس إلى عبادة ربهم ، وأعطاه الحكمة ـ أى حسن التصرف فى الأمور ـ وأعطاه النبوة العاصمة من الخطأ ، ثم يتنكر لربه الذى اختاره لهداية خلقه فيقول للناس : كونوا عبادًا لى إشراكًا مع الله أو إفرادًا : متجاوزين توحيد الله إلى ما طلبته منكم . ولكن يقول لهم : كونوا علماء عاملين ، كاملين فى العلم والعمل ؛ لأنكم تعلمون الناس الكتاب وتدرسونه . فأولى بكم أن تتبعوه ولا تحيدوا عنه .

والتعبير بلفظ (ثم) لاستبعاد حصول ذلك القول من الرسول .

وإذا كان لا يصح لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة : أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه ، فلا يصح له أن يدعوهم إلى عبادة غيره من باب أولى .

وبهذه الآية حصل الرد البليغ من الله تعالى على النصارى الذين ألّهوا المسيح وعبدوه ، وعلى اليهود الذين ألّهوا عزيرًا وقدسوه ، وعلى من زعم أن محمدًا عليه الصلاة والسلام ،

يقصد بنبوته : أن يدعو الناس إلى عبادته ، وعلى الأحبار الذين يتعبدون الناس من دون ربهم : بتحريفهم كتاب الله عن موضعه لمصلحتهم .

وخلاصة الرد : أن رُسُلَ الله برآءٌ مما يصنعه أتباعهم . فإنه لايعقل أن يأمروهم بهذا الكفر . وذلك هو ما يقوله عيسى عليه السلام ، لربه لما يسأله : « أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ » إذ أجاب : « سُبْحَانَكَ مَايَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِى بِحَقٍّ » ثم قال : « مَاقُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ »[1] .

والآية توجب على أهل العلم أن يقرنوه بالعمل ؛ حتى لاتَزِلَّ قدم بعد ثبوتها .

٨٠ - (وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا . . .) الآية .

(وَلَا يَأْمُرَكُمْ) : بالنصب ، معطوف على « يَقُولَ » فى الآية السابقة ، داخل معه فى حيز ما لا يجوز على الرسل .

والمعنى : ماكان لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس كونوا عبادًا لِى من دون الله ، ولا أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا .. أيليق به – وهو رسول الله – أن يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مخلصون منقادون لربكم !!

ومن قرأ : (وَلَا يَأْمُرُكُمْ) بالرفع ، فعلى الاستئناف .

والمقصود من القراءتين واحد . وهو استحالة حدوث ذلك من الرسول .

وإذا كان سبب النزول وفد نجران ، فلا إشكال فى قوله تعالى لهم : (بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) فإن الإسلام يراد منه حينئذ ، الاستعداد للدين الحق ، إرخاءً للعنان ومجاراة لهم .

---

(١) المائدة : ١١٦ ، ١١٧

وقيل: إن سبب نزول الآيتين ؛ ما أخرجه عبد بن حميد عن الحسن قال : بلغني أن رجلا قال : يارسول الله ، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ؟ أفلا نسجد لك ؟ قال : « لا . ولكن أكرموا نبيكم ، واعرفوا الحق لأهله . فإنه لاينبغي أن يُسْجَدَ لأحد من دون الله تعالى » . وعلى هذا ، فالإسلام على ظاهره .

(وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾) .

المفردات :

(مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ) : الميثاق ؛ العهد الموثق المؤكد .

(لَمَآ آتَيْتُكُمْ) : اللام موطئة للقسم . وما : بمعنى الذى . كما نقله سيبويه عن الخليل . أى للذى آتيتكموه . وقيل : إن ما شرطية بمعنى إن . وهو الظاهر .

(وَحِكْمَةٍ) : أى نبوة . سميت حكمة ؛ لأنها منبعها .

(إِصْرِى) : عهدى وميثاق .

التفسير

٨١ - (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ . . .) الآية .

واذكر يامحمد ، لأهل الكتاب ، كيف أخذ الله العهد على النبيين جميعًا : لئن آتيتكم من كتاب تبلغونه لأممكم ، وحكمة - أى نبوة ورسالة إليهم - ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتصدقُنّ بأنه مرسل من عندى إلى الناس ، ولتنصرنه بالتبشير به ، وحض أممكم على أن تؤمن به ، إذا بُعِث إليهم ، وتنصره وتؤيده فيما جاء به ؟

قال تعالى لهم بعد أخذ الميثاق عليهم : هل أقررتم بالإيمان به ونصرته وأخذتم على ذلكم عهدى وقبلتموه لتنفذوه وتعملوا به؟ . قالوا : أقررنا ووافقنا. قال الله تعالى : فليشهد بعضكم على بعض بهذا الإقرار ، وأنا معكم من الشاهدين على إقراركم ، وشهادة بعضكم على بعض .

والمراد من الرسول الذى يجيئهم مصدقا لما معهم : كل رسول يعاصرهم أو يأتى بعدهم . فالآية الكريمة ، تفيد : أن الله تعالى ، أخذ الميثاق على الأنبياء : أن يصدق بعضهم بعضا ويؤيده ولا يعارضه ، ويوصى باتباعه . فإن دين الجميع واحد . قال صلى الله عليه وسلم : « الأَنْبِيَاءُ بَنُو عَلَّاتٍ[1] أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ » .

وبعموم الرسول ، أخذ سعيد بن جبير وقتادة وطاووس والسدى والحسن . وهو ظاهر الآية . قال طاووس : أخذ الله ميثاق الأوّل من الأنبياء : أن يؤمن بما جاء به الآخر .

ومن العلماء من قال : المراد من الرسول ، هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الأرجح ، وبه قال الإمام على رضى الله عنه .

فقد أخرج عنه ابن جرير قال : « لم يبعث الله تعالى نبيا ، آدم فمن بعده ، إلا أخذ عليه العهد فى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : لئن بعث - وهو حى - ليؤمن به ولينصرنه . ويأمره فيأخذ العهد على قومه » ثم تلا الآية .

وسواء أكانت الآية عامة فى تأييد جميع الرسل بعضهم لبعض ، وحث أممهم على اتباعهم ، أم خاصة بتأييدهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ونصرته بحَثّ أممهم على تأييده إن بعث - فالغرض من الآية : أن محمدا صلى الله عليه وسلم وقد أيده الله بالمعجزات المحققة لرسالته ، وجاء مصدقا لما مع الأنبياء قبله ، فهو مؤيد من المرسلين قبله. وأن على أهل الكتاب المعاصرين له : أن يؤمنوا به ؛ امتثالا لما جاء عنه فى كتب رسلهم . فإن كتب المرسلين توصى بالإيمان بكل رسول .

---

(١) أى بنو ضرات . رواه الشيخان من حديث أوله : « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم ... » .

والقرآن الكريم جرى على هذا النهج قال تعالى : « قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »[1] .

٨٢ـ (فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

أى فمن أعرض عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذا الميثاق والإقرار والشهادة ـ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الخارجون فى الكفر إلى أفحش مراتبه : المستحقون لأشد العقاب .

ولما كان دين الأنبياء واحدا ، ودين محمد هو دين الأنبياء جميعا ـ أتبع هذا التهديد قوله :

(أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾) .

المفردات :

(أَسْلَمَ) : دان بالإسلام . أو انقاد وخضع .

(وَالْأَسْبَاطِ) : الأسباط ؛ الحفدة . والمراد بهم هنا : ذرية يعقوب عليه السلام . فهم حفدة لأبيه إسحاق وجده إبراهيم .

(وَمَن يَبْتَغِ) : ومن يطلب .

(١) البقرة : ١٣٦

التفسير

٨٣- (أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) :

سبب النزول :

ذكر الواحدى فى سبب النزول ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن أهل الكتابين اختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام : كل فرقة زعمت أنها أولى بدينه . فقال صلى الله عليه وسلم : «كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم» فغضبوا . وقالوا : والله مانرضى بقضائك ، ولا نأخذ بدينك . فأنزل الله هذه الآية .

وعلى أى حال كان سبب النزول ، فالكلام - فى هذه الآية - مع أهل الكتاب الذين استمسكوا بدينهم ، ونازعوا فى الإسلام ، وأعرضوا عنه . . فبعد أن أخبرهم الله تعالى ، أنه أوصى الأنبياء بتأييده ونصرته ، وأنذر من تولى عنه ، ووبخهم الله على إعراضهم ، وأنكره عليهم - قال مامعناه :

أيتولى هؤلاء عن الإسلام إلى أديانهم المحرفة المنسوخة ، فيبغون بذلك دينا غير دين الله !! كيف يطلبون غير دينه سبحانه وتعالى ، وقد استسلم وخضع له من فى السموات والأرض طائعين وكارهين ! فمشيئة الله نافذة فيهم ، وقَدَرُهُ جارٍ عليهم ، أحبوا ذلك أم كرهوا . فالصحيح مستسلم لقدر الله ، محبٌّ لما وهبه الله من صحة . والعليل منقاد لقدر الله بمرضه طوعا أوكرها .. وهكذا كل أقدار الله تجرى فى خلقه ، فيخضعون لها ، وإن جرت على غير مايحبون ويشتهون . فما شاءه الله كان ، وما لم يشأه لم يكن . فكيف يتمرد أهل الكتاب على دين هذا الإله القوى الفعال ، ويكفرون به ، مع أنهم إليه يرجعون مقهورين ، فيحاسبهم على طغيانهم وكفرهم !

ويحتمل أن يكون المراد به : مايشمل العقلاء وغيرهم ، ويكون المعنى : ولمشيئته تعالى ، خضع وانقاد جميع الكائنات فى السموات والأرض : طائعة أو مسخرة . كما فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ . . . »[1] الآية .

٨٤ - (قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) :

لَمَّا بين الله تعالى : أنه أخذ الميثاق على كل نبى : أن يؤمن بغيره من الأنبياء ، وأنه لايصح لأهل الكتاب أن يكفروا بدين الله الذى أنزله على محمد - وهو ممن أخذ الله الميثاق على الإيمان بهم وبدينهم - لَمَّا بين الله هذا كله - أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، أن يؤمن بمن سبقه من الأنبياء ، وألا يفرق فى الإيمان بين أحد من رسله ؛ ليكون فى الإيمان بهم ، كما كانوا فى شأن إخوانهم الأنبياء ، وهو خاتمهم .

والمعنى : قل يا محمد ، معبرا عن نفسك ، وعن المؤمنين : آمنا بالله تعالى ، وبما أنزل علينا من القرآن العظيم ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأنبياء من أبنائه الأسباط ، من كتب . وما أوتى موسى وعيسى من التوراة والإنجيل ، وما أعطى سائر الأنبياء من ربهم من مختلف الكتب : لانفرق بينهم ، فلا نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض كما فعل اليهود ، إذ كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام ، وكما فعل النصارى إذ كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونحن له منقادون : نطيعه فيما أمرنا به ، وننتهى عما نهانا عنه .

٨٥ - (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) :

ومن يطلب دينا غير دين الإسلام يتدين به : عقيدة وعملا ، فلن يقبله الله منه ؛ لأنه غير ماشرعه الله لخلقه . وإذا كان الله لايقبل دينا غير الإسلام - فكل من دان بغيره ، يكون فى الآخرة من الخاسرين ؛ لأنه محروم الثواب ، خالد فى العقاب .

---

(١) الحج : ١٨

روى أحمد فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ، لو أصبح فيكم موسى بن عمران ، ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم » .

وروى أبو يعلى ، والبزار ، وأورده ابن كثير : « لو كان موسى حيا بين أظهركم ماحل له إلا اتباعى » وفى رواية : « لو كان موسى وعيسى حَيَّيْنِ لما وسعهما إلا اتباعى » .

(كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾) .

المفردات :

(لَعْنَةَ اللهِ) : أى الطرد من رحمته .

(وَلَاهُمْ يُنظَرُونَ) : أى ولاهم يمهلون . فعذابهم موصول مستمر . أوْ لا يُنظَر إليهم ، ولايعتد بهم .

التفسير

٨٦ - (كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

سبب النزول :

أخرج عبد بن حميد وغيره ، عن الحسن : أنهم - أى أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى - رأوا نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، فى كتابهم ، وأقروا وشهدوا أنه حق . فلما بعث من غيرهم ، حسدوا العرب على ذلك . فأنكروه . وكفروا بعد إقرارهم .

والمعنى : أى سبيل لأن يهدى الله قوما كفروا بمحمد ، بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ؛ امتثالا لما جاء فى كتبهم ، وعلموا أن الرسول محمدا حق حينما رأوه - بعد مبعثه - مطابقا لما جاء عنه فى كتبهم ، وجاءتهم الآيات الواضحات والمعجزات الشاهدات بصدقه !! والله لايهدى القوم الظالمين لأنفسهم بكفرهم ، ماداموا مُصِرِّين على عنادهم وحسدهم للرسول ، على ما آتاه الله من فضله .

٨٧ ، ٨٨ - (أُولَـٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا لَايُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَاهُمْ يُنظَرُونَ) :

بعد أن بين الله شناعة الكفر بعد الإيمان ، ووضح أن شريعة الرسول حق بما أيده الله به من الآيات ، أتبعه عقاب أولئك الكافرين . وذكر أنَّ : أولئك الذين كفروا - بعد ماجاءهم الرسول مؤيدا بالآيات والمعجزات بعد ماعقدوا العزم على الإيمان به حين يبعث - يلعنهم الله ، ويطردهم من رحمته ، وتلعنهم الملائكة ، وتطلب لهم الطرد من رحمة الله ، ويلعنهم الناس أجمعون ، من أهل الإيمان أتباع الحق ، خالدين فى اللعنة - أو فى جهنم - التى هى مقر الملعونين : لايخفف عنهم عذاب الله ، ولاهم يمهلون بأن يؤخر عنهم العذاب من وقت لآخر ، بل العذاب موصول مستمر .

ويجوز أن يكون معنى : (وَلَاهُمْ يُنظَرُونَ) ولا ينظر الله إليهم نظر رحمة ، ولا يعتد بهم . فهم مهملون متروكون فى عذابهم .

وهذه الآية وما قبلها وما بعدها إلى قوله تعالى : (وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) - وإن نزلت فى أهل الكتاب الذين جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد مبعثه ، مع أنهم كانوا مجمعين على الإيمان به حين يبعث - لكنها عامة الحكم فى كل من يكفر بعد الإيمان ، فتشمل المرتدين بعد الإسلام .

٨٩- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ :

يعنى : أن من تابوا من بعد كفرهم ، وأصلحوا ما أفسدوه بالندم والإقبال على الطاعة بعد الإدبار عنها ، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ؛ لأن الله عظيم الغفران ، بليغ الرحمة ، وذلك من عظيم كرمه ، ووافر رحمته .

وقيل : معنى أصلحوا : دخلوا فى الصلاح . كما يقال : أصبحوا : دخلوا فى الصباح . وعلى هذا يكون الفعل لازما غير متعد ، بخلافه على المعنى السابق فهو متعد .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ .

المفردات :

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ : الذين أخطأوا طريق النجاة .

﴿وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ : معطوف على شرط مقدر يقتضيه المقام . والتقدير : لوأنفقه فيما يراه خيرا فى الدنيا ولوافتدى به فى الآخرة .

﴿لَن تَنَالُوا﴾ : لن تُصيبوا ولن تدركوا .

﴿الْبِرَّ﴾ : الخير والإحسان .

﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ : بعض ماتحبون فلا ينفقونه كله .

التفسير

٩٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ :

سبب النزول :

لايزال الكلام موصولا فى أهل الكتاب .

فقد نزلت هذه الآية فى اليهود ،كما قال قتادة وعطاء والحسن - واختاره الطبرى - كفروا بعيسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد والقرآن وبالذنوب التى اكتسبوها .

أو نزلت فى اليهود والنصارى ، كما قال أبو العالية : كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بعد إيمانهم بنَعْتِه وصفتِه . ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم .

وسَواء أكان سبب النزول ، اليهودَ وحدهم أم اليهود مع النصارى ، فالآية - بعمومها - تشمل كل من كفر بعد إيمان . فيدخل فى حكمها : من ارتد عن الإسلام .

والمعنى : إن الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما يجب الإيمان به بعد ماكانوا مؤمنين ، ثم ازدادوا كفرا بتماديهم فى الكفر والمعاصى - لن يقبل الله توبتهم إن تابوا بعد فوات الأوان . وذلك حين يحضرهم الموت . ﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ : عن طريق الحق ، المخطئون سبيل النجاة .

فإن قيل : إن قبول التوبة مطلق فى قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ... »[1] فكيف قيد قبولها هنا بكونها قبل حضور الموت ؟

قلنا : إن ذلك راجع إلى تقييدها بذلك فى قوله تعالى : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ... »[2] وقوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لم يُغَرْغِرْ »[3] .

(١) الشورى : ٢٥ (٢) النساء : ١٨ (٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه .

٩١- (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ . . .) الآية .

المعنى : إن الذين كفروا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وماتوا وهم كفار دون أن توقظهم الآيات ، وتلفتهم النذر ، فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا لو أنفقه -قبل أن يموت -فى المبرات والخيرات . وكذا لو افتدى به يوم القيامة . لوفرض أن له مالا يومئذ وأن الفداء بالمال ينفع .. قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَاتُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[1] .

والغرض من قوله تعالى : (وَلَوِ افْتَدَى بِهِ) تعميق اليأس فى نفوس الكافرين المصرين على كفرهم ؛ حتى يعلموا أنهم لانجاة لهم بغير الإيمان .

(أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) :

أولئك المصرون على الكفر حتى ماتوا ، لهم عذاب شديد الإيلام . ومالهم من ناصرين ينقذونهم من ذلك الجزاء الخالد .

٩٢- (لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) :

هذا كلام مستأنف ؛ لبيان ماينفع المؤمنين ويقبل منهم ، إثر بيان مالا ينفع الكفار ولايقبل منهم .

المعنى : اختلف فى تفسير البِرّ الوارد فى الآية . فابن عباس وابن مسعود وغيرهما ، فسروه بالجنة .

وقيل : هو العمل الصالح . فقد جاء فى الحديث الصحيح : «عَلَيْكُم بالصِّدْق ، فإنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ . وإنَّ البِرَّ يهدى إلى الجنة . . » رواه مسلم والبخارى وأحمد والترمذى . وقيل غير ذلك ، مما يدور حول هذين المعنيين .

---

(١) المائدة : ٣٦

والأنسب تعميمه فى كل خير وإحسان فى الدنيا والآخرة : يمنحه الله تعالى لعباده[١] .

والمراد من الإنفاق : ما يشمل الزكاة ، وصدقة التطوع ، والأوقاف الخيرية ، والهبات ، وسائر وجوه الإنفاق فى سبيل الله .

ومعنى الآية : لن تدركوا برِّىَ الوافر ، وتصيبوا إحسانىَ الغزير فى الدنيا والآخرة - حتى تنفقوا - فى وجوه الخير التى شرعتها لكم - بعض ماتحبون من الأموال المكسوبة من وجوه الحل . فلا يقبل الله الإنفاق من كسب حرام . فهو ردٌّ على مُنفِقه . ولا يعظم الله ثواب من أنفق مما لايحبه ولا تميل إليه نفسه من الأموال ، لقلة منفعته لآخذه . قال تعالى : « وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ »[٢] .

فالإنفاق : ينبغى أن يكون مما له أثر نافع عند من يأخذه ، فإنه يدل على وفرة الرغبة فى العطاء ، وشدة الإحساس بحاجة من ينفق عليه ، والرغبة فى تنفيس كربته ، ودفع حاجته .

والتعبير بقوله : (مِمَّا تُحِبُّونَ) يؤذن بمشروعية إنفاق البعض دون الكل .

ولشدة عناية المولى سبحانه ، باختيار مال النفقة من أحسن ماعند المنفق ، وأعظمه نفعا - ختم الآية بقوله :

(وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) :

يريد : وأى شىء تنفقونه - قلّ أو كثر - يعلمه الله ، فيثيبكم بحسن نياتكم ومقدار نفقاتكم وصفاتها .

وفى ذلك مافيه من الحث على إنفاق الجيد ، والتحذير من إنفاق الردىء .

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسارعون إلى ما يدعوهم إليه مولاهم على خير وجه . فما إن نزلت هذه الآية حتى بادر المياسير منهم إلى تنفيذها .

---

(١) راجع ما سبق فى تفسير قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ... » البقرة : ١٧٧

(٢) البقرة : ٢٦٧

يروى أصحاب الصحاح ـ واللفظ للنسائى عن أنس ـ قال : لما نزلت هذه الآية : (لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قال أبو طلحة : إن ربنا ليسألنا من أموالنا . فأشهدك يا رسول الله أنى جعلت أرضى لله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعلها فى قرابتك » فى حسان بن ثابت ، وأبى بن كعب » . وفى الموطأ « وكانت أحب أمواله إليه بيرحاء . وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله يدخلها ، ويشرب من ماء فيها طيب » وذكر الحديث : وجاء فيه أنه أرشده إلى أن يوصى بالثلث لابالكل . إذ قال له : « بالثلث ، والثلث كثير . إنك إن تذر ورثتك أغنياء ، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » .

وكذلك فعل زيد بن حارثة . فقد عمد إلى فرس يقال له : سَبَل . وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس لى مال أحب إلىَّ من فرسى هذه . فجاء بها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : هذه فى سبيل الله ، فأجابه الرسول « إن الله قد قبلها منك » .

وأعتق عُمَرُ نافعا مولاه . وكان عبد الله بن جعفر عرض عليه ألف دينار ثمنا له . وهكذا كانوا يفعلون .

فليتأس بهم مياسير المؤمنين ، فينفقوا فى سبيل الله مِمَّا يحبون ، لا مِمَّا يسترذلون .



الأزهر
مطبعة المصحف الشريف

